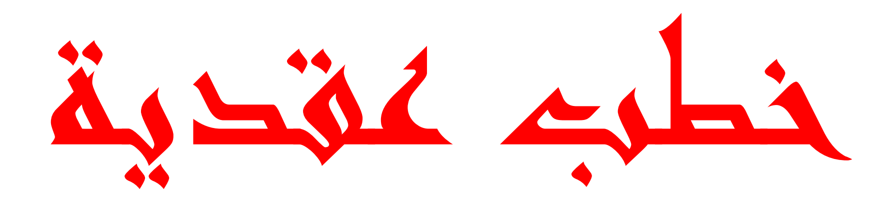
خطب عقدية

أحمد الجوهري عبد الجواد





" رحلة إيمانية في رياض كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب على هيئة خطب منبرية تجمع بساتين أبوابه الغناء وحدائق مسائله اليانعة، تقطف منها أشهى الثمار وتبعث خلالها أطيب العبير، موشحة بلطائف التفاسير، ورقائق الأحاديث، ورائق القصص، وعجائب الآثار، وبليغ المواعظ، وبديع المأثورات، ورائع الأشعار، وبدائع الخطباء، ونديّ المناجاة، يحتاج إليها كل خطيب صادق، وكل داعية غيور، وكل مدرس نصوح، وكل مسلم يلهبه الشوق أن يأتي يوم القيامة مفلحًا، فإن أساس ذلك الفلاح وقاعدته العلم بما في هذا الكتاب "

قدم لها وقرظها

صاحب الفضيلة الدكتور

زكي محمد أبو سريع

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية

جامعة الأزهر

صاحب الفضيلة الدكتور

جمال المراكبي

الرئيس العام

لجماعة

أنصار السنة المحمدية

الأستاذ الدكتور

مصطفى مراد

الأستاذ الثقافة الإسلامية

بكلية الدعوة الإسلامية

جامعة الأزهر

أشار بها ورشحها

فضيلة الشيخ/ إسلام بن شعبان دعدوشة

صنفها ووشحها

أحمد الجوهري

من الدستور الإلهي

قال الله العلي الكبير:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾

[النور: ٥٥، ٥٦]

تقريظ

صاحب الفضيلة الدكتور/ زكي محمد أبو سريع

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم النشور، وبعد:

فإن الله فضل محمدا على خلقه وفضل أمته على سائر الأمم ولا معقب لحكمه ولا راد لما قضاه (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ [القصص : ٦٨])،(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) [البروج : ١٦])

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) [الأنبياء : ٢٣]

بيد أن هذه الخيرية ليست على إطلاقها بل هي مقيدة بأركان إن تحققت كانت الأفضلية سائر أثرها إلى يوم التناد.. وإن لم تتحقق هذه الأركان تهاوت هذه الخيرية وأصبحت أثرا بعد عين: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) [الأحزاب : ٣٨])، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) [يوسف : ٢١]) وقد جمعت هذه الأركان في قول الله تبارك وتعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [آل عمران : ١١٠]).

وإذا كان المعصوم صلوات الله وسلامه عليه قد آتاه الله جوامع الكلم فإن الله جلت قدرته وإرادته ومحيط علما بكل شيء قد أنزل القرآن مشتملا على كل العلوم .

نرى ذلك في قول الله عز شأنه (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) [النحل : ٨٩]).

والأركان سالفة الذكر نجدها قد تضمنت – جميع شعب الإيمان .. ورسل الله وأنبياؤه –عليهم الصلاة والسلام – قد قاموا بواجب البلاغ والنصح خير قيام لا سيما أفضلهم وأعظمهم محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ».

وقد أوجب عليهم الإسلام القيام بما كلفوا وشرفوا بحمله فقال –صلى الله عليه وسلم– « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قُلْنَا لِمَنْ قَالَ « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ».

وكذا حذرهم من مغبة التقصير فقال جل وعلا (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩). وقوله صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء، ولتأطُرُنَّه على الحق أطرًا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، أو ليلعَنْكم كما لعنهم".

وهُوّة التقصير الواقعة في واد سحيق، ليست وليدة العصر، بل هي راجعة إلى قرون مضت!!! يقول صلى الله عليه وسلم: « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِىءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ ».

وَعَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « إِنَّ بَعْدِى مِنْ أُمَّتِى – أَوْ سَيَكُونُ بَعْدِى مِنْ أُمَّتِى – قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ فِيهِ هُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ». فإذا أرادت الأمة أن تنهض من كبوتها وتتخلص من عثرتها فعليها أن تقوم بأركان الخيرية، وأن تتبوأ مكانتها لتكون لها الريادة والصدارة كما كانت، إذا أرادت ذلك كله فلتعد إلى العمل بقول الله تبارك اسمه (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران : ١١٠]

ولقد سعدت أيما سعادة حينما طلب إلي الشيخ الشاب / أحمد الجوهري أن أقرأ كتابه الموسوم بـ "التوحيد أولا يا خطباء الإسلام" فألفيته كتابا غنيا في بابه، مغنيا عن كثير من الكتب في هذا الشأن، قوي الأسلوب، سلس العبارة، رياضه نضرة، عطره فواح، إيحاءاته متدفقة، متكاتف الصور والمعاني، ظلاله وارفة، ينعى على أهل العصر تقصيرهم بأدب جم، ولسان عفيف، وجانب لين، وخلق رفيع، فهو يذكرني بشباب الصحابة وشيوخ التابعين .. فلله دره من عالم!!!

أرجو أن يجري الله –جل وعلا – على يديه الخير الكثير..

هذا وقد أضاف الكتاب إلى المكتبة الدعوية جديدا قوي الأثر، ينبغي أن يحتذى ويستضاء به.

نسأل الله الحي القيوم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام أن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بأصوله، وأن يثقل به موازين مؤلفه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

العبد المفتقر إلى عفو مولاه المقتدر

زكي محمد أبو سريع

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر

تقريظ

بقلم صاحب الفضيلة أستاذنا الدكتور مصطفى مراد

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية – جامعة الأزهر

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد: فقد طالعت كتاب "التوحيد أولا يا خطباء الإسلام" للأخ الحبيب الخلوق الشيخ أحمد الجوهري فألفيته كتابا نافعا منتفعا راشدا مرشدا صالحا مصلحا هاديا مهديا ذاكرا مذكرا طيبا مطيبا.

لا غنى عنه للداعية المصلح ولا الواعظ الناصح ولا المسلم المنصوح ولا المربي المخلص ولا المعلم الصادق فقد ولى الكتاب وجهه شطر أهم جانب من جوانب الدين وأعظم علم من علومه وأجل باب من أبوابه وأسمى مقصد من مقاصده

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراجلا

وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

وخذ منهم زادا إليهم وسر على ... طريق الهدى والحب تصبح واصلا

وأحي بذكراهم شراك إذا دنت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا

وأما تخافن الكلال فقل لها ... أمامك ورد الوصل فابغي المناهلا

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة ... فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ... ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

فحي يا إخواني لمطالعة هذا الكتاب المفيد وقراءة مواضيعه ومعايشة غاياته.

أسأل الله تعالى أن يرزقني وإياكم الإيمان العميق والاتصال الوثيق بالله الرفيق.

أخوكم

الأستاذ الدكتور مصطفى مراد

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

جامعة الأزهر

تقريظ صاحب الفضيلة

الشيخ الدكتور/ جمال المراكبي

الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية

إنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدهُ ونَستعينُهُ ونستغفره، ونعوذ بالله مِنْ شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مِنْ يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضل لَهُ، وَمَنْ يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أَمَّا بَعْدُ: فالله سبحانه وتعالى هو العظيم جلت عظمته عن الوصف، ولا طريق لمعرفة الله والإقرار بعظمته وجلاله إلا بالنظر في آيات الله المتلوة والتدبر في معاني هذه الآيات، أو النظر في آيات الله الكونية والتأمل في عظيم صنع الله تعالى وقد حثنا القرآن الكريم على الأمرين فقال المولى تبارك وتعالى في آيات القرآن العظيم: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد : ٢٤]، وقال سبحانه: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) [ق : ٣٧].

وقال سبحانه في الحث على التفكر في آيات الكون: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١]، وقال: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الذاريات : ٢٠ ، ٢١]

ففي الأرض من الآيات الدالة على عظمة الخالق وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوان والجبال والقفار والأنهار والبحار وما دق وما عظم من المخلوقات ما يدل على عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه الذي تحار فيه العقول.

وما في السماء من آيات أعظم مما في الأرض فقد بناها الخلاق العظيم بقوته وأوسع خلقها وبغير عمد رفعها وأقامها وزينها بالنجوم والكواكب حتى إن الناظر إليها بأعظم وسائل التقنية من تلسكوب أو أقمار صناعية ليحار من عظمتها وسعتها (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [الذاريات : ٤٧]، وإذا كان العلماء قد استطاعوا تقدير المسافة بين الأرض وبين القمر وبين الأرض وبين الشمس مستخدمين في ذلك سرعة الضوء كوحدة للقياس فإنهم لا يزالون يعلنون عن عجزهم عن مجرد رؤية أبعاد السماء أو تصور سعتها، لهذا يعبرون عنها بأنها فضاء لا نهائي.

ومن الآيات القرآنية التي تثير في نفوس المؤمنين دلائل العظمة التي تليق بذي الجلال والإكرام آية الكرسي لذا وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها أعظم آية في كتاب الله عز وجل وكل القرآن عظيم.

ففي الصحيح عَنْ أُبَيٍّ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ: أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أُبَيٌّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قَالَ: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ".

وهذه الآية الكريمة تتكون من خمسين كلمة في عشر جمل، تضمنت التوحيد فإنها جمعت أصول الأسماء الحسنى والصفات العليا من التفرد بالإلهية والوحدانية، ومن كمال الحياة والعلم والقيومية والملك والقدرة والإرادة، فدلت على توحيد الإلهية في قوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) [البقرة : ٢٥٥].

ودلت على توحيد الربوبية في قوله تعالى: (الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، وفي قوله تعالى: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، ودلت على توحيد الأسماء والصفات بما ورد فيها من أسماء وصفات لله عز وجل تدل على كماله وجلاله وعظمته وقد ورد فيها اسم الله ما بين ظاهر ومضمر ثماني عشرة مرة، فالظاهر من الأسماء الحسنى في الآية الكريمة: الله الحي القيوم العلي العظيم، وباقي الأسماء وردت في صيغة الضمير.

ودلت على صفات الذات وصفات الفعل كالحي والقيوم، ودلت على صفات السلب – النفي – بمعنى نفي النقائص والعيوب عن الله عز وجل كما في قوله تعالى: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)، وفي قوله تعالى: (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)، كما دلت على الصفات الثبوتية التي تثبت لله كل كمال كما في قوله (الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، (الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، وأثبتت لله تعالى الملك والقدرة والقوة والإحاطة والعلم والعلو والعظمة ....إلخ.

وبين يديك – أيها القارئ الكريم!- كتاب **"التوحيد أولا يا خطباء الإسلام"** مضى فيه مؤلفه على خطى "كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد" ذلكم الكتاب الذي رزقه الله القبول في الدنيا بأسرها، وتأتي محاولة ابننا أحمد رامية إلى تعميم الفائدة من الكتاب على عامة الناس فقدمه لإخوانه الدعاة والمدرسين وطلاب العلم في صورة دعوية وعظية على هيئة خطب منبرية جامعا فيها الفوائد الدعوية والتربوية التي تناثرت خلال شروح كتاب التوحيد هنا وهناك، وقد وشحها بلطائف التفاسير، ورقائق الأحاديث، ورائق القصص، وعجائب الآثار، وبليغ المواعظ، وبديع المأثورات، ورائع الأشعار، وبدائع الخطباء، ونَديّ المناجاة.

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بأصله، وأن يجعله في ميزان حسنات مؤلفه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فيقول العبد المفتقر إلى عفو الله وغفرانه -كان الله تعالى له، وأحسن نيته وعمله، وأناله من الخير سؤله وأمله-:

إن من نافلة القول أن أقرر أن الله - تبارك وتعالى - قد فتح لكتاب التوحيد للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - طيب الله ثراه — القلوبَ، ورزقه في الدنيا كلها - شرقها وغربها - القبولَ.

ولقد قام العلماء - رحم الله من قضى منهم وحفظ من بقي — بشرح هذا الكتاب المبارك وتيسيره وتقريبه، وقد تم هذا الأمر - بلا مبالغة — عبر كل الأجيال التي عاصرت وتلت زمن تأليفه، حتى أربت شروحه على مئات الشروح، فاستفاد منه طلاب العلم والمعرفة في كل مكان، وعم به النفع والخير أرجاء الدنيا، إلا أن استفادة الطلاب منه كانت أوفر وأعظم وأبلغ، إن لم أقل: كانت حكرًا عليهم، لما قد اصطبغت به تلك الشروح من صبغة علمية تناسب المتلقين، ألا وهم طلاب العلم، ولما قد اعتنى العلماء بتدريسه في المعاهد والمحافل العلمية فجاءت شروحه بأسرها علمية بحتة، اللهم إلا في بعض المناسبات، وهي إن عدت قليلة، بل يقينا أقل من القليل، وقد كانت المكتبة الإسلامية ولا تزال بحاجة إلى خدمة هذا الكتاب المبارك في صورة دعوية وعظية منبرية ليستفيد منه عامة الناس، كما استفاد منه الطلاب، وقد رأيت الفوائد الدعوية والوعظية والتربوية لهذا الكتاب العظيمة فوائده الجليلة قلائده وفرائده، قد تناثرت خلال شروحه هنا وهناك، على قلتها في تلك الشروح، وكانت بحاجة إلى جمعها والتأليف بينها، واستخراج المزيد منها، فقمت بهذا العمل، ثم إني وشحتها بما وقفت عليه من لطائف التفاسير، ورقائق الأحاديث، ورائق القصص، وعجائب الآثار، وبليغ المواعظ، وبديع المأثورات، وروائع الأشعار، وبدائع الخطباء، ونَديّ المناجاة، آلفت بين هذا كله، في منظومة واحدة على هيئة خطبة منبرية لكل باب، تجمع مسائله وتضم مستفاداته، وقد بذلت جهدي أن تكون مادتها وقدر مدتها لا تحيد ولا تزيد إن شاء الله تعالى عن الخطبة المعتادة، هذا وقد استوعبت الخطب — بفضل الله تعالى - أبواب الكتاب كله، وقد راعيت - ما أمكنني - في توشيح الخطبة ما يلي:

- في الوصول إلى غرضها: تحقيق الغاية، ووضوح الهدف، ونفي الشبهات، في غير تعقيد، بل في رقة ويسر.

وفي لغتها: سهولةُ العبارة، وقِصر الجملة، ووضوح المعنى، في غير تبذل، بل في جزالة وبلاغة.

وفي جمع مادتها: التطريب، والتعجيب، والتغريب، في غير كذب على الشرع، بل بتوثيق واستناد.

وفي انتقاء شواهدها: صحة الدليل، وصدق النقل، ونسبة العلم إلى أهله ما أمكن المقام، في غير تقعر، بل في سهولة ولطف.

وفي اختيار اسمها: الجدة والطرافة والدقة، في غير سجع، بل على السجية والطبع.

وأخيرًا في طريقة إلقائها: تنويع العبارة، وترتيب الفكرة، والتكليف بعمل، في غير شطط، بل في اعتدال وتوسط.

والكتاب يحتاج إليه كل خطيب صادق، وكل داعية غيور، وكل مدرس نصوح، وكل مسلم يُلهبه الشوقُ أن يأتي يوم القيامة مفلحاً، فإن أساس ذلك الفلاح وقاعدته العلمُ بما في هذا الكتاب، فدونكم هو، ثم إني لا أدعي لي فيه فضلاً فالفضل كله إنما هو . والله . فضل الله ومنته.

ثم أما بعد!

فيعود الفضل في ترشيح فكرة هذا الكتاب والإشارة به عليّ، إلى شيخي المفضال فضيلة الشيخ إسلام بن شعبان دعدوشة الرجل الخلوق الطيب أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدًا، فجزاه الله عني وعن إخواني خيرًا.

وكتب حامدًا مصليًا

الفقير إلى عفو ربه

أحمد الجوهري

الإجازة العالية في الدعوة الإسلامية

والثقافة ومقارنة الأديان

للمهاتفة:- ٠١١١٠٤٦٠٩٣٠ /٠٢

تقسيم الكتاب على الأبواب

وقد قسمت الخطب على أبواب الكتاب على النحو التالي:

عنوان الخطبة	الباب
= الوصية الخالدة.	* كتاب التوحيد وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
= لا إله إلا الله طوق النجاة.	* باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب
= إلى الجنة بغير حساب	* باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب
= الهُوَّةُ الهاوية	* باب الخوف من الشرك
= عالمية التوحيد	* باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله
= علامات على الطريق = تساؤلات حول التوسل والوسيلة [١] = شبهات حول التوسل والوسيلة [٢]	* باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله
= غيوم في سماء العقيدة الصافية.	* باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.
= الرقي وأخواتها	* باب ما جاء في الرقى والتمائم
= التبرك بين المشروع والممنوع	* باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما
= لعن الله من ذبح لغير الله	* باب ما جاء في الذبح لغير الله * باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

= صناديق النذور بريئة.	* باب من الشرك النذر لغير الله
= استعيذوا بالله تعالى وحده	* باب من الشرك الاستعاذة بغير الله
= الاستغاثة والدعاء حق رب الأرض والسماء	* باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره
= عالم الملائكة، عالم العجائب	* باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.
= الشفاعة لمن؟	* باب الشفاعة
= نعمة الهداية	* باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾
= تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد	* باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده
= إياكم والغلو في الصالحين	• باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله • باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين
= أين أنتم يا حماة التوحيد؟	• باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان • باب ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، وسده طرق الشرك

= عالـم السحـر [١]، [٢].	• باب ما جاء في السحر • باب ما جاء في النشرة
= السحر الخفي	* باب بيان شيء من أنواع السحر
= ويسألونك عن الكهـان	* باب ما جاء في الكهان ونحوهم
= التشاؤم لا يأتي بخير	* باب ما جاء في التطير
= لا تصدقوه فإنه كذاب	* باب ما جاء في التنجيم
= الله خالق كل شيء	• بـاب قـول الله تعـالى: أَيُشْـرِكُونَ مَـا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ • باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء
= حياة القلوب في محبة علام الغيوب.	* باب قول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ)
= من تخاف؟	* باب قول الله تعالى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)
= وما لنا ألا نتوكل على الله؟	* باب قول الله تعالى: (وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)
= المسلم بين الأمن والقنوط.	* باب قول الله تعالى: (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)
= سفينة النجاة: "واصـــبر وما صبرك إلا بالله".	* باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله



= آكل الحسنات.	* باب ما جاء في الرياء * باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا
= صيحة نذير	* باب قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ)
= إنما الطاعة في المعروف.	* باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله
= أصناف الناس مع نعم الله	• باب قول الله تعالى: (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) • باب قول الله تعالى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي) • باب قول الله تعالى: (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا)
= الحياة الطيبة مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى	• باب قول الله تعالى: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ }. • باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات. • باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

= أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر [١]	• باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله • باب قول: ما شاء الله وشئت • باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت • باب من سب الدهر فقد آذى الله • باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه • باب ما جاء في الإقسام على الله • باب قول الله تعالى: (فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)
= أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر [٢]	• باب لا يقول: عبدي وأمتي • باب ما جاء في المصورين
= رسالة إلى الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعبا.	* باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول وقول الله تعالى: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [التوبة: ٦٥].
= إن الله هو السلام.	* باب لا يقال: السلام على الله
= الإيمان بالقدر	• باب ما جاء في [الـ] لو وقول الله تعالى: (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا) • باب ما جاء في منكري القدر
= لا تسبوا جنود الله	* باب النهي عن سب الريح



= واحفظوا أيمانكم	• باب لا يرد من سأل بالله • باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة • باب ما جاء في كثرة الحلف • باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه
= هل قدرنا الله حق قدره؟	• باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ • * باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الوصية الخالدة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

من أين أبدأ والمحامد كلها لك يا مهيمن يا مصوّرُ يا صمدْ

احترتُ في أبهى المعاني أن تفي بجلال قدرِك فاعتذرتُ ولم أزدْ

أما بعد: فيا أيها الإخوة

"التوحيد أولا"

سلسلة إيمانية، الهدف منها: تحقيق أول واجب أوجبه الله على عباده، ألا وهو التوحيد بإفراده سبحانه بجميع أنواع العبادة، نتحدث في هذه السلسلة الكريمة عن أعظم كلمة عرفها الوجود، وأفضل كلمة شهدتها الأسماع، وأشهى كلمة تذوقتها ورددتها الألسنة والأفواه، تلك هي كلمة الإخلاص والنجاة كلمة" لا إله إلا الله ".

فتعالوا بناَ . أيها الإخوة . لنطوف سويًّا في بستان التوحيد الماتع اليانع نأخذ من كل شجرة فيه غصناً، ومن كل غصن نقطف زهرة، نستمد منها عبيرها وطيبها العطر الجميل، خاصة وأن هذا العبير وذلكم الطيب مستمد من عبيرٍ وطيبٍ قال فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله"[(١)]

وهذا هو لقاؤنا الأول –أيها الإخوة– وهو بعنوان" **الوصية الخالدة** ".

وسننظم سلك هذا الموضوع العظيم الجليل في العناصر الأربعة التالية:

أولاً: لحظات ثمينة.

ثانياً: التوحيد أولاً.

ثالثا: فلنتعرف إلى التوحيد.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن (٥٠٤، ٩٥١)، والترمذي ٣٥٨٥، والطبراني في الدعاء (٨٧٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة ١٥٠٣.

رابعاً وأخيراً: كيف نحقق التوحيد في الواقع؟

أولاً: لحظات ثمينة: –أيها الإخوة– : إن أسعد فترات الحياة هي الفترات التي مرت على البشرية وهي على علاقة مباشرة واتصال لا ينقطع بالسماء، وهي تلكم الفترات التي عاش فيها أنبياء الله ورسله بين الناس، يبلغون عن الله رسالاته ويوصلون إلى خلقه أوامره ونواهيه، ولذلك بكى الفطناء الألباء الأذكياء لما انقطع هذا الاتصال بموت آخر الأنبياء، المصطفى صلى الله عليه وسلم، روى مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه . بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – لِعُمَرَ رضي الله عنهم انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ فَقَالاَ، لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟، مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ – صلى الله عليه وسلم –. فَقَالَتْ: مَا أَبْكِى أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ – صلى الله عليه وسلم – وَلَكِنْ أَبْكِى أَنَّ الْوَحْىَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا.(٢)

عاشت البشرية –أيها الإخوة– هذه الفترات تتربى على عين الله وتصنع بتوجيهه، يقوم بإرشادها إلى تنفيذ ذلك وتطبيقه خيرة خلق الله وصفوتهم، في قيادة حكيمة وريادة رشيدة، فعاشت البشرية في ظل ذلك أسعد فترات حياتها.

وإن أسعد هذه الفترات على الإطلاق لهي الفترة التي شهدت فيها الدنيا وسعدت فيها الحياة بأعظم من خلق الله وأفضل من اصطفاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي الفترة التي تقدر بعمر الزمن وتقدير الناس بثلاثة وعشرين عاما قضى النبي منها ثلاثة عشر في مكة المكرمة وعشرا في المدينة المعطرة (هذا بتقدير الزمان وأما بتقدير الحقيقة فليس لها حدود) عاش النبي صلى الله عليه وسلم، خلال هذه السنوات . طوال الأيام والليالي . يمشي على شوك الأسى، ويخطو على جمر الكيد والعنت، يتلمس الطريق لهداية الضالين وإرشاد الحائرين، حتى علم الجاهل وقوم المعوج ونشر أضواء الحق والتوحيد والإيمان على الدنيا كلها، كما تنشر الشمس أشعتها على الدنيا فتغمر الأكوان بضيائها.

عَمَّر النبي صلى الله عليه وسلم الحياة وأضاء الدنيا وأنارها يوم دعا الناس إلى نبذ الشرك والتمسك بالتوحيد، وترك الآلهة الكثيرة والاستمساك بعبادة العزيز الحميد، وصدع فيهم بقولة الحق في صيحته الخالدة: "يا أيها الناس: قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا". (٣)

ومما زادني شرفاً وعزًّا وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن أرسلت أحمد لي نبيا

---

(٢) أخرجه مسلم ٦٤٧٢.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٠٦٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٢: رجاله رجال الصحيح. اهـ، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن عبد الرحمن بن أبي الزناد ينزل عن رتبة الصحيح وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

عاش النبي صلى الله عليه وسلم - أيها الإخوة - حياته كلها يعلم الناس معنى هذه الكلمة، وطريقة العمل بها، ووجوب الدعوة إليها والسعي لتبليغها، والحرص على أداء مقتضياتها.

حتى بدت في الأفق خاتمة هذه الدنيا الطيبة، ولاحت من بعيد طلائع التوديع لهذا العمر المبارك، وبدأت الأيام الأخيرة في حياة -المصطفى صلى الله عليه وسلم- العد التنازلي.

يوم تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على الموقف، ساعتها أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره - صلى الله عليه وسلم- وتتضح بعباراته وأفعاله وأحوله:

فها هو قد أنزلت عليه سورة النصر: بسم الله الرحمن الرحيم إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

وها هو يعتكف في رمضان من السنة العاشرة، عشرين يوماً، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب قبل هذا، وتدارسه جبريل في رمضان الأخير القرآن الكريم مرتين، بينما كان لا يدارسه كل رمضان سبق إلا مرة واحدة. [٤]

فعرف أنه الوداع وأنه نعيت إليه نفسه وأوحى بذلك إلى الناس في إشارات كثيرة

فقال في حجة الوداع: "إني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً"[٥]

وقال -وهو عند جمرة العقبة: "لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ".[٦]
وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي - صلى الله عليه وسلم- إلى أحد فصلى على الشهداء كالمودع للأموات والأحياء، ثم انصرف إلى المنبر فقال: "إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني - والله - لأنظر إلى حوضي الآن". [٧]

وبالفعل - أيها الإخوة - في اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ - وكان يوم الاثنين - شهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم- جنازة في البقيع، فلما رجع وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت حرارته حتى إنهم كانوا يجدون سورتها وأثرها فوق العصابة التي تُعصَّب بها رأسه، وبدأت أيام المرض التي دامت ١٣ أو ١٤ يوماً، وتتابعت الأيام سراعًا على رسول الله تقربه من الآخرة وتبعده من الدنيا، فيبقى من عمر المصطفى أيام معدودة، بقي خمسة أيام بقى أربعة أيام،بل ثلاثة ثم يومان ثم ساعات، وجاءت اللحظات الأخيرة، اللحظات الثمينة التي يودع فيها المصطفى الدنيا،

---

(٤) أخرجه البخارى ٣٦٢٤.

(٥) انظر تخريج فقه السيرة ص ٤٥٦، للألباني.

(٦) أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري ١٣٤٤، وانظر في تفصيل ذلك: الرحيق المختوم (٤٦٩) وما بعدها، المباركفوري.

إنها أثمن لحظات الحياة على الإطلاق نعم ولا ريب فبعد لحظات قليلة سيغلق الباب الذي بين السماء والأرض وينقطع وحي السماء عن الأرض.

إنها لحظات ثمينة، تلك اللحظات الأخيرة من حياة الصلة الفريدة، الصلة المباشرة بين الصفوة من الخلق وبين الخالق سبحانه، وفي لحظة من هذه اللحظات . أيها الإخوة . أراد المصطفى . صلى الله عليه وسلم - أن يترك بين يدي الأمة كتاباً يكتبه لها، لا تضل الأمة بعده أبداً، أراد النبي . صلى الله عليه وسلم- أن يوصي الأمة وصية ثمينة بقدر هذه اللحظات الثمينة التي بقيت له في الحياة، أو لنقل: التي بقيت للحياة في رسول الله . صلى الله عليه وسلم -، أراد المصطفى أن يوصي الأمة بوصية تحفظ على الأمة سيرها ومسراها وتضبط للأمة خطواتها في ممشاها، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما اشتد بالنبي . صلى الله عليه وسلم- وجعُه قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تختلفوا بعده، فلما هموا بذلك نظر عمر فوجد النبي في غاية الإعياء ورأى أن لا يشقوا عليه، فقال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم- غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا، وكثر اللَّغَط فلما رأى النبي . صلى الله عليه وسلم- ذلك قال: قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع".(٨)

فمات المصطفى . صلى الله عليه وسلم- ولم يكتب ذلك الكتاب، وهذا من شؤم الاختلاف قال الحافظ الجليل ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث دَلِيل عَلَى أَنَّ الِاخْتِلَاف قَدْ يَكُون سَبَبًا فِي حِرْمَان الْخَيْر، كَمَا وَقَعَ فِي قِصَّة الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَخَاصَمَا فَرُفِعَ تَعْيِين لَيْلَة الْقَدْر بِسَبَبِ ذَلِكَ ". (٩)

أيها الإخوة! حزن أصحاب النبي —صلى الله عليه وسلم- لأجل فوات هذه الوصية حزناً شديدًا بالغاً، لكنهم وهم الفطناء الألباء علموا أنه صلى الله عليه وسلم أوصى بوصية عظيمة محفوظة إلى أن تقوم الساعة لا تتبدل ولا تتغير، نعم نظروا فوجدوا عوض تلك الوصية التي فقدوها بل هي بعينها وجدوها في كتاب الله تعالى وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء: التوحيد أولاً.

أيها الإخوة! روى الترمذي وحسنه عن ابن مسعود –رضي الله عنه- أنه قال: "من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله . صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه "، أي: التي كتبت وختم عليها فلم تغير ولم تبدل، من أراد أن ينظر إلى وصية محمد —صلى الله عليه وسلم- التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ

(٨) أخرجه البخاري ١١٤.

(٩) فتح الباري (١ / ١٨٢).

أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)". [١٠]

آيات محكمات هن أم الكتاب كما قال ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[١١] هذه هي وصية رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فرسول الله أوصى بوصايا أولى هذه الوصايا أن أوصى بتوحيد الله جل في علاه كما توضح هذه الآيات ولهذا أيها الإخوة كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يبايع أصحابه على هذه الآيات الثلاث ففي مستدرك الحاكم وصححه من حديث عبادة بن الصامت –رضي الله عنه– قال، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أيكم يبايعني على ثلاث، ثم تلا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذه الآيات حتى فرغ منها [١٢]، وفي هذا . أيها الإخوة . ما يدعونا إلى تدبر هذه الآيات وبخاصة إذا لحظنا هذا الختام العجيب الذي ختمت به كل آية من الآيات الثلاث يقول سبحانه: "ذلكم وصاكم به "، أي هذا أوصاكم به ربكم –عز وجل– وأمركم به وأكد عليكم فيه.

قال ابن عطية: الوصية هي: الأمر المؤكد المقرر[١٣]، فهذه الآيات الثلاث أيها الإخوة هي وصية الله تعالى لعباده وهي وصية النبي . صلى الله عليه وسلم . لأمته، لذلك وجب على كل من قرأ هذه الآيات أن يتدبرها ويتفهم ما فيها.

وإذا تأملنا أيضا ما بعد هذه الكلمة من الآيات وهي قوله تعالى في الآية الأولى" لعلكم تعقلون" وفي الآية الثانية" لعلكم تذكرون" وفي الآية الثالثة" لعلكم تتقون" ولهذا الترتيب سر كما قال شيخ المفسرين، قال الطبري: ذكر أولاً (لعلكم تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون) لأنهم إذا عقلوا تذكروا فإذا تذكروا خافوا واتقوا. [١٤] "وإذا تدبرها الإنسان وعمل بها حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة المذكورة: العقل والتذكر والتقوى".[١٥]

فإذا نظرنا إلى هذه الوصية أيها الإخوة نجدها قد اشتملت على الأمر بعشر وصايا وكانت أولى هذه الوصايا العشر الأمر بتوحيد الله بدأ الله هذه الوصايا المؤكدات والأوامر الواجبات بالأمر بإفراده سبحانه بالعبادة وتوحيده –عز وجل– قال العلامة السعدي:[١٦] "يقول الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وسلم– قل لهؤلاء الذين حرموا ما احل الله تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد محتوياً على سائر المحرمات.. وأول ذلك وأحقه الشرك بالله: أن يعبد

---

(١٠) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠).

(١١) المستدرك (٣١٧/٢).

(١٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٨/٢) ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(١٣)المحرر الوجيز – (٢ / ٤٩٣).

(١٤) تفسير الطبري – (١٢ / ٢٢٠).

(١٥) القول المفيد (١/ ٢٥).

(١٦) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٣).

المخلوق كما يعبد الله ويعظم كما يعظم الله ألا تشركوا به شيئا لا قليلاً ولا كثيراً، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية، والإلهية وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحداً مخلصاً لله في جميع أحواله"، فهذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، فهذا آكد الحقوق وأعظمها وأولها ولهذا بدأ به وجعله أولاً، ألم أقل لحضراتكم هذه هي وصية الله ووصية رسول الله بل وصية كل نبي إلى قومه ورسول إلى أمته قبل المصطفى؟ أوصى الأنبياء أقوامهم وأممهم أن يوحدوا الله تعالى، وأن يفردوه بالعبادة وانتبهوا أحبتي هذا أول أمر بدأ به كل نبي وكل رسول فإن دعوة الأنبياء والرسل على مدى التاريخ البشري كله كانت تستهدف أمراً واحداً وهو رد البشرية الضالة إلى ربها –جل وعلا– وهدايتها إلى طريقه وتربيتها على منهاجه وإخراجها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ظلمات الشرك والإلحاد إلى أنوار التوحيد والإيمان وتزكية نفوس أبنائها وتهذيب أخلاقهم، وكانت نقطة البدء على هذا الطريق ولبنة الأساس الأول لهذا التيار الضخم الكبير هي دعوة الناس إلى التوحيد الشامل، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، إلى العقيدة الصحيحة الصافية، ولذا كانت الصيحة الأولى لكل نبي ورسول: "أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت".

بدأ بها نوح عليه السلام: "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم".

وبدأ بها هود عليه السلام: "وإلى عاد أخاهم هوداً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون".

وبدأ بها صالح عليه السلام: "وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

وهكذا إلى آخر الرسل الكرام وختام الأنبياء العظام.

فقد بدأ بها لبنة تمامهم ومسك ختامهم محمد –صلى الله عليه وسلم– وظل يدعو إليها في مكة ثلاثة عشر عاما كاملة لا تزاحمها في اهتمامه قضية أخرى بل لما انتقل إلى المدينة لم يدع . صلى الله عليه وسلم . قضية التوحيد وينتقل إلى غيرها، بل دعا إلى دعوة التوحيد ودعا إلى غيرها، فإن التوحيد ليس مرحلة زمنية ينتقل منه إلى غيره بل هو مهمة كل مرحلة ولذا ينتقل معه إلى غيره.

وبالجملة . أيها الإخوة . فما بعث الله نبيا ولا رسولا إلا كانت دعوته الأولى لأمته وقومه هي التوحيد بالأمر بعبادة الله والنهي عن الشرك كما قال سبحانه: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) [الأنبياء: ٢٥]

لذا وجب على كل داعية أراد النجاح لدعوته أن يبدأ بما بدأ به سادة الدعاة إلى الله وقد كانت أول وصية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم– أوصى بها أول داعية له إلى اليمن وهو معاذ بن جبل –رضي الله عنه– أن يدعوهم إلى التوحيد

ففي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– حين بعث معاذًا إلى اليمن، قال: إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وفي رواية البخاري: إنك ستأتي قوما أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".[١٧]

فأمره المصطفى –صلى الله عليه وسلم– أن يبدأهم بالدعوة إلى التوحيد.

فالتوحيد أيها الإخوة هو الوصية الخالدة التي تعمقت عبر تاريخ البشرية ولا تزال تترسخ حتى نهايته، أوصى بها ربنا سبحانه وعمل على سبيلها كل نبي ورسول وجاهد من أجلها كل داعية صادق وكل مؤمن غيور، لأن التوحيد . أيها الإخوة . وأرجو أن تنتبهوا لهذا التأصيل الذي يغيب عن أذهاننا كثيرا فتختلط الحقائق وتتخبط الرؤىَ:

لأن التوحيد هو حق الله تعالى على عباده وواجبه عليهم الذي لا يقبل الله عملاً ولا يرضى عن عامل إلا إذا حقق هذا الحق وأتم هذا الواجب، ولذلك كان التوحيد هو الغاية من الخلق كما قال ربنا سبحانه"وما خلقت الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧)إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨)".

قال الحافظ ابن كثير: "خلق الله تعالى الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم"[١٨] فهذه هي وظيفة الخلق الأولى التي لأجلها خلقوا ولتحقيقها أوجدوا فاعملوا رحمكم الله على التعرف إلى التوحيد حتى تحققوه فتفوزوا بخيري الدنيا والأخرى.

"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون".

فبين لنا الله تعالى الحكمة – من خلق الثقلين الإنس والجن وهي أنه إنما خلقهم لشيء واحد وهو العبادة ولهذا جاء بالحصر "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"حصر الحكمة من خلق الجن والإنس في شيء واحد وهو أنهم يعبدونه، فالحكمة من خلق المخلوقات هي عبادة الخالق –سبحانه وتعالى–، خلق الله الجن والإنس للعبادة وخلق كل الأشياء لمصالحهم، سخرها لهم ليستعينوا بها على عبادته –عز وجل– ومعنى ليعبدون، أيها الإخوة – أي يفردوني بالعبادة وهذا هو التوحيد الذي هو حق الله على عباده فإنه بذلك أمر أمراً مؤكداً مقرراً فقال: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فهذا أمر من الله بعبادته ونهي عن الشرك به، وهذا معنى لا إله إلا الله، لأن لا إله إلا الله معناها نفي الشرك وإثبات العبادة لله –سبحانه وتعالى– فقال سبحانه"واعبدوا الله"،أي أخلصوا العبادة لله وحده أي تقربوا بجميع أنواع العبادة إليه.

(١٧) أخرجه البخاري ١٤٥٨، ومسلم ١٣٢.

(١٨) تفسير ابن كثير – (٧ / ٤٢٥).

وقال سبحانه: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا".

وقضى أي أمر وشرع فهذا أمر من الله -تعالى- واجب وتشريع حتم لازم أن لا نعبد إلا هو وحده سبحانه.

وفي الصحيحين من حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: "كنت رديف النبي -صلى الله عليه وسلم- على حمار، فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا، قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا".[١٩]

وهذا الحديث العظيم يبيّن أن حق الله على عباده أن يعبدوه وحده لا شريك له بما شرعه لهم من العبادات، ولا يشركوا معه غيره، وأن حق العباد على الله -عز وجل- أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، ولا شك أن حق العباد على الله: هو ما وعدهم به من الثواب، فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق، وقوله الحق، الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر، ولا الخلف في الوعد، فهو حق جعله الله سبحانه على نفسه، تفضلاً وكرمًا، فهو سبحانه الذي أوجب على نفسه حقًّا لعباده المؤمنين، كما حرم الظلم على نفسه، لم يوجب ذلك مخلوق عليه، ولا يقاس بمخلوقاته، بل هو بحكم عدله ورحمته، كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم[٢٠]

فالتوحيد أيها الإخوة هو حق الله على عباده الذي لا يقبل الله بدونه صرفا ولا عدلاَ،لا فرضاً ولا نفلاً، وهو أول واجب فرضه الله على عباده قبل الصلاة والصيام وغيرها من شرائع الإسلام.

فما هو التوحيد أيها الإخوة؟ وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء: فلنتعرف إلى التوحيد.

أيها الإخوة التوحيد هو: العلم والاعتراف المقرون بالاعتقاد الجازم، بتفرد الله -عز وجل- بالأسماء الحسنى، وتوحده بصفات الكمال، والعظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة[٢١]، قال -سبحانه وتعالى-: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} قال العلامة السعدي -رحمه الله-: "أي متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له

(١٩) أخرجه البخاري ٢٨٥٦، ومسلم ١٥٣.

(٢٠) نور التوحيد وظلمات الشرك للقحطاني (ص٦)، وانظر: المفهم لِمَا أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ٢٠٣/١، وشرح النووي على صحيح مسلم، ٣٤٥/١ ومجموع فتاوى ابن تيمية، ٢١٣/١.

(٢١) القول السديد في مقاصد التوحيد، للسعدي، ص١٨.

شريك: في ذاته، ولا سَمِيَّ له، ولا كفء، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره؛ فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه"(٢٢)

ومعنى ذلك: إفراد الله -تعالى- بالعبادة جميعها فلا يصرف شيء من أنواع العبادة أبداً لغير الله بل نصرفها جميعها إلى الله وحده، فلا نقدم النذور والذبائح إلا لله ولا نطوف إلا ببيته الحرام، ولا ندعو إلا إياه، ولا نخاف إلا منه ولا نرجو سواه ولا نرغب ولا نرهب إلا لما في يديه الكريمتين جل في علاه، كما أننا لا نصلي إلا لله، ولا نصوم إلا له، ولا نزكي إلا له، ولا نحج إلا إلى بيته، فهذه وهذه كلها عبادات لا ينبغي أن يتقرب بها إلا إليه وحده.

وإذ أردنا أن نفهم التوحيد . أيها الكرام . فلابد أن ننظر إليه من زواياه الثلاث التي قامت عليها أدلة القرآن والسنة ألا وهي أقسام التوحيد.

الأول: توحيد الربوبية بمعنى أن نعتقد أن الله هو ربنا، ومعنى ذلك أنه الخالق، فلا خالق غيره،وأنه الرازق فلا رازق سواه، وأنه المدبر لأمورنا المتصرف في جميع أحوالنا فلا متصرف فيها إلا هو، قال عز شأنه "الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل"، والحمد لله أن أحداً من الخلق كلهم لم يدع أنه خلق شيئاً ولذلك بقي التحدي إلى اليوم قائماً: "أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون؟" لا يحير المشركون ولا الموحدون إلا جواباً واحداً، وهو: الله كما قال سبحانه: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله".

فالله هو الخالق لا خالق غيره، وهو كذلك الرازق لا رازق سواه (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار)، الله هو الرازق، قال -تعالى-: "إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين".

ولذلك تطلب كل الحوائج منه -عز وجل-.

لا تسألن بُنَيَّ آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب.

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب.

إذا سألت فاسأل الله.

ثانياً: من معاني الربوبية: المِلكُ لكل ما في هذا الكون هو الله، فالكون كله من سمائه إلى أرضه ومن عرشه إلى فرشه بما فيه ومن فيه ملك لله وحده، فالملك كله لله والكون كله لله والخلق كله لله، قال -تعالى-: "قل لمن الأرض ومن فيها إن

(٢٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص٦٠.

كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون".

وقال -تعالى-: "ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير.

ثالثاً: من معاني الربوبية السيادة والأمر والنهي وحق الطاعة على جميع الخلق قال سبحانه: "ألا له الخلق والأمر"، فجمع سبحانه بين الخلق والأمر فدل على أنه كما خلق فهو الذي يأمر عباده ويشرع لهم ما يشاء، وعليهم طاعته في ذلك كله.

هذا هو توحيد الربوبية، وهو الزاوية الأولى التي بها يستقر بناء التوحيد في قلب المؤمن وبه يستيقن العبد أن الخلق لله والملك لله والرزق بيد الله والنفع والضر والإحياء والإماتة والتصريف بحوله وقوته وحده، فيستقر الفؤاد ويرتاح الضمير لأن المستقبل بين يدي عدل رحيم ورءوف كريم، فلا يخاف من جور ولا يخشى من ظلم فلو تأمل العبد هذا التوحيد لسجد قلبه للعزيز الحميد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة.

والزاوية الثانية من زوايا التوحيد – أيها الأحبة . هي توحيد الألوهية ومعناه إفراد الله -تعالى- بالعبادة بأن لا يعبد المرء إلا الله -سبحانه وتعالى-، لا يصلي ولا يدعو ولا يذبح ولا ينذر ولا يحج ولا يعتمر ولا يتصدق ولا يتقرب بأي قربة إلا لله -عز وجل-، يبتغي بذلك وجه الله وترك عبادة ما سواه، وانتبهوا إلى هذا الشرط أيها الإخوة فإن التوحيد ليس إثبات الألوهية لله فقط بل لابد من إثبات الوحدانية بمعنى إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، فلابد من الكفر بكل الآلهة والأنداد والأصنام والأحجار والأشجار والقبور والأضرحة، كما قال ربنا سبحانه في كتابه: "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى"، هل تدري أيها الحبيب ما هي العروة الوثقى لقد قرأنا هذه الكلمة كثيرا لكن القليل هم الذين تساءلوا عن معناها فاسمع إذا: العروة الوثقى هي لا إله إلا الله، ومعنى هذه الكلمة الطيبة: الكفر بالطواغيت أجمعها والإيمان بالله وحده فاشترط الله الكفر بالطاغوت مع الإيمان به ليكون العبد موحداً.

فعلم أن التوحيد خلع كل الآلهة والكفر بهم وإثبات الوحدانية لله فقط وأنه لا إله إلا هو ولذلك علم كل نبي ورسول قومه ذلك كما قال عز من قائل: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت"، ولاحظوا أيها الإخوة أنه سبحانه قال واجتنبوا الطاغوت، ما قال: اتركوا عبادة الطاغوت بل قال: اجتنبوا لأنها أبلغ يعني اتركوا كل الوسائل التي توصل إلى الشرك واجتنبوا الطاغوت.

وما هو الطاغوت؟ الطاغوت يطلق ويراد به الشيطان – لعنه الله – وهو رأس الطواغيت، ويطلق ويراد به الساحر والكاهن، ويطلق ويراد به الحاكم بغير ما أنزل الله، والذي يأمر الناس باتباعه في غير طاعة الله فالطاغوت .كما يقول

شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله- . هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع[٢٣] في غير طاعة الله فهو طاغوت.

فالله أمرنا بعبادته واجتناب الطواغيت التي تعبد من دونه -عز وجل-.

ما في الوجود سواك رب يعبد كلا ولا مولى هناك فيقصد

أنت الإله الواحد الحق الذي كل الجباه له تخر وتسجد

فالزاوية الأولى من زوايا بناء التوحيد المبارك في قلب العبد المؤمن الزاوية الأولى: توحيد الربوبية، الزاوية الثانية: توحيد الألوهية، الزاوية الثالثة: الإيمان بأسماء الله التي سمى بها نفسه وسماه بها رسوله وبصفات الله التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله —صلى الله عليه وسلم-.

كما قال سبحانه: "ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون"، فيجب علينا أن نعرف أسماء الله وصفاته وأن نؤمن بها كما يجب علينا تنزيه الله -تعالى- عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم فليس معنى الاتفاق في الاسم الاتفاق في الحقيقة حاشا وكلا، فالله هو الله، الرب هو الرب والعبد هو العبد سبحان ربي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته جل عن النظير والشبيه والمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، هو المحمود والمدعو والمرجو والمعبود.

يَسْأَلُهُ مَن فِي السموات وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ: إذا اضطرب البحرُ، وهاج الموجُ، وهبَّتِ الريحُ، نادى أصحابُ السفينةِ: يا الله.

إذا ضلَّ الحادي في الصحراءِ ومال الركبُ عن الطريقِ، وحارتِ القافلةُ في السيرِ، نادوا: يا الله.

إذا وقعت المصيبةُ، وحلّتِ النكبةُ وجثمتِ الكارثةُ، نادى المصابُ المنكوبُ: يا الله.

إذا أُوصدتِ الأبوابُ أمام الطالبين، وأُسدِلتِ الستورُ في وجوهِ السائلين، صاحوا: يا الله.

إذا بارتِ الحيلُ وضاقتِ السُّبُلُ وانتهتِ الآمالُ وتقطَّعتِ الحبالُ، نادوا: يا الله.

إذا ضاقتْ عليك الأرضُ بما رحُبتْ وضاقتْ عليك نفسُك بما حملتْ، فاهتفْ: يا الله.

(٢٣) إعلام الموقعين (١/٥٠).

إليه يصعدُ الكلِمُ الطيبُ، والدعاءُ الخالصُ، والهاتفُ الصَّادقُ، والدَّمعُ البريءُ، والتفجُّع الوالِهُ.

إليه تُمدُّ الأكُفُّ في الأسْحارِ، والأيادي في الحاجات، والأعينُ في الملمَّاتِ، والأسئلةُ في الحوادث.

باسمِهِ تشدو الألسنُ وتستغيثُ وتلهجُ وتنادي،وبذكرِه تطمئنُّ القلوبُ وتسكنُ الأرواحُ، وتهدأُ المشاعر وتبردُ الأعصابُ، ويثوبُ الرُّشْدُ، ويستقرُّ اليقينُ،؟ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ؟

الله: أحسنُ الأسماءِ وأجملُ الحروفِ، وأصدقُ العباراتِ، وأثمنُ الكلماتِ،؟ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً؟؟!

اللهُ: فإذا الغنى والبقاءُ، والقوةُ والنُّصرةُ، والعزُّ والقدرةُ والحِكْمَةُ،؟ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ؟.

الله: فإذا اللطفُ والعنايةُ، والغوْثُ والمددُ، والوُدُّ والإحسان،؟ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ؟.

الله: ذو الجلالِ والعظمةِ، والهيبةِ والجبروتِ. (٢٤)

الله

تسبحه نغمات الطيور * * * يسبحه الظل تحت الشجر

يسبحه النبع بين المروج * * * وبين الفروع وبين الثمر

يسبحه النور بين الغصون * * * يسبحه المساء وضوء القمر

الله

الشمس والبدر من أنوار حكمته * * * والبر والبحر فيض من عطاياه

الطير سبحه والوحش مجده * * * والموج كبره والحوت ناجاه

والنمل تحت الصخور الصم قدسه * * * والنحل يهتف حمدا في خلاياه

الله!

(٢٤) لا تحزن (ص ١٤).

إليك وإلاَّ لا تُشَدُّ الركائبُ ومنك وإلا فالمؤمِّل خائبُ

وفيك وإلا فالغرامُ مضيَّعٌ وعنك وإلا فالمحدِّثُ كاذبُ

هذا هو التوحيد أيها الإخوة كما ينبغي أن نعرفه وكما يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمه وهو الصراط المستقيم الذي أمرنا ربنا بالمسير عليه والالتزام به والتمسك به حتى نقدم عليه ونلقاه وهذا هو عنصرنا الرابع من عناصر اللقاء وخاتمة لابد منها: كيف نحقق التوحيد في الواقع؟ وسنتعرف إلى جواب هذا السؤال الجليل بعد جلسة الاستراحة بمشيئة الله وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد أيها الإخوة!

قال سبحانه في آيات الوصية: وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون، وأمرنا الله -تعالى- بلزوم الصراط المستقيم في غير هذه الآية من القرآن كثير، فما هو الصراط المستقيم وكيف نتبعه؟ خاصة وأنه من الأهمية بالمكان والمكانة التي بها يهلك العبد إن حاد عنه ويهتدي إن اتبعه وسلكه روى أحمد بسند صحيح من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: خط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله: ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ وأن هذا صراطي مستقيمًا...... الآية [٢٥]، وقال رجل لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد (أي طرق) وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من قربهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهى به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة.

فما هو الصراط المستقيم أيها الإخوة؟

قال العلامة ابن القيم: الصراط المستقيم هو الطريق الذي نصب الله لعباده موصلاً إليه، ولا طريق إليه سواه بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله وجعله موصلا لعباده إليه، وهو إفراده سبحانه

(٢٥) أخرجه أحمد ٤٢٢٥، وابن ماجه ١١، والحاكم (٣١٨/٢)، وصححه الألباني ظلال الجنة (١٦).

بالعبودية، وإفراد رسوله صلى الله عليه وسلم بالطاعة فلا يشرك به أحداً في عبوديته، ولا يشرك برسوله —صلى الله عليه وسلم– أحداً في طاعته، فيجرد التوحيد لله ويجرد المتابعة لرسوله —صلى الله عليه وسلم– وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله".(٢٦)

ثم يقول ابن القيم: "إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين صدق محبة الله وحسن معاملته وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك كله فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته

الأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله

والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدا رسول الله وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل له وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به"."(٢٧)

أيها الإخوة: فإذا كان هذا هو التوحيد وهذه مكانته ومنزلته وهذا معناه فكيف نطبق التوحيد في حياتنا وواقعنا؟ هذا هو لب الحديث وأصله، فليس التوحيد كلمات فحسب بل هو واقع وليس عبارات فقط بل هو حركة، وليس منهجاً نظرياً بل هو حياة قولاً وفعلاً واعتقاداً فمن أراد أن يحقق التوحيد في حياته وواقعه، فليصف توحيده من الشرك الأكبر والأصغر ومن البدع والمعاصي وإن وقع في شيء من ذلك تداركه بالأوبة والرجوع إلى الله.

من فعل هذا فقد حقق التوحيد واستحق فضل التوحيد وهو عظيم جليل وسوف نتحدث في اللقاء القادم عن فضل التوحيد إن قدر الله لنا اللقاء والبقاء نسأل الله أن يدلنا عليه ويعلمنا ما به يقر في قلوبنا تعظيمه، اللهم إنا نسألك توفيق أهل الهدى وأعمال أهل اليقين ومناصحة أهل التوبة وعزم أهل الصبر وجد أهل الخشية وطلب أهل الرغبة وتعبد أهل الورع وعرفان أهل العلم حتى نخافك، اللهم إنا نسألك مخافة تحجزنا عن معاصيك حتى نعمل بطاعتك عملاً نستحق به رضاك وحتى نناصحك بالتوبة خوفاً منك وحتى نخلص لك النصيحة حباً لك وحتى نتوكل عليك في الأمور حسن ظن بك سبحان خالق النار اللهم فاجعلْ مكان اللوعة سلْوة، وجزاء الحزنِ سروراً، وعند الخوفِ أمْناً. اللهم أبردْ لاعِج القلبِ بثلجِ اليقينِ، وأطفئْ جمْر الأرواحِ بماءِ الإيمانِ.

يا ربّ، ألق على العيونِ السَّاهرةِ نُعاساً أمنةً منك، وعلى النفوسِ المضْطربةِ سكينة، وأثبْها فتحاً قريباً. يا ربُّ اهدِ حيارى البصائرْ إلى نورِكْ، وضُلاَّل المناهجِ إلى صراطكْ، والزائغين عن السبيل إلى هداك.

---

(٢٦) بدائع الفوائد – (٢ / ٢٧٦).

(٢٧) بدائع الفوائد – (٢ / ٢٧٦).

اللهم أزل الوساوس بفجْر صادقٍ من النور، وأزهقْ باطل الضَّمائرِ بفيْلقٍ من الحقِّ، وردَّ كيد الشيطانِ بمددٍ من جنودِ عوْنِك مُسوِّمين. اللهم أذهبْ عنَّا الحزن، وأزلْ عنا الهمَّ، واطردْ من نفوسِنا القلق.

نعوذُ بك من الخوْفِ إلا منْك، والركونِ إلا إليك، والتوكلِ إلا عليك، والسؤالِ إلا منك، والاستعانةِ إلا بك، أنت وليُّنا، نعم المولى ونعم النصير(٢٨)..... الدعاء.

(٢٨) لا تحزن (ص ٣٣).

لا إله إلا الله طوق النجاة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل على حبيبنا ونبينا محمد صلاة باهرة السناء، اللهم أرنا من أنوار الصلاة عليه جمال ذاته وصفاته، اللهم بصرنا بشمائله وعلو درجاته.

أما بعد فيا أيها الإخوة!

تحدثنا في اللقاء السابق عن وجوب التوحيد على كل عبد وأنه الفرض اللازم والحق الواجب لله على عباده، وأنه المهمة التي لأجلها خلق الله الخلق، كما قال سبحانه" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" .

وهذا هو لقاؤنا الثاني من هذه السلسلة الكريمة وهو بعنوان: " لا إله إلا الله طوق النجاة" ، وسأنظم سلك هذا الموضوع العظيم الجليل في العناصر التالية:

أولاً: يوم عصيب.

ثانياً: التوحيد طريق الأمان.

ثالثاً: فضائل التوحيد.

رابعاً وأخيراً: فهيا إلى ظلال التوحيد.

فأعيروني القلوب والأسماع أيها الإخوة والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولاً: يوم عصيب.

أيها الإخوة! مهما امتدت الحياة فإنها فانية، ومهما تأخرت الآخرة فإنها آتية وكل آت قريب، ومن عاش على ذكر الآخرة حاسب نفسه على ما هو اليوم فيه فإن كان محسناً ازداد إحساناً وإن كان مسيئاً استغفر الله وتاب إليه عسى الله أن يبدله عفواً وغفراناً فالمرء إذا كان متذكراً الآخرة سعى إلى عمرانها وصار من أبنائها.

قال على بن أبي طالب، –رضي الله عنه–: " إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا".

فتعالوا بنا أيها الإخوة ننظر من منظار قريب إلى ذلك اليوم العصيب، انظر أخي الحبيب ها هي الشمس تدنو من الرءوس ففي صحيح مسلم من حديث المقداد أنه –صلى الله عليه وسلم- قال: "تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم مقدار ميل(٢٩)

قال الراوي: فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين؟! قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً- وأشار –صلى الله عليه وسلم- بيده إلى فيه".

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أنه –صلى الله عليه وسلم- قال في قوله -تعالى-: "يوم يقوم الناس لرب العالمين"، قال المصطفى –صلى الله عليه وسلم-: يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه"(٣٠)، هل تصورت هذا المشهد؟ حرارة تذيب الحديد والحجارة فوق الرءوس، ولك أن تتصور البشرية كلها تحشر في مكان واحد على أرض واحدة، زحام يخنق الأنفاس!!

وفي هذا المشهد والموقف الرهيب يزداد الهم والكرب بإتيان جهنم، إي والله يؤتى بجهنم في أرض المحشر كما قال المصطفى –صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "يؤتى بالنار يومئذ لها سبعون ألف زمام، ومع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها"(٣١)، فإذا أقبلت جهنم وأحاطت بالخلائق ورأت الخلق زفرت وزمجرت غضباً منها لغضب الجبار جل جلاله عند ذلك تجثو جميع الأمم على الركب من الخوف والذلة قال -تعالى-: "وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون".

وليس ذلك فقط بل يحدث ما تشيب له الرءوس وتنخلع له القلوب! اسمع إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي بسند صحيح والذي يقول فيه الحبيب النبي –صلى الله عليه وسلم-: "يخرج عنق من النار له عينان تبصران وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وكلت بثلاثة: لمن جعل مع الله إلها آخر [لمن جعل مع الله إلهاً آخر، أي: أشرك مع الله غيره في عبادته، أما الموحدون فهم ناجون منه، فاللهم اجعلنا موحدين]

يقول: إني وكلت بثلاثة: لمن جعل مع الله إلهاً آخر وبكل جبار عنيد وبالمصورين بل قال ابن الأثير في جامع الأصول من أحاديث الرسول: وفي رواية ذكرها رزين: أنَّ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم- قال: "من كذب عليَّ متعمِّداً فليَتَبوَّأ بين عيني جهنم مقْعدا، قيل: يا رسولَ الله، ولها عينان؟ قال: أما سَمِعتم قول الله -تعالى-: {إذا رأَتْهُمّ من مكان بعيد سَمِعُوا

(٢٩) أخرجه مسلم ٧٣٨٥.

(٣٠) أخرجه البخاري ٤٩٣٨، ومسلم ٦٢١٥.

(٣١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

لها تَغَيُّظا وزفيرا} [الفرقان: ١٢] يخرج عنق من النار، له عينان تبصران، ولسان ينطق، فيقول: وُكِّلْتُ بِمَن جعل مع الله إلها آخر، فلَهُوَ أبْصَرُ بهم من الطير بِحَبِّ السمسم، فيلتقطهم، فيحبس بهم في جهنم»(٣٢). في هذا المشهد، في الحر الشديد والزحام الرهيب وفي هذا التدافع في هذا الموقف الذي ترتعد منه الفرائص وتشيب له الرءوس، ويهتز له الوجدان فإن الأنبياء حينما يرون هول هذا الموقف لا يملكون إلا أن يقولوا: اللهم سلم سلم.

هذه دعوتهم يومها، والكلام يومئذ مقتصر عليهم دون غيرهم لا يتكلم يومها إلا الرسل، يومها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، تترك رضيعها، وتضع كل ذات حمل حملها وينتاب الناس الهلع والرعب حتى تظنهم سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

يومئذ يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وينسى الابن أبويه اللذين كان يبرهما في دنياه، وألان لهما الجانب وأطاعهما في غير معصية الله، يومها يفر الأخ من أخيه فلم تعد هناك روابط نَسَبية!!

ويومها تفر الزوجة من زوجها الذي أعطى لها في الدنيا كل عطف وحنان ورعاية وصحبة جميلة حسنة فلم تعد هناك أيضاً روابط زوجية.

يومها ترى الأم الحنون ترمي بطفلها في غير وعي فلا أمومة في هذا الموقف الرهيب المخيف، كلٌ يقول نفسي نفسي! حتى الأنبياء والرسل، كلٌ له شأن يلهيه استمع لقول مولاك –عز وجل–: "فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه".

في هذا الجو الخانق الزحام شديد والشمس تكاد تصهر الرءوس بحرارتها والجموع تتدافع والسؤال همس والكلام تخافت وجلال الحي القيوم غمر المكان بالهيبة وثمت أهوال وأهوال.

يوم تجثو كل أمة

في دياجير الملمة

للسؤال عن المهمة

يومها ماذا تقول؟!

---

(٣٢) أخرجه الترمذي ٢٥٧٤، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٤٥١، الصحيحة (٥١٢)، والرواية الأخرى ذكرها ابن الأثير في جامع الأصول من
أحاديث الرسول (١٠ / ٨٠٦٥).

إن مجرد الكلام عن أهوال هذا اليوم وتخيله ترتعد له الفرائص، فكيف إذا عايناه وعايشناه على أرض الواقع لا أرض الخيال؟!!

كرب ما بعده كرب، وهم ما وراءه هم، وغم ما فوقه غم.

فكيف النجاة من يوم الهول؟ بل الأهوال؟ أين طريق الأمان، هل هناك سبيل إليه؟ هل هناك طريق للأمان من ذلك الكرب؟

والجواب: نعم . أيها الإخوة . وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء:

التوحيد طريق الأمان:

قال الله –تعالى–: "الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ" [الأنعام: ٨٢]

هذا هو الأمن والأمان ليس إلا للذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم وهذا وعد الله –تعالى– وحكمه الفاصل الذي حكم به في كتابه.

فإن هذه الآية –أيها الإخوة– جاءت بعد مناظرة إبراهيم الخليل . عليه السلام . لقومه الذين كانوا يعبدون الكواكب فجادلهم إبراهيم . عليه السلام . بالحسنى، وأثبت لهم بالأدلة القاطعة أنها لا تستحق العبادة التي يصرفونها إليها ودعاهم إلى توحيد الله –تعالى– وصرف جميع أنواع العبادة إليه سبحانه، فأبوا، فتبرأ منهم إبراهيم . عليه السلام . وأعلن تمسكه بتوحيده وتحدى الآلهة التي يخوفونه بها معلناً أنه لا يخاف إلا الله –تبارك وتعالى–، قال –تعالى–" وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) [الأنعام: ٨٠، ٨١]" فهنا فريقان يطلبان الأمن وينشدانه فمن الذي يناله ويحصله؟

إبراهيم عليه السلام وهو الذي يمثل فريق الموحدين، أم المشركون الذين يعبدون الكواكب في السماء والأصنام في الأرض يقول: إذا كنتم تهددونني بالتخويف والوعيد وأنا أخوفكم بالله العزيز الحميد وأبين لكم أنكم إن لم تتوبوا إليه فسيعذبكم فأي الفريقين الموحدون أو المشركون أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، ففصل الله الحكم بين الفريقين فقال"الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ "[الأنعام: ٨٢]، فالأمن في الدنيا والآخرة حاصل للمؤمنين الذي لم يلبسوا إيمانهم بظلم، انتبه أيها الحبيب فهنا ضابطان أو شرطان اثنان فيمن ينال الأمن ويتحقق له الأمان:

الأول: الإيمان وهو التوحيد بإفراد الله –تعالى– بالعبادة، والمحافظة على ما يقتضيه الإيمان من صالح الأعمال.

الثاني: أن لا يلبس هؤلاء المؤمنون إيمانهم بظلم، والظلم المقصود في هذه الآية هو الشرك، والمعنى المقصود أنهم أخلصوا عبادتهم وهذبوا توحيدهم، وصفَّوه من كل ألوان الشرك وأنواعه.

روى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: لما نزلت" الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ "قلنا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون" لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك، أولم تسمعوا إلى قول العبد الصالح لقمان: "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ".(٣٣)

فالمقصود بالظلم هنا الشرك فمن أشرك بالله فليس من أهل الأمان ومن خلط إيمانه بشرك أيضا ليس من أهل الأمان ولكن الشرط أن يأتي بالأمرين معاً أي يأتي بتوحيد لا شرك فيه، خالصاً من ألوان الشرك وأنواعه، ولذلك أمر ربنا بتوحيده ونهى عن الشرك به في آية واحدة فقال سبحانه"وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا".

والشاهد –أيها الإخوة– من الآية أن الموحدين غداً من الآمنين من عذاب الله وعقابه، لهم الأمن والأمان والسلام والاطمئنان، فتلك مَزِيّة لأهل التوحيد خاصة ليست لغيرهم وهذا من فضل التوحيد.

ومزية أخرى بينتها الآية وهي حصول الهداية للموحدين المخلصين لله كما قال –تعالى–: "وهم مهتدون"وذلك بأنهم في الدنيا يكونون مهتدين في أعمالهم لا يضلون الصراط المستقيم وهو الهداية، وفي الآخرة لا يضلون الصراط المستقيم ألا وهو الطريق إلى الجنة كما قال –تعالى–: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) [الحج: ٢٤]

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ . أي في الدنيا . وهدوا إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . أي في الآخرة.

أما من لم يوحد الله فليس له من الأمن نصيب، فهم في رعب وخوف دائم إذ القلب لا يطمئن إلا مع التوحيد، فمن لم يوحد الله أخافه الله من كل شيء هذا في الدنيا، وأما يوم القيامة فهم في فزع عظيم، نعوذ بالله منه، لا ينتهي ولا يزول إذ لا يقف عذابهم عند حد قال –تعالى–"فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا"وكذلك هم في الدنيا لا يهتدون إلى صرف ولا عدل وهم في الآخرة أضل عن طريق الجنة بل لا يهتدون إلا إلى صراط الجحيم نعوذ بالله من ذلك، هذه أعظم فضائل التوحيد –أيها الإخوة– أن ينال به المرء الأمن في الدنيا والنجاة في الآخرة وهناك فضائل أخرى للتوحيد فتعالوا بنا لنتعرف إليها وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء: فضائل التوحيد.

فضائل التوحيد –أيها الإخوة– كثيرة كثيرة، ولا نستطيع على الإطلاق تناولها جميعها في هذه الدقائق المعدودات، ولكن حسبنا أن نشير إلى بعض الأحاديث التي تدلنا على ما للتوحيد من فضل وآثار حميدة على العبد في دنياه وأخراه

---

(٣٣) أخرجه البخاري ٣٣٦٠.

فمن ذلك ما روى البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه-قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل".(٣٤)

في هذا الحديث يخبر المصطفى –صلى الله عليه وسلم- أن من فضل التوحيد أنه يدخل العبد الجنة ولو كان مقصراً في العمل وعنده ذنوب ومعاص كما قال المصطفى –صلى الله عليه وسلم-"أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"، فهذا وعد من الله -سبحانه وتعالى- لأهل التوحيد بأن يدخلهم الجنة، وأهل التوحيد هم الذين شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه أي أن عيسى عليه السلام أوجد بكلمة كن فلهذا سمى كلمته ومعنى روح منه أي روح مخلوقة من الله مبتدأة منه على نحو غير مألوف فقد وجد من أم بلا أب – وأن الجنة حق والنار حق، هؤلاء هم أهل التوحيد وعدهم الله أن يدخلوا الجنة فهذا من فضل التوحيد وأنه سبب لدخول الجنة.

لكن هل معنى ذلك أن الموحد يعمل من المعاصي والذنوب ما يحلو له، ما دام أن التوحيد يدخله الجنة؟

والجواب: كلا فإن هنا شيئين يجب التنبه لهما: الأول: أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: "على ما كان من العمل" أي أن التوحيد يدخله الجنة ويبقى عمله فهو الذي يحله المكان اللائق به في الجنة فإن كان عمله قليلا كان في أدناها وإن كان عمله كثيرًا كان في أعلاها، نسأل الله أن نكون من أهل الفردوس الأعلى من الجنة.

الثاني: أن من أهل العلم من قال: إن قوله -صلى الله عليه وسلم- "على ما كان من العمل"أي أن التوحيد يضمن للعبد أن يدخل الجنة وينجو من النار يوما ما، أي يمنعه من الخلود في النار، وأنه سيصير يوماً ما إلى الجنة لكن قد يكون ذلك بعد فترة يقضيها العبد الذي عليه ذنوب وسيئات ومعاصٍ في النار، فالتوحيد يعصمه من الخلود في النار ولكنه لا يمنعه من دخولها، لأن هذه المعاصي تنافي كمال التوحيد وعلى قدر المعاصي والذنوب التي تلبس بها العبد في الدنيا يبقى في النار ليطهر ويهذب وينقى فيوم أو سنة أو ألف سنة والله أعلم، نسأل الله أن نكون ممن أطاعه وكمل توحيده.

وعلى كلا التفسيرين ففي الحديث فضل التوحيد وأنه يكفر الذنوب بإذن الله أو يمنع من الخلود في النار.

ومن فضل التوحيد أيضًا ما روي البخارى ومسلم من حديث عتبان بن مالك الأنصاري أن الحبيب النبي . صلى الله عليه وسلم . قال: "إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله -تعالى-".(٣٥)

---

(٣٤) أخرجه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).

(٣٥) أخرجه البخاري ٤٢٥.

ففي هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه يحرم على النار أن يبقى فيها الموحدون بقاءً أبديّاً خالداً سرمديّاً، وإنما من كان منهم من أهل الطاعة دخل الجنة وحرم على النار أن تمسه ومن كان ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، ثم يكون مآله إلى الجنة، ونعم دار المتقين.

وقد نبه النبي –صلى الله عليه وسلم- . في هذا الحديث . إلى شرط ينبغي التفطن له، ألا وهو قوله –صلى الله عليه وسلم- "من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله" فاشترط النبي . صلى الله عليه وسلم . الإخلاص في كلمة التوحيد وهذا معناه أنه لا يكفي مجرد النطق بلا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها وعمل بمقتضاها واعتقاد لمدلولها فمن لم يأت بذلك لم يكن من أهلها ومن فعل ذلك نال فضل التوحيد وناله فضل التوحيد.

ومن فضل التوحيد كذلك –أيها الإخوة- ما روى ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه–عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: قال موسى عليه السلام: يارب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله"[٣٦] سبحان الله فانظر إلى لا إله إلا الله كيف رجحت بالسموات السبع ومن فيهن غير الله والأرضين السبع ومن فيهن وذلك لما اشتملت عليه هذه الكلمة من نفي عبادة غير الله وإثبات العبادة لله وتقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد ومعنى ذلك أنها ترجح بميزان صاحبها فتنجيه من النار وتدخله الجنة برحمة العزيز الغفار.

ومن فضائل التوحيد ما روى الترمذي وحسنه من حديث أنس قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: قال الله –تعالى-: « قَالَ اللَّهُ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً ». [٣٧]

هذا وعد من الله –تعالى-: " لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا " وهذا شرط: أن تلقاه لا تشرك به شيئا أي تلقاه موحداً كامل التوحيد، وفضل ذلك "لأتيتك بقرابها مغفرة"وهذا من فضل التوحيد –أيها الإخوة-

---

(٣٦) أخرجه النَّسائي، في الكبرى ١٠٦٧٠، ١٠٩٨٠، وفي"عمل اليوم والليلة"٨٣٤ و١١٤١، والحاكم ١٨٩١، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه »، وأخرجه أبو يعلى ١٣٦٣، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤ / ٣٦٦): ورجاله وثقوا وفيهم ضعف، وضعفه الألباني في تحقيق كلمة الإخلاص – (٥٨).

(٣٧) أخرجه الترمذي ٣٥٤٠، وصححه الألباني الصحيحة (١٢٧ – ١٢٨)، الروض النضير (٤٣٢)، المشكاة (٢٣٣٦ / التحقيق الثاني)، التعليق الرغيب.

وبالجملة: فالتوحيد له فضائل عظيمة، وآثار حميدة، ونتائج جميلة، ومن ذلك:

- أن خير الدنيا والآخرة من فضائل التوحيد وثمراته.

. والتوحيد هو السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، يدفع الله به العقوبات في الدارين، ويبسط به النعم والخيرات.

. والتوحيد الخالص يثمر الأمن التام في الدنيا والآخرة.

. والتوحيد يحصل لصاحبه الهدى الكامل، والتوفيق لكل أجر وغنيمة.

. والتوحيد يغفر الله به الذنوب ويكفر به السيئات.

. والتوحيد يدخل الله به الجنة.

. والتوحيد يمنع دخول النار بالكلية إذا كمل في القلب.

. والتوحيد يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى حبة من خردل من إيمان.

. والتوحيد هو السبب الأعظم في نيل رضا الله وثوابه، وصاحبه أسعد الناس بشفاعة محمد صلّى الله عليه وسلّم.

. جميع الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها، وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

. والتوحيد يُسَهِّل على العبد فعل الخيرات، وترك المنكرات، ويسلِّيه عن المصائب، فالموحد المخلص لله في توحيده تخف عليه الطاعات؛ لِمَا يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهوِّن عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي؛ لِمَا يخشى من سخط الله وعقابه.

. والتوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

. والتوحيد يخفف عن العبد المكاره، ويهوِّن عليه الآلام، فبحسب كمال التوحيد في قلب العبد يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة، وتسليمٍ ورضًا بأقدار الله المؤلمة، وهو من أعظم أسباب انشراح الصدر.

- والتوحيد يحرِّر العبد من رِقّ المخلوقين والتعلُّقِ بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العزُّ الحقيقي، والشرف العالي، ويكون الموحّد مع ذلك متعبدًا لله لا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إيَّاه، وبذلك يتمُّ فلاحه، ويتحقق نجاحه.

- والتوحيد إذا كمل في القلب، وتحقَّق تحققًا كاملاً بالإخلاص التام فإنه يُصيِّر القليل من عمل العبد كثيرًا، وتضاعف

أعماله وأقواله الطيبة بغير حصر، ولا حساب.

- والتوحيد تكفَّل الله لأهله بالفتح، والنصر في الدنيا، والعز والشرف، وحصول الهداية، والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

- والتوحيد يدافع الله -عز وجل- عن أهله ويدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة، ويمنُّ عليهم بالحياة الطيبة، والطمأنينة إليه، والأُنس بذكره.

وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة، والله أعلم"[٣٨]

ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إذ يقول: "وليس للقلوب سرور ولذة تامة إلا في محبة الله -تعالى-، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تتم محبة الله إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله"[٣٩][٤٠]

-أيها الإخوة- هذا بعض فضل التوحيد وأهله، ووالله إنه لغيض من فيض ونقطة من بحر، وإلا فإن فضائل التوحيد . كما قلنا .كثيرة، ولكننا اقتصرنا على بعضها والآن هيا -أيها الإخوة- إلى ظلال التوحيد، هيا إلى لا إله إلا الله نتعلمها ونعمل بها كما قال سبحانه آمرا خير الخلق "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ".

مع عنصر اللقاء الرابع والأخير: فهيا إلى ظلال التوحيد

ونقف عليه بعد جلسة الاستراحة نسأل الله أن يجعلنا ممن يعلمون فيعملون فيخلصون فيؤجرون.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد.. فالعنصر الرابع من عناصر اللقاء: فهيا إلى ظلال التوحيد.

قال الله سبحانه آمراً خير الخلق فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات".

ولاحظ أيها الحبيب اللبيب فقد أمر الله في هذه الآية بالعلم، ثم أمر بالاستغفار وهو قول وعمل فقدم العلم، على القول والعمل لأن العلم هو المصحح للنية التي يصح بها كل قول وكل عمل.

---

(٣٨) القول السديد في مقاصد التوحيد ص٢٥.

(٣٩) مجموع الفتاوى، ٣٢/٢٨).

(٤٠) نور التوحيد (٩- ١٢)، للقحطاني.

فلابد من تعلم لا إله إلا الله، ولابد بعد التعلم من السعي والعمل بها في واقع الحياة، فما هو معنى لا إله إلا الله . أيها الإخوة . لا إله إلا الله معناها لا معبود بحق إلا الله، فكل المعبودات التي يعبدها الناس باطلة إلا عبادة الله فهي حق، وكل عبادة يتعبدها المرء هي شرك إلا عبادة الله فهي توحيد.

هذا هو معنى لا إله إلا الله ومدلولها الذي تدل عليه، والذي ينبغي أن يكون في قلب كل موحد؛ لأن المصطفى – صلى الله عليه وسلم– قال: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة[41]، والحديث أخرجه مسلم من حديث عثمان رضي الله عنه، فيجب علينا أن نعلم أن لا إله إلا الله معناها إثبات التوحيد لله ونفي الألوهية عن غيره، فلا إله إلا الله، لابد وأن تستيقن القلوب بهذا ويستقر في القلب اليقين بذلك ولا يتزعزع فإن الله عاب أقواماً في دينهم حين ترددوا فيه ولم يستيقنوا به بل نفى عنهم الإيمان بالكلية قال –تعالى–: "إِنَّمَايَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ" [التوبة: ٤٥]

في حين نسمع قول الله –تعالى–: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" [الحجرات: ١٥]، فاشترط الله في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا أي لم يشكوا، وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– فِى مَسِيرٍ – قَالَ – فَنَفِدَتْ أَزْوَادُ الْقَوْمِ قَالَ حَتَّى هَمَّ بِنَحْرِ بَعْضِ حَمَائِلِهِمْ – قَالَ – فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ جَمَعْتَ مَا بَقِىَ مِنْ أَزْوَادِ الْقَوْمِ فَدَعَوْتَ اللَّهَ عَلَيْهَا. قَالَ فَفَعَلَ – قَالَ – فَجَاءَ ذُو الْبُرِّ بِبُرِّهِ وَذُو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ – قَالَ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَذُو النَّوَاةِ بِنَوَاهُ – قُلْتُ وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ بِالنَّوَى قَالَ كَانُوا يَمُصُّونَهُ وَيَشْرَبُونَ عَلَيْهِ الْمَاءَ. قَالَ فَدَعَا عَلَيْهَا – قَالَ – حَتَّى مَلأَ الْقَوْمُ أَزْوِدَتَهُمْ – قَالَ – فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ « أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ لاَ يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ ».[42] وهذا . أيها الإخوة . هو اليقين.

فإذا تعلم المرء معنى لا إله إلا الله واستيقن قلبه به وصدقه تصديقاً لا يتزعزع ولا يضطرب ولا تؤثر فيه الهواجس وجب عليه أن يقبل كلمة التوحيد بكل ما تتضمنه من الأوامر والنواهي والحدود، وهو في غاية الحب لله والرضا عنه جل في علاه، وجب عليه أن يدخل تحت ظلها وأن يستجيب لأمرها ونهيها، ولا يكون كمن قال الله فيهم: "إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ" [الصافات: ٣٥] ومعنى ذلك أن يخضع للأوامر والنواهي وأن يقف عند حدود الشريعة، قال سبحانه: "ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى"، ومن يسلم وجهه "إلى الله" أي ينقاد ويخضع ويسلم لله جل وعلا، وهو محسن أي وهو موحد لله، "فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى" وهي لا إله إلا الله، فعلى الموحد بعد أن ردد كلمة التوحيد بلسانه واعتقد معناها بقلبه، أن تبدأ جوارحه في طاعة الله وطاعة رسوله –صلى الله

(٤١) أخرجه مسلم ١٤٥.

(٤٢) أخرجه مسلم ١٤٧.

عليه وسلم- وهذا هو المحك الفعلي الحقيقي الذي يظهر معه المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب والمدعي بحق من المبطل.

والموحد يمثل أوامر الله ونواهيه ويقف عند حدود الله ولايتعداها ليوافق الظاهر الباطن فيثمر بذور الصدق فيكتب صاحبه من المفلحين كما في الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرُ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِىُّ صَوْتِهِ، وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – – صلى الله عليه وسلم –" خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ». فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا قَالَ « لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" وَصِيَامُ رَمَضَانَ ». قَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُ قَالَ « لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ ». قَالَ وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – الزَّكَاةَ. قَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا قَالَ « لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ ». قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ ». (٤٣)

ويبقى -أيها الإخوة- أن ذلك كله لا يقبل إلا عن ركنين رئيسين لابد من الإتيان بهما ألا وهما الإخلاص لله والاتباع لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . حتى يُقبل التوحيدُ بل حتى يُقبل العملُ كله، فلابد من الإخلاص في التوحيد، قال الله -تعالى-: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ "، والإخلاص في التوحيد معناه تصفيته من جميع شوائب الشرك، لأن المشرك يُرَدُّ عليه عمله قال الله -تعالى- في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: قال الله -تبارك وتعالى-: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه(٤٤)فلا يقبل التوحيد إلا من المخلصين وكما سمعنا في الحديث الذي ذكرناه قبل قليل: "فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم- لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أولَ منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه"(٤٥)، هذا هو الإخلاص وهو الشرط الأول لقبول العمل والشرط الثاني أيها الكرام هو الاتباع لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . فإن رسول الله هو الميزان الأكبر الذي توزن عليه الأشياء على خلقه وهديه وسيرته وسنته . صلى الله عليه وسلم . فما وافقها فهو الحق وما خالفها فهو الباطل.

وقد قال الله -تعالى-: "قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣١} قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ{٣٢}" فلا بد من إخلاص العمل لله فلا يكون للنفس ولا

(٤٣) أخرجه البخاري ٤٦، ومسلم ١٠٩.

(٤٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٤٥) أخرجه البخاري ٩٩.

للناس ولا للشيطان فيه حظ ولا نصيب ولابد من اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يكون أسوة ولا قدوة إلا هو ومن كان على طريقة وهديه، بذا يضمن المرء النجاة على الله، النجاة يوم يلقاه كما قال ربنا سبحانه: "فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا".

إن التوحيد –أيها الإخوة– هو "أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل لله – –سبحانه وتعالى– – ؛ وعليه، فهو يعمل سّراً وعلانية، أما غير الموحد؛ كالمرائي مثلاً، فإنه يتصدق ويصلى، ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: "إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو".[٤٦]

نسأل الله أن يعلمنا من ديننا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علماً، اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، نعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين. وأغننا من الفقر.

يا سلوة الطائعين، وملاذ الهاربين، وملجأ الخائفين.......... الدعاء.

---

(٤٦) القول المفيد (١ / ٣٤).

إلى الجنة بغير حساب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

إلهي!

ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله

وما أوضح الحق عند من هديته سبيله

إليك وجهت يا مولاي آمالي.............فاسمع دعائي وارحم ضعف أحوالي

ولا تكلني إلى من ليس يَكْلَؤُني...............وكن كفيلي فأنت الكافل الكالي

أما بعد فيا -أيها الإخوة-!

تحدثنا في اللقاء السابق عن فضل لا إله إلا الله وأنها طوق النجاة، وقلنا إن فضل التوحيد عظيم، ومن فضله أنه يكفر الذنوب والسيئات، وأنه أثقل وأعظم الحسنات، وأنه أفضل الأذكار والدعوات، وبالجملة فهو المنجي من عذاب النار، الموجب لجنة العزيز الغفار، ومن أعظم فضائل التوحيد . أيها الإخوة . أنه يُدخل من حققه الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، وهذا هو موضوع حديثنا بمشيئة الله اليوم:

إلى الجنة بغير حساب:

وسننظم سلك هذا الموضوع كما اعتدنا في العناصر التالية:

أولاً: "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون".

ثانياً: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

ثالثاً: وأخيرًا "وما لنا ألا نتوكل على الله"؟!

فأعيروني القلوب والأسماع . أيها الإخوة . والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولا: وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

-أيها الإخوة- جرت عادة القرآن الكريم والسنة الشريفة على الحث والترغيب في عمل الصالحات والتنفير والترهيب من ارتكاب السيئات، وبينا في ذلك كله الجزاء الأخروي - وربما الدنيوي - الذي ينتظر المحسن والمسيء من ثواب وعقاب ثم جنة ونار من مثل قوله -تعالى-: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) "

[البينة: ٦،٨]، وأمثال ذلك في القرآن الكريم كله كثير ومن السنة ما روى البخاري ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ نُودِىَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ. فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رضى الله عنه - بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِىَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا قَالَ « نَعَمْ. وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ ». [٤٧]

ولم تقف آيات القرآن وأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- عند حد الترغيب في دخول الجنة والترهيب من دخول النار فحسب، بل حثت المسلم على ضرورة السعي إلى معالي الأمور ورفعت همته عن سفاسفها فامتلأت آيات القرآن الكريم بآيات كقوله تعالى:

"وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ" [آل عمران: ١٣٣]

وكقوله -تعالى-: "سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ"

وكقوله -تعالى-: "فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" وكقوله -تعالى-: "وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ".

إلى غير هذه الآيات من كتاب ربنا والتي من شأنها أن ترفع همم المؤمنين لنيل أرفع الدرجات وأشرفها وعدم الرضا بأقلها وأدناها.

---

(٤٧) أخرجه البخاري (٣٦٦٦) ومسلم (١٠٢٧).

وكذلك السنة النبوية حثت على ذلك ففي الحديث الذي أخرجه الطبراني وغيره بسند صحيح عن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله –عز وجل– كريم يحب الكرم ومعاليَ الأخلاق، ويُبغض سَفْسَافَها".(٤٨)
وفي الطبراني وغيره عن فاطمة بنت الحسين عن حسين بن علي مرفوعا"إن الله يحب معالي الأمور وأشرافَها ويكره سَفْسَافها"(٤٩)
وفي الحديث الذي أخرجه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ، فِى سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِى أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ. قَالَ: "إِنَّ فِى الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ »(٥٠)

ومن معنى ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم– لأم حارثة الشهيد الأنصاري الذي استشهد ببدر وقد سألته قائلة: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى فليرين الله ما أصنع – تعني من البكاء وما تفعل النساء–، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: « وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِىَ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ » .(٥١)

فبمثل هذه النصوص –أيها الإخوة– رقّى القرآن والسنة همة المؤمنين ورفع إرادتهم وشد من أزرهم وعزيمتهم وأرشدهم أن يطلبوا معالي الأمور وأشرافها وأن يتركوا دونها وسفسافها، وإنما ينال من ينال هذا بالعلم فالعلم هو الدليل على كل خير وفضل وشرف، ورب رجل ظل يعمل طوال عمره عملاً لو اطلع على شيء من العلم عرف ما يجمع له حسنات ذلك العمر كله في عمل يوم وليلة فقط، بل وربما ساعة فالعلم يوفر الجهد والوقت ويوصل إلى المعالي من أقصر الطرق وحسبنا هذا الحديث الذي أخرجه مسلم عن جويرية أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله

---

(٤٨) أخرجه أبو الشيخ في"أحاديثه"(١٢ / ١) و الحاكم (١ / ٤٨) و أبو نعيم في"الحلية"(٣ / ٢٥٥ و ٨ / ١٣٣) و السلفي في"معجم السفر"(١٨ / ١)، وهو في السلسلة الصحيحة"٣ / ٣٦٦.
(٤٩) أخرجه الطبراني رقم (٢٨٩٤) و ابن عدي (١١٤ / ١) و القضاعي (٨٩ / ٢)، وهو في السلسلة الصحيحة"٤ / ١٦٨.
(٥٠) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).
(٥١) أخرجه البخاري ٣٩٨٢.

وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته (٥٢)

أيها الإخوة!

وفي اللحظات القليلة الباقية سنلتقي بحوار ممتع جذاب حول هذا الموضوع في أن العلم يدل المرء على أقصر الطرق وأقربها إلى الله ومن أنفع هذه الطرق بل أنفعها وأقربها على الإطلاق تحقيقُ التوحيد فله فضل عند الله –تعالى– عظيم، فهو يأخذ بيد صاحبه إلى الجنة بغير حساب وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء فضل تحقيق التوحيد –أيها الإخوة– لقد أثني الله –تعالى– على سيد من سادات الموحدين وقدوات المحققين وهو الخليل إبراهيم عليه السلام، فقال: "إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين".

قال بعض أهل العلم: "وصف الله خليله إبراهيم عليه السلام بأربع صفات هي:

الصفة الأولى: أنه كان أمة يعني قدوة في الخير.

الصفة الثانية: أنه كان قانتاً لله يعني ثابتاً على الطاعة مخلصاً عمله لله.

الصفة الثالثة: أنه كان حنيفاً يعني مقبلاً على الله معرضاً عما سواه.

الصفة الرابعة: أنه لم يك من المشركين، يعني هو بريء منهم ومن دينهم، وهذا هو تحقيق التوحيد يكون بهذه الأمور، وهذا الثناء من الله عليه لأنه حققها. (٥٣)

وقال –تعالى–: عن سادات الأولياء يمدحهم ويثني عليهم بسلامتهم من الشرك:

" إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)" [المؤمنون: ٥٧ - ٦٠]

عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قالت عائشة أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات(٥٤)

---

(٥٢) أخرجه مسلم ٧٠٨٨.

(٥٣)إعانة المستفيد (١/ ٧٧، ٧٨)، للعلامة صالح الفوزان، بتصرف، مؤسسة الرسالة، الثالثة، ١٤٢٣، ٢٠٠٢.

(٥٤) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢).

هذه الصفات العظيمة هي تحقيق التوحيد –أيها الإخوة– ولذلك أثنى الله على من حققها ومدحهم بها.

وفي الصحيحين[٥٥] عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة [يسأل سعيد الجالسين عنده من منكم رأى الشهاب الذي سقط الليلة الماضية"، قال حصين: قلت: أنا، يعني أنا رأيت الشهاب، فدل هذا على أن هذا الرجل لم ينم بل كان ساهراً، ثم إنه خشي على نفسه من الرياء وأن يمدح بما ليس فيه ويحمد بما لم يفعل فاستدرك وقال: "أما إني لم أكن في صلاة" يعني لا تظنوا أني سهرت أتهجد، وهذا من ورع السلف رحمهم الله وابتعادهم عن الرياء وتزكية النفس لأن هذا ينافي الإخلاص، فهو خشي أن يمدح بما لم يفعل، ثم قال: "ولكني لدغت"، يعني السبب في كوني كنت مستيقظاً وقت نزول الشهاب أنني لدغت يعني أصابته عقرب أو نحوها بسمها.

فقال له سعيد: فما صنعت؟ قال: ارتقيت، يعني طلبت من يرقيني أي من يقرأ على شيئا من القرآن وهذا من أنفع الأدوية، لأن الله –تعالى– أنزل القرآن شفاء لكل الأمراض الحسية والمعنوية، قال –تعالى–: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً"لكن ذلك مشروط باليقين أن تكون الرقية عن يقين من الراقي ويقين من المرْقِيّ.

فلما سمع سعيد من حصين أنه ارتقى قال: "فما حملك على ما صنعت"يعني ما الذى دفعك إلى ذلك ما هو الدليل من الكتاب أو السنة على صحة ما فعلت فقد كانوا يتعبدون الله، لا يتعبدونه إلا بالوحي، فتنبه يا عبد الله ولا تُقْدِم على فعل شيء إلا بعد التأكد من جوازه شرعاً خصوصاً في أمر العلاج، لأن النفوس تتشبث بأي شيء لطلب الشفاء حتى ولو كان غير مشروع، فسعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ خشي من هذا الأمر على صاحبه حصين بن عبد الرحمن وهو عالم فقيه تابعي جليل، فيا لله ماذا نقول نحن للذين يذهبون إلى المشعوذين والدجالين والسحرة والكذبة؟ هذا محرم يا عباد الله وقد يكون شركًا أكبر يُخرج صاحبه من الملة إذا ذبح لغير الله، أو دعا غير الله كولي أو غيره، أو استغاث بالأولياء أو بالجن والشياطين فإنه يخرج من الملة، ولو فرضنا أنه شفي ماذا ينفعه إذا ذهبت عقيدته وصح جسمه، هذا أمر وباب شر خطير جدّاً يجب التحرز منه.

فلما سأل سعيد حصيناً عن الدليل على ما فعله أجابه حصين بن عبد الرحمن عن دليله قائلاً: حديث حدثنيه الشعبي قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب –رضي الله عنه–أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا رقية إلا من عين أو حُمَة"يعني لا رقية أنفع وأشفى إلا لمن أصابه عين بسبب الحسد الذي يكون في بعض الناس إذا نظر إلى الأشياء أصيبت على أثر نظرته، لأن نظره مسموم، وهذا من عجائب خلق الله وقدرته أنه يجعل بعض الأنظار مسمومة، والعين حق، لا كما يظن بعض الناس أن الحسد من الخرافات!! كيف ذلك وقد ذكره الله في القرآن فقال:

---

(٥٥) أخرجه البخاري (٥٧٥٢، ٣٤١٠، ٥٧٠٥، ٦٥٤١، ٦٤٧٢)، ومسلم (٢٢٠).

"وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ [الفلق: ٥] "وذكره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السنة فقال عليه الصلاة والسلام: "العين حق، ولو أن شيئاً سبق القدر لسبقته العين"، فمن علاج العين الذي وضعه الشرع الرقيةُ بأن يُقرأ على المصاب: الفاتحة والمعوذتان فالرقية تنفع من العين والحسد.

وكذلك تنفع من الحُمَة"لا رقية إلا من عين أو حُمَة"و الحمة هي اللدغة كما حدث لصاحب هذه القصة وهو محل الشاهد الذي لأجله ساق الحديث "لا رقية إلا من عين أو حمة" ومعنى الحديث: أنها تنفع في هذين النوعين نفعاً مؤكداً وليس المقصود حصر النفع في هذين الشيئين فقط أو أنها ـ والله أعلم ـ مثال لنوعيهما فالعين من نوع الأمراض المعنوية والحمة أي اللدغة من نوع الأمراض الحسية فيكون معنى ذلك أن الرقية تشفي من الأمراض كلها، ولما أتى حصين بن عبد الرحمن بالدليل على ما فعل قال له سعيد بن جبيرٍ ـ يثني عليه ويمدحه لأجل ذلك ـ: "قد أحسن من انتهى إلى ما سمع" يقول: جزاك الله خيراً أنك فعلت ما فعلت بدليل عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وهذا من أدبهم مع حديث رسول الله ثم رأى سعيد بن جبير أن يفيد حصيناً بفائدة عظيمة أعظم من التي فعلها وأفضل،: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن أي: ولكن هناك ما هو أحسن فإن كنت فعلت الحسن فهناك ما هو أحسن، فأراد أن يرقيه من الحسن إلى الأحسن، قال: "ولكن حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "عُرِضَت عليّ الأممُ أي أري النبي –صلى الله عليه وسلم– الأمم السابقة وهذه معجزة من معجزات المصطفى –صلى الله عليه وسلم– وقد صح في سنن الترمذي أن هذا العرض كان ليلة الإسراء والمعراج(٥٦)فلما نظر النبي إلى الأمم تمر عليه يقول المصطفى: "فرأيت النبي ومعه الرَّهْط" يعني العدد القليل الذي يقل عن عشرة أفراد وفي رواية"ومعه الرُّهَيْط"، يعني أقل من عشرة ضرورة، –أيها الإخوة–! لم يتبع ذلك النبي من أمته إلا دون العشرة وبقية الأمة كفروا به،"وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ بل" اسمعوا يقول المصطفى: "فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد"يؤمن بنبي أقل من عشرة وربما رجلان أو رجل أو لا يؤمن به أحد من أمته على الإطلاق، ولا يدخل الجنة من أمته أحد، لأنه ليس فيهم موحد، فيدخل ذلك النبي الجنة وحيداً فريداً ليس معه أحد، نسأل الله أن يحفظ علينا توحيدنا.

ولهذا –أيها الإخوة– لا ينبغي لنا على الإطلاق أن نحتج بكثرة أهل الباطل على أهل الحق لأنهم قلة، وكذلك لا يصح للبعض أن يحتج بموقف هؤلاء الأنبياء الذين لم يتبعهم أحد بأنهم على الحق لأنهم مثلهم في قلة، بل الحق والصواب أن ننظر فيما نحن عليه فإذا كنا على الكتاب الكريم وعلى السنة المطهرة وكنا على منهج الصحابة والسلف الصالح عليهم رضوان الله فلا تغرنا كثرة ولا تضرنا قلة.

قال بعض السلف: "اسلك سبيل الحق ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق أهل الضلال ولا يغرنك كثرة الهالكين"، أسأل الله لي ولكم السلامة من كل سوء.

---

(٥٦) أخرجه الترمذي (٢٤٤٦) وصححه الألباني في صحيحه، وانظر: فتح الباري (١٨ / ٣٨٩).

-أيها الإخوة- وبينما النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المشهد العجيب والمنظر المبهر المهيب نظر فرأى موقفاً طيباً تمناه في نفسه لأمته، يقول -صلى الله عليه وسلم-: "إذ رفع لي سواد عظيم"- أي خلق كثير- فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب"الموقف موقف القيامة واليوم يوم الحساب فالخلائق تحاسب، منهم من يحاسب حساباً يسيراً ومنهم من يحاسب حساباً شاقاً عسيراً، ومنهم من يقرر بأعماله وهم الكفار على الراجح من أقوال أهل العلم يقررون بكفرهم ثم يؤمر بهم إلى النار، الموقف أهوال عظام وشدائد صعاب، وفي هذا الموقف الرهيب المهيب ينادى على طائفة من الموحدين من أمة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ليدخلوا الجنة بغير حساب، فمن هؤلاء يا ترى.

قف أخي الحبيب معي وقفة قصيرة لتتساءل معي أولًا: كم عدد هذه الطائفة؟ قد ذكر الحديث الذي معنا أنهم سبعون ألفاً

قَالَ الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الفتح(٥٧): وَقَدْ وَقَعَ فِي أَحَادِيث أُخْرَى أَنَّ مَعَ السَّبْعِينَ أَلْفًا زِيَادَة عَلَيْهِمْ، فَفِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة عِنْد أَحْمَد وَالْبَيْهَقِيِّ فِي الْبَعْث عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "سَأَلْت رَبِّي فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِل الْجَنَّة مِنْ أُمَّتِي"فَذَكَرَ الْحَدِيث وقال: "فَاسْتَزَدْت فَزَادَنِي مَعَ كُلّ أَلْف سَبْعِينَ أَلْفًا"وَسَنَده جَيِّد، قال الحافظ: وَجَاءَ فِي أَحَادِيثَ أُخْرَى أكثر مِنْ ذَلِكَ: فَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه مِنْ حَدِيث أَبِي أُمَامَةَ رَفَعَهُ"وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِل الْجَنَّة مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا مَعَ كُلّ أَلْف سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَاب عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَاب، وَثَلَاث حَثَيَات مِنْ حَثَيَات رَبِّي"، وَفِي صَحِيح اِبْن حِبَّان أَيْضًا وَالطَّبَرَانِيّ بِسَنَدٍ جَيِّد مِنْ حَدِيث عُتْبَةَ بْن عَبْد نَحْوه بِلَفْظِ"ثُمَّ يَشْفَع كُلّ أَلْف فِي سَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يُحْثِي رَبِّي ثَلَاث حَثَيَات بِكَفَّيْهِ"وَفِيهِ: "فَكَبَّرَ عُمَر أي قال عمر: الله أكبر، فَقَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ السَّبْعِينَ أَلْفًا يُشَفِّعُهُمْ اللَّه فِي آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتهمْ وَعَشَائِرهمْ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُون أَدْنَىَ أُمَّتِي الْحَثَيَات"وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَزَادَ: "قَالَ قَيْس فَقُلْت لِأَبِي سَعِيد: سَمِعْته مِنْ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَقَالَ رَسُول صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَذَلِكَ يَسْتَوْعِب مُهَاجِرِي أُمَّتِي وَيُوَفِّ اللَّه بَقِيَّتَهُمْ مِنْ أَعْرَابِنَا"وَفِي رِوَايَة لِابْنِ أَبِي عَاصِم قَالَ أَبُو سَعِيد"فَحَسَبْنَا عِنْد رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَلَغَ أَرْبَعَة آلَاف أَلْف وَتِسْعَمِائَةِ أَلْف"يَعْنِي مَنْ عَدَا الْحَثَيَات وَقَدْ وَقَعَ عِنْد أَحْمَد وَالطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيث أَبِي أَيُّوب نَحْو حَدِيث عُتْبَةَ بْن عَبْد وَزَادَ"وَالْخَبِيئَة - بِمُعْجَمَةٍ ثُمَّ مُوَحَّدَة وَهَمْزَة وَزْن عَظِيمَة - عِنْد رَبِّي" أي. والله أعلم لا يزال لدي الأمل في أن ما يخبئه الله لي من الكرامة كثير وعظيم.

وَعِنْد أَحْمَد عَنْ أَنَس رَفَعَهُ"إِنَّ اللَّه وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِل الْجَنَّة مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعمِائَةِ أَلْف، فَقَالَ أَبُو بَكْر: زِدْنَا يَا رَسُول اللَّه، فَقَالَ: هَكَذَا وَجَمَعَ كَفَّيْهِ، فَقَالَ: زِدْنَا. فَقَالَ وَهَكَذَا. فَقَالَ عُمَر حَسْبك أَنَّ اللَّه إِنْ شَاءَ أَدْخَلَ خَلْقَهُ الْجَنَّة بِكَفٍّ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ عُمَر" قال الحافظ عن هذا الحديث: وَسَنَده جَيِّد

---

(٥٧) فتح الباري (١٨ / ٣٨٩).

لله در أبي بكر وعمر وجزاهما الله عنا كل خير ومعروف وبر فقد أسديا إلى الأمة كل خير، ثم يكون جزاؤهما من بعض من ينتسب إلى الإسلام أن يسبهما وهل يسب الخيران؟! فإلى الله المشتكى.

إيّاكَ والبدع المضلّة إنها... تهدي إلى نار الجحيم وتورد

وعليك بالسنن المنيرة فاقْفُها... فهي المحجة والطريق الأقصد

فالأكثرون بمبدعات عقولهم... نبذوا الهدى فتنصّروا وتهودوا

منهم أناسٌ في الضلال تجمّعُوا... وبسبِّ أصحاب النبيِّ تفَرّدوا

قد فارقوا جمع الهدى وجماعة الإ... سلام، واجتنبوا الهدى وتمردوا

باللهِ يا أنصارَ دينِ محمد...نوحوا على الدين الحنيف وعددوا

لَعِبت بدينكم الروافض جهْرةً... وتألّبوا في دحضه وتحشدوا

نصبوا حبائلهم بكلِّ بليةٍ... وتغلّظوا في المعضلات وشددوا

ورموا خيارَ الخلق بالكذب الذي... هم أهله، لا مَنْ رَمَوْهُ وأفسدوا

عابوا الصحاب وهم أجل مراتباً في الفخر في أفق السماء وأمجدُ

ولرُتبة الصدِّيق جفّ لسانهم يبغون وَهْي من التناول أبعدُ

أوَ ما هو السَّباق في عرف العلى... ولقد زكى من قبل منه المحْتِدُ

ولقد أشار بذكره ربُّ العُلى... فثناؤه في المكرمات مسددُ

نطقَ الكتاب بمجده الأعلى ففي... آي الحديد مناقبٌ لا تنفدُ

لا يستوي منكم وفيها مقنع... والليلُ يثبتُ فضلَه ويؤكدُ

وبراءة تثني بصحبته وهل... يُزْرِى على الصدِّيق إلا مُلْحدُ

أو ما هو الأتقى الذي استولى على الإخلاص طارف ماله والمتلدُ

لما مضى لسبيله خير الورى... وحوى شمائله صفيحٌ ملحدُ

مَنَعَ الأعاريبُ الزكاةَ لفقده... وارتدّ منهم حائر مترددُ

وتوقدت نار الضلال وخالطت... إبليس أطماع كوامن رصدُ

فرمى أبو بكر بصدق عزيمةٍ... وثبات إيمان ورأي يحمدُ

فتمزقت عُصب الضَّلال وأشرقت... شمسُ الهدى وتقوم المتأودُ

وهو الموفّقُ للصواب كأنما... مَلَكٌ يصوّبُ قوله ويسدّدُ

بوفاقه آي الكتاب تنزلت... وبفضله نطق المشفّع أحمدُ

لو كانَ من بعدي نبيّاً كُنْتَهُ... خبراً صحيحاً في الرواية يسندُ

وبعدله الأمثال تُضرب في الورى... وفُتوحُه في كل قُطْرٍ توجدُ

وتمامُ فضلها جوارُ المصطفى... في تربةٍ فيها الملائك تُحشدُ

وتعمّقوا في سبِّ عُثمانَ الذي... ألفاه كُفواً لابَنَتْيِهِ محمدُ

ولبيعة الرضوان مدَّ شمالَه... عوضَ اليمين وهي منه أوكدُ

وحباهُ في بدرٍ بسهم مجاهد... إذ فاته بالعذر ذاك المشهدُ

من هذه من بعض غر صفاته... ما ضره ما قال فيه الحُسَّدُ

ثم ادّعوا حبَّ الإمام المرتضى... هيهات مطلبهم عليهم يبعدُ

أنى وقد جحدوا الذين بفضلهم... أثنى أبو الحسن الإمام السيِّدُ

ما في عُلاه مقالة لمخالف... فمسائل الإجماع فيه تعقدُ

ولنحن أولى بالإمام وحبِّه... عَقدٌ ندينُ به الإلهَ مؤكَّدُ

وولاؤه لا يستقيم ببغضهم... واضرب لهم مثلاً يغيظ ويكمدُ

مِثلُ الذي جحدَ ابن مريمَ وادّعى... حب الكليم وتلك دعْوى تفسدُ

وبقذف عائشة الطهور تجشموا... أمراً تظل له الفرائص ترعدُ

تنزيهها في سبع عشرة آيةٍ... والرافضيُّ بضدّ ذلك يشهدُ

لو أنَّ أمرَ المسلمين إليهم... لم يبقَ في هذي البسيطة مسْجدُ

ولو استطاعوا لا سعت بمرامهم... قَدمٌ ولا امتدت بكفِّهم يدُ

لم يبقَ للإسلام ما بين الورى... علمٌ يسود ولا لواء يُعْقدُ

كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما سببا فى ازدياد هذا العدد زيادة هائلة الخلاصة أن هذا العدد كبير جداً جداً –أيها الإخوة– .

هذا –أيها الإخوة– عن عددهم وهو كثرة لا تحد وأما عن صفتهم فهى حسن لا يوصف فقد روى البخاري من حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ » (٥٨).

وعن سهل بن سعد قال: قال النبي صلى الله عليه و سلم « لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ – شَكَّ فِي أَحَدِهِمَا – مُتَمَاسِكِينَ ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ

(٥٨) أخرجه البخاري (٦٥٤٢) ومسلم (٢١٥).

لَيْلَةَ الْبَدْرِ » . (٥٩) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَفَعَهُ: "أَوَّل زُمْرَة تَدْخُل الْجَنَّة عَلَى صُورَة الْقَمَر، وَالَّذِينَ عَلَى آثَارهمْ كَأَحْسَن كَوْكَب دُرِّيّ فِي السَّمَاء إِضَاءَة". (٦٠)

وَأَخْرَجَ مُسْلِم مِنْ حَدِيث جَابِر"فَتَنْجُو أَوَّل زُمْرَة وُجُوههمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْر سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ"(٦١) ما أكثرهم وما أحسنهم ما أوفرهم وما أبهاهم وأنضرهم

فمن هؤلاء يا ترى!! من هؤلاء السعداء الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب؟!

إن أصحاب النبي– صلى الله عليه وسلم– شغلهم هذا الوصف من رسول الله لهؤلاء الأخيار الذين لا يقفون في أرض المحشر للحساب بل يدخلون الجنة بلا سابق عذاب فذهبوا يتوقعون، فقال بعض الصحابة: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–. هؤلاء هم أصحاب النبي —صلى الله عليه وسلم– الذين صحبوا رسول الله،الذين اكتحلت عيونهم برؤية الحبيب محمد وآمنوا له وصدقوه واتبعوا النور الذى أنزل معه كذا قال بعضهم وحق لهم فالصحبة شرفها عظيم.

وقال بعض: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ. وهذه هي الأخرى عظيمة جليلة فمن نشأ في الإسلام وتربى وترعرع في بستان التوحيد وتغذي وتنفس رياض الإيمان والسنة فقد فاز فوزاً عظيماً.

وفجأة وهم يتحدثون ويخوضون ويتناقشون يذكرون من يكون هؤلاء، منهم من قال: هم الصحابة ومنهم من قال هم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا وذكروا أشياء وضحت بعض الروايات أنهم ذكروا أيضاً الشهداء وفي بعضها أنهم ذكروا أنهم الذين رقت قلوبهم للإسلام. (٦٢)

المهم أنهم صاروا يتناقشون وفجأة خرج عليهم النبي —صلى الله عليه وسلم: "قال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه، وهذا النقاش من الصحابة في أمرهم يدل على حرص الصحابة رضوان الله عليهم على أبواب الخير وطرق المعروف والاهتمام بما ينفع في الآخرة، ويوصل إلى رضا الله، ولقد فعل النبي معهم ذلك، أي تركهم ونهض لأجل أن يثير في أنفسهم وهمتهم هذا الحرص وينميه ويشوقهم إلى ما لأجله حدثهم بهذا الحديث فلما عرف أنهم قد وصلوا إلى ما يريد من هدف النقاش كشف لهم الستار عن حقيقة هؤلاء السعداء الأبرار وعرفهم من هم فقال:

---

(٥٩)أخرجه البخاري (٦٥٥٤) ومسلم (٢١٩).

(٦٠)أخرجه البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤).

(٦١) أخرجه مسلم ٤٨٩.

(٦٢) فتح الباري (١٨ / ٣٨٩).

« هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

فذكر في وصفهم خمس صفات:

١- لا يرقون، ٢. ولا يسترقون، ٣. ولا يكتوون، ٤. ولا يتطيرون، ٥. وعلى ربهم يتوكلون.

وهذه الصفات كلها من توحيد المرء لله -تبارك وتعالى- فتعالوا نتعرف إلى هذه الصفات.

الصفة الأولى لا يرقون، ومعنى ذلك أنهم تركوا كل الرقي التي كانوا يرقون بها في الجاهلية، فإذا رقوا أحداً كانت رقاهم مأخوذة من كتاب الله وسنة نبيه أو موافقة لما فيهما روى مسلم من حديث عوف بن مالك -رضي الله عنه-قال: كنا نرقى في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا على رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك(٦٣)فعلى هذا فالرقية جائزة مباحة إذا كانت خالية من الشرك، أما إذا كان فيها شرك فإنها تكون ممنوعة محرمة لا يحل للإنسان أن يَرقى أو يُرقىَ.

وليس المقصود أن المسلم لا يرقى أحداً لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يرقي ورقاه جبريل وعائشة، وكذلك الصحابة كانوا يرقون والرقية من النفع الذي يطلب من المسلم ففي الصحيح من حديث جابر -رضي الله عنه-قال: كان لي خال يرقي من العقرب فنهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الرقي، فأتاه فقال: يا رسول الله: إنك نهيت عن الرقي وأنا أرقي من العقرب فقال: من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل".(٦٤)

فالمقصود -أيها الإخوة- أن الموحد الذي حقق توحيده يبعد كل البعد عن استخدام الرقي التي تحتوي على شرك بالله وإن اقتصر على رقي القرآن الكريم والسنة المطهرة كالمعوذتين والفاتحة وما ورد من رقي النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أفضل وآمن.

الصفة الثانية: لا يسترقون، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم، لماذا؟

أولاً: لقوة اعتمادهم على الله وشدة توكلهم عليه سبحانه، فهم يطلبون ذلك منه وحده.

ثانياً: لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله، فإن في السؤال مذلة.

---

(٦٣) أخرجه مسلم ٥٨٦٢.

(٦٤) أخرجه مسلم ٥٨٥٧.

ثالثاً: حفاظاً على قلوبهم أن تتعلق بغير مَن بيده النفع والضر وحده سبحانه. (٦٥)

فهم لا يسترقون، لا يطلبون من أحد أن يرقيهم، ليحفظوا توحيدهم أن تلتفت قلوبهم إلى غير الله –تعالى–

وأصل الاسترقاء مباح . –أيها الإخوة– . لكن يطلب التنزه عنه والترفع لمن أراد أن يكون من هذه الصفوة والدليل على إباحته ما روي البخاري ومسلم من حديث أم سلمة أن النبي –صلى الله عليه وسلم– رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة فقال: "استرقوا لها فإن بها النظرة"(٦٦)، فالاسترقاء مباح لكنه يحرم الإنسان من أن يكون ضمن هذه الزمرة المباركة والطائفة الميمونة.

لكن السؤال الآن –أيها الإخوة–! هل من رقاه غيره بغير طلب منه يخرج من دائرة الذين يدخلون الجنة بغير حساب؟

والجواب: لا فإن جبريل وعائشة رقيا النبي–صلى الله عليه وسلم– وفي هذا دليل على أن من رقاه غيره من غير طلب منه لا يخرج عنهم بل لا يزال منهم إن أكمل بقية الصفات، أما الذي طلب ذلك فإنه لا يكون من هذه الطائفة المباركة.

الصفة الثالثة: "لا يكتوون"أي لا يطلبون من أحد أن يكويهم والكي كما نعلم دواء في بعض الأحيان لبعض الأمراض وقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن فيه شفاء كما في الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: « الشِّفَاءُ فِى ثَلاَثَةٍ شَرْبَةِ عَسَلٍ ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، وَكَيَّةِ نَارٍ ، وَأَنْهَى أُمَّتِى عَنِ الْكَىِّ » . وفي رواية: وما أحب أن أكتوي(٦٧) فأخبر أن فيه شفاء لكنه نهى عنه وأخبر أنه لا يحبه وهذا –أيها الإخوة– على سبيل الكراهة، فالكي على هذا مكروه وتركه أولى وأفضل، أما إذا تحقق المرء من أنه لا علاج إلا هو فلا شيء عليه إذا فعل فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه: "أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه"(٦٨)

قال ابن القيم: تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له،والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينهما بحمد الله فإن فعله له يدل على جوازه وعدم محبته له لا يدل على المنع منه وأما الثناء على تاركيه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية.

---

(٦٥) القول المفيد (٦٠) للعلامة ابن عثيمين –رحمه الله تعالى–، مكتبة الرحاب

(٦٦)أخرجه البخاري (٥٧٣٩).

(٦٧) أخرجه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥).

(٦٨) أخرجه مسلم (٥٨٧٥).

وقال العلماء: إن المريض إذا ابتلى بمرض يُعلم بالعادة المطردة هلاكُ المريض به إذا لم يعالج وجب عليه العلاج وحرم عليه تركه فكذلك الكي إذا كان هو العلاج الوحيد أما إذا كان هناك غيره فالأفضل تركه.

الصفة الرابعة: "ولا يتطيرون" أي: لا يتشاءمون بالطيور أو بغيرها، كمن يتشاءم من رقم معين أو طريق معين أو شخص معين أو ساعة معينة كالجهال الذين يقولون: في يوم الجمعة ساعة نحس وكذبوا بل في يوم الجمعة ساعة إجابة، وكذا هناك من يتشاءم بصوت الغراب أو البومة فالصحيح أن المرء لا يتشاءم بهذه الأشياء ولا يتفاءل بها فإنه من عمل الجاهلية فعن عكرمة قال: كنت عند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فمر طائر فصاح، فقال رجل: خيراً خيراً فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عند هذا من خير ولا شر.

نعم ما في الطيرة خير ولا شر فلا يأتي بالخير والشر إلا الله –عز وجل–، لذلك لا ينبغي على الإطلاق أن نتشاءم من شيء حتى لا نقع في الشرك بالله، نعم الشرك، فإن التطير باب من أبواب الشرك كما صح في الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن مسعود –رضي الله عنه–أن النبي —صلى الله عليه وسلم– قال: "التطير شرك". قال ابن مسعود: "وما منا إلا، ولكن الله يُذهبه بالتوكل"(٦٩)

والمقصود بقوله: وما منا إلا، يعني إلا من يقع في قلبه شيء من ذلك، فحذار عباد الله فإن الأمر خطير، من ادعى أن شيئاً يأتي بالخير أو الشر دون دليل شرعي كان كاذباً على الله ورسوله وكاذباً على القدر وكان ذلك منه ذريعة للشرك الأكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فما هو الحل لهذه المسألة فإن المرء لا شك يقع في قلبه شيء من هذا؟ ما هو الحل؟

الحل . أيها الإخوة .: والعلاج مباشرة من فم المصطفى —صلى الله عليه وسلم– فيما روى ابن السني وابن أبي شيبة عن عروة بن عامر –رضي الله عنه–قال: سئل النبي —صلى الله عليه وسلم– عن الطيرة فقال: أصدقها الفأل، ولا يرد مسلماً، وإذا رأيتم من الطيرة شيئاً تكرهونه فقولوا: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك".(٧٠)

---

(٦٩) أخرجه أبو داود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) وابن ماجه (٣٥٣٨) وصححه الألباني في غاية المرام (٣٠٣)، الصحيحة (٤٣٠)، الترمذي (١٦٧٩).

(٧٠) أخرجه أبو داود (٣٧١٩) وصححه النووي في شرح مسلم – (٧ / ٣٨٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة ٢٩٢، وهو حديث حسن إن شاء الله وانظر
الصحيحة"٦ / ١٥٤.

فلا تبال – أيها الحبيب – بما رأيت من شيء تشاءمت منه بل امض وتوكل على الله فإن التوكل على الله يذهب ذلك التطير كما قال ابن مسعود: "ولكن الله يذهبه بالتوكل".

ولهذا ختم النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه الصفات الخمس بصفة جامعة عامة شاملة فقال عليه الصلاة والسلام.

الصفة الخامسة: "وعلى ربهم يتوكلون" وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء: وما لنا ألا نتوكل على الله، نعم فالتوكل على الله هو نهاية تحقيق التوحيد وهو جماع الإيمان والتوكل الحقيقي هو صدق اعتماد القلب على الله والسؤال كيف يحصل التوكل؟ والجواب: يحصل التوكل إذا وثق العبد بربه وعلم أن الأمور كلها بيده، ثم أخذ بعد ذلك بالسنة فباشر الأسباب مع اعتقاده أن الأسباب لا تضر ولا تنفع إلا بأمر مسبب الأسباب جل جلاله فإن فعلنا ذلك –أيها الإخوة– فقد حققنا التوحيد إذا جمعنا هذه الصفات الخمس: "الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون".فمن لها –أيها الإخوة–؟ من الذي يشتاق أن يدخل الجنة بغير حساب ولا سابق عذاب؟

ألا من رجل موحد يقول: أنا؟ أين أصحاب الهمم العالية؟

أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

ما إن سمع أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذا الخبر حتى قام واحد منهم، ترى من هو؟ إنه عكاشة بن محصن الأسدي أحد السابقين إلى الإسلام صاحب بدر وغيرها من المشاهد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بل وصاحب المشاهد بعد وفاة المصطفى في حروب الردة وغيرها مع الصديق.

قام عكاشة فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال – صلى الله عليه وسلم– قال: أنت منهم.

أنت منهم! يا الله، ويستحقها فقد روى أصحاب السير أنه بينما المعركة –معركة بدر– دائرة والقتال مستمر وعكاشة بن محصن في المقاتلين إذا بسيفه ينقطع من الضرب في يده، لشدة شجاعته وبلائه انكسر السيف فكيف يقاتل؟ فأتى القائد أتى الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهو في العريش –مركز القيادة– وشكا إليه انقطاع سيفه اسمع فتناول النبي –صلى الله عليه وسلم– عوداً من حطب وقال: قاتل بهذا يا عكاشة، فلما أخذه من يد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هزه

في يده فعاد سيفاً في يده طويل القامة شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى "العَوْن" ومازال مع عكاشة يقاتل به حتى قتل –رضي الله عنه– في حرب الردة على عهد أبي بكر –رضي الله عنه– فكان هذا السيف آية النبوة المحمدية القوية وعلامة ودلالة على عظم توكل عكاشة –رضي الله عنه–[(٧١)] هذا –أيها الإخوة– هو صاحب السبق متوكل على الله، في كل مجال يسعى ليرضى الله، ولذا قال له النبي –صلى الله عليه وسلم–: "أنت منهم"، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله، أن يجعلني منهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "سبقك بها عكاشة".

صلى الله على صاحب الخلق الكريم العظيم، لما علم النبي بما علمه ربه أن الرجل ليس أهلاً لتلك المنزلة وأنه لذلك لن يجيبه إلى مطلبه، اختار ألطف الكلمات وألينها مع حسن أدب وجمال منطق فقال: سبقك بها عكاشة، أبى النبي أن يُحتَجَز من هذه المقاعد كلها إلا مقعد واحد ولو فتح الباب لاكتملت المقاعد أو كادت لكنها في السبق معدة لا زالت للمتسابقين كما قال الله –تعالى–: "ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ" [الواقعة: ١٣، ١٤].

فمن منا –أيها الإخوة– يرجو أن يكون من هؤلاء الذين حققوا التوحيد بتمام توكلهم على العزيز الحميد.

كيف نحقق التوحيد؟ في نقاط سريعة هي خلاصة هذه الخطبة أسأل الله أن يجعلنا من الذين يدخلون الجنة بغير حساب:

أولا: يتحقق التوحيد إذا أتى المرء بأركانه، فعبد الله –تعالى– واتبع رسوله –صلى الله عليه وسلم–، فحقق العبادة بالبعد عن الشرك، وحقق الاتباع بالبعد عن البدع.

ثانيا: يتحقق التوحيد إذا أتى المرء بمقتضياته فأتى بالواجبات وتجنب المحرمات وترك المكروهات، وهذا يقتضي معرفة ما يحبه الله ورسوله لنحافظ عليه وما يكرهه الله ورسوله لنبعد عنه ونجتنبه ولايكون هذا إلا بالعلم فخصص من وقتك جزءًا لتتعلم عن الله ورسوله على أيدى العلماء الربانيين وهذا واجب.

ثالثاً وأخيراً: يتحقق التوحيد إذا دعونا إليه وحفزنا الناس إليه، فبعدما تعلمنا نحن التوحيد وعملنا به يجب علينا أن نعلمه الناس وندعوهم إليه حتى نفيء بهم إلى رياض التوحيد الماتعة وبساتينه اليانعة وحدائقه الغناء الرائعة بعيداً عن حر الشرك وقيظه فإن الشرك خطره عظيم وشره كبير وضرره مستطير وخطير وهذا ما سوف نتعرف إليه بمشيئة الله –تعالى– في لقاءاتنا القادمة إن قدر الله لنا اللقاء والبقاء. ألا فاحمدوا الله يا إخوان الذي هدانا لهذا الدين، وشرَّفنا بهذا الدين، وأكرمنا بهذا الدين، ورفع قدرنا بهذا الدين، يوم ضلَّ غيرُنا من العاملين.

اللهم أصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُثْنِينَ بها، قابليها، وأتمها علينا.........الدعاء.

---

(٧١) هذا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يا محب (ص ١٩٤، ١٩٥) للعلامة أبي بكر الجزائري، بتصرف، المكتبة التوفيقية.

الهُوّة الهاوية.......الشرك بالله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

عليك سلامُ اللهِ مَا هبَّتِ الصَّبَا وَمَا لاَحَ وَهْناً فِي دُجَى اللَّيلِ كوكبُ

أما بعد فيا أيها الإخوة!

تحدثنا في اللقاءات السابقة عن وجوب التوحيد وفضله وأن من حققه دخل الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، وإذا كان الضد يظهر حسنه الضد، فلا يعرف الحلو إلا بالمر، ولا يعرف الجميل إلا بالقبيح، ولا يَعرف قيمة الصحة التي تتوج رءوس الأصحاء إلا الذين يعانون المرض فبضدها تتبين الأشياء، فتعالوا بنا -أيها الإخوة- لنتعرف إلى ضد التوحيد ألا وهو الشرك، فأعيروني القلوب والأسماع والله أسأل أن يجعلنا من الموحدين، وأن يجنبنا الشرك والمشركين، وسننظم سلك هذا الموضوع الخطير في العناصر التالية:

أولاً: ما هو الشرك؟

ثانياً: خطورة الشرك.

ثالثاً: رحلة الشرك في الأرض.

رابعاً وأخيراً: كيف ننجو من الشرك؟

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولاً: ما هو الشرك؟

-أيها الإخوة- التوحيد هو إفراد الله -تعالى- بكل ما هو من خصائص ربوبيته، فلا خالق إلا هو، ولا مالك إلا هو، ولا رازق إلا هو، ولا محيي إلا هو، ولا مميت إلا هو، ولا مدبر ولا متصرف في شئون الخلق إلا هو، ولا سيد للكون ولا آمر إلا هو.

والتوحيد هو إفراد الله -تعالى- بكل ما هو من خصائص الألوهية، فلا نعبد إلا الله، ولا نطيع إلا الله، ولا نتقرب بشيء من العبادة إلا لله، فلا نصلي ونصوم ونزكي ونسبح إلا لله، ولا نذبح ولا ننذر ولا نتصدق إلا لله، ولا نستجير ولا نستغيث إلا بالله.

والتوحيد أن ننزه الله جل جلاله عن مشابهة المخلوقين في أسمائهم وصفاتهم، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير، نؤمن بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تعطيل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تأويل، فكل ما دار ببالك فالله بخلاف ذلك، جل ربنا عن الشبيه والنظير وعن المثيل لا ند له ولا كفء له ولا شبيه له ولا مثيل له ولا صاحبة له ولا والد له ولا ولد له قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

وقال جل جلاله: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى"نعم استوى كما أخبر، وما معنى استوى؟ قال الإمام الطبري في تفسيره: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) يقول -تعالى- ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا. (٧٢)
وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: والمسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل. (٧٣)

نعم"(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، استوى كما أخبر وعلى الوجه الذي أراد وبالمعنى الذي قال استواء منزها عن الحلول والانتقال، فلا العرش يحمله ولا الكرسي يسنده، بل العرش وحملته والكرسي وعظمته الكل محمول بلطف قدرته مقهور بجلال قبضته -سبحانه وتعالى-، فالاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

قال جل جلاله: "وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا"، وقال جل جلاله: "فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ".

هذا هو توحيد الله -أيها الإخوة- وإذا كان هذا هو التوحيد فإن ضد ذلك كله هو الشرك فالشرك هو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله جل فعلاه سواء في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

والشرك ينقسم إلى قسمين: أكبر وأصغر.

فالشرك الأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ العبد من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، ويخافه كما يخاف الله، وهذا هو شرك التسوية الذي قال الله -تعالى- فيه حكاية عن المشركين لآلهتهم في النار: "تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين".

---

(٧٢) تفسير الطبري - (١٨ / ٢٧٠).
(٧٣) تفسير ابن كثير - (٥ / ٢٧٣).

نعم كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة!! كما أنهم اتخذوهم أرباباً يشرعون لهم من دون الله –عز وجل– فعظموا تشريعهم وآراءهم أعظم من شرائع رب العالمين فلنتنبه –أيها الإخوة– : من صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله في الأفعال كالركوع أو السجود، أو في الأقوال كالدعاء والرجاء، أو في الاعتقاد فظن أن غير الله يملك رزقه أو أجله أو أن يعطيه ولداً أو يجعل امرأته تحمل أو يطلق أسيراً أو ينقذ غريقاً من زعم شيئاً من هذا كله لغير الله فقد أشرك، وصدق ربي إذ يقول: "قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ"هذا عن الشرك الأكبر.

وهناك القسم الثاني الشرك الأصغر: وقد عرفه النبي –صلى الله عليه وسلم– كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره وصححه العلامة الألباني من حديث عمران بن حصين أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر"، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟ (٧٤)

فالشرك الأصغر هو الرياء

والسؤال: ما هو الرياء؟

والجواب: الرياء هو أن يقوم العبد بالأعمال لا يريد بها وجه الله –عز وجل–، فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله –عز وجل– غيره، وانتبهوا –أيها الإخوة– فإن الشرك كله كبيره وصغيره خطير وصاحبه على خطر عظيم وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء.

خطورة الشرك:

–أيها الإخوة–!إن الشرك هو أظلم الظلم وأقبح القبح وأعظم الجهل وأكبر الكبائر ففي الصحيحين من حديث أبي بكر –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (قالها النبي ثلاثاً) قلنا: بلى يا رسول الله قال: "الإشراك بالله".(٧٥)

وفي الصحيحين أيضًا من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–"اجتنبوا السبع الموبقات"قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: "الشرك بالله..."(٧٦)ثم عدهن، قال أهل العلم: اجتنبوا السبع الموبقات: أي

---

(٧٤) أخرجه أحمد (٥ / ٤٢٨ و ٤٢٩) و أبو محمد الضراب في"ذم الرياء"(٢٧٧ / ٢ /٢٩٩ / ٢) والبغوي في"شرح السنة"(٤ / ٢٠١ / ١) وحسنه الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام، وانظر: "السلسلة الصحيحة"٢ / ٦٧١.

(٧٥) أخرجه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧).

(٧٦) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).

المهلكات وسميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها والعياذ بالله، وقالو: الموبقات أي الكبائر، ولاحظ أهمية العلم بأن الشرك يجب أن يحذر ويجتنب لذا فقد بدأ به النبي –صلى الله عليه وسلم- الحديث.

فالشرك خطره عظيم وضرره كبير.

قال الله –تعالى-: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيمًا.

وقال –تعالى-: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً.

وقال سبحانه: "إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار"، بل وقال الله جل وعلا عن صفوة خلقه وهم الرسل والأنبياء: "ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون".

بل وخاطب حبيبه وخليله وسيد أنبيائه وإمام أصفيائه وقائد الموحدين وقدوة المحققين محمداً –صلى الله عليه وسلم- بقوله: "ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين".

ومن ثم ورد في صحيح البخاري من حديث ابن مسعود –رضي الله عنه- أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار قال ابن مسعود: ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. (٧٧)

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله أن رجلاً أتى النبي –صلى الله عليه وسلم- فقال يا رسول الله ما الموجبتان؟ فقال صلى الله عليه وسلم: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار. (٧٨)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ « هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِى الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِى سَحَابَةٍ ». قَالُوا لاَ. قَالَ « فَهَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِى سَحَابَةٍ ». قَالُوا لاَ.

قَالَ « فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا - قَالَ - فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ أَىْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِىَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِىَ فَيَقُولُ أَىْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَىْ رَبِّ.

---

(٧٧) أخرجه البخاري ١٢٣٨، ومسلم ٢٧٨.

(٧٨) أخرجه مسلم ٢٧٩.

فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِىَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى. ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِى بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ هَا هُنَا إِذًا – قَالَ – ثُمَّ يُقَالُ لَهُ الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِى نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْهَدُ عَلَىَّ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِى فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِى يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ ».[٧٩]

موقف تصوره يفتت الأكباد، إنه لايفلح فى ساح القيامة ولاينجو من عذاب الله إلا الموحدون المخلصون والآيات والأحاديث في خطورة الشرك كثيرة جدّاً ولا يتسع الوقت للوقوف عليها فحسبنا ما ذكرنا لكن ينبغي أن ننتبه إلى أن هذه الآيات والأحاديث عامة في الشرك كله الأكبر والأصغر وهذا ما يجعل الأكباد تتفتت والأعصاب تتمزق فإن هذا الوعيد العظيم وهذا الخطر الجسيم يتنزل بعضه على من راءى بعمله وقصد به غير وجه الله –تعالى– أو عمل عملاً مما ورد تسميته شركاً وهذا ليس فهمي ولا هو من كيسي بل هو فهم السلف خير القرون أصحاب النبي . صلى الله عليه وسلم . فقد روى ابن أبي حاتم عن حذيفة بن اليمان– رضى الله عنه– أنه رأى رجلاً في يده خيط علقه من الحمى فقطعه وتلا قوله –تعالى–: "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون".[٨٠]

أيها الإخوة: فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان شركاً أكبر، ويحبط العمل ويضيع ثوابه إذا كان شركاً أصغر، ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منهما جميعًا، كان حقّاً على العبد أن يخاف من الشرك كله أعظم الخوف وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه جميعها، كما فعل ذلك الأنبياء الأصفياء وخيار الخلق الأنقياء الأتقياء، نسأل الله –تعالى– العافيةَ منه وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته وذلك بكمال التعلق بالله تألهاً وإنابة وخوفاً ورجاءً وطمعاً وقصداً لمرضاته وثوابه سبحانه في كل ما يفعله العبد وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة، فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر ولنعلم ان كل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

فاللهم يا منقذ الغرقى ويا منجى الهلكى ويا واسع المعروف ياعظيم الإحسان يامنان ياسامع كل نجوى من علينا بالتوحيد والإخلاص والاتباع لسيد الناس –صلى الله عليه وسلم–

أيها الإخوة كان سادات الموحدين يخافون الشرك ويتجنبونه ويدعون الله أن يجنبهم إياه كما قال –تعالى– حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام"

---

(٧٩) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

(٨٠) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٠٨/٧) وإسناده حسن.

قال العلماء: ومعنى"واجنبني" أي أبعدني واجعلني في جانب بعيد، فمع المنزلة العظيمة التي نالها إبراهيم –عليه السلام– عند ربه، ومع أنه قاوم الشرك وكسر الأصنام بيده وتعرض لأشد الأذى في سبيل ذلك حتى ألقي في النار، مع ذلك خاف على نفسه من الوقوع في الشرك، لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن والحي لا تؤمن عليه الفتنة هكذا طلب إبراهيم من ربه فهل نحن بمنجاة ومأمن من الوقوع فيما حذره إبراهيم عليه السلام ولهذا قال بعض السلف لما قرأ هذه الآية" وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" قال: "ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم!"فإبراهيم خاف على نفسه الوقوع في الشرك لما رأى كثرة من وقع فيه من الناس(٨١)وقال عن الأصنام كما حكي ربنا: "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ".

وقد خاف النبي –صلى الله عليه وسلم– الشرك على سادات المهاجرين والأنصار،على أفضل هذه الأمة كما سمعنا في الحديث الذي مر قريباً:

"أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر "، فإذا كان هذا حال الأنبياء والصحابة فكيف بمن دونهم، كيف بنا –أيها الإخوة–؟ فحاذروا أن يقع أحد منكم في الشرك كبيره أو صغيره، فإن الأمر خطير أ لم تلاحظوا قول النبي –صلى الله عليه وسلم– "من مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار"، لاحظوا كلمة "شيئاً" فإنها . لغة . نكرة تعم الشرك كله صغيره وكبيره، وما أُشْرِك مع الله من نبي أو ولي أو ملك، لأن الشرك لا يغفره الله أبداً، "إن الله لا يغفر أن يشرك به" ومن منا يدري متى يموت؟ ومن يدري على ماذا يموت؟ فالإنسان يخاف على نفسه من سوء الخاتمة وأن يموت وهو يشرك بالله – تعالى– فيكون من أهل النار فلذلك يجب على الإنسان أن يحذر من الشرك طول حياته، لأنه لا يدري في أي لحظة يموت فيكون من أهل النار إذا ختم له بالشرك، حتى ولو كان من أهل التوحيد قبل ذلك وعارفاً به ومستقيماً عليه لكن يجب أن يخاف من الانتكاس على عقبه، أسأل الله لي ولكم السلامة والعافية.

إنه الشرك الذي كان سبباً في كل مصيبة ولا يزال فما سلط علينا العدو في الأرض والعرض إلا من جراء الشرك.

ويحَ العروبةِ كان الكونُ مسرحَها   فأصبحت تتوارى في زواياه
أنّى اتجهت إلى الإسلام في بلد   تجدْه كالطير مقصوصاً جناحاه
كم صرّفتنا يد كنّا نصرّفها   وبات يحكمنا شعب ملكناه

ووالله ما سلطوا علينا إلا يوم تخلينا عن التوحيد، يومها دب فينا الخَور، وتركنا القوة والشجاعة وجبنا عن مقاومة حفنة من حثالة الأرض ممن كتب الله عليهم الذلة، تمكنوا منا يوم تمسكوا بعقيدتهم وتخلينا نحن عن عقيدتنا، يوم استمسكوا بحرفية النصوص نصوص التوراة وهي المحرفة، ونادى بعض المسلمين بترك القرآن ورميه وراء الظهور حتى قال ذلك جهرة على مسامع المسلمين ودون حياء من يسمونه بشاعر الأرض المحتلّة قال: "عندما احتمينا بالنصوص جاء اللصوص":

---

(٨١) إعانة المستفيد (ص ٩٦)، مرجع سابق.

لنسأل متى استطاع المقص الصهيوني والصليبي أن يقضم أطرافًا من الجسد الإسلامي؟

إن المخلب الصهيوني توغّل في أرضنا الإسلامية . أيها الإخوة . عندما تخلّينا عن النصوص، قرآناً وسنّة وتبلّد فهم الرأي العام لصريح الأمر والنهي فيهما، وتهنا بين عقائد الشرق والغرب، يفهم ذلك كل عاقل عنده مسكة من فهم أو فقه.

وهذا الشاعر الفيلسوف محمد إقبال – رحمه الله وعفا عنه– نجده في تحليله لواقع المسلمين يحصر علل التخلّف في أربعة عناصر ذاتية فيجعل أولها:

فساد العقيدة وتحوّل التوحيد الإسلامي إلى وثنية متسترة ... مع انجذاب للأوهام. (٨٢)

ورحم الله من قال:

فلسطينُ ضاعت يومَ ضاعت عقيدةٌ   وبات فساد الحال أقبح مقتنى

أَيُجْحَدُ دينُ العُرْبِ سؤددًا   وينقض ما شاد النبي وما بنى؟؟

ليرضى علينا الغربُ حينًا ويحتفي   بنا الشرق أحياناً... ونفقد ذاتنا

وما زادنا هذا التذبذب عزّةً ولكن   حصدنا دونه الشوك والعَنَا.. (٨٣)

بينما– وهذا يشهد به التاريخ – يوم كنا على ميراث الدعوة، محتمين بالنصوص ومقتفين آثار الصالحين، ومتخذين القرآن دستوراً والله غاية ومحمداً صلى الله عليه وسلم أسوة وقائداً... يومها حزنا المجد كله والنصر كله...؟

حين كنّا...

نتغذّى من عقول الفضلاء

وتربّينا شريفاتُ النساء

آلت الأرض إلينا...

والسّماء

(٨٢) محمد إقبال مفكرًا إسلاميًّا، للأستاذ محمد الكتاني ص ٣٥.

(٨٣) شعراء الدعوة (١/ ٥٧). محي الدين عطية

أشرق النور فينا...

وتباهينا...

بجيل العظماء

***

وسقطنا...

إذ رضعنا كلمات الآخرين

وطعمنا من فتات الغالبين

أوهمونا

أننا نطفو

بإغراق السّفين

أننا نحيا

بدفن السّابقين

فتسابقنا

لسبّ العلماء

وتندّرنا بقول الأنبياء... (٨٤)

نعم أمّا اليهود

أمّا اليهود فليس في أرضي مكان لليهود

---

(٨٤)- شعراء الدعوة- ج٦ ص ٢٦ و ٢٧.

وليعطهم بلفور من إنجلترا بدل الوعود

وبذكر بلفور أقول لكل ذي كرم و جود

أنا ما رأيت كمثل بلفور صفيقًا في الوجود

يعطي اللصوص على هواه من الوعود بلا حدود

وبرغم ذلك فما البليّة عند بلفور الحقود

بل عند من يتجاهلون بأنها أرض الجدود... (٨٥)

إن الحرب بيننا وبين اليهود ليست حرب أرض وحدود ولكنها حرب عقيدة ووجود فالقوم ينطلقون من عقيدة ولن ينهزموا ممن يصاولهم إلا يوم ينطلق هو الآخر من عقيدة.

فلنعد –أيها الإخوة– إلى ديننا تعد إلينا عزتنا، ولنقم دولة الإسلام في قلوبنا تقم لنا على أرضنا، وذلك بالعودة إلى القرآن والسنة بإقامة التوحيد ونبذ الشرك الذي تبينا خطره.

والسؤال الذي يرد على الأذهان الآن ويكاد يقفز خارجها هو: كيف وصل الشرك إلى الأرض؟ وكيف رحل عبر طريق التوحيد الذي بدأ مع فطرة الإنسان قبل بداية الحياة فكل مولود يولد على الفطرة أي يولد موحداً؟

فكيف دنس الشرك فطرة التوحيد؟

وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء: رحلة الشرك

أيها الإخوة! خلق الله آدم في السماء وشرفه وأسكنه الجنة وزوجه، ثم حدث ما حدث من إغواء الشيطان لهما فأهبطا إلى الأرض ومعهما المنهج الذي وضعه الله لآدم عليه السلام بقوله: "قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)" [البقرة: ٣٨، ٣٩]، ولم يعرف أن آدم وبنيه انحرفوا عن ملة التوحيد وشريعة الحق والهدى لمدة حتى توفي آدم، وعقبه الله بأنبياء من بنيه وذريتهم حتى مضت على ذلك مدة طويلة ثم جاء الشرك روى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين".

(٨٥) شعراء الدعوة (٢ / ٧٩) قصيدة – وعد بلفور– محمد صيام.

ومن هنا بدأ الشرك ـ أيها الإخوة ـ رحلته العفنة القذرة في أرض التوحيد الأولى، نعم كان الناس على شريعة من الحق والهدى حتى زين الشيطان –عليه لعنة الله– لقوم نوح عليه السلام عبادة الأصنام، فكانوا أول من أحدث الشرك كما روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

"صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعده أما "وَدّ" فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما "سُواع" فكانت لهذيل وأما "يَغوث" فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ وأما "يَعُوق" فكانت لهمدان، وأما "نَسْر" فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت".(٨٦)

أي أنهم عبدوا تلك الصور لما ضاع العلم بشأنها لم كانت؟ وما هي؟!

وقال الحافظ ابن حجر: أخرج الفاكهي من طريق عبيد بن عمير قال: أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح –عليه السلام– وكانت الأبناء تبر الآباء، فمات رجل منهم فحزن ابنه عليه فجعل لا يصبر عنه فاتخذ مثالاً على صورته فكلما اشتاق إليه نظره، ثم مات ففعل به كما فعل حتى تتابعوا على ذلك فلما مات الآباء قال الأبناء: "ما اتخذ آباؤنا هذه الآلهة إلا أنها كانت آلهتهم فعبدوها"، فلما أراد الله أن يرحمهم وأن يخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد أرسل الله إليهم نوحاً ـ عليه السلام ـ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك تلك الأصنام فكان من شأنه وشأنهم ما قص علينا ربنا في كتابه أنهم أصروا وعاندوا واستكبروا: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)، ثم جاء بعدهم قوم إبراهيم الخليل وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم كل هؤلاء أشركوا بالله وأمدوا الشرك بغذاء أطال عمره ومد أجله في الحياة لما أصروا على عناد رسلهم وأنبيائهم، وكان الله –عز وجل– يرسل في كل أمة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد وترك الشرك، وظل الشرك –أيها الإخوة– في الأمم بعد هؤلاء كان في أمة موسى لما عبدوا العجل الحيوان وكان فيهم لما عبدوا عزيراً الإنسان، وكان الشرك في أمة عيسى لما عبدوا نبي الله عيسى نفسه، ثم انتقل الشرك إلى العرب ثم إلى الجزيرة التي سيبعث فيها بعد انتقال الشرك إليها بقليل إمام الموحدين سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–.

فعلى يد من انتقل الشرك إلى جزيرة العرب؟

(٨٦) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

والجواب من المصطفى –صلى الله عليه وسلم– مباشرة: روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب"، وفي لفظ لأحمد" وغَيَّر دين إبراهيم".(٨٧)

ثم بدأت الأصنام تكثر وتنتشر في جزيرة العرب بل وحول الكعبة إلى الحد الذي صارت تحيط فيه بالكعبة من كل مكان وقد ظلت هكذا الى ان من الله على الإسلام بالنصرة وعلى أهله بالعزة، فكسرها النبي وحطمها يوم دخل مكة فاتحاً وهو يتلو قول الله –تعالى–: "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد"(٨٨)

وكانت نهاية الشرك في أرض الجزيرة وما حولها على يد الطائفة المؤمنة الأولى بقيادة الرائد الحكيم والرسول الأمين محمد –صلى الله عليه وسلم– ونشرت هذه الطائفة المؤمنة ونبيها التوحيد في كل ربوع الدنيا مما وصلت إليه أياديهم وظلوا على الوفاء لراية التوحيد يسعَون بها حتى بعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وظلت الأمة المسلمة ترفل في ثوب التوحيد الذي كساها إياه إمام الموحدين وقدوة الناس أجمعين –صلى الله عليه وسلم– حتى أطلت الفتن برأسها الظلوم ووجهها الكالح الغشوم وابتعدت الأمة رويدًا رويداً عن حقيقة التوحيد.

وبدأ الشرك يطل برأسه من جديد، وكثرت صوره ومظاهره ووقع فيه كثير ممن يتسمون بالمسلمين إلا من رحمه الله، وتعددت صور الشرك ولم تقف عند الصورة الساذجة التي كان يزاولها المشركون قديمًا في صورة حجر يصنعونه بأيديهم ثم يعبدونه من دون الله، بل صار وتحول للناس في صور وألوان في كل مجال من اعتقاد أو نسك أو تشريع ولك أن تتجول جولة علمية إحصائية لعدد المشاهد والقبور والأضرحة والمزارات التي تصرف لها ألوان من العبادة ليرتد إليك البصر خاسئاً وهو حسير على أمة انتكست إلى هذه الوهدة وتركت مجال دعوتها إلى التوحيد بين أهل الأرض حتى انتشر الشرك هناك في صور لا يقبلها العقل بسبب انشغال المسلمين هنا بالشركيات فماذا نظن حال أولئك؟

نعم يكفي أن تعلم أن في الهند وحدها أكثر من مائتي مليون بقرة تعبد من دون الله، بل هناك من يعبد الفئران، بل من يعبد فرج المرأة أو ذكر الرجل، إلى غير ذلك من سفه العقل وسفاسف الفكر وزبالاته.

فوا أسفاه على أمة التوحيد، وهذا كله يجعل المسئولية الملقاة على كواهلنا عظيمة أيها الموحدون فإن الله سائلنا عن ذلك كله.

---

(٨٧) أخرجه البخاري (٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦).

(٨٨) أخرجه البخاري (٢٤٧٨، ٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١)

أيها الإخوة هذه هي رحلة الشرك والبعد عن طريق النور والتوحيد، قد انتشر الشرك انتشارا رهيبا كما سمعنا، فكيف ننجو من الشرك؟ هذا هو عنصرنا الرابع والأخير من عناصر اللقاء نؤخره لما بعد جلسة الاستراحة نسأل الله أن يغفر لنا الشرك كله دقه وجله وأن يتوفانا على التوحيد.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد..

لكَ الحمدُ والنّعماء والملكُ ربّنا... فلا شيء أعلى منك جدّاً وأمجدُ

مليكٌ على عرش السّماء مهيمنٌ... لعزته تعْنُو الوجُوه وتسجدُ

عليه حجاب النور والنور حوله... وأنهار نورٍ حوله تَتَوقّدُ

فلا بَشَرٌ يسمُو إليه بطرفه... ودونَ حجاب النور خلقٌ مؤيدُ

أحبتي في الله! كيف ننجو من الشرك؟ والجواب في نقاط محددة:

أولاً: بالاستعانة بالله أولاً، فإن المرء مهما اجتهد في دفع الضر وجلب الخير لا يحصله إلا بعون الله وتوفيقه.

كما قال سبحانه: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) "[الفاتحة: ٥]

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة وتفويض إلى الله عز و جل، وهذا المعنى ورد في غير آية من القرآن كما قال –تعالى–:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } { هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}.

أقول: ولا يستطيع العبد الإتيان بالأول وهو العبادة إلا بالثاني وهو الاستعانة" إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"

نعم

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

فليكن اللجوء والدعاء والتضرع والرجاء إلى رب الأرض والسماء ديدننا أن يجنبنا الشرك كله ولنا في الخليل أسوة: "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ".

ثانياً: التوبة الشاملة العامة من الشرك كله دقه وجِلّه والاستغفار والانكسار إلى الله –تعالى– والعوذ به واللوذ من أن يكون علق بنا شيء من الشرك في الماضي نعلمه أو لا نعلمه.

وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول في صباحه ومسائه كل يوم:

"اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه"(٨٩)فيا لله، الحبيب يستعيذ بالله أن يشرك أو يكون أشرك وهو لا يعلم، ويستغفر من ذلك كله، فما بالنا . أيها الإخوة . في سكرتنا وغفلتنا نضل ونعمه، إنه الشرك الذي يجب أن يخاف ويستعاذ بالله منه كل صباح ومساء

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره.

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره، ولا يهيضون عظماً أنت جابره.

ثالثاً: يجب علينا أن نتعلم التوحيد، أن نبذل جزءاً من وقتنا لنحصن أنفسنا بتعلم مسائل التوحيد وأن نتعرف إلى الشرك ومداخله بكل أنواعه وألوانه، فخصص أخي الحبيب من وقتك جزءاً لتتعلم فيه التوحيد، لا تقل لا أجد وقتاً، فكم من وقت نضيعه في اللهو واللعب! ولا تقل لا أعرف، ولا أعلم فإن العلم بالتعلم.

رابعاً: أن نطالع السيرة النبوية وكذلك حياة الصحابة، لنرى كيف كان الصحابة رضوان الله عليهم قبلُ على الشرك، وكم كانوا في جهالة عمياء وضلالة جهلاء، ومدى السذاجة التي كانوا يترددون فيها،ثم إن الله من عليهم فنقلهم إلى الهدى ونور الحق ولنعرف قبح الشرك وسوأه ونطلع على وجهه وذكره السيء بله الأسوأ فنعرف قيمة ما نحن عليه من توحيد ربنا.

وصدق الفاروق عمر إذ يقول: "إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية".

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه.

ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

---

(٨٩) أخرجه أحمد (١٩٦٠٦) وابن أبي شيبة ١٠ / ٣٣٧ – ٣٣٨، وهو في صحيح الجامع ٣ / ٢٣٣.

ومن هذا الباب قول حذيفة رضي الله عنه: كان الناس يسألون رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...". (٩٠)

فهذا أمر عظيم جدّاً الاهتمام بأمر العقيدة والتوحيد والخوف من الشرك، فمن خاف شيئاً فإنه يهرب منه ولا يمكن أن يهرب منه إلا إذا عرف من أين يأتيه عدوه ومن أين يدركه!!.

أسأل الله –تعالى– أن يجنبنا وإياكم الزلل والخطأ وأن ينجينا من شَرَك الشيطان وشِرْكه اللهم آمين........ الدعاء.

(٩٠) أخرجه البخاري ٣٦٠٦، ومسلم ٤٨٩٠.

عالمية التوحيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

تواضعْ لرب العرش علّك تُرفع... فقدْ فاز عبد للمهيمن يخضعُ

وداو بذكر الله قَلبكَ إنه... لأعلى دواء للقلوب وأنْفعُ

وخذّ من تقى الرحمن أمناً وعدّة... ليومٍ به غير التقَّى مُرَوَّعُ

سميعٌ بصيرٌ ما له في صفاته... شبيه يَرى من فوق سبْع ويَسمعُ

قضى خلقه ثم استوى فوق عرشه... ومِن علمه لم يخل في الأرض موضع

أما بعد فيا أيها الإخوة!

إن المسلم الذي منّ الله عليه بمعرفة التوحيد وفضله، وتعلُّم الشرك وخطره فعمل بالتوحيد وحافظ عليه، وتجنب الشرك وحَذِرَه قد أوجب الله ورسوله عليه أن يسعى بتلك المعرفة ليعلمها لمن حوله، ويعلمها من تعلمها منه لمن يجهلها وهكذا حتى يصير التوحيد شريعة العالم، وتدين الدنيا بلا إله إلا الله، وترفرف راية الإسلام فوق كل أرجاء الكون، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم

وهذا واجب كل مسلم ومسلمة، كل موحد وموحدة، وهذا هو موضوع حديثنا ـ أحبتي ـ في هذا اليوم الكريم المبارك.

"عالمية التوحيد":

وسأنظم سلك هذا الموضوع المهم في العناصر المحددة التالية:

أولاً: التوحيد دين الأرض والسماء.

ثانياً: من يحمل الراية؟

ثالثاً: شروط وقيود.

فأعيروني القلوب والأسماع –أيها الإخوة– جعلنا الله وإياكم من حملة راية التوحيد.

أولاً: التوحيد دين الأرض والسماء.

أيها الإخوة إن الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره هو التوحيد الذي جاء به صافياً مصفى دينُ الإسلام كما قال الله – تعالى-: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ"، وكما قال –عز وجل-: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" [آل عمران: ٨٥]، ولذا ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلا بالإسلام، نعم تختلف شرائع الأنبياء عن بعضها البعض فكل نبي له شريعة خاصة، لكنهم جميعاً يشتركون في الدين فدينهم جميعاً هو الإسلام قال المصطفى – صلى الله عليه وسلم: "الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد"(٩١)، أي شرائعهم مختلفة، شتى ودينهم واحد، وقد سجل الله هذه الحقيقة في كتابه الكريم على ألسنة أنبيائه ورسله وأقوامهم من الإنس والجن وغيرهم فقال –تعالى– على لسان نوح عليه السلام: "وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ "، وقال عن إبراهيم عليه السلام: "وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) [البقرة: ١٣٠ – ١٣٢] وقال عن يعقوب عليه السلام: "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣): [البقرة: ١٣٣]

وقال عن يوسف عليه السلام: "رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السموات وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)" [يوسف: ١٠١، ١٠٢]

وقال عن سليمان عليه السلام في كتابه الذي قرأته على قومها ملكة سبأ: "قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)" [النمل: ٢٩ – ٣٢]

وكان رد هذه على سليمان لما شرح الله صدرها للحق: "رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"

وقال –تعالى– عن موسى عليه السلام: "يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ"

وقال –تعالى– عن عيسى عليه السلام: "فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)" [آل عمران: ٥٢]

بل إن دين الجن المؤمنين هو الإسلام قال الله –عز وجل– عنهم: "وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)" [الجن: ١٤]، وما بعث الله لبنة التمام ومسك الختام سيدنا محمدًا –عليه الصلاة والسلام–

(٩١) أخرجه البخاري ٣٤٤٣، ومسلم ٦٢٨١.

إلا بالإسلام، قال -تعالى-: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"، ألم أقل لحضراتكم إن الإسلام هو دين الأرض والسماء الذي لا يقبل الله من الخلق ديناً غيره؟ قال -تعالى-: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السموات وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"

وقال عز من قائل: "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (١٥)" [الرعد: ١٥]

وقال عز شأنه: "وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" فالإسلام ليس دين العرب فحسب، أو دين المسلمين فحسب، بل هو دين البشرية كلها، دين الأرض ودين السماء ودين من فيهما.

فيا من خلقك الله موحداً! اسجد شكراً لله أن خلقك موحداً وأن أرسل إليك النبي محمداً -صلى الله عليه وسلم-.

ومما زادني فخراً وعزًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن أرسلت أحمد لي نبيّا

أَلَمْ ترَ أنَّ اللَّه أرسلَ عبْدَهُ ببرهانه واللّه أعْلى وأمجَدُ

وضمّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسْمِهِ إذا قال في الخمس المؤذنُ أشْهَدُ

وشقّ له من اسمه لِيُجِلَّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمّدُ

أغرّ، عليه للنبوةِ خاتَمٌ من الله ميمونٌ يلوحُ ويشْهدُ

وما الإسلام أيها الإخوة؟

الإسلام هو لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، الإسلام هو التوحيد، هو توحيد الله المعبود بكل أنواع العبادة وتوحيد المصطفى المتبوع بكل أنواع الاتباع.

فتوحيد المعبود وهو الله: لا إله إلا الله، وتوحيد المتبوع وهو المصطفى محمد -صلى الله عليه وسلم-

ودين العالم كله هو التوحيد بل دين العالمين في السماء والأرض من العرش إلى الفرش، فمتى يتحول العالم إلى موحدين ومن أمة سيد المرسلين؟ متى يدين العالم بالحقيقة لله ولرسوله؟ لقد تحرك النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام على ما طالته أياديهم من أنحاء المعمورة فنشروا في أرجائها الخير والتوحيد والإيمان، وعبقوا الأرض بعبق التوحيد الطاهر، يوم جيشوا الجيوش من الدعاة لنشر دين الله في الأرض، لم يكتف المصطفى -صلى الله عليه وسلم- بما استطاع أن

ينجزه في بقعته التي نشأ فيها بل بعث رسله إلى أرجاء المعمورة، ذلك لأن التوحيد ليس إقليميّاً يقتصر على جزيرة العرب أو ما بعدها شيئاً قليلاً وإنما التوحيد دعوة عالمية للجن والإنس، للأميين ولأهل الكتاب، للروم والفرس لكل أجناس الأرض:

قال -تعالى-: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) [الجمعة : ٢ - ٥]

وقال -تعالى-: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران٦٤

وقال -تعالى-: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)" [الذاريات: ٥٦] "، قال علي بن أبي طالب: "إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"، أي: إلا ليوحدون.

فالتوحيد - أيها الأحباب - دين العالم، ولذا لما فرغ النبي -صلى الله عليه وسلم- - أو كاد- من جزيرة العرب وجه رسله إلى أنحاء الأرض بكتبه يدعو الملوك والرؤساء والوجهاء وشعوبهم وأممهم وأقوامهم إلى توحيد الله -تعالى- لا شريك له.

فبعث كتاباً إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه إلى التوحيد، وبعث كتاباً إلى المقوقس ملك مصر يدعوه إلى التوحيد، وبعث كتاباً إلى كسرى ملك الفرس يدعوه إلى التوحيد، وبعث كتاباً إلى قيصر ملك الروم يدعوه إلى التوحيد، وبعث كتاباً إلى المنذر بن ساوه حاكم البحرين، وإلى هوذة بن علي حاكم اليمامة، وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك دمشق، وإلى جيفر بن الجلندي ملك عمان، يدعوهم كلهم إلى توحيد الله رب العالمين، ولقد مضى النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذه السنة يبعث إلى الرؤساء والملوك كتباً ويرسل إلى الجهات والأنحاء التي استجابت له من قِبَله رسلاً، فها هو ذا اليمن السعيد بتوحيد الله واتباع رسوله يذعن بالسمع والطاعة فيبعث إليه رسولُ الله رسولين كريمين من لدنه هما معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما بعثهما النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى اليمن في سنة عشرة من الهجرة وزود النبي الصاحبين بالنصائح الجليلة فأمرهما بقوله: "يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا».(٩٢)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا - رضى الله عنه - عَلَى الْيَمَنِ قَالَ « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ

(٩٢) أخرجه البخاري ٣٠٣٨.

فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً { تُؤْخَذُ } مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ». (٩٣)

هل سمعتم –أيها الإخوة– : "فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، وفى رواية: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وفي رواية فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله(٩٤)، الله أكبر! إنها نقطة البداية وهي هي النقطة التي منها بدأ كل نبي وكل رسول أرسله الله، إن محمداً –صلى الله عليه وسلم– ليس بدعاً من الرسل حاشا وكلا بل هو رسول الله ومصطفاه، ألم أقل لحضراتكم إن منهج الأنبياء والأساس الذي يعملون عليه واحد، وهو التوحيد، وإن اختلفت الطرق باختلاف الشرائع والأمهات، قال العلماء: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله أحسن الأقوال وأحسن الأعمال وهي ألزم من كل قول ولابد من الإتيان بها قبل أي عمل، لأن معنى لا إله إلا الله: أن يقبل العبد على الله بقلبه وقالبه وأن يتبرأ مما سواه وهذا هو الأهم الذي يطلب قبل كل أمر.

فأول ما دعا إليه النبي –صلى الله عليه وسلم– هو التوحيد وأول ما دعا إليه الصحابة هو التوحيد لأنه هو أول واجب على المرء يجب أن يتعلمه قبل أي قول وأي عمل.

قال –تعالى–: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)" [محمد: ١٩]

فأمر الله في هذه الآية نبيه ومن اتبعه من المؤمنين أن يتعلموا التوحيد قبل أي قول وأي عمل؛ فتعلم التوحيد إذًا فرض لازم، ثم يجب على ذلك الذي تعلم التوحيد أن يدعو إليه حتى يتم له إيمانه ويكمل له توحيده ويصح له اتباعه قال العلامة المبارك ابن عثيمين –رحمه الله تعالى–: لا يتم إيمان العبد إلا إذا دعا إلى التوحيد، قال –تعالى–: {والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر } [سورة العصر]. فلا بد مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا، كان ناقصاً، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقاً في اعتقاده، فلابد أن يكون داعياً إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به. (٩٥)

---

(٩٣) أخرجه البخاري ١٤٥٨، ومسلم ١٣٠.

(٩٤) أخرجه البخاري ١٤٥٨، ومسلم ١٣٢.

(٩٥) القول المفيد (١/ ٧٣).

ولذا كان أول شيئ بدأ به رسول الله ورسله واتباع دينه فى جيل من أهل الطائفة المنصورة التى لا يخلو منها زمان ولا مكان، فهذه الرسالة . أيها الإخوة . ينبغي أن تستمر بين الدعاة وأن يولوا التوحيد الاهتمام الأول وأن يكون نقطة البداية؟ فأين هم الدعاة إلى التوحيد؟ وهذا هو عنصرنا الثاني –أيها الإخوة– من عناصر اللقاء:

من يحمل الراية؟

أيها الإخوة: روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد –رضي الله عنه– أن رسول الله —صلى الله عليه وسلم– قال يوم خيبر: « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ». فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى فَقَالَ: "أَيْنَ عَلِيٌّ ». فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ، فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: "عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ ».(٩٦)

الله أكبر فمن لهذا الفضل –أيها الإخوة–؟ من لهذه الدرجات العالية؟ من لهذه المنازل الرفيعة "يحبه الله ورسوله"، هذا الفضل يتحقق بماذا؟ "ادعهم إلى الإسلام".

فمن الذي يحمل هذه الراية راية " ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ " فيكون له هذا الجزاء العظيم والأجر الكبير والفوز الجليل: "يحبه الله ورسوله".

و"لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم".

ولنعلم . أيها الإخوة . أن فضل الدعوة إلى دين الله ليس بعده فضل، وأن القائم بالدعوة إلى الله ليس أحداً أحسن منه قال –تعالى–: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)" [فصلت: ٣٣] "، من؟ لا أحد أحسن منه على الإطلاق، قال الحسن البصري –رحمه الله–: "وقد بكى يوما حينما قرأ هذه الآية: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)" [فصلت: ٣٣]، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين هذا خليفة الله(٩٧)

وقال الله –عز وجل–: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) [يوسف: ١٠٨] ".

---

(٩٦) أخرجه البخاري ٢٩٤٢، ومسلم ٤٧٧٩.

(٩٧) ابن كثير ٤/١٤٤ الدعوة.

قال الإمام ابن القيم: "لا يكون الرجل من أتباع المصطفى حقّاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه المصطفى على بصيرة".

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: في هذه الآية الكريمة دليل على أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله – صلى الله عليه وسلم-.

وقال المصطفى –صلى الله عليه وسلم- « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ». [٩٨]

وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-"من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً". [٩٩]

هذا بعض من فضل الدعوة والدعاة في دين الله –تعالى-، والقرآن الكريم والسنة النبوية مليئان بفضل الدعوة والدعاة إلى الله.

ويا له من فضل عظيم لا يتخلى ويتقاعس عنه إلا العاجز المحروم، هذا هو شرف الدعوة إلى الله –عز وجل- –أيها الإخوة- لكن إلى أي شيء ندعو الناس؟

والجواب: ندعوهم إلى دين الإسلام كله، من كتاب ربنا ومن سنة نبينا، على نهج السلف الصالحين السابقين الأولين من أهل القرون الخيرة الطيبة، وترتيب ذلك أن نبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية، وأهم الدين على الإطلاق هو التوحيد، هو لا إله إلا الله، كما بين لنا النبي في حديث معاذ بن جبل "فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله"، وبعد فمن يحمل الراية؟ من الذي يرفع يده الآن ويقول: أنا؟ ويبدأ فيتعلم التوحيد، ويعمل به، ويدعو الناس إليه، وهذا الواجب للأسف الشديد منسي من كل الأمة إلا من رحم ربي.

قال العلماء: في هذه الآية {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }يوسف١٠٨ دليل على أن الدعوة إلى التوحيد واجبة وأنها سبيل النبي –صلى الله عليه وسلم- وفي حديث على السابق: "ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله –تعالى- فيه،"[١٠٠]

فالدعوة إلى التوحيد واجبة على الأمة كافة بهذه الأدلة وغيرها، ولكن الناسَ في هذا الواجب على مراتب على حسب ما آتاهم الله من قدرات، فمن الذي يحمله هذا الحديث اليوم على الإقدام والإقبال؟ ولنعلم –أيها الإخوة- أن هذا الأمر

---

(٩٨) أخرجه الترمذي ٢٦٥٧، وابن ماجة (٢٣٢)، وصححه الألباني في صحيحيهما.

(٩٩) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(١٠٠) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد – (١ / ٢٠٨).

وهذا الشرف ليس متروكاً للخيار، من يأخذ به أخذه ومن تركه تركه، بل الدعوة إلى التوحيد واجب كواجب تعلم التوحيد، وليس هو اختصاص فئة معينة وإن كان على المختصين الواجب الأكبر والحظ الأوفر – لكن يبقى على كل فرد في الأمة أن يقدم ما يستطيع وأن يبذل ما يملك حسب قدرته للدعوة إلى توحيد الله –عز وجل– خاصة وإلى دينه عامه على حسب مقدوره واستطاعته.

قال العلامة السعدي –رحمه الله تعالى–: "وهذا الواجب بحسب مقدور كل أحد، فعلى طالب العلم والعالم ما ليس على غيره، وعلى القادر ببدنه وماله وجاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة لقوله –تعالى–: "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ "، وكما قيل: رحم الله من أعان على نصر الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين. (١٠١)

فهيا –أيها الإخوة– لنقوم بهذا الواجب المنوط برقابنا، ليعود التوحيد إلى عالميته وترتفع رايته على كل أرجاء الأرض كما كان في سالف الزمان ويرجع إلى أهل الإسلام عزهم ومجدهم، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، فالدعوة إلى التوحيد واجب هذه الأمة الخاتمة التي اختارها الله جل وعلا للقيادة قيادة البشرية بقوة وجدارة بما معها من الحق الذي قامت من أجله السموات والأرض وخلقت الجنة والنار وأنزلت الكتب وأرسلت الرسل.

فهيا لننقذ أهل الأرض من الظلمات إلى النور ونخرجهم من الشرك إلى التوحيد فمن لهذه التبعة؟ من لهذا الواجب الثقيل؟ من لهذه الراية يحملها؟ من لهذه الغاية العظمى؟ من لهذا الهدف الأسمى؟ وأنا على يقين جازم –أيها الإخوة– أن هذه القلوب الموحدة تهتف الآن من أعماقها تقول: أنا.

نعم والعزائم والإرادات ملء قوتها تقول: أنا بكل حماس وإخلاص ونريد أن نكلل هذه العزائم ونحيط هذا الإخلاص والحماس بالحكمة.

والحكمة هي فعل ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، فالحماس وحده لا يكفي، والإخلاص وحده لا يكفي، لا يكفي أن تلتهب مشاعرنا بخطبة حماسية وأن تستثار عواطفنا لكلمات خطابية، بل لابد من طريق مرسوم ومنهج محدد وخطة ذات رسوم وأعلام.

وهذا هو عنصرنا الثالث –أيها الإخوة– : شروط وقيود ونلتقي به بعد جلسة الاستراحة.

الخطبة الثانية

(١٠١) القول السديد ص٢٧، بتصرف.

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد..

أيها الإخوة: الدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى خُطّة ولا يكفى فيها الحماس وليس معنى ذلك أنني أريد إطفاء حماسك ولا إخماد إخلاصك بل أريد إنجاح حماسك وإخلاصك يوم تسير على هدى من الله في طريقك فتضمن النجاح على الله والثواب والجزاء منه سبحانه، وهنا لا بد أن نشير إلى ضرورة إعداد الخطة ودراسة الجدوى في حياة المسلم فلا ينبغي أن يعيش المسلم حياته عبثا أو يترك عمله صدفاً بل ينبغي أن يخطط وينظم لأموره ومساعيه كلها دقيقها وجليلها وبخاصة الدعوة إلى التوحيد وخطة الدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى أشياء وانتبهوا أيها الكرام الأحباب:

الأول: الإخلاص قال –تعالى–: "فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ".

فهذا أمر من الله –تعالى– بالدعوة إلى التوحيد وقد نبه الله فيه على الإخلاص وأهميته لمن تصدى لذلك الأمر العظيم فلابد أن يكون الداعي إلى التوحيد مخلصا حتى يقبل عمله ويرجى نفع هذا العمل.

الثاني: العلم كما قال –تعالى–: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ "فلابد لمن يتحرك على الناس ليدعوهم أن يعرف الذي يدعوهم إليه وأن يتحقق بمعرفته حتى لا يفسد من حيث يريد الإصلاح ويضل من حيث يريد الهداية ويضر من حيث يريد النفع ولذلك قال الله –تعالى–: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) [يوسف: ١٠٨] ".

فنبه الله –تعالى– على أهمية البصيرة لأنها للقلب كالبصر للعين وللبصيرة –أيها الإخوة– أسباب تحصل بها من أهمها:

١– الصدق والإيمان بالله ورسله لقوله –تعالى–: { أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } فهذا النور يحصل بالإيمان.

٢– العلم النافع بما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وتقديم الإيمان على العلم مقصود، فلقد تعلم الصحابة رضي الله عنهم الإيمانَ ثم تعلموا القرآنَ فازدادوا به إيمانا في القلب فذلك العلم النافع.

٣– العمل، لأن من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم، وكما قال علي – –رضي الله عنه– –: "العلم يهتف بالعمل فإن أصابه وإلا ارتحل".

٤- صدق اتباع السنة، ظاهرًا وباطنًا، لأن هذا هو تحقيق الإيمان برسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومقتضاه، لذا فلزوم السنة في الأعمال والأقوال يفتح القلوب لفيوضات علام الغيوب. فالاتباع من أصول الدعوة الربانية.

٥- كثرة تلاوة القرآن وفهمه وتدبره من أعظم أسباب البصيرة وكذا كثرة الاستدلال به.

٦- كثرة العبادة خاصة الصلاة وإطالة السجود بين يدي الرب المعبود.

٧- غض البصر وحفظ الفرج وتجنب محارم الله[١٠٢]

الثالث: قلنا الإخلاص والعلم والثالث الجد والاجتهاد والسعي الجاد بمشورة أهل العلم الثقات المتحققين بالعلم الشرعي البصيرين بفقه الواقع المعاش فلا تخطو على الطريق خطوة إلا بعد مراجعة الربانيين ذلك إن أردت النجاح لدعوتك

فمن حافظ على هذه الأعمال نال البصيرة في الدين واستطاع بهذه البصيرة أن يسير على نهج سيد المرسلين في الدعوة إلى توحيد رب العالمين نسأل الله أن نكون ممن شرفهم الله بالسير على أثر نبيه في الدعوة إلى توحيده ودينه.

ثم هنيئاً لك يا من تدعو إلى التوحيد هنيئاً لك يا من تحدثت في جمع طيب كهذا تبين أهمية التوحيد وفضله وتحذر من الشرك وحبائله، هنيئاً لك يا من رأيت رجلاً يفعل المنكرات عند المشاهد أو القبور والأضرحة يتمسح بها يُقبلها يطوف بها فتقدمت إليه بأدب وحدثته برفق عن توحيد الله ووجوب تحقيقه قارئاً عليه الآيات والأحاديث وإن لم تعرف تدله على أهل العلم. هنيئاً لك

هنيئاً لك إذا لم تستطع الحديث في جمع وهبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا خصصت جزءاً من مالك فاشتريت به مجموعة من الكتيبات أو الأشرطة التي تتحدث عن فضل التوحيد وتعرف به فنشرتها في الناس ليتعلموا منها والدال على الخير كفاعله هنيئاً لك، هنيئاً لك هنيئاً لك يا كل من تسير على درب المصطفى داعياً إلى التوحيد محذراً من الشرك هنيئًا لك.

وإليك هدية يزفها إليك ويبشرك بها ابن القيم فيقول: "وتبليغ سنته –صلى الله عليه وسلم- إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور الأعداء لأن تبليغ السهام هذا يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله منهم بمنه وكرمه".[١٠٣]

(١٠٢) فضل الغنى الحميد (ص٩١، ٩٤)، للدكتور ياسر برهامي.

(١٠٣) جلاء الأفهام (٤١٥)، لابن القيم.

وهدية أخرى لكنها هذه المرة من المصطفى: روى مسلم عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمتي حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بهديه ثم إنهم تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"(١٠٤)

فأينا . أيها الإخوة . يريد أن يكون من حواريي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

من أراد أن يكون كذلك فليرفع للخير راية، وخير الخير هو التوحيد فمن يحمل راية التوحيد اللهم اجعلنا من حماة التوحيد وحملة رايته....... الخ الدعاء.

---

(١٠٤) أخرجه مسلم ١٨٨.

علامات على الطريق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ومالي نحو أهلِ الحي رُسْلُ *** فيا مولايَ هبْ عفوا ونصرا

وجُدْ وارحَم وصَل على الرَّسولِ *** محمدٍ المؤيدِ بالدليلِ

وعِتْرَتِه أولي القدرِ الجليلِ *** وسائرِ صحبِه السَّامينَ قدرا

وجُد بالعفو يا مولى الموالي *** على عبدِ العزيز فلا يُبالي

إذا أنعمتَ يوما بالنَّوالِ *** تَبدل كل هذا العُسرِ يُسرا

أما بعد فيا أيها الإخوة!

اسمحوا لي أن أعود بحضراتكم إلى الوراء قليلاً، فقد تكلمنا في هذه السلسلة المباركة عن التوحيد ووجوبه، ثم تحدثنا عن فضله، ثم تحدثنا عنه كسبب لدخول الجنة بغير حساب، ثم تحدثنا عن ضد التوحيد وهو الشرك،ثم تحدثنا في اللقاء السابق عن عالمية دعوة التوحيد ووجوبها على كل من وحد الله –تعالى–، بأن يسعى كما عَلِم التوحيد وتعلمه إلى نشره وبلاغه والدعوة إليه بين الخلق،وهذا الجهد الذي بذلتموه حضراتكم في اللقاءات السابقة صبراً وانتباهاً ويقظة وحضوراً لا يؤتي ثمرته إلا إذا ركزنا أشد التركيز وانتبهنا اليوم انتباهاً شديداً لخطورة ما سنقول، فإن هذا اللقاء بمثابة طرف الحبل الذي إن أخذت به وصلت في آخره إلى الجنة، وهو الطريق الذي إذا سرت خلاله فستجد حتماً رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في نهايته ولذا سميت هذا اللقاء –أيها الإخوة– :

علامات على الطريق

نعم فهو علامات على صحة السير وصحة المسير، حتى لا نضل عن سواء السبيل، وكما تعودنا فسوف أنظم هذا الموضوع في العنصرين التاليين فقط:

أولاً: هذا هو التوحيد.

ثانياً: أصول الشرك.

فأعيروني قلوبكم وأسماعكم- أيها الإخوة- أسأل الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذي هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

أولا: هذا هو التوحيد:

أيها الإخوة! لا سعادة ولا سرور في الدنيا والآخرة إلا بتحقيق التوحيد وكلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله كلمة الإخلاص وكلمة الشهادة وكلمة النجاة هي مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة، وهذه السعادة حتمًا ليست لمن ردد هذه الكلمة بلسانه ثم انطلق وقد أفلت لهواه الزمام فاختار أن يعيش كما يشاء وأن يموت كما يشاء فالأمر أمره والسلطان سلطانه لا حكم لأحد عليه فهو حر ومن كان حرّاً فليس لأحد عليه حكم أو أمر أو نهي،وهذا فهم كثير جدّاً من المسلمين للأسف الشديد يُطلقون لهواهم العنان ولحرياتهم المجال، ناسين أو متناسين أن الله لما خلق الخلق أخذ عليهم العهد والميثاق بأن الكون كونه وأن الملكوت ملكوته فلا يتصرف فيه أحد إلا بإذنه كما قال سبحانه: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }الأعراف١٧٢ ثم إن العباد لما حادوا عن هذه السبيل ونسوا هذا العهد الوثيق بعث الله إليهم الرسل ليذكروهم به ويوضحوا لهم ماضلوا عنه، جاءوا رسولًا بعد رسول ونبيّاً بعد نبي يبلغون رسالات الله ويوضحون أوامره، حتى جاء المصطفى –صلى الله عليه وسلم- فظل في الحياة ما شاء الله له أن يمكث، ثم رحل عنا تاركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، فمن الناس من اهتدى بهداه ومن الناس من ضل عنه، لكن أولي الألباب يعرفون أنهم ملاقو ربهم فسائلهم عما كانوا عليه، وأنهم ملاقو رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فمعاتبهم على ما غيروا من هديه وبدلوا.

فلذلك التزموا ما كان يفهم أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- ويحرصون على ما حرص عليه هؤلاء الأطهار الأبرار وأول ذلك فهم التوحيد فلا إله إلا الله محمد رسول الله ليست كلمة مجردة ولكنها كلمة ذات مقتضيات وواجبات، فمن مقتضيات لا إله إلا الله: البراءة التامة من كل معبود سوى الله جل وعلا، قال –تعالى-: "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ".

ومن مقتضيات كلمة التوحيد: الإقرار بتوحيد الربوبية وهو إفراد الله –تعالى- وحده بالخلق والرزق والتصرف والتدبير والأمر كله.

كما قال –عز وجل-: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ".

ومن مقتضيات كلمة التوحيد: الإقرار بتوحيد الألوهية وهو إفراد الله -تعالى- وحده بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة،سواء كانت هذه العبادة قلبية تتعلق بالقلب مثل: الخوف والرجاء والخشية والمحبة، أو كانت قولية تتعلق باللسان مثل:الذكر والدعاء والاستغفار وطلب المدد أو كانت عملية تتعلق بالجوارح كالصلاة والسعي والطواف والسجود.

فالدين كله هو عبادة الله وحده بخشوع وخضوع: "قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)".

ومن مقتضيات كلمة التوحيد: الإقرار بتوحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله -تعالى- بأسماء الجلال وصفات الكمال والإيمان بها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، لأنه جل وعلا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فبالله -تعالى- يجب أن تتعلق قلوبنا وبأسمائه وصفاته وحده ينبغي أن نتوسل إليه وندعوه بها.

قال -تعالى-: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)".

ومن مقتضيات كلمة التوحيد: الإيمان الصحيح الصادق برسول الله —صلى الله عليه وسلم-، والذي يتمثل في طاعة النبي —صلى الله عليه وسلم- في كل أمر، والانتهاء عن كل ما نهى عنه وزجر، وتصديقه في كل ما أخبر عن ربه، ومحبته أكثر من النفس والمال والولد بدون غلو أو إطراء.

ومن مقتضيات كلمة التوحيد: الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من الشرك والمشركين قال -تعالى-: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)"

ومن مقتضيات كلمة التوحيد أن يكون الحكم لله. جل وعلا. وحده قال -تعالى-: "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ".

فليس من حق دولة أو مجلس أو برلمان أو هيئة أو سلطة أو أي أحد على الإطلاق أن يشرع للبشر من دون الله متجاهلاً شرع الله" وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ "، ومن مقتضيات كلمة التوحيد أن يكون نظامنا الاقتصادي كله والتربوي كله والتعليمي والإعلامي والفكري والحضاري مأخوذاً من كتاب ربنا وسنة نبينا. [١٠٥]

(١٠٥) بتصرف كثير من كتاب تحقيق التوحيد لفضيلة الشيخ محمد حسان — (المقدمة).

وبالجملة فمقتضى لا إله إلا الله محمد رسول الله كلمة التوحيد أن لا نأكل ولا نشرب ولا نتنفس ولا نعيش إلا بها ولها ومن أجلها، فإنها الدين الشامل ومنهج الحياة الكامل، وهذا هو التوحيد . أيها الإخوة . الذي تركنا عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ثم دخلت على الأمة بعد هذا الانحرافات،غيرت الأمة وبدلت وحادت عن طريق النبي –صلى الله عليه وسلم- فضلت وعميت حتى سقطت في أوحال ووقعت في تناقضات رهيبة ومن هذه التناقضات –أيها الإخوة- ما وقع فيه نفر من المسلمين إذ يرددون كلمة التوحيد بألسنتهم ويناقضونها بما يعملون فوقعوا فيما كان سبباً في ضياع الأمم من قبلنا وذلك بإشراكهم بالله وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء: "أصول الشرك".

أيها الإخوة! ما ذكر الله –تبارك وتعالى- وكذا رسوله –صلى الله عليه وسلم- لنا قصص الهالكين في القرآن والسنة إلا لنحذر طريقهم ونجتنب الوقوع في أسباب ضلالهم، ولكن كثيراً من الأمة بعدت عنه هذه العبرة فوقع فيما حذر الله منه فضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم ومن هذه الضلالات:

أولاً: الغلو في الصالحين.

ثانياً: موالاة الكافرين والرضا بالكفر وعدم البراءة من الشرك وأهله.

ثالثاً: اتخاذ الأنداد في التحاكم إلى غير الله.

رابعاً: اتخاذ الأنداد في المحبة والتعظيم.

وهذا كلام مجمل نفصله في كلمات يسيرة فانتبهوا . أيها الإخوة . فإن الكلام –كما قلنا- مهم للغاية حتى نبين الأمر على وجه الحقيقة دون مجازفة أو انحراف عن الحق.

أولاً: الغلو في الصالحين.

الغلو في الصالحين . أيها الإخوة . هو سبب الشرك بالله جل في علاه كما ذكرنا في لقاء سابق فالصالحون لهم منزلة عند الله –تعالى- ولهم عليه كرامة لكن ذلك لا يعطي أحداً الحق في أن يعبدهم أو يتقرب أو يتوسل بهم إلى الله والحال والله حال هؤلاء المغالين حال عجيبة غريبة فبعض الناس يدعون ويعبدون غير الله وهذا الذي يعبدونه ويدعونه هو نفسه يدعو الله ويعبده.

كما قال الله –تعالى-: "أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)" [الإسراء: ٥٧].

فعجيب حال هؤلاء الذين يغالون في الصالحين من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء في حين أن هؤلاء جميعاً يتقربون إلى الله ويدعونه ويعبدونه كما في هذه الآية، قال جمهور المفسرين: إن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يعبدون المسيح عليه السلام وأمه وعزيراً، فبين الله سبحانه أن هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي يعبدونني وهم فقراء إليّ يدعونني ويتقربون إليّ بالطاعة، فهم عباد من عبادي والعبد لا يصلح أن يكون معبوداً، وليس هناك في السموات والأرض إلا من هو عبد لله، ومن المفسرين من قال: نزلت في أناس من العرب يدعون الجن فأسلم الجن هؤلاء وبقى الذين يعبدونهم على شركهم بل ما فتئ مسلمة الجن في التعبد لله -عز وجل- رغباً ورهباً وتحري كل طاعة وقربة تقربهم من ربهم كما روى البخاري عن ابن مسعود -رضي الله عنه- في هذه الآية قال: "ناس من الجن كانوا يُعْبدون فأسلموا"[١٠٦]، فيا لله يظل الإنسان يعبد ويدعو ويتقرب ويتذلل ويخضع ويخشع في كل صور الطاعة والعبادة يجد ويجتهد ويعمل لولي من الأولياء أو نبي من الأنبياء أو صالح من الصالحين يظن أن هذا يقربه من رب العالمين ثم يأتي يوم القيامة فيفاجأ بأنه لم يعمل حسنة واحدة بل كل حسنة ظنها فى ميزانه قد قلبت عليه سيئات ثم يقلب على وجهه في نار جهنم، هذا هو الحال والمآل ولا يظلم ربك أحداً فإنه سبحانه قد عرّف الناس أنه لا يقبل شريكاً ولا وسيطاً.

فقل للذي يسعى ويطوف حول قبور الصالحين والأولياء عملك في غير محله، وقل للذي يتمسح بمقامات الأولياء والصالحين خف الله وأقلع فإن ذلك يحبط عملك، وقل للذي يذبح عند مشاهدهم وفي موالدهم لن تقبل من ذلك كله حسنة واحدة.

فلا يكون الذبح إلا لله ولا يكون أيضاً في مكان يذبح فيه لغير الله، كما أن الطواف لا يكون إلا ببيت الله، ولا يكون التقبيل والتمسح بعالي الجباه على الأرض إلاسجوداً لله جل في علاه.

فهؤلاء الأولياء أنفسهم يدعون الله ويتقربون إليه ويتعبدون إليه -عز وجل- دون واسطة أو شفاعة وهم في ذلك كله يتوسلون إليه سبحانه بطاعته وهذه أنفع وسيلة، والتوسل إلى الله -تعالى- —وأرجو أن تنتبهوا أيها الإخوة لهذا التأصيل المهم — التوسل إلى الله يكون توسل عبادة وتقرب وطاعة إذا كان بواحد من ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التوسل بالله -عز وجل- بذاته المقدسة، أو بأسمائه الحسنى، أو بصفاته العلى، أو أفعاله كما قال جل في علاه: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)" [الأعراف: ١٨٠].

ولذلكم كان النبي —صلى الله عليه وسلم- يطبق ذلك تطبيقاً عمليّاً ويحفز عليه كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده وصححه العلامة الألباني من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي —صلى الله عليه وسلم- قال: "ما

(١٠٦) أخرجه البخاري (٤٧١٤، ٤٧١٥).

أصاب أحداً قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك....... (١٠٧) إلى آخر الحديث يتوسل رسول الله إلى الله ويعلمنا أن نتوسل، بماذا؟ بأسماء الله وصفاته الحسنى.

وقال النبي —صلى الله عليه وسلم– في شأن الذي سمعه يتوسل بأسماء الله وصفاته: "لقد دعا هذا باسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى" والرجل كان يقول: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم".(١٠٨)

النوع الثاني: التوسل بالأعمال الصالحة: ودليل ذلك من كتاب الله، قوله –عز وجل–: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)" [البقرة: ١٢٧].

ومن السنة: ما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلاَءِ لاَ يُنْجِيكُمْ إِلاَّ الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ فَقُلْتُ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ. فَسُقْهَا، فَقَالَ لِي إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ. فَقُلْتُ لَهُ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرَقِ، فَسَاقَهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا. فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ. فَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ آتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لاَ أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَاىَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا، فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا. فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ، حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ. فَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ إِلاَّ أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، فَقَالَتِ اتَّقِ

---

(١٠٧) أخرجه أحمد (٣٧٨٤)، وابن ماجة (٣٨٦١)، وابن أبي شيبة (٩٣٦٧)، وأبو يعلى، (٥٢٩٧)، وابن حبان (٢/٢٣٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٨).

(١٠٨) أخرجه أحمد (٣/١٢٠ و ١٥٨ و ٢٤٥)، وأبو داود (١٤٩٥)، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود"(١٣٤١).

اللَّهَ وَلاَ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا. فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا ».(١٠٩)

النوع الثالث: التوسل بدعاء الصالحين الأحياء بطلب ذلك منهم كما في القرآن الكريم أن يعقوب . عليه السلام . لما ذهب به أبناؤه إلى مصر ولقي يوسف فظهر الحق واستبان خطأ إخوة يوسف وندموا على ما كان منهم قالوا لأبيهم: "يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ".

وفيما مر معنا من الأحاديث حديث عكاشة بن محصن –رضي الله عنه– الذي قال للنبي –صلى الله عليه وسلم– لما أخبر عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال له عكاشة: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم "أنت منهم". (١١٠)، ولا زال الناس يطلبون من بعضهم البعض أن يدعوا لهم بظهر الغيب دون نكير من أحد لأنه ليس فيه شيء.

فهذه الثلاثة جائزة "توسل بأسماء الله وصفاته، توسل بالأعمال الصالحة، توسل بدعاء العبد الصالح".

أما غير ذلك مما يظنه القبوريون والمخرفون الذين يجعلون التوسل أن تجعل بينك وبين الله شخصاً يرفع حوائجك إلى الله، فهذه هي الوسيلة التي كانت عند المشركين الأوائل وهي فعل أهل البهتان والكذب على الله، ظنوا أن معاملة الله –تعالى– تكون كمعاملة الملوك والرؤساء والسلاطين لابد أن يتخذ المتوصل إليهم وسائط من وزراء ومقربين ليبلغوا حوائجهم ويقضوا مصالحهم وهذا والله انتكاس للفطرة وانقلاب وتغير ما بعده انتكاس.

فإن الله –تعالى– يقول: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ "، وهذه الآية مع آية أخرى في القرآن هي قوله –تعالى–: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) "[النازعات: ٤٢، ٤٣].

هاتان الآيتان هما الوحيدتان في القرآن كله اللتان أتي فيهما الجواب من الله على سؤال الناس للنبي –صلى الله عليه وسلم– بغير لفظ"قل"، ففي كل آيات القرآن نجد قوله –تعالى–: "يسألونك"قل"يسألونك"قل، كما قال –تعالى–: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)" [البقرة: ٢١٩].

" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ".

---

(١٠٩) أخرجه البخاري ٣٤٦٥.

(١١٠) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ".

وهكذا إلا في هاتين الآيتين لم يكل الله -تعالى- الجواب إلى نبيه وإنما تولى الإجابة بنفسه حتى لا يكون هناك شك خلالهما في أن يكون الجواب من عند النبي- صلى الله عليه وسلم- ولا أن يكون النبي واسطة في الجواب.

ولذلك قال: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)" [النازعات: ٤٢ - ٤٤]، لأن علم وقت الساعة لا يعلمه إلا الله.

وقال: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ "، ولم يقل فقل إني قريب لينتزع الواسطة ويلغيها تماماً بينه وبين سائله وداعيه وراجيه.

فانتبهوا -أيها الإخوة- إلى أن من معنى لا إله إلا الله: أن لا يدعى إلا الله ولا تتخذ الوسائط بينه وبين عباده فمن اتخذ بينه وبين الله واسطة فقد أخل بمعنى لا إله إلا الله فهما واسطتان: انتبه لهذا التأصيل المهم كذلك:

الواسطة نوعان: واسطة من أقر بها كفر، وواسطة من جحدها فقد كفر، فالأولى أن تقر بأن هناك واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ حوائجه ورفع دعائه فتتقرب إلى هذه الواسطة بالعبادة وهذه الواسطة بزعمه تطلب له من الله ما يحتاجه فهذه من أقر بها كفر.

وأما الواسطة التي من جحدها فقد كفر فهي الواسطة في تبليغ الوحي فإن الله بين لنا شرائعه عن طريق الوحي والرسول. (١١١)

فهذا هو التوحيد أما الذي يعلن لا إله إلا الله وهو مع ذلك يعبد الله ويعبد غيره فهذا ما وحد الله وما قال لا إله إلا الله.

أفيصح أن يقول لا إله إلا الله ويطلب من غيره الحوائج ويتمسح بالقبور والمشاهد؟، يقول لا إله إلا الله ويستغيث بالأموات والغائبين ويطلب منهم المدد والعون؟، يقول لا إله إلا الله ويطوف ويسعى حول المشاهد والأضرحة؟ يقول لا إله إلا الله ويسحب خِرافه ومَعِزه وبقره وجاموسه ويقدمها نذوراً لأصحاب المشاهد والقبور من الأولياء الصالحين؟ هذا ما قال لا إله إلا الله.

ما يصح للإنسان توحيد وإيمان . أيها الإخوة . حتى يتبرأ من كل المعبودات في الأكوان، ولا يعبد إلا الواحد الديان . جل جلاله وتقدست أسماؤه وتعظمت آلاؤه.

---

(١١١) إعانة المستفيد (١٢٧)، بتصرف.

فلنتنبه . أيها الإخوة . فالله -عز وجل- ليس بحاجة إلى أن تتخذ بينك وبينه وسائط من المشايخ والأولياء أو المقابر أو الأضرحة بل تقرب إليه مباشرة فإن هؤلاء الذين توسطهم بينك وبينه سبحانه هم يتبرأون من عابديهم يوم القيامة لأنهم عباد الله والله -تعالى- يقول:

" إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)" [مريم: ٩٣ - ٩٥] فهم يتبرأون من عابديهم في الآخرة لأنهم أشركوا بهم مع الله ما ليس لهم منه شيء كما كانوا يتبرأون من الكافرين في الدنيا ومن شركهم وهذا أصل من أصول التوحيد ألا وهو البراءة من الشرك والمشركين وضده:

ثانيًا: موالاة المشركين والكافرين أو الرضا بالكفر وعدم البراءة من الشرك وأهله.

وهذا -أيها الإخوة- هو الأصل الثاني من أصول الشرك بالله -تعالى- وهو هو يوضح صورة من المتناقضات الرهيبة التي يقع فيها كثير من المسلمين اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإن شأن المسلم الحق أن يتبرأ من الشرك والمشركين وألا يوالي إلا الله ورسوله والمؤمنين، قال عز من قائل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) [المائدة: ٥٥ - ٥٨]

ولذا قال -عز وجل- عن قدوة المحققين ابراهيم . عليه السلام .: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)" [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

يقول إبراهيم عليه السلام هذا لأبيه وقومه الذين كانوا صابئة مشركين يعبدون الكواكب وكان ملكهم النمرود الذي حدثت بينه وبين إبراهيم المحاجة الشهيرة كما قال -تعالى-: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)" [البقرة: ٢٥٨، ٢٥٩].

يقول إبراهيم لهؤلاء إنني بريء من ذلك الشرك الذي تشركون برب السموات والأرض وهذا معناه إعلانه بالقطيعة والبعد عن المتبرأ منه.

وهذا من معانى لا إله إلا الله أن يعلن الموحد موالاته لله ورسوله وللمؤمنين وبراءته من الشرك والمشركين.

أيها الإخوة! إن الولاء والبراء هما صماما الأمان في كل أمة من الأمم لا سيما في دين الإسلام، وقد يعجب كثير من الناس لأجل هذا القول ابتداء، لكن سرعان ما يزول عجب هؤلاء المتعجبين حين يعلمون أن الموجهين والمربين من شتى الأمم والملل اليوم يؤكدون على إعطاء الطفل منذ نعومة أظفاره الدروس في محبة عقيدته ودينه ووطنه وفي الإخلاص والولاء التام لها، وفي بغض وكراهية عدوه مع كل وجبة يأكلها ومع كل شربة ماء وإن استطاعوا أن يفعلوا ذلك من أول يوم لولادته ليرضعوه إياها مع رضاعه اللبن لفعلوا، ولا تنقطع تلك الدروس حتى يحمل السلاح جنديًّا يحارب به عدوه.

وتأمل ذلك النشيد الذي كان يردده المجاهد الإيطالي في طريقه إلى هدم بلاد الخلافة الإسلامية وهو ما كان يلقنه الصغار عندهم صباح مساء لقد كان جنديهم ينادى بأعلى صوته، حين كان يلبس بذة الحرب قادمًا لاستعمار بلاد الإسلام:

أماه ... أتمى صلاتك ..

لا تبكى .. بل اضحكي وتأملي ..

أنا ذاهب إلى طرابلس ...

فرحًا مسرورًا ..

سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ...

سأحارب الديانة الإسلامية ...

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن ....(١١٢)

وهذا هو الجندي الصربي قد خرج على المسلمين فى البوسنة تحدوه قصيدته التى تسمى إكليل الجبل والتى تقول كلماتها:

سلك المسلمون طريق الشيطان دنسوا الأرض وملأوها رجسًا.

(١١٢) القومية والغزو الفكري (ص ٢٠٨).

فلنعد للأرض خصوبتها ولنطهرها من تلك الأوساخ.

ولنبصق على القرآن.

ولنقطع رأس كل من يتبع دين الكلاب ويتبع محمدًا.

فليذهب غير مأسوف عليه.

أفيكون ذلك التعليم والسقيا لعقيدة الولاء والبراء لكل أمة حلالا وعلينا نحن المسلمين فقط حراما؟!

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس!

"ولقد علم أعداء الإسلام يقينا أن أعظم أسباب القوة في الدين الإسلامي يتمثل في العقيدة الصحيحة، فراحوا بخبث ودهاء يشوهون نقاءها، ويعكرون صفوها، ويضعون الحواجز والسدود بين الأمة وبين عقيدتها الخالصة!!

ولقد أعلنوا ذلك صراحة إذ يقول اللورد كرومر: لابد من المحافظة على المظاهر الزائفة للإسلام منعًا من إثارة الشكوك وحتى لا ينتبه المسلمون إلى الكيد المدبر لهم ويظلوا في اطمئنان خادع إلى أن إسلامهم ما زال بخير فلا يهبوا لنجدة العقيدة التي تُقتلع من جذورها ". ومن جدر العقيدة التي راح هؤلاء الخبثاء ينخرونه عقيدة الولاء والبراء ونسجل بكل حسرة ومرارة أنهم استطاعوا ثقب هذا الجدار المنيع وثلم هذا الحصن الحصين الذي لا زال أهل الإسلام يعلمون أنه كما قال أحد العلماء – وهو الشيخ حمد بن عتيق -رحمه الله- – (إنه ليس في كتاب الله -تعالى- حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم – أي الولاء والبراء – بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده)(١١٣)

أووه إخوتي الكرام وددت -والله- لو وعى هذه الحقيقة كل قلب مسلم غيور "إن أمّتنا تعيش مرحلةً جديدة في تاريخها، وتقف على مفترق طرق، وتحتاج إلى تعاون علمائها ومفكّريها وأصحابِ القرار فيها، ليقوموا بتصحيح أخطاء ماضيها، وإصلاح حاضرها، وإضاءة مستقبلها.

وفي هذه المرحلة الحرجة تقع أمّتُنا وعقائدُها تحت ضغوط رهيبة، تكاد تجتثّها من أساسها، لولا قوّةُ دينها وتأييدُ ربّها -عز وجل-.

ومن هذه العقائد التي وُجّهت إليها سهامُ الأعداء، وانجرَّ وراءهم بعضُ البُسطاء، واندفع خلفهم غُلاةٌ وجُفاة: عقيدةُ الولاء والبراء.

---

(١١٣) النجاة والفكاك (ص ١٤).

وزاد الأمر خطورةً، عندما غلا بعضُ المسلمين في هذا المعتقد إفراطًا أو تفريطًا. وأصبح هذا المعتقدُ مَحَلَّ اتّهام، وأُلْصِقَتْ به كثيرٌ من الفظائع والاعتداءات.

ولا أحسب أنّ تلك الاتهامات والسهامِ الجائرة كانت كلُّها بسبب تلك الفظائع والاعتداءات، ولا أظن أن أسباب هذه المعاداة كُلَّها لجهل المعَادِين بحقيقة (الولاء والبراء) في الإسلام. ولكنهم علموا مكانة هذا المعتقد من الإسلام، وأنه حصنُ الإسلام الذي يحميه من الاجتياح، وعِزّةُ المسلمين التي تقيهم من الذوبان في المجتمعات الأخرى بدينها وتقاليدها المخالفة لدين الله –تعالى–. فوجدوا الفرصة الآن سانحةً للانقضاض على هذا المعتقد، ومحاولة إلغائه من حياة المسلمين وكيانهم.

إننا أمام هجمةٍ تغزونا في الصميم، وتعرف ما هو المِقْتَلُ منّا. فواجبٌ علينا أن نقدِّرَ الموقفَ قَدْرَه، وأنْ نعرف أنّ اليومَ يومٌ له ما وراءه، وأننا نواجه حَرْبَ استئصالٍ حقيقيّة".(١١٤)

لكن الأمة عن ذاك غافلة وراحت ترافق التنين على طريق سيره غافلة أو متغافلة عن حقيقة نواياه وإراداته بها مخدوعة بما يبدي لها من ود ظاهر مع ما يضمر من حقد دفين ناسية أن الحية الرقطاء التي تبدوا جميلة الصورة ناعمة الملمس لا تحمل في جوفها إلا السم الزعاف

أفترى أمتنا عن حقيقة عدوها –الذي تبذل له اليوم أسمى آيات الود وخالص أمارات الولاء– أفتراها غافلة عن ماضيه وإخلاصه النادر لها في الماضي القريب والبعيد على السواء؟! فإن!! أفتراها لا تدري بأياديه الخفية والظاهرة التي تعبث بدينها وأخلاقها بل وتنتهك في كل شبر من الأرض اليوم – علانية وخفية سرا وجهرا – عرضها

فهلا التفتت الأمة التفاتة بضع ثوان ليست تزيد لترى وتسمع بجرائم أيد كانت بالأمس القريب رعية في حمى الإسلام وتحت رايته عوملت أحسن أنواع المعاملة وعاشت أزهى عصور حياتها معيشة لم تلقها وهي تحت حكم من يشاركونهم الديانة والملك فإذا هي اليوم لقاء هذا الكرم وردا منهم لذاكم الجميل قد استباحت الديار وسفكت الدماء وهتكت الأعراض وسلبت الأموال واحتلت الأوطان وإلى هذه الساعة لا تزال هذه اليد الآثمة الغاشمة في ساحات الأمة الإسلامية تصول وتجول فهذه سيوفهم تقطر من دمائنا في كل واد في البوسنة والهرسك وكوسوفو وبورما والفلبين والصومال وفلسطين وأفغانستان والعراق ولا تزال تسمع دوي الانفجارات وأزيز الطائرات جنبا إلى جنب مع ما تقدمه للأمة من أنواع المعونة لتسقط جوال الدقيق وعلبة السمن والقنابل العنقودية في آن فوق رؤوس الضعفاء والأرامل والمساكين.

ذاك ما نريد أن نلفت الأمة لتستيقظ له وتنتبه إليه إننا في أمس الحاجة من أي وقت مضى للوقوف على هذا الأصل الأصيل من معتقدنا.

---

(١١٤) الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة المقدمة ص(١) إعداد: د. حاتم بن عارف بن ناصر الشريف، كلية الدعوة – جامعة أم القرى.

قال العلامة حافظ أحمد حكمي –رحمه الله تعالى–: (علامة حب العبد ربه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله. ومعاداة من عاداه واتباع رسوله، واقتفاء أثره وقبول هداه).

ولله در ابن القيم إذ يقول:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حبًا له ما ذاك في إمكان

وكذا تعادي جاهدًا أحبابه أين المحبة يا أخا الشيطان

ليس العبادة غير توحيد المحبة مع خضوع القلب والأركان

شرطُ المحبة أن توافق من تحبَّ على محبته بلا نقصان

فإن ادَّعيت له المحبة مع خلافك ما يحبُ فأنت ذو بهتان

ويقول:

لو صدقت الله فيما زعمته لعاديت من بالله ويحك يكفر

وواليت أهل الحق سرًا وجهرة ولما تهاجيهم وللكفر تنصر

فما كل من قال ما قلت مسلم ولكن بأشراطٍ هنالك تذكر

مباينة الكفار في كل موطن بذا جاءنا النص الصحيح المقرر

وتكفيرهم جهرًا وتسفيه رأيهم وتضليلهم فيما أتوه وأظهروا

وتصدعُ بالتوحيد بين ظهورهم وتدعوهمو سرًا لذاك وتجهرُ

فهذا هو الدين الحنيفى والهدى وملة إبراهيم لو كنت تشعرُ

. أيها الإخوة! الأصل الثالث من أصول الشرك اتخاذ الأنداد في التحاكم إلى غير الله.

إن من عبادة الله طاعته والانقياد له في جانب التشريع فيفرد الموحد ربه بالطاعة في التحليل والتحريم ولا يسمع لقول من خالفه لأنه لا يطاع في ذلك إلا الله وكذا رسوله وطاعة الرسول تبع لطاعة الله ولذلك قال سبحانه عن اليهود والنصارى:

"اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)" [التوبة: ٣١]، والأحبار والرهبان هم علماء الفريقين، فذكر الله أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله، والسؤال بأي شيء اتخذوهم أربابا من دون الله؟

والجواب: فسر النبي —صلى الله عليه وسلم– ذلك لعدى بن حاتم الطائي لما جاء إلى النبي —صلى الله عليه وسلم– وقرأ عليه الرسول —صلى الله عليه وسلم– هذه الآية: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ. قال عدي –وكان نصرانيّاً– يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم فقال النبي —صلى الله عليه وسلم–: أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمون؟ قال: بلى —يعني يفعلون ونفعل– قال —صلى الله عليه وسلم–: أليسوا يحلون ما حرم الله فتحلون؟ قال: بلى قال: "فتلك عبادتهم".[١١٥]

فمعنى: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله" أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فدل هذا على أن من أطاع مخلوقاً في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله فقد اتخذه ربّاً يعبده من دون الله، وهذا ما يسميه العلماء بشرك الطاعة، ولهذا قال –تعالى– . يعلم المؤمنين أن لا يسمعوا لكلام المشركين في تحليلهم ما حرم الله من استباحة الميتة قال –تعالى–: "وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ".

فمن مقتضيات كلمة التوحيد – أيها الإخوة – أن لا يطاع إلا الله في التشريع ولهذا قرع الله المشركين فقال: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ "، فالتشريع حق الله –سبحانه وتعالى– لا يجوز أن يطاع فيه غير الرسل، فمن أطاع أحداً من المخلوقين في التشريع فيكون قد اتخذه شريكاً لله –عز وجل–.

أيها الإخوة وبعد فما هو الدافع القوي الذي يدفع الإنسان ويحمله على طاعة الله وحده وعبادته وحده وطاعته – سبحانه وتعالى– فيما أحل وحرم، وقصر الطاعة في ذلك عليه سبحانه وحده، والتبرؤ مما سوى الله من الأنداد والشركاء؟

وجواب هذا السؤال الخطير بعد جلسة الاستراحة إن شاء الله أسأل الله أن يوفقنا إلى طاعته وأن يورثنا الفردوس الأعلى من جنته.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

---

(١١٥) أخرجه الترمذي (٣٠٩٤)، وغيره، وهو في الصحيحة (٣٢٩٣).

أما بعد فيا أيها الإخوة رابعًا: من أصول الشرك: اتخاذ الأنداد من دون الله في التعظيم والمحبة

إن الدافع القوي الذي يدفع الإنسان ويحمله على طاعة الله وحده وعبادته وحده والتبرؤ مما سوى الله من الأنداد والشركاء وطاعته –سبحانه وتعالى– فيما أحل وحرم وقصر الطاعة في ذلك عليه سبحانه وحده، الدافع إلى ذلك والحامل عليه هو حب الله –تعالى–، فالمؤمنون يحبون الله محبة تفوق كل شيء ويحبون مراداته ومحابه أكثر من أي شيء، وهم أكثر محبة لله من محبة أصحاب الشرك لشركائهم من الأصنام والآلهة المزعومة قال سبحانه: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)" [البقرة: ١٦٥]، وهذا من تمام توحيد المؤمنين وهو أيضاً أصل شرك المشركين، أن المؤمنين أخلصوا المحبة لله وأن المشركين أحبوا سوى الله معه محبة عبادة وتذلل فلما فعلوا ذلك صاروا مشركين، ذلك لأن التوحيد لا يصح إلا بإخلاص المحبة لله وأن لا يحب معه غيره محبة عبادة بل يفرد العبد الله جل وعلا بالمحبة ولا يحب معه غيره محبة العبادة، ولا تفهمن أخي الحبيب اللبيب أن محبة غير الله حرام على الإطلاق بل المحبة المقصودة كما قلت المحبة التي هي التعبد والطاعة والتذلل، أما المحبة التي هي الميل القلبي إلى مثل الأولاد والزوجة والخلق وما سوى ذلك فلا وإن كان يطلب من المؤمن طلب وجوب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء حتى من هؤلاء بل من نفسه التي بين جنبيه كما قال –تعالى–: "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)" [التوبة: ٢٤].

وفي البخاري من حديث عَبْد اللَّهِ بْن هِشَامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – وَهْوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِى. فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم –" لاَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ ». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِى. فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم –" الآنَ يَا عُمَرُ».[١١٦]

وفيه عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ [وفي رواية: "لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى... »] أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ». [١١٧]

فمن أحب الله ولم يقدر على محبته أحدًا سواه فذلك المؤمن ومن أشرك أحدًا مع الله فى المحبة مساويًا له فيها أو مقدمًا محبته على محبة الله فذلك المشرك.

---

(١١٦) أخرجه البخاري ٦٦٣٢.

(١١٧) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، والرواية أخرجها البخاري (٦٠٤١).

وتأصيل ذلك أن المحبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، كما في قوله –صلى الله عليه وسلم-: "أوثق عرى الإيمان الحب في الله".(١١٨)

والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء، لأن الله يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلي:

أمر على الديار ديار ليلى   أقبل ذا الجدارَ وذا الجدارَ

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارَا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله، فهذه لا تنافي محبة الله، كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي – صلى الله عليه وسلم -: من أحب الناس إليك؟ قال: "عائشة". قيل: فمن الرجال؟ قال: "أبوها"(١١٩)، ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله وهذه هي التي تنافي محبة الله، وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة نداً لمحبة الله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها.(١٢٠) فالأولى واجبة والثانية جائزة والثالثة محرمة.

أيها الإخوة هذا هو سبيل النجاة وطريق الفلاح فإن من عمل بهذه العلامات الأربع:

* عبد الله وحده دون شريك معه.

* وأطاعه فيما أحل وحرم دون سماع في ذلك لأحد معه.

* وتبرأ من الشرك وأهله فلم يشرك أحدًا معه.

* وأحب الله خالصًا من قلبه دون شريك معه.

---

(١١٨) أخرجه الطبراني في" المعجم الكبير" ١١٥٣٧)، وهو في "الصحيحة" (٤ / ٣٠٦).
(١١٩) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٦٣٢٨).
(١٢٠) القول المفيد (١/ ٨٧، ٨٨).

فذلك هو المسلم المؤمن الموحد الذي أخلص التوحيد وأتم معنى لا إله إلا الله فاستحق ما يستحقه أهلها وحرم منه ما يحرم من أهلها على أهلها كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث طارق بن أشيم الأشجعي أن الحبيب النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله: حرم ماله ودمه وحسابه على الله. (١٢١)

هذا هو الطريق، من هنا تصل إلى الله وبهذه العلامات على صحة السير والمسير تستدل، وخلاصة ذلك التوحيد لله بالإيمان به والكفر بما عداه، فمن حقق هذين الشيئين قول لا إله إلا الله والكفر بما يعبد من دون الله صار له الأمن والأمان على دمه وماله من أهل الإسلام فإن كان باطنه كذلك كان في أمن في الدنيا والآخرة وإن كان باطنه بخلاف ذلك بأن كان منافقاً فأظهر ذلك كان له ذلك في الدنيا دون الآخرة ولذلك قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في نهاية الحديث: "وحسابه على الله".

وهذا الحديث على اختصاره منهج عظيم يبين معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأنها ليست مجرد لفظ يقال باللسان ويردد في الأذكار والأوراد وإنما هي حقيقة تقتضي وتتطلب منك أن تكفر بما يعبد من دون الله وأن تتبرأ من المشركين ولو كان أقرب الناس إليك كما فعل الخليل عليه السلام يتبرأ من أبيه وأقرب الناس إليه وكما أرشد الله إلى ذلك نبيه والمؤمنين معه كما قال –تعالى–: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) [التوبة: ١١٣]

أيها الإخوة أعي تماماً حجم الموضوع الكبير وأني لم أستطع شفاء الصدور مما يتردد فيها الآن من أسئلة أكاد أسمع صداها والتي أراها تدور جلها أو كلها حول قضية التوسل والوسيلة فعند حضراتكم بلا شك كم ليس بالقليل من التساؤلات حول هذا الموضوع، ولذا فسوف أفرد الحديث في الخطبة التالية والتي تليها للحديث عن هذا الموضوع الخطير لأجمع لحضراتكم جميع الشبهات التي تثار حول الموضوع بمشيئة الله عفواً بل التساؤلات حول الموضوع فلا أحب أن أصادر من الآن على التسمية فلنسمها تساؤلات وليس شبهات حتى نرى في النهاية ما ستكون وأنا إن شاء الله بانتظار تساؤلاتكم الخاصة لجمعها وترتيبها إلى ما عندي لنجيب عن هذه وتلك إن قدر الله لنا اللقاء والبقاء، أسأل الله –تعالى– أن ينفعنا بما سمعنا، وأن يجنبنا الزلل.... الدعاء.

---

(١٢١) أخرجه مسلم (٢٣).


شبكة
الألوكة
www.alukah.net

تساؤلات حول التوسل والوسيلة [١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة!

إن أولى ما أنفقت فيه الأعمار، ووصل في سبيل تعلمه الليل بالنهار، لهو الاعتقاد الصحيح في العلي الغفار، على ما أخبر به النبي المختار، واعتقده الصحابة الأبرار، ومن تبعهم من السلف الصالح الأخيار، فهو الاعتقاد الصحيح الذي يجب أن ينثني عليه قلب المسلم وينطوي عليه صدره لا ما اخترع أهل البدع والأهواء بآرائهم وعقولهم وإن كانت هذه الطريقة الأخيرة هي المنتشرة المشهورة حتى زعم الزاعمون أنها عقيدة أهل السنة والجماعة والتي كان عليها الصحابة ومن تبعهم بإحسان وهي التي عُلَّمها النبي صلى الله علية وسلم وعنه أخذت هكذا زعموا زورًا وبهتانًا فكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون -والله- إلا كذبًا.

ومن مسائل العقيدة المهمة التي غاب عن كثير جدًّا من المسلمين العلم بأحكامها واضطربوا اضطراباً كبيراً، واختلفوا اختلافاً عظيماً في شأنها، بين محلل ومحرم، ومغال ومتساهل، مسألة التوسل وقد بينا أن التوسل المشروع هو التوسل بأسماء الله وصفاته، والتوسل بالأعمال الصالحة، والتوسل بدعاء الصالحين الأحياء، وقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة على جواز بل استحباب هذا النوع من التوسل فهو المشروع وأما ما سواه فممنوع، وقد اعتاد جمهور المسلمين منذ قرون طويلة أن يقولوا في دعائهم مثلاً: "اللهم بحق نبيك أو بجاهه أو بقدره عندك عافني واعف عني"، وأن يقولوا: "اللهم إني أسألك بحق البيت الحرام أن تغفر لي"، ويقولوا: "اللهم بجاه الأولياء والصالحين، ويقولوا: اللهم اغفر لنا وارحمنا بحرمة وبركة صاحب هذا المقام، مثل فلان وفلان"، أو يقولوا: "اللهم بكرامة رجال الله عندك، وبجاه من نحن في حضرته، وتحت مدده فرج الهم عنا وعن المهمومين" ويقولوا: "اللهم إنا قد بسطنا إليك أكف الضراعة، متوسلين إليك بصاحب الوسيلة والشفاعة أن تنصر الإسلام والمسلمين..بل اعتاد بعض الناس إذا عرضت لهم حاجة، أو ألمت بهم ملمة، أن يقرأوا ورد "يا شيخ عبد القادر جيلاني شيئا لله"....... "الخ ما نعرفه ونسمعه من هذه الكلمات والدعوات.

ويسمون هذا توسلاً، ويدَّعون أنه سائغ ومشروع، وأنه قد ورد فيه بعض الآيات والأحاديث التي تقره وتشرعه، بل تأمر به وتحض عليه، وبعضهم غلا في إباحة هذا حتى أجاز التوسل إلى الله -تعالى- ببعض مخلوقاته التي لم تبلغ من المكانة ما يؤهلها لرفعة الشأن، كقبور الأولياء، والحديد المبني على أضرحتهم، والتراب والحجارة والشجر القريبة منها، زاعمين أن ما جاور العظيم فهو عظيم، وأن إكرام الله لساكن القبر يتعدى إلى القبر نفسه.... إلى آخر هذه المقولات التي ليس عليها

من كتاب الله ولا من سنة رسوله . صلى الله عليه وسلم . دليل لكن إخواننا هؤلاء هداهم الله غالوا وزعموا أن ذلك يصح أن يكون وسيلة إلى الله، بل قد أجاز بعض المتأخرين الاستغاثة بغير الله!

وادعوا أن لهم أدلة قرآنية وسنية يستندون إليها باتخاذهم هذا النوع من التوسل الذي دعوناه ممنوعاً واعتبروه مشروعاً بالنسبة لما يحفظون من الأدلة فتعالوا بنا لنرى، فلعلهم يكونون على حق فليدلوا بأدلتهم وإنا أو إياهم لعلى هدى أو في ضلال مبين. وسنورد أهم الأدلة عندهم آملين لمن كان على الخطأ أن يعود إلى الصواب

فأعيروني القلوب والأسماع –أيها الإخوة– والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

تساؤلات حول التوسل والوسيلة:

. يقول دعاة التوسل والذين يرون جوازه:

هل تنكرون قوله –تعالى–: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)" [المائدة: ٣٥]،

وقوله سبحانه: "قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)" [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

وفي البداية أقول –أيها الإخوة– : يجب أن نتنبه إلى أنه ليس المهم إيراد الآيات والأحاديث لإثبات شرعية أمر ما، إنما المهم أن تكون هذه الآيات والأحاديث واردة في محالها وفي مناسباتها وخاصة منها الأحاديث فمن المعلوم عند أهل العلم أنه ليس كل ما يرد من الأحاديث صحيحاً ففيها الصحيح والضعيف وشديد الضعف والموضوع والمكذوب والباطل الذي لا أصل له، بل ليس كل حديث صحيح يسلم به لمن احتج به فقد يحتج بالحديث في غير موضعه فتكون حجته داحضة باطلة.

إذاً فمجرد إيراد الأحاديث لا يقدم في الموضوع ولا يؤخر فيه شيئاً إلا إذا كانت صحيحة في ذاتها وفي الاستشهاد بها، عندها تصلح دليلاً وتثبت بها الحجة.

ما معنى الوسيلة؟ –أيها الإخوة– إن معنى الوسيلة إلى الله –تعالى–: هو مراعاة سبيله بالعمل والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقُرْبة، والواسل: هو الراغب إلى الله –تعالى–، وأما عن الآيات التي يستدل بها من يجيزون التوسل بهذا النوع الذي ذكرنا.

وهي قوله -تعالى-: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدا في سبيله لعلكم تفلحون، وقوله سبحانه: "أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)" [الإسراء: ٥٧].

فتعالوا بنا نتعرف إلى هاتين الآيتين من أوثق كتب التفسير.

فأما الآية الأولى، فقد قال إمام المفسرين الحافظ ابن جرير -رحمه الله- في تفسيرها: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله فيما أخبرهم، ووعد من الثواب، وأوعد من العقاب. اتقوا الله يقول: أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم، بالطاعة له في ذلك، وابتغوا إليه الوسيلة: يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه. [١٢٢]

ونقل الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معنى الوسيلة في هذه الآية القربة أي الطاعة، ونقل مثل ذلك عن مجاهد وأبي وائل والحسن وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد، ونقل عن قتادة قوله فيها: أي تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه، ثم قال ابن كثير: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه... [١٢٣] إذا فليس فى الآية على صحة التوسل بأحد إنما معناها التقرب بالطاعة والعبادة.

وأما الآية الثانية: "أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) "[الإسراء: ٥٧]: فليس فيها متعلق لهذه المسألة فقد بين الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- مناسبة نزولها التي توضح معناها فقال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون.[١٢٤]

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: أي استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك، لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة، وهذا هو المعتمد في تفسير الآية. [١٢٥]

قلت: وهي صريحة في أن المراد بالوسيلة ما يتقرب به إلى الله -تعالى-، ولذلك قال:

يبتغون أي يطلبون ما يتقربون به إلى الله -تعالى- من الأعمال الصالحة، وهي كذلك تشير إلى هذه الظاهرة الغريبة المخالفة لكل تفكير سليم، ظاهرة أن يتوجه بعض الناس بعبادتهم ودعائهم إلى بعض عباد الله، يخافونهم ويرجونهم، مع

---

(١٢٢) تفسير الطبري - (١٠ / ٢٨٩).

(١٢٣) تفسير ابن كثير - (٣ / ١٠٣).

(١٢٤) أخرجه البخاري (٤٧١٤، ٤٧١٥)، ومسلم ٧٧٤٢.

(١٢٥) فتح الباري (١٣ / ١٩١).

أن هؤلاء العباد المعبودين قد أعلنوا إسلامهم، وأقروا لله بعبوديتهم، وأخذوا يتسابقون في التقرب إليه سبحانه، بالأعمال الصالحة التي يحبها ويرضاها، ويطمعون في رحمته، ويخافون من عقابه، فهو سبحانه يُسَفه في هذه الآية أحلام أولئك الجاهلين الذين عبدوا الجن، واستمروا على عبادتهم مع أنهم مخلوقون عابدون له سبحانه، وضعفاء مثلهم، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، وينكر الله عليهم عدم توجيههم بالعبادة إليه وحده، -تبارك وتعالى-، وهو الذي يملك وحده الضر والنفع، وبيده وحده مقادير كل شيء وهو المهيمن على كل شيء.

والخلاصة – أيها الإخوة – أن الاستدلال من الآيتين على هذا التوسل استدلال خاطئ لا يصح حمل الآيتين عليه، لأنه لم يثبت شرعاً أن هذا التوسل مشروع مرغوب فيه، ولذلك لم يذكر هذا الاستدلال أحد من السلف الصالح، ولا استحبوا التوسل المذكور، بل الذي فهموه منهما أن الله -تبارك وتعالى- يأمرنا بالتقرب إليه بكل رغبة، والتقدم إليه بك قربة، والتوصل إلى رضاه بكل سبيل.

ولكن الله سبحانه قد علمنا في نصوص أخرى كثيرة أن علينا إذا أردنا التقرب إليه أن نتقدم إليه بالأعمال الصالحة التي يحبها ويرضاها، وهو لم يكل تلك الأعمال إلينا، ولم يترك تحديدها إلى عقولنا وأذواقنا، لأنها حينذاك ستختلف وتتباين، وستضطرب وتتخاصم، بل أمرنا سبحانه أن نرجع إليه في ذلك، ونتبع إرشاده وتعليمه فيه، لأنه لا يعلم ما يرضي الله – عز وجل- إلا الله وحده، فلهذا كان من الواجب علينا حتى نعرف الوسائل المقربة إلى الله أن نرجع في كل مسألة إلى ما شرعه الله سبحانه، وبينه رسول الله، ويعني ذلك أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله وهذا هو الذي وصانا به رسولنا محمد صلوات الله عليه وسلامه حيث قال: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله. [(١٢٦)]

إذاً فقد سقط الاستدلال بهاتين الآيتين.

ثانياً: قالوا: إن الله -تبارك وتعالى- قال: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [النساء: ٦٤]

قالوا: إن هذه الآية فيها إثبات جواز التوسل برسول الله صلى حتى بعد مماته وأوردوا على ذلك قصة مكذوبة لا أصل لها ولا خطام ولا زمام عن رجل يقال له: العُتْبي، قال: كنت جالساً عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفنَت بالقاع أعظُمُه... فطاب منْ طيبهنّ القاعُ والأكَمُ...

---

(١٢٦) أخرجه مالك ١٦٢٨، والحاكم ٢٩١، وصححه الألباني في: "المشكاة ».

نَفْسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُه... فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ...

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال: يا عُتْبى، الحقْ الأعرابيّ فبشره أن الله قد غفر له.

وزاد بعضهم البيتين التاليين:

أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته... على الصراط إذا ما زلت القدم

وصاحباك فلا أنساهما أبداً... مني السلام عليكم ما جرى القلم (١٢٧)

وهذه –أيها الإخوة– حكاية باطلة، وقصة واهية، لا تدل على جواز التوسل بالرسول صلى الله عليه سلم، والرد عليها بأربعة أمور ذكرها الشيخ الفاضل صالح آل الشيخ في كتابه: "هذه مفاهيمنا" قال:

أولاً: ما دام أنها ليست من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا فعل خلفائه الراشدين، وصحابته المكرمين، ولا من فعل التابعين، والقرون المفضلة، وإنما هي مجرد حكاية عن مجهول نقلت بسند ضعيف، فكيف يحتج بها في عقيدة التوحيد، الذي هو أصل الأصول، وكيف يحتج بها وهي تعارض الأحاديث الصحيحة التي نُهِي فيها عن الغلو في القبور، والغلو في الصالحين عموماً، وعن الغلو في قبره، والغلو فيه صلى الله عليه وسلم خصوصاً، وأما من نقلها من العلماء أو استحسنها فليس ذلك بحجة تعارَض بها النصوص الصحيحة وتخالَف من أجلها عقيدة السلف، فقد يخفى على بعض العلماء ما هو واضح لغيرهم، وقد يخطئون في نقلهم ورأيهم، وتكون الحجة مع من خالفهم.

وما دمنا قد علمنا طريق الصواب، فلا شأن لنا بما قاله فلان أو حكاه فلان، فليس ديننا مبنيّاً على الحكايات والمنامات، وإنما هو مبني على البراهين الصحيحة.

ثانياً: قد تخفى بعض المسائل والمعاني على من خلع الأنداد، وتبرأ من الشرك وأهله، كما قال بعض الصحابة: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط"فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده ما قاله أصحاب موسى: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ) [الأعراف: ١٣٨]"(١٢٨)

والحجة في هذا: أن هؤلاء الصحابة، وإن كانوا حديثي عهد بكفر، فهم دخلوا في الدين بلا إله إلا الله، وهي تخلع الأنداد، وأصناف الشرك، وتوحد المعبود، فمع ذلك ومع معرفة قائليها الحقة بمعنى لا إله إلا الله، خفي عليهم بعض

(١٢٧) المجموع (٨/٢١٧) الإيضاح (ص٤٩٨).

(١٢٨) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، (٤ / ٤٧٥)، وأحمد (٥ / ٢١٨)، وصححه الألباني المشكاة ٥٤٠٨.

المسائل من أفرادها، وإنما الشأن أنه إذا وضح الدليل، وأبينت الحجة، فيجب الرجوع إليها والتزامها، والجاهل قد يعذر، كما عُذر أولئك الصحابة في قولهم: "اجعل لنا ذات أنواط"، وغيرهم من العلماء أولى باحتمال أن يخفى عليهم بعض المسائل ولو في التوحيد والشرك.

ثالثاً: كيف يتجاسر أحد أن يعارض نصوص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بقول حكاه حاك مستحسناً له، والله سبحانه يقول: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور: ٦٣].

قال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله -تعالى- يقول: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ)، ثم يقول: الإمام أتدري ما الفتنة؟.

الفتنة: الشرك لعله إذا رَدَّ بعضَ قولِه أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك. (١٢٩)

فطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمة على طاعة كل أحد، وإن كان خيرَ هذه الأمة أبا بكر وعمر، فالأمر كما قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون: قال أبو بكر وعمر. (١٣٠)

فكيف لو رأى ابن عباس هؤلاء الناس الذين يعارضون السنة الثابتة، والحجة الواضحة بقول أعرابي مجهول في قصة العتبي الضعيفة المنكرة.

إن السنة في قلوب محبيها أعظم وأغلى من تلك الحجج المتهافتة، والمفاهيم البدعية السقيمة، تلك المفاهيم المبنية على المنامات والمنكرات، فاعجب لهذا، وجرد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحذار ثم حذار من أن ترد الأحاديث الصحيحة وتؤمن بالأخبار الباطلة الواهية، فيوشك من فعل ذلك أن يقع في قلبه فتنة فيهلك.

رابعاً: ما من عالم إلا ويرد عليه في مسائل اختارها إما عن رأي، أو عن ضعف حجة، وهم معذورون قبل إيضاح المحجة بدلائلها، ولو تتبع الناس شذوذات المجتهدين ورخصهم، لخرجوا عن دين الإسلام إلى دين آخر، كما قيل: من تتبع الرخص تزندق، ولو أراد مبتغ الفساد والعدول عن الصراط أن يتخذ له من رخصهم سلماً يرتقي به إلى شهواته لكان الواجب على الحاكم قمعه وصده وتعزيره، كما هو مشهور في فقه الأئمة الأربعة وغيرهم.

وما ذكر ففيه أن من أحال لتبرير جرمه على قول عالم، عُلم خطؤه فيه أنه يقبل منه ولا يؤخذ بالعتاب. (١٣١)

---

(١٢٩) أخرجه ابن بطة في « الإبانة الكبرى"(٩٧).

(١٣٠) أخرجه أحمد (٣١٢١).

أيها الإخوة! إن الحكايات لا يثبت بها دين.

والآية لا تدل مطلقاً على شيء من ذلك الذي ذهبوا إليه، وإنما تبين: "أن الله -سبحانه وتعالى-... هو التواب الرحيم ومهما اقترف عباده من الذنوب والخطايا... ثم رجعوا إليه وأنابوا... فإنه يتوب عليهم ويغفر لهم ذنوبهم على أن يعزموا على عدم العودة إلى الذنب. ومن رحمته بعباده أنه يدلهم على الطريق الذي إذا سلكوه... يوصلهم إلى عفوه ومغفرته، لأن لكل شيء سبباً ففي هذه الآية يدلهم على هذه الأسباب... فإنه -تعالى- يخبر في محكم آياته أنه لم يرسل إلى الناس من رسول إلا ليطاع ويستجيبوا لرسالته التي أرسلها إليهم، فمن أطاع له عند الله -تعالى- الدرجات العلى، ومن ظلم نفسه بالإعراض... أو المعصية... فقد فتح له باب العودة إليه -تعالى-، إنما هذا الطريق له سبل تؤدي إليه فدلهم عليها بقوله جل وعلا: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) [النساء: ٦٤].

وذلك بأن يحضروا إلى الرسول الأعظم ويستغفروا الله في مجلسه ثم يسألوه أن يستغفر لهم أيضاً وهكذا، فإن استغفارهم ربهم ثم استغفار الرسول لهم، يكونان سبباً في توبته -تعالى- عليهم ورحمته بهم، فثبت أن الله -تعالى- أرشدهم إلى توسلين يستمطرون بهما توبة الله ورحمته.

الأول: استغفارهم الله لأنفسهم في مجلس رسول الله.

الثاني: سؤالهم الرسول أن يستغفر الله لهم فالأول كان توسلاً بالأعمال الصالحة... وهو استغفارهم الله الذي هو عمل صالح، والثاني كان توسلاً بدعاء المؤمن لأخيه وكلا التوسلين كانا بإرشاد من الله -تعالى- فهل من دليل على مشروعية هذين التوسلين أدل من دلالة الله عليهما في هذه الآية؟ أما التوسل بذات النبي - صلى الله عليه وسلم- فهذا غير مشروع فضلاً عن أن يدل على مشروعية التوسل بذوات الصالحين وبهذا سقط الاستدلال بهذه الآية أيضاً.

ثالثاً: قالوا: إن مما يدل لصحة ما ذهبنا إليه قصة استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما: ففيها جواز التوسل بجاه الأشخاص وحرمتهم وحقهم وهو أن أنساً قال: إن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان إذا قَحَطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا، فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون.

فيفهمون من هذا الحديث أن توسل عمر -رضي الله عنه- إنما كان بجاه العباس رضي الله عنه، ومكانته عند الله سبحانه، وأن توسله كأنه مجرد ذكر منه للعباس في دعائه، وطلب منه لله أن يسقيهم من أجله، وقد أقره الصحابة على ذلك، فأفاد بزعمهم ما يدّعون.

---

(١٣١) هذه مفاهيمنا (ص٧٦)، نقلًا عن تحقيق: سامي بن محمد سلامة لتفسير ابن كثير، انظر: (٢ / ٣٤٨)، دار طيبة للنشر والتوزيع.

وأما سبب عدول عمر -رضي الله عنه- عن التوسل بالرسول - بزعمهم - وتوسله بدلاً منه بالعباس رضي الله عنه، فإنما كان لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ليس غير.

والجواب: إن فهمهم هذا خاطئ، وتفسيرهم هذا مردود فليس المعنى كما فهموه: كنا نتوسل بجاه نبينا، وإنا نتوسل إليك بجاه عم نبينا،إنما المعنى: كنا نتوسل إليك بدعاء نبينا، وإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبينا على رأينا نحن.

وإذا لجأنا إلى السنة، لتبين لنا طريقة توسل الصحابة الكرام بالنبي فهل يا ترى كانوا إذا أجدبوا وقحَطوا قبع كل منهم في داره، أو مكان آخر، أو اجتمعوا دون أن يكون معهم رسول الله، ثم دعوا ربهم قائلين: اللهم بنبيك محمد، وحرمته عندك، ومكانته لديك اسقنا الغيث. مثلاً، وهذا لا وجود له إطلاقاً في السنة النبوية الشريفة، وفي عمل الصحابة رضوان الله -تعالى- عليهم، أم أنهم كانوا يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم- ذاته فعلاً، ويطلبون منه أن يدعو الله -تعالى- لهم، فيحقق طلْبتهم، ويدعو ربه سبحانه، ويتضرع إليه حتى يسقوا؟ ما الذي دلت عليه الآيات والأحاديث والسيرة - أيها الإخوة-؟ الواضح من هذا كله أنهم إنما كانوا إذا رغبوا في قضاء حاجة، أو كشف نازلة أن يذهبوا إليه، ويطلبوا منه مباشرة أن يدعو لهم ربه، أي أنهم كانوا يتوسلون إلى الله -تعالى- بدعاء الرسول الكريم ليس غير.

ويرشد إلى ذلك قوله -تبارك وتعالى-: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً [النساء:٦٤].

ومن أمثلة ذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت: شكا الناس إلى رسول الله قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه. قالت: فخرج رسول الله حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر، فكبر وحمد الله، ثم قال: إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغًا إلى حين ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره وقلب أو حول رداءه وهو رافع يديه ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، فقال: أشهد أن الله على كل شيء قدير وأني عبد الله ورسوله.(١٣٢)

(١٣٢) أخرجه أبو داود (١١٧٣) والطحاوي (١ / ١٩٢) والبيهقي (٣ / ٣٤٩) والحاكم أيضا (١ / ٣٢٨)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٣ / ١٣٦).

فهذه الواقعة وأمثالها مما وقع زمن النبي وزمن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم تُبين بما لا يقبل الجدال أو المماراة أن التوسل بالنبي أو بالصالحين الذي كان عليه السلف الصالح هو مجيء المتوسِّل إلى المتوسَّل به، وعرضه حاله له، وطلبه منه أن يدعو له الله سبحانه، ليحقق طلبه، فيستجيب هذا له، ويستجيب من ثم الله –سبحانه وتعالى–.

أيها الإخوة: ولقد فسرت بعض روايات الحديث الصحيحة كلام عمر المذكور فى قصة التوسل وقصده، إذ نقلت دعاء العباس –رضي الله عنه– استجابة لطلب عمر رضي الله عنه، فمن ذلك ما نقله الحافظ العسقلاني –رحمه الله– في"الفتح"[١٣٣]حيث قال: قد بين الزبير بن بكار في"الأنساب"صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة، والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجّه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث، قال: فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس.

وواضح في هذا الحديث: أن التوسل بدعاء العباس –رضي الله عنه– لا بذاته كما بينه الزبير بن بكار وغيره، وفي هذا رد واضح على الذين يزعمون أن توسل عمر كان بذات العباس لا بدعائه، إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة حاجة ليقوم العباس، فيدعو بعد عمر دعاءً جديداً.

ثانياً: إن عمر صرح بأنهم كانوا يتوسلون بنبينا في حياته، وأنه في هذه الحادثة توسل بعمه العباس، ومما لا شك فيه أن التوسليْن من نوع واحد: توسلهم بالرسول وتوسلهم بالعباس، وإذ تبين أن توسلهم به– صلى الله عليه وسلم– إنما كان توسلاً بدعائه فتكون النتيجة أن توسلهم بالعباس إنما هو توسل بدعائه أيضاً، بضرورة أن التوسليْن من نوع واحد.

إذا تبين هذا: علمنا أن قوله كنا نتوسل إليك بنبينا، أي بدعائه، وبذا نعلم أن التوسل الذي حدث من عمر إلى العباس أنه طلب من العباس أن يدعو الله أن يسقي الناس فدعا العباس وهذا لا يدل على التوسل بذوات الصالحين وبهذا يسقط الاستدلال بهذا الأثر أيضاً.

رابعاً: حديث الضرير: يرون أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي– صلى الله عليه وسلم– أو غيره من الصالحين، إذ فيه أن النبي علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيراً.

وحديث الضرير هو ما أخرج أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي، فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخّرتُ ذاك، فهو خير، وفي رواية: وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك، فقال: ادعهُ. فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك

---

(١٣٣)"الفتح" ١٥٠/٣.

بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم فشفّعه فيَّ [وشفّعني فيه]. قال: ففعل الرجل فبرأ.(١٣٤)

يقولون: فهذا دليل وحجة على جواز التوسل بذات الرسول- صلى الله عليه وسلم- والجواب: إن هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل بالذات، بل هو دليل التوسل المشروع، لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه صلى الله عليه وسلم وليس بجاهه وذاته.

والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة، وأهمها:

أولاً: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم- ليدعو له، وذلك قوله: ادعُ الله أن يعافيني فهو توسل إلى الله –تعالى- بدعائه، لأنه يعلم أن دعاءه أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي، ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته، ويدعو ربه بأن يقول مثلاً: اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني، وتجعلني بصيراً. ولكنه لم يفعل، لماذا؟ لأنه عربي يفهم معنى التوسل في لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليس كلمة يقولها صاحب الحاجة، يذكر فيها اسم المتوسَّل به، بل لابد أن يشتمل على المجيء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة، وطلب الدعاء منه له ها هو ذا قد فعل فأتى رسول الله ليدعو له.

ثانياً: أن النبي وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله:

إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرت فهو خير لك. وهذا الأمر الثاني هو ما أشار إليه في الحديث الذي أخرجه البخاري عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . عن ربه –تبارك وتعالى- أنه قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه – أي عينيه – فصبر، عوضته منهما الجنة. (١٣٥)

ثالثاً: إصرار الأعمى على الدعاء وهو قوله: فادع فهذا يقتضي أن الرسول دعا له، لأنه خير من وفى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق، فقد شاء الدعاء وأصر عليه، فإذن لا بد أنه دعا له، فثبت المراد، وقد وجه النبي – صلى الله عليه وسلم- الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه أن يستجيب الله –تعالى- دعاءه فيه، وجهه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو لنفسه وهذه الأعمال طاعة لله –سبحانه وتعالى- يقدمها بين يدي دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم- له، وهي تدخل في قوله –تعالى-: وابتغوا إليه الوسيلة كما سبق.

---

(١٣٤) أخرجه الترمذي (٣٥٧٨)، وأحمد (٤ / ١٣٨) وابن ماجه (١٣٨٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١ / ٥١٩).

(١٣٥) أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

وهكذا فلم يكتف الرسول – صلى الله عليه وسلم– بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله – سبحانه وتعالى– وقربة إليه، ليكون الأمر مكتملاً من جميع نواحيه، وأقرب إلى القبول والرضا من الله –سبحانه وتعالى–، وعلى هذا، فالحادثة كلها تدور حول الدعاء –كما هو ظاهر – وليس فيها ذكر شيء مما يزعمون.

ولذلك فإن هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره، ولذلك أخرجه المصنفون في"دلائل النبوة"كالبيهقي وغيره، فهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي فقول الأعمى في دعائه: اللهم إني أسألك، وأتوسل إليك بنبيك محمد إنما المراد به: أتوسل إليك بدعاء نبيك، أي على حذف المضاف، وهذا أمر معروف في اللغة، كقوله –تعالى–: "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا". [يوسف: ٨٢] أي: أهلَ القرية وأصحابَ العير.

هذا ولا بد من بيان ناحية هامة تتعلق بهذا الموضوع، وهي أننا حينما ننفي التوسل بجاه النبي، وجاه غيره من الأنبياء والصالحين فليس ذلك لأننا ننكر أن يكون لهم جاه، أو قدر أو مكانة عند الله، كما أنه ليس ذلك لأننا نبغضهم، وننكر قدرهم ومنزلتهم عند الله، ولا تشعر أفئدتنا بمحبتهم، كلا ثم كلا، فنحن ولله الحمد من أشد الناس تقديراً لرسول الله، وأكثرهم حباً له، واعترافاً بفضله. ونحن كذلك من أعرف الناس بأقدار الصالحين من الأولين والآخرين بما عرفنا الله في كتابه وما عرفنا رسوله في سنته نسأل الله أن يحشرنا مع نبيه والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

خامساً: الأحاديث الضعيفة في التوسل:

يحتج مجيزو التوسل المبتدع بأحاديث كثيرة، إذا تأملناها نجدها غير ثابتة النسبة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهذه الأحاديث كثيرة، فأكتفي بذكر ما اشتهر منها، فأقول:

الحديث الأول:

عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: من خرج من بيته إلى الصلاة، فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً...أقبل الله عليه بوجهه. [١٣٦]

فهذا الحديث أخرجه أحمد واللفظ له، وابن ماجه، وإسناده ضعيف

الحديث الثاني:

حديث بلال وهو ما رُوي عنه أنه قال: كان رسول الله إذا خرج إلى الصلاة قال: بسم الله، آمنت بالله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. اللهم بحق السائلين عليك، وبحق مخرجي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً.. [١٣٧]

والحديث أخرجه ابن السني في"عمل اليوم والليلة"– من طريق الوازع بن نافع العقيلي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله عنه.

وهذا سند ضعيف جدّاً، وآفته الوازع هذا، فإنه لم يكن عنده وازع يمنعه من الكذب.

الحديث الثالث:

---

(١٣٦) أخرجه أحمد ٣/ ٢١ واللفظ له، وابن ماجه، وانظر تخريجه مفصلاً في"سلسلة الأحاديث الضعيفة" رقم ٢٤.
وإسناده ضعيف.

(١٣٧) أخرجه ابن السني في"عمل اليوم والليلة – رقم ٨٢.

عن أبي أمامة قال: كان رسول الله إذا أصبح، وإذا أمسى دعا بهذا الدعاء: اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد.. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض، وبكل حق هو لك، وبحق السائلين عليك.... [١٣٨]

والحديث قال عنه الهيثمي في"مجمع الزوائد": أخرجه الطبراني، وفيه فضال بن جبير، وهو ضعيف مُجْمَع على ضعفه.

بل هو ضعيف جدّاً، اتهمه ابن حبان فقال: شيخ يزعم أنه سمع أبا أمامة، يروي عنه ما ليس من حديثه. وقال أيضاً: لا يجوز الاحتجاج به بحال، يروي أحاديث لا أصل لها.

وهنا وقفة لطيفة عن أهل الحديث وهي أنهم يقولون: توثيق ابن حبان وتحسين الترمذي لا يعتد بهما كثيراً، لأن ابن حبان متساهل في التوثيق والترمذي متساهل في التحسين فإذا كان ابن حبان يتساهل في التوثيق وهذا قوله في ابن جنيد هذا فماذا يكون حاله ليكون قول ابن حبان فيه هكذا لا شك أنه ساقط كذاب فالحديث لا يصح.

الحديث الرابع:

عن أنس بن مالك قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي رضي الله عنهما دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون، فلما فرغ دخل رسول الله، فاضطجع فيه فقال: الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك، والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين......[١٣٩]

والحديث قال عنه الهيثمي أيضاً في"مجمع الزوائد": فالحديث إذًا لا تقوم به حجة

الحديث الخامس:

عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد قال: كان رسول الله يستفتح بصعاليك المهاجرين. [١٤٠]

والحديث أخرجه الطبراني في"المعجم الكبير"ومداره على أمية بن خالد يرفعه، ولم تثبت صحبته، فالحديث مرسل ضعيف، لا تقوم به حجة.

الحديث السادس:

---

(١٣٨) مجمع الزوائد" ١١٧/١٠.

(١٣٩)"مجمع الزوائد"٢٥٧/٩.

(١٤٠) أخرجه الطبراني في"المعجم الكبير"٢/٨١/١.

عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال: يا آدم! وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تُضِف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتُك. (١٤١)

والحديث أخرجه الحاكم في"المستدرك" وقال الذهبي عن هذا الحديث: هو حديث موضوع، ومما يؤيد كذب هذا الحديث وبطلانه أنه يخالف القرآن الكريم في موضعين منه:

الأول: أنه تضمن أن الله -تعالى- غفر لآدم بسبب توسله به، والله -عز وجل- يقول: "فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ". [البقرة: ٣٧] وقد جاء تفسير هذه الكلمات عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما مما يخالف هذا الحديث، فأخرج الحاكم(١٤٢)عنه: فتلقى آدم من ربه كلمات قال: أي رب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: ألم تنفخ فيَّ من روحك؟ قال: بلى. قال: أي رب! ألم تسكنّي جنتك؟ قال: بلى. قال: ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى. قال: أرأيت إن تبتُ وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: بلى. قال ابن عباس: فهو قوله: فتلقى آدم من ربه كلمات وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

وقول ابن عباس هذا في حكم المرفوع من وجهين:

الأول: أنه أمر غيبي لا يقال من مجرد الرأي.

والثاني: أنه ورد في تفسير الآية، وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع، ولا سيما إذا كان من قول إمام المفسرين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي دعا له رسول الله بقوله: اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل. (١٤٣)

وأما ما قيل في تفسير هذه الكلمات: إنها ما في الآية الأخرى قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. وبهذا جزم بعض المفسرين(١٤٤).

---

(١٤١) أخرجه الحاكم في"المستدرك"٢/٦١٥.

(١٤٢) ٣/٥٤٥.

(١٤٣) رواه البخاري (٧٥).

(١٤٤) انظر تفسير المنار(١/٢٧٩).

فهو مقبول أيضاً ولا منافاة بين القولين، بل أحدهما يتمم الآخر، فحديث ابن عباس لم يتعرض لبيان ما قاله آدم عليه السلام بعد أن تلقى من ربه تلك الكلمات وهذا القول يبين الكلمات، فلا منافاة والحمد لله، وبهذا ثبت مخالفة الحديث للقرآن، فكان باطلاً وهذا هو الموضع الأول.

الموضع الثاني: قوله في آخره: ولولا محمد ما خلقتك، فإن هذا أمر عظيم يتعلق بالعقائد التي لا تثبت إلا بنص متواتر اتفاقاً، أو صحيح عند آخرين، ولو كان ذلك صحيحاً لورد في الكتاب والسنة الصحيحة، وافتراض صحته في الواقع مع ضياع النص الذي تقوم به الحجة ينافي قوله -تبارك وتعالى-: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) [الحجر: ٩] والذكر هنا يشمل الشريعة كلها قرآناً وسنة، كما قرره ابن حزم في "الإحكام" وأيضاً فإن الله -تبارك وتعالى- قد أخبرنا عن الحكمة التي من أجلها خلق آدم وذريته، فقال -عز وجل-: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، فكل ما خالف هذه الحكمة أو زاد عليها لا يقبل إلا بنص صحيح عن المعصوم كمخالفة هذا الحديث الباطل. ومثله ما اشتهر على ألسنة الناس: لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك، فإنه كذب و موضوع كما قاله الصنعاني ووافقه الشوكاني في "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة"[١٤٥].

ومن الطرائف أن المتنبي ميرزا غلام أحمد القادياني الكافر سرق هذا الحديث الموضوع المكذوب فادعى أن الله خاطبه بقوله: لولاك لما خلقت الأفلاك!! وهذا شيء يعترف به أتباعه القاديانيون، لوروده في كتاب متنبئهم "حقيقة الوحي" فسبحان الله الذي وفق بين مكذوب وكذاب[١٤٦].

الحديث السابع: توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم، وبعضهم يرويه بلفظ: إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم.

وهذا باطل لا أصل له في شيء من كتب الحديث ألبتة، وإنما يرويه بعض الجهال بالسنة كما نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في "القاعدة الجليلة"[١٤٧] قال: مع أن جاهه عند الله أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين، ولكن جاه المخلوق عند الخالق ليس كجاه المخلوق عند المخلوق فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه، فهو شريك له في حصول المطلوب، والله -تعالى- لا شريك له كما قال سبحانه: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) [سورة سبأ: ٢٢-٢٣]، فلا يلزم إذن من كون جاهه عند ربه عظيماً، أن نتوسل به إلى الله -تعالى-، لعدم ثبوت

---

(١٤٥) ص١٣٢، ١٥٠.

(١٤٦) ص٩٩.

(١٤٧) ص١١٦.

الأمر به عنه، ويوضح ذلك أن الركوع والسجود من مظاهر التعظيم فيما اصطلح عليه الناس، فقد كانوا وما يزال بعضهم يقومون ويركعون ويسجدون لمليكهم ورئيسهم والمعظم لديهم، ومن المتفق عليه بين المسلمين أن محمداً– صلى الله عليه وسلم– هو أعظم الناس لديهم، وأرفعهم عندهم. ترى فهل يجوز لهم أن يقوموا ويركعوا ويسجدوا له في حياته وبعد مماته؟

الجواب: إنه لا بد لمن يجوز ذلك، من أن يثبت وروده في الشرع، وقد نظرنا فوجدنا أن السجود والركوع لا يجوزان إلا له –سبحانه وتعالى–، وقد نهى النبي أن يسجد أو يركع أحد لأحد، كما أننا رأينا في السنة كراهية النبي للقيام، فدل ذلك على عدم مشروعيته.

ترى فهل يستطيع أحد أن يقول عنا حين نمنع السجود لرسول الله: إننا ننكر جاهه وقدره؟ كلا ثم كلا، فظهر من هذا بجلاء إن شاء الله –تعالى– أنه لا تلازم بين ثبوت جاه النبي وبين تعظيمه بالتوسل بجاهه ما دام أنه لم يرد في الشرع.

هذا، وإن مما يغفل عنه هؤلاء أن من جاهه أنه يجب علينا اتباعه وإطاعته كما يجب إطاعة ربه، وقد ثبت عنه أنه قال: ما تركت شيئاً يقربكم إلى الله إلا أمرتكم به.(١٤٨)

فإذ لم يأمرنا بهذا التوسل . ولو أمرَ استحباب . فليس عبادة، فيجب علينا اتباعه في ذلك وأن ندع العواطف جانباً، ولا نفسح لها المجال حتى ندخل في دين الله ما ليس منه بدعوى حبه، فالحب الصادق إنما هو بالاتباع، وليس بالابتداع كما قال –عز وجل–: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) [آل عمران: ٣١]

ومنه قول الشاعر:

تعصى الإلهَ وأنت تظهر حبَّه هذا لَعَمْرُك في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعتَه إن المحب لِمن يحب مطيع

أيها الإخوة! وهكذا يتبين لنا أن من يجيزون التوسل المبتدع يحتجون بأحاديث إذا تأملناها نجدها تندرج تحت نوعين اثنين: الأول ثابت النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لا يدل على مرادهم ولا يؤيد رأيهم،فقد فهموه خطأ.

---

(١٤٨) قال في أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم – (٣ / ٩٤٢): رواه الطبراني بإسناد صحيح – كما في "الإبداع" –.

والنوع الثاني غير ثابت النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو إما مكذوب أو ضعيف.

وهذا وذاك لا يصح دليلاً على التوسل بذات النبي- صلى الله عليه وسلم- ولا بالأموات من الأولياء والصالحين، وبقي معنا بعض التساؤلات نرجئها إلى اللقاء القادم بمشيئة الله، نسأل الله أن يعلمنا من ديننا ما ينفعنا، و أن يأخذ بأيدينا إليه أخذ الكرام عليه............. الدعاء.

شبهات حول التوسل والوسيلة [٢]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة!

كان لقاؤنا الماضي بعنوان: تساؤلات حول التوسل والوسيلة، ولا زلنا . بفضل الله –تعالى– . نتحدث عن هذا الموضوع لكن اسمحوا لي . أيها الإخوة . بعد أن تبين لنا أن من يجيزون التوسل المبتدع يحتجون بآيات في غير محلها وبأحاديث إذا تأملناها نجدها تندرج تحت نوعين اثنين: الأول: ثابت النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لا يدل على مرادهم ولا يؤيد رأيهم فقد فهموه خطأ.

والنوع الثاني: غير ثابت النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو ضعيف جدّاً أو مكذوب، اسمحوا لي . بعد أن تبين لنا هذا بجلاء . أن أعدل بعنوان الخطبة من تساؤلات حول التوسل والوسيلة إلى شبهات حول التوسل والوسيلة فهذه هي التسمية الصحيحة بعدما تبينا حقيقة ما يسمونه أدلة، وأنها ما هي إلا شبهات والعجب أن أصحاب هذه الشبهات يرموننا نحن الذين ندعوهم إلى التوحيد الخالص بإفراد المعبود سبحانه بما يستحقه، يرموننا بالتشدد والتنطع والتزمت مع أننا نستضيء بنور الوحي والهدى والقرآن الكريم والسنة النبوية ونمشي على خطا الحبيب العملية وهم يعيشون بين قصة وحكاية ومنام وظلام وما مثلنا معهم إلا كما قيل:

لا تلمزونا لا تلزمونا يا هؤلاء بتسرع وتنطع وتشدد(١٤٩)

لا تقذفونا بالشذوذ فإننا سرنا على نهج الخليل محمد

ولكل قول نستدل بآية أو بالحديث المستقيم المسند

والنسخَ نعرف والعمومَ وإننا متفطنون لمطلق ومقيد

أيها الإخوة ونكمل في هذا اللقاء الحديث عن بعض هذه الشبه فمن هذا –أيها الإخوة–

وهي الشبهة السادسة: استدلالهم بأثرين ضعيفين، هذان الأثران كثيراً ما يوردهما المجيزون لهذا التوسل المبتدع، فلنبين حالهما من صحة أو ضعف، وهل لهما علاقة بما نحن فيه أم لا؟

---

(١٤٩) الأصل: "لا تلمزونا يا خفافيش الدجى"، فعدلت عنها إلى ما هو مثبت لما يقتضيه مقام الدعوة بالحسنى.

الأثر الأول: أثر الاستسقاء بالرسول بعد وفاته:

وهو ما روى ابن أبي شيبه عن مالك الدار – وكان خازن عمر – قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبي فقال: يا رسول الله! استسق لأمتك، فإنهم قد هلكوا، فَأُتِيَ الرجلُ في المنام، فقيل له: ائت عمر.. الحديث.[(١٥٠)]

وقيل الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة.

قلت: والجواب أن هذه القصة غير مسلم بصحتها، لأن مالك الدار غير معروف العدالة والضبط، وهذان . العدالة والضبط . شرطان أساسيان في كل سند صحيح كما تقرر في علم المصطلح.

ثم إن الحديث مخالف لما ثبت في الشرع من استحباب إقامة صلاة الاستسقاء لاستنزال الغيث من السماء، كما ورد ذلك في أحاديث كثيرة، وأخذ به جماهير الأئمة، بل هي مخالفة لما أفادته الآية من الدعاء والاستغفار، وهي قوله –تعالى– في سورة نوح: "فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً.." وهذا ما فعله عمر بن الخطاب حين استسقى وتوسل بدعاء العباس كما سبق بيانه، وهكذا كانت عادة السلف الصالح كلما أصابهم القحط أن يصلوا ويدعوا، ولم ينقل عن أحد منهم مطلقاً أنه التجأ إلى قبر النبي، وطلب منه الدعاء للسقيا، ولو كان ذلك مشروعاً لفعلوه ولو مرة واحدة، فإذ لم يفعلوه دل ذلك على عدم مشروعية ما جاء في القصة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "القاعدة الجليلة":[(١٥١)] لم يكن النبي . صلى الله عليه وسلم . بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين، ويستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم، ولا في مغيبهم...... كما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام، وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين أن النبي لم يشرع هذا لأمته، وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئاً من ذلك، ولا فعل هذا أحد من أصحابه والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا ذكر أحد من الأئمة لا في مناسك الحج ولا غيرها أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي . صلى الله عليه وسلم . عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته، أو يشكو إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين، وكان أصحابه يبتلون بأنواع البلاء بعد موته، فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول: نشكوا إليك جدب الزمان أو قوة العدو، أو كثرة الذنوب ولا يقول: سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها

---

(١٥٠) فتح الباري ٢/٣٩٧.

(١٥١) القاعدة الجليلة صحيح: ٥٣.

أحد من أئمة المسلمين، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين، وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة وضلالة باتفاق المسلمين.

الأثر الثاني: أثر فتح الكوى فوق قبر الرسول إلى السماء:

فقد روى الدارمي عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال: قحَط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة، فقالت: انظروا قبر النبي . صلى الله عليه وسلم . فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا، فمطرنا مطراً حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق. [١٥٢]

وهذا الحديث سنده ضعيف لا تقوم به حجة، وهو غير مقبول، فلا يحتج به، وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في"الرد على البكري"[١٥٣]: فليس بصحيح، ولا يثبت إسناده، ومما يبين كذب هذا أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للبيت كوة، بل كان باقياً كما كان على عهد النبي– صلى الله عليه وسلم –، بعضه مسقوف وبعضه مكشوف، وكانت الشمس تنزل فيه، كما ثبت في"الصحيحين"عن عائشة أن النبي كان يصلي العصر والشمس في حجرتها، لم يظهر الفيء بعد [١٥٤]، ولم تزل الحجرة النبوية كذلك في مسجد الرسول.. وحين دخلت الحجرة النبوية في المسجد بني حول حجرة عائشة التي فيها القبر جدار عال، وبعد ذلك جعلت الكوة لينزل منها من ينزل إذا احتيج إلى ذلك لأجل كنس أو تنظيف.وأما وجود الكوة في حياة عائشة فكذب بَيّن، لو صح ذلك لكان حجة ودليلاً، على أن القوم لم يكونوا يقسمون على الله بمخلوق ولا يتوسلون في دعائهم بميت، ولا يسألون الله به.

أيها الإخوة! إن الله –تعالى– شرع لنا العبادات لنتقرب بها إليه وفيها كفاية لمن أراد أن يتقرب إليه سبحانه والعبادات كلها مبناها على الاتباع لا على الابتداع، فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله، فليس لأحد أن يصلي إلى قبر ويقول هو أحق بالصلاة إليه من الكعبة، وقد ثبت عنه– صلى الله عليه وسلم – في الصحيح أنه قال: "لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها".[١٥٥] مع أن طائفة من غلاة العباد يصلون إلى قبور شيوخهم، بل يستدبرون القبلة، ويصلون إلى قبر الشيخ ويقولون: هذه قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة! وطائفة أخرى يرون الصلاة عند قبور شيوخهم أفضل من الصلاة في المساجد حتى المسجد الحرام والنبوي والأقصى.

---

(١٥٢) لا يصح، أخرجه الدارمي في سننه (١ / ٤٣ – ٤٤) وفيه أبو النعمان وهو محمد بن الفضل المعروف بعارم وقد كان اختلط في آخر عمره كما قال العقيلي وغيره من أهل الحديث. واظر: مشكاة المصابيح ٥٩٥٠.

(١٥٣) الرد على البكري"(١٥٣) ص٦٨-٧٤.

(١٥٤) أخرجه البخاري ٥٤٦، ومسلم ١٤١٣.

(١٥٥) أخرجه مسلم (٩٧٢).

وكثير من الناس يرى أن الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل منه في المساجد، وهذا كله مما قد علم جميعُ أهل العلم بديانة الإسلام أنه مناف لشريعة الإسلام. ومن لم يعتصم في هذا الباب وغيره بالكتاب والسنة فقد ضَل وأضل، ووقع في مهواة من التلف.

فعلى العبد أن يسلم للشريعة المحمدية الكاملة البيضاء الواضحة، ويسلم أنها جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا رأى من العبادات والتقشفات وغيرها التي يظنها حسنة ونافعة ما ليس بمشروع علم أن ضررها راجح على نفعها، ومفسدتها راجحة على مصلحتها، إذ الشارع الحكيم لا يهمل المصالح.... والدعاء من أجل العبادات، فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة فإنها معصومة كما يتحرى في سائر عبادته الصور المشروعة، فإن هذا هو الصراط المستقيم.والله -تعالى- يوفقنا وسائر إخواننا المؤمنين.

الشبهة السابعة: قياس الخالق على المخلوقين:

ومن أعجب ما ذهب إليه مجيزو التوسل بالصالحين هو قياسهم الخالق جل في علاه على المخلوقين يقولون: إن التوسل بذوات الصالحين وأقدارهم أمر مطلوب وجائز، لأنه مبني على منطق الواقع ومتطلباته، ذلك أن أحدنا إذا كانت له حاجة عند ملك أو وزير أو مسؤول كبير فهو لا يذهب إليه مباشرة، لأنه يشعر أنه ربما لا يلتفت إليه، هذا إذا لم يرده أصلاً، ولذلك كان من الطبيعي إذا أردنا حاجة من كبير فإننا نبحث عمن يعرفه، ويكون مقرباً إليه أثيراً عنده، ونجعله واسطة بيننا وبينه، فإذا فعلنا ذلك استجاب لنا، وقضيت حاجتنا، وهكذا الأمر نفسه في علاقتنا بالله سبحانه - بزعمهم - فالله -عز وجل- عظيم العظماء، وكبير الكبراء، ونحن مذنبون عصاة، وبعيدون لذلك عن جناب الله، ليس من اللائق بنا أن ندعوه مباشرة، لأننا إن فعلنا ذلك خفنا أن يردنا على أعقابنا خائبين، أو لا يلتفت إلينا فنرجع بخفي حنين، وهناك ناس صالحون كالأنبياء والرسل والشهداء قريبون إليه سبحانه، يستجيب لهم إذا دعوه، ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا لديه، أفلا يكون الأولى بنا والأحرى أن نتوسل إليه بجاههم، ونقدم بين يدي دعائنا ذكرهم، عسى أن ينظر الله -تعالى- إلينا إكراماً لهم، ويجيب دعاءنا مراعاة لخاطرهم، فلماذا تمنعون هذا النوع من التوسل، والبشر يستعملونه فيما بينهم، فلم لا يستعملونه مع ربهم ومعبودهم؟

ونقول جواباً على هذه الشبهة: إنكم يا هؤلاء إذن تقيسون الخالق على المخلوق، وتشبهون قيوم السموات والأرض، أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، الرؤوف الرحيم بأولئك الحكام الظالمين، والمتسلطين المتجبرين الذين لا يأبهون لمصالح الرعية، ويجعلون بينهم وبين الرعية حُجُباً وأستاراً، فلا يمكنها أن تصل إليهم إلا بوسائط ووسائل، ترضي هذه الوسائط بالرشاوي والهبات، وتخضع لها وتتذلل، وتترضاها وتتقرب إليها، فهل خطر ببالكم أيها المساكين أنكم حين تفعلون ذلك تذمون ربكم، وتطعنون به، وتؤذونه، وتصفونه بما يمقته وما يكرهه؟

سبحان الله العظيم! هل خطر ببالكم أنكم تصفون الله -تعالى- بأبشع الصفات حين تقيسونه على الحكام الظلمة، والمتسلطين الفجرة، فكيف يسوّغ هذا لكم دينكم، وكيف يتفق هذا مع ما يجب عليكم من تعظيمكم لربكم، وتمجيدكم لخالقكم؟

ترى لو كان يمكن لأحد الناس أن يخاطب الحاكم وجهاً لوجه، ويكلمه دون واسطة أو حجاب أيكون ذلك أكمل وأمدح له، أم حين لا يتمكن من مخاطبته إلا من خلال وسائط قد تطول وقد تقصر؟

يا هؤلاء إنكم تفخرون في أحاديثكم بعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وتمجدونه وتشيدون به وتبينون للناس أنه كان متواضعاً لا يتكبر ولا يتجبر، وكان قريباً من الناس، يتمكن أضعفهم من لقائه ومخاطبته، وأنه كان يأتيه الأعرابي الجاهل الفظ من البادية، فيكلمه دون واسطة أو حجاب، فينظر في حاجته ويقضيها له إن كانت حقّاً. ترى هل هذا النوع من الحكام خير وأفضل، أم ذاك النوع الذي تضربون لربكم به الأمثال؟

فما لكم كيف تحكمون؟ وما لعقولكم أين ذهبت، وما لتفكيركم أين غاب، وكيف ساغ لكم تشبيه الله -تعالى- بالملك الظالم، أم كيف غطى عنكم الشيطان بشاعة قياس الله سبحانه على الأمير الغاشم؟

يا هؤلاء إنكم لو شبهتم الله -تعالى- بأعدل الناس وأتقى الناس، وأصلح الناس لكفرتم، فكيف وقد شبهتموه بأظلم الناس، وأفجر الناس، وأخبث الناس؟

يا هؤلاء إنكم لو قستم ربكم الجليل على عمر بن الخطاب التقي العادل لوقعتم في الشرك، فكيف تردى بكم الشيطان، فلم ترضوا بذلك حتى أوقعكم في قياس ربكم على أهل الجور والفساد من الملوك والأمراء والوزراء؟

إن تشبيه الله -تعالى- بخلقه كفر كله، حذر منه سبحانه حيث قال: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السموات وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)". [النحل: ٧٣ - ٧٥] كما نفى سبحانه أي مشابهة بينه وبين أي خلق من مخلوقاته فقال: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"(سورة الشورى: الآية ١١). ولكن شر تشبيه أن يشبهه المرء بالأشرار والفجار والفساق من الولاة، وهو يظن أنه يحسن صنعاً! إن هذا هو الذي يحمل بعض العلماء والمحققين على المبالغة في إنكار التوسل بذوات الأنبياء، واعتباره شركاً، وإن كان هو نفسه ليس شركاً عندنا، بل يخشى أن يؤدي إلى الشرك، وقد أدى فعلاً بأولئك الذين يعتذرون لتوسلهم بذلك التشبيه السابق الذي هو الكفر بعينه لو كانوا يعلمون.

قال الإمام العز بن عبد السلام في رسالة"الواسطة"[١٥٦]: ومن أثبت الأنبياء وسواهم من مشايخ العلم والدين وسائط بين الله وبين خلقه كالحجّاب الذين بين الملك ورعيته، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله -تعالى- حوائج خلقه، وأن الله -تعالى- إنما يهدي عباده ويرزقهم وينصرهم بتوسطهم، بمعنى أن الخلق يسألونهم، وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، ولأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك، لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب، فمن أثبتهم وسائط على هذه الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبِّهون لله، شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا لله أنداداً....

الشبهة الثامنة: قياس التوسل بالذات على التوسل بالعمل الصالح:

هذه شبهة أخرى يثيرها بعض أولئك المبتدعين زينها لهم الشيطان، ولقنهم إياها حيث يقولون: قد قدمتم أن من التوسل المشروع اتفاقاً التوسل إلى الله -تعالى- بالعمل الصالح، فإذا كان التوسل بهذا جائزاً فالتوسل بالرجل الصالح الذي صدر منه هذا العمل أولى بالجواز، وأحرى بالمشروعية، فلا ينبغي إنكاره.

والجواب على هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا قياس، والقياس في العبادات باطل، وما مثل من يقول هذا القول إلا كمثل من يقول: إذا جاز توسل المتوسل بعمله الصالح - وهو بلا شك دون عمل الولي والنبي - جاز أن يتوسل بعمل النبي والولي، وهذا وما لزم منه باطل فهو باطل.

الوجه الثاني: أن هذه مغالطة مكشوفة، لأننا لم نقل -كما لم يقل أحد من السلف قبلنا - أنه يجوز للمسلم أن يتوسل بعمل غيره الصالح، وإنما التوسل المشار إليه إنما هو التوسل بعمل المتوسل الصالح نفسه، فإذا تبين هذا قلبنا عليهم كلامهم السابق فقلنا: إذا كان لا يجوز التوسل بالعمل الصالح الذي صدر من غير الداعي فأولى ثم أولى ألا يجوز التوسل بذاته، وهذا بين لا يخفى.

فالتوسل بالعمل الصالح معناه التوسل الذي يقوم به العبد بعد فراغه من عمل عمله على وجهه المشروع ثم إنه يقصد الله -تعالى- بعده بالدعاء مقدماً هذا العمل بين يدي دعائه وحاجته فاعقلوا يا أولي النهى وتبصروا يا أولي الألباب واعتبروا يا أهل التوحيد، وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة، هذا وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١٥٦) الواسطة ص٥.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

الشبهة التاسعة: قالوا: إنه قد قال بعض العلماء والأئمة بجواز بعض هذا التوسل، فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول- صلى الله عليه وسلم - وحده فقط، وأجاز غيره كالإمام الشوكاني التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين.

والجواب: إن الذي نعتقده وندين الله -تعالى- به أن هذا غير جائز، ولا مشروع، لأنه لم يرد فيه دليل، تقوم به الحجة - وقد أنكره العلماء المحققون في العصور الإسلامية المتعاقبة، وإن قال ببعضه بعض الأئمة، ولكنا -كشأننا في جميع الأمور الخلافية - ندور مع الدليل حيث دار ولا نتعصب للرجال، ولا ننحاز لأحد إلا للحق كما نراه ونعتقده، وقد رأينا الحق مع الذين حظروا التوسل بمخلوق، ولم نر لمجيزيه دليلاً صحيحاً يعتد به، ونحن نطالبهم بأن يأتونا بنص صحيح صريح من الكتاب أو السنة فيه التوسل بمخلوق، وهيهات أن يجدوا شيئاً يؤيد ما يذهبون إليه، أو يسند ما يدعونه، اللهم إلا شبهاً واحتمالات.

فهذه الأدعية الواردة في القرآن الكريم وهي كثيرة، لا نجد في شيء منها التوسل بالجاه أو الحرمة أو الحق أو المكانة لشيء من المخلوقات، وهاك بعض الأدعية الكريمة على سبيل المثال: يقول ربنا جل شأنه معلماً إيانا ما ندعو به ومرشداً: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) [البقرة: ٢٨٦]

ويقول: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) [البقرة: ٢٠١]

ويقول: فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) [يونس: ٨٥، ٨٦]

ويقول: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ

إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) [إبراهيم: ٣٥ - ٤١]

ويقول على لسان موسى عليه السلام: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) [طه: ٢٥ - ٣٥]

ويقول سبحانه: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) [الفرقان: ٦٥، ٦٦]

إلى آخر ما هنالك من الأدعية القرآنية الكريمة، وبعضها مما يعلمنا الله -تعالى- أن ندعو به ابتداء، وبعضها مما يحكيه سبحانه عن بعض أنبيائه ورسله، أو بعض عباده وأوليائه، وواضح أنه ليس في شيء منها ذاك التوسل المبتدع الذي يدندن حوله المتعصبون، ويخاصم فيه المخالفون.

وإذا انتقلنا إلى السنة الشريفة لنطلع منها على أدعية النبي صلى الله عليه وسلم التي ارتضاها الله -تعالى- له، وعلمه إياها، وأرشدنا إلى فضلها وحسنها، نراها مطابقة لما في أدعية القرآن السالفة من حيث خلوها من التوسل المبتدع المشار إليه، وهاك بعض تلك الأدعية النبوية المختارة:

فمنها دعاء الاستخارة المشهور الذي كان النبي- صلى الله عليه وسلم - يعلمه أصحابه . إذا هموا بأمر . كما كان يعلمهم القرآن، وهو: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تَقْدِرُ ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به. (١٥٧)

ومنها: "اللهم أصلح لي ديني، الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر".(١٥٨) و" اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي".(١٥٩)

---

(١٥٧) أخرجه البخاري (١١٦٢).

(١٥٨) أخرجه مسلم ٧٠٧٨.

(١٥٩)أخرجه النسائي ٣ / ٥٤، ٥٥، وأحمد ٤ / ٣٦٤، وصححه الألباني في صحيح النسائي١ / ٢٨٠ و ١ / ٢٨١.

و"اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى".(١٦٠) و: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك".(١٦١) و: "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ومحمد نعوذ بك من النار"(١٦٢)، ومثل هذه الأدعية في السنة كثير، ولا نجد فيها دعاء واحداً ثابتاً فيه شيء من التوسل المبتدع الذي يستعمله المخالفون.

أيها الإخوة! ومن الغريب حقّاً أننا نرى هؤلاء يعرضون عن أنواع التوسل المشروعة السابقة،

فلا يكادون يستعلمون شيئاً منها في دعائهم أو تعليمهم الناس مع ثبوتها في الكتاب والسنة وإجماع الأمة عليها، وتراهم بدلاً من ذلك يعمدون إلى أدعية اخترعوها، وتوسلات ابتدعوها لم يشرعها الله –عز وجل–، ولم يستعملها رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولم تنقل عن سلف هذه الأمة من أصحاب القرون الثلاثة الفاضلة، وأقل ما يقال فيها: إنها مختلف فيها، فما أجدرهم بقوله –تبارك وتعالى–: "أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ". [البقرة: ٦١]

هذا ولم ننفرد نحن بإنكار تلك التوسلات المبتدعة، بل سبقنا إلى إنكارها كبار الأئمة والعلماء، وتقرر ذلك في بعض المذاهب المتبعة، ألا وهو مذهب أبي حنيفة –رحمه الله–، فقد جاء في"الدر المختار"(١٦٣)– وهو من أشهر كتب الحنفية – ما نصه:

عن أبي حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، والدعاء المأذون فيه، المأمور به ما استفيد من قوله –تعالى–: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا". [الأعراف: ١٨٠].

ونحوه في"الفتاوى الهندية"(١٦٤)وقال القُدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بـ"شرح الكرخي"في باب الكراهة: قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: بمعاقد العز من عرشك، أو بحق خلقك، وهو قول أبي يوسف، قال:....... وأكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام، قال القُدوري: المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق، فلا تجوز وفاقاً. وهذا قد نقله شيخ الإسلام في"القاعدة الجليلة"وقال الزبيدي في"شرح الإحياء"(١٦٥): كره أبو حنيفة وصاحباه أن يقول الرجل: أسألك

(١٦٠)أخرجه مسلم ٧٠٧٩.

(١٦١) رواه الترمذي وحسنه وهو كما قال وانظره بتمامه مع تخريجه في (تخريج الكلم – ٢٢٥).

(١٦٢) رواه الحاكم والطبراني وإسناده حسن لغيره كما بينه في (الصحيحة – ١٥٤٤)، [٤٦].

(١٦٣) الدر المختار ٢/٦٣٠.

(١٦٤) الفتاوى الهندية ٥/٢٨٠.

(١٦٥) شرح الإحياء" ٢/٢٨٥.

بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام، ونحو ذلك، إذ ليس لأحد على الله حق، وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعي: اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك.

أيها الإخوة! إن من استبان له الدليل في المسألة عن الله ورسوله ولم ينقد لحكمهما اتباعاً لقول أحد من الناس هذا يخشى عليه الفتنة عند الموت والزيغ عند الشهادة بالحق في الموت وفي القبر، والهلاك يوم الحشر والسؤال والحساب، وهذا كلام ليس من عندي ولا من عند أبي ولكنه قول الله العظيم في قرآنه.

كان الإمام أحمد -رحمه الله- -تعالى- يقول: (عجبت لقومٍ عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله -تعالى- يقول: " فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ". [النور: ٦٣]، ثم قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك). [(١٦٦)]

نعم، فلا يوزن قول الله -تعالى- ورسوله على قول أحد وإنما يوزن بقول الله وبقول رسول الله قول كل أحد، كما قال الزهري: إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر الذي توزن عليه الأشياء على سنته وسيرته وهديه ﷺ فما وافقها فهو الحق وما خالفها فهو الباطل.

فالأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه وقد يبلغ غيرهم.

قال الإمام أبو حنيفة: "إذا صح الحديث فهو مذهبي". [(١٦٧)]

وقال الإمام مالك بن أنس: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه". [(١٦٨)]

وقال: "ما بنا إلا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر". [(١٦٩)]

وقال الإمام الشافعي: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله (فقولوا بسنة رسول الله ودعوا ما قلت . وفي رواية . فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد". [(١٧٠)]

---

(١٦٦) أخرجه ابن بطة في الإبانة (١/٢٦٠ رقم ٩٧)، وانظر مسائل عبد الله (٣/١٣٥٥).

(١٦٧) ابن عابدين في"الحاشية"١/٦٣.

(١٦٨) ابن عبد البر في الجامع ٢/٣٢).

(١٦٩) راجع تخريج هذا الأثر في كتاب: "صفة صلاة النبي – صلى الله عليه وسلم –"للألباني (ص /٢٦) حاشية (٣)، ط. المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ. و أورده العجلوني في"كشف الخفاء": (١٩٦١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذوا من حيث أخذوا". (١٧١)

وقال: "رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار".(١٧٢)

ورحم الله الذي قال:

وقول أعلام الهدى لا يعمل ... بقولنا دون نص يقبل
قال أبو حنيفة الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذاً بقولي حتى تُعرضَ ... على الحديث والكتاب المرتضى
ومالك إمام دار الهجرة ... قال وقد أشار نحو الحجرة(١٧٣)
كل كلام منه ذو قبول ... ومردود سوى الرسول
وأحمد قال لهم لا تكتبوا ... عني بل أصل ذاك فاطلبوا
فاسمع مقالات الهداة الأربعة ... واعمل بها فإن فيها منفعة
لقمعها لكل ذى تعصب ... والمنصفون يكتفون بالنبي

صلى الله وسلم على الحبيب المصطفى ورضي الله عن أصحابه الكرام أجمعين ورحم الله الأئمة والعلماء الذين ساروا على النهج النبوي المبارك.

فرحمهم الله دلونا على الخير أحياء وأمواتاً وتبرءوا من الأخطاء التي يُلزم الناس بها اليوم من لا يفقه ولا يعلم شيئاً من أدعياء العلم بحجة أنها من مذهبهم حتى بعد ظهور الدليل بخلافها فهم منها برآء.

الشبهة العاشرة: التعويل على المنامات والحكايات والأباطيل والكذب:

---

(١٧٠) النووي في المجموع (٦٣/١).

(١٧١) ابن القيم في إعلام الموقعين ٣٠٢/٢).

(١٧٢) ابن عبد البر في الجامع ١٤٩/٢) وعمومًا انظر (جامع بيان العلم وفضله) ٢/ ١٣٢، و(إعلام الموقعين) ٢/ ١٧١،و(فتح المجيد) ص٣٨٣.

(١٧٣) أي: حجرة النبي ﷺ

فإذا كان أهل السنة ينطلقون من منهج متين أصيل في التلقي والاستدلال، فإن القبوريين يعوّلون في تلقيهم واستدلالهم على المنامات والأحاديث المكذوبة والحكايات المزعومة.

فيحتجون بأحلام شيطانية على تجويز شركهم وكفرهم بالله ـ تعالى ـ وهذا شيء مثبوت في كتبهم لا نفتري عليهم، ومن ذلك أن أبا المواهب الشاذلي يقول: (رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قال لي: إذا كانت لك حاجة وأردت قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة ولو فلساً؛ فإن حاجتك تقضى)[١٧٤] وهذا ما قاله الشعراني في كتابه طبقات الصوفية الذي يعتبرونه كتابهم الأول المقدس.

فهذا حلم شيطاني، ودعوة صريحة للشرك بالله ـ –عز وجل– ـ، ونقض للتوحيد، وتنقّص لمقام سيد المرسلين –صلى الله عليه وسلم– الذي مكث ثلاثة وعشرين عاماً يدعو إلى إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة، ويسد كل طريق يفضي إلى الشرك.

وعلى كلّ؛ فالمنامات لا يمكن ضبطها، وصاحبها ليس نبيّاً معصوماً، ومن ثم فلا يعتمد عليها؛ فكيف إذا كانت حلماً شيطانيّاً وخالف الأحكام الشرعية، بل وخالفت الأصل الأصيل وهو إفراد الله ـ تعالى ـ بجميع أنواع العبادة؟

يقول شيخ الإسلام: (وكذلك مشاهد تضاف إلى بعض الأنبياء أو الصالحين بناء على أنه رُئِيَ في المنام هناك؛ ورؤية النبي –صلى الله عليه وسلم– أو الرجل الصالح في المنام ببقعة لا يوجب لها فضيلة تقصد البقعة لأجلها، وتتخذ مصلى، هذا بإجماع المسلمين، وإنما يفعل هذا وأمثاله أهل الكتاب)[١٧٥]

والمخرفون من المسلمين سلكوا مسلك أهل الكتاب في هذا

ويحتجون بأحاديث مكذوبة مثل: (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور).

(فهذا الحديث كذب مفترى على النبي –صلى الله عليه وسلم–، بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء بذلك، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة)[١٧٦]

وأشار ابن القيم ـ رحمه الله ـ إلى أن هذا الحديث من الأحاديث المختلَقة التي وضعها أشباه عبّاد الأصنام من المقابرية على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [١٧٧]

---

(١٧٤) طبقات الشعراني (٢/٧٤).

(١٧٥) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٦٥٠).

(١٧٦) مجموع الفتاوى (١ / ١١٢).

(١٧٧) انظر: إغاثة اللهفان (١/٣٣٢).

فمجيزو التوسل المبتدع يعتمدون على أحاديث مكذوبة كما يعتمدون على حكايات في تجويز الغلو في القبور والاستغاثة بها، وأن الدعاء عندها هو الترياق المجرّب..

وغالب هذه الحكايات من اختلاق الدجّالين الأفاكين الذين لا يهمهم إلا أكل أموال الناس بالباطل والصدّ عن دين الله . تعالى . وبعضهم مسكين جاهل قد يدعو عند قبر بحاجة ويستجيبها الله فيظن أن ذلك بسبب القبر(١٧٨)

وإجابة الدعاء، قد يكون سببه اضطرار الداعي وصدقه، وقد يكون سببه مجرد رحمة الله له، وقد يكون أمراً قضاه الله لا لأجل دعائه، وقد يكون له أسباب أخرى(١٧٩) لكن ليس من ضمنها القبر وصاحبه حتماً، وهكذا يعتمد هؤلاء على حكايات ومنامات خرافية.

وقد تكون تلك الحكايات كذبًا ممن رأوها وقد تكون صحيحة، ولكنها من الشيطان، فإنه قد يتراءى لبعضهم في صورة من يعتقد فيه، ويتسمى باسمه، وقد تقضي الشياطين بعض حوائج من استغاث بالأموات..

يقول ابن تيمية: (وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة؛ فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت.. ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره، أو كلّمه ببعض ما سأله عنه.. وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصوّرت على صورته لتضله، وتضل أتباعه، فتحسّن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله)(١٨٠) وبهذا –أيها الإخوة– نكون قد هدمنا فسطاط الخرافة وبينا حقيقة القبورية وأظهرنا عوار أدلتها على التوسل الممنوع فلم يبق لمن أراد الوسيلة إلا أن يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبالعمل الصالح وأن يطلب من الصالحين الأحياء أن يدعوا له

أيها الإخوة! يتعين على أهل العلم كشف عوار مسلك القبوريين وبيان تهافته، وفساد التعويل على المنامات والأحلام، والأحاديث الموضوعة، والحكايات المزعومة، مع تقرير المنهج الصحيح في التلقي والاستدلال كالاعتماد على الكتاب والسنة الصحيحة، واعتبار فهم السلف الصالح. (١٨١)

نسأل الله –تعالى– أن يعلمنا من ديننا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علما إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل، اللهُم إنَّا نسألُك الثباتَ في الأمر، والعزيمةَ على الرُّشْد، والإتقَان في العَمَل، وَالإحسانَ فيما نأتي وما نَذر.

---

(١٧٨) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٦٥٢)، وإغاثة اللهفان، ١/٣٣٣).

(١٧٩) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٦٥٣)، وانظر: إغاثة اللهفان (٣٣٣، ٣٣٤).

(١٨٠) انظر: مجموع الفتاوى، ٤٥٦/٧١، باختصار، وانظر: الدعاء لجيلاني خضر العروسي، ١/٤٤٧، ٢/٨١٢.

(١٨١) هاتان الخطبتان "تساؤلات"، و"شبهات" اعتمدت فيهما على كتاب: "التوسل أنواعه وأحكامه" للعلامة الألباني، وعلى كتاب: "التوصل إلى حقيقة التوسل، لفضيلة الشيخ محمد نسيب الرفاعي".

وَنسْأَلُكَ منْ خير ما تَعْلم، ونعوذُ بك من شَرّ ما تَعْلم. وَنسألُك قَلْبا سَلِيمَا، ولسانًا صادقًا، وعملاً صالحًا، وسَداداً في الخير. والسلامُ على مِنْ اتَّبَع الهُدَى.

غيوم في سماء العقيدة الصافية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة!

من اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على جاهه ذل ومن اعتمد على الناس مل، ومن اعتمد على عقله اختل.

ومن اعتمد على الله لا قل ولا ذل ولا مل ولا اختل، ذكر صاحبُ (الفرجِ بعد الشدةِ): أنَّ احدَ الحكماءِ ابتُليَ بمصيبةٍ، فدخلَ عليه إخوانُه يعزُّونَهُ في المصابِ، فقال: إني عملتُ دواءً من ستةِ أخلاطٍ. قالوا: ما هي؟ قال: الخلطُ الأولُ: الثقةُ باللهِ. والثاني: علمي بأنَّ كلَّ مقدور كائنٌ. والثالثُ: الصبرُ خيرُ ما استعملهُ الممتحنُون. والرابعُ: إنْ لم أصبرْ أنا فأيَّ شيء أعمل؟! ولم أكنْ أُعين على نفسي بالجزع. والخامسُ: قد يمكنُ أن أكون في شرٍّ مما أنا فيه. والسادسُ: من ساعةٍ إلى ساعةٍ فَرَجٌ. (١٨٢)

فمن صفَّى صُفِّي له ومن كَدَّر كُدِّر عليه، ومن الناس من يسقط ويرسب بسبب كدوره تلك يوم تكون في التوحيد والعقيدة، وبين أيدينا اليوم قضية مهمة وخطيرة هي من تلك الكدور التي لا زالت تتعلق بالموحدين أو يتعلق بها الموحدون، فتمسك بهم في ظلمات الشرك وأوحاله بعيداً عن أنوار التوحيد وظلاله، فما هذه القضية؟ وما خطرها؟ وما دوافعها؟ وما حلولها العلمية والعملية الشرعية؟ والجواب: في هذه النقاط السريعة التالية:

أولاً: التعلق بغير الله خطره وصوره.

ثانياً: أسباب التعلق بغير الله ودوافعه.

ثالثاً: الأسباب الشرعية العملية لدفع البلاء ورفعه.

فأعيروني القلوب والأسماع –أيها الإخوة– والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولاً: التعلق بغير الله خطره وصوره:

---

(١٨٢) الفرج بعد الشدة (ص ٤٧)، التنوخي، نقلًا عن لا تحزن (ص ٤٤).

أيها الإخوة! من الناس من يتوكل على أشياء لا فائدة على الإطلاق فيها، زعماً أن فيها نفعاً بخير أو دفعاً لشر، فيعطيها بذلك ما لم يجعل الشرع العظيم فيها، فيكذب بذلك على الله ورسوله، وربما تعلق قلبه بهذه الأشياء فظن أنها تنفع بذاتها وتضر بنفسها فيقع بذلك في الشرك الأكبر، إذ ذلك من خصائص الربوبية للرب –سبحانه وتعالى–، وإن لم يتعلق قلبه بها تعلق ما ينفع أو يضر لكنه نظر إليها على أنها احتياطات وتحرزات وتحفظات فحسب لكن اعتقاده أن النفع والضر بيد الله –تعالى– فهذا شرك أصغر، ولا يستهان به لذلك أى لأنه أصغر فإن الشرك الأصغر أعظم خطراًً وضرراً من الكبائر نعم الشرك الأصغر أعظم خطراً وأشد ضرراً من الزنا والعقوق وشرب الخمر وغيرها من الموبقات.

فأمر التعلق بغير الله –تعالى– خطير وشره مستطير، روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عقبة بن عامر –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له، وفي رواية: "من تعلق تميمة فقد أشرك".(١٨٣)

وروى أحمد وغيره من حديث عبد الله بن عكيم مرفوعاً: "من تعلق شيئاً وكل إليه".(١٨٤)، إن خطر التعلق على غير الله والاعتماد على ما سواه يتمثل في:

أولاً: أن الله –تعالى– يتخلى عن العبد الذي تعلق بشيء تمامًا ويتركه إلى ذلك الشيء.

ثانيًا: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– دعا عليه بأن لا يتم الله عليه وأن لا يدع الله له وكفى بهذا خزيًا وخذلاناً، ولم لا؟ فإن الذي يعتمد على غير الله ينتقص ربه –عز وجل– حين يكون عارفًا أن النفع والضر وجلب الخير ودفع الشر بيده سبحانه ثم يذهب فيعتمد في ذلك على خشبة أو ودعة وربما على فردة حذاء أو ما سوى ذلك بزعم أنها تنفع وتضر، وهذه –أيها الإخوة– بعض الصور لما يتعلق به الناس وهى من الواقع ولا نفتري عليهم شيئا فمن هذه الصور:

أولاً: ما يُعلق على البدن أو على الدابة أو على السيارة أو على أبواب البيوت أو المتاجر والدكاكين وعلى أجسام الأطفال وغيرها من خشب أو بلاستيك أو فضة أو حديد أو ذهب أحيانًا على هيئة الخمسة وخميسة على ما يقولون وهذه صورة من صور الأفعال.

ثانيًا: ما يعتقدونه من نظرة عين فلان التي لا تخطئ والأخرى التي مثلها مثل الرصاص وغير ذلك، وهذه صورة من صور الاعتقاد بالقلب والجنان.

---

(١٨٣) أخرجه أحمد ٤ / ١٥٦، والحاكم ٤ / ٤١٧، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٢).

(١٨٤) أخرجه أحمد ٤ / ٣١٠ و٣١١، والترمذي (٢٠٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٢/٢٠٨.

ثالثًا: ما يقوله بعض الناس يظن أن فيه حماية من مثل قولهم "النهارده الخميس يوم الخميس من شهر خمسة أو يقول: امسك الخشب،أو غير هذا وهذه صورة من صور الأقوال.

فلا تتعلقْ بغيرِ اللهِ حبيبي فإنه"إذا كان المحيي والمميتُ والرزاقُ هو اللهُ، فلماذا الخوفُ والقلق؟! إنَّ أكثر ما يجلبُ الهموم والغموم التعلُّقُ بغير الله من الناسِ وغيرهم، وطلبُ رضاهمْ، والتقربُ منهم، والحرصُ على ثنائِهم، والتضرُّر بذمِّهمْ، وهذا من ضعفِ التوحيدِ.

لكن شأن الموحدين وهجيراهم:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ وليتك ترْضى والأنامُ غِضابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكُلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ

ومن جميل ما اطلعت عليه:

أن أحد المرضى بالهواجسِ والهمومِ سأل طبيباً مسلماً عن القلقِ والاضطرابِ، فقال له الطبيبُ المسلمُ: اعلمْ أنَّ العا لم قدْ فرغَ منْ خلقِهِ وتدبيرِه، ولا يقعُ فيهِ حركةٌ ولا همْسٌ إلا بإذن اللهِ، فلِم الهمُّ والغمُّ؟! "إنَّ الله كتب مقادير الخلائقِ قبل أنْ يَخْلُقَ الخلْق بخمسين ألف سنةٍ"(١٨٥).

وقد قال المتنبي على هذا:

وتعْظُمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائِمُ. (١٨٦)

توسَّد سفيانُ الثوريُّ كومْةً من الترابِ في مزدلفة وهو حاجٌّ، فقال له الناسُ: أفي مثلِ هذا الموطنِ تتوسَّدُ الترابَ وأنت مُحدِّثُ الدنيا؟ فقال: لمخدَّتي هذهِ أعظمُ منْ مخدةِ أبي جعفرٍ المنصورِ الخليفةِ.

قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا. (١٨٧)

قال ابنُ القيِّم: "أجمع العارفون بالله على أنَّ الخِذْلان: أنْ يكلك اللهُ إلى نفسِك، ويُخلِّي بينك وبينها. والتوفيقُ أنْ لا يكِلك اللهُ إلى نفسِك، فالعبيدُ متقلِّبون بين توفيقهِ وخذلانِهِ، بلِ العبدُ في الساعةِ الواحدةِ ينالُ نصيبه منْ هذا وهذا،

---

(١٨٥) أخرجه مسلم: (٢٦٥٣).

(١٨٦) لا تحزن للقرني (ص ٢٤٠). بتصرف

(١٨٧)لا تحزن للقرني (ص ٢٤١).

فيطيعه ويُرضيه، ويذكرُه ويشكرُه بتوفيقِه له، ثم يعصيهِ ويخالفُه، ويُسْخِطُه ويغفلُ عنه بخذلانِهِ له، فهو دائرٌ بين توفيقِه وخِذْلانِهِ.

فمتى شهِد العبدُ هذا المشهد وأعطاهُ حقَّه، علِم شِدَّة ضرورتِه وحاجتِه إلى التوفيق في كلِّ نَفَسٍ وكلِّ لحظةٍ وطرْفةِ عيْنٍ، وأنَّ إيمانه وتوحيده بيدِهِ -تعالى-، لو تخلَّى عنه طرفة عينٍ لَثُلَّ عَرْشُ توحيدِه، ولخَرَّتْ سماءُ إيمانِهِ على الأرضِ، وأنَّ المسك له: هو منْ يمسك السماء أنْ تقع على الأرضِ إلا بإذنِهِ"(١٨٨)

هذا باختصار -أيها الإخوة- عن عنصر اللقاء الأول وهو: "التعلق بغير الله خطره وصوره".

ثانياً: أسباب التعلق بغير الله ودوافعه:

-أيها الإخوة- فإذا ذهبنا نستقصي عن الأسباب والدوافع التي تجعل بعض الناس يذهب إلى هذه الاعتقادات والأفعال والأقوال وجدنا وراءها قلوباً متعلقة ترتجي النفع والخير وترهب الشر والضر فلذلك هم يقدمون هذه الأشياء لأجل رفع البلاء ودفعه وجلب الخير ونفعه.

فهم يعتقدون في هذه الأشياء من الخيوط والحلقات والخمسة وخميسة وغيرها أنها تدفع عين الحاسد وأنها تحرس البدن أو تحرس الدابة أو تحرس السيارة أو تحرس البيت أو تحرس المتجر من الشرور والمحاذير، وهذه عادة جاهلية لا تزال في بعض الناس إلى اليوم، بل تتزايد بسبب الجهل، فإنهم يعلقون هذه الأشياء على أجسامهم وعلى أجسام الأطفال، وعلى السيارات والدكاكين والبيوت قصدهم من ذلك أن هذه الأشياء تدفع عنهم الشرور والمحاذير وهذا . بلا شك . خطره عظيم -أيها الإخوة- .

فهذا من الشرك، لأنه تعلق بغير الله -سبحانه وتعالى-، لأن الله جل وعلا هو الذي يدفع الشر وهو الذي إذا أراد بعبده شيئاً فلابد أن يقع، إما في نفسه أو في ماله أو في أهله، فلا أحد يدفعه وإذا منع شيئًا فلا أحد ينزله: "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)". [فاطر: ٢]

الأمر كله بيد الله جل وعلا فيجب أن تتعلق القلوب بالله -عز وجل-، وأن تخلص العبادة لله -عز وجل-، وأن لا تخاف إلا من الله -عز وجل-، فمن تعلق قلبه بالله ووحد الله فإنه لا يضره شيء إلا بإذن الله -سبحانه وتعالى-، أما من تعلق قلبه بغير الله فاعتقد في خشبة أو حلقة أو خيط أو غيره فإن الله يكله إلى ما تعلق به، ويبتليه.

---

(١٨٨) مدارج السالكين (١ / ٤١٣).

ولهذا قرع الله –تعالى– المشركين الذين ألقوا بأنفسهم وهمومهم وقلوبهم أمام الأصنام والأوثان وأخبر أنها لا تنفعهم ولا تضرهم لأنها لا تنفع ولا تضر ولهذا فهي لا تضر شاتمها ومقبحها وسابها بشيء، وكفى بهذا دلالة على عجزها، ومن ثم وجوب قطع التعلق بها قال –تعالى–:

" قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)". [الزمر: ٣٨]، وهذا استفهام إنكاري فيه توبيخ وتقريع لأن هؤلاء تركوا البارئ الرازق المنعم عليهم الذي بيده ملكوت كل شيء وتعلقوا بالذي هو مملوك مقهور مدبر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فتبّاً لعقول لا تفهم القرآن إن قرأته، ولا تعي السنة إذا مرت عليها، ألم يعلموا أن الله هو مالك الملك، وصدق ربي إذ يقول:

["قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)أَمْ مَنْ خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)"]

ولهذا كان السلف رضوان الله عليهم أبعد الناس من هذه الخرافات والأباطيل روى أحمد والترمذي وسنده حسن من حديث عيسى بن حمزة قال:دخلت على عبد الله بن عكيم –رضي الله عنه– وبه حمى فقلت: ألا تعلق تميمة؟ قال: نعوذ بالله من ذلك، قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم– من تعلق شيئاً وكل إليه"(١٨٩)

أخي وحبيبي! فمن علق تميمة بعد هذا البيان من النبي —صلى الله عليه وسلم– هل تراها تنفعه؟ سبحان ربي، قطعاً لا.

وهكذا تجد —أخي الحبيب– أن من يعلقون الحلقة أو الخيط أو الحظاظة من أكثر الناس خوفاً وهمّاً وضعفاً وخوراً بخلاف أهل التوحيد المعتمدين على الله فإنهم أقوى الناس عزيمة، ينعمون بانشراح الصدور بتعلقهم بالعزيز الغفور بينما غيرهم ممن في الضلالات عزائمهم لأقل شيء تخور.

---

(١٨٩) أخرجه الترمذي (٢٠٧٣)، وأحمد (٣١١/٤)، وحسنه الألباني صحيح الترغيب ٣٤٥٦.

فما هو حكم لبس الحلقة والخيوط؟ والجواب: حكم لبس الحلقة والخيوط أنه شرك بالله -عز وجل- وأثره في النفوس الخور والضعف وربما يسأل الآن مبتغ علم نجيب وسامع لبيب فيقول: هل لبس الحلقة والخيوط من الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر؟

والجواب - في تفصيل-:

فإن كان يعتقد في هذه الأشياء أنها تنفع أو تدفع بذاتها فهذا شرك أكبر وصاحبُه معرض لمصيبتين: مصيبة دعوة الرسول —صلى الله عليه وسلم-"التي قال فيها: "من تعلق تميمة فلا أتم الله له".(١٩٠)

وأما المصيبة الثانية فهي في عقيدته وذلك أنه باتخاذ هذه الأشياء قد أشرك بالله -تعالى-، لأن الله لم يجعل هذه الأشياء سبباً، وأيضاً قد كذب على القدر لأنه جعل ما ليس سبباً سبباً.

فإذا نظرنا إلى الغاية التي كان يبغى صاحبنا هذا تحقيقها نجدها ما تحققت أي الهدف الذي كان لأجله صنع هذه الحلقة أوالخيط أو الحظاظة وهو دفع البلاء أو رفعه فإنه لا يتحقق بل يعامله الله -عز وجل- بضد قصده فيزيده وهناً على وهنه.

وهنا يسأل الفطن اللبيب العاقل: فأين هي الأسباب الشرعية التي ندفع بها البلاء، ونرده بها، ونتقي الحسد والعين ونفر من قدرها؟

والجواب في نقاط:

أما في البداية فنؤصل فيه أن العين والحسد حق شرعاً وواقعاً.

فإن بعض من لم يطلع على القرآن والسنة وخفي عليه الواقع تراه يدفع ذلك، ولهذا نحتاج إلى هذا التأصيل والتقعيد ردّاً على المنكرين والجاحدين على سواء.

وسأخص بعض الأدلة من الأدلة القرآنية وكذلك النبوية بالذكر حتى لا أطيل وفيها الكفاية.

---

(١٩٠) أخرجه أحمد ٤ / ١٥٤ وقال المنذري في الترغيب (٣٠٧/٤): "رجاله ثقات". وأبو يعلى (١٧٥٩) والحاكم ٤ / ٤١٧، قال الحافظ ابن حجر في "تعجيل المنفعة" (١١٤): رجاله موثقون، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٦/٤): إسناده جيد. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ١٢٦٦.

أما القرآن الكريم فقد جاءت الإشارة إلى العين فيه على لسان يعقوب عليه السلام حين خاف على أبنائه فقال: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) [يوسف: ٦٧، ٦٨]

هكذا يفعل المؤمنون بالأسباب، ويبقى التوكل على الله ملاذاً آمناً، ومعتقداً صادقاً، فهم يأخذون بالحيطة والحذر، ويؤمنون بالقضاء والقدر، ويثقون بقدرة الواحد الأحد، وما أغنى عنكم من الله من شيء.

وجاء في القرآن أيضًا إخبار من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن حسد الكافرين له، ومحاولة إنفاذه بأبصارهم وذلك في قول الله -تعالى-" وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)". [القلم: ٥١، ٥٢].

قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: { لَيُزْلِقُونَكَ } لينفذونك بأبصارهم، أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. قال الحافظ ابن كثير:وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله، -عز وجل-، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة. (١٩١)

وكذا قوله -تعالى-: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{١} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{٢} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{٣} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{٤} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{٥}"

فالله -تعالى- يأمر نبيه أن يستعيذ به من شر الحاسد إذا حسد أي: ومن شر حاسد إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومن ذلك النظر إلى المحسود وتوجيه الحاسد نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب، فإن نفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة بما تؤثر في المحسود بحسب ضعفه وقوة نفس الحاسد شرّاً قد يصل إلى حد الهلاك، ورُبَّ حاسد يؤذي بنظرة بعين حسده نحو ما يؤذي بعض الحيات. (١٩٢)

والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصى به في الأرض، حسد إبليسُ آدم -عليه السلام- وحسد قابيل هابيل، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون ولقد أحسن من قال:

قل للحسود إذا تنفس طعنة: يا ظالماً وكأنه مظلوم.

---

(١٩١) تفسير ابن كثير - (٨ / ٢٠١)، وانظر: سليمان حمد العودة: خطبة بعنوان: آفة العين وطرق الوقاية والعلاج، وقد استفدت منها في مواضع من هذه الخطبة.

(١٩٢) الألوسي في تفسيرها.

والحسد من شر شيء في الخلق كله كما قال –تعالى–: "مِن شَرِّ مَا خَلَقَ "وجعل خاتمة ذلك: الحسد[١٩٣]

فالله –تعالى– ذكر الحسد في القرآن الكريم، وكذلك ورد في السنة النبوية ما يدل على الحسد والعين فمن ذلك ما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أمر رسول الله —صلى الله عليه وسلم– أن يسترقي من العين".[١٩٤]

ولعلم النبي —صلى الله عليه وسلم– بما علمه ربه من مجيء أقوام يجحدون هذا قال فيما أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عباس –رضي الله عنه– أنه —صلى الله عليه سلم– قال: "العين حَقّ، ولو كان شيء سَابِقَ القدر لسبقته العين"[١٩٥]

بل إن العين . أيها الإخوة . قد تكون إنسية وقد تكون جنية، فهي كما تصيب من الإنس تصيب من الجن، فعن أم سلمة . رضى الله عنها . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجارية فى بيتها، رأى فى وجهها سفعة: "بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا»[١٩٦]

والسفعة علامة من الشيطان، وقيل: هِيَ لَوْن يُخَالِف لَوْن الْوَجْه. [١٩٧]

والمعنى: بها عين أصابتها نظرة من الجن أنفذ من أسنة الرماح[١٩٨]

ولهذا (كان صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان، ومن عين الإنسان حتى إذا نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك). [١٩٩]

هذا عن الشرع،ومن الوقائع أيضاً ما يثبت لهؤلاء المنكرين الجاحدين أن الحسد والعين حق، ولا شك أن حضراتكم تحفظون من الوقائع وتعرفون مثلما أعرف ويزيد، ولكنني لن أحدث اليوم بما يمكن أن يقال عنه خرافة أو أسطورة، وإنما أحدثكم بقول الله أو قول رسول الله —صلى الله عليه وسلم– لذلك أنتزع من الواقع المبارك واقع أصحاب النبي —صلى الله عليه وسلم– حادثة حقيقة واقعية تدل على أن الحسد والعين موجودان.

---

(١٩٣) القرطبي في تفسيرها، بتصرف.

(١٩٤) أخرجه البخاري ٥٧٣٨.

(١٩٥) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

(١٩٦) أخرجه البخارى ٥٧٣٩، ومسلم (٩٧).

(١٩٧) النهاية ٢ / ٣٧٥، والفتح ١٦/ ٢٦٦.

(١٩٨) شرح السنة (١٢ / ١٦٣).

(١٩٩) أخرجه الترمذى (٢٠٥٩)، والنسائي (٢٧١/٨)، وصححه الألباني المشكاة (٤٥٦٣).

وتلك الحادثة أخرجها الإمام مالك وابن حبان في صحيحه وصححها العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة من حديث محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف فنزع جبة كانت عليه وعامر بن ربيعة ينظر، وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! قال: فوعك سهل مكانه –أي مرض– واشتد وعكه فأُتِي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأخبر أن سهلاً وعك وأنه غير رائح معك يا رسول الله فأتاه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأخبر سهلٌ بالذي كان من أمر عامر، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:

"عَلامَ يَقْتلُ أحدُكم أخاه! ألَا بَرَّكْتَ؟ إن العين حق توضأ له" وفي رواية: "اغتسل له"، ثم قال: "إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة، فتوضأ له عامر فراح سهل مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وليس به بأس".

وفي رواية: ثُم دعا بماء فأمر عامرًا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، ودَاخِلة إزاره، وأمره أن يصب عليه.

قال سفيان: قال مَعْمَر، عن الزهري: وأمر أن يكفَأ الإناء من خلفه"(٢٠٠)

فهذه . أيها الإخوة . كلمة قالها الرجل في أخيه فوقع على الأرض حتى إن بعض الروايات تذكر أن الذي أتى النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له: يا رسول الله أدرك سهل بن حنيف فإنه والله ما يرفع رأسه فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "من تتهمون به" قالوا:عامر بن ربيعة، نعم فالمنظور كاد أن يموت، وهذا ذكره النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما روى ابن عدي وأبو نعيم من حديث جابر وأبي ذر رضي الله عنهما أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "العين تُدخل الرجل القبر، والجمل القدر"(٢٠١)

ويرد ابن القيم –رحمه الله– على المنكرين لأثر العين بقوله: (أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثفهم طباعًا، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم، لا تدفع أمر العين ولا تنكره، وإن اختلفوا فى سببه، وجهة تأثير العين).(٢٠٢)

---

(٢٠٠) أخرجه ابن ماجة (٣٥٠٩)، وغيره وهو في صحيح الجامع الصغير ١ / ٢١٢.

(٢٠١) أخرجه ابن عدى في الكامل (٦/٤٠٨) وأبو نعيم في الحلية (٧/٩٠) وحسنه الألباني في الصحيحة ١٢٤٩.

(٢٠٢) زاد المعاد ٤ / ١٦٥.

بل تعجبون -أيها الإخوة- لهذا الحديث الذي أخرجه أبو يعلى وصححه العلامة الألباني وفيه قال عليه الصلاة والسلام: "أكثر من يموت من أمتي . بعد قضاء الله وقدره . بالعين". (٢٠٣)

ولذلك كان المصطفي – صلى الله عليه وسلم – إذا عاد مريضًا رقاه وهذا مما ترك الناس من سنة رسول الله.

فالعين حق . أيها الإخوة . وخطرها كبير وشرها مستطير، ولذلك يتحرز الناس منها ويتحرسون والشرع يأمر بذلك ويرشد إليه، لكن ليس بالشركيات من الحلقات والخيوط والخمسة وخميسة والحظاظات، وإنما بوسائل نافعة صحيحة مفيدة معقولة فيها الاستعانة برب العالمين والاعتماد والتوكل على إله المخلوقين أجمعين، وفيها الاقتداء والائتساء بسيد الأنبياء والمرسلين فما هذه الوسائل -أيها الإخوة-؟

والجواب بعد جلسة الاستراحة إن شاء الله -تعالى-.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا -أيها الإخوة-! أرشد الشرع الحنيف إلى علاج العين والحسد بل إلى الأسباب التي تقي العين والحسد وتمنع وقوعهما، فأما الأسباب التي تقي العين والحسد وتمنع وقوعهما فهي:

الأول: التعوذ بالله وحده من شر الحسد: فإن الله -تعالى- سميع لمن استعاذ به وعليم بما يستعيذ العبد منه.

الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه: فمن اتقى الله، تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره. قال -تعالى-: وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) [آل عمران: ١٢٠]

الثالث: الصبر على عدوه: فلا يقاتله ولا يشكوه ولا يُحَدِّث نفسه بأذاه أصلاً، فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه.

ولله در من قال:

(٢٠٣) أخرجه أبو يعلى فى مسنده، والطبرانى فى الكبير، والحاكم فى مستدركه وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير ١ / ٢١٢.

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتلُه

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكلُه.

الرابع: التوكل على الله: فإنه من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد عن نفسه ما لا يطيق من أذى الخَلْق وظلمهم وعداوتهم. قال -تعالى-: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه، أحبتي! ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه فيه.

الخامس: فراغ القلب من الاشتغال بالحسد: فيجب على المسلم أن يمحو الحسد من قلبه كلما خَطَرَ له، ولا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

السادس: الإقبال على الله وإخلاص العمل له: فالإخلاص هو سبب انتصار العبد على الشيطان الرجيم، قال -تعالى- حكاية عن الشيطان: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) [ص: ٨٢، ٨٣]، فمن دخل في حصن الإخلاص، لم يخْلُص إليه أحد من الجن والإنس.

السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب: وليعلم العبد أن ما يصيبه إنما هو من ذنوبه، قال سبحانه لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم: أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) [آل عمران: ١٦٥]، فكلما تاب العبد من ذنوبه، كلما كان ذلك سببًا لتجنبه الحسد من الناس.

فمن وسائل الوقاية من العين: اجتناب الذنوب والمعاصي فينبغى ألا ننسى أن للذنوب أثراً فى وقوع المصائب، كيف لا؟ والحق -تبارك وتعالى- يقول: "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير".

قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وما من اختلاج عرق، ولا خدش عود، ولا نكبة حجر إلا بذنب، ولما يعفو الله عنه أكثر). [٢٠٤]

وقال عكرمة: (ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها، أو لينال درجة لم يكن ليوصله إليها إلا بها). [٢٠٥]

ويقول -تعالى-: "من يعمل سوءًا يجز به".

(٢٠٤) تفسير القرطبي ١٦ / ٣١.

(٢٠٥) تفسير القرطبي ١٦ / ٣١.

روى الإمام مسلم، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "قاربوا وسددوا، ففى كل ما يصاب به الإنسان كفارة، حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها"(٢٠٦)

قال ابن عبد البر، -رحمه الله-: (الذنوب تكفرها المصائب والآلام، والأمراض والأسقام، وهذا أمر مجمع عليه). (٢٠٧)

أيها الإخوة: ولا يقف الأمر فى المصائب التى يبتلى الله بها عباده عند حدود تكفير السيئات، بل فيها زيادة حسنات ورفعة درجات، فعن أم المؤمنين، عائشة رضى الله عنها قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما ضرب على مؤمن عرق قط إلا حط الله به من خطيئته، وكتب له حسنة، ورفع له درجة". (٢٠٨)

ألا فاحتسبوا ما يقدر الله عليكم من المصائب والأسقام.. وأملوا من وراء ذلك خيرًا.

الثامن: الصدقة والإحسان إلى الناس: لكي يتجنب المسلم الحسد ينبغي له أن يكثر من الصدقات في السر والعلانية، ويحسن إلى الناس، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء عن المؤمن ودفع الحسد كذلك، وهذا واقع ملموس فمن النادر أن يتسلط الأذى والحسد على صاحب صدقة خالصة لله -تعالى-، وإن أصابه شيء من الحاسد فإن الله يَلْطف به جزاء ما قدَّم لله وحده.

التاسع: الإحسان إلى الحاسد: إن من أعظم الأسباب لدفع الحسد، والتي لا يوفق إليها إلا من وفقه الله، إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، قال -تعالى-: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم [فصلت: ٣٤، ٣٥] وقد قيل: الإحسان يدق العنق ويأسر الإنسان.

العاشر: تجريد التوحيد: يجب على العبد أن يشغل فكره دائمًا بالله -تعالى- فهو وحده مسبب الأسباب، ولا يحدث شيئ في هذا الكون إلا بإرادته ومشيئته، قال -تعالى-: وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا

(٢٠٦) أخرجه مسلم: (٢٥٧٤).

(٢٠٧) التمهيد ٢٣ / ٢٦.

(٢٠٨) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٢٥٥٥، والحاكم ١ / ١٤٧، وصححه وأقره الذهبى، وحسن سنده المنذرى في الترغيب (٤ / ١٥٠) والهيثمي في مجمع الزوائد(١ / ٤١٦)، والحافظ في الفتح.

راد لفضله[يونس: ١٠٧]، فإذا جرد العبد التوحيد لله -تعالى- فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله؛ فالتوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين.(٢٠٩)

أيها الإخوة! وينبغى أن يبرك الناظر على الشيئ ويقول ما شاء الله لاقوة الا بالله اللهم بارك فيسلم الشيئ بإذن الله وثمة وقاية من العين، بإذن الله، يغفل عنها كثير من الناس، ألا وهى: ستر محاسن من يخاف عليه العين بما يردها عنه، فقد ذكر البغوي فى شرح السنة أن عثمان رضى الله عنه، رأى صبيّاً مليحاً، فقال: (دسموا نونته كيلا تصيبه العين)، ثم شرحه البغوي بقوله: ومعنى دسموا: أى سودوا، والنونة: الثقبة أو النقرة التى تكون فى ذقن الصبي الصغير. (٢١٠)

هذه وسائل اتقاء العين والحسد، وأما العلاج فيكون بثلاثة أمور:

أولًا: الرقية، وهذا أمر واقع؛ فإن الرُّقى تنفع بإذن الله من العين، كما في الحديث: "لا رقية إلا من عين أو حمة".(٢١١)
ثانيًا: الاستغسال، وهي أن يؤتي بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.
ثالثًا: أن يؤخذ شيء من شعار العائن، أي: ما يلي جسمه من الثياب، كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، قال العلامة ابن عثيمين: وهو مجرب. (٢١٢)

أيها الإخوة! وإذا كان التبريك سبباً واقياً بإذن الله عن وقوع العين، فإن اغتسال العائن ووضوءه بماء يصب على المعين شفاء له بإذن الله كما سمعتم بقصة سهل بن حنيف وعامر بن ربيعة، رضى الله عنهما، وهو مفسر لقوله صلى الله عليه وسلم،"وإذا استُغْسلتم فاغتسلوا"(٢١٣)

ولذا، فينبغي للمسلم ألا يمتنع عن الاغتسال إذا اتهمه أهل المعِين، أو أحس هو من نفسه أنه عان أحداً من المسلمين، وهذا يحتاج اليوم إلى حكمة في التعامل فإن الطلب مثل هذا بيننا يصبح المطلوب منه تهمة شنيعة لا تغتفر فالحكمة هنا واجبة.

---

(٢٠٩) بدائع الفوائد لابن القيم (٢ /٢٣٨، ٢٤٥) بتصرف وزيادة.
(٢١٠) شرح السنة ١٢ / ١٦٦، زاد المعاد ٤ / ١٧٣.
(٢١١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).
(٢١٢) القول المفيد (١/ ٥٧، ٥٨).
(٢١٣) أخرجه مسلم ٥٨٣١.

وعموما"فمَن خاف حاسداً فعليه بالمعوِّذات مع الأذكارِ والدعاءِ عموماً: وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ". وكِتمان أمرِهِ عنِ الحاسِدِ: لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ؟. والابتعاد عنه: "وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ". والإحسان إليه لِكفِّ أذاهُ: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟". [٢١٤]

وينبغي في النهاية أن ننبه إلى أمر مهم ألا وهو أن بعض الناس"يسرفون بأمر العين فتطاردهم الأوهام، ويحاصرهم القلق، ويضعف عندهم اليقين، ويختل ميزان التوكل. أولئك يعظمون البسيط، وينسبون كل إخفاق أو فشل إلى العين، وإن لم يكن بهم عين، وربما استدرجهم الشيطان فأمرضهم وما بهم مرض، وأقعدهم عن العمل وما بهم علة، ذلكم لأن نسبة العجز والكسل إلى الآخرين أسهل من الاعتراف به وتحمل لوم الآخرين."[٢١٥] فالناس في أمر العين طرفان ووسط منكرون جفاة وموهومون غلاة وبين هؤلاء الجفاة والغلاة تقف طائفة من الناس موقفاً وسطاً، تؤمن بالعين وتصدق بآثارها نقلاً وعقلاً، ولا تغالى فتنسب كل شيء إليها، تتقى العين قبل وقوعها، وتفعل الأسباب المأذون بها شرعاً بعد وقوعها. فلا ينبغي على الإطلاق للمسلم إلا هذا التوسط بين الطرفين فلا هو مع المنكرين للأمر الثابت شرعاً وعقلاً ولا هو من المفرطين في نسبة كل شيء إلى العين والحسد.

فيا أيها الإخوة! اتقوا الله، ولا يضر أحدُكم أخاه، وإياكم والحسدَ وإذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة، فإن العين حق.

واعلم أن فضل الله يؤتيه من يشاء كما يشاء ولن يذهبه عنه حسدك له، فلا تكن كمن قال –تعالى– فيهم: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ؟ وابتعد ما قدرت على الإفلات من هذه الهوة هوة الحسد، فالحسد"كالأكلةِ المِلحَةِ تنخرُ العظمَ نخْراً، إنَّ الحسد مرضٌ مزمنٌ يعيثُ في الجسم فساداً، وقد قيل: لا راحة لحسود فهو ظالمٌ في ثوبِ مظلوم، وعدوٌّ في جِلْبابِ صديقٍ. وقد قالوا: لله درُّ الحسدِ ما أعْدَلَهْ، بدأ بصاحبِهِ فقتَلَهَ.

إنني أنْهى نفسي ونفسك عن الحسدِ رحمةً بي وبك، قبل أنْ نرحم الآخرين ؛ لأننا بحسدِنا لهمْ نُطعمُ الهمَّ لحومنا، ونسقي الغمَّ دماءَنا، ونوزِّعُ نوم جفوننا على الآخرين.

إنَّ الحاسد يُشْعِلُ فرناً ساخناً ثم يقتحمُ فيه. التنغيصُ والكدرُ والهمُّ الحاضرُ أمراضٌ يولّدها الحسدُ لتقضي على الراحةِ والحياةِ الطيبةِ الجميلةِ. بلِيَّةُ الحاسِدِ أنهُ خاصمَ القضاءَ، واتهم الباري في العدْلِ، وأساء الأدب مع الشَّرْعْ، وخالف صاحبَ المْنهجِ صلى الله عليه وسلم. [٢١٦]

---

(٢١٤) لا تحزن.

(٢١٥) آفة العين وطرق الوقاية والعلاج سليمان حمد العودة.

(٢١٦) لا تحزن.

نعوذُ باللهِ من شرِّ حاسد إذا حسدْ ونسأل الله –تعالى– معافاته......... الدعاء

الرقي وأخواتها

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة!

إن السبيل الوحيد إلى حرية الإنسان حرية صحيحة وكاملة هو الانضمام إلى قافلة التوحيد والانضواء تحت لواء عبادة العزيز الحميد، فعبودية الله -عز وجل- شرف وتكريم من الرحمن، أما عبودية غير الله فرق وذل وهوان، ونهاية تحقيق التوحيد -أحبتي في الله- هو التوكل على الله -تعالى- في كل شأن كبير وصغير وقطع الأمل مما عداه، فإنه من توكل على الله كفاه، ومن توكل على غيره عراه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من تعلق شيئاً وكل إليه".[٢١٧]

فمن تعلق بقلبه وفعله بأي شيء يظن أنه ينفع ويضر من خيط أو حلقة أو خرز أو ولي من الأولياء أو قبر من القبور أو ضريح من الأضرحة وكله الله إلى ما تعلق به.

وهذه عقوبة من الله -عز وجل- أي عقوبة، وإهانة منه سبحانه أي إهانة! لأن الله -تعالى- إذا تخلى عن إنسان ووكله إلى غيره هلك، أما من توكل على الله -عز وجل- وحده فإن الله -سبحانه وتعالى- يتولى أمره، لأنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله، ولا يضر إلا الله، ولا يشفي إلا الله، ولا يرزق إلا الله، ولا يعطي إلا الله، ولا يمنع إلا الله، نعم فما لنا ألا نتوكل على الله؟.

روى الإمام أحمد عن عطاء الخراساني قال: "لَقِيْتُ وَهْبَ بنَ مُنَبِّهٍ وَهُوَ يَطُوفُ بِالبَيْتِ، فَقُلْتُ لَهُ: حَدِّثْنِي حَدِيْثًا أَحْفَظُهُ عَنْكَ فِي مقَامِي هَذَا وَأَوْجِزْ، قَالَ: نَعَمْ، أَوْحَى اللهُ -تبارك وتعالى- إِلَى دَاوُدَ: "يَا دَاوُدُ، أمَا وَعِزَّتِي وَعَظَمَتِي لا يَعْتَصِمْ بِي عَبْدٌ مِنْ عَبِيْدِي دُونَ خَلْقِي أَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ فتَكِيْدُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيْهِنَّ وَالأَرْضُونَ الَّسبْعُ وَمَنْ فْيهِنَّ إلاَّ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ مَخْرجًا، أَمَا وَعِزَّتِي وَعَظَمَتِي لا يَعْتَصِمُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيْدِي بِمَخْلُوقٍ دُونِي أَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ، إلاَّ قَطَعْتُ أَسْبَابَ السَّمَاءِ مِنْ يَدِهِ، وَأَسَخْتُ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، ثُمَّ لا أُبالِي بِأَيِّ وَادٍ هَلَكَ".[٢١٨]

---

(٢١٧) أخرجه أحمد: (٣١٠/٤)، والترمذي: (٤٠٣/٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٠٨/٢).

(٢١٨) موسوعة توحيد رب العبيد ص -١٣٠

لذا فالحزم كل الحزم والنجاة كل النجاة لا تحصل إلا لمن اعتمد وتوكل على سيده ومولاه فهذا هو السبب النافع والناجح مع الأخذ بالأسباب، وهو طريق النجاة، كما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله"(٢١٩).

والأسباب هنا هي الأسباب الشرعية المباحة من قبل الله -تعالى- ومن قبل رسوله –صلى الله عليه وسلم- ولذا كان الوقوف على هذه الأسباب واجباً شرعيّاً على كل مسلم حريص على نقاء توحيده وصفاء عقيدته، وليس اتخاذ ما لم يجعله الله سبباً كما يفعل كثير من الناس يوقع نفسه في الشرك بذلك وفي الكذب على القدر كما بينا في اللقاء السابق ونحن نتحدث عن سبب من هذه الأسباب المتخذة لدفع البلاء ورفعه وهي الحلقة والخيوط والخرز وبينا قيمتها في الشرع وأنها ليست بشيء وليس لها قيمة إذ تعرفنا على حرمتها بل شركيتها، وقدمنا البديل الشرعي لها.

وفي هذا اللقاء نتحدث عن نوع آخر من أنواع الشفاء والوقاء التي يتخذها البعض لدفع البلاء ورفعه ألا وهي: الرقى والتمائم والتولة، وهي أمور وهمية تنافي التوكل على الله ولا تأثير لها في حقيقة الأمر، وهي من الصنائع التي يصنعها السحرة والمشعوذون باشراف وتوجيه من الشيطان الأكبر ليضلوا بها العباد عن سواء السبيل.

فتعالوا بنا نتعرف إليها وإلى أحكامها في هذه الدقائق سائلين الله -تعالى- أن يعلمنا ويرشدنا ويهدينا، وكما تعودنا فسوف ننظم سلك موضوعنا في نقاط حتى لا ينسحب بساط الوقت من بين أيدينا.

أولاً: تعريف الرقى وأحكامها.

ثانياً: تعريف التمائم وأحكامها.

ثالثاً: تعريف التولة وحكمها.

رابعاً وأخيراً: وقفة صادقة.

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- أسأل الله أن يحشرنا موحدين تحت لواء سيد النبيين.

أولاً: تعريف الرقى وأحكامها:

(٢١٩) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

أيها الإخوة! الرُّقَى جمع رُقْيَة والرقية هي ما يقرأ على المريض من الآيات القرآنية أو الأدعية المشروعة أو المباحة، هذه هي الرقية الشرعية، ولكن الناس ابتدعوا من عند أنفسهم فيها فحرفوها عن المعنى الشرعي إلى نوع آخر بدعي ولذا فالرقى نوعان:

رقى شرعية وهي ما كان من آيات الله وأدعية رسوله أو أدعية مباحة مجربة خالية من المخالفات الشرعية

و رقى بدعية وربما صارت شركية وهي ما كانت بخلاف ذلك.

فالرقية قد تكون شرعية وقد تكون بدعية والسؤال: متى تكون الرقية شرعية صحيحة موافقة للكتاب والسنة؟

والجواب: لقد أرشدنا الشرع إلى أن كل رقية ليست بالضرورة أن تكون صحيحة بل من الرقى ما هو غير ذلك ومن ثم قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: "اعرضوا على رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك". [٢٢٠]

قال هذا لما قال له أصحابه: إنا كنا نرقى في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا علي رقاكم، والحديث أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

فأمر الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن تعرض عليه الرقى، وكذلك ينبغي علينا أن نعرض رقانا على الشرع الحنيف من بعده –صلى الله عليه وسلم– فالشرع قائم مقامه، فنعود إلى القرءان وإلى سنة النبي العدنان عليه الصلاة والسلام، وقد استقرأ العلماء الشريعة المطهرة فاستخرجوا منها الشروط التي إن اجتمعت صارت الرقية صحيحة شرعاً.

فالرقية الشرعية لابد أن تكون:

أولاً: بشيء من كلام الله، أو توسلاً بأسمائه –سبحانه وتعالى– وصفاته، أو بأدعية مشروعة مباحة.

ثانياً: أن تكون باللسان العربي، أو بما يُعرَف معناه من أية لغة أخرى، لأن ما لا يعرف معناه يحتمل أن يكون شركاً كما نسمع من كثير من الناس فيقول هذه عبرانية وهذه سريانية أو هذه عفريتية أو جنية لا شأن لكم المهم أن يشفى مريضكم، لا –أيها الإخوة– ، بل سلامة الدين أولى، فماذا يفعل من شفي بدنه ومرض دينه؟!.

ثالثاً: أن يكون فعلها صادرًا عن عقيدة صحيحة بأن الشافي هو الله وأنه هو الضار النافع –سبحانه وتعالى– فلا يعتقد أن الرقية تشفي بذاتها فإذا اعتقد ذلك كان شركاً أكبر، لأنه نسب إلى شيء ما هو من خصائص الله –تعالى–، فمن

---

(٢٢٠) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

خصائص الربوبية تدبير حالة الخلق كلهم، وإن اعتقد مقارنتها للشفاء وأنها لابد أن تكون موجودة ليحصل الشفاء كان ذلك شركاً أصغر. (٢٢١)

هذه –أيها الإخوة– الشروط التي بها تصح الرقية وتكون شرعية كما دلت عليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عن خير البرية، ليست المسألة بالرأي ولا بالعقل، لأن العقل لا يستقل بمعرفة الخير من الشر بل لابد أن نور الوحي يضيء للعقل الطريق فيبصر وصدق من قال:

لا يستقل العقل دون هداية بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلا

كالطرف دون النور ليس بمدرك حتى يراه بكرة وأصيلا

نور النبوة مثلُ نور الشمس للعين البصيرة فاتخذه دليلا

فإذا النبوة لم ينلك ضياؤها فالعقل لا يهديك قطُّ سبيلا

طرق الهدى محدودة إلا على من أمّ هذا الوحي والتنزيلا

فإذا عدلت عن الطريق تعمدا فاعلم بأنك ما أردت وصولا

يا طالباً درك الهدى بالعقل دون النقل لن تلق لذاك دليلا

فلنلتزم بشريعة ربنا –أيها الإخوة– ، والأسلم والأولى أن لا نرقى إلا بآية أو حديث فإن النفع فيهما محقق بخلاف غيرهما وإن كان مجرباً نافعاً لكنه قد يتخلف، ولذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يرقى برقي كثيرة فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سواهما، فعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلت أخذ بهما وترك سواهما(٢٢٢) والحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه بسند صحيح.

فاحذروا لدينكم رحمكم الله:

– اجتنبوا الرقى المحرمة من رقى السحرة والمشعوذين فإن الذهاب إليهم ذهاب للدين والإيمان بل والعقل.

---

(٢٢١) انظر فتح الباري ١٠/١٩٥، وفتاوى العلامة عبد العزيز بن باز ٢/٣٨٤وفتح المجيد ص١٣٥، وعون العلي الحميد شرح كتاب التوحيد (١/٢٠٤).

(٢٢٢) أخرجه ابن ماجة (٣٥١١) والترمذي (٢٠٥٨) والنسائي (٨/٢٧١)، وصححه الألباني انظر حديث رقم: ٤٩٠٢ في صحيح الجامع.

- اجتنبوا الرقى بعبارات غامضة غير واضحة ولا مفهومة فإنها لا يؤمن أن تكون شركاً وما كان كذلك يحرم تعاطيه.

- اجتنبوا الرقى التي فيها ما حرم الله من الذبح لغيره والسب واللعن والشتم والقذف والفحش والتفحش وتناول المحرمات وكشف السوءات والعورات واعلموا أن الشافي حقّاً هو العزيز الحكيم بارئ البريات فاضرعوا إليه أن يكشف كربكم ويزيل همكم ويشفى مريضكم وليكن رجاؤكم في الله عظيم.

مددت يد الرجاء والناس قد رقدوا ... وبت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كل نائبة ... يا من عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أموراً أنت تعلمها ... مالي على حملها صبر ولا جلد

لقد مددت يدي بالذل مفتقراً ... إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنّها يارب خائبة ... فبحر جودك يروي كل من يرد

والسؤال -أيها الإخوة- كيف نعالج أنفسنا بالرقى الشرعية؟
والجواب: أن يقرأ وينفث على المريض أو يقرأ في ماء ويسقاه المريض بآيات القرآن كالفاتحة والمعوذتين وغيرها من آيات القرآن العظيم، وبعد قراءة ما ذكر في الماء يشرب المريض منه ثلاث مرات ويغتسل بالباقي وبذلك يزول الداء إن شاء الله -تعالى- وإن دعت الحاجة إلى إعادة ذلك مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول المرض وقد جرب كثيرًا فنفع الله به.
وكذا تقرأ سورة الفاتحة، وآية الكرسي، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة، وسورة الإخلاص، والمعوذتين ثلاث مرات أو أكثر مع النفث ومسح الوجع باليد اليمنى.
ومنها التعوذات والرقى والدعوات الجامعة كدعاء أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك (سبع مرات)، ومنها أن يضع المريض يده على الذي يؤلمه من جسده ويقول: "بسم الله" ثلاث مرات، ويقول: "أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر (سبع مرات)، و« اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما »، و« أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة »،" أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق »، وهذه التعوذات، والدعوات، والرقى يعالج بها من السحر، والعين، ومس الجان، وجميع الأمراض ؛ فإنها رقى جامعة نافعة بإذن الله -تعالى-. [٢٢٣]

أيها الإخوة هذا عن الرقى تعريفها وحكمها فماذا عن التمائم وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء:

---

(٢٢٣) الدعاء ويليه العلاج بالرقى من الكتاب والسنة (ص / ٤٠).

تعريف التمائم وأحكامها.

أيها الإخوة: التمائم جمع تميمة: وهي التي يسميها الناس اليوم "حجاب" يتخذونه من خَرَزَات أو ما أشبهها ويضعونها في جلد أو ورق أو قماش ويخيطونه ثم يعلقونه على صدر المريض أو الطفل الصغير بغرض الوقاية من العين والحسد أو الشفاء من مرض وقع.

وهي من موروثات الجاهلية قال الحافظ ابن حجر: والتمائم: جمع تميمة، وهي خرز أو قلادة تعلق في الرأس كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات. [٢٢٤]

وقال العلامة ابن الأثير: التمائم جمع تميمة وهي خَرَزات كانت العرب تُعلّقها على أولادهم يَتَّقُون بها العين في زعْمهم فأبْطلها الإسلام. [٢٢٥]

فالعجب أن كثيراً من المسلمين يتعلق قلبه بهذه التمائم والأحجبة والحظاظات حتى ليظن أنها هي التي تنفعه وتدفع عنه الضر وتجلب له الشفاء، ونسى أولئك أن الشافي هو الله والشفاء بيده.

قال الله -تعالى-: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} (١٧) سورة الأنعام. وقال سبحانه: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (١٠٧)سورة يونس.

وقال سبحانه: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} (٥٣)سورة النحل.

ففي هذه الآيات الكريمات دلالة واضحة على أنه لا يكشف الضر إلا الله، وأنه سبحانه هو الذي يجب أن يلجأ إليه العباد لجلب الخير ودفع الشر وإلى الأسباب التي شرعها وهو القادر على ذلك بسبب أو بغير سبب.

وكان المصطفى -صلى الله عليه وسلم- إذا رقى مريضاً قال:

"اللهم رب الناس أذهب الباس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً "[٢٢٦]، فالشافي هو الله والشفاء كله بيد الله -عز وجل-.

---

(٢٢٤) فتح الباري (١٦ / ٢٥٨).

(٢٢٥) النهاية في غريب الأثر (١ / ٥٣٦).

(٢٢٦) أخرجه البخاري ٥٧٤٣، ومسلم ٥٨٣٦.

وعن قيس بن السكن الأسدي قال: دخل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- على امرأة - أي من أهله- فرأى عليها خرزاً من الحمرة فقطعه قطعاً عنيفاً، ثم قال: إن آل عبد الله عن الشرك أغنياء وقال: كان مما حفظنا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرُّقى والتمائم والتِّولة شرك). (٢٢٧)

وعن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له: لو تعلقت شيئاً! فقال: أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تعلق شيئاً وكل إليه)(٢٢٨)؟!

وعن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- مرفوعاً: (من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)(٢٢٩)

وعنه -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من علق تميمة فقد أشرك). (٢٣٠) ولهذا الحديث قصة كما في مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل إليه رهط، فبايع تسعة، وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا؟ قال: إن عليه تميمة، فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال: "من علق تميمة فقد أشرك".

قال العلامة الألباني -رحمه الله-: ولا تزال هذه الضلالة فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين، ومثلها الخرزات التي يضعها بعض السائقين أمامهم في السيارة يعلقونها على المرآة!

وبعضهم يعلق نعلًا في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها! وغيرهم يعلقون نعل فرس في واجهة الدار أو الدكان! كل ذلك لدفع العين زعموا، و غير ذلك مما عم وطم بسبب الجهل بالتوحيد، وما ينافيه من الشركيات والوثنيات التي ما بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها، فإلى الله المشتكى من جهل المسلمين اليوم، وبعدهم عن الدين.

ولم يقف الأمر ببعضهم عند مجرد المخالفة، بل تعداه إلى التقرب بها إلى الله -تعالى-! فهذا الشيخ الجزولي صاحب "دلائل الخيرات" يقول في الحزب السابع في يوم الأحد (ص ١١١ طبع بولاق): "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، ما سجعت الحمائم، وحمت الحوائم، وسرحت البهائم، ونفعت التمائم"!

فالحذر الحذر أن تتعلق قلوبنا بهذه التمائم والأحجبة فإنها لا تضر ولا تنفع فانفضها جميعها من قلبك يا عبد الله.

---

(٢٢٧) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وحسنه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٤٥٥٢).

(٢٢٨) أخرجه أحمد (٤/٣١٠)، والترمذي (٢٠٧٢)، وهو حسن لغيره، كما ذكر الأرناؤوط في التعليق على المسند.

(٢٢٩) أخرجه أحمد (٤/١٥٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠١٤).

(٢٣٠) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٨٨)، الصحيحة ٢٩٤.

وليس هذا بالطبع اعتقاد كل الناس كما عبرت عن ذلك أنفا فقلت بعض الناس، فهناك والحمد لله موحدون وموقنون بأن الشفاء من عند الله -تعالى-، ولذلك فإنهم إذا عمدوا إلى هذه التمائم يصنعونها لأولادهم فإنهم لا يصنعونها مثلاً من خرز ولا نعل ولا نحوه وإنما يجعلونها من شيء من القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة خالية من أي شرك أو طلاسم غير مفهومة وهم على عقيدة صافية مؤكدة بأنه لا يجلب الخير ولا يدفع الشر إلا الله.

فهل هذا العمل . أيها الإخوة . صحيح في دين الله؟

والجواب: الأولى تركه، لأنه قد يُعرَّض هذا الحجاب المكتوب فيه القرآن أو السنة إلى الامتهان من قبل الولد الصغير أو إهمال الرجل الكبير، خاصة إذا دخل به دورات المياه، أو كان جنباً.

ولهذا قال بعض أهل العلم بمنع التعليق لهذه التمائم واستدلوا بما يلي:

١- عموم النهي الوارد في تحريم التمائم ولم يأت ما يخصص هذا العموم. والقاعدة الأصولية تقول: إن العام يبقى على عمومه حتى يرد دليلٌ بالتخصيص. قال -صلى الله عليه وسلم-: (من علق تميمة فقد أشرك). وقال: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك). قالوا: فهذه الأحاديث دلت بعمومها على منع التعليق مطلقاً، ولم يرد ما يخصص التمائم التي من القرآن، أو غيره فالواجب حملها على عمومها.

٢- لو كان هذا العمل مشروعاً لبينه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأمته إذ البيان لا يؤخر عن وقت الحاجة، والمتتبع للسنة يرى أن جميع الأحاديث الواردة في الأذكار والدعوات وردت بلفظ من قال: كذا، أو من قرأ كذا ولم يرد في حديث واحد من كتب كذا أو علق كذا.

وفي ذلك قال ابن العربي: وتعليق القرآن ليس من السنة، وإنما السنة فيه الذكر دون التعليق.

٣- سد الذرائع، وهذا أمر عظيم في الشريعة، ومعلوم أنا إذا قلنا بجواز تعليق التمائم التي من الآيات القرآنية، والدعوات النبوية انفتح باب الشرك، واشتبهت التميمة الجائزة بالممنوعة، وتعذر التمييز بينهما إلا بمشقة عظيمة، ولاستغل هذا الباب دعاة الضلال والخرافات، وأيضاً فإن هذه التمائم تعرض القرآن للنجاسات والأماكن التي يجب أن ينزه القرآن عنها، ومن علقه يتعذر عليه المحافظة على ذلك خاصة عندما يعلق على الأطفال. (٢٣١)

---

(٢٣١) التمائم في ميزان العقيدة.

وهناك من الأذكار والأدعية ما يحصن به المرء نفسه وماله وولده فلا تقع له الشرور، ووسائل أخرى لعلاج ذلك إن وقع وكلها شرعية.

وقد أشرنا إليها قبل ذلك في خطبة: "غيوم في سماء العقيدة الصافية".

فليرجع إليها من أراد البديل للتمائم والشيء بالشيء يذكر وبالمناسبة أقول: إننا ننتظر من الآباء الفضلاء والأمهات الفضليات أن يحصنوا قلوب أولادهم بالقرآن والسنة والعقيدة الصحيحة حفظاً واعتقاداً وعملاً، لا بالتمائم والعزائم والأحجبة فإنهم متى تحصنوا بالقرآن في قلوبهم وبالسنة في جوارحهم وسلوكهم حُفِظوا بحفظ الله وأمنوا من كل ما يؤذيهم، ورحم الله من قال:

يا أختُ أنت رعاك الله عُدّتنا   لخلق جيل قويّ غير مشبوه

فلقّني طفلك الإسلام فَهْو له   كالمنهل العذب ما ينفكّ يرويه

وأبعديه عن الشيطان يفتنه   بجنده الكُثْرِ في الدنيا ويُغْويه

وسلّحيه بما في الدين من أدب   ومن محبّته البيضاء فاسقيه

ونشئيه على هَدْى الكتاب   ومن آياته الغرّ يا أختاه غذّيه[٢٣٢]

فلنرّب أولادنا على هدى من القرءان والسنة وليحفظهم الله الذي يحفظ القرءان والسنة.

أيها الإخوة! أما التمائم المحرمة التي يتخذها الناس من الخرز أو الأوتار أو الحلق من الحديد كالأساور والحظاظات والسلاسل فإن تعليقها محرم بلا ريب فهي ليست من الأسباب المباحة والأدوية المعروفة.

فلا ينبغي أن نعتقد فيها شيئاً من النفع كما هي عقيدة بعض الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله وعن فعل هؤلاء نتساءل: أو ما سمع هؤلاء قول الله –تعالى-: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨).

فالنافع الضار الكافي الشافي المعافي هو الله رب العالمين لا السلاسل ولا الحظاظات ولا التمائم ولا الأحجبة.

أو ما سمع هؤلاء قول رسول الله —صلى الله عليه وسلم– « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ». [٢٣٣]

---

(٢٣٢) إلى الأمهات المسلمات – محمد صيام – شعراء الدعوة– (٢ / ٧٢).

أو ما سمع هؤلاء قول رسول الله –صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ ». (٢٣٤) وسيأتي معنا الآن تفسير التولة وحكمها.

ولهذا دعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- على الذين يعلقون التمائم يريدون أن يكمل لهم الشفاء وتتم لهم الصحة فاتخذوا طريقاً عوجاً، دعا عليهم المصطفى –صلى الله عليه وسلم- أن يعاملهم الله بضد قصدهم فقال: "من تعلق تميمة فلا أتم الله له"(٢٣٥).

فانتبه أيها الحبيب يا من تضع على باب بيتك أو في سيارتك أو في متجرك أو في رقبة ولدك أو في رقبتك حجاباً أو قلادة لدفع العين أو لرفع البلاء والضرر، لأنها لا ترد من قدر الله شيئاً ولا ينفعك شيء بسببها فهي لا تأتي بالحظ ولا تأتي بالرزق ولا تمنع العين ولا ترد الحسد بل تضرك، وإنما هذا الذي تأمل كله بيد الله.

وها هو النبي –صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري –رضي الله عنه- أنه كان مع النبي –صلى الله عليه وسلم- في بعض أسفاره قال: فأرسل النبي رسولًا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت".(٢٣٦)

فتأمل حبيبي اهتمام النبي لأمر دينك، فأمر النبي –صلى الله عليه وسلم- بقطعها وأرسل رسولاً من قبله ينفذ ذلك ويعلنه على الناس.

ولا زال رسل رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من الدعاة والعلماء، ورثته . صلى الله عليه وسلم . يقومون بما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام وما بلغهم عنه فها هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يرى على امرأته خيطًا في عنقها فقال:

لأنتم يا آل عبد الله أغنياء عن الشرك قالت: إن عيني كانت تطرف فأذهب إلى فلان اليهودي فيرقاها فتسكن، قال رضي الله عنه: إنما ذلك شيطان ينخسها بكفه فإذا رقى كف، ثم قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك"(٢٣٧)

---

(٢٣٣) أخرجه أحمد (٤ / ١٥٦)، والحاكم ٤ / ٤١٧، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٢).

(٢٣٤) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣١).

(٢٣٥) أخرجه الترمذي (٢٠٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/٢٠٨.

(٢٣٦) أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

(٢٣٧) الحديث قبل السابق.

أيها الإخوة! من يقوم اليوم منّا رسولاً لرسول الله –صلى الله عليه وسلم- فينبعث على ما بُعث وبعث عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فيقطع الأوتار والقلائد والخرزات والحظاظات من نفسه أولاً ومن أهله ثانياً؟ نعم فتش في أهلك فإنك ستسأل عنهم إن لم تنشئهم على التمسك بالتوحيد ونبذ الشرك وإلا وقعت ووقعوا في هاوية الشرك البعيدة وصدق ربي إذ يقول:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)"[الآية-التحريم:٦].

فادع أهلك وادع الناس بالمعروف والحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالآيات والأحاديث بالتي هي أحسن، وذاك واجب على كل مسلم ومسلمة أوضحناه حين تحدثنا في خطبة"عالمية التوحيد".

أيها الإخوة: هل تعرفون أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قد نبأنا بأمر هذه الحظاظات التي يلبسها الناس وأخبر بها خبراً صريحاً؟ نعم ففي الحديث الذي أخرجه أبو داود وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود وصحيح النسائي من حديث رويفع -رضي الله عنه- قال:

قال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يا رويفع لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه".[٢٣٨]

الله! هذا علم من أعلام النبوة، أن يخبر النبي –صلى الله عليه وسلم- بشيء مستقبل أطلعه الله -تعالى- عليه فيقع كما أخبر وهي هذه الأمور، بل ويخبر النبي بأن الحياة ستطول بهذا الصحابي فيعمر حتى يرى ذلك وقد كان فصلى الله على الذي علمه ربه واصطفاه.

أخبر المصطفى بأن الناس ينسون التوحيد الخالص ويعرضوا عن الأسباب الشرعية للشفاء والدواء فيتخذواً أسبابا من عند أنفسهم وينسبوا إليها نفعاً وضراً من دون الله –عز وجل-.

وبالفعل عمر ذلك الصحابي وطالت به الحياة حتى رأى مبادئ تلك الشركيات التي لا زالت مستمرة فينا إلى اليوم.

"يا رويفع لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن"ثلاثة أشياء أو ثلاث رسائل يبعث إلينا بها النبي –صلى الله عليه وسلم:

الرسالة الأولى: "من عقد لحيته"

---

(٢٣٨) أخرجه أبو داود (١/٣٤-٣٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٠/١).

وذلك على صورة من الصور سواء في حرب كما كانوا يعقدون لحاهم يرون بها الظفر والنصر على أعدائهم، أو كما يعقدها المترفون والأغنياء لتحسينها يقصدون بها الجمال أو لتردعنهم العين وتدفع المكاره، أو تشبهاً بأعداء الله الفرس وغيرهم الذين كانوا يفعلون ذلك تكبراً وتجبراً وشمماً واستعلاء على خلق الله أو المقصود بذلك في الصلاة بين يدي الله يمسكها أو يربطها.

أو أي صورة من صور عقد اللحية وهذا بالطبع أيام كانت للمسلمين لحى فنحن الآن وللأسف تفرنجنا وتغربنا عن شكلنا الإسلامي وهدينا النبوي المحمدي فالنبي –صلى الله عليه وسلم- يخاطب الذين لهم لحى نسأل الله أن يهدي المسلمين إلى سنة النبي الأمين.

الرسالة الثانية: "أو تقلد وتراً"

وهذا هو ما تحدثنا عنه من التمائم فتعليق الأوتار وتقليدها الإبل والبقر وغيرها من أنواع التمائم، فقد كان العربي في الجاهلية إذا اخلق وتر قوسه يضعه في رقبة بعيره تبركاً ودفعاً للعين عنها، ونحن نفعل ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله نعلق فردة من حذاء في السيارة وفي رقبة البقر والجاموس وعلى أبواب المتاجر، فيا لله الأسف والعجب وضعنا اعتقادنا في فردة جزمه وقل في ذلك ما تشاء فلا يقف الأمر على فردة الحذاء هذه بل هي أهون من حبات البرسيم أو القمح في حجاب، أو القرآن يكتب بالمقلوب على يد ساحر لعين أو مدعي العلاج بالقرآن وهو يعالج بالجان والشيطان، أفيقوا يا عباد الله فهل هربنا من رق الجاهلية إلى عبادة الرحمن إلا من أجل الحرية التي جاءنا بها الإسلام ومن المفروض أن نسعى بها بين العالمين لكننا كسالى في سبيل ذلك يحدث هذا في حين أن بعض الفاسقين الفاسدين نشطين ساعين ينادون في عصرنا بالتحرر من الدين والانفلات من هديه أم إنه كما قيل:

هربوا من الرق الذي له خلقوا وقبلوا برق النفس والهوى والشيطان

الرسالة الثالثة: "أو استنجى برجيع دابة أو عظم"

وهذا حرام لأنه طعام الجن ودوابهم الذي سألوه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في المرة التي لقيهم فيها فقرأ عليهم القرءان فاسلموا وآمنوا فكان ذلك زادهم وزاد دوابهم فلذلك نهى النبي . صلى الله عليه . عن الاستنجاء بهما أي: بروث الدواب والعظام بأسرها.

هذه رسائل ثلاثة: "من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم: فإن محمداً بريء منه"، يا الله يا حفيظ من هذا الوعيد الشديد العظيم، يبرأ النبي ويتبرأ من الذين يفعلون هذا، اللهم إننا براء من هذا كله فاكتب لنا ولاء نبيك وحبه.

اللهم إنا نبرأ إليك من هذه الأفعال والأقوال والأعمال، نبرأ من الثقة إلا بك، ومن الصبر إلا على بابك، ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الرغبة إلا لك، ومن الرهبة إلا لجلالك العظيم، ومن الرجاء إلا لما في يديك الكريمتين، ومن التوكل والتفويض والاعتماد إلا عليك

أيها الإخوة ومن أنواع التمائم: التولة وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء:

التولة وحكمها.

ونلتقي به بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

ثالثًا: التولة وحكمها.

التولة –أيها الإخوة– هي شيء يصنعه بعض الناس ممن لا يتقي الله عند السحرة والمشعوذين ويكذبون على القدر وعلى أنفسهم أنها تحبب الرجل إلى امرأته وتحبب المرأة إلى زوجها ويسمونه الصرف والعطف وهذا من السحر، سحر التفريق والجمع كما قال –عز وجل–: "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ". [البقرة: ١٠٢]

فهو سحر يفرق ويجمع لأنه عمل شيطاني، يعمل الساحر ذلك في أشياء تنفر الإنسان من الإنسان أو الرجل من زوجته، أو الزوجة من زوجها وهو من عمل الشياطين.

فالسحرة لما تقربوا من الشياطين وخدموهم وأشركوا بالله، فالشياطين في مقابل ذلك ساعدتهم في هذه الأمور.

وهذا كثير في الناس خصوصاً وقد اتخذ حرفة ومهنة في بعض البلاد التي لا يعتني فيها بأمر العقيدة من قبل الحكومات والعلماء والدعاة والهيئات والرعية، وهكذا اتخذ الكفر بالله حرفة ووظيفة يحترفها ويمتهنها من لا يؤمنون، وأما حكم هذه التولة فهي حرام بإجماع المسلمين بل هي كفر من الفاعل المباشر لها وهم السحرة والمشعوذين وكذلك ممن اعتقد فيها ودبرها من الأزواج والزوجات أو غيرهم.

وقال العلامة ابن عثيمين –رحمه الله– –تعالى–: "التولة"، شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك، لأنه ليس بسبب شرعي ولا سبب فطري طبيعي للحب.

ومثل ذلك الدُّبْلَة، والدبلة: خاتم يشترى عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج، قالت المرأة: إنه لا يحبها، فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه ما دام في يد الزوج، فإنه يعني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية، فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية – وهي بعيدة ألا تصحبها ،. ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم، وإن كانت من الذهب، فهي بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث، وهو لبس الذهب، فهي إما من الشرك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك، فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم. [(٢٣٩)]

ويبين العلامة الألباني وجه التشبه بالنصارى في ذلك فيقول: ويرجع ذلك إلى عادة قديمة لهم عندما كان العروس يضع الخاتم على رأس إبهام العروس اليسرى ويقول: باسم الأب ثم ينقله واضعًا له على رأس السبابة ويقول: الابن ثم يضع على رأس الوسطى ويقول: الروح القدس وعندما يقول آمين يضعه أخيرًا في البنصر حيث يستقر. [(٢٤٠)]

فاتقوا الله أيها المؤمنون وحافظوا على دينكم فذلك العطف والصرف والتولة التي تسببهما سحر، والسحر كفر بالله –عز وجل– والساحر كافر وصدق ربي إذ يقول:

---

(٢٣٩) القول المفيد (١/ ١٠٣).

(٢٤٠) آداب الزفاف (ص ١٣٩).

[وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)]— البقرة.

وفي الحديث الذي أخرجه ابن جرير وجود إسناده الحافظ ابن كثير –رحمه الله–، وهو أثر غريب عجيب، قال الإمام أبو جعفر بن جرير، –رحمه الله–: بسنده عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم [رضي الله عنها وعن أبيها] أنها قالت: قدمت امرأة عليَّ من أهل دومة الجندل، جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حَدَاثة ذلك، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر، ولم تعمل به. قالت عائشة، رضي الله عنها، لعُرْوَة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفيها كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت. كان لي زوج فغاب عني، فدخلت على عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبتُ أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما. فقالا ما جاء بك؟ فقلتُ: أتعلم السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري، فارجعي. فأبيت وقلت: لا. قالا فاذهبي إلى ذلك التنور، فبولي فيه. فذهبت ففزعتُ ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئًا؟ فقلت: لم أر شيئًا. فقالا: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري [فإنك على رأس أمرك]. فأرْبَبْت وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه. فذهبت فاقشعررت [وخفت] ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئًا. فقالا: كذبت، لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري؛ فإنك على رأس أمرك. فأرببتُ وأبيتُ. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور، فبولي فيه. فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارسًا مقنعًا بحديد خَرَج مني، فذهب في السماء وغاب [عني] حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارسًا مقنعًا خرج مني فذهب في السماء، حتى ما أراه. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئًا وما قالا لي شيئًا. فقالت: بلى، لم تريدي شيئًا إلا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرت، وقلت: أطلعي فأطلعت وقلت: أحقلي فأحقلت ثم قلت: أفْركي فأفرَكَتْ. ثم قلت: أيبسي فأيبست. ثم قلت: أطحني فأطحنت. ثم قلت: أخبزي فأخبزت. فلما رأيتُ أني لا أريد شيئًا إلا كان، سقط في يدي وندمت – والله– يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئًا قط ولا أفعله أبدًا.

قالت: فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حداثة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يومئذ متوافرون، فما دَرَوا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس –أو بعض من كان عنده–: لو كان أبواك حيين أو أحدهما [لكانا يكفيانك].

قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان، قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا أهل الورع والخشية من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم، قال الحافظ ابن كثير: فهذا إسناد جيد إلى عائشة، رضي الله عنها. (٢٤١)

فيا لضياع الإيمان والدين لدى المسلمين في عالم السحرةُ والمشعوذون فيه هم الذين يشيرون اليوم عليهم افعلوا، لا تفعلوا،امشوا، قفوا اركبوا، بل هناك من المسلمين من لا يرعوي أن يرسم له السحرة حياته وفق منهج مسطور لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من شئونه الخاصة والعامة إلا أحصاها يحذوه خطوة بخطوة لا يخرج عنه ألبتة.

فبالله عليكم أهؤلاء مسلمون؟! أو هذا إسلام؟ إننا نحتاج إلى وقفة صادقة مع أنفسنا لنعيد مراجعة وقراءة حياتنا، فهل بالفعل نحن متوكلون على الله؟ وهذا هو عنصرنا الرابع والأخير من عناصر اللقاء: وقفة صادقة.

نعم إنها وقفة تقييم لموقفنا من الشركيات في أنفسنا وفي أهلينا ومن حولنا، وتقدير لإيماننا وإيمانهم كذلك فإن بعضنا إن لم يكن كلنا يزعم نفسه على إيمان جبريل وميكائيل يحسب نفسه أبعد ما يكون عن الشرك ونسى أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قدوة المحققين وإمام الموحدين وسيد العابدين القانتين المتوكلين كان يحذر الشرك على نفسه، ولذا كان يسأل الله –تعالى– كل يوم أن يعيذه من الشرك وأن يغفر له ما عساه أن يكون وقع فيه وهو لا يدري فقد كان من دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– كل صباح ومساء:

"اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم"(٢٤٢) والحديث أخرجه أحمد وغيره، بسند صحيح، فهل أنا وأنت بمنجى مما حَذِرَهُ على نفسه رسول الله –صلى الله عليه وسلم؟ أم قد سبق لنا عند الله عهد بأن لا نقع فيه؟

والجواب: لا هذا ولا ذلك فاللهم غفراً.

أيها الإخوة! إن علينا واجبين اثنين في هذه الوقفة الصادقة مع أنفسنا الأول:أن نتوب إلى الله من غرورنا بأنفسنا وتكبرنا في أنفسنا ونعزم على الاعتراف بحقيقتنا،والثاني: أن نرجع إلى أنفسنا لنقرأها قراءة المتهم لا قراءة الملتمس لها الأعذار.

وأن نحاسبها محاسبة الشريك الشحيح حتى نعتق من رق هذه النفس والهوى والدنيا والشيطان:

إني ابتليت بأربع ما سلطوا علي إلا لشقوتي وعنائي

---

(٢٤١) تفسير ابن كثير – (١ / ٣٦١).

(٢٤٢) أخرجه أحمد (٤ / ٤٠٣)، وغيره، وانظر صحيح الجامع ٣ / ٢٣٣ وصحيح الترغيب والترهيب ١ / ١٩.

إبليس والدنيا ونفسي والهوى، كيف الخلاص وكلهم أعدائي؟

ولنردد في تواضع قول الصادق الذي لا ينطق عن الهوى صباحاً ومساءً: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم".

التبرك بين المشروع والممنوع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة!

إن الله -تبارك وتعالى- لما أراد خلق الخلق سوّى الأرض وعدّلها وكمّلها وجعل فيها أقواتها وقدرلها ما به تؤدي وتؤدى عليها الوظيفة التي خلقت من أجلها، وتمت نعمة ربنا على هذه الأرض كاملة يوم بارك فيها سبحانه ببركته التي ليس لها حد ولا منتهى، تلك البركة التي لا يستطيع شيئ من الخلق المعيشة بدونها ولو لحظة أو أقل من ذلك والتي سيظل الخلق بأسرهم يفتقرون إليها ويتمتعون بها إلى أن تزول الأرض ويفنى من عليها وإلى الله ربهم يرجعون ولكن صنفاً من الخلق لا يدركون شيئاً من ذلك كله يحسبون أن الكون خلق صدفة وأنهم أوجدوا عبثاً وهملاً، قال الله -تعالى- موبخًا ومنكرًا على الكافرين الذين جحدوا نعمة الله وفضله عليهم وكفروا برسله لما جاءتهم: "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)" [فصلت: ٩ - ١١].

أيها الإخوة! ومن هذه البركة التي وضعها الله -تعالى- في الأرض أن جعل في كل سبب تقوم به الحياة خاصيته التي بها تتأدى وظيفته، فالماء مثلاً خاصيته الإرواء، والنار خاصيتها الإنضاج والإحراق، والأكل خاصيته الإشباع وهكذا، وهذه ينتفع بها المؤمن وغيره.

ولكن الله سبحانه قد جعل في أشياء خاصة بركة من لدنه زائدة عن الحد الذي به تتأدى وظيفة مثله. تشريفاً وتكريماً خاصّاً لا يحصل إلا لأهل الإيمان به -عز وجل-.

كما وضع الله في ماء زمزم البركة في أن يشبع من جوع وليست هذه صفة مثله من الماء، وجعله كذلك يداوي من الأمراض ويشفى من الأدواء وليست هذه كذلك صفة مثله.

وكما جعل الله في الكعبة المعظمة زادها الله تعظيماً وتشريفاً بركة خاصة ليست لما سواها من الأشياء من حجر أو غيره.

وكذلك ما في الحجر الأسود الأسعد، وكذلك ما في ريق النبي . صلى الله عليه وسلم . وغيرها وغيرها الكثير مما وهب الله من بركته.

هذه هبة الله في بعض خلقه، بينما سلب الله -تعالى- أشياء البركة والمنفعة معاً فجعلها تضر ولا تنفع وتؤذي ولا تجلب خيراً، وهكذا تنوعت مخلوقات الله حسب مشيئته -سبحانه وتعالى- وأمره وإرادته ومحبته وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمر يتعلق تعلقاً كاملاً بالمشيئة الإلهية ويرجع إلى الله في كل جزئياته، ومعنى ذلك أن طلب نفع الأشياء والتماس بركتها لا يكون إلا بحسب الشرع الكريم من طريقيه المعروفين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم والسؤال -أيها الإخوة- فهل امتثل العباد ذلك؟ وهل بحث الناس في ذلك أصلاً ليستمسكوا به؟ هذا ما تجيب عليه الدقائق القريبة التالية ونحن نناقش في هذه اللحظة قضية من أخطر القضايا ألا وهي التبرك، وقد اعتدنا أن نؤصل ولا نشتت وأن نفصل ولا نجمل وأن نستدل عن الله -تبارك وتعالى- ورسوله —صلى الله عليه وسلم- ولا نلقى الكلام جزافاً لذا فأعيروني -أيها الإخوة- الأسماع والقلوب وسأركز الحديث في العنصرين التاليين فقط:

أولاً: التبرك تعريفه وأقسامه.

ثانياً: الأسباب الشرعية لنزول البركة.

أيها الإخوة! التبرك هو طلب البركة بواسطة يلزمها العبد رغبة في حصول الخير ونزوله من الله -تعالى- ولابد أن نؤصل مما سبق أن قدمنا قاعدة تستمر معنا إلى آخر لقائنا هذا وهي أن البركة إنما هي من الله -تبارك وتعالى- وحده، لأنه هو مالكها وواهبها، فمن أراد البركة فليطلبها منه -عز وجل-، فمن آمن بهذا فليلتزم ما دل الدليل على أنه مبارك وليجتنب ما ليس كذلك، فإن الأول ينفعه والثاني يضره.

وهذا يدفعنا إلى بيان أقسام التبرك وهو ينقسم إلى: تبرك مشروع وتبرك ممنوع.

أما التبرك المشروع: فهو مثل التبرك بأفعاله —صلى الله عليه وسلم- وبذاته المشرفة وبآثاره الحسية المنفصلة عنه كما كان يفعل ذلك أصحاب النبي —صلى الله عليه وسلم- به ولا ينكر عليهم ذلك، روى ابن إسحاق أن رسول الله —صلى الله عليه وسلم- عدل الصفوف في يوم بدر وفي يده قدح فمر بسواد بن غزية فطعن في بطنه فقال: أوجعتني يا رسول الله فأقدني أي اجعلني أقتص منك فكشف عن بطنه فاعتنق سواد بطن رسول الله —صلى الله عليه وسلم- وقبله فدعا له رسول الله —صلى الله عليه وسلم- بخير، وقال: مالك؟

قال: قد حضر ما رأيت —أي القتال- فإن أقتل أحب أن يكون آخرَ ما مس جلدي جلدَك فيحرمني الله على النار(٢٤٣) وكما أخذ الصحابي من النبي الشملة لتكون كفنه في قبره يكفن فيها والحديث أخرجه ابن ماجه بسند صحيح عن سهل بن سعد الساعدي أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببردة قال وما البردة قال الشملة (أي

(٢٤٣) أخرجه ابن إسحاق في"السيرة"(٢ / ٢٦٦ – سيرة ابن هشام) ومن طريقه أبو نعيم في"معرفة الصحابة" (ق ٣٠٣ / ١) و ابن الأثير في "أسد الغابة" (٢ / ٣٣٢) وحسنه الألباني في"الصحيحة"٦ / ٨٠٨.

العباءة) قالت يا رسول الله نسجت هذه بيدي لأكسوكها فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها فخرج علينا فيها، وإنها لإزاره، فجاء فلان بن فلان رجل سماه يومئذ فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه البردة اكسنيها؟ قال: نعم، فلما دخل طواها وأرسل بها إليه، فقال له القوم: والله ما أحسنت كسيها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها ثم سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً! فقال: إني والله ما سألته إياها لألبسها ولكن سألته إياها لتكون كفني فقال سهل: فكانت كفنه يوم مات(٢٤٤).

وفي صلح الحديبية لما أراد النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يُرِيَ المشركين حرص الصحابة على اتباعه كما في الحديث في البخاري: "ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – بِعَيْنَيْهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِى كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَىْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِىِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ – صلى الله عليه وسلم – مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِى كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا. (٢٤٥)

وأصاب أنس من النبي –صلى الله عليه وسلم– شعرات فكانت عنده واحتفظ بها أهله وانتقلت من بعد إلى ابن سيرين الإمام العالم فكان يقول: إن عندنا شعرات من شعر النبي –صلى الله عليه وسلم– أصبناها من قبل بعض آل أنس ما أود أن لي بها الدنيا جميعاً.

وغير ذلك كثير: هذا من التبرك المشروع، ومنه أيضاً التبرك بمجالسة الصالحين ومخالطتهم من العلماء والزهاد وأهل الفقه والعبادة والورع فهؤلاء القوم لا يشقى بهم أبداً جليسهم.

ومن التبرك المشروع: التبرك بماء زمزم فإنها مطعمة مشبعة من الجوع، وشافية واقية من الأمراض والأسقام، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– "ماء زمزم لما شرب له" (٢٤٦)وكما قال:" إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ ». (٢٤٧)

هذا هو التبرك المشروع، وأما التبرك الممنوع: فهو ما كان من التبرك بالأحجار والأشجار وجدر القبور والأضرحة على النحو الذي يفعله بعض من لا يعرف في دين الله شيئاً فيهلك نفسه بالشرك الأكبر أو الأصغر ظاناً أنه يجلب لها الخير

---

(٢٤٤) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥٥)، وصححه الألباني في صحيحه.

(٢٤٥) أخرجه البخاري ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

(٢٤٦) أخرجه أحمد (٣ / ٣٥٧، ٣٧٢) وابن ماجه (٣٠٦٢)، وصححه الألباني في الإرواء (١١٢٣).

(٢٤٧) أخرجه مسلم ٦٥١٣.

ويدفع عنها الضر وينسى أن هذا عين ما كان يفعله المشركون والكافرون في جاهليتهم التي جاء الرسول –صلى الله عليه وسلم– لإخراجهم من ظلماتها إلى أنوار التوحيد.

كانوا يتبركون بالأحجار والأشجار والأصنام كما قال الله –عز وجل–: "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١)تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)".

والمعنى يقول –تعالى–: "أفرأيتم أيها المشركون هذه الآلهة المزعومة هل نفعت أو ضرت؟ وهذا استفهام إنكاري، توبيخاً وإنكارا لهم على هذا الفعل، فماذا يكون جوابهم؟

إنهم لا يستطيعون أن يقولوا: تنفع وتضر، لأنها ليست كذلك فإنها لا تملك ذلك لنفسها فضلاً عن أن تملكه لغيرها: واستمع معي لما يذكر الحافظ ابن كثير في السيرة النبوية عن راشد بن عبد ربه أحد الصحابة الفضلاء العقلاء الرشداء قال: كان الصنم الذى يقال له سواع "بالمعلاة من رهط" تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم، فأرسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربه بهدية من سليم إلى سواع.

قال راشد: فألفيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع، فإذا صارخ يصرخ من جوفه يقول: العجب، كل العجب، من خروج نبى من بنى عبد المطلب، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام، وحرست السماء ورمينا بالشهب، العجب، كل العجب.

ثم هتف صنم آخر من جوفه: تُرك الضمارُ وكان يُعبد، خرج النبي أحمد، يصلى الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام، والبر والصلات للأرحام.

ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول:

إن الذى ورث النبوة والهدى * بعد ابن مريم من قريش مهتدى

نبى أتى يخبر بما سبق، وبما يكون اليوم حقّاً أو غد.

قال راشد: فألفيت سواعاً مع الفجر وثعلبان يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يهدى له، ثم يعوجان عليه ببولهما، فعند ذلك قال راشد بن عبد ربه:

أرب يبولُ الثعلبانِ برأسه * لقد ذَلَّ من بالت عليه الثعالب

وذلك عند مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به، فخرج راشد حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ومعه كلب له، واسم راشد يومئذ ظالم، واسم كلبه راشد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما اسمك؟" قال: ظالم.

قال: "فما اسم كلبك؟" قال: راشد، قال: "اسمك راشد، واسم كلبك ظالم!" وضحك النبي صلى الله عليه وسلم.

وبايع راشد النبي صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة معه، ثم طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيعة بوهاط – ووصفها له – فأقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعلاة من وهاط شأو الفرس، ورميته ثلاث مرات بحجر، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل فيها وقال له: "فرغها في أعلى القطيعة ولا تمنع الناس فضلها"ففعل.

قال ابن كثير: فجعل الماء معيناً يجرى إلى اليوم، فغرس عليها النخل، ويقال: إن وهاط كلها تشرب منه، فسماها الناس ماء الرسول صلى الله عليه وسلم، وأهل وهاط يغتسلون بها.

وبلغت رمية راشد الركب الذى يقال له ركب الحجر، وغدا راشد على سواع فكسره.[٢٤٨] فلم يمنعه الصنم ولم يدفعه لأنه ليس له حيلة إلى ذلك فهو حجارة.

وهذه الأصنام هي هي التي حطمها النبي –صلى الله عليه وسلم– لما فتح الله عليه مكة وصارت مكة دار إسلام فكان يضربها بعصاه قائلاً: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" وكانت تخر ساقطة على الأرض لوجهها عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رضى الله عنه – قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلاَثُمِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)(جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ).[٢٤٩]

الله –تبارك وتعالى– قرع المشركين في شأن آلهتهم التي كانوا يعبدونها قائلاً: "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى". أي: هل أعطتكم ما كنتم تؤملون فيها من البركة وحصول الخير حين سألتموها ذلك وطلبتموه إليها؟ أو هل نفعتكم لما وسطتموها إلى الله فجعلتموها بينه وبينكم ترفع لكم حوائجكم بزعمكم وتقربكم إليه زلفى؟ أجيبوا عباد الله: هل أعطتهم الأصنام ما أملوا وهل حصلت لهم ما أرادوا؟ كلا وربي.

وإن ما أخذه المشركون قديماً من أصنامهم هو عين ما سيأخذه القبوريون والمتمسحون حديثاً بالأضرحة تبركاً ورغبة في الخير، فصنيع كصنيع ونتيجة كنتيجة.

---

(٢٤٨) السيرة النبوية لابن كثير – (١ / ٣٧٤).

(٢٤٩) أخرجه البخاري ٤٧٢٠، ومسلم ٤٧٢٥.

فالتبرك بالقبور والأضرحة مردود كله على أصحابه ولم لا، وقد رد النبي –صلى الله عليه وسلم– على أصحابه لما رآهم التمسوا البركة فيما ليس سبباً شرعيّاً لالتماسها وحصولها وذلك هو الذي يلتمسه اليوم المتبركون بالقبور من البركة وهي ليست سبباً شرعيّاً لحصول البركة.

روى الترمذي بسند صحيح عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الله أكبر! إنها السنن، قلتم . والذي نفسي بيده .كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"، لتركبن سنن من كان قبلكم).(٢٥٠)

فهذا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أغلظ على أصحابه واشتد نكيره عليهم وأكبر ما قالوه وأعظمه أن يخرج منهم وبين لهم أن هذه سبيل اليهود والنصارى وأنهم شابهوا اليهود في طلبهم ذاك وكان الأجدر بهم ألا يقعوا في ذلك لأنه لا بركة تلتمس مما لم يجعله الشرع سبباً لها، ولا شك أن هؤلاء الطالبين ليسوا كبار الصحابة ولا الذين رباهم النبي –صلى الله عليه وسلم، بل هم كما قال راوي الحديث: حدثاء عهد بشرك أو بكفر وهم مسلمة الفتح.

فمثل هذا يقال في كل من تبرك بما لم يجعله الشرع المطهر سبباً للبركة وإنما الدافع إليه الهوى والشيطان والعقل والنفس الأمارة بالسوء.

فالله –تعالى– لم يجعل الأحجار والأشجار والقبور والأضرحة سبباً للبركة وهي لا تقدر على منح البركة طلابها فالشيء من الأشياء لا يخرج البركة ولا يخلقها ولا يوجدها من تلقاء نفسه وإنما الذي يوجد البركة والذي يخلقها هو الله رب العالمين وهو مسبب الأسباب الكريم الوهاب جل في علاه، وبإرادته ومشيئته يجعل في شيء البركة ولا يجعلها في آخر فعلى العبد أن يلزم غرز الشرع الذي رسم وخطى الشرع التي قدر ولا يمشي مع هواه فإنه يضله.

وصدق ربي إذ يقول: "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [ص: ٢٦]".

فالتبرك بالأحجار والأشجار ومثله التبرك بالأضرحة والقبور والجدران ممنوع وحرام، ومثله التبرك الموجود في بعض الناس هذه الأيام وهو التبرك بآثار الصالحين كشرب المتبقي من شرابهم على سبيل التبرك، أو التماس عرقهم أو منديلهم، أو التمسح بهم، أو أن يحمل الرجل مولوده إلى صالح ليحنكه بتمرة حتى يكون ريق الصالح أول ما يدخل في فمه وهذا

---

(٢٥٠) أخرجه أحمد (٥/٢١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١١٨٥)، والترمذي (٢١٨٠)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٦)، المشكاة (٥٣٦٩).

ممنوع كله لا يجوز بحال، لأن الناس قاسوا أفعالهم هذه بالصالحين على أفعال الصحابة مع النبي –صلى الله عليه وسلم- وهيهات ففرق كبير بين النبي –صلى الله عليه وسلم- وبين غيره مهما كان فضله فهذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام فقط ولهذا لم يفعل الصحابة هذا مع أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي مثلاً.

ذلك لأن البركة في ذات النبي –صلى الله عليه وسلم- فحسب وخاصة به عليه الصلاة والسلام ليست لغيره.

فلا يتبرك بذوات الصالحين قياساً على النبي، لأنه لا يصح، ونحن لا ننفي بذلك التبرك بالصالحين كله.

فهناك تبرك جائز بالصالحين ألا وهو التبرك بالعمل وذلك يكون بالاقتداء بهم في صلاحهم وتقواهم وورعهم وهداهم وعبادتهم والاستفادة من علمهم، فهذا هو المطلوب شرعاً وقد حض الشرع الكريم عليه كما قال ربنا –سبحانه وتعالى- في كتابه: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ"الآية"الممتحنة/٤".

وقال سبحانه: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ"الممتحنة / ٦٠.

وهكذا فالاقتداء بهم مستحب بنص القرآن الكريم وكذا بالسنة كما في قول النبي –صلى الله عليه وسلم-"اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر".[٢٥١]

وكذا في حديث العرباض بن سارية: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ".[٢٥٢]

وهناك أيضًا من التبرك الجائز بالصالحين مجالستهم ومصاحبتهم والانضواء في مجالس علمهم فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم كما في الحديث الذي أخرجه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِى قَالُوا يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ.

قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِى قَالَ فَيَقُولُونَ لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ. قَالَ فَيَقُولُ وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِى قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. قَالَ يَقُولُ فَمَا يَسْأَلُونِى قَالَ يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ قَالَ يَقُولُونَ مِنَ النَّارِ. قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لاَ وَاللَّهِ مَا

---

(٢٥١) أخرجه الترمذي ٣٦٦٢، وابن ماجة (٩٧) وصححه الألباني فيهما.

(٢٥٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤ / ١٢٦)، وصححه الألباني "الصحيحة" ٢ / ٦٤٨.

رَأَوْهَا. قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ فَيَقُولُ فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »(٢٥٣)

هذا -أيها الإخوة- هو التبرك وهذه أقسامه وأحكامه ولا شك أن القلوب تهتف الآن من أعماقها تقول: فإذا لم تكن هذه كلها أسباباً شرعية للبركة فما هي الأسباب الشرعية لنزول البركة؟ وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء:

- الأسباب الشرعية لنزول البركة:

أيها الإخوة إذا كنا عرفنا حكم التبرك المشروع منه والممنوع وعرفنا أن المشروع منه هو التبرك بذات النبي -صلى الله عليه وسلم- وآثاره وأفعاله وأستطيع الجزم بيقين أنه ليس بين أيدينا منه الآن شيء، وأما هذه الأشياء التي توجد في بعض المساجد مما يسمى شعر النبي أو ملابس النبي أو قدم النبي التي أثرت في الحجر والصخر كلها مخترعة لا يدل عليها دليل وقد كانت ولا تزال سبب فتنة عظيمة وغواية وضلال عن دين الكبير، المتعال وكذا عرفنا الممنوع من التبرك وهو التبرك بآثار الصالحين أو بذواتهم على السواء فهو حرام والسؤال فإذا كان الحال كذلك: هذا فعله متعذر لعدم وجوده وإمكانه، وهذا فعله متعذر لحرمته وامتناعه شرعاً، فمن أين نلتمس البركة؟ ومن أين نستنزلها؟ وكيف نجتلبها؟

والجواب بعد جلسة الاستراحة أسأل الله -تعالى- أن يباركنا وأن يبارك علينا.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! من أين نلتمس البركة؟ ومن أين نستنزلها؟ وكيف نجتلبها؟

إن الشرع المطهر لم يبق العباد خلوا فارغين عن ذلك بل بين لنا الله ورسوله أسباب اجتلاب البركة في الرزق وغيره ووسائل حصول البركة ونزولها وهذا بيان لبعض هذه الأسباب والوسائل التي أوضحها لنا الشرع.

أولاً: تقوى الله -عز وجل-: فهي مفتاح كل خير، قال -تعالى-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}الأعراف:٩٦، وقال -تعالى-: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

---

(٢٥٣) أخرجه البخاري ٦٤٠٨، ومسلم ٧٠١٥.

يَحْتَسِبُ}الطلاق:٢،٣، أي من جهة لا تخطر على باله. وعرف العلماء التقوى: بأن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله.

قيل لأحد الصالحين: إن الأسعار قد ارتفعت. قال: أنزلوها بالتقوى. وقد قيل: ما احتاج تقي قط. وقيل لرجل من الفقهاء:{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}الطلاق:٢،٣، فقال الفقيه: والله، إنه ليجعل لنا المخرج، وما بلغنا من التقوى ما هو أهله، وإنه ليرزقنا وما اتقيناه، وإنا لنرجو الثالثة:{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً}الطلاق:٥.

ثانياً: قراءة القرآن: فإنه كتاب مبارك وهو شفاء لأسقام القلوب ودواء لأمراض الأبدان: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}ص:٢٩ والأعمال الصالحة مجلبة للخير والبركة.

ثالثاً: الدعاء: فقد كان النبي يطلب البركة في أمور كثيرة، فقد علمنا أن ندعو للمتزوج فنقول:{بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير } [٢٥٤]، وكذلك الدعاء لمن أطعمنا:{اللهم بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم، وارحمهم}[٢٥٥]

رابعاً: عدم الشح والشره في أخذ المال: قال صلى الله عليه وسلم لحكيم بن حزام رضي الله عنه: {يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه،كالذي يأكل ولا يشبع}[٢٥٦]

خامساً: الصدق في المعاملة من بيع وشراء قال صلى الله عليه وسلم:{البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما}[٢٥٧]

سادساً: إنجاز الأعمال في أول النهار؛ التماساً لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، فقد دعا عليه الصلاة والسلام بالبركة في ذلك: فعن صخر الغامدي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:{اللهم بارك لأمتي في بكورها}[٢٥٨]قال بعض السلف: عجبت لمن يصلي الصبح بعد طلوع الشمس كيف يرزق؟! وانظر لحال هذا الصحابي راوي الحديث فقد كان رجلاً تاجراً وكان يبعث تجارته من أول النهار فأثرى وكثر ماله.

---

(٢٥٤) أخرجه أبو داود ٢١٣٠، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ١٨٦٦.

(٢٥٥) أخرجه مسلم برقم٢٠٤٢.

(٢٥٦) أخرجه البخاري ١٣٦١.

(٢٥٧) أخرجه البخاري برقم١٩٧٣

(٢٥٨) أخرجه أحمد (١٥٨٤١)، وأبو داود ٢٦٠٦، والترمذي ١٢١٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٣٠٠.

سابعاً: اتباع السنة في كل الأمور: فإنها لا تأتي إلا بخير. ومن الأحاديث في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:{البركة تنزل وسط الطعام فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه}(٢٥٩)

وأمر صلى الله عليه وسلم بلعق الأصابع والصحفة، وقال:{إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة}(٢٦٠)

ثامناً: حسن التوكل على الله –عز وجل-: قال –تعالى-:{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}الطلاق:٣وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -:{لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً}(٢٦١)

تاسعاً: استخارة المولى –عز وجل– في الأمور كلها، والتفويض والقبول له بعد ذلك فإن ما يختاره الله –عز وجل– لعبده خير مما يختاره العبد لنفسه في الدنيا والآخرة، وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم الاستخارة:{إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجله، وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني، ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال عاجله، وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به}(٢٦٢)

عاشراً: ترك سؤال الناس؛ قال صلى الله عليه وسلم:{من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله –تعالى– أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل}(٢٦٣)

الحادي عشر: الإنفاق والصدقة؛ فإنها مجلبة للرزق كما قال –تعالى-: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} سبأ:٣٩

وفي الحديث القدسي: قال الله –تبارك وتعالى-:{يا ابن آدم أنفق، أُنفق عليك}(٢٦٤)

الثاني عشر: البعد عن المال الحرام بشتى أشكاله وصوره: فإنه لا بركة فيه ولا بقاء والآيات في ذلك كثيرة منها قوله –تعالى-:{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}البقرة:٢٧٦، وغيرها كثير.

---

(٢٥٩) أخرجه الترمذي ١٨٠٥، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢١٢٣.

(٢٦٠) أخرجه مسلم ٢٠٣٤.

(٢٦١) أخرجه ابن ماجة٤١٦٤، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٣٣٥٩.

(٢٦٢) أخرجه البخاري ١١٠٩

(٢٦٣) أخرجه أحمد ٣٦٩٦ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢٦٤) أخرجه مسلم ٩٩٣.

الثالث عشر: الشكر والحمد لله على عطائه ونعمه؛ قال -تعالى-: {وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران:١٤٤، وقال -تعالى-: {لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} إبراهيم:٧.

الرابع عشر: أداء الصلاة المفروضة؛ قال -تعالى-: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} طه:١٣٢.

الخامس عشر: المداومة على الاستغفار؛ لقوله -تعالى-: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً} نوح١٠، ١٢.(٢٦٥)

وثمت أسباب للبركة كثيرة يعرفها من تتبعها في القرءان والسنة من الإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وعدم التبذير واتباع السنة في كل الأمور الواجبة والمستحبة اقتداء بالرسول —صلى الله عليه وسلم- محبة له واتباعاً لكل ما جاء عنه وذلك طلباً لحصول البركة من ذلك الاتباع في الدنيا والآخرة فإن هذا بحد ذاته يعد سبباً من أسباب استجلاب الخير والبركة في الدنيا والآخرة.

هذه -أيها الإخوة- الأسباب الشرعية التي قدمها الإسلام لاستجلاب البركة وهذه هي الأشياء التي جعل فيها البركة، فليس لكاذب على الله ورسوله يدعي زوراً وبهتاناً بعد هذا أن في شيء من الأشياء بركة في حين أن الشرع لم يجعل فيه ذلك، فليتق الله هؤلاء الكاذبون وليتق الله الذين يتبعونهم على كذبهم ذاك.

نسأل الله -تعالى- أن يبارك لنا ويبارك علينا ويجمعنا على ما فيه البركة لنا. اللهم بارك لنا فيما أعطيتنا واجعله عوناً لنا على طاعتك،........الدعاء.

(٢٦٥) البركة المفقودة — خطبة من موقع المنبر.

لعن الله من ذبح لغير الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أحزان قلبي لا تزول   حتى أبشر بالقبول

وأرى كتابي باليمين وتقر عيني بالرسول

أما بعد فيا أيها الإخوة إن نعم الله –تعالى– علينا لا تعد ولا تحصى، نعم قد نستطيع عد بعضها لكننا لن نستطيع أن نحصيها كلها وقد ذكرنا الله –تعالى– هذه الحقيقة وسجلها في القرآن الكريم فقال: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢)وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)(إبراهيم: الآيات ٣٢–٣٤) سبحان الله!وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها وتأمل ما ذكر من نعم الله في هذه الآية وما حف بها من المعاني

فقد عدد الله –سبحانه وتعالى– عشر نعم تدل على وحدانيته وقدرته وعلمه سبحانه دلالة ظاهرة واضحة، ثم أخبر أنه –عز وجل– أنعم بهذه النعم كلها على الإنسان لأجله هو، وأنه –تعالى– قد أعطى الناس جميع ما يحتاجون إليه في مصالحهم على حسب حكمته ومشيئته ولكن الناس إلا من رحم الله وعصم لا يقابلون نعمه سبحانه بما تستحقه من شكر لشدة ظلمهم وكثرة جحودهم ولذلك ختم الله –تعالى– الآيات بقوله: "إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ"أي شديد الظلم لنفسه غافل عن شكر نعم ربه بل جاحد لها ومنكر في بعض الأحيان.

والحقيقة –أيها الإخوة– أننا لو أردنا شكر نعم ربنا جميعها علينا فإننا لن نستطيع لكن الله –تعالى– يرضى منا بالقليل ويثيبنا عليه الأجر الجزيل، بل مجرد الاعتراف بالعجز عن الشكر شكر في نفسه روى البخاري في صحيحه من حديث أبي أمامة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان إذا رفع مائدته قال: (الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا)[٢٦٦]

(٢٦٦) أخرجه البخاري (٥٤٥٨).

ومعناه لك الحمد غير مكفي– أي لم يكفه غيرُه بل هو سبحانه يكفي غيرَه– ولا مودع أي متروك حمده، ولا مستغني عنه ربنا – أي هو الذي يحتاج إليه الخلق. (٢٦٧)

ومن أجمل ما اطلعت عليه ما ورد في الأثر أن داوود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله –تعالى–: "الآن شكرتني يا داود"، وفي خبر آخر: "إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكراً". (٢٦٨)أي حين اعترفت بأن التعمة من الله وأقررت بالتقصير عن أداء شكر المنعم سبحانه تكون بذلك قد شكرته، وقد كان التابعى الجليل طلق بن حبيب –رحمه الله– –تعالى– يقول: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وكان الشافعي يقول: الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها.

وصدق من قال:

لو كل جارحة مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حسن

لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن

فيارب نشكرك على آلائك ونحمدك على نعمائك ونقر لك بأننا قصرنا في حقك ولا نقدر على مكافأة نعمك إلا أن نعلن أننا تائبون عن معصيتك مقرون بذنوبنا في حقك، اللهم لك الحمد حمداً كثيراً يوافي نعمك ويكافيء مزيدك.

هذه حال المؤمنين مع نعم ربهم –سبحانه وتعالى–، أما المجرمون أما المشركون أما من لا يعرفون الله فإنهم لا يعترفون بنعمه ويجحدون استحقاقه سبحانه للشكر بل استحقاقه أن تنسب إليه النعم كما قال ربنا {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ }فصلت ٩ فهؤلاء ما عرفوا المنعم ولا نعمه شكروا، وبين هؤلاء وهؤلاء قوم مسلمون لكنهم بربهم يشركون – يعرفون نعم الله وأنها منه لكنهم يؤدونها إلى غيره، ويعرفون شكرها لكن لسواه، ومن هؤلاء الذين نراهم يذبحون الذبائح التي خلقها الله –عز وجل– ورباها وتفضل بها يذبحونها لغيره سبحانه من الأولياء والأضرحة والقبور والمشاهد وهذا هو موضوع حديثنا –أيها الإخوة– في هذا اللقاء: الذبح لغير الله –تعالى– وكما تعودنا سوف أنظم سلك هذا الموضوع في العناصر التالية:

أولاً: وجوب إخلاص العمل كله لله.

---

(٢٦٧) فتح الباري (١٥ / ٣٧٧).

(٢٦٨) إحياء علوم الدين (٣ / ١٨٥).

ثانياً: لعن الله من ذبح لغير الله.

ثالثاً: أحكام وتنبيهات.

فأعيروني القلوب والأسماع –أيها الإخوة– والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولاً: وجوب إخلاص العمل كله لله.

أحبتي في الله:

إن الله –تعالى– لا يرضى له شريكاً في عمل من الأعمال أبداً فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه، بذا أمر العباد وعرفهم قال –تعالى–: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ [البينة: ٥]"، وقال عز من قائل: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ [الزمر: ٢]

وبهذا علمنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أعرف الناس بما يرضي ربه وما يسخطه فأرشدنا إلى ذلك، عن أمير المؤمنين أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ الخطابِ – –رضي الله عنه– –، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –، يقُولُ: "إنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إلَيْه".(٢٦٩) فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه –سبحانه وتعالى–، فمن خالف هذا وقَدِمِ على الله بعمل قد أشرك فيه مع الله غيره فإن عمله حابط غير مقبول وهو مردود عليه كله لا يقبل الله منه شيئاً قال –عز وجل–: فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [الكهف: ١١٠]

بل خاطب الله الصفوة من أوليائه وخاصةَ أصفيائه المصطفى والأنبياء والمرسلين من قبله. فقال: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [الزمر: ٦٥، ٦٦]

وروى الترمذي بسند حسن من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يقول: "إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك".(٢٧٠)

---

(٢٦٩) أخرجه البخاري (١).

(٢٧٠) أخرجه الترمذي ٣١٥٤، وابن ماجه (٤٢٠٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣).

وروى ابن ماجه بسند صحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال الله -عز وجل-: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك".(٢٧١)

ومن هنا فلابد أن يكون العامل مخلصاً كل الإخلاص بعيداً عن الشرك كل البعد، ينبغي أن يكون هذا شأن كل مسلم، غير أننا نرى من إخواننا المسلمين من يُلقي بنفسه في أودية الشرك المهلكة بيده حين يذهب فيعمل عملاً هو عبادة لله خالصة لا يصح صرفها لغيره فيصرف هذا الأخ الطيب عبادته تلك لغير الله وذلك في صور شتى، من هذه الصور: صورة ذلك الرجل الذي حمل على سيارته خروفاً سميناً أو بقرة أو جاموسة مليحة وراح بها يذبحها عند قبر ولي الله فلان وفاءً بنذره الذي كان نذره أو شكراً على جميل يحمله في عنقه لصاحب المقام أو عادة لوالده المتوفى لا يريد هو أن يقطعها من بعد وفاته، وما علم هذا المسكين أنه قد أشرك بهذا مع الله -عز وجل-، ذلك لأن الذبح عبادة لا يصح صرفها لغير الله، بل ورد العقاب الشديد والوعيد الأكيد في حق من صرفها لغير العزيز الحميد جل وعلا.

فالذبح والنحر عبادة لله -تعالى- دلت على ذلك آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- بل وشهدت بذلك الفطرة السوية النقية التي لم تتلوث بالشرك وتعالوا بنا سريعاً نتعرف إلى ذلك تفصيلاً.

أما آيات الكتاب الكريم والقرآن العظيم فدلت على أن الذبح أو النحر عبادة لله -تعالى- في غير ما موضع، منها قوله -تعالى-: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٥]

قال الحافظ ابن كثير: يأمر الله -تعالى- نبيَّه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله -تعالى-: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)أي أخلص له صلاتك وذبيحتك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله -تعالى- بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال والقصد والنية والعزم على الإخلاص لله -تعالى- فيما هو فيه.

قال مجاهد: النسك: الذبح وعن سعيد بن جبير قال: وَنُسُكِي: وذبحي. (٢٧٢)

قال العلماء: وانتبهوا . أيها الإخوة -إن قوله -سبحانه وتعالى-: "قل إن صلاتي ونسكي"، وقوله"فصل لربك وانحر"، يشمل:

---

(٢٧١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٤).

(٢٧٢) تفسير ابن كثير - (٣ / ٣٨١)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، بتصرف.

أولاً: ما ذبح تقرباً إلى غير الله من الأولياء وأصحاب المشاهد وغيرها.

ثانياً: ما ذبح للحم وذكر عليه اسمُ غيرِ الله.

ثالثاً: ما قصد بذبحه تعظيم مخلوق ميت أو حي.

رابعاً: ما ذبح استنزالاً للبركة في مكان لم يحدده الشرع أو عند قبر.

خامساً: ما يذبح عند نزول البيوت خوفاً من الجن أن تصيبه أو طلباً لنفع أو دفع ضر من الجن كما يفعله السحرة.[٢٧٣]

فكل هذا شرك بالله -تعالى- كما دلت عليه هاتان الآيتان، لأنه ذبح لغير الله.

ودلت أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- على هذا الحكم كذلك.

فقد روى مسلم عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخْبِرْنَا بِشَىْءٍ أَسَرَّهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ ».[٢٧٤]

وفي الأثر الذي أخرجه أحمد وأبو نعيم عن سلمان الفارسي أنه قال: "دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب". قالوا: وكيف ذلك؟ قال: "مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله -عز وجل-، فضربوا عنقه، فدخل الجنة».[٢٧٥]

فهذا رجل قدم شيئاً حقيراً تافها لغير الله -تعالى- لكنه شرك والشرك عند الله عظيم فأحبط الله عمله وأدخله النار وبئس القرار، وأما من ثبت على توحيده وضحى في سبيله بحياته فكانت له الجنة، إن طريق التوحيد مليء بالعقبات والعراقيل امتحاناً واختباراً فمن انتكس فإنما ينتكس على نفسه ومن ثبت فإنما يغرس شجره بل حدائقه ويزهر ثمره بل ثماره فيطعمه بإذن الله شهيّاً في الجنة وإنما الدنيا صبر ساعة فإن جعلتها طاعة وصبرت انتهت وانقضت فتسعد وتكون في الجنة مع المصطفى -صلى الله عليه وسلم- خير رفيق

(٢٧٣) إعانة المستفيد (١ / ٣٠٤).

(٢٧٤) أخرجه مسلم ٥٢٤٠.

(٢٧٥) أخرجه أحمد في الزهد (٢٢) وأبو نعيم في « الحلية » ١ / ٢٠٣ موقوفا على سلمان.

(فحيهلا إن كنت ذا همة فقد... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا)

(وقل لمنادي حبهم ورضاهم... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا)

(ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا)

(ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا)

(وخذ منهم زاداً إليهم وسرعلى... طريق الهدى والحب تصبح واصلا)

(وأحي بذكراهم شراك إذا دنت... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا)

(وإما تخافن الكلال فقل لها... أمامك ورد الوصل فابغي المناهلا)

(وخذ قبساً من نورهم ثم سر به... فنورهم يهديك ليس المشاعلا)

(وحي على وادي الأراك فقل به... عساك تراهم ثَمَّ إن كنت قائلا)

(وإلا ففي نعمان عندي معرف الـ... أحبة فاطلبهم إذا كنت سائلا)

(وإلا ففي جمع بليلته فإن... تفت فمنى يا ويح من كان غافلا)

(وحي على جنات عدن فإنها... منازلك الأولى بها كنت نازلا)

(ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا... وقفت على الأطلال تبكي المنازلا)

(وحي على يوم المزيد بجنة الـ... خلود فجد بالنفس إن كنت باذلا)

(فدعها رسوماً دارسات فما بها... مقيل وجاوزها فليست منازلا)

(رسوماً عفت ينتابها الخلق كم بها... قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا)

(وخذ يمنة عنها على المنهج الذي... عليه سرى وفد الأحبة آهلا)

(وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة... فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا)

(فما هي إلا ساعة ثم تنقضي... ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا)(٢٧٦)

هذا هو التوحيد الذي يوصل إلى رضا العزيز الحميد وأما بذل الأعمال والعبادات لغير الله فإنها تعود وبالاً على صاحبها وخسراناً في الدنيا قبل الآخرة فلا هو ربح دنياه ولا ربح أخراه فيا لها من خسارة هي الخسران المبين.

والفطرة السوية النقية شاهدة ناطقة بأن الذبح عبادة تختص بخالق السموات والأرض ليست لأحد غيره على الإطلاق، فها هو رجل من الحنفاء عرف الله –تعالى– حين هدته فطرته السوية النقية وعقله وقلبه الطاهر الصافي إلى التوحيد، وذلك في بيئة مليئة بالشرك والوثنية إنه زيد بن عمرو بن نفيل الذي عاش ومات قبل أن يبعث النبي بالرسالة والذي بحث عن دين الله في الأرض كلها فلم يجده عند اليهود أو عند النصارى ولا في قومه المشركين فعاد أدراجه إلى الكعبة يشهد الله –تعالى– عندها قائلاً: اللهم إني أشهدك أني حنيفي علي دين إبراهيم الخليل، وفي طوافه بالكعبة كان يرى المشركين يأتون بالذبائح الشياه والأبقار والإبل ليذبحوها أمام الأصنام من دون الله يزعمون .كما نسمع بنفس العبارة من أصحاب القبور والأضرحة اليوم –أنها تقربهم من الله –تعالى– وتزلفهم إليه وترفع إليه حوائجهم– فيقول الرجل الذي ما تعلم قرآنا ولا سنة ولا اطلع على كتاب أو وحي وإنما فطرته السوية هي التي تنطق بالحق يقول وهو يصرخ فيهم: "يا أهل مكة! الشاة خلقها الله وأنزل لها الماء من السماء وأنبت لها العشب من الأرض، وأنتم تذبحونها لغيره"فكانوا يعرضون عنه ولا يسمعون لقوله فكان يرفع صوته جهيراً ويقول:

أربٌّ واحد أم ألف ربٍّ ... أدينُ إذا تقسمت الأمور

تركت الّلات والعُزّى جميعاً ... كذلك يفعل الرجل البصير

فلا العزى أدينُ ولا ابنَتَيْها ... ولا صَنَمَي بني عمرو أزور

ولكن أعبد الرحمنَ ربي ... ليغفر ذنبيَ الربُّ الغفور

وهكذا نطقت فطرته السوية بحرمة ما يصنعون من الذبح والنحر تقرباً لغير الله –تعالى– الذي خلق وربّى وكبّر وأطعم وسقى وغذى ونفع فماذا يقول من يذبحون مئات الشياه عند قبر ولي أو نبي تقرباً إليه وتزلفاً له من دون الله –تعالى–؟ وماذا نقول لهم نحن؟

إننا نقول ما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قولوا: "لا إله إلا الله تفلحوا"(٢٧٧) تلك الكلمة التي صدع بها النبي بين ظهراني المشركين يطالبهم بها ففهموا مراده من ذلك وهم عرب خلص يعرفون ما تحتها من المعاني وما وراءها من

(٢٧٦) من شعر ابن القيم طيب الله ثراه انظر: زاد المعاد (٣/٦٤)، ومدارج السالكين (٣/٨).

(٢٧٧) أخرجه أحمد (٤/٣٤١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٢: رجاله رجال الصحيح.

الواجبات وما تقتضيه من المقتضيات ومن ضمنها أن يتركوا تلك الأصنام وما يذبحون عندها فلهذا هاجوا وماجوا وأرعدوا وأزبدوا ودقوا طبول الحرب وأوعدوا ضانين على الله -تعالى- بحقه مدافعين عن الأصنام التي يذبحون لها آلاف النوق عن طيب خاطر ولم لا وهم الذين كانت تقوم فيهم الحرب فتستمر أربعين سنة لأجل ناقة واحدة فليحموا ويدافعوا ما يذبحون له آلاف النوق ولذلك لم يسلموا، هؤلاء الذين حاربهم النبي باللسان والسنان حتى رد بعضهم إلى التوحيد حين عقلوا ورد غيرهم على ظهورهم في النار حين أبوا إلا الكفران، فها نحن نعيد عليكم أيها القبوريون قولة النبي الخالدة: قولوا: "لا إله إلا الله تفلحوا" ومن ضمن ذلك أن تتركوا الذبح عند الأولياء.

ونحذر الذابحين عند القبور والمشاهد الوعيد الشديد الصارم الذي توعدهم إياه الله -تعالى- على لسان رسوله الكريم ففي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث على بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: حدثني رسول الله —صلى الله عليه وسلم- بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض"[٢٧٨]

"لعن الله من ذبح لغير الله"وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء، لعن الله من ذبح لغير الله . أيها الإخوة . هذا حكم الذي لا ينطق عن الهوى —صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام يقول: "لعن الله من ذبح لغير الله" وهل تدرون ما هو اللعن؟ اللعن معناه: الطرد من رحمة الله -تعالى- وهذا بذاته دليل كافٍ على خطورة الذبح لغير الله من الأصنام والأولياء والسادة وآل البيت على نحو ما كان الجاهليون يفعلون، وما يفعله الآن الجاهلون سواء كان المتقرب به كبيراً أو صغيراً عظيماً أو حقيراً.

أيها الإخوة! قال أهل العلم: إن الله -تعالى- قال: "فصل لربك وانحر"فأمر نبيه أن يصلي وينحر له حكماً له ولأمته، فكما أنه لو صلى أحد لغير الله كفر؛ فكذلك من نحر أو ذبح لغير الله أيضا يكفر، لأن النحر أو الذبح معطوف على الصلاة وحكم المعطوف حكم المعطوف عليه سواء بسواء.

قال العلامة السعدي -رحمه الله- تعالى: "نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح لله وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة، فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه.

قال: وإذا ثبت أن الذبح لله من أجلِّ العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام.

فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: (أن يصرف العبد نوعاً من أفراد العبادة لغير الله)..[٢٧٩]

---

(٢٧٨) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

(٢٧٩) القول السديد شرح كتاب التوحيد – (ص ٥٤).

فالذبح لغير الله -أيها الإخوة- إساءة في حق الله -عز وجل- وهي جريمة شديدة وشنيعة من فاعليها إن لم يتوبوا إلى ربهم ويرجعوا إليه كان مآلهم عنده يوم القيامة أسوأ المآل ومصيرهم بئس المصير، نعوذ بالله من الخذلان.

هذا -أيها الإخوة- هو حكم من ذبح لغير الله وفي الحديث كلمات غير واضحات نلقي عليها في عجالة بعض البيان حتى لا تبقى استفهاماً عند مستفهم:

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "لعن الله من لعن والديه" اللعن من البشر الإيذاء والسب والشتم فمن سب والديه أو تسبب في ذلك بأن سب أبا رجل فسب أبا الساب فيكون الابن بذلك قد سبهما، وهذا قد حكم عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- باللعن وهذا كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه قيل: وكيف يشتم الرجل والديه يا رسول الله؟ يتعجب الصحابة من رجل يشتم والديه ما يتصورون وقوع هذا أبداً وعندنا في هذه الأيام: من يشتم والديه ويضرب والديه بل ويقتل والديه!!! فرحماك ربي من هذا الكرب العظيم.

قالوا: يا رسول الله وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال: "يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه".[٢٨٠]

هذا ملعون من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودعا عليه الرسول أن يلعنه الله -تعالى- أيضاً.

ثم قال . صلى الله عليه وسلم .:

"لعن الله من آوى محدثًا": المحدث هو الذي فعل جرماً يستحق عليه الحد وإيواؤه يعني حمايته يحول بينه وبين إقامة الحد عليه إما بجاهه أو بسلطانه أو بشفاعته الجائرة الظالمة حتى يخلصه مما استحق عليه من العقاب.

وفي بعض الروايات بفتح الدال"لعن الله من آوى محدَثاً"والمحدَث معناه: البدعة، ومعنى آوى المحدَث أي: رضي به. فمن رضي بالبدعة، ولم يُنكرها وهو يقدر فقد آواها، يعني: من رأى البدع وسكت ولم يتكلم في إنكارها والبيان للناس أنها بدع، فقد آواها، يعني حماها بسكوته وتَرْكِه لها، فيكون مستوجباً للعنة، فكيف إذا دعا إليها ودافع عنها- والعياذ بالله-[٢٨١].

فمن رضي بالبدعة ملعون، فاحذر عبد الله أن تشفع في مجرم استحق عقاباً فتمنع بشفاعتك أن ينزل عليه العقاب فضلاً عن الذين يدافعون عنه ويحامون عنه فليحذروا غضب الله وسخطه، واحذر كذلك . عبد الله . من الرضا بالبدعة وحماية المبتدعة والزم طريق السنة وأحب أهلها، أسأل الله أن يجعلنا رفقة نبيه صاحب السنة في الجنة.

---

(٢٨٠) أخرجه البخارى ٥٩٧٣، ومسلم ٢٧٣.

(٢٨١) إعانة المستفيد (١ / ٣٠٦).

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "لعن الله من غير منار الأرض".

والمنار هي العلامات التي تجعل حدّاً فاصلاً بين الجيران أو التي ترشد الناس إلى طريقهم ومواصلاتهم، وأول ذلك علامات الحرم التي تدل عليه وتعرف الناس مناسكهم، فمن غير شيئاً من هذه العلامات والحدود وحولها عن مكانها فهو ملعون مطرود من رحمة الله –تعالى– فاحذر عبد الله من ذلك ولا تجورن على جارك.

فقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – من اقتطع شبراً من الأرض بغير حق طُوِّقَهُ من سبع أَرَضين يوم القيامة"(٢٨٢)، يا ألله يكلف أن ينقلها على ظهره يحمل ترابها ذرة ذرة فاحذروا عباد الله من هذا، احذروا الذبح لغير الله، احذروا التسبب في لعن الآباء، احذروا إيواء المحدثين والمحدثات، احذروا تغيير منار الأرض احذروا من هؤلاء الأربع.

والشاهد أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لعن هؤلاء الأربع جميعاً وبدأ بأخطرها فجعله في أولها لما أنه جرم كبير ومفسدة عظيمة على عقيدة المسلم ومصيره فحذر من جرمه أولاً فقال: لعن الله من ذبح لغير الله

ثالثاً: –أيها الإخوة– حتى لا أطيل على حضراتكم: أحكام وتنبيهات:

ونلتقي معها بعد جلسة الاستراحة أسأل الله أن يخلصنا له وألا يجعل في أعمالنا لغيره نصيباً.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

ثالثا: –أيها الإخوة– أحكام وتنبيهات:

وأول هذه الأحكام: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

أحبتي في الله إن بعض الذين يذبحون عند الأولياء والمشاهد من إذا قلت له: لا تذبح عند هذه المشاهد والمقابر والأضرحة فإن من ذبح لغير الله فقد أشرك يقول لك: ومن قال لك إني أذبح لغير الله إنما أذبح هناك لله وليس لهذا الولي والقبر والضريح وإنما أذبح هناك لله وحده، فإن قلت له: فما هناك وبيتك إلا سواء فاذبح في بيتك يقول لك: أنا أقصد المكان الذي يجتمع فيه أكبر عدد من المساكين والمحتاجين بصنوفهم فأذبح بهذا المكان لأعطيهم، وهذه حجة ربما تروج على

(٢٨٢) أخرجه البخارى ٢٤٥٢، ومسلم ٤٢٢٢.

بعض الناس ويصدق بها لكن الشرع نظر إلى هذا الأمر من بُعد، نظر إلى زوايا الأمر كله واحتاط لدين الناس بما يعلمه الله من حاضرهم ومستقبلهم ومما يخفى عليهم، فحرم الذبح بالمكان الذي قد يذبح فيه لغير الله ولو كان صاحبنا هذا الذابح يذبح لله.

كما قال الله -تعالى- لنبيه ينهاه عن الإقامة بمسجد الضرار الذي أقامه المنافقون لا تقم فيه أبدا فهل ذلك لأن النبي كان سيصلي فيه لغير الله؟ قطعاً لا، ولكن لأن ذلك يلبس على الناس دينهم، لأن الشيء أصلاً لغير الله فمنع الله نبيه من الصلاة فيه لأنه ذريعة إلى الشك والريبة: هل هذه مشاركة أو مؤازرة للمنافقين أم لا، فقطع جذور الشك ونهى عن الصلاة فيه، فكذلك نهى الشرع عن الذبح في المكان الذي يذبح فيه لغير الله -تعالى-، ولو كانت نية الذي يذبح أنه يذبح لله -تعالى- وهذا ما قاله نبينا المختار -صلى الله عليه وسلم- فيما روى أبو داود بسند صحيح من حديث ثابت بن الضحاك -رضي الله عنه- قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: فقال: "هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟"قالوا: لا قال: "فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟". قالوا: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم ».[٢٨٣]

فهذا رجل أراد أن يذبح لله فاستأذن النبي فسأله . وهو يعرف أنه موحد سيذبح لله . فسأله هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ هل كان فيها عيد من أعيادهم، يتثبت النبي . صلى الله عليه وسلم . أنه سيذبح في مكان لم يكونوا يذبحون فيها، فلما تيقن من أنه لا يوجد شيء من ذلك قال أوف بنذرك وهذا يدلنا . أيها الإخوة . على شيئين:

الأول: حرمة الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله.

الثاني: خطورة الذبح لغير الله وعظم جرمه فهذا ذبح لله ومع ذلك منع منه فما بالنا بالذبح لغير الله -تعالى-.

والخلاصة: لا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله.

ثانياً: من أحكام وتنبيهات: الأكل من الذبيحة على هذا الوجه حرام.

أيها الإخوة! لو ذبح إنسان ذبيحة شاة أو بقرة أو غيرها فذبحها تقرباً إلى الضريح أو ذبحها استجلاباً لبركته أو ذبحها خوفاً من الجن أو ذبحها تقرباً إليهم أو ذبحها لله في مكان يذبح فيه لغير الله فلا ينبغي أن يأكل المسلم منها أما في كل ما سبق فإنه حرام وأما الذي ذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله فلا يؤكل من ذبيحته تنفيراً للناس من عمله وردعاً له على جرمه والدليل على الأول ما قال الله -سبحانه وتعالى-: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ

---

(٢٨٣) أخرجه أحمد (٤١٩/٣)، وأبو داود ٣٣١٣، وصححه الألباني في المشكاة (٣٤٣٧).

ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [المائدة: ٣]".

وأكتفي بهذا حتى لا أطيل على حضراتكم وفي النهاية أهمس همسة رقيقة في أذن كل سامع وأذن المتكلم – بلا شك– أقرب أذن سامعة فأقول: يا حبيبي!"فكِّرْ في نِعَمِ اللهِ الجليلةِ وفي أعطياتِهِ الجزيلةِ، واشكُرْهُ على هذهِ النعمِ، واعلمْ أنكَ مغمورٌ بأعطياتِهِ. قال –سبحانه وتعالى–: "وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا".

وقال: "وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ". وقال سبحانه: "وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ". وقال سبحانه . وهو يقررُ العبدَ بنعمِهِ عليهِ .: "أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{٨} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{٩} وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ".

نِعَمٌ تَتْرَى: نعمةُ الحياةِ، ونعمةُ العافيةِ، ونعمةُ السمعِ، ونعمةُ البصرِ، واليدينِ والرجليْنِ، والماءِ والهواءِ، والغذاءِ، ومن أجلِّها نعمةُ الهدايةِ الربانيةِ: (الإسلاَمُ). يقولُ أحدُ الناسِ: أتريدُ بليون دولار في عينيك؟ أتريُد بليون دولارٍ في أذنيك؟ أتريدُ بليون دولار في رجليك؟ أتريدُ بليون دولارٍ في يديك؟ أتريدُ بليون دولارٍ في قلبك؟ كمْ من الأموالِ الطائلةِ عندك وما أديت شُكْرَها!!". (٢٨٤)

ففكر في نعم الله أخي واصرف شكرها إلى المنعم بها فإنه وحده معطيها، وهو وحده المستحق لشكرها، ولا تصرفن عبادة إلى غير ربك فإنه الضلال المبين ومن عرف بكم تقدر هذه النعم سبحان ربي بل النعمة من هذه النعم سبحان ربي بل الجزء من النعمة من هذه النعم من عرف بكم يقدر ما عصى الله بنعمه طرفة عين ومن لا يعرف فليلق القلب والسمع والبصر بين يدي هذا الحديث العظيم الجليل الذي رواه الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما: { خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ إنَّ لِلَّهِ –تعالى– عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ عَبَدَ اللَّهَ –عز وجل– خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةُ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبُعِ تَبِضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَيَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ الْوُضُوءَ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عَنْ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ، قَالَ: فَفَعَلَ فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ –تعالى– قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ فَيُجَرُّ إلَى النَّارِ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِك أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي مَنْ خَلَقَك وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ

(٢٨٤) لا تحزن.

أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ مَنْ قَوَّاك لِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ مَنْ أَنْزَلَك فِي جَبَلٍ وَسَطِ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَك الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنْ الْمَاءِ الْمِلْحِ وَأَخْرَجَ لَك كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ وَسَأَلْته أَنْ يَقْبِضَك سَاجِدًا فَفَعَلَ؟ فَيَقُولُ أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُك الْجَنَّةَ أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْت يَا عَبْدِي فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ إنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ }.(٢٨٥)، نسأل الله أن يبصرنا بقدره وأن يعرفنا بنعمه وأن يوفقنا لشكره، وأن يجزل لنا أجره، وأن يعصمنا من أن يكون في قلوبنا شيء من التأله لغيره.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، الدعاء.

(٢٨٥) أخرجه الخرائطي في" فضيلة الشكر" (١٣٣ – ١٣٤) و العقيلي في" الضعفاء" (١٦٥)، وتمام في" الفوائد" (٢/٢٦٥ – ١/٢٦٦) و ابن قدامة في "الفوائد" (١/٦/٢ – ٢) والحاكم ٧٧٤٥ ، قال ابن القيم شفاء العليل – (١ / ١١٤): والإسناد صحيح ومعناه صحيح لا ريب فيه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين » وتعقبه الذهبي فقال: "لم يصح هذا، و الله تعالى يقول: (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)، ولكن لا ينجي أحدا عمله من عذاب الله كما صح، بل أعمالنا الصالحة هي من فضل الله علينا ومن نعمه لا بحول منا ولا بقوة، فله الحمد على الحمد له "، وضعفه الألباني في الضعيفة ١١٨٣.

صناديق النذور بريئة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة! أثنى الله -تبارك وتعالى- على أهل الإيمان فقال: "يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا". [الإنسان: ٧] فمدحهم لأنهم وفوا بما نذروا يُعلمنا هذا أن الوفاء بالنذر من شيم المؤمنين وخصال الإيمان المتين، ويعلمنا كذلك أن النذر قربى من القربات وعبادة من العبادات التي يتعبد بها لله -تعالى- ولا ينبغي لما كان كذلك أن يصرف لغيره -عز وجل-.

لكن نفراً من المسلمين وليسوا بالقلة وإنما هم كثيرون صرفوا هذه العبادة لغير الله -تعالى- فمنهم من راح يبذلها رخيصة سهلة عند قبر أو ضريح أو مشهد سواء لصاحب الضريح أو سدنته وخدمه فحادوا بذلك عن سواء السبيل وفي هذا اللقاء -أيها الإخوة- نتحدث عن هذا الموضوع ونتناوله من جميع جوانبه حتى نحذَر ونُحذِّر مما فعلوا.

وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع في العناصر التالية:

أولاً: هل حقّاً النذر عبادة؟

ثانياً: حكم من نذر نذراً لغير الله.

ثالثاً: بعض الأحكام التي تتعلق بالنذر.

فأعيروني القلوب والأسماع أحبتي عسى الله أن يجعلنا ممن لقيه قد عمل عملاً صالحاً ولم يشرك بعبادة ربه أحداً.

أولاً هل النذر عبادة؟

-أيها الإخوة- نعرف جميعاً أن الصلاة والصوم والزكاة والحج عبادة،ونعرف كذلك أن الدعاء والذكر والاستغفار والتوبة عبادة، ونعرف أن التوكل والخشية والإنابة والرجاء والخوف عبادة، وذلك لأنه ثبت عندنا بالدليل من الشرع كتاباً وسنة المدح لفاعليها وإعظام ثوابهم عليها لكن هل النذر عبادة؟

والجواب: يجب أن نبحث عنه في القرآن الكريم والسنة المطهرة المشرفة حتى نعرفه فتعالوا بنا نطوف سويّاً في آيات القرآن الكريم التي ذكر فيها النذر وما يتصل به عسانا نعرف الجواب السديد والقول الرشيد.

فمن هذه الآيات التي تدلنا على ذلك قوله -تعالى- عن سيدة كريمة وزوج رجل صالح كريم وأم أنثى كريمة وجدة نبي كريم عليهم جميعاً السلام من العزيز الكريم، إنها امرأة عمران أم مريم وجدة عيسى ابن مريم وهؤلاء جميعاً هم آل عمران إنها حنة بنت فاقوذ التي قص الله علينا قصتها في القرآن الكريم في سورة سماها باسم هؤلاء الآل آل عمران فقال -تعالى-: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)[آل عمران/٣٣-٣٧]"

فهذه امرأة صالحة تعلم قدر النذر وعظمته وشأن التقرب به إلى الله -تعالى- فنذرت إن رزقها الله بذكر أن تجعله خادماً لبيت الله -تعالى- والمقصود بيت المقدس المسجد الأقصى نسأل الله أن يفك أسره ويرفع الأيادي النجسة عنه وأن يحرره من سطوة حفدة القردة والخنازير.

فلما رزقها الله أنثى جعلتها لبيت المقدس وكانت تتمنى أن يكون ذكراً ليفيد في الخدمة أكثر وأعظم.

وقولها: إني نذرت لك ما في بطني محرراً؛ محرراً: أي خالصاً لك لا يشغله شيء عنك فهذا الله يخبر عن امرأة صالحة تعرف أن الله -تعالى- يحب النذر ويحب من فعله فتقربت إليه بما يحبه وتلك هي العبادة.

فالعبادة هي: كل ما يحبه الله -تعالى- من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ولما ربى الله هذه الأنثى المباركة التي نذرتها أمها لخدمة بيت المقدس وصار لها شأن عظيم أراد الله -تعالى- أن تكون مصدر آية بل وأن تكون هي كذلك أية من آياته سبحانه فكانت هذه الأنثى هي مريم أم عيسى عليهما السلام كما نعرف جميعا من قصتها وفيها أنها لما خافت قومها وأرادت أن تدافع عن نفسها قال لها الملك يلقنها موقفها وتصرفها: "فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦).

ها هو النذر . مرة أخرى . يأتي ذكره على لسان صالحة من آل عمران فالنذرإذاً عبادة قديمة شرعها الله للتقرب إليه سبحانه.

ومن هذه الآيات التي تدلنا على أن النذر عبادة قوله -تعالى-: "وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار".

فالله –تعالى– يخبر بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، ولاحظ أخي الكريم هذا الارتباط في قوله –تعالى–: "وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر"فالصدقة والنذر كلاهما طاعة يتقرب بها العبد لله فكما أن الصدقة عبادة فالنذر عبادة وكلاهما يتزلف ويتقرب العباد به لربهم جل وعلا.

والله –تعالى– يخبر أنه يعلم بذلك ويجازي عليه الذين يعملونه، أما الذين يصرفونه لغير الله فيتوعدهم الله –تعالى– على ذلك بأن الله ينصر المؤمنين أما هم فما لهم من أنصار وهذا يدل على أن النذر كالصدقة طاعة، لأنه –تعالى– يجازي عليه، فهذه الآية أيضاً تبين لنا أن النذر عبادة يتقرب بها إلى الله كالصوم والصلاة.

ومن الآيات التي تدلنا على هذا المعنى.كذلك أيها الإخوة. قوله –عز وجل–: "وليوفوا نذورهم" وذلك أن الله –تعالى– أخبر أن من منافع الحج التي تعود على أهله والقائمين به منافع دنيوية ومنافع أخروية، أما منافع الآخرة فرضوان الله –تعالى– الذي يحصلونه بالطاعات التي يعملونها من الطواف بالبيت وذكر الله –تعالى– والهدى وغيرها من أعمال الحج ومن هذه العبادات الوفاء بالنذر الذي نذروه للبيت قال سبحانه: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)[الحج/٢٧-٢٩]"فأخبر الله أن الحج فرصة لوفاء الناذر لهدي أو ذبح أو غيره عند البيت أن يفي بنذره في هذا المكان المبارك وهذا لا يكون عليه من الله –تعالى– هذا الحث الشديد إلا إن كان عبادة من أجلّ العبادات.

ومن هذه الآيات التي تدلنا على أن النذر قربى وعبادة الآية التي قدمناها في صدر الخطبة وهي قوله –تعالى–: " يُوفُونَ بِالنَّذْرِ " فقد دلت على أن النذر طاعة وعبادة وقربى إلى رب العالمين –سبحانه وتعالى– يمدح أصحابها ويثني عليهم ويعدهم الجزاء الحسن، فقد وردت هذه الآية في سياق صفات الأبرار في سورة الإنسان قال –تعالى–: "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)[الإنسان: ٥، ٧]". وهذا بلا شك ثناء ومدح وتعظيم لهذه الصفة في ضمن مدحهم وثنائهم وتعظيمهم وهو يدل. بلا شك. على أنها قربى وعبادة يحبها الله –تعالى– ويرضاها.

قال الحافظ ابن حجر: يُؤْخَذ مِنْهُ أَنَّ الْوَفَاء بِهِ قُرْبَةٌ لِلثَّنَاءِ عَلَى فَاعِله، لَكِنَّ ذَلِكَ مَخْصُوص بِنَذْرِ الطَّاعَة، وَقَدْ أَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق مُجَاهِد فِي قَوْله –تعالى– (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)قَالَ: إِذَا نَذَرُوا فِي طَاعَة اللَّه، قَالَ الْقُرْطُبِيّ: النَّذْر مِنْ الْعُقُود الْمَأْمُور بِالْوَفَاءِ بِهَا الْمُثْنَى عَلَى فَاعِلهَا.[٢٨٦]

---

(٢٨٦) فتح الباري (١٩ / ٥٩).

قال قتادة: كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم فسماهم الله أبراراً.

هذا . أيها الإخوة . من القرآن الكريم، فإذا ما ذهبنا نطوف في أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– وجدناها هي الأخرى قد دلت على أن النذر طاعة وعبادة لله كذلك ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعْصِه ».(٢٨٧)

والحديث صريح في أن النذر طاعة وما كان طاعة فهو عبادة لله –تعالى– وفي الحديث الذي تقدم معنا في اللقاء السابق عن ثابت بن الضحاك –رضي الله عنه– قال:" نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: فقال: "هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟"قالوا: لا قال: "فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟". قالوا: لا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم ». (٢٨٨)

فأمره النبي أن يمضي ما نوى من الخير والطاعة لما لم يكن ثم مانع، والحديث أخرجه أبو داود وإسناده على شرط الصحيحين.

فإذا ثبت –أيها الإخوة– أن النذر عبادة من العبادات فإنه لا يصرف إلا لله –تعالى– وحده، ويحرم أن يصرف لغيره، وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء:

ثانياً: حكم من نذر لغير الله.

أيها الإخوة الكرام! ثبت لنا أن النذر عبادة وطاعة يتقرب بها العبد إلى ربه سبحانه وهذا بالطبع إذا كان النذر في طاعة وليس في معصية كما سمعنا في حديث عائشة: من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه" فمن نذر نذر طاعة فليوف به وليفعله ومن نذر نذر معصية فلا يعمل به ولا يأته ولا يفعله.

وبعض الناس يفهم خطأ أن النذر كله غير مرغوب فيه في الشرع المطهر فهماً منهم لبعض الأحاديث التي فيها أن النذر لا يأتي بخير وأنه إنما يستخرج به من البخيل

والتحقيق أن النذر نوعان: نذر مجازاة ونذر ابتداء فنذر المجازاة هو أن يقول الشخص شيئاً يلتزم فيه قربة من القربات في مقابل حدوث نعمة أو اندفاع نقمة، كما نسمع من بعض الناس يقول: إن نجح ابني فعلي لله كذا أذبح خروفًا، أتصدق بمائة جنيه وهكذا أو يقول: إن شفى الله مريضي تصدقت، أو إن عافاني الله من هذه المصيبة سأحج إلى بيته، أو فلله على أن أصوم كذا يوم، فهذا علق النذر على حصول شرط وهذا معنى المجازاة.

---

(٢٨٧) أخرجه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

(٢٨٨) أخرجه أبو داود (٣٣١٣)، وقال شيخ الإسلام في الاقتضاء (ص ٤٣٦): إسناده على شرط الصحيحين.

وهذا النذر مكروه غير مستحب وترجع كراهته لأمور منها:

أولاً: أنها طاعة مشروطة على الله -تعالى- وهذه سوء معاملة مع الله -جل وعلا-.

ثانياً: أن فيه سوء ظن بالله مع أنه الكريم المنان الذي يعطي بغير حساب.

ثالثاً: أن هذا حال البخيل الذي لا يوقع الطاعة إلا عند الحاجة والاضطرار ولذا روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا تنذروا، فإن النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل". (٢٨٩)

وفي مسلم من حديث ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ قَالَ: "النَّذْرُ لاَ يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلاَ يُؤَخِّرُهُ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ ». (٢٩٠)

وقال بعض أهل العلم: الدخول في النذر ابتداءً غير مرغّب فيه، والنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن النذر، قال: "لا تنذروا" وذلك لأن الإنسان في سَعَة في أمور الطاعة غير الواجبة، إن شاء فعلها وله أجر، وإن شاء تركها ولا حرج عليه، والله لا يجب لنا أن نكلف أنفسنا شيئاً لم يوجبه علينا: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، وإدخال الإنسان نفسه في نذر غير واجب عليه في الأصل، قد يعجز، وقد يشق عليه، وعلى هذا تُنزَّل الأدلة التي تمدح الذين يوفون بالنذر، قال -تعالى-: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧)} هذا مدح لهم، بعد أن ينذروا، ليس مدحاً للدخول في النذر، وإنما هو مدح للوفاء به بعد لزومه، فالإنسان إذا التزم شيئاً لله من الطاعة وجب عليه الوفاء، قال صلى الله عليه وسلم: "اقْضُوا اللَّهَ، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ »(٢٩١).
ونذر الطاعة دَين في ذمة المسلم؛ يجب عليه الوفاء به، ومن هنا مدحهم الله. (٢٩٢)

فإذا نذر إنسان هذا النذر وجب عليه الوفاء به كما قال عز من قائل: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم"، ولهذا استحب بعض العلماء أن يقدم الشخص الذي نذر نذر المجازاة يقدم النذر الذي نذره على نفسه قبل أن يحصل الشرط فيكون من باب الصدقة التي يتوسل بها إلى الله أن يقضي حاجته وهذه وسيلة شرعية مقبولة إن شاء الله يرضيه الله -تعالى- بها ولا يسوءه ويسوق محابه إليه هذا نذر المجازاة أو المشارطة وهو كما رأينا مكروه لكن يجب الوفاء به على من أوجبه على نفسه.

---

(٢٨٩) أخرجه البخاري ٦٦٠٨، ومسلم ٤٣٢٩، وانظر: عون العلي الحميد (١/ ٢٥٣).

(٢٩٠) أخرجه مسلم ٤٣٢٦.

(٢٩١) أخرجه البخاري ١٨٥٢.

(٢٩٢) إعانة المستفيد (١ / ٣٢٦).

وهناك النذر الذي يوجبه العبد على نفسه ابتداء من دون مشارطة أو مجازاة وهو ما يلتزمه الإنسان من غير تعليق على شرط فيقول: لله علي أن أصوم كذا أو أصلي كذا أو أتصدق بكذا وهذا مستحب وطاعة خالصة إن شاء الله من الكراهة ويجب الوفاء به فإن الله -تعالى- أمر بالوفاء بالنذر فيما نذر الإنسان من الطاعات والقربات ومدح الموفين به وهذا دليل على أن النذر والوفاء به عبادة من العبادات لأن الله لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم أو مكروه.

هذا حكم النذر عموماً إذا كان نذر طاعة فإذا كان نذر معصية سواء كانت شركاً أو غيره فلا يوفي بها ولا يأتيها كما قال -صلى الله عليه وسلم- ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه(٢٩٣) كمن نذر أن يذبح عند قبر ولي أو مشهد نبي أو عند عتبة ضريحه أو نذر أن يضيء القبر بالشموع وغير هذا من النذر الشركي.

وكمن نذر أن يشرب خمراً أو يفطر رمضان أو يصوم العيدين أو غير ذلك من نذور المعصية، فهذا لا يوفى بنذره بل ينصرف عنه، فنذر المعصية لا يجب الوفاء به ولا تستحب بل محرم الوفاء به مطلقا نسأل الله معافاته.

والشاهد -أيها الإخوة- من هذا التقسيم كله أن النذر عبادة لها أحكام في شرع الله -تعالى- فمن صرف هذه العبادة لغيره -عز وجل- فقد أشرك بالله جل في علاه.

فمن النذر ما هو شرك بالله -عز وجل- كأن ينذر لغير الله من الجن أو الأولياء الصالحين أو أصحاب المشاهد والقبور.

وهذا عبادة لغير الله -تعالى- فهو شرك وهذا واقع في هذه الأمة بكثرة من حين وجدت الأضرحة وبنيت على القبور وصار كثير من الناس يتجهون إليها، لأنهم قيل لهم:

إن هذه القبور فيها بركة وفيها نفع وفيها دفع ضرر وإنها محرمة فمن نذر للقبر الفلاني أو للشيخ الفلاني فإنه يحصل له مقصوده، إن كان مريضاً يشفى، وإن كانت امرأة تريد الحمل فإنها إذا نذرت للشيخ الفلاني تحمل، وإذا حصل بالناس تأخر مطر أو خير نذروا لهذه القبور نزل المطر إلى غير ذلك من المغريات التي قيلت للناس ألقاها إليهم الشيطان على ألسنة أوليائه المنتفعين من وراء ذلك وما أكثرهم.

وقد يفعل بعض الناس ذلك ويحصل الله لهم مقصودهم ابتلاء وامتحاناً منه -جل وعلا- أو قد يكون هذا قدره فصدف أن حصل فيظن الجهال أن الشيخ أو الولي هو الذي ساقه وهذا جهل بالله وقضائه وقدره -عز وجل-.

فالنذر -أيها الإخوة- النذر لغير الله شرك من وجوه:

---

(٢٩٣) أخرجه الأربعة وصححه الألباني انظر: الإرواء (٩٦٧)، صحيح الجامع (٦٥٦٥)، وفي السلسلة الصحيحة ٤٧٩: [النذر نذران: فما كان لله ؛ فكفارته الوفاء وما كان للشيطان ؛ فلا وفاء فيه وعليه كفارة يمين].

الوجه الأول: أن النذر بالطاعات عبادة لله -تعالى- مدح المؤمنين بها فصرفها لغير الله شرك.

الوجه الثاني: أن النذر لغير الله مبني على اعتقاد أن الضر والنفع في يد هذا المنذور له وليس في يد الله وأنه يعلم حال الناذر وأنه يتصرف في الأمور ويقضي الحاجات ويفك الكربات واعتقاد ذلك فيما سوى الله شرك أكبر فإنه لا يملك ذلك إلا هو -سبحانه وتعالى-.

الوجه الثالث: أن النذر لغير الله يدل بالضرورة على محبة ذلك الغير حبًّا جمًّا يساوي أو يزيد عن حب الله ولأجل هذا انصرف هذا الناذر بنذره عن الله واتجه إلى الذي له نذر من ولي أو جني وهذا شرك في المحبة مع الله.

الوجه الرابع: أن غالب الذين ينذرون لغير الله -تعالى- ينذرون للأموات وهل الميت يملك من أمر نفسه شيئًا فضلًا عن أن يملك نفع غيره أو ضره فيا عقل هذا العاقل الذي يطلب ممن لا يملك ولا يقدر بل ولا يستحق شيئا ويطلب إليه الحوائج والأشياء وهذا شرك أن نطلب من الأموات أو الأحياء ما لا يقدر عليه إلا الله وصدق ربي إذ يقول: "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ [يونس: ٣١]".

ويقول جل شأنه: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ [البقرة: ١٦٥]".[٢٩٤]

لهذه الأسباب جميعا -أيها الإخوة- كان النذر لغير الله -تعالى- شرك ينبغي الترفع والابتعاد والاجتناب له نسأل الله أن يقينا الشرك كله دقه وجله علانيته وسره ولابد وقد تحدثنا عن النذر أن نتناول سريعًا بعض الأحكام اللازم للعبد معرفتها عنه وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء: بعض الأحكام التي تتعلق بالنذر، ونلتقي معه بعد جلسة الاستراحة بمشيئة الله وأستغفر الله -تعالى- لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا -أيها الإخوة-! ثالثاً من عناصر اللقاء: بعض الأحكام التي تتعلق بالنذر، فمن هذه الأحكام:

---

(٢٩٤) "الشرك بالله أنواعه وأحكامه" لماجد شباله، ص ٥١٩ نقلاً من عون العلي الحميد (١/ ٢٥٥، ٢٥٦).بتصرف

أولاً: نذر العبادة بمكان معين: أيها الإخوة! من كان نذر لله -تعالى- عبادة في مكان معين فقال: لله على أن أصلي كذا وكذا في مكان كذا، أو على لله أن أصوم كذا أو كذا في مكان كذا. ينظر هل للمكان الذي نذر العبادة فيه مزية في الشرع تختص بما قاله كأن يكون قال: لله على أن أصلي بالمسجد الحرام أو المسجد الأقصى أو مسجد النبي —صلى الله عليه وسلم- فهذا مشروع ويتعين عليه ذلك، أما أن يكون مكاناً غير هذا فهذا تلزمه القربى وهي الصلاة والصوم فقط ولا يلزمه المكان، كأن قال: لله -تعالى- علي أن أصلي كذا وكذا في مسجد كذا يقصد مسجدًا غير المساجد الثلاثة هذا يلزمه أداء الصلاة ولكن في أي مكان، لأن المسجد الذي نذره لا يتعين في الشرع وليس له ميزة على غيره من المساجد.

ثانيًا: النذر لشيخ معين: ومن نذر لشيخ معين فإن كان حيّاً وقصد الناذر الصدقة عليه لفقره وحاجته أثناء حياته كان ذلك النذر صحيحاً وهذا من باب الإحسان الذي حبب فيه الإسلام. ولو كان هذا الشيخ ميتاً وقصد الناذر الاستغاثة به وطلب قضاء الحاجات منه فإن هذا نذر شرك لا يجوز الوفاء به.

ثالثاً: كفارة النذر: إذا حنث الناذر أو رجع عن نذره لزمته كفارة يمين بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ولا يبدأ بالصيام كما يفعله كثير من الناس إلا إن عجز عن العتق أوالإطعام أو الكسوة.

والدليل على ذلك ما روى الترمذي وغيره من حديث عقبة بن عامر أن النبي —صلى الله عليه وسلم- قال: "كفارة النذر كفارة يمين". [٢٩٥] وقد قال بعض العلماء هذا الحديث من النبي . صلى الله عليه وسلم . يشمل كل نذر حتى نذر المعصية وعليه فمن نذر معصية فيجب عليه الامتناع عن فعلها وأن يُكفر كفارة يمين.

رابعا: من مات وعليه نذر صيام: إذا نذر شخص صياماً ثم مات قبل أن يوفي به وجب على أوليائه أن يصوموا عنه ذلك النذر، وأولياؤه هم أقرب الناس إليه روى ابن ماجة أن امرأة سألت النبي —صلى الله عليه وسلم- فقالت: "إن أمي توفيت وعليها نذر صيام فتوفيت قبل أن تقضيه فقال ليصم عنها الولي".[٢٩٦]

وكذا من نذر حجًّا أو صدقة أو نحوهما يصح النيابة عن الغير فيها يجب على الأولياء أن يوفوا به.

أيها الإخوة! هذه بعض أحكام النذر ومن أراد المزيد فعليه بكتب الفقه فقد بينت فيها هذه الأحكام وغيرها تفصيلاً والذي بعثنا -أيها الإخوة- إلى ما ذكرنا هو تتميم الفائدة، وأخيراً أتوجه بالدعاء إلى الله أن يتوب على الذين فعلوا ما حذرنا الله منه من النذر و تقديمه للقبور أو للجن أو الشياطين أو حتى للأولياء والصالحين وأن يردهم إلى الحق ردّاً جميلًا.

---

(٢٩٥) أخرجه مسلم ٤٣٤٢.

(٢٩٦) أخرجه ابن ماجه ٢١٣٣، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٧٧).

فهذه النذور يجب أن يعلموا أنها باطلة، لا يجوز لناذرها الوفاء بها فإن وفى بها ونفذها صار مشركاً بالله الشرك الأكبر فيجب عليه أن يتوب توبة نصوحًا فيها الندم الشديد والعزم على عدم العودة الى ذلك وهذا في النذر الواحد فكيف بمن أفنى عمره بالنذور وضيع ماله بالنذور كلما أحس بشيء أو خاف من شيء أو رجا شيئاً راح ينذر للأولياء والصالحين؟

أنت على خطر عظيم يا عبد الله! على حافة هاوية يوشك أن تنجرف بك إلى الهاوية السحيقة فيكون مثواك النار وبئس القرار إن لم تتب إلى الله -تعالى- قبل موتك وترجع إليه قبل أن تلقاه، فالله يتقبلك، نعم يتقبلك فمهما عمل الإنسان من الشرك والكفر إذا تاب قبل الموت يتوب الله عليه قال الله -عز وجل-: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)[الزمر/٥٣]

وقال عز شأنه: "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)[الفرقان/٦٨-٧٢].

فلو أن هؤلاء القبوريين تابوا إلى الله لتاب الله عليهم: وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد قال: "ويتوب الله على من تاب".[٢٩٧]

نسأل الله العافية من الشرك، والسلامة من البدعة، والرفعة عن المعصية... الدعاء.

(٢٩٧) أخرجه البخاري ٦٤٣٦، ومسلم ٢٤٦٢.

استعيذوا بالله –تعالى– وحده

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة! العبادة هي كمال الحب مع تمام الذل وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وقد عرفنا أن كل ما هو عبادة لله لا ينبغي صرفها لغير الله فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله فقد أشرك.

ومن العبادات أيها الإخوة: الاستعاذة بالله –تعالى– فمن استعاذ بغير الله فقد أشرك وهذه عبادة يغفل عنها وعن قواعدها كثير من الناس،لذا تعالوا بنا نسلط الضوء عليها في هذا اللقاء، لنبين أهميتها وخطرها وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع في عناصر محددة:

أولاً: معنى الاستعاذة.

ثانياً: هل الاستعاذة عبادة؟

ثالثاً: حكم من استعاذ بغير الله.

رابعاً: عودوا إلى خير الهدي.

فأعيروني القلوب والأسماع . أيها الإخوة . والله أسأل أن يجعلنا ممن عمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً.

أولاً: ما معنى الاستعاذة؟

أيها الإخوة: الاستعاذة لغة هي طلب الالتجاء والامتناع بالغير مما يخشاه فقولك أعوذ بالله أي ألجأ إليه –جل وعلا–. [٢٩٨]

وشرعاً: هي الالتجاء والاعتصام بالله –عز وجل–؛ لأنه وحده هو ملاذ المستعيذ المجهود.[٢٩٩]

فما معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؟

---

(٢٩٨) لسان العرب – (٣ / ٤٩٨) لابن منظور، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (عَوَذَ)

(٢٩٩) عون العلي الحميد (١/٢٦٠)

قال الحافظ ابن كثير: معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يبعدني عن فعل ما أُمِرت به أو يحثني على فعل ما نُهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله – تعالى– ولهذا أمر الله –تعالى– بمصانعة شيطان الإنس ومداراته، بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل، لأنه شرير بطبعه ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه.

قال الله –تعالى–: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)، [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]

وقال –تعالى–: "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)" [المؤمنون: ٩٦ – ٩٨]

وقال –تعالى–: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)[فصلت/٣٤]

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموادة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال –تعالى–: يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)[الأعراف/٢٧] وقد أقسم للوالد أنه لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال: "فبعزتك لأغوينهم"[(٣٠٠)]

فالاستعاذة هي: الالتجاء إلى الله والاعتصام به –عز وجل– وحده، لأنه هو ملاذ المستعيذ وملجأ من التجأ إليه.

وإذا ذكرت العياذة وهي تكون فيما يخشى ويحذر، ذكرت اللّيَاذَةُ وتكون فيما يُطلب ويؤمل كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله	ومن أعوذ به فيما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره	ولا يهيضون عظماً أنت جابره

يقول: إذا كنت أطلب شيئاً لذت بك وإذا خشيت شيئاً عذت بك فأنت تجبر من شئت من الناس ولا يستطيعون كسره، وأنت تكسر من شئت منهم ولا يستطيعون جبره.

(٣٠٠) تفسير ابن كثير ١/ ٨٢، ٨٣.

ومن لطيف ما قرأت . أيها الإخوة . ما ذكره الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية في ترجمة المتنبي فقد أورد له هذين البيتين وقد قالهما في سيف الدولة الحمداني، قال ابن كثير: وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية –رحمه الله– أنه كان يُنكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله –سبحانه وتعالى– وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم –رحمه الله– أنه سمع الشيخ تقي الدين . يعني شيخ الإسلام ابن تيمية . يقول:

ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع(٣٠١)

فالملاذ يكون بالله، والمعاذ يكون بالله فهو مفرج الكرب حبيب القلب شديد القرب "اللهُ: هو الاسم الجليلُ العظيمُ، هو أعرفُ المعارفِ، فيه معنىً لطيفٌ، قيل: هو مِنْ أَلَهَ، وهو الذي تألهُهُ القلوبُ، وتحبُّه، وتسكنُ إليه، وترضى بهِ وتركنُ إليهِ، ولا يمكنُ للقلبِ أبداً أن يسكن أو يرتاح أو يطمئنَّ لغيرِهِ سبحانه، ولذلك علّم – صلى الله عليه وسلم – فاطمةَ ابنتهُ دعاء الكرْبِ: "اللهُ، اللهُ ربي لا أشركُ به شيئاً"(٣٠٢). "قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ،" وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ"، "اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ"،" وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ "،" يوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ "، " إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السموات وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا "(٣٠٣) أفرأيت هذه الآيات إنها تلقي جلال الله في القلوب حتى لا ترى سواه ولا تعرف إلاه ولا تستعيذ بمن عداه ولا تلوذ وتؤمل وترجوا خلاه.

هذا عن تعريف الاستعاذة . أيها الإخوة . وقبل أن ننتهي من هذا العنصر نذكر فائدة جميلة ذكرها ابن كثير في التفسير عن فوائد الاستعاذة قال –رحمه الله–:

"ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له وتهيؤ لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله –تعالى– واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة ولا يداري بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان قال –تعالى–: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً".

---

(٣٠١) البداية والنهاية (٢٥٩/١١).

(٣٠٢) انظر صحيح ابن ماجه ٢ / ٣٣٥ وصحيح الترمذي ٤ / ١٩٦، وصحيح الترغيب والترهيب (١٨٢٤)، وعن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع أهل بيته فيقول: "إذا أصاب أحدكم غم أو كرب فليقل: الله، الله ربي لا أشرك به شيئا"، وهو في الصحيحة – (٦ / ٢٥٤)، وقال: أخرجه ابن حبان في"صحيحه"(٢٣٦٩ – موارد) و الطبراني في"المعجم الأوسط" (٢ / ٢٢ / ٢ / ٥٤٢٣).

(٣٠٣) لا تحزن.



وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيداً ومن قتله العدو الباطني كان طريداً ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً ومن قهره العدو الباطني كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالله الذي يراه ولا يراه الشيطان"(٣٠٤)

ومن لطيف ما قرأت ما ذكره ابن الجوزي أن بعض الشيوخ المربين أراد أن يعرف تلميذاً له قدر عداوة الشيطان ويعلمه كيف يستعيذ ويحتمي منها ويدفعها فقال له الشيخ المربي: ماذا تفعل إذا مررت بغنم فنبحك كلبها؟ فقال التلميذ: أرميه بحجر، قال: فإن عاد ثانية؟ قال: أرميه بحجر قال الشيخ: فإن عاد؟ قال التلميذ: أرميه بحجر قال الشيخ: ذاك أمر يطول يا بني، قال: فماذا أصنع؟ قال: استعن برب الغنم يكف عنك كلبها، فيا أيها الحبيب: استعذ بالله يكفك شر الشيطان، لأنه لا حول لك ولا قوة على دفعه إلا بالله –عز وجل–.

بك أستجير ومن يجير سواك؟	فأجر ضعيفاً يحتمي بحماك
إني ضعيف أستعين على قوي	عجزي ومعصيتي ببعض قواك
أذنبت يا رب وقادتني ذنوب	ما لها من غافر إلاك
دنياي غرتني وعفوك شدني	ما حيلتي في هذه أو ذاك
لو أن قلبي لم يك مؤمناً	بكريم عفوك ما غوى وعصاك
يا منبت الأزهار عاطرة الشذى	هذا الشذى الفواح نفح شذاك
يا مجري الأنهار ما جريانها	إلا استجابة قطرة لِنداك
رباه قلب تائب ناجاك أترده وترد	صادق توبتي حاشاك تفعل ذلك حاشاك
رباه ها أنا قد خلصت من الهوى	واستقبل القلب الخلي هداك
فليرض عني الناس أو فليسخطوا	أنا لم أعد أسعى لغير رضاك

فهل الاستعاذة بهذه المعاني تكون عبادة أيها الإخوة؟

وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء: هل الاستعاذة عبادة؟

والجواب بحول وعون الملك الوهاب: إن الاستعاذة عبادة من أجلّ العبادات وأرفعها، ولم لا؟ وهي تتضمن ثقة القلب ويقينه وأمنه وطمأنينته إلى أن المستعاذ به هو المعيذ والمعين والناصر وصاحب القوة التي لا تقهر والقدرة التي لا تغلب.

والأدلة على هذا من القرآن الكريم والسنة المطهرة والطبع أكثر من أن تحصر.

---

(٣٠٤) تفسير ابن كثير (١/١١٤).

ذلك أن الله أمر في القرآن الكريم بالاستعاذة به -تعالى- دون غيره قال -تعالى-: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" [الفلق: ١]، وقال: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ". [الناس: ١]، وقال: "وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ". [المؤمنون: ٩٧]، وقال: "وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ". [الأعراف: ٢٠٠].

ففي هذه الآيات وغيرها من القرآن الكريم كثير بين الله -سبحانه وتعالى- أن الاستعاذة إنما تكون به وحده، وكذا ورد في السنة المطهرة ما يدل على امتثال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأمر الله هذا وإدراك النبي -صلى الله عليه وسلم- لأهمية الاستعاذة وارشاده لنا أن نتمسك بها يَبينُ ذلك وتظهر في كثير من الأحوال والمقامات التي كان النبي . صلى الله عليه وسلم يحافظ فيها على الاستعاذة.

فمنها في دعاء استفتاح الصلاة كما في السنن عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ويقول لا إله إلا الله"، ثلاثاً ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه".(٣٠٥)

وليس ذلك في صلاة الليل فحسب بل في كل صلاة كان يقول ذلك رسول الله، يستعيذ بالله، كما في حديث جبير بن مطعم قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين دخل في الصلاة قال: الله أكبر كبيراً ثلاثاً، الحمد لله كثيراً ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه".(٣٠٦)

وكان -صلى الله عليه وسلم- يختم صلاته بالاستعاذة من أربع كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم فيقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب جهنم ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال".(٣٠٧)

ومن هذه الأحوال التي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحافظ فيها على الاستعاذة: إذا نزل منزلاً ويرشد إلى ذلك فيقول كما في مسلم من حديث خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك".(٣٠٨)

---

(٣٠٥) أخرجه أبو داود (١/١٢٤)، والنسائي (١/١٤٣)، والترمذي (٢/٩ - ١٠)، والدارمي (١/٢٨٢)، وابن ماجه (١/٢٦٨)، وحسنه الألباني انظر: أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم - (١ / ٢٥٢).

(٣٠٦) أخرجه أبو داود (١/١٢٢)، وابن ماجه (١/٢٦٩)، والحاكم (١/٢٣٥)، وقال الألباني في أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم - (١ / ٢٧٣): مثله في الشواهد لا بأس به إن شاء الله تعالى.

(٣٠٧) أخرجه مسلم (٥٨٨)، عن أبي هريرة و (٥٩٠)، عن ابن عباس.

(٣٠٨) أخرجه مسلم (٧٠٥٣).

وفيه أيضاً عن أبي هريرة أنه قال: جاء رجل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة قال: أما لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرك".[٣٠٩]

ومن هذه الأحوال التي كان النبي يحافظ فيها على الاستعاذة في صباحه ومسائه وذلك في الأذكار في مواضع كثيرة فكان يقول كما روى الترمذي وأبو داود بسند حسن من حديث معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: خرجنا في ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يصلي لنا فأدركته فقال: قل فلم أقل شيئا ثم قال قل فلم أقل شيئًا قال قل فقلت: ما أقول؟ قال قل: قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء. [٣١٠]

وكان يقول: "أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله، وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شر ما في هذا اليوم وشر ما بعده رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر".[٣١١]

وكان يقول: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".[٣١٢]

وكان يقول: "اللهم عافني في بدني اللهم عافني في سمعي اللهم عافني في بصري لا إله إلا أنت، اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت".[٣١٣]

وغيرها من أذكار الصباح والمساء كثير وفيه يكثر النبي –صلى الله عليه وسلم– الاستعاذة بالله –تعالى– وحده.

ومن هذه الأحوال التي كان النبي . صلى الله عليه وسلم . فيها يحافظ على الاستعاذة:
الدعاء فقد كان يعلمهم أن يدعو كما روى البخاري من حديث أبي هريرة فيقول:
"تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء".(٣١٤)
ومن هذه الأحوال: الرقى التي كان يرقى بها نفسه وغيره . صلى الله عليه وسلم –

---

(٣٠٩) أخرجه مسلم (٧٠٥٥).
(٣١٠) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢)، والترمذي (٣٥٧٥)، وحسنه الألباني في التعليق الرغيب (١ / ٢٢٤).
(٣١١) أخرجه مسلم (٧٠٨٢).
(٣١٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).
(٣١٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وقال الألباني: حسن الإسناد.
(٣١٤) أخرجه البخاري (٦٣٤٧).

فكان يرقي بالمعوذتين، فعن علي قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة يصلي فوضع يده على الأرض فلدغته عقرب فناولها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنعله فقتلها فلما انصرف قال: "لعن الله العقرب ما تدع مصلياً ولا غيره أو نبيّاً وغيره" ثم دعا بملح وماء فجعله في إناء ثم جعل يصبه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها ويُعَوِّذها بالمعوذتين. (٣١٥)

وعن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، تقول الصديقة الفطنة اللبيبة الأريبة: فلما اشتد وجعه أي الذي مات فيه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها. [٣١٦]

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعوذ الحسن والحسين بكلمات الله التامات من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة[٣١٧] وكما أرشد الرجل الذي لدغ إلى أن يقول حين يمسي: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق[٣١٨] فلا يضره شيء،ومن جميل اليقين فى هذا الحديث ما اطلعت عليه أن الإمام القرطبي قال في تفسيره: "وهذه العَوْذَةُ جربتها فلم أصب بأي ضرر في أي منزل نزلته، سوى مرة نزلت منزلًا فنسيتها فلدغتني عقرب".

وروى مسلم من حديث عثمان بن أبي العاصي الثقفي أنه شكا إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله، ثلاثاً. وقل: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأُحاذر".[٣١٩]

ومن هذه الأحوال التي كان يحافظ النبي –صلى الله عليه وسلم– فيها على الاستعاذة: عند دخول المسجد:

كما في أبي داود وغيره بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقول إذا دخل المسجد: أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم"قال–صلى الله عليه وسلم–: فإذا قال –أى العبد– ذلك، قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم".[٣٢٠]

---

(٣١٥) أخرجه الطبراني في"المعجم الصغير"(ص ١١٧) و أبو نعيم في"أخبار أصبهان" (٢ / ٢٢٣) وأبو محمد الخلال في"فضائل قل هو الله أحد"(ق ٢٠٢ / ١) انظر: "السلسلة الصحيحة"٢ / ٨٠.

(٣١٦) أخرجه البخاري ٥٠١٦، ومسلم ٥٨٤٤.

(٣١٧) أخرجه البخاري (٣٣٧١)، واللامة: العين اللامة التى تصيب بسوء، والهَامَة: بتشديد الميم واحدة الهوام وهى الحيات وكل ذى سم يقتل سمه.

(٣١٨) أخرجه مسلم (٧٠٥٥).

(٣١٩) أخرجه مسلم (٥٨٦٧).

ومن هذه الأحوال: دعاء الخروج من البيت: روى أبو داود بسند صحيح من حديث أم سلمة قالت: ما خرج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل أو أزل أو أُزل أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل علي".(٣٢١)

إلى غير هذا من الأحوال التي كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يحافظ فيها على الاستعاذة وما استعاذ فيها جميعًا إلا بالله وحده ذلك أن الطبع بعد الشرع يدل على صحة ذلك التصرف وخطأ ما عداه.

لأن دفع الضرر ودفع الشرور لا يقدر عليه إلا الله –سبحانه وتعالى– وكل ما لا يقدر عليه إلا الله فإنه لا يطلب إلا منه جل في علاه.

ولهذا بين الله –تعالى– أن المشركين كانوا يستعيذون بغيره وأوضح لنا عظم جرمهم وقبح تصرفهم ذاك وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء: حكم من استعاذ بغير الله

أيها الإخوة إذا علمنا أن الاستعاذة عبادة لا يقدر عليها إلا الله ولا تُصرف إلا له –سبحانه وتعالى– كان صرفها والتوجه بها إلى غير الله شرك وقد قال الله –عز وجل– حاكياً عن حال المشركين في استعاذتهم بغير الله من الجن والشياطين قال سبحانه" وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)" [الجن: ٦] وقصة هذا أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لما خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله –عز وجل– فردوه ردّاً قبيحاً وأغروا عبيدهم وسفهاءهم يرجمونه بالحجارة عليه الصلاة والسلام رجع إلى مكة وقد خرج من مكة على حالة شديدة، مات عمه الذي كان يدافع عنه، وماتت زوجته خديجة التي كانت تؤانسه وكانت له نعم المعين على دعوته، ثم لما خرج إلى الطائف أصيب بهذا الرد القبيح، اشتدت به الحال –صلى الله عليه وسلم– جدّاً وبينما هو كذلك يسر الله له من الجن من استمع إلى القرآن وآمن به وذلك عند واد يقال له نخلة بين مكة والطائف قام –صلى الله عليه وسلم– يصلي الفجر ويقرأ القرآن واستمع له الجن فأعجبوا بالقرآن كما قص الله علينا في سورة الأحقاف وفي سورة الجن.

قال –تعالى–: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩)قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)".

---

(٣٢٠) أخرجه أبو داود (٤٦٦)، قال الألباني: وإسناده صحيح انظر: الثمر المستطاب (ص / ٦٠٣)

(٣٢١) أخرجه أبو داود (٤٩٤ ٥٠)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وانظر صحيح الترمذي ٣ / ١٥٢ وصحيح ابن ماجه ٢ / ٣٣٦.

وقال عز من قائل: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤)وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧)[الجن/١-٧]

وفي هذه الآيات –أيها الإخوة- : ينتقد هؤلاء المؤمنون من الجن بعض أفعال العباد التي تخالف التوحيد فمن ذلك أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا.

قال المفسرون عكرمة والسدى وغيرهما: كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم المكان الذي ينزلون فيه من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير، ينزل الرجل بأهله في المكان فينادي: إنا نعوذ بعظيم هذا الوادي أو بسيد أهل هذا الوادي من سفهائه، قالوا: وكانت الجن إذا رأتهم أقبلوا هربت فلما فعلوا ذلك وسمعوا كلامهم عرفوا أن الإنس يخافون منهم كما يخاف الجن من الإنس فرجعوا إليهم وزادوهم خوفًا وأصابوهم بالخبل والجنون وتعبدوهم بشتى العبادات منها الاستعاذة ومنها الاستعانة وربما الذبح وغيرها فزادوهم إثمًا وكفرًا وطغيانًا. (٣٢٢)

ومن عجيب وجميل ما اطلعت عليه في هذا الموضع ما ذكر الحافظ ابن كثير عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله —صلى الله عليه وسلم- بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملًا من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامرَ الوادي جارَك، فنادى منادٍ لا نراه يقول: يا سرحان أرسله، فأتى الحَمَل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة، وأنزل الله -تعالى- على رسوله بمكة" وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)، [الجن: ٦](٣٢٣)

قال الحافظ اللبيب الأريب ابن كثير: وقد يكون الذئب الذي أخذ الحمل، وهو ولد الشاة، كان جنيًّا حتى يرهب الإنسيّ ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله أعلم (٣٢٤)

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } أي: زاد الجن الإنس باستعاذتهم بسادتهم رهقا: إثمًا وطغيانًا وشرًّا وغشيانًا لمحارم الله -تعالى-.

---

(٣٢٢) تفسير ابن كثير (٨ / ٢٣٩).

(٣٢٣) نفسه (٨ / ٢٤٠).

(٣٢٤) نفسه (٨ / ٢٤٠).

ولذا حكى الله -تبارك وتعالى- عبادة هؤلاء الإنس للجن في القرآن الكريم كما قال -تعالى-: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)[سبأ/٤٠-٤٢]

قال العلماء: كانت عبادتهم للجن استعاذتهم بهم.

أقول -أيها الإخوة-: ولعل هذا هو السبب الرئيس في استكبار هؤلاء الجن وأمثالهم من الشياطين عن الإذعان والتسليم لرسول الله —صلى الله عليه وسلم- وإطاعته واتباعه لما جاء بدعوة الله ورسالته إلى أهل الأرض لأنه سلبهم الزعامة التي كانوا يتبوءونها، كما استكبر ابن أبي بن سلول زعيم المنافقين عن الإيمان، لأنه كان سيصبح ملكًا على المدينة قبل بعثة النبي —صلى الله عليه وسلم- وهجرته إليها فلما فات عليه هذا المنصب بهجرة النبي —صلى الله عليه وسلم- حمل العداوة للإسلام والمسلمين، أقول: وهذه حال المشركين من الجن والشياطين فمن أعجب ما قرأت في ذلك ما روي أنهم دبروا لمحاولة اغتيال النبي —صلى الله عليه وسلم- وقتله بطريقة بشعة شنعة للغاية فقد روى الطبراني في الأوسط وصحح الحديث العلامة الألباني في الصحيحة عن جعفر بن سليمان الضبعي قال حدثنا أبو التياح قال: قلت لعبد الرحمن بن خنبش التميمي وكان شيخًا كبيرًا: أدركت رسول الله —صلى الله عليه وسلم-؟ قال: نعم، قال: قلت: كيف صنع رسول الله —صلى الله عليه وسلم- ليلة كادته الشياطين؟ فقال: إن الشياطين تحدرت تلك الليلة على رسول الله —صلى الله عليه وسلم- من الأودية والشعاب وفيهم شيطان بيده شعلة من نار يريد أن يحرق بها وجه رسول الله —صلى الله عليه وسلم- فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! قل، قلت: وما أقول: قال: قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض وبرأ ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق، إلا طارق يطرق بخير يا رحمن، قال: فطفئت نارهم وهزمهم الله -تبارك وتعالى-. (٣٢٥)

وروى مسلم عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ». ثُمَّ قَالَ « أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ ». ثَلاَثًا. وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِى الصَّلاَةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ. قَالَ « إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِى وَجْهِى فَقُلْتُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ وَاللَّهِ لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ».(٣٢٦)

---

(٣٢٥) أخرجه الطبراني في"الأوسط"(٢ / ٣١ / ٥٥٤٧)، وهو في الصحيحة (٢٧٣٨).

(٣٢٦) أخرجه مسلم (١٢٣٩).

إلى هذا الحد -أيها الإخوة- كان الحقد والغل والحسد متأصلًا في قلوب الجن والشياطين تجاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم لا؟ وهو الذي عمل على هدم عروش كفرهم وعبادتهم في قلوب الإنس، ونفث في روعهم روح الإيمان فأخرجهم من العبادة والاستعاذة بالجان وعلمهم وعرفهم أن الاستعاذة لا تكون إلا بالرحيم الرحمن.

ولذلك بين السادة العلماء أن الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله لا تجوز بل هي شرك فقد ذكر العلماء أن الاستعاذة قسمان:

- استعاذة جائزة وهي الاستعاذة بالعبد الحي الحاضر فيما يقدر عليه.

- واستعاذة جائرة يتعدى صاحبها على حق الله وهي شرك وهي الاستعاذة التي لا يقدر عليها مخلوق بل هي من خصائص الله -تعالى- كدفع الضر وجلب الخير ونحو ذلك فمن استعاذ بغير الله -تعالى- من ولي أو نبي أو صالح أو صاحب ضريح أو قبر أو مشهد في شيء مما لا يقدر عليه إلا الله فقد كفر بالله -تعالى-.

ومن جميل ما قرأت عن سلفنا -ونعم السلف كانوا- ما ذكر القاضي عياض ترتيب المدارك وتقريب المسالك وهو يترجم للإمام الشافعي قال: قال الفضل بن الربيع: بعث إلي الرشيد في وقت لم يكن يبعث إلي فيه، فدخلت عليه في مجلس خاصته وبين يديه سيف وقد أزبد وجهه. فقال لي يا فضل أذهب إلى الحجازي محمد بن إدريس فأتني به، فإن لم تأتني به أنزلت بك ما أريد به، فأتيته وهو في مسجد بيته يصلي، فانتقل من صلاته، فقلت له: أجب أمير المؤمنين فقال: بسم الله وحرّك شفتيه ثم نهضت أمامه وهو يفنوني حتى أتيت القصر، وأنا أرجو أنه قد قام فإذا هو جالس. فقال ما فعل الرجل؟ قلت بالباب قال لعلك روعته قلت لا قال: أدخله.فلما دخل تزحزح له عن مجلسه وتهلل وجهه، وضحك إليه وصافحه وعانقه وقال له: يا أبا عبد الله لم يكن لنا عليك من الحق أن تأتينا إلا برسول، فاعتذر بعذر لطيف. فقال إن أمرنا لك بأربعة آلاف دينار وفي رواية بعشرة آلاف. فقال لا أقبلها. فقال: عزمت عليك لتأخذها. يا فضل، احملها معه. قال الفضل: فلما انصرف قلت: بالذي أنجاك منه وأبدل لك رضاه من سخطه، ما قلت في إقبالك إليه ودخولك عليه. قال نعم. قلت: شهد الله أنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم رب العرش العظيم. اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وعظمة طهارتك، وبركة جلالك، من كل آفة أو عاهة أو طارق، إلا طارقاً يطرق بخير يا أرحم الراحمين. اللهم أنت عياذي، فبك أعوذ وأنت ملاذي فبك ألوذ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة، وخضعت له مقاليد الفراعنة، أعوذ بكرمك من غضبك ومن نسيان ذكرك، ومن أن تخزني أو تكشف ستري، أنا في كنفك في ليلي ونهاري، وظعني وأسفاري ونومي وقراري.
فاجعل ثناءك دثاري وذكرك شعاري، لا إله غيرك، تنزيهاً لوجهك وتعظيماً لسحبات قدسك. أجرني من عقوبتك وسخطك، واضرب علي سراقات حفظك، وأعطني من خير ما أحاط به علمك. واصرف عني شر ما أحاط به علمك. وأمن روعاتي يوم القيامة يا راحم الراحمين. قال الفضل: فما دخلت على سلطان فدعوت بالدعاء إلا ضحك في وجهي وضمني وأكرمني.

هذا هو حكم الاستعاذة بغير الله –عز وجل– ويعرض لنا –أيها الإخوة– هنا سؤال لا يصح أن نتجاوز هذه النقطة إلا أن نجيب عنه ألا وهو:

ما حكم الالتجاء إلى المشركين والدخول في حمايتهم وهو نوع من الاستعاذة؟

وهذا سؤال مهم يدخل في صميم حديثنا بلا شك ونحن نتحدث عن الاحتماء والالتجاء والاستعاذة بالله –تعالى– وحده والجواب –أيها الإخوة– نتعرف إليه بعد جلسة الاستراحة أسأل الله لي ولكم المغفرة.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! ما هو حكم الالتجاء إلى المشركين والدخول في حمايتهم؟

والجواب –أيها الإخوة– فيه تفصيل:

فمن التجأ إلى المشركين يطلب الحماية عن اختيار وقصد يريد متابعتهم ومناصرتهم مفتتنًا بما هم عليه فهذه بلا شك ردة عن الإسلام وخروج عن دائرته الرحبة وهذه مهما كانت المبررات –الموالاة التي نهى الله عنها حيث قال: "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ"كما حدث ويحدث للأسف من كثير من المنتسبين الى الإسلام زورًا وبهتانًا الخارجين عليه بدعوى حرية الفكر وما هي إلا حرية الكفر فترى الواحد منهم يؤلف ويتكلم فى حقائق الدين ويقينياته الثابتة يزلزل الثوابت ويهدم الأصول ويحرك الرمال الناعمة فإذا علت الأصوات ضده ولم يستطع الإجابة عن تساؤلاتهم وهى تدينه لأنها على حق وهو على باطل ورأى نفسه وقع فى الحفرة التى حفرها ليدفن الإسلام فيها فإذا هو الذى سيدفن فيها خرج فارًّا هاربًا بكفره إلى إخوانه فى بلاد الغرب والشرق يلوذ بهم ويعوذ، ومن هؤلاء رشاد خليفة وأحمد منصور اللذان كانا أستاذين في جامعة الأزهر، ومنهم نصر حامد أبو زيد الذي كان أستاذًا بآداب القاهرة، ومنهم سلمان رشدي أو "مكسور غوي" الذي ليس له من اسمه أي نصيب صاحب كتاب "آيات شيطانية" والمأفون الآخر الذى ألف كتاب أو رواية "وليمة لأعشاب البحر" فهؤلاء بلا شك مرتدون، أما من التجأ إلى بلاد المشركين يحتمي بهم مكرهًا مضطرا لإيذاء وقع عليه في دار الإسلام من تهديد أو وعيد وقد وصل إلى حد الإكراه فعلًا ولم يجد ناصرًا من المسلمين، والأمن في بلاد المشركين له متحقق ويضمن دينه، فلا بأس وقتئذ من الالتجاء إليهم فهذا التجاء بالبدن لا بالقلب، ومثل هذا أن يكون المسلم في بلاد الكافرين ويخشى بعضهم فأيضًا يجوز له أن يحتمي في البعض الآخر.

" فعندما يكون المسلمون في حالة الضعف، في مرحلة الدعوة، وعندما يشتد عليهم أذى المشركين وتنزل بهم المحن والخطوب، فليس أمامهم إلا تحمل الآلام والمشقة، أو الدخول في جوار أحد من الناس، أو الهجرة إلى مكان آمن، وقد خرج جماعة من الصحابة فراراً بدينهم – ومن بينهم رجال من كبار الصحابة –، مصطحبين معهم النساء والأبناء، حيث قصدوا أرض الحبشة ونزلوا مطمئنين بجوار ملكها العادل – وذلك قبل أن يدخل النجاشي الإسلام –، ومن المشهور عن الصحابة أنهم لم يتنازلوا من أجل الحماية والأمان عن أي شيء من أمر دينهم، ولم يبدلوا من سلوكهم أو مواقفهم لقاء هذه الحماية، وكان الدخول بالجوار دون قيد أو شرط يحول بين المسلم ودينه، ولا يشترط في عقد الجوار أن يكون صريحاً من إيجاب وقبول، فقد يكون من طرف واحد يعلن حمايته لهذا الرجل، وذلك من أجل قرابة أو حباً في مواقف الشرف، وقد يكون الجوار على شكل بلاد مفتوحة أمام المهاجرين، بحيث يستطيع الإنسان أن يقيم فيها دون الالتزام بقيود في مجال الاعتقاد، وإنما يعتمد على قوانين تلك البلاد التي لا تتعرض للأحوال الشخصية للناس، كما هو الحال في بعض البلاد الأوربية وغيرها".

وهذا ظاهر من سنة النبي وسيرته –صلى الله عليه وسلم– فقد احتمى النبي بعمه أبي طالب من صناديد المشركين ولطالما وقف أبو طالب حائط سد وصد تتكسر عليه سيوف ورماح وسهام أهل الباطل دفاعًا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– [٣٢٧].

ودخل النبي يوم الطائف دخل مكة في جوار المطعم بن عدي. [٣٢٨]

ودخل في الجوار أيضًا أبو بكر دخل جوار ابن الدغنة لما أراد أن يخرج مهاجرًا قِبَل الحبشة والحديث أخرجه البخاري عَنْ عُقَيْلٍ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – زَوْجَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَتْ لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَىَّ إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ عَنْ يُونُسَ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – قَالَتْ لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَىَّ قَطُّ، إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – طَرَفَىِ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِىَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ – وَهْوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ – فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي. قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ. فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ، وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِى الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ

---

(٣٢٧) انظر مجلة البيان، العدد (٣٠) ص (١٥).

(٣٢٨) انظر زاد المعاد (١ / ٩٤).

وَقَالُوا لاِبْنِ الدَّغِنَةِ مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِى دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِى بَكْرٍ.

وهكذا جائز للمسلم أن يدخل في جوار المشرك وحمايته إذا لم يكن له من المسلمين ناصر ولم يكن ذلك على حساب شيء من دينه، أما إذا كان غير ذلك فلا. (٣٢٩)

كما في بقية هذه القصة قالت عائشة: فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِى دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلاَةِ وَلاَ الْقِرَاءَةِ فِى غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِى بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَبَرَزَ فَكَانَ يُصَلِّى فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً لاَ يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِى دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلاَةَ وَالْقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِى دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلاَّ أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِى بَكْرٍ الاِسْتِعْلاَنَ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ قَدْ عَلِمْتَ الَّذِى عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ إِلَىَّ ذِمَّتِى، فَإِنِّى لاَ أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّى أُخْفِرْتُ فِى رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنِّى أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ. (٣٣٠)

وهذه العزة من أبي بكر –رضي الله عنه– تذكر بعزة الصحابي الجليل عثمان بن مظعون –رضي الله عنه– فقد قال ابن إسحق يذكر مهاجرى الحبشة الأولين لما رجعوا ظانين أن أهل مكة أسلموا ولم تكن حقيقة فرجع بعضهم إلى الهجرة ودخل بعضهم في جوار وجهاء مشركين يقول: وكان ممن دخل منهم بجوار: [فيما سمى لنا] عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جوار خاله أبى طالب، فإن أمه برة بنت عبدالمطلب، فأما عثمان بن مظعون فإن صالح بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف حدثنى عمن حدثه عن عثمان قال: لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء وهو يروح ويغدو في أمان من الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوى، ورواحى في جوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كثير في نفسي! فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، قال: لم يا ابن أخى؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله عزوجل، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد على جواري علانية كما أجرتك علانية، قال: فانطلقا، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد بن المغيرة: هذا عثمان قد جاء يرد على جواري، قال: صدق، قد وجدته وفيًّا كريم الجوار، ولكني قد أحببت ألا أستجير بغير

---

(٣٢٩) انظر في تفصيل ذلك عون العلي الحميد (١/ ٢٦٣– ٢٦٨).

(٣٣٠) أخرجه البخاري ٢٢٩٧.

الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان رضى الله عنه، ولبيد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان فقال لبيد:

* ألا كل شئ ما خلا اللهَ باطلُ *

فقال عثمان: صدقت.

فقال لبيد: * وكل نعيم لا محالة زائل *

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟!

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله.

فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل ولطم عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية، ولقد كنت في ذمة منيعة.

فقال له عثمان: بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله! وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلم يا ابن أخى إلى جوارك فعد.

قال: لا.

فقال عثمان بن مظعون فيما أصيب من عينه:

فإن تك عيني في رضا الرب نالها... يدا ملحد في الدين ليس بمهتد

فقد عوض الرحمنُ منها ثوابه... ومن يُرْضِهِ الرحمنُ يا قومِ يسعدِ

فإني وإن قلتم غوى مضلل... سفيه على دين الرسول محمدِ

أريد بذاك الله والحق ديننا... على رغم من يبغي علينا ويعتدي

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام فيما أصيب من عين عثمان بن مظعون رضي الله عنهما:

أمن تذكر دهر غير مأمون... أصبحت مكتئباً تبكي كمحزون

أمن تذكر أقوام ذوي سفه... يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين

لا ينتهون عن الفحشاء ما سلموا... والغدر فيهم سبيل غير مأمون

ألا ترون– أقل الله خيرهم–... أنا غضبنا لعثمان بن مظعون

إذ يلطمون ولا يخشون مقلته... طعنًا دراكاً وضرباً غير مأفون

فسوف يجزيهم إن لم يمت عجلًا... كيلًا بكيل جزاء غير مغبون

فهذه من المآثر التي خلفها لنا أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

الخلاصة أنه يجوز للمسلم أن يدخل في جوار المشرك وحمايته إذا لم يكن له من المسلمين ناصر ولم يكن ذلك على حساب شيء من دينه، أما إذا كان غير ذلك فلا، ولا يتعارض ذلك مع حرمة الاستعاذة بغير الله فإنه إذا كان معنى الإجارة يلتقي مع الاستعاذة، في أن كلًا منهما يطلب خلاله الحماية والمنعة، فإن الاستعاذة لا تكون إلا بالله، بينما تكون الإجارة في الدنيا من الناس.

ومن علت همته فأبى إلا الصبر وعدم الدخول في جوار مشرك فالله له وهو ناصره ومؤيده، وله فيمن ذكرنا الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة.

هذا يا عباد الله دين ربنا وهذه شرعة نبينا ورسولنا –صلى الله عليه وسلم– فإن المسلم يطلب الجنة ومن طلب الغالي تكبد ثمنه غاليًا"ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة".[٣٣١]

وفي النهاية أهمس في أذنك: أي حبيبي في الله لا تستعن إلا بالله ولا تستغث إلا بالله، ولا تستعذ إلا بالله،"إذا نزلتْ بك النوازلُ، وأَلَمَّتْ بك الخطوبُ فالْهَجْ بذكرِهِ، واهتفْ باسمِهِ، واطلبْ مددهُ واسألْه فتْحهُ ونصْرَهُ، مرِّغِ الجبين لتقديسِ اسمِهِ، لتحصل على تاج الحريَّةِ، وأرغم الأنْف في طين عبوديتِهِ لتحوز وِسام النجاةِ، مدَّ يديْك، ارفع كفَّيْكَ،

(٣٣١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٣٧٧)، والحاكم (٤ / ٣٠٨)، وهو في الصحيحة ٩٥٤.

أطلقْ لسانك، أكثرْ من طلبِهِ، بالغْ في سؤالِهِ، ألحَّ عليه، الزمْ بابهُ، انتظرْ لُطْفُه، ترقبْ فتْحهُ، أشْدُ باسِمِهِ، أحسنْ ظنَّك فيه، انقطعْ إليه، تبتَّلْ إليه تبتيلاً حتى تسعد وتُفْلِحَ".(٣٣٢)

فاستعذ أُخَيَّ بالله –تعالى– وحده فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه واعتبر بهذه القصة التي يذكرها الحافظ ابن عساكر في كتابه العظيم الجليل: تاريخ دمشق يقول: كان بدمشق رجل له بغل يكريه من دمشق إلى تل يسمى الزبداني ويحمل عليه الناس، فذكر أنه أكرى بغله مرة رجل يحمل عليه متاعًا له بأجرة معلومة فلما صار خارج الدرب لقيه رجل وسأله أن يحمله على رأس الحمل ويأخذ منه أجرته قال فرغبت في الكراء وحمله فوق الحمل ولزمت المحجة قال: فلما صرنا ببعض الطريق قال لي هل لك أن تأخذ بنا هذا الطريق فإنه مختصر ويجئ عند مفرق طريقين قال: فقلت له: أنا لا أخبر هذا الطريق ولا أعرفه فقال: أنا أعرفه وقد سلكته مرارا كثيرة قال: فأخذت في ذلك الطريق فأشرفت على موضع وعر وحش، وواد عظيم هائل واستوحشت وجعلت أنظر يمنة ويسرة ولا أرى أحدًا ولا أرى أي إنسان فبينا أنا كذلك إذا به يقول لي: امسك برأس البغل حتى أنزل فقلت له أيش تنزل وقد أشرفت في هذا الموضع مر بنا نلحق البلد بوقت فقال: خذ ويلك برأس البغل حتى أنزل وقد أشرفت على واد عظيم يخايل لي أن فيه أقوامًا موتى فأمسكت برأس البغل حتى نزل ثم شد على نفسه ثيابه وأخرج سكينًا عظيمًا من وسطه وقصدني به ليقتلني فعدوت من بين يديه وأنا أقول: يا هذا خذ البغل وما عليه فقال هذا هو لي وإنما أريد أن أقتلك، فخوفته بالله –عز وجل– وتضرعت إليه وبكيت وحذرته من عقوبة تلحقه فأبى وقال: ليس بد من قتلك فاستسلمت في يده وقلت دعني أصلي ركعتين ثم افعل ما بدا لك، فقال: افعل ولا تطول فابتدأت بالتكبير وأرتج علي القراءة حتى لم أذكر من القرآن حرفًا واحدًا وأنا واقف متحير وهو جالس بحذائي يقول: هيه أفرغ فأجرى الله على لساني بعد وقت فقرأت"أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء"فإذا أنا بفارس قد أقبل من نحو الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده وخر صريعًا فتعلقت بالفارس وهو منصرف وقلت له بالله من أنت الذي من الله بحياتي بظهورك فقال: أنا رسول"من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء"قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت إلى دمشق سالما. (٣٣٣)

فسبحان من لا يسلم أولياءه لأعدائه أبدًا حين يعلم منهم أن قلوبهم ونفوسهم وآمالهم معه به يلوذون وبه يعوذون.

فاسلكوا –أيها الإخوة– الصراط المستقيم طريق رب العالمين وسنة سيد المرسلين وكونوا على خير الهدي وهو هدي محمد بن عبد الله –صلى الله عليه وسلم– وهذا يستلزم منك تعلم الطريق والتعرف عليه فالزم العلماء وكن معهم وإن يتيسر لك فلا تخط على الطريق خطوة إلا بعد مشاورتهم واسترشادهم،أسأل الله لي ولكم النجاة والنجاح، اللهم أعذنا من شر أنفسنا وأعذنا من شر خلقك.

---

(٣٣٢) لا تحزن.

(٣٣٣) تاريخ دمشق – (٦٨ / ٢٥٢).

اللهم إنا نعوذ بك من درك الشقاء وسوء القضاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء، اللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء، اللهم إنا نعوذ بك منك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك عظم جاهك وجل وعلا سلطانك ولا إله غيرك أعذنا بفضلك من النار ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال........ الدعاء.

الاستغاثة والدعاء حق رب الأرض والسماء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

هو الله باري الخلق والخلق كلهم... إماء له طوعًا جميعًا وأعبد

أما بعد فيا أيها الإخوة!

ما أحوج أمتنا الآن أمام الأزمات المتتالية في كافة النواحي أن تقترب بمجموعها وأفرادها من الله -تعالى- وأن تطرق بابه وأن تلزم جواره حتى يفك الله كربها ويفرج همها ويقضي حوائجها، ومن وسائل القرب من الله -تعالى- والدنو منه:

الاستغاثة والدعاء:

فتعالوا بنا أيها الإخوة نتعرف سويًّا في هذا اللقاء إلى هذا الباب الجليل الخطير من أبواب التعرف إلى الله تعالى، وكما تعودنا فسوف نسلك الموضوع في العناصر التالية:

أولًا: شرف الاستغاثة والدعاء.

ثانيًا: دعاء غير الله شرك.

ثالثًا وأخيرًا: فأين الدعاء في حياتنا؟

فأعيروني قلوبكم وأسماعكم -أيها الإخوة- أسأل الله أن يقربنا منه وأن يرفع درجاتنا.

أولًا: شرف الاستغاثة الدعاء:

أحبتي في الله! قال الله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)" [البقرة: ١٨٦]، فيا له من شرف عال أن يقرب الله -عز وجل- من عباده الداعين هذا القرب الخاص ويعلنهم ان لا واسطة بينه وبينهم فما عليك أيها الحبيب إلا أن ترفع أكف الضراعة إليه وأن تطرح قلبك بذل وانكسار بين يديه وأن تبثه شكواك وهمومك ونجواك حتى تجده أقرب إليك من نفسك التى بين جنبيك، هذا شرف أي شرف، ولذلك -أيها الإخوة- ما من آية في القرآن الكريم كله سئل فيها حبيبنا المصطفى -صلى الله عليه وسلم- إلا وكان الرد من الله -عز وجل- حين الجواب عنها بلفظ"قل":

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)" [البقرة: ١٨٩].

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)" [البقرة: ٢١٧].

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)"[البقرة: ٢١٩].

" يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)" [البقرة: ٢١٥].

" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

إلى آخر أسئلة المؤمنين والكافرين للنبي –صلى الله عليه وسلم– التي أجاب عنها القرآن الكريم بلفظ"قل"،إلا آية الدعاء فقال الله فيها: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)" [البقرة: ١٨٦]، ولم يقل: فقل إني قريب، حتى يرفع كل الظنون في أن يكون بين الله وبين الداعي أي واسطة من أي نوع كانت فلا ولي ولا نبي فقد نفى واسطة سيد الدعاة وإمام الأنبياء وعظيم البشرية فكيف بغيره.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح من حديث النعمان بن بشير أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "الدعاء هو العبادة"[٣٣٤]فانظر كيف جعل النبي–صلى الله عليه وسلم– العبادة كلها هي الدعاء وهذا بلا شك شرف للدعاء عظيم.

وفي الحديث الذي أخرجه أحمد بسند صحيح من حديث سلمان الفارسي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين".[٣٣٥]

---

(٣٣٤) أخرجه أبو داود ٢ / ٧٨، والترمذي ٥ / ٢١١، وابن ماجه ٢ / ١٢٥٨، وانظر صحيح الجامع الصغير ٣ / ١٥٠، وصحيح ابن ماجه ٢ / ٣٢٤.

وفي الحديث الذي أخرجه احمد وحسنه العلامة أحمد شاكر –رحمه الله– من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها"قالوا:يارسول الله إذاً نكثر. قال: "الله أكثر".(٣٣٦)

فالدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، وهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه،ويمنع نزوله،ويرفعه، أو يخففه إذا نزل،وهو سلاح المؤمن، وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

١– أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه.

٢– أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن يخففه وإن كان ضعيفاً.

٣– أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه(٣٣٧)

– وفى الحديث الذى رواه الحاكم وحسنه الالبانى من حديث عائشة ان النبى –صلى الله عليه وسلم–قال: "لا يغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيتلقاه فيعتلجان –أى يتصارعان– إلى يوم القيامة".

ووالله إنها لكرامة وشرف لا يتحصل العبد عليه فيما سوى هذه العبادة، عبادة الدعاء فقال:

" وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ". ولذلك من ترك الدعاء بعدما دعاه الله إليه غضب الله –عز وجل– عليه، لأن ترك الدعاء يدل على الاستنكاف والاستكبار من الدعاء والتذلل بين يدي رب العالمين ولذلك قال الله –عز وجل– بعدها: "إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين".

وفي الحديث الذي أخرجه أحمد بسند حسن من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: من لم يسأل الله يغضب عليه".(٣٣٨)

---

(٣٣٥) أخرجه أبو داود ٧٨/٢ ١٤٨٨، والترمذي ٥٥٧/٥، وابن ماجه ١٢٧١/٢، والبغوي في شرح السنة ١٨٥/٥، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٧٩/٣ وصحيح ابن ماجه ٣٨٦٥. وصفرًا أي: خاوية.

(٣٣٦) أخرجه أحمد (١٨/٣)، وحسنه العلامة أحمد شاكر رحمه الله.

(٣٣٧) الجواب الكافي (ص٢٢، ٢٣، ٢٤) نقلًا من "شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة – (ص١٠)، لسعيد بن علي بن وهف القحطاني.

(٣٣٨) أخرجه أحمد في المسند ١٨/٣، وهو في الترمذي عن جابر بن عبد الله ٣٣٨١، وعن عبادة بن الصامت ٣٥٧٣، وحسنهما الألباني في صحيح الترمذي ١٤٠/٣، ١٨١.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس شيءٌ أكرَمَ على الله تعالى من الدعاء"(٣٣٩)

سبحان ربي تسأل الرجل وربما تسأل أخاك ابن أمك وأبيك فيغضب ويمنعك وإن أعطاك يعطيك وهو متذمر، أما الجواد الكريم –عز وجل– فإنه –سبحانه وتعالى– يغضب على من لم يسأله ويطلب منه لأنه كريم يجود ويغدق كرمه على سائليه ومحتاجيه.

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

فهذا من شرف الدعاء وقرب الداعي من الله –عز وجل– ويا له من شرف للداعي عظيم وأختم بحديث غاية في الروعة والجمال إنه الحديث العظيم الجليل العذب الجميل الذي أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري قال: لما غزا رسول الله —صلى الله عليه وسلم– خيبر أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله —صلى الله عليه وسلم–: "أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم"، وأنا خلف دابة رسول الله —صلى الله عليه وسلم– فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله فقال لي: "يا عبد الله بن قيس": قلت: لبيك رسول الله، قال: "ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟" قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله". (٣٤٠)

ومن الدعاء –أيها الإخوة– : الاستغاثة وهي دعاء حال الكرب والهم فيدعو الداعي ربه أن ينصره ويفرج كربه ويزيل همه فيسمى العبد: المستغيث، ولذلك فمن أسمائه –عز وجل– المغيث يعني المجيب الذي يجيب عباده ويدركهم في الشدائد إذا دعوه ومخلصهم إذا لجأوا إليه، فما أخلص عبد له الدعاء في كرب قط إلا أزاله ولا في هم إلا فرجه:

ومن جميل ما قرأت فى هذا ما ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين في الدعاء عن الحسن البصري –رحمه الله–، قال: كان رجل من أصحاب النبي —صلى الله عليه وسلم– من الأنصار يكنى أبا مغلق وكان تاجرًا يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق وكان ناسكًا ورعًا فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك قال: فما تريد إلا دمي فشأنك والمال قال: أما المال فلي ولست أريد إلا دمك قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صل ما بدا لك، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة قال: "يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما تريد! أسألك بعزك الذي لا يرام وبملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص،يا مغيث

---

(٣٣٩) أخرجه الترمذي ٥/٤٥٦، ٣٣٧٣، وابن ماجه ٢/١٢٥٨، وأحمد ٢/٤٤٢، وحسن إسناده الألباني في صحيح الترمذي ٣/١٣٨.

(٣٤٠) أخرجه البخاري (٤٢٠٥).

أغثني يا مغيث أغثني يا مغيث أغثني،ثلاث مرات، فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه، فقال: قم، فقال: من أنت بأبي أنت وأمي،فقد أغاثني الله بك اليوم؟ فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب فسألت الله أن يوليني قتل هذا اللص.

قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبًا كان أو غير مكروب. [٣٤١]

وذكر بُزر جمهرُ حكيمُ فارس: أنَّ عجوزاً فارسيةً كان عندها دجاجٌ في كوخٍ مجاورٍ لقصرِ كسرى الحاكمِ، فسافرتْ إلى قريةٍ أخرى، فقالتْ: يا ربِّ أستودعُك الدجاج. فلمَّا غابتْ، عدا كسرى على كوخِها ليوسع قصْره وبستانهُ، فذبح جنودُه الدجاج، وهدمُوا الكوخ، فعادتِ العجوزُ فالتفتتْ إلى السماءِ وقالتْ: يا ربّ، غبتُ أنا فأين أنت! فأنصفها اللهُ وانتقم لها، فعدا ابنُ كسرى على أبيه بالسكينِ فَقَتَلهُ على فراشِهِ." أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ "[٣٤٢]

ألم أقل لحضراتكم إن الله تعالى هو المغيث المجيب فهو الذي إن سئل أعطى وإن دعي أجاب وإن ذكر عند خوف أمنه وعند كرب أزاله وعند هم كشفه وعند ضيق وسعه.

الله هو الاسم الذي ما تعلق به فقير إلا أغناه، وما تعلق به ضعيف إلا قواه، وما تعلق به مكروب إلا كشف بلواه، وما تعلق به مريض إلا شفاه وعافاه.

الله هو الاسم الذي تستنزل به البركات... وتستمطر به الرحمات... وتجاب به الدعوات وتقال به العثرات.

الله هو الاسم الذي به ولأجله قامت الأرض والسموات.

الله، هو المحمود والمدعو والمرجو والمعبود

" يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ": إذا اضطرب البحرُ، وهاج الموجُ، وهبَّتِ الريحُ، نادى أصحابُ السفينةِ: يا الله.

إذا ضلَّ الحادي في الصحراءِ ومال الركبُ عن الطريقِ، وحارتِ القافلةُ في السيرِ، نادوا: يا الله.

إذا وقعت المصيبةُ، وحلّتِ النكبةُ وجثمتِ الكارثةُ، نادى المصابُ المنكوبُ: يا الله.

---

(٣٤١) الجواب الكافي - (ص ٧).

(٣٤٢) لا تحزن.

إذا أُوصدتِ الأبوابُ أمام الطالبين، وأُسدِلتِ الستورُ في وجوهِ السائلين، صاحوا: يا الله.

إذا بارتِ الحيلُ وضاقتِ السُّبُلُ وانتهتِ الآمالُ وتقطَّعتِ الحبالُ، نادوا: يا ألله.

إذا ضاقتْ عليك الأرضُ بما رحُبتْ وضاقتْ عليك نفسُك بما حملتْ، فاهتفْ: يا ألله.

إليه يصعدُ الكلِمُ الطيبُ، والدعاءُ الخالصُ، والهتافُ الصَّادقُ، والدَّمعُ البريءُ، والتفجُّع الوالِهُ.

إليه تُمدُّ الأكُفُّ في الأسْحارِ، والأيادي في الحاجات، والأعينُ في الملمَّاتِ، والأسئلةُ في الحوادث.

باسمِهِ تشدو الألسنُ وتستغيثُ وتلهجُ وتنادي، وبذكرِهِ تطمئنُّ القلوبُ وتسكنُ الأرواحُ، وتهدأُ المشاعر وتبردُ الأعصابُ، ويثوبُ الرُّشْدُ، ويستقرُّ اليقينُ، "اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ "

الله: أحسنُ الأسماءِ وأجملُ الحروفِ، وأصدقُ العباراتِ، وأثمنُ الكلماتِ،" هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً "؟!.

اللهُ: فإذا الغنى والبقاءُ، والقوةُ والنُّصرةُ، والعزُّ والقدرةُ والحِكْمَةُ،" لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ".

الله: فإذا اللطفُ والعنايةُ، والغوْثُ والمددُ، والوُدُّ والإحسان،" وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ".

الله: ذو الجلالِ والعظمةِ، والهيبةِ والجبروتِ". (٣٤٣)

أيها الإخوة! هل يصح مع من هذا قدره وهذا مقامه وهذا شأنه وجلاله أن يترك ويدعى غيره؟ هل يصح أن نتوجه إلى غيره -سبحانه وتعالى- بالدعاء والرجاء بل بالاستغاثة فندعو ونستغيث بغيره ونعوذ ونلوذ بسواه؟ وقد يجيب الآن بعض الأحبة فيقول: وهل حدث ذلك؟ والجواب: نعم والله قد حدث، فدعا المسلمون غير الله، ورجا المسلمون غير الله، واستغاث المسلمون بغير الله، مع أنه لا يشك مسلم على ظهر الأرض كلها في هذه الأدلة التي ذكرناها والتي تدل على أن الدعاء عبادة لرب الأرض والسماء، غير أنها الغفلة والجهل الشديد: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ".

فسبحان ربي هل أشبهنا اليهود المغضوب عليهم؟ يكون عندنا العلم ونخالفه بالعمل روى مسلم من حديث أبي هريرة أن حبرًا من أحبار اليهود جاء يومًا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد إننا نجد في التوراة أن الله تعالى يجعل السموات على إصبع، ويجعل الأرضين على إصبع، ويجعل الماء والثرى على إصبع، ويجعل الشجر على إصبع، ويجعل سائر الخلائق على إصبع ثم يهزهن ويقول: أنا الملك".

---

(٣٤٣) لا تحزن.

فضحك النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى بدت نواجذه تصديقًا منه لقول الحبر ثم قرأ قوله تعالى: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ –سبحانه وتعالى– عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)[الزمر: ٦٧]

فهذا اليهودي يعرف قدر الله ولكنه ما عبده، ويعلم جلال الله تعالى ولكنه لم يعمل بما يملي عليه ذلك العلم من العمل.

فهل صارت أمة الإسلام كذلك تعلم أن الدعاء عبادة وما كان كذلك فلا ينبغي أن يشرك بالله فيه أحد غيره ومع هذا يتوجه نفر من المسلمين لغير الله بالدعاء؟ إنها الوثنية التي نعى الله تعالى على المشركين وثنية فى ثوب جديد تتجلى في صور جديدة بين المسلمين والمسلمات.

ومن هذه الصور:

أولا: دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– والاستغاثة به، وطلب قضاء الحاجات منه بعد موته.

وهذا موجود في الأمة فإننا نسمع من أبناء الأمة من يقول:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي في كل هول من الأهوال ألقاه

ونسمع من أبناء الأمة من يقول:

يا صاحب القبر المقيم بيثرب يا منتهى أملي وغاية مطلبي

يا من نرجوه لكشف عظيمة ولحل عقد ملتو متعصب

والله تعالى يقول: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" ويقول –عز وجل–: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ".

ويقول عز من قائل: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)أَمْ مَنْ خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ (٦٤)قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)[النمل: ٥٩ - ٦٦]

أيها الإخوة! أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ؟

من الذي يفْزعُ إليه المكروبُ، ويستغيثُ به المنكوبً، وتصمدُ إليه الكائناتُ، وتسألهُ المخلوقاتُ، وتلهجُ بذكرِهِ الألسُنُ وتُؤَلِّهُهُ القلوب؟ إنه اللهُ لا إله إلاّ هو".

وحقٌ عليّ وعليك أن ندعوهُ في الشدةِ والرَّخاءِ والسَّراءِ والضَّراءِ، ونفزعُ إليه في الملِمَّاتِ ونتوسّلُ إليه في الكرباتِ وننطرحُ على عتباتِ بابهِ سائلين باكين ضارعين منيبين، حينها يأتي مددُهْ ويصِلُ عونُه، ويُسْرع فرجُهُ ويَحُلَّ فتْحُهُ؟ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ؟ فينجي الغريق ويردُّ الغائب ويعافي المبتلي وينصرُ المظلوم ويهْدِي الضالَّ ويشفي المريض ويفرّجُ عن المكروبِ" فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ".[٣٤٤]

إننا إذا نظرنا إلى مسألة إفراد الله . –عز وجل– . بالدعاء والاستغاثة، لرأيناها "من أوضح الواضحات في كتاب الله، فقد تحدث عنها القرآن في ثلاثمائة موضع[٣٤٥] ومع ذلك فما أكثر الذين يتلون هذه الآيات بألسنتهم وينقضونها بأفعالهم وأحوالهم.

أيها الإخوة! هل يملك رسول الله لنفسه فضلًا عن أن يملك لغيره نفعًا ولا ضرًّا؟ إن القرآن هو يجيب عن ذلك على لسان النبي —صلى الله عليه وسلم– قائلًا:

"قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)[الأعراف: ١٨٨]

ويقول أيضًا: "قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)[يونس: ٤٩]

نعم أحبتي لا يملك رسول الله لنفسه ولا لغيره نفعًا ولاضرًّا فما رسول الله إلا عبد إلى الله يلتجيء يقول صاحب كتاب لا تحزن: أُخرج محمدٌ المعصومُ – صلى الله عليه وسلم – من مكة حيث أهلُه وأبناؤه ودارُه ووطنُه، طُردَ طرداً وشرَّد تشريداً، والتجأ إلى الطائفِ فقُوبل بالتكذيبِ وجُوبِه بالجحودِ، وتهاوتْ عليه الحجارةُ والأذى والسبَّ والشتمُ فعيناه

(٣٤٤) لا تحزن.

(٣٤٥) انظر: الدرر السنية، ٩/٤١٨، واقتضاء الصراط المستقيم، ٢/٧٠٥.

بدموع الأسى تكفِانِ وقدماه بدماءِ الطهرِ تنزفانِ، وقلبُه بمرارةِ المصيبة يَلْعَجُ، فإلى من يلتجئ؟ ومن يسألُ؟ وإلى من يشكو؟ وإلى من يقصدُ؟ إلى اللهِ، إلى القويِّ، إلى القهارِ، إلى العزيزِ، إلى الناصرِ.

استقبل محمدٌ – صلى الله عليه وسلم – القبلة، وقصد ربَّه، وشكر مولاه، وتدفَّق لسانهُ بعباراتِ الشكوى وصادقِ النجوى وأحرِّ الطلبِ، ودعا وألحَّ وبكى وشكا وتظلَّم وتألَّم.

المآقي من الخطوبِ بكاءُ والمآسي على الخدودِ ظِماءُ

وشفاهُ الأيامِ تلثمُ وجهاً نَحَتَتْهُ الرعودُ والأنواءُ

اسمع سؤال النبي – صلى الله عليه وسلم – مولاهُ وإلهه ليلة نخلة، إذْ يقول: (اللهم إني أشكو إليك ضعْف قوتي وقِلَّة حيلتِي وهواني على الناسِ، أنت أرحمُ الراحمين، وربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكِلُني؟ إلى قريبٍ يتجهَّمُني، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري، إن لم يكن بك عليَّ غَضَبٌ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لُي، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلماتُ، وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ، أن ينزلَ بي غَضَبُك، أو يحلَّ بي سخطُك، لك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بكَ".[٣٤٦] فهذا رسول الله ما له ملجأ وملاذ ومستغاث إلا الله فلا ينبغى أن يستغيث برسول الله مستغيث.

ثانيا –أيها الإخوة– من مظاهر الاستغاثة ودعاء غير الله تعالى: دعاء الأموات من الأولياء والصالحين وغيرهم:

فرأينا من أبناء الأمة من يدعو وليًّا أو صاحب ضريح فيقول: يا بدوي افعل لنا،ويا دسوقي اصنع لنا، ويا جيلانى اكشف عنا، ويا رفاعي اقض حوائجنا.

حتى سمعنا من أبناء الأمة من يقول: إذا ضاقت بكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور.

والله تعالى يقول: "فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ "وهذا أمر من الله بالتوجه إليه في كل أمر وسؤاله عند كل ضر وطلب الحاجات منه وحده –عز وجل–،فهو الذي يسمعها ويجيبها وحده، أما غيره فلا يسمع ولا يجيب بل هو غافل عمن دعاه قال سبحانه: "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)" [الأحقاف٥،٦].

---

(٣٤٦) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٤٢٠)، عن ابن إسحاق، وأخرجه الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر، وقال الهيثمي (٦/ ٣٥) بعد أن عزاه للطبراني: "وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات"، وحكم عليه الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص١٣٢) بالضعف والحديث ضعفه الأرناؤوط في تخريج زاد المعاد (٣/ ١٣٠). لكن ألفاظ الحديث ينقدح منها نور مشكاة النبوة.

وقال سبحانه: "أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)" [النمل: ٦٢].

فلا يقدر على تحويل الحال، وتغيير الوضع من فقر إلى غنى، ومن مرض إلى صحة ومن ضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجزه شيء، والقاهر الذي لا يغلب ولا ينازع وهو الله –عز وجل– وحده فهو الذي يداول الدنيا بين الناس،" وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ "، فهو الذي يداولها بين خلقه على وفق ما يشاء"يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن"فمن شأنه أن يجيب داعيًا أو يعطي سائلًا أو يفك عانيًا أو يشفي سقيمًا أو يكشف كربًا أو يغفر ذنبًا أو يجيب مضطرًا.

"يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن"، قال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض يحيي حيًّا ويميت ميتًا ويربي صغيرًا ويفك أسيرًا وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهي شكواهم. (٣٤٧)

نعم –أيها الإخوة– إن ربكم –عز وجل– كل يوم هو في شأن فيعتق رقابًا، ويعطي رغابًا ويقحم عقابًا ويرفع أقوامًا ويضع آخرين: "قل اللهم مالك الملك"الآيتين آل عمران.

هذا ما يملكه ربنا، فما الذي يملكه الفقراء الضعفاء من الصالحين أو الأولياء، لا شيء"الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السموات وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)"١–٣ فاطر.

هل من خالق غير الله والجواب: لا، حاشا لله، فلا الأولياء ولا الأنبياء يملكون فرجًا ولاغيره لأحد وربما قال بعض الأحبة: إننا نسمع عن بعض من يفعلون ذلك أي يستغيثون عند القبور والأضرحة، تجاب دعواتهم وتفرج كرباتهم وتقضى حوائجهم أفلا يكون ذلك دليلًا على صحة حالهم.

والجواب أيها الكرام الأحباب: بأن هذه الأحوال الشيطانية التي تحصل لعباد القبور من قضاء الحاجات هي ابتلاء من الله وامتحان منه –عز وجل– لكلا الطرفين الداعي والرائي، للذى دعا غير الله والذي يراه،فأما بالنسبة للرائى: هل يتزعزع في قلبه الثقة والرضا بأن الله هو المجيب، وأما بالنسبة للداعي فهو استدراج له من الله –عز وجل– يمهلهم الله ويستدرجهم ليزدادوا إثمًا ورهقًا كما قال النبي —صلى الله عليه وسلم– والحديث أخرجه أحمد وغيره من حديث عقبة بن عامر أن

(٣٤٧) تفسير ابن كثير – (٧ / ٤٩٥).

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيت الله –عز وجل– يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له"ثم تلا { فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ }".(٣٤٨)

وقد قال الله تعالى في حق الكافرين: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ [الأنعام: ٤٤]"، –أيها الإخوة– لقد كان المنتظر لما نسوا ما ذكروا به وكذبوا الله تعالى ورسله –عليهم الصلاة والسلام–أن يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أو ينزل عليهم رجزًا من السماء أو يسقط الله عليهم كسفًا من السماء، أو تأخذهم الصيحة أو الرجفة.

لكن الله قال: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ"، أعطيناهم الخيرات جميعها وفتحنا عليهم أبوابها وليس هذا عطاء بل هو استدراج وبلاء.

فقد قال –عز وجل–: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)[الأنعام: ٤٤]"، هذا هو استدراج الله تعالى لعباده"وأملي لهم إن كيدي متين". استدراج من الله لهم لما عصوه وذكروا فما تذكروا ونصحوا فما انتصحوا، فالاجتماع وبذل الطاعات للقبور كما نرى من الطواف والدعاء والذبح والنذر لها هذا كله شرك ما فعله أحد من السلف ولا من صالحى هذه الأمة من بعدهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (قد كان من قبور أصحاب رسول الله بالأمصار عدد كثير، وعندهم التابعون، ومَن بعدهم مِن الأئمة، وما استغاثوا عند قبر صاحب قط، ولا استسقوا عند قبره ولا به، ولا استنصروا عنده ولا به. ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه، ومن تأمل كتب الآثار، وعرف حال السلف، تيقن قطعاً أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور، ولا يتحرون الدعاء عندها أصلاً، بل كانوا ينهون عن ذلك من كان يفعله من جُهّالهم)(٣٤٩).

ويقول ابن القيم مبيّناً أن صنيع القبوريين مفارق لما كان عليه سلف الأمة متسائًلا بما يقطع حبل القبوريين ويذبح عقائدهم بأحد سكين فيقول: (هل يمكن لبشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم [أي: السلف الصالح] بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها، وتمسحوا بها، فضلاً أن

---

(٣٤٨) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٩٢٦)"مجمع البحرين"، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٠) من طريق عبد الله بن صالح عن حرملة بن عمران به، وأخرجه أحمد (١٤٥/٤)، والدولابي في الكنى (١١١/١)، وقد حسنه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣٧٤٩).

(٣٤٩) اقتضاء الصراط المستقيم (٦٨١/٢).

يصلّوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم، فليوقفونا على أثر واحد، أو حرف واحد في ذلك...)[٣٥٠]

ولا زال التساؤل قائمًا؛ فهل يجيب عنه أحد من هؤلاء لو استطاع؟! ويقول العلامة الصنعاني: (إن أردت الإنصاف وتركت متابعة الأسلاف، وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل، لا ما اتفق عليه العوالم جيلاً بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل؛ فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل، ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل بلدته يلقنونه: أن يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون له، ويرحلون إلى محل قبره... فنشأ على هذا الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير... ولا يخفى على أحد يعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر أن سكوت العالم على وقوع المنكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر)[٣٥١].

ويقول العلامة الشوكاني: (اعلم أنه قد اتفق الناس سابقهم ولاحقهم وأولهم وآخرهم من لدن الصحابة . رضي الله عنهم . إلى هذا الوقت أن رفع القبور والبناء عليها من البدع التي ثبت النهي عنها واشتد وعيد رسول –صلى الله عليه وسلم– لفاعلها، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين)[٣٥٢]

ثالثا: من صور دعاء غير الله تعالى والاستغاثه بغيره سبحانه: الاستغاثة بالصالحين الأحياء غير الحاضرين في مكان المستغيث أو الاستغاثة بهم وهم حضور لكن في غير ما يقدرون عليه ولا يستطيعه إلا الله –عز وجل– وهذا موجود بل حدثنا بعض العلماء الأفاضل بأنه ركب حافلة مع أتباع شيخ يريد أن يرى أفعالهم وأحوالهم يقول: وفي بعض الطريق لما رجعنا قافلين عائدين توقفت السيارة فجأة حتى انقلب بعضنا فوق بعض فما كان منهم إلا أن صاروا ينادون على شيخهم الغائب الذي تركوه وراءهم في الحلقة أو الحضرة فإذا هم يقولون: أغثنا يا شيخنا فلان مدد، نظرة، ونحو هذا من كلامهم.

ولازلت أذكر شيئًا طريفًا جدًّا يردده عندنا الناس متضاحكين به متندرين وهو أن رجلًا مزارعًا شارك رجلًا غنيًّا ثريًّا على جاموسة ومعلوم أن ما تلدة من العجول يكون لصاحب المال الغنى نصفه ولصاحب الرعاية الفلاح نصفه الآخر، وفى مرة من مرات ولادتها تعسرت الجاموسة فما كان من امرأة ذلك الفلاح إلا أن قالت: يا سيد يا بدوى إن نزل هذا العجل فلك نصفه فنظر إليها زوجها الذى كان يعالج العجل ليخرج وقال – بصوت ساخر –: يا سيد يا بدوى لك نصفه ثم قال: الله! لفلان – يعنى شريكه الغنى– لفلان نصفه وللسيد البدوى نصفه وأطلع أنا منها بلا شيء، ارجع يا عجل إلى بطن أمك.

---

(٣٥٠) إغاثة اللهفان، ١/٣١٨.

(٣٥١) تطهير الاعتقاد، ص ٣٦، باختصار.

(٣٥٢) شرح الصدور ص ٨.

فهذه الصورة وغيرها -أيها الإخوة- من الشرك بالله تعالى فقد قال عز من قائل: "ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين".

فالداعي يبتغي النفع والضر ويسلم الوجه ويقصد الخير من يدي من يدعوه ويتوجه إليه ويرجوه ويعلق قلبه به حال قصده وبعده ويرغب إليه وينطرح ويتذلل بين يديه فمن فعل ذلك مع غير الله -سبحانه وتعالى-، بالله تعالى عليكم هل بقى له من اسم الإسلام شيء؟ كلا وربي إنه لمشرك.

قال النعمي -ولله دره فيما قال-: "إن من أمعن النظر في آيات الكتاب وما قص من محاورات الرسل مع أممهم وجد أن أس الشأن ومحط رحال القصد شيوعًا وكثرة وانتشارًا وشهرة هو دعاء الله وحده وإخلاص العبادة له فمن فعل ذلك مع غير الله كان مشركًا شاء أم أبى شركًا أكبر سواء كان هذا المدعو نبيًا أو وليًا أو ملكًا أو جنيًا أو حيًا أو ميتا قال تعالى: "وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)"، ولله در شيخ الإسلام وعطر الأنام ابن تيمية إذ يقول: "ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعي غير الله فإن ذلك من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به".[٣٥٣]

بل أحدثكم -أيها الإخوة- بما قد تعجبون له عجبًا شديدًا: إن الميت لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا لغيره، وأما هذا الغير فإنه يملك ذلك للميت فيما يقدر عليه، فنحن نستطيع أن ننفع السيد البدوى وهو لا يستطيع ذلك، ونملك أن ننفع الدسوقى والجيلانى والرفاعى بدعوة وهم لايملكون ذلك-وهاهو ذا رسول الله —صلى الله عليه وسلم- قد استغاث برجل مسلم موحد من خطر كان يحيق به وهو ميت في قبره، لأن ذلك المسلم يستطيع دفع هذا الخطر عن الرسول — صلى الله عليه وسلم-.

وقد ذكر ذلك الطبري في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية أنه في عصر السلطان الزاهد التقي العابد الورع النقي الطاهر نور الدين محمود زنكي -رحمه الله- تعالى فقد أراد المجرمون الخبثاء اليهود والنصارى أن يخرجوا جثمان النبي الطاهر — صلى الله عليه وسلم- من قبره فأرسل المجرمون رجلين في زي المغاربة لعمل ذلك، لكن الله أحبط كيدهم بهذا السلطان العظيم، والقصة كما حكاها الطبري: أن السلطان محموداً رأى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات في ليلة واحدة، وهو يقول له في كل واحدة منها: يا محمود أنقذني من هذين الشخصين الأشقرين فحلفه، فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر له ذلك فقال: هذا أمر حدث بالمدينة ليس له غيرك، فتجهز وخرج على عجل بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة الشريفة على غفلة من أهلها، وزار وجلس في المسجد لا يدري ما يصنع، فقال له وزيره: أتعرف الشخصين إذا رأيتهما؟ قال: نعم، فأمره بالصدقة وطلب الناس عامة وفرق عليهم ذهباً وفضة، وقال: لا يبقين أحد بالمدينة إلا جاء، فلم يبق إلا رجلين مهاجرين من أهل الأندلس نازلين في الناحية التي تلي قبلة حجرة النبي

(٣٥٣) الرد على البكري (ص ٩٥)، شيخ الإسلام ابن تيمية.

صلى الله عليه وسلم من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فطلبهما للصدقة فامتنعا، فجد في طلبهما فجيء بهما فلما رآهما، قال: هما هذان فسألهما عن حالهما، فقالا: جئنا للمجاورة، فقال: اصدقاني، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى معاقبتهما، فأقرا أنهما من النصارى وأنهما وصلا لكي ينقلا من في هذه الحجرة المقدسة باتفاق من ملوكهما، ووجدوهما قد حفرا نقباً من تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي، وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة النبي صلى الله عليه وسلم خارج المسجد، ثم أحرقا آخر النهار، وركب وتوجه إلى الشام....."(٣٥٤)

أيها الإخوة! لا شك على الإطلاق أن القلوب اطمأنت أو هي بحمد الله مطمئنة من قبل ذلك إلى أن ربنا -عز وجل- هو الذي ترفع إليه الأيادي وحده كما تحنى الجباه له -عز وجل- وحده والسؤال الذي يلح علي الآن -أيها الإخوة- : إذا كانت هذه قيمة الدعاء ومكانته وهذا قدره وشأنه فأين الدعاء في حياتنا؟ وهذا العتاب محله الخطبة الثانية بعد جلسة الاستراحة وأسأل الله لي ولكم من فضله.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! أين الدعاء في حياتنا؟

لا شك أن الدعاء عبادة مهجورة في حياتنا وواقعنا اليوم غاية الهجران، وقلما يفكر أحدنا في ساعة يخلو فيها إلى نفسه يناجي فيها ربه ويتوجه فيها إليه بحوائجه وطلباته.

وأستطيع أن أضع بين يدي حضراتكم الآن الأدلة على هجراننا الدعاء مع أن الدعاء صفة العقلاء كما في بعض الآثار عما جاء في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله،وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وفي مسند أحمد بسند صحيح من حديث ابن مسعود أن النبي —صلى الله عليه وسلم- قال: "ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: "اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك،أن

---

(٣٥٤) نقلًا من خطب الشيخ محمد حسان ١٤٣/١، مكتبة فياض.

تجعل القرآن الكريم العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله حزنه وأبدله مكانه فرحا".

فقيل: يا رسول الله! ألا نتعلمها؟ قال: "ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها".(٣٥٥)

فلا ينبغي –أيها الإخوة– أن نغفل أبدًا عن الدعاء فهو السهم الماضي الذي لا يخطئ، نعم الدعوات كالسهام ربما تبطئ لكنها أبداً لا تخطئ.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما يدريك ما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطئ ولكن لها أمد وللأمد انقضاء

أيها الإخوة! من منا يدعو الله أن يثبته على الإيمان وأن لا يزيغه عنه؟ من منا يدعو الله أن يصلح شئونه وييسر أموره؟ من منا يستخيرالله تعالى قبل كل عمل يقدم عليه؟ من منا يستعين الله على تربية أبنائه ويدعو لهم بالصلاح والفلاح؟ ألم أقل لحضراتكم إننا قد هجرنا الدعاء؟ فلنعد إلى روضة الدعاء مع الأخذ بالأسباب المادية فلا ينبغي فى غمرة الأخذ بالأسباب المادية المتاحة أن نغفل عن الدعاء، فإنه لا يكون شيء إلا بأمر الله وقدره، لكن ينبغي –أيها الإخوة– أن يكون الدعاء بشروطه الشرعية مع انتفاء موانع الإجابة حتى يستجيبه الله تعالى.

فما هى شروط الدعاء؟

أولًا: الإخلاص: وهو تصفية الدعاء والعمل من كل ما يشوبه، وصرف ذلك كله لله وحده، لا شرك فيه، ولا رياء ولا سمعة، ولا طلباً للعرض الزائل، ولا تصنعاً وإنما يرجو العبد ثواب الله ويخشى عقابه، ويطمع في رضاه.

ثانيًا: المتابعة، وهي شرط في جميع العبادات، لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}. والعمل الصالح هو ما كان موافقاً لشرع الله تعالى ويُراد به وجه الله سبحانه. فلا بد أن يكون الدعاء والعمل خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثالثًا: الثقة بالله تعالى واليقين بالإجابة، لأنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، قال سبحانه: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} ومما يزيد ثقة المسلم بربه تعالى أن يعلم أن جميع خزائن الخيرات والبركات عند الله تعالى، قال سبحانه: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "يدُ الله ملأى لا

(٣٥٥) أخرجه أحمد (٣٧٨٤)، وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٨).

يَغِيضُها نَفَقةٌ سحّاءُ(سحَّاءُ: أي دائمة الصب تصب العطاء صبّاً ولا ينقصها العطاء الدائم في الليل والنهار، [٣٥٦])الليلَ والنهارَ أرأيتُم ما أنفقَ مُذْ خلَقَ السماءَ والأرض فإنه لم يغِضْ ما في يده وكان عرشُهُ على الماءِ وبيده الميزان يخفض ويرفع.

رابعًا: حضور القلب والخشوع والرغبة فيما عند الله من الثواب والرهبة مما عنده من العقاب وقد جاء في حديث أبي هريرة عند الإمام الترمذي: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ"[٣٥٧]

خامسًا: العزمُ والجَزمُ والجِدُّ في الدعاء عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يَقُولَنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليُعظِّم الرغبة فإن الله لا يتعاظمُهُ شيءٌ إلا أعطاه"[٣٥٨] هذا عن شروط قبول الدعاء

وأما موانع إجابة الدعاء فهي:

أولًا: الوقوع في الحرام: أكلاً، وشرباً، ولبساً، وتغذية فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس إن الله طيّبٌ لا يقبلُ إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يَآ أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}. وقال: {يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ! يا ربِّ! ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك"[٣٥٩]

ثانيًا: الاستعجال وترك الدعاء لتأخر الإجابة:

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُستجاب لأحدكم ما لم يعجلْ فيقول: قد دعوتُ فلم يُستجَبْ لي"[٣٦٠]

ثالثًا: ارتكاب المعاصي والمحرمات:

ولهذا قال بعض السلف: لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طريقها بالمعاصي، وأخذ هذا بعض الشعراء فقال:

---

(٣٥٦) انظر: الفتح (١٣/٣٩٥).

(٣٥٧) أخرجه الترمذي ٣٤٧٩، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٩٤)، وصحيح الترمذي (٢٧٦٦).

(٣٥٨) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٣٥٩) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٣٦٠) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

نحنُ ندعو الإله في كلِّ كربٍ ثمَّ ننساه عند كشف الكروبِ

كيف نرجو إجابةً لدُعاءٍ قد سددْنا طريقها بالذنوب[٣٦١]

رابعًا: ترك الواجبات التي أوجبها الله: فعن حذيفة –رضي الله عنه– عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لتأْمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يبعثَ عليكم عِقاباً منه ثمَّ تدعونَهُ فلا يُستجابُ لكم"[٣٦٢]

خامسًا: الدعاء بإثم أو قطيعة رحم، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يزالُ يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعةِ رحمٍ ما لم يستعجل". قيل: يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: "يقول قد دعوتُ، وقد دعوتُ فلم أرَ يستجيبُ لي فيستحسر عند ذلك ويدعُ الدعاءَ". [٣٦٣]

فإذا اجتمعت الشروط وانتفت الموانع استجيب للعبد إن شاء الله في دعائه واستغاثته واستعاذته، فلنضرع إلى جبار السموات والأرض وملك السموات والأرض فليس أحد أرحم بنا من الله –عز وجل–" لتتعلم شريف الخطابِ معه ؛ فتناجيهِ وتناديهِ وتدعوهُ وترجوه، فإن وجدْتهُ وجدْت كلَّ شيءٍ، وإن فقدت الإيمان به فقدت كلَّ شيء، إن دعاءك ربَّك عبادةٌ أخرى، وطاعةٌ عظمى ثانيةٌ فوق حصولِ المطلوبِ، وإن عبداً يجيدُ فنَّ الدعاءِ حريٌّ أن لا يهتمَّ ولا يغتمَّ ولا يقلق، كل الحبال تتصرّم إلاَّ حبلُه، كلُّ الأبوابِ توصدُ إلاَّ بابهُ، وهو قريبٌ سميعٌ مجيبٌ".[٣٦٤]

وأخيرًا اعلم أن عبد السوء هو من يدعو الله في الضراء فإذا فرج عنه نساه، ومن يعبد الله في الضيق فإذا وسع عليه نسب السعة إلى غيره من الشركاء وهذه حال كثير من الناس ولا حول ولا قوة إلا برب الفلق والناس، فحالنا كما قيل:

كم نطلب الله في ضر يحل بنا فإن تولت بلايانا نسيناه

نرجوه في البحر أن يرعى سفينتنا فإن رجعنا إلى الشاطي عصيناه

ونركب الجو في أمن وفي دعة فما سقطنا لأن الحافظ الله

---

(٣٦١) جامع العلوم والحكم ١/٣٧٧.

(٣٦٢) أخرجه الترمذي ٢١٦٩، وغيره، وهو في صحيح الجامع (٦٩٤٧).

(٣٦٣) أخرجه مسلم ٤/٢٠٩٦، ومعنى يستحسر: أي ينقطع عن الدعاء ومنه قوله تعالى: {لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ} أي لا ينقطعون عنها. انظر الفتح ١١/١٤١، وانظر: شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة ، للشيخ المفضال سعيد بن على بن وهف القحطاني وفقه الله.

(٣٦٤) لا تحزن.

ننساه بعد نجاة في امتحان غد وإن رسبنا وأكملنا دعوناه

عُمي عن الذكر والآيات تندبنا لو كلم الذكر جلمودًا لأحياه

أقول قولي هذا وأسأل الله أن يعصمنا من استدراج الشيطان وضلاله، وأن يسددنا لما يقرب من طاعته وبلوغ مرضاته، اللهم اجعلنا من الذين يخافونك وحدك فلا يرهبون إلا أنت، ولا يخشون إلا أنت، ولا يذلون إلا لما في يديك الكريمتين، ولا يقفون إلا ببابك ولايلوذون إلا بجنابك، ولايستعينون إلا بك، ولا يستعيذون إلا بك، ولا يستنزلون إلا بركاتك، يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين،......الدعاء.

عالم الملائكة، عالم العجائب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

لك الحمد يا مولاي كم لك منةً عليَّ، وفضلاً لا يقومُ به شُكْرِي

أما بعد فيا أيها الإخوة!

ما من شيء في الكون كله من الذرة إلى المجرة ومن الفرش إلى العرش إلا ويدل من تأمله على وحدانية الله جل في علاه، فحال كل ما في الكون ينطق نطقًا فصيحًا بأنه الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له في ملكه وربوبيته وألوهيته.

هو الإله الذي آياته ظهرت في كل شيء ترى خير العلامات

النور ينطق والأوراق والثمر بأنه الله خالق البريات

الإنس والجن والحيوان شاهدة بأنه الله قيوم السموات

حتى الملائكة مع عظم الجروم لهم في الأمر طوعًا لخالق البريات

حتى إذا سمعوا وحي العلى إذا من ذاك قد صعقوا خوف العقوبات[٣٦٥]

(٣٦٥) انظر فتح الله الحميد المجيد ص٢٥٦، للشيخ حمد بن محسن نقلًا عن عون العلى الحميد ٢٩٩/١

فتعالوا بنا -أيها الإخوة- نزداد إيمانًا ونحن نطلع من نافذة قريبة على عالم غريب عجيب ليس لهم من عمل إلا الركوع والسجود والتسبيح والتحميد لرب العالمين، لا يعصون طرفة عين ولا يغفلون عن العبادة أقل من ذلك، ولعلكم عرفتموه؟!

نعم إنه"عالم الملائكة".

وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع في العناصر التالية:

أولًا: من هم الملائكة؟

ثانيًا: عجائب من عالم الملائكة.

ثالثًا: برهان وحجة.

فأعيروني القلوب والأسماع أيها الأحباب أسأل الله أن يرزقنا طاعته وأن يجنبنا معصيته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أولًا: من هم الملائكة؟

أيها الإخوة! الملائكة خلق من خلق الله -عز وجل- من أشرف خلقه سبحانه، وهم عباد مكرمون من عباده، خلقهم الله -عز وجل- من نور كما خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، روى مسلم من حديث عائشة قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم[٣٦٦]"،وسكن الملائكة هو السماء وخلقة الملائكة خلقة عظيمة وهم قادرون -بما أعطاهم الله- على التمثل بأمثال الأشياء والتشكل بأشكال جثمانية حسبما تقتضيها الحالات التي يأذن لهم بها الله -سبحانه وتعالى- ،وهم مقربون من الله ومكرمون، لا يوصفون بالذكورة والأنوثة ولا يطعمون ولا يشربون وإنما طعامهم التسبيح والتهليل وهم لا يتناكحون ولا يتناسلون ليست فيهم الشهوات التي ركبت في بني آدم.

وهم لا يملون ولا يفترون عن عبادة الله رب العالمين في الليل والنهار قال -عز وجل-: "وَلَهُ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) [الأنبياء: ١٩، ٢٠]"ثم قال -عز وجل-: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]".

---

(٣٦٦) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

والملائكة عليهم السلام أصناف كثيرة، فمن الملائكة الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام كما قال سبحانه: "نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين".

وهو أعظمهم قدرًا وأعلاهم شانًا وأرفعهم منزله ولذلك يخصه الله بالذكر كما فى قوله تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) "

فذكره فى جملة الملائكة ثم خصه بالذكر بعد العموم ليدل على شرفه وفضله وهذا كثير فى القرآن الكريم.

ومنهم الموكل بالقطر وتصاريفه إلى حيث أمره الله –عز وجل– وهو ميكائيل عليه السلام وهو ذو مكانة علية ومنزلة رفيعة وشرف عند ربه –عز وجل– وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الله –عز وجل– وقد جاء في بعض الآثار: "ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض"،ويروى أن ميكائيل عليه السلام لم ير ضاحكًا من يوم خلق الله –عز وجل– النار، وهذا يدل على شدة خوفه ومعرفته بقدر ربه سبحانه.

ومنهم الموكل بالصور وهو إسرافيل عليه السلام، والصحيح أنه ينفخ فيه ثلاث نفخات وليس نفختين.

الأولى: نفخة الفزع الأكبروالثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين وهذا هو الذى ذهب اليه المحققون من اهل العلم أمثال شيخ الاسلام ابن تيمية وابن كثير وابن العربى وغيرهم، وروى أحمد وغيره بسند صحيح من حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– أن النبي —صلى الله عليه وسلم– قال: "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له"؟! قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: "قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا".

وجبريل وميكائيل وإسرافيل هؤلاء هم الذين ذكرهم النبي —صلى الله عليه وسلم– في دعائه من صلاة الليل:فقد كان —صلى الله عليه وسلم– إذا افتتح الصلاة كما عند مسلم من حديث أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَفْتَتِحُ صَلاَتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَتْ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاَتَهُ يقول: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت

تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. (٣٦٧)

ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت وأعوانه ولا يصح على الإطلاق أن يسمى كما يقول بعض الناس عزرائيل بل هو ملك الموت كما قال سبحانه: "قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)" [السجدة: ١١]، وله أعوان كذلك مما يدل عليه قول ربنا -عز وجل-:حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ "، وقوله سبحانه: "وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(٥٠)" [الأنفال: ٥٠].

فإن كان العبد صالحًا كان لهم معه شأن طيب وإن كان مسيئًا عاملوه بما يستحق قال -عز وجل-" الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) [النحل: ٢٨ - ٣٢]

وقال -سبحانه وتعالى-: "فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤)وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥)فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦)تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨)فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠)فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣)وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)
"الواقعة٨٣-٩٦.

سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، نستغفر الله من ذنوبنا ونتوب إليه من معاصينا، فاللهم غفرانك يا أرحم الراحمين.

هؤلاء هم رؤساء الملائكة وباقي الملائكة كذلك - أيها الإخوة- في أعمال فمنهم الموكل بحفظ العبد" لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ "وكذا منهم الحفظة والكتبة الذين يحفظون أعمال العباد ويكتبونها، ومنهم الموكلون بسؤال القبر وهم منكر ونكير، ومنهم خزنة الجنة ومقدمهم رضوان، ومنهم خزنة النار ومقدمهم مالك، ومنهم

---

(٣٦٧) أخرجه مسلم ١٨٤٧.

المبشرون للمؤمنين عند وفياتهم ويوم القيامة،ومنهم الموكلون بالنطفة في الرحم، ومنهم حملة العرش ومنهم، ومنهم، ومنهم، وهذه أول عجائب الملائكة و هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء:

عجائب من عالم الملائكة.

أيها الإخوة! الملائكة عالم عجيب غريب، ومن ضمن عجائبه أنهم كثرة لا تعد ولا تحصى بحيث لا يتصور أحدكم يبلغ عددهم بل تعجزأرقام الأعداد التي يعرفها البشر من الآحاد والعشرات والألوف بل والملايين والمليارات والبليارات أن تستوعب هذه الأعداد الضخمة، وفكر معي في هذا العدد الذي يكون من قسم واحد منه فقط عدد لانهاية له قسم واحد وهم الملائكة الموكلون بحفظ أعمال العباد وكتابتها، فلكل عبد يتنفس على وجه البسيطة ملك للحسنات عن يمينه وملك للسيئات عن شماله، هؤلاء بخلاف المعقبات المنوط بهم حفظ العبد قال ابن عباس: المعقبات من الله هم الملائكة يحفظون العبد من بين يديه – أمامه – ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله تعالى خلوا عنه، وذلك –أيها الإخوة– يكون في مقام العبد وسفره وفي نومه ويقظته وفي كل حالاته.

هذا بخلاف الملائكة المنتشرين في الأرض السياحين فيها والذين يتعاقبون فى البشر بالليل والنهار فيجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر.

هذا بخلاف قسم آخرمن الملائكة وهم الراكعون الساجدون العابدون القانتون هذا عملهم لاينفكون عنه بل منهم الراكع أبدًا والساجد أبدًا وهكذا، روى أحمد وغيره بسند حسن من حديث أبي ذر –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى ولحثوتم على رؤوسكم التراب"

"فقال أبو ذر رضي الله عنه: والله لوددت أني شجرة تعضد. [٣٦٨]وفي رواية انه بكى وأبكى رضى الله عنه وأرضاه

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول:والله لو تعلمون حق العلم ما تلذذتم بلذيذة،ولقام أحدكم بين يدي ربه حتى ينكسر صلبه، ولصاح حتى ينقطع صوته فلا إله إلا الله.

الموت آت والنفوس نفائس *** والمستغر بما لديه الأحمق

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها *** إلا التي كان قبل الموت يبنيها

(٣٦٨) أخرجه الترمذي ٢٣١٢، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٥٢ و١٠٦٠ و٣١٩٤ و١٧٢٢).

فإن بناها بخير طاب مسكنه *** وإن بناها بشر خاب بانيها

الموت باب وكل الناس داخله *** يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار دار نعيم إن عملت بما *** يرضي الإله وإن فرطت فالنار

وعن حكيم بن حزام فيما روى محمد بن نصر بسند صحيح كما في الصحيحة قال: بينما رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مع أصحابه إذ قال لهم: "هل تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:ط أسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد".[٣٦٩]

وفيه أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "ما في السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد وقائم، وذلك قول الملائكة: وما منا إلا له مقام معلوم، وإنا لنحن الصافون، وإنا لنحن المسبحون".[٣٧٠]

فهذا من عجائب الملائكة كثرة هائلة لا حدود لها وأوضح صورة لهذه العجيبة ذلك المشهد الرائع الذي رآه النبي –صلى الله عليه وسلم– في ليلة الإسراء والمعراج عن زوار البيت المعمور الذي أقسم الله تعالى به في كتابه في سورة الطور كما قال تعالى: وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) [الطور: ١ – ٤] وهو بيت في السماء السابعة بحيال الكعبة في الأرض لو سقط لوقع عليها، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم"يعني لا تحول نوبتهم لكثرتهم والحديث في الصحيحين من حديث أنس.

ومن أعاجيب الملائكة كذلك ما ذكر الله تعالى من عظم خلقتهم كما قال سبحانه: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السموات وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)[فاطر: ١].

وروى أبو داود بسند صحيح عن جابر بن عبد الله أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش، أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام".[٣٧١]

---

(٣٦٩)تعظيم قدر الصلاة (٢٢٦).

(٣٧٠) تعظيم قدر الصلاة (٢٥٣).

(٣٧١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، "السلسلة الصحيحة"١ / ٢٣٢: والطبراني في"الأوسط"كما في"المنتقى منه"، للذهبي (٦ / ٢).

وروى البخاري من حديث جابر أيضًا وهو يحدث عن فترة الوحي والنبي –صلى الله عليه وسلم- يصف جبريل عليه السلام وعظم خلقه فيقول: "بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت:زملوني"(٣٧٢)

فسبحان ربي ما تكون خلقته من يجلس على كرسي بين السماء والأرض؟! وعن ابن مسعود في قوله –عز وجل-" لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)" [النجم: ١٨]،قال: رأى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- جبريل في صورته له ستمائة جناح (كل جناح منها قد سد الأفق) ينتشر من ريشه التهاويل: الدر والياقوت ما الله به عليم".(٣٧٣)

بل ذكر العلماء منهم ابن كثير في التفسير وفي قصص الأنبياء في قصة إهلاك الله تعالى قوم لوط أن قوم لوط لما جاءوا يريدون أن يفعلوا الفاحشة في الفتيان الذين عند لوط وما كانوا إلا الملائكة عليهم السلام في صورة شبان حسان لا يعرف ذلك لوط ولا يعرفه قومه فضاق لوط عليه السلام بهم وأراد حماية ضيفانه منهم، فلما رأت الملائكة ما هو فيه من العسر بسبب ذلك قالوا: "يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ" قال:ثم خرج إليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم خفقة واحدة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا أثر ولا عين فرجعوا يتحسسون مع الحيطان.

قال:فلما كان الموعد الذي أذن الله فيه بهلاكهم وإهلاكهم اقتلع جبريل عليه السلام مدنهم السبعة بطرف جناحه من قرارهن بمن فيهن من الأمم وكانوا أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن وغيرها فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت ملائكة السماء أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها،وفى ذلك قال تعالى: "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)[هود: ٨٢، ٨٣] (٣٧٤)

فيا الله ما أعجب ذلك العالم عالم الملائكة في كثرة عددهم، وعظمة خلقهم،وأعجب من ذلك -أيها الإخوة- شدة خوفهم من ربهم.

روى ابن نصر المروزي في الصلاة بسند حسن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم من ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجودًا

---

(٣٧٢) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم ٤٢٥.

(٣٧٣) أخرجه أحمد (١/٤٦٠)، قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي، تفسير ابن كثير - (٧ / ٤٥١).

(٣٧٤) قصص الأنبياء (١٨٨- ١٩٠) بتصرف، لابن كثير، الصفا.

منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله -عز وجل- فقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك".[٣٧٥]

نعم يخافون الله، ألم يقل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما روى البزار من حديث جابر أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى بجبريل وهو كالحِلس البالي من خشية الله -عز وجل-"والحلس هو الكساء الرقيق الذى يوضع على ظهر البعير والبالي أي الخَلِق وفي الطبراني في بعض طرق هذا الحديث زيادة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "فعرفت فضل علمه بالله علي".[٣٧٦]

وهذا من تواضع المصطفى -صلى الله عليه وسلم- فهو أعلم الخلق بالله على الإطلاق - صلى الله عليه وسلم - والشاهد أن هذا من خشية جبريل وهيبته وخوفه من ربه -عز وجل-، وعلى قدر هذه الخشية كان لجبريل عند الله القرب، فعلى قدر خوف العبد من الرب يكون القرب.

روى البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، { حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }، فيسمعها مسترق السمع، يعنى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- الجن الذين يسترقون السمع من السماء - قال: ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- وصفه سفيان بن عيينة بكفه، فحرفها وبدّد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه. فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ».[٣٧٧]

وعن النواس بن سمعان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر، وتكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة،- أو قال: رعدة- شديدة خوفًا من الله -عز وجل-، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على

---

(٣٧٥) تعظيم قدر الصلاة (٢٦٠).

(٣٧٦) أخرجه البزار (٥٨)، والطبراني في الأوسط (٥٩)، قال الهيثمي في المجمع(١/٧٥): "رجاله رجال الصحيح".

(٣٧٧) أخرجه البخاري (٤٨٠٠). وفي الفتح (١٣ / ٣٤٣): قوله: (سِلْسِلَة عَلَى صَفْوَان) هُوَ مِثْل قَوْله فِي بَدْء الْوَحْي : " صَلْصَلَة كَصَلْصَلَةِ الْجَرَس " وَهُوَ صَوْت الْمَلَكِ بِالْوَحْيِ ، وَقَدْ رَوَى اِبْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيث اِبْن مَسْعُود رَفَعَهُ " إِذَا تَكَلَّمَ اللَّه بِالْوَحْيِ يَسْمَع أَهْل السَّمَاوَات صَلْصَلَة كَصَلْصَلَةِ السِّلْسِلَة عَلَى الصَّفْوَان فَيَفْزَعُونَ ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَمْر السَّاعَة . وَقَرَأَ : حَتَّى إِذَا فُزِّعَ الْآيَة ". قَالَ الْخَطَّابِيُّ : الصَّلْصَلَة صَوْت الْحَدِيد إِذَا تَحَرَّكَ وَتَدَاخَلَ ، وَكَأَنَّ الرِّوَايَة وَقَعَتْ لَهُ بِالصَّادِ ، وَأَرَادَ أَنَّ التَّشْبِيه فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنًى وَاحِد ، فَالَّذِي فِي بَدْء الْوَحْي هَذَا وَالَّذِي هُنَا جَرّ السِّلْسِلَة مِنْ الْحَدِيد إِلَى الصَّفْوَان الَّذِي هُوَ الْحَجَر الْأَمْلَس يَكُون الصَّوْت النَّاشِئ عَنْهُمَا سَوَاء.
وفي (٢١ / ٦١): قَوْله يَنْفُذهُمْ وَهُوَ بِفَتْحِ أَوَّله وَضَمّ الْفَاء أَيْ يَعُمّهُمْ .

الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبربل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله -عز وجل- ». [٣٧٨]

وفي هذا الحديث -أيها الإخوة- حجة وبرهان وهذا هو عنصرنا الثالث والأخير من عناصر اللقاء: حجة وبرهان.

ونكمله بعد جلسة الاستراحة أسأل الله لي ولكم من فضله.

---

(٣٧٨)أخرجه ابن خزيمة في"التوحيد"(٢٠٦)، والآجري في"الشريعة"(ص ٢٩٤) وابن أبي عاصم في (السنة) (٥١٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص٢٦٤، وغيرهم، ويشهد لمعناه أحاديث، منها حديث أبي هريرة، الذي هو أعلاه، قال العلامة المعلمي في: "التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل"- (٢ / ٢٣١): المتن غير منكر، وله شواهد- وساق بعضها ثم قال:- فالنكارة في السند فقط، والله أعلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

إذا علمنا هذه المنزلة العظيمة للملائكة ورأينا فيهم هذه المكانة العالية من الناحية الجسدية ومن الناحية التشكيلية ومن ناحية القوة والقدرة فرأيناهم مع ذلك كله أكثر شيء خضوعًا وعبادة وذلًّا لله تعالى ففي هذا حجة وبرهان عظيمان،على من؟

أولًا: على الذين عبدوا الملائكة، نعم تخيلوا أن هناك من عبد الملائكة وتقرب إليها بالطاعة من دون الله يظن أنها تنفعه بالخير أو تدفع عنه الشر؟ ولذلك الملائكة يأتون يوم القيامة فيتبرأون من عابديهم يوم القيامة وما فعلوا.

قال تعالى: "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)، سبأ ٤٠-٤٢.

يجمع الله المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ويأتي بالملائكة فيسأل المشركين الذين كانوا يعبدون الأنداد والأصنام يزعمون أنها الملائكة ويقولون هم بنات الله ويزعمون أنها تزلفهم وتقربهم من الله تعالى، فيوبخهم ويقرعهم ويسأل الملائكة أمامهم: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟! هل أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فتقول الملائكة: "سبحانك تعاليت وتباركت وتقدست وتنزهت يا ربنا عز شأنك وتقدست آلاؤك ولا شريك لك لا ينبغي أبدًا أن يكون لك ولد. فنحن عبيدك وأنت ولينا من دونهم، نبرأ إليك منهم ومن أفعالهم، بل كانوا يعبدون الجن والشياطين أكثرهم بهم مؤمنون، فهم الذين يزينون لهم الباطل ويحسنون لهم القبيح ويدعونهم إلى الشرك،أما فنحن فبرءاء.

فهذه حجة وبرهان على الذين يعبدون الملائكة.

ثانيًا: هو برهان وحجة على الذين يتقربون بالعبادات لغير الله -عز وجل- من أصحاب الأضرحة والمشاهد والقبور فهذه الملائكة تخاف ربها وتعلن براءتها ممن عبدها، فهي لا تملك شيئًا لمن تقرب إليها بل وتبرأ يوم القيامة منهم ومن قرباتهم وأعمالهم فأولى وأولى من كان دونهم من الأولياء والصالحين، فاعتبروا عباد الله واعلموا بأن الذي يملك النفع والضر هو الله وحده.

ثالثا:هو حجة وبرهان على الذين يذهبون إلى السحرة والمشعوذين والدجالين والكهان ممن يدعون معرفة الغيب وإنما هم في الحقيقة يتلقون عن الشياطين كما أوضح النبي –صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث،ومن عظيم ما قرأت في هذا الباب ما روى البخاري في قصة إسلام عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- وهي من أصح ما ذكر في إسلام عمر وذلك من حديث عبد الله بن عمر الشبل فقد حدث عن أبيه الليث الهصور عمر بن الخطاب، قَالَ عبد الله: مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ إِنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا. إِلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ، بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ فَقَالَ لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّى، أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِى الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ، عَلَيَّ الرَّجُلَ، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، قَالَ فَإِنِّى أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلاَّ مَا أَخْبَرْتَنِي. قَالَ كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ قَالَ بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِى السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ، فَقَالَتْ أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلاَسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا وَلُحُوقَهَا بِالْقِلاَصِ وَأَحْلاَسِهَا قَالَ عُمَرُ صَدَقَ، بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ، لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ يَقُولُ يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ رَجُلٌ فَصِيحْ يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. فَوَثَبَ الْقَوْمُ قُلْتُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا ثُمَّ نَادَى يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. فَقُمْتُ فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ. (٣٧٩)

أي هذا الطالب الخير! ياعبد الله! أما يكفيك رب العالمين الذي قال عن نفسه وشأنه: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)[يونس: ١٠٤- ١٠٧]

بلى وربي إنه لكاف وما أنتم بموقنين ولو وقر اليقين في قلوبكم لعلمتم أن ما تعولون عليه من أصحاب الأضرحة وغيرهم، لا يجلب خيرًا ولا يدفع شرًا، وغدًا تعلمون.

رابعًا:وأخيرًا هو حجة على كل غافل لاه عاص قاس القلب لايدرى آيات الله ولا يخضع لسلطان ولا يستجيب لأوامره ولا ينهى عن معاصيه فيا عاصى الله ما أقبح فعلك وما أغفل عقلك!

يا غافلاً في لهوه والموت يخطو نحوه

إلى متى تحيا على إثم وترضى فعله

تحب أن تعصي الإله وتستحي ممن سواه

(٣٧٩) أخرجه البخاري (٣٨٦٦).

تهيم في ليل الهوى يا بؤس من أرضى هواه

كم ليلة قضيتها في زلة أمضيتها

تقول يا نفس افعلي بشهوة خدعتها

تخاف من غم وهم وأنت في موج الظُّلَم

كمن يقول للغريق هيا تعال للقمم

كفاك من رق الذنوب وأصلح اليوم العيوب

أي عباد الله توبوا إلى الله واستغفروه من ذنوبكم وعودوا إليه يعد إليكم مجدكم وعزكم أسأل الله العلي العظيم أن يتوب علينا وأن يغفر لنا وأن يتجاوز عنا......... الدعاء

الشفاعة لمن؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

حمدًا لمن نبيه قد بعث *** فدوَّخت بعوثه مَن قد عثى

ثم الصلاة والسلام ما حكت *** حمائم حمائمًا إذا بكت

وهزَّت الغصون أنفاسُ الصبا *** فهيَّج صبابة لمن صبا

وَلَمَعَ البرق إذا الغيث وكف *** وطاف بالبيت منيب واعتكف

على أجلِّ مُرْسَلٍ وآله *** وصحبه وتابعي من واله.

أما بعد أيها الإخوة! من الموضوعات المهمة التي يجب علينا تدارسها وتطارحها بين الحين والآخر موضوع الشفاعة، لنتفهم هذا الموضوع الذي يكثر اللجاج حوله بين الإثبات والإنكار، أو الإيمان بأنه دافع للتوكل، أو داع للتواكل، فتعالوا بنا -أيها الإخوة- في هذه الدقائق نلم بطرف من هذا الموضوع الجليل المهم.

وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع الجليل في العناصر المحددة التالية:

أولًا: ما معنى الشفاعة؟

ثانيًا: أقسام الشفاعة.

ثالثًا: شفاعات وشفعاء.

رابعًا: أسعد الناس بالشفاعة الموحدون.

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- أسأل الله تعالى أن يستخرج منا ما يرضيه في هذا الموضوع الخطير.

أولًا: ما معنى الشفاعة؟ -أيها الإخوة- الشفاعة في اللغة من الشفع وهو ضد الوتر، ولذا جمع الله بينهما فقال: "والفجر وليال عشر والشفع والوتر"، قال العلماء: الله -عز وجل- هو الوتر الذي ليس له ثان، والشفع خلقه -عز وجل- خلقهم أزواجًا ذكورًا وإناثًا فخلق السماء والأرض وخلق البر والبحر وخلق الجن والإنس وخلق الشمس والقمر

وخلق الذكر والأنثى فكل شيء في الوجود منه الذكر والأنثى سوى الله فلا إله إلا هو الواحد الأحد فكل زوج قيل له شفع وكل مفرد قيل له وتر، ولذلك قيل ليوم عرفة: الوتر لأنه يوم التاسع وهو عدد فردي وقيل ليوم النحر:الشفع، لأنه يوم العاشر وهوعدد زوجي.

وهذا قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك في قوله تعالى: "والشفع والوتر"أي يوم النحر ويوم عرفة.

فالشفع إذا الزوج ولذلك لما كان فاعل الذنب أو طالب المصلحة واحدًا فجاء بغيره ليطلب له صارت شفاعة لأنه شفعه فصارا شفعًا بعدما كان المذنب وحده وترًا.

فالشفاعة إذاً هي الطلب مع الغير سواء في تحصيل الخير له أو التجاوز عنه من ذنب أو غيره، قال ابن الأثير في "النهاية": قد تكرر ذكر الشّفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي: السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعةً فهو شافع وشفيع، والمشفّع: الّذي يقبل الشّفاعة، والمشفّع: الّذي تقبل شفاعته. اهـ

هذا هو معنى الشفاعة –أيها الإخوة– وهي تنقسم إلى أقسام وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء: أقسام الشفاعة.

أيها الإخوة! تنقسم الشفاعة إلى قسمين: شفاعة منفية، وهي التي تطلب من غير الله –عز وجل– فيما لا يقدر عليه إلا الله، هذه شفاعة نفاها الله –عز وجل– في كتابه ونفاها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في سنته.

تدبروا –أيها الإخوة– حتى لا يقع أحدنا في سوء فهم للآيات والأحاديث فيحسب الشفاعة جملة واحدة مثبتة أو يحسبها جملة واحدة منفية فيضرب الآيات بعضها ببعض ويحسب أن كتاب ربنا يعارض بعضه بعضًا، حاشا كتاب الله من ذلك، ومن هنا وقع من وقع في نفي الشفاعة، فلنتدبر كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– بفهم السلف الصالح، فالقسم الأول شفاعة منفية نفاها الله في كتابه ونفاها رسوله في سنته وهذه نوعان:

النوع الأول: الشفاعة المطلوبة لأهل الكفر والشرك.

فهذه نفاها الله تعالى كما أخبر سبحانه عن شفاعة نوح عليه السلام في ابنه أن ينجيه الله تعالى من العذاب فقال له ربه: "إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ "، وورد عن جماعة من السلف أنهم قرءوا: "(إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ)[٣٨٠]وهو الشرك والكفر،" فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ".

(٣٨٠) تفسير الطبري – (١٥ / ٣٤٧).

وكما قال تعالى في إبراهيم بعدما وعد أباه بالاستغفار له قائلًا: "قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)" [مريم: ٤٧، ٤٨]،فلما علم كفره وشركه وإباءه أن يكون موحدًا وإعراضه عن سبيل الهدى تبرأ منه وسحب وعده ذاك بالشفاعة له قال تعالى: "وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ".

وكما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لما مات أبو طالب عمه فقال: لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فأنزل الله تعالى قوله: "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)" [التوبة: ١١٣]،فترك النبي الاستغفار له؛ رفضت هذه الشفاعات كلها ونفيت عن المشفوع له ولم تقبل لدى المشفوع عنده –عز وجل–.

وهي غير نافعة على الإطلاق وهذه هي المقصودة بقول ربنا –سبحانه وتعالى–: "فما تنفعهم شفاعة الشافعين"، وذلك في أهل الكفر والشرك والإجرام من أهل النار وبئس القرار.

قال سبحانه: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠)عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)[المدثر: ٣٨ – ٤٨].

وكما قال عز من قائل: "وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ".

وكما قال – جل وعلا– على لسان أهل النار: "فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ" [الشعراء: ١٠٠].

فهذا هو النوع الأول من الشفاعة المنفية وهى الشافعة المطلوب لأهل الكفر والشرك.

النوع الثاني من الشفاعة المنفية: الشفاعة المطلوبة من الله بغير إذن منه –عز وجل– ورضى.

فلابد من الإذن والرضى كما قال تعالى: "وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى "

وكما قال –عز وجل–: "يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)" [طه: ١٠٩] ، "وقال –جل وعلا–: "وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ" وقال عز من قائل سبحانه: "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ "وقال جل شأنه وعز سلطانه: "لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا "أي لا يملك الكافرون الشفاعة، لا يملكها إلا المؤمنون الموحدون فإنهم يملكونها بما لهم عند الله من عهد بذلك وذلك العهد هو شهادة التوحيد لا إله إلا الله

محمد رسول الله –كما سنبين بعد قليل – فتبين لنا –أيها الإخوة– أن الشافع لا يشفع إلا بإذن من الله ورضًا ولا يشفع إلا لمن أذن الله فيه وارتضى: أذن للشافع ورضي عن المشفوع له.

وهناك نوع ثالث من الشفاعة المنفية المرفوضة وهو شفاعة المعبودات التي يعبدها الكافرون والمشركون من دون الله فإنها لا تشفع لعابديها قال تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم... الآية"، ولهذا وبخهم الله بقوله: "قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢)وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)[سبأ: ٢٢، ٢٣].

فنفت هذه الآية أربعة أمور عن الأصنام والأوثان والأنداد التي يعبدها المشركون لتقربهم بزعمهم إلى الله زلفى:

الأول: أنهم ليس لهم ملك – ولو قلّ – فكيف تدعونهم وهم لا يملكون؟

الثاني: أنهم ليسوا شركاء مع المالك، فالمالك المِلكُ ليس له شريك.

الثالث: أنهم ليسوا ظهراء معينين للملك فإنه ليس له ظهير.

الرابع: أنهم لا يصلحون للشفاعة عنده، لأن الشفاعة ليست إلا لمن عنده الإذن والعهد بذلك وليس معهم ذلك العهد وهو التوحيد كما بينا فليس لهم إذن فلا يشفعون.

قال العلامة ابن القيم: وهكذا قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعًا قطعًا يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله وليًا فمثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل لديه من النفع والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الخصال الأربع.

فالشفاعة –أيها الإخوة– ملك لله تعالى وحده لا تطلب من غيره، لأنها من جنس الدعاء فلا تطلب الشفاعة من أحد على الإطلاق لا من النبي –صلى الله عليه وسلم– ولا من أحد غيره، والنصوص الواردة في الشرع عن الشفاعة إنما هي خاصة بالآخرة، نعم تطلب شفاعة المؤمنين لبعضهم البعض في الدنيا لقضاء المصالح التي تكون في استطاعة الشافع وقدرته كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– "اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء"[٣٨١] وهي الوساطة بالخير كما قال –صلى الله عليه وسلم–: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه".[٣٨٢]

(٣٨١) أخرجه البخاري ١٤٣٢.

(٣٨٢) أخرجه مسلم ٥٨٦١.

أما فيما سوى ذلك فلا، لا يصح من أحد أن يأتي قبر النبي- صلى الله عليه وسلم- في الدنيا ويقول: يا رسول الله اشفع لي عند ربك وإنما نسألها الله -تبارك وتعالى- فنقول: يا رب شفع فينا نبيك، هذا فضلًا عن رجل أو امرأة يأتي إلى مقابر الأولياء وأصحاب الأضرحة والمشاهد ويقول لهم: اشفعوا لي عند الله فهذا لا يجوز، هذا شرك بالله تعالى فلا يصح من المسلم أن يفعل هذا ولا أن يعتقده.

فيا -أيها الإخوة- الكرام الشفاعة الشركية يتعلق بها أقوام من المتعلقين بغير الله فيعتقدون أن الصالحين أحياءً وأمواتاً يشفعون لهم عند الله، والله يقبل شفاعتهم فيهم فتقضي حوائجهم بناء على اعتقادهم أن لهؤلاء الصالحين حقًّا عند الله به يجيب شفاعتهم وهذا خطأ، فمن قصد قبراً وقال: يا فلان ادع الله أن يشفيني، هذا أشرك، فما له لا يتوجه بالدعاء إلى الله مباشرة لماذا يتوسل بهذا العبد الفقير إلى الله؟ لماذا تجعل بينك وبين الله واسطة وشفاعة ارفع دعاءك إليه مباشرة – عز وجل-: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)[البقرة: ١٨٦]

ولله در العلامة الفوزان -أبقاه الله كريمًا عزيزًا وجعل كرامته عليه موصولة بكرامة الآخرة- إذ يقول: أمرنا الله – جل وعلا- أن نتوجه إليه مباشرة بدون أن نوسط أحدًا، أو نسأل بجاه أحد، أو بحق أحد، حتى ولو كان هذا الأحد له مكانة عند الله كالرسل والملائكة، لأن الله لم يشرع لنا أن نوسطهم في قضاء حوائجنا، بل الله قال: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} ما قال: ادعوني بواسطة فلان، أو وسّطوا فلاناً بيني وبينكم، قال: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، وفي الحديث: "ينزل ربنا -سبحانه وتعالى- كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟، هل من مستغفر فأغفر له؟" فالباب مفتوح بينك وبين الله -عز وجل-، لماذا هذا التعريج، وهذه الأباطيل التي تجعلها بينك وبين الله؟، اتصل بالله مباشرة، وهو سميع مجيب: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، فهذا إبطال الوسائط التي يضعونها بينهم وبين الله، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، فلا أصحاب القبور، ولا الأشجار، ولا الأحجار، ولا الأصنام، ولا أي مخلوق حتى ولا الأنبياء ولا الملائكة ليسوا واسطة بين الله وبين خلقه في قضاء الحاجات. (٣٨٣)

هذا هو القسم الأول من أقسام الشفاعة وهي الشفاعة المنفية.

والثاني: هي الشفاعة المثبتة.

---

(٣٨٣) إعانة المستفيد (١/ ٢٤٤).

والشفاعة المثبتة – أيها الإخوة – هي التي تطلب من الله –عز وجل– يطلبها الصفوة الموحدون، للموحدين كذلك، من الواحد جل في علاه فيرضى الله تعالى عن المشفوع له بسبب توحيده ويأذن للشافع بسبب توحيده ومكانته عند الله تعالى في الإيمان والتقوى، قال علماؤنا: "ولذلك الشّفاعة المثبتة لا تقبل إلا بشروط:

١– قدرة الشافع على الشّفاعة كما قال تعالى في حق الشافع الذي يطلب منه وهو غير قادر على الشّفاعة: { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السموات وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) } [يونس: ١٨]، وقال تعالى: { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) } [الزخرف: ٨٦]، فعلم من هذا أن طلب الشّفاعة من الأموات طلب ممن لا يملكها، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} وقال تعالى: { }.

٢– إسلام المشفوع له، قال الله تعالى: { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ }، والمراد بالظالمين هنا: الكافرون، بدليل الأحاديث المتواترة في الشّفاعة لأهل الكبائر، وستأتي إن شاء الله في موضعها. قال الحافظ البيهقي –رحمه الله– في "الشعب": فالظالمون هاهنا هم الكافرون، ويشهد لذلك مفتتح الآية إذ هي في ذكر الكافرين. (٣٨٤)

وقال الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في تفسير الآية: أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. اهـ

ويستثنى من المشركين أبوطالب، فإن النبي صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم يشفع له حتى يصير في ضحضاح من نار كما سيأتي إن شاء الله.

٣– الإذن للشافع، كما قال تعالى: {من ذا الّذي يشفع عنده إلا بإذنه}.

٤– الرّضا عن المشفوع له كما قال تعالى: {وكم من ملك في السّموات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} وقال تعالى:{ولا يشفعون إلا لمن ارتضى}. (٣٨٥)

و الشفاعة المثبتة أيها الحبة! أنواع كثيرة فهي فى الحقيقة شفاعات لا شفاعة واحدة كما يظن كثير من الناس، وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء:

ثالثًا: شفاعات وشفعاء.

---

(٣٨٤) "الشعب" (١/٢٠٥).

(٣٨٥) الشفاعة (ص / ١٤)، للعلامة مقبل بن هادي الوادعي –رحمه الله تعالى–.

أيها الإخوة! كثير من الناس يظن أن الشفاعة لا تكون إلا للنبي -صلى الله عليه وسلم- فحسب، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ليست له إلا شفاعة واحدة وهؤلاء أخطأوا من ناحيتين، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يشفع نعم وهو سيد الشفعاء لكن غير النبي يوم القيامة له شفاعة فهناك شفعاء مع النبي يوم القيامة، هذه ناحية.

والناحية الثانية: أن شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة ليست قاصرة على شفاعته المشهورة المعروفة ببدء الحساب وتعجيل العرض على الله يوم الفزع الأكبر، وإنما له -صلى الله عليه وسلم- بأبي هو وأمي شفاعات متعددة، فتعالوا بنا سريعًا نستعرض هذه الشفاعات ونتعرف إلى هؤلاء الشفعاء ولنبدأ بسيد شفعاء البشر وصاحب الشفاعة العظمى بأبي هو وأمي-صلى الله عليه وسلم-.

قال العلماء: ثبت لنبينا -صلى الله عليه وسلم- شفاعات عدة:

منها وهو أعظمها -الشفاعة العظمى وهي شفاعته في تعجيل الحساب لأهل الموقف وهي المقام المحمود، كما في حديث الشفاعة العظيم الجليل الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أنه قَالَ: كنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - في دَعْوَةٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً وقال: "أنا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاس مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيقُولُ النَّاسُ: أَلاَّ تَـرَوْنَ مَا أنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ، ألاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ فَيقُولُونَ: يَا آدَمُ أنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وأمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وأسْكَنَكَ الجَنَّةَ، ألاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغْنَا؟ فَقَالَ: إنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نوحاً فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أهلِ الأرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً، ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، ألاَ تَرَى إِلَى مَا بَلَغْنَا، ألاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فَيقُولُ: إنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إبْرَاهِيمَ، فَيَأتُونَ إبْرَاهِيمَ فَيقُولُونَ: يَا إبْرَاهِيمُ، أنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أهْلِ الأرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيقُولُ لَهُمْ: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذبَاتٍ ؛ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيقُولُونَ: يَا مُوسَى أنتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فيقُولُ: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ؛ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أنْتَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ ألْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ في المَهْدِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيقُولُ عِيسَى: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا

إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ – صلى الله عليه وسلم –". وفي روايةٍ: "فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أنتَ رَسُولُ اللهِ وخَاتَمُ الأَنْبِياءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ". ثُمَّ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى". (٣٨٦)

هذه هي الشفاعة العظمى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهي أولى شفاعاته.

ثانيًا: شفاعته –صلى الله عليه وسلم– في أمته حتى يدخلهم الجنة وفي استفتاح باب الجنة لأهلها وإدخاله إياهم إليها:
روى مسلم من حديث أنس أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد فيقول: بل أمرت ألا أفتح لأحد قبلك. (٣٨٧)

وروى أحمد عن أنس قال حدّثني نبيّ الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم: "إنّي لقائم أنتظر أمّتي تعبر على الصّراط إذ جاءني عيسى فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمّد يشتكون –أو قال: يجتمعون– إليك ويدعون الله –عز وجل– أن يفرّق جمع الأمم إلى حيث يشاء الله لغمّ ما هم فيه، والخلق ملجمون في العرق وأمّا المؤمن فهو عليه كالزّكمة، وأمّا الكافر فيتغشّاه الموت، قال: يا عيسى انتظر حتّى أرجع إليك. قال: فذهب نبيّ الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم حتّى قام تحت العرش، فلقي ما لم يلق ملك مصطفًى ولا نبيّ مرسل فأوحى الله –عز وجل– إلى جبريل: اذهب إلى محمّد، فقل: له ارفعْ رأسك سلْ تعط، واشفعْ تشفّع. قال: فشفّعت في أمّتي إلى أن أخرج من كلّ تسعة وتسعين إنسانًا واحدًا. قال: فما زلت أتردّد على ربّي –عز وجل– فلا أقوم مقامًا إلاّ شفّعت، حتّى أعطاني الله –عز وجل– من ذلك أن قال: يا محمّد أدخل من أمّتك من خلق الله –عز وجل– من شهد أنّه لا إله إلاّ الله يومًا واحدًا مخلصًا ومات على ذلك". (٣٨٨)

ثالثًا: شفاعته –صلى الله عليه وسلم– في دخول أقوام الجنة بلا حساب:

---

(٣٨٦) أخرجه البخاري ٤٧١٢.

(٣٨٧) أخرجه مسلم (١٩٧).

(٣٨٨) أخرجه أحمد (٣ / ١٧٨)، وابن خزيمة ص(٢٥٤)، وقال الحافظ ابن كثير في "النهاية" (٢ / ١٩١): وقد حكم الترمذي بالحسن لهذا الإسناد. اهـ.

روى الآجري في الشريعة بسند صحيح كما في الصحيحة من حديث أبي هريرة أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: سألت الله –عز وجل– الشفاعة لأمتي فقال: لك سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب".(٣٨٩)

وقد مرت معنا البشارة بالزيادة على هذا العدد في لقاء "إلى الجنة بغير حساب"، حيث وصل إلى ما يزيد عن خمسة ملايين عددًا، وثلاث حثيات بيد ربنا كرمًا وفضلًا ومددًا.

وروى الترمذي عن أبي أمامة قال: سمعْت رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم يقول: "وعدني ربّي أنْ يدخل الجنّة من أمّتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كلّ ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثياته". (٣٩٠)

رابعًا: الشفاعة في رفع درجات بعض من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه عمله.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى –رضي الله عنه– قال: لما فرغ النّبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصّمّة، فقتل دريد وهزم الله أصحابه، قال أبوموسى: وبعثني مع أبي عامر فرمي أبوعامر في ركبته رماه جشميّ بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عمّ من رماك. فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الّذي رماني. فقصدت له فلحقته فلمّا رآني ولّى فاتّبعته وجعلت أقول له: ألا تستحيي ألا تثبت. فكفّ فاختلفنا ضربتين بالسّيف فقتلته، ثمّ قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزعْ هذا السّهم. فنزعته فنزا منه الماء قال: يا ابن أخي أقرئ النّبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم السّلام وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبوعامر على النّاس فمكث يسيرًا ثمّ مات، فرجعت فدخلت على النّبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم في بيته على سرير مرمّل، وعليه فراش قد أثّر رمال السّرير بظهره وجنبه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له: استغفر لي. فدعا بماء فتوضّأ ثمّ رفع يديه فقال: "اللّهمّ اغفر لعبيد أبي عامر" ورأيت بياض إبطيه ثمّ قال: "اللّهمّ اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من النّاس" فقلت: ولي فاستغفر. فقال: "اللهمّ اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا" قال أبوبردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى.(٣٩١)

وروى مسلم عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم على أبي سلمة وقد شقّ بصره فأغمضه ثمّ قال: "إنّ الرّوح إذا قبض تبعه البصر" فضجّ ناس من أهله فقال: "لا تدعوا على أنفسكم إلاّ بخير فإنّ الملائكة يؤمّنون

---

(٣٨٩) أخرجه الآجري في الشريعة (٢ / ٣٧٩)، والبغوي في"حديث علي بن الجعد"(١٢ / ١٦٦ / ٢) وهو في الصحيحة (٤ / ٥٠٠).

(٣٩٠) أخرجه الترمذي (٤ /٥٤٠)، وابن ماجه (٢ / ١٤٣٣)، وأحمد (٥ / ٢٦٨)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص(٣٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣٩١) أخرجه البخاري (٤٣٢٣)، ومسلم (٦٥٦٢)، ونزا منه الماء: أي انصب من موضع السهم، سرير مرمّل –براء مهملة ثم ميم مثقلة–: أي معمول بالرمال، وهي حبال الحصر التي تضفر بها الأسرة، كما في "الفتح".

على ما تقولون" ثمّ قال: "اللّهمّ اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديّين، واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا ربّ العالمين، وافسح له في قبره، ونوّر له فيه".(٣٩٢)

خامسًا: الشفاعة في بعض من استوجب النار ألا يدخلها، أو يخفف عنه بعض عذابها بسبب شفاعته.

فعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي(٣٩٣)

سادسًا: الشفاعة في خروج الموحدين من النار، وسيأتي معنا الحديث الذى يدل على ذلك، حين نتحدث عن شفاعات وشفعاء.

سادسًا: الشفاعة في بعض الكافرين وهي شفاعته في تخفيف العذاب عن أبي طالب كما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– أنه سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وذكر عنده عمه أبو طالب فقال: "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه أم دماغه".(٣٩٤)

وهذا الحديث يدل على أنّ أبا طالب مات كافرًا، إذ لو كان مسلمًا لخرج من النّار مع الموحدين كما تواترت الأحاديث بخروج الموحدين من النار، لا كما يزعم الشيعة الأفاكون أنه مات موحدًا.

ويؤيد دلالة هذا الحديث على عدم إسلام أبي طالب ما رواه البخاري من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه أنّه أخبره أنّه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أميّة بن المغيرة، قال رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم لأبي طالب: "يا عمّ قل: لا إله إلاّ الله كلمةً أشهد لك بها عند الله" فقال أبوجهل وعبدالله بن أبي أميّة: يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبدالمطّلب. فلم يزل رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتّى قال أبوطالب آخر ما كلّمهم: هو على ملّة عبدالمطّلب. وأبى أن يقول: لا إله إلاّ الله. فقال رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم: "أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك" فأنزل الله تعالى فيه: {ما كان للنّبيّ} الآية. (٣٩٥)

---

(٣٩٢) أخرجه مسلم (٢١٦٩).

(٣٩٣) أخرجه أبو داود ٤٧٣٩، الترمذي ٢٤٣٥، وغيرهما، وصححه العلامة الألباني وهو في الروض النضير ٤٣ و ٦٥ ، والمشكاة ٥٥٩٨ و ٥٥٩٩، والظلال (٨٣١ – ٨٣٢).

(٣٩٤) أخرجه البخاري ٦٥٦٤، ومسلم ٥٣٥.

(٣٩٥) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (١٤١).

وفيه: فنزلتْ: {ما كان للنّبيّ والّذين آمنوا أنْ يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم}، ونزلت: {إنّك لا تهدي من أحببْت}.

وأخرج أبوداود عن علي عليه السّلام قال: قلت للنّبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم: إنّ عمّك الشّيخ الضّالّ قد مات. قال: "اذهب فوار أباك ثمّ لا تحدثنّ شيئًا حتّى تأتيني" فذهبت فواريته وجئته فأمرني فاغتسلت ودعا لي. (٣٩٦)

ولا إشكال في شفاعة النبي لأبي طالب مع ما قدمنا من أنه لا شفاعة للكافرين والمشركين، لأنها خصوصية للنبي –صلى الله عليه وسلم– يؤتاها فقط في أبي طالب.

ومن جميل ما قرأت بهذا الصدد –أيها الإخوة– ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري عن عروة بن الزبير، عن زينب بنت أم سلمة، عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان ولمسلم: "عزة بنت أبي سفيان"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم"أو تحبين ذلك؟"قلت: نعم لست لك بمُخْلِية، وأحب من شاركني في خير أختى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فإن ذلك لا يحل لى"، قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، وفى رواية: "درة بنت أبي سلمة"قال: "بنت أم سلمة؟" قلت: نعم، قال: "إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لى، إنها لابنة أخى من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن".(٣٩٧)

زاد البخاري: قال عروة: وثويبة مولاة لابي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما مات أبو لهب أُرِيَه بعض أهله بشر حَيْبة، فقال له: ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيرا، غير أنى سقيت في هذه بعتاقتى ثويبة.

أشار إلى النقرة التى بين الابهام والتى تليها من الأصابع، وذكر السهيلي وغيره: أن الرائى له هو أخوه العباس، وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبى لهب بعد وقعة بدر، وفيه: إن أبا لهب قال للعباس: إنه ليخفف على في مثل يوم الاثنين.

قالوا: لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله–صلى الله عليه وسلم– أعتقها من ساعته، فجوزي بذلك لذلك. (٣٩٨) ذكر ذلك كله الحافظ ابن كثير في السيرة.

ومما قاله أحد المجيدين في هذا قال:

فيا رب

---

(٣٩٦) أخرجه أبو داود (٣٢١٤)، وغيره وصححه العلامة الألباني، الأحكام (١٣٤ ، ١٣٥).

(٣٩٧) أخرجه البخاري (٥١٠١)، وأخرجه مسلم (١٤٤٩).

(٣٩٨) السيرة النبوية لابن كثير – (١ / ٢٢٤).

إذا كان هذا كافر جاء ذمه وتبت يداه في الجحيم مخلدا

أتى أنه في يوم الاثنين يخفف عنه للسرور بأحمدا

فما الظن بالعبد الذي كان عمره بأحمد مسرورًا ومات موحدا

اللهم ارزقنا شفاعة نبيك يا أرحم الراحمين

جعلت حياتك للزمان ربيعا ومشى بشيرك في الأنام مذيعا

الله أكبر حين بشرها قائلا وهب الإله إلى الأنام شفيعا

فهذه الشفاعات الخاصة بالنبي –صلى الله عليه وسلم–، وأما الشفاعات التي له ولغيره فلها حديث أيضًا ماتع جذاب! وهل غير النبي –صلى الله عليه وسلم– يشفع؟

والجواب: نعم يشفع بقية الأنبياء، ويشفع الملائكة المقربون، ويشفع المؤمنون، بل ويشفع أرحم الراحمين رب العالمين – سبحانه وتعالى– وما أدراك ما شفاعة أرحم الراحمين الذي وسعت رحمته كل شيء؟! ويجمع هذه الشفاعات كلها — أيها الإخوة – حديث عظيم جليل عذب جميل روى هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّ نَاسًا فِى زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–" نَعَمْ ». قَالَ « هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ ». قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « مَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ اللَّهِ –تبارك وتعالى– يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِى النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ. فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِى النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. – قَالَ – فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِى النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ –سبحانه وتعالى– فِى أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِى رَأَوْهُ فِيهَا.

قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِى الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا – مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا – حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ

هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ. ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا. ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجِسْرُ قَالَ « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا ». وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)"فَيَقُولُ اللَّهُ -عز وجل- شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ ». فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ قَالَ « فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ.

فَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا أَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا. فَيَقُولُ رِضَاىَ فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».[٣٩٩]

أيها الإخوة! هذه هي الشفاعة وأنواعها وأنواع الشفعاء وشفاعاتهم فهنيئًا لمن كان على السبيل الذي تناله عليه الشفاعة لقد أفلح وأنجح وسعد في الدنيا والآخرة ولكن من هذا السعيد المفلح؟! والجواب بعد جلسة الاستراحة بمشيئة الله تعالى، أسأل الله أن يجعلنا من أهل الطاعة، ومن يستحقون الشفاعة.

الخطبة الثانية

(٣٩٩) أخرجه مسلم ٤٧٢.

الحمد لله الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، من أسعد الناس بشفاعة المصطفى –صلى الله عليه وسلم– ومن معه يوم القيامة؟

والجواب من فم المصطفى –صلى الله عليه وسلم– فيما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة يا رسول الله؟ فقال المصطفى –صلى الله عليه وسلم–: "لقد ظننت أنه لا يسألني عن هذا السؤال أحد قبلك لما رأيت من حرصك على الحديث، يا أبا هريرة! أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا مخلصًا من قلبه.[٤٠٠]

ورواه الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة بلفظ: سألت رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم: ماذا ردّ إليك ربّك في الشّفاعة؟ فقال: "والّذي نفس محمّد بيده لقد ظننت أنّك أوّل من يسألني عن ذلك من أمّتي، لما رأيت من حرصك على العلم، والّذي نفس محمّد بيده ما يهمّني من انقصافهم على أبواب الجنّة أهمّ عندي من تمام شفاعتي، وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلاّ الله مخلصًا يصدّق قلبه لسانه ولسانه قلبه".[٤٠١]

وفي صحيح مسلم أنه –صلى الله عليه وسلم– قال: "لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً".[٤٠٢]

أخي في الله! هل تدبرت هذه الأحاديث؟ إنها كلها تُجمع على أمر واحد هو أن الشفاعة لا ينالها إلا الموحدون ولا تنال إلا الموحدين، إذاً حتى تنال الشفاعة فلا بد من أن تصحح توحيدك وتحققه وذلك بأن تقول كلمة لا إله إلا الله، وتعيش بها، وتعمل من أجلها وتدعو إليها، وبالجملة أن تحيا حياة لا إله إلا الله كاملة، بمنهجها الشامل الكامل فتكون كلمة التوحيد كلمة لا إله إلا الله منهجك في الحياة.

---

(٤٠٠) أخرجه البخاري (٦٥٧٠).

(٤٠١) أخرجه أحمد (٨٠٥٦)، والبخاري في "التاريخ الكبير" (٤/ ١١١)، وابن حبان كما في "الموارد" ص(٦٤٥)، والحاكم (١/ ٧٠) وقال: صحيح الإسناد وسكت عليه الذهبي، وهو حديث حسن، وقال الأرناؤوط في التعليق على المسند: صحيح دون قوله" والذي نفس محمد بيده ما يهمني من انقصافهم على أبواب الجنة أهم عندي من تمام شفاعتي" وإسناد الحديث قابل للتحسين.

(٤٠٢) أخرجه مسلم ٥١٢.

فمن الناس من يردد لا إله إلا الله بلسانه ولا يفقه ولا يدري معناها بقلبه، ومن الناس من يقول لا إله إلا الله ويخالفها بعمله وعبادته فراح يصرف العبادة لغير الله فهو لا يعرف لكلمة التوحيد معنى ولا يقف لها على مضمون ولا يعرف لها مقتضى، ولا تؤثر في حياته وسيرته.

ومن الناس من يردد بلسانه لا إله إلا الله وقد انطلق حرّاً طليقاً ليختار لنفسه من المناهج الأرضية والقوانين الوضعية بها ما يوافق هواه.

ومن الناس من ينطق ولا يتبع منهج الحبيب محمد –صلى الله عليه وسلم–، ومن الناس من يردد كلمة لا إله إلا الله وهو لم يحقق الولاء والبراء لله فلربما كان حب مغنية أو راقصة أكبر فى قلبه من حب الله ورسوله.

ومن الناس من يردد بلسانه كلمة لا إله إلا الله وقد ترك الصلاة وضيع الزكاة وضيع الحج مع قدرته واستطاعته، وأكل الربا، وشرب الخمر، وأكل أموال اليتامى، يسمع أمر الله فيهز كتفيه في سخرية وكأن الأمر لا يعنيه، ويسمع المواعظ فيهزأ وكأن الأمر لا يعنيه.

فلابد من إخلاص التوحيد، فإن كلمة التوحيد ليست مجرد كلمة يرددها اللسان فحسب، بل إن التوحيد قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالجوارح والأركان ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه، ومن قال خيراً وعمل شرّاً لم يقبل منه وإن قوماً غرتهم الأماني فقالوا: نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، فوالله لن يسعد بالشفاعة إلا من أخلص التوحيد لله، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والحديث في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت: "من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل".[٤٠٣]

وفي حديث عتبان بن مالك – وهو في الصحيحين كذلك –: "فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله"[٤٠٤]، ولاحظ هذا القيد العظيم"يبتغي بها وجه الله".

فكلمة التوحيد كلمة عظيمة مثلها كمثل الشجرة الطيبة جذورها الحب والإخلاص، وساقها اليقين والقبول، وأوراقها الانقياد، وكما أن الشجرة من غير ماء وضوء لا تعيش فكذلك لا إله إلا الله بدون علم وصدق لا تعيش، فإن العلم ماؤها والصدق ضوؤها.

(٤٠٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).

(٤٠٤) أخرجه البخاري (٤٢٥) ومواضع، ومسلم (٣٣).

وصلى الله وسلم على من ادخر دعوته شفاعة لنا ففي مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم: "لكلّ نبيّ دعوة دعا بها في أمّته فاستجيب له، وإنّي أريد إن شاء الله أن أؤخّر دعوتي شفاعةً لأمّتي يوم القيامة". (٤٠٥)

نسأل الله تعالى أن يحسن خاتمتنا، وأن يشفع فينا نبينا وصل اللهم وسلم وزد وبارك على الرحمة المهداة والنعمة المسداة حبيبك ومصطفاك، اللهم شفع فينا نبيك يا أرحم الراحمين ، واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا الطريق إلى رضاك وألزمنا الرضا بما يرضيك عنا، يا جواد يا كريم يا حنان يا منان يا ذا الجلال والإكرام..... الدعاء.

(٤٠٥) أخرجه مسلم (٥١٤).

نعمة الهداية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

والله لولا أنت ما اهتدينا .... ولا صمنا ولا صلينا

أما بعد فيا أيها الإخوة! إن حديثنا اليوم بمشيئة الله تعالى عن موضوع جليل مهم ذلك لأنه حديث عن أعظم وأشرف وأجل نعمة امتن الله بها على عباده إنها: نعمة الهداية

وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع الكريم في العناصر التالية:

أولاً: معنى الهداية وأقسامها.

ثانياً: أسباب الهداية وعلاماتها.

ثالثاً وأخيراً: عقبات في طريق الهداية.

فأعيروني القلوب والأسماع – أيها الإخوة – والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولاً: معنى الهداية وأقسامها:

أيها الإخوة.. أعظم ما امتن الله به علينا هو نعمة الهداية للتوحيد كما قال سبحانه: "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)" [الحجرات: ١٧]، وامتن الله علينا بسبب الهداية الأكبر وهي بعثة المصطفى ﷺ فقال –جل وعلا–: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)[آل عمران: ١٦٤].

وافترض سبحانه على عباده أن يتضرعوا إليه بطلب الهداية في اليوم مرات ومرات وذلك في كل ركعة من ركعات الصلاة في قراءة الفاتحة حيث نقرأ قوله تعالى: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)" [الفاتحة: ٦].

وامتلأت آيات القرآن وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام بهذه اللفظة الجميلة في مبناها ومعناها: "الهداية"ومشتقاتها الكثيرة: "اهتدى، هَدَى، هُدَى، يهدي... إلخ هذه المشتقات"فما معنى الهداية أيها الإخوة؟

الهداية في اللغة هي الدلالة والتعريف والإرشاد والبيان.

وفي الحديث أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر –رضي الله عنه– فكان من دأب أبي بكر أنه كان ردفاً للنبي ﷺ وكان شيخاً يعرف ونبي الله ﷺ شابٌّ لا يعرف فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول أبو بكر: هذا هاد يهديني الطريق(٤٠٦)أي يعرفني ويدلني ويرشدني إلى الطريق فيحسب الحاسب أن أبا بكر يريد الطريق وإنما هو يعني سبيل الخير وطريق الوصول إلى الله تعالى.

هذا هو معنى الهداية –أيها الإخوة– ثم إن الهداية تنقسم إلى أربعة أقسام:

أولاً: الهداية العامة ومعناها أن الله تعالى خلق كل شيء في الكون على الصورة والشكل الذي يعينه على أداء المصلحة والمهمة التي خلق من أجلها كما قال سبحانه: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)" [الأعلى: ١ –٣].

وكما قال سبحانه عن فرعون وهو يسأل: "قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى"أي ثم هداه إلى ما يصلحه ويؤهله للقيام بالوظيفة التي خلق ووجد من أجلها.

لله في الآفاق آيات لعل أقلها هو ما إليه هداكَ

ولعل ما في النفس من آيات عجب عجاب لو تربعيناك

الكون مشحون بأسرار إذا حاولت تفسيراً لها أعياك

قال الإمام ابن القيم: "من تأمل بعض هداياته سبحانه في خلقه علم أنه الإله الواحد الأحد الحق الذي يستحق أن يعبد ويوحد بلا منازع أو شريك".

هذه هي الهداية العامة التي لو تدبرنا نظام كل شيء في هذا الكون العجيب الغريب لوصلنا إليها ووقعنا عليها.

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذي الصحاري والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا
سل هذه الأنسام والأرض والسما سل كل شيء تسمع التوحيد لله ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا

(٤٠٦) الرحيق المختوم – (ص ١٣٢).

فيا رب

كل الوجود على وجودك شاهد وكل الكائنات لك تقر وتشهد

فوا عجبًا كيف يعصى الإله أو كيف يجحده الجاحد

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

ثانياً: هداية الدلالة والإرشاد:

وهذا النوع من أنواع الهداية من أعظم الأشياء التي تدلنا على عظيم رحمة الله تعالى بنا فتفكر معي لحظة أيها الحبيب!

خلق الله –تبارك وتعالى– الإنسان وأودع فيه فطرة نقية تدله على الخير والشر كما قال تعالى: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)" [الإنسان: ٣].

وكما قال سبحانه: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)" [الشمس: ٧ – ١٠].

وكما قال سبحانه: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)" [البلد: ١٠].

وفي الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ). [٤٠٧]

إلى غير هذا من الأدلة، أقول فكان من الحق لو عذب الله تعالى الخلق على غوايتهم وضلالتهم إذا ضلوا عن سواء السبيل بمجرد هذه الهداية الفطرية التى خلق الله الخلق عليها، ولكن من رحمة ربنا وفضله أنه لم يعذب خلقه بها،بل أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين يعرفون الخلق به ويدلون الناس عليه وأوجب ذلك على نفسه كما قال تعالى: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا" فلم تبق من الأمم أمة إلا وجاءها رسول من الله كما قال ربنا: "وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ".

(٤٠٧) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

وأبقى الله بعد هذا كله – في كل أمة هداة مهديين مرشدين معرفين من الأولياء والدعاة والصالحين ورثة للأنبياء في رسالتهم فهم يدلون الخلق بعد رحيل الرسل إلى طريق الخالق سبحانه وهؤلاء لم تخل منهم أمة من الأمم.

روى مسلم من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل". (٤٠٨)

الهداية العامة التى أهل الله بها كل مخلوق إلى ما ينفعه فى أداء وظيفته، وهداية الإرشاد والدلالة التى تتمثل فى الهداية الفطرية وبعثة الرسل ونعمة بقاء الدعاة الى الله على طريق الرسل بعد رحليهم وهذا كله –أيها الإخوة– إنما هو فقط للدلالة والإرشاد والتعريف والبيان فهي كلها لا تعمل عملها ولا تؤتي ثمرتها ولا يحصد حصادها إلا إن حالفتها هداية أخرى وهي النوع الثالث من أنواع الهداية وهي:

"هداية التوفيق"وهداية التوفيق لا يملكها ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبد صالح وإنما يملكها الله تعالى وحده الذي يملك أن يوفق ويضل، ويعطي ويحرم، ويغدق ويمنع، ويسعد ويحزن، ويهدى ويشقي، ويعز ويذل: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)[آل عمران: ٢٦، ٢٧]".

ولهذا قال الله تعالى لنبيه لما أراد أن يدخل أبا طالب الإسلام وسعى لذلك بكل جهد وسبيل وبذل غاية ما في وسعه ولكن أبا طالب لم يهتد قال الله لنبيه: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" فرسول الله ﷺ لا يملك الهداية لأحد فما بالك بمن دون النبي ﷺ ولهذا فغيره من الأولياء والصالحين الذين يُدعون من دون الله –عز وجل– من باب أولى وأحرى ألا يملكوا شيئاً من الهداية، لأن أفضل الخلق وأقربهم إلى الله قد انتفت عنه وهو بهذه المنزلة، فنفيها عن غيره أولى وأحرى" إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ".

ولا يتعارض هذا –أيها الإخوة– مع قوله تعالى للنبي ﷺ: "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" لا تعارض،فالأولى التي نفاها الله عن نبيه هي هداية التوفيق والثانية التي أثبتها له هي هداية الإرشاد والدلالة فالنبي يملك أن يدل الناس على الله ويأخذ بأيديهم إليه ويهديهم إليه بتعريف وبيان ولكنه لا يملك القلوب، فإن القلوب بيد علام الغيوب –سبحانه وتعالى–.

---

(٤٠٨) أخرجه مسلم (٤٩).

روى البخاري ومسلم من حديث ابن المسيب عن أبيه قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال له: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله"فقالا له:أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعادها عليه النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله فقال النبي ﷺ: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك" فأنزل الله –عز وجل–: "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)" [التوبة: ١١٣].[(٤٠٩)]

وأنزل الله كذلك: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ "سبحان ربى إن الله وحده هو الدى يملك هدايه التوفيق والتثبيت.

لم يملك النبي ﷺ هداية التوفيق لعمه وإن بذل كل ما في وسعه من هداية الإرشاد والدلالة والبيان – وهذا أيها الإخوة– يضع أيدينا على الأمر الخطير والشيء المهم وهو أننا بحاجة في كل نفس إلى أن نضرع إلى الله أن يهدينا إلى سواء السبيل ويثبتنا على الصراط المستقيم.

والله لـولا أنـت مـا اهتـدينا	ولا صـــــمنا ولا صـــــلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا

قال تعالى عن عباده المؤمنين العارفين به: "وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)[الأعراف: ٤٢، ٤٣].

ومن هداه الله تعالى في الدنيا إلى طاعته ووفقه إلى عبادته هداه في الآخرة إلى جنته، وهذه الهداية هي الهداية في الآخرة وهي النوع الأخير من أنواع الهداية.

فمن هدى في الدنيا إلى الصراط المستقيم هدى في الآخرة للسير على قدر هداه في الدنيا على الصراط المنصوب على متن جهنم،على قدر سيرك أيها الحبيب هنا يكون سيرك هناك، وعلى قدر الشهوات والشبهات التي تعيق سيرك على الصراط المستقيم في الدنيا ستكون قوة الخطاطيف والكلاليب التي تعيق سيرك على الصراط إلى جنات النعيم.

(٤٠٩) أخرجه البخاري (٤٦٧٥)، ومسلم (٢٤).

روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– وفيه أن النبي ﷺ قال: "ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون: اللهم سلم سلم قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: "دحض مَزلّة فيه خطاطيف وكلاليب وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم".(٤١٠)

فالسير على الصراط يوم القيامة يكون على قدر السير على الصراط المستقيم في الدنيا فالمؤمن والطائع يهدى إلى الجنة والكافر والعاصي يهدى إلى النار فيأخذون جزاءهم ويخرج الموحدون بالشفاعة كما أوضحنا في اللقاء السابق ويبقى من حبسهم القرآن لأنهم أشركوا ولم يكونوا مع أهل التوحيد والإيمان.

قال تعالى عن المؤمنين من أهل الهدى في الدنيا: "وهدوا إلى الطيب من القول (أي في الدنيا)" وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ "فالهداية في الدنيا توفيقا وتثبيتاً من الله تعالى إلى صالح الأقوال والأعمال كانت سبباً في الهداية في الآخرة إلى صراط الله تعالى ثم إلى جنته سبحانه وكل عبد صالح يهدى الى منزله فيها.

روى البخاري وغيره من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: "إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وُهذبّوا انطلقوا إلى الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا". (٤١١)

هداية إلى الجنة والمنزل فيها وصدق ربي إذ يقول: "وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)" [محمد: ٦]، فكل مؤمن يعرف منزله فينطلق إليه مباشرة دونما تعريف من أحد.

وأما الكافرون، وأما الظالمون وأما المجرمون، وأما الخاسرون فيهديهم الله تعالى إلى دركات النار كما قال سبحانه: "احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)" [الصافات: ٢٢، ٢٣].

فالمؤمنون والطائعون ينطلقون بهداية ربهم إلى الجنة، والكافرون العصاة المجرمون يهديهم ربهم إلى الجحيم، الهداية العامة، وهداية البيان والتعريف والارشاد، وهداية التوفيق، وهداية فى الآخرة هذه هي أقسام الهداية –أيها الإخوة– فما هي أسباب الهداية وما هي علاماتها؟ هذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء.

أسباب الهداية وعلاماتها:

(٤١٠) أخرجه البخاري ٧٤٣٩، ومسلم ٤٧٢.

(٤١١) أخرجه البخاري ٢٤٤٠.

الهداية نعمة من الله تعالى يرزقها من شاء من عباده ولها أسباب من أخذ بها رزقه الله الهداية ووفقه إليها ومن أسباب الهداية أيها الكرام الأجلاء:

أولاً: التوحيد: فالتوحيد من أعظم أسباب الهداية فمن وحدالله هدى،فإن من عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته أحبه ورجاه وخافه واتقاه وعمل على عبادته وتعظيمه وخشيته وهذه هي الهداية قال سبحانه: "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ". ومن هدى الله قلبه سجد سجدته بين يديه إلى يوم يلقاه لا ينفك ينتقل من طاعة إلى طاعة لما ذاق من حلاوة السجود بين يديه -عز وجل- وصدق من قال: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة"يعني القرب من الله وتذوق نعيم وحلاوة عبادته فالتوحيد أعظم أسباب الهداية.

ثانياً: الاعتصام بالله ودعاؤه ورجاؤه على الدوام، ولذلك دعانا الله إلى سؤاله وحثنا على التضرع إليه أن يهدينا إلى الصراط المستقيم كما ندعو فى الفاتحة قائلين "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)[الفاتحة: ٦، ٧].

وقال تعالى: "وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" أيها الإخوة؟ هو كما قال علي ابن أبي طالب:الصراط المستقيم القرآن، وقال ابن عباس: الصراط المستقيم هو الإسلام، وقال ابن الحنفية: الصراط المستقيم هو دين الله الذي لا يقبل غيره أبدًا، فحاجة العبد إلى سؤاله الهداية وطلبها من مولاه أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والهواء، لذا لم يقل الله تعالى في الفاتحة اهدنا النصر المبين، ولا اهدنا الرزق الكثير ولكن قال ربنا: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ "لأن هذه الهداية فيها فلاح وصلاح الدنيا والآخرة فاللذة والسعادة كلها في هداية الله لنا للإسلام والعمل بطاعته وفي طاعته فمن كان من أهل الهدى كان سعيداً قبل الموت وبعده ولهذا كان سؤال الهداية أعظم الأدعية.

وفي الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره من حديث النواس بن سمعان أن النبي ﷺ قال: "ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداع يدعو في جوف الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، قال ﷺ: والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله -عز وجل-، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم. [٤١٢]

فسل الله الهداية إلى الإسلام أيها الحبيب ولا تَمل ولا تَكل ولا تُخل بذلك يكتب لك التوفيق بمشيئة الله.

هذا ونكمل الحديث عن بقية الأسباب بعد جلسة الاستراحة

---

(٤١٢) أخرجه أحمد (١٧٦٧١)، والترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (١١٢٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! ثالثاً من أعظم أسباب الهداية: "المحافظة على الصلوات فى أوقاتها فى الجماعة ":

فمن حافظ على الصلوات فى المسجد فى الجماعة هدى الله قلبه وثبته وأوصله إلى حيث يريد من مرضاته روى مسلم من قول ابن مسعود رضي الله عنه: "من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي بهن، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادي بين الرجلين حتى يقام في الصف.(٤١٣)

فمن حافظ على الصلوات رزقه الله الهداية.

رابعاً: الصحبة الصالحة:

أن تصحب رجلاً يذكرك بالله إذا نسيت ويعينك على ذكر الله إذا ذكرته، وقد ذكر الله تعالى ما يبلغ أثرُ الصاحب في صاحبه فقال: "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)[الفرقان: ٢٧ - ٢٩]".

وعن أَبِي مُوسَى الأشعري- رضى الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ، وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً ».". (٤١٤)

ولهذا أوصى النبي ﷺ فقال: "لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقيّ"فالصحبة الصالحة من أعظم أسباب الهداية.

خامسًا: ومن أعظم أسباب الهداية كذلك، المجاهدة.. مجاهدة النفس لتتعلم عن الله ورسوله، ومجاهدتها لتعمل بهذا العلم، ومجاهدتها على الدعوة إليه بالحق، ومجاهدتها على الصبر والأذى في سبيل الدعوة إليه، لأن من تعلم وعمل وعلّم لابد أن

---

(٤١٣) أخرجه مسلم ١٥٢٠.

(٤١٤) أخرجه البخاري ٢١٠١.

يتعرض للأذى قال تعالى:الم (١)أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤)مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)[العنكبوت: ١ – ٦] فمن جاهد نفسه وشيطانه ورفقة السوء وصّله الله تعالى وأخذ بيده إلى الهداية قال سبحانه: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩).

وقد قال –عز وجل-: "الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) "

هذه هي أسباب الهداية –أيها الإخوة– .. فما هي علاماتها وبإيجاز علامات الهداية تحقيق التوحيد، والمحافظة على الصلوات،والسمع والطاعة لله ورسوله في كل أمر صغير أو كبير كما قال تعالى: "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧)الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)[الزمر: ١٧، ١٨]".

وقال تعالى في شأن نبيه: "وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا "فطاعة الله –عز وجل– وطاعة رسوله من أعظم علامات الهداية.

ومن علامات الهداية التي يستدل بها العبد على سلوكه طريق الهداية بالفعل ما دلنا عليه رسول الله ﷺ في حديثه الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّى أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ – قَالَ – فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِى السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ – قَالَ – ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّى أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ – قَالَ – فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِى أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ – قَالَ – فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِى الأَرْضِ » [٤١٥]

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر أنه قال: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل من الخير فيلقى الله له الثناء الحسن؟ فقال النبي ﷺ: "تلك عاجل بشرى المؤمن".[٤١٦]

فحب الناس للعبد وثناؤهم عليه وإجماعهم على القرب منه والمودة له وخلعهم بالإجماع عليه من علامات هداية العبد، والمقصود والمعنّ فى هذا الحديث طبعاً هم المؤمنون الذين هم ألسنة الحق في الأرض.

---

(٤١٥) أخرجه البخاري ٧٤٨٥ ومسلم ٦٨٧٣.

(٤١٦) أخرجه مسلم ٦٨٩١.

كما في الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث عائشة أنه ﷺ قال: "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف". (٤١٧)

قال الإمام الخطابي: "أرواح المؤمنين تحن إلى المؤمنين وأرواح المنافقين تحن إلى المنافقين".

قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)"[مريم: ٩٦]،أي محبة في قلوب عباده المؤمنين.

وهذه الأسباب والعلامات تعمل عملها وتؤتي ثمارها الطيبة إذا حافظ المرء على العمل بها واجتناب أضدادها وهي عقبات الهداية وهذا هو عنصرنا الأخير من عناصر اللقاء: عقبات في طريق الهداية هذه الأضداد والعقبات –أيها الإخوة– ظاهرة واضحة في آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ فمن هذه العقبات التي تمنع السير في طريق الهداية:

– الكفر: قال الله تعالى: "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ".

– الظلم: قال الله تعالى: "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ".

– الفسق: قال الله تعالى: "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ".

– الإسراف والكذب: قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ".

– الهوى: قال الله تعالى: يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)[ص: ٢٦].

– الشيطان:قال تعالى: "كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)، [الحج: ٤].

– النفس الأمارة بالسوء: قال تعالى" وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)" [يوسف: ٥٣].

– الانشغال بالدنيا: قال تعالى: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)[آل عمران: ١٤]

(٤١٧) أخرجه البخاري (٣٣٣٦).

قال تعالى: "قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)[التوبة: ٢٤].

وكما فى الحديث الذى مر معنا فى مثل الجليس الصالح والجليس السوء، فاحذر أخي هذه العقبات وسل الله أن ينجيك منها بفضله واستعن بالله على كل ذلك فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ولا معين لك إن لم يعنك الله فبيده وحده هداية القلوب، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم اهدنا واهد بنا واجعلنا هداة مهديين، اللهم اهدنا واهد بنا واجعلنا سببًا لمن اهتدى، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب اللهم لك الحمد على الهداية الى الاسلام ولك الحمد على اتباع المصطفى علية الصلاة والسلام... الدعاء. [٤١٨]

(٤١٨) استفدت في هذه الخطبة كثيرًا من خطبة "طريق الهداية" لصاحب الفضيلة الشيخ محمد حسان حفظه الله وسدد على طريق الحق خطاه.

إياكم والغلو في الصالحين

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد أيها الإخوة فإن المؤمن الحق لا يكون كذلك حتى يدور مع الكتاب والسنة في كل أموره صغيرها وكبيرها، بل حتى يعرض ما في نفسه قبل أن يصير واقعاً وحالاً عليهما، فما وافقهما عمل به وما خالفهما اجتنبه وحذره، سواء في ذلك المألوفات وغيرها، فلا يحتج الإنسان على الشرع بالعادة فهذا شأن الكافرين الذين قال الله تعالى فيهم: إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) [الزخرف: ٢٢، ٢٣]

لذا يجب على العبد النظر فى كل ما نشأ عليه ويعرضه على الكتاب والسنة فما وافقهما استمر عليه وما خالفهما نبذه وطرحه، ومما نشأنا عليه فرأينا الناس تفعله وتداوم عليه بل وتصر عليه لمجرد الإلف والعادة مع أنه يخالف كتاب الله وسنة نبينا كل المخالفة ذلك الغلو في الصالحين سواء من الأولياء أو الأنبياء وتعالوا بنا نقرب من واقعنا بلا مزايدة على الحقيقة ولا استكبار عن الإقرار بالواقع نفتح هذا الملف الذي كانت ولا تزال قضيته هي مفتاح كل شرور على الموحدين في الأرض من لدن نوح بل وحتى إلى قيام الساعة كما سنرى الآن سوياً من خلال تطرقنا له.

وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع في العناصر المحددة التالية:

أولاً: الموحدون يؤمنون بالكرامة للأولياء كما يؤمنون بالمعجزات للأنبياء.

ثانياً: مخالفات مرذولة ومبالغات غير مقبولة.

ثالثاً: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولاً: الموحدون يؤمنون بالكرامات للأولياء كما يؤمنون بالمعجزات للأنبياء:

أيها الإخوة! إن من أصول أهل السنة والجماعة: الإيمان بكرامات الأولياء وإثباتها والتصديق بها واعتقاد أنها حق وذلك باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة، وقد دل عليها القرآن في غير موضع والأحاديث الصحيحة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين وغيرهم، وما كان هذا شأنه كان لابد من الإيمان به واستحال إنكاره، ولذا أودع أئمة أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى هذا الأصل العظيم في كتبهم كأصل من أصول العقيدة وثوابت الإيمان.

قال الإمام الطحاوي في عقيدة أهل السنة والجماعة: "وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء، ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم[٤١٩]

وقال عبد الواحد التيمي في كتابه الماتع: اعتقاد الإمام المبجل أحمد بن حنبل: وكان يذهب إلى جواز الكرامات للأولياء وينكر على من رد الكرامات ويضلله. [٤٢٠]

وقال الإمام السفاريني في الدرة المضية في عقيدة أهل الفرقة المرضية:

وكـــل خـــارق أتـــى عـــن صـــالح ... مـــن تـــابع لشـــرعنا وناصـــح
فإنهـــا مـــن الكرامـــات الـــتي ... بهـــا نقـــول فـــاقف للأدلـــة
ومـــن نفاهـــا مـــن ذوي الضـــلال ... فقـــد أتـــى في ذاك بالمحـــال
فإنهـــا شـــهيرة ولم تـــزل ... في كـــل عصـــر يـــا شـــقا أهـــل الزلـــل[٤٢١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية: "ومن أصول أهل السنة: التصديق بكرامات الأولياء وما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ودلت الوقائع قديماً وحديثاً على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لهدي أنبيائهم". [٤٢٢]

وهذا شيخ الإسلام ابن القيم عقد فصلاً كاملاً في كتابه الرائع: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام"، عقد فصلاً كاملاً في ما ظهر على أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات وبين أنها من جملة الآيات والمعجزات التي أيد الله بها رسوله ﷺ فإن كل كرامة لولي إنما هي آية للنبي الذي يتبعه ذلك الولي.

---

(٤١٩) شرح العقيدة الطحاوية – (ص / ٤٩٤)، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الرابعة،١٣٩١.

(٤٢٠) اعتقاد الإمام ابن حنبل – (١ / ٣٠٦).

(٤٢١) العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) – (ص / ٨٩)، محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني، مكتبة أضواء السلف – الرياض، ١٩٩٨، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود.

(٤٢٢) شرح العقيدة الواسطية – (ص / ٣٤٩)، للعلامة محمد خليل هراس، الأولى، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

فلتسمع الدنيا كلها ولتصغ الآذان جميعها، نعم نؤمن بالكرامات ولا ننفيها ونثبت الكرامات ولا نلغيها يثبتها أحمد بن حنبل ويثبتها ابن تيمية وابن القيم ويثبتها محمد عبد الوهاب ويثبتها السنية والسلفية هذا كلامهم –أيها الإخوة- ولم لا؟ وهو كلام ربنا الجليل ونبينا العظيم ونحن المؤمنون بكلام الله وكلام رسول الله.

ألم يقل الله تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)[يونس: ٦٢ – ٦٤] هذه كرامات الأولياء.

ألم يقل الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)[آل عمران: ٣٣ – ٣٧]". هذه كرامات الأولياء.

ألم يقص الله علينا في القرآن قصة أصحاب الكهف وما حدث لهم من الكرامات؟!

ألم يقل النبي ﷺ فيما روى البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رضى الله عنهما – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِى الْجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا. فَقَالَ أَحَدُهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِى وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِى صِبْيَةٌ صِغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَىَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِى، وَإِنَّهُ نَاءَ بِىَ الشَّجَرُ فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلاَبِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَىَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِى وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الثَّانِى اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِى ابْنَةُ عَمٍّ، أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الْخَاتَمَ. فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً. وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنِّى كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِى حَقِّى. فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ، فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِى فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِى، وَأَعْطِنِى حَقِّى. فَقُلْتُ اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا. فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِى. فَقُلْتُ إِنِّى لاَ أَهْزَأُ بِكَ،

فَخُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرَاعِيَهَا. فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ ». (٤٢٣)

وهذا من الكرامات وقد ذكرها الله تعالى في قوله: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) [الكهف: ٩] وأصحاب الرقيم هم هؤلاء المذكورون في هذا الحديث.

ألم يقل النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ:مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا من عادى أى من آذى أوحارب وليس من عاد من العودة والرجوع إلى الله "فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ». (٤٢٤)

وهذه أقوال أهل السنة والجماعة قدمناها في إثبات الكرامات للأولياء -أيها الإخوة- وعمليًّا لا تخلو كتب أهل السنة والسلف من كتب الحديث والسيرة وكتب التاريخ والتراجم من ذكر الكرامات عن أولياء الله الصالحين من السابقين واللاحقين ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: "بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِى سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِى حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِى حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ. لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِى السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِى فَقَالَ إِنِّى سَمِعْتُ صَوْتًا فِى السَّحَابِ الَّذِى هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لاِسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّى أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِى ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ ».(٤٢٥)

وها هم الصحابة وهم سادات الأولياء جرت على أيديهم الكرامات الكثيرة ومن ذلك: ما روى البخاري من حديث أنس -رضي الله عنه- أن رجلين خرجا من عند النبي ﷺ فِى لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا، فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا. (٤٢٦)

والرجلان -أيها الإخوة- هما الصحابيان الجليلان أسيد بن حضير وعباد بن بشر، وأسيد هذا أيضاً هو الذي تنزلت السكينة لقراءته القرآن ففي مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن أسيد بن حضير - -رضي الله عنه- وعن أبي سعيد

---

(٤٢٣) أخرجه البخاري ٣٤٦٥.

(٤٢٤) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

(٤٢٥) أخرجه مسلم ٧٦٦٤.

(٤٢٦) أخرجه البخاري ٣٨٠٥.

– بينما هو ليلة يقرأ القرآن في مربده إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا قَالَ أُسَيْدٌ فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِى فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِى الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا – قَالَ – فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِى مِرْبَدِى إِذْ جَالَتْ فَرَسِى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–" اقْرَإِ ابْنَ حُضَيْرٍ ». قَالَ فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–" اقْرَإِ ابْنَ حُضَيْرٍ ». قَالَ فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–" اقْرَإِ ابْنَ حُضَيْرٍ »، قَالَ فَانْصَرَفْتُ. وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِى الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–" تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ ».(٤٢٧)

ومن أروع ما قرأت ما روى أبو نعيم في الحلية عن أبي البختري قال: "بينما أبو الدرداء يوقد تحت قدر له وسلمان رضي الله تعالى عنه عنده إذ سمع أبو الدرداء في القدر صوتاً، ثم ارتفع الصوت بتسبيحه كهيئة صوت الصبي قال ثم ندرت – أي:وقعت– فانكفأت ثم رجعت إلى مكانها لم ينصب منها شيء فجعل أبو الدرداء ينادي: يا سلمان انظر إلى العجب، انظر إلى ما لم تنظر إلى مثله أنت ولا أبوك، فقال سلمان: أما إنك لو سكت لسمعت من آيات الله الكبرى، فكان أبو الدرداء إذا كتب إلى سلمان أو سلمان كتب إلى أبي الدرداء كتب إليه يذكره بآية الصحفة(٤٢٨)

ومن ينابيع الكرامة ما فاض فكثر وتوارد فتواتر على أيدي التابعين وقد كانت حاجتهم إلى ذلك أكثر من حاجة الصحابة إليها فقد رأى الصحابة المعجزات وشهدوا تنزل الآيات فكثرت الكرامات في التابعين عنها في الصحابة لذلك، ومن صحيح ما يروى في كرامات التابعين ما روى مسلم في صحيحه من حديث أسيد بن جابر قال كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد من أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر حتى أتى على أويس فقال أنت أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ نَعَمْ. قَالَ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ قَالَ نَعَمْ. قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ قَالَ نَعَمْ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ « يَأْتِى عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ ». فَاسْتَغْفِرْ لِى. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ الْكُوفَةَ. قَالَ أَلاَ أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا قَالَ أَكُونُ فِى غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَىَّ. قَالَ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَوَافَقَ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ قَالَ تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ « يَأْتِى عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ ». فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ اسْتَغْفِرْ لِى. قَالَ أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِى.

---

(٤٢٧) أخرجه مسلم ١٨٩٥.

(٤٢٨) حلية الأولياء (١ / ١١٩).

قَالَ اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ لَقِيتَ عُمَرَ قَالَ نَعَمْ. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ. قَالَ أُسَيْرٌ وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً فَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ مِنْ أَيْنَ لأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ [٤٢٩]

ومن الكرامات والشيء بالشيء يذكر ما حدث لعمر –رضي الله عنه– نفسه فيما ذكره ابن الأثير في أسد الغابة عن ابن عمر، عن أبيه: أنه كان يخطب يوم الجمعة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرض له في خطبته أن قال: "يا سارية بن حصن، الجبل الجبل – من استرعى الذئب ظلم". فتلفت الناس بعضهم إلى بعض، فقال علي: صدق، والله ليخرجن مما قال. فلما فرغ من صلاته قال له علي: ما شيء سنح لك في خطبتك؟ قال: وما هو؟ قال: قولك: "يا سارية، الجبل الجبل، من استرعى الذئب ظلم" قال: وهل كان ذلك مني؟ قال: نعم، وجميع أهل المسجد قد سمعوه. قال: إنه وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا، فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوا وقد ظفروا، وإن جاوزوا هلكوا، فخرج مني ما تزعم أنك سمعته. قال: فجاء البشير بالفتح بعد شهر، فذكر أنه سُمع في ذلك اليوم في تلك الساعة، حين جاوزوا الجبل صوت يشبه صوت عمر، يقول: "يا سارية بن حصن، الجبل الجبل"قال: فعدلنا إليه، ففتح الله علينا. [٤٣٠]

ولا زالت الكرامات –أيها الإخوة– في هذه الأمة يتحف الله بها أهلها جيلاً بعد جيل ولا تنقطع إلى قيام الساعة وهذا كله من كرامة الأمة على ربها ومن قبل ذلك من كرامة نبي الأمة ﷺ على ربه.

ومن عجيب ما اطلعت عليه في هذا الصدد ما ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير في تفسير سورة الحجرات قال روى ابن جرير: عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، قال: لما نزلت هذه الآية: { لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ } قال: قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، قال: فمر به عاصم بن عدي من بني العَجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت فيَّ وأنا صيِّت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها: إذا دخلتُ بيت فَرَسي فشدّي عَلَيّ الضبَّة بمسمار فضربته بمسمار حتى إذا خرج عَطَفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله، –عز وجل–، أو يرضى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وأتى عاصم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره، فقال: "اذهب فادعه لي". فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفَرَس، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك. فقال: اكسر الضبة. قال: فخرجا فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يبكيك يا ثابت؟". فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في: { لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ }. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما ترضى أن تَعِيش

---

(٤٢٩) أخرجه مسلم ٦٦٥٦.

(٤٣٠) أسد الغابة (٢ / ٣٢٣).

حَميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟". فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أرفع صوتي أبدًا على صوت النبي صلى الله عليه وسلم. قال: وأنزل الله: { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى }،

وجاء في بعض الروايات عن أنس قال: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة.

فماذا حدث له بعد موته؟ جاء في سير أعلام النبلاء عن أنس أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة، وقد تحنط، ولبس ثوبين أبيضين، فكفن فيهما، وقد انهزم القوم، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعنى المشركين، وأعتذر من صنيع هؤلاء يعنى المسلمين، ثم قال: بئس ما عودتم أقرانكم! خلوا بيننا وبينهم ساعة، فحمل، فقاتل حتى قتل، وكانت درعه قد سرقت، فرآه رجل في النوم، فقال له: إنها في قدر تحت إكاف، بمكان كذا وكذا، وأوصاه بوصايا، فنظروا فوجدوا الدرع كما قال، وأنفذوا وصاياه.(٤٣١)

فهذا -أيها الإخوة- هو الرجل الوحيد الذى أوصى فى المنام بعد موته ونفذت وصيته على يد الصديق أبى بكر رضى الله عنه وعن باقي الأصحاب.

واقرأ معي ما حدث للتابعي الجليل أبي مسلم الخولاني -رحمه الله- تعالى فقد ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عطاء الخراساني، أن امرأة أبي مسلم قالت: ليس لنا دقيق.

فقال: هل عندك شيء؟ قالت: درهم بعنا به غزلًا.

قال: ابغينيه وهات الجراب، فدخل السوق، فأتاه سائل، وألح، فأعطاه الدرهم، وملأ الجراب نشارة مع تراب، وأتى وقلبه مرعوب منها، وذهب، ففتحته، فإذا به دقيق حوارى (٤٣٢) أي: أبيض صافي، قال: فعجنت وخبزت، فلما جاء ليلا، وضعت له الطعام، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الدقيق، فأكل وبكى. (٤٣٣)

إذاً فالكرامات ثابتة مستقرة لأولياء الله نؤمن بها ونقر، كما أن المعجزات ثابتة مستقرة لأنبياء الله نؤمن بها ونقر، لكن- أيها الإخوة- ينبغي أن توضع هذه الكرامات في مكانها الشرعي الصحيح دون زيادة بها أو نقصان وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء:

---

(٤٣١) أخرجه الحاكم ٣ / ٢٣٤ - ٢٣٥، وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في"المجمع"٩ / ٣٢٢، وقال: هو في الصحيح غير قصة الدرع، وأخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وانظر سير أعلام النبلاء- (١ / ٣١١).

(٤٣٢) سير أعلام النبلاء - (٤ / ١٢)، وابن عساكر(٩ / ١٩ ب).

(٤٣٣) الدقيق الحوارى: الأبيض.

مخالفات مرذولة ومبالغات غير مقبولة:

أيها الإخوة! الولي عبد كريم على ربه نال كرامته من عبوديته، فلا ينبغي على الإطلاق أن يزعم ذلك العبد أو يُزعَم فيه ما يهز هذا السبب، لأن باهتزازه حتماً تهتز مكانته التي تبوأها بهذا السبب، فتضيع هذه المكانة، ولذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة أن للكرامة شروطاً حتى تكون فعلاً كرامة وإلا كانت استدراجاً وإهانة، كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره بسند صحيح كما في صحيح الجامع من حديث عقبة بن عامر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيت الله يُعْطِي العبدَ من الدنيا على مَعاصيه ما يُحِبُّ، فإنما هو اسْتِدْرَاج". ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ }. (٤٣٤)

نعم للكرامة شروط وآداب حتى تكون كرامة وإلا تحولت إلى استدراج وإهانة فمن شرائط الكرامة ألا تخرج عن الشرع المطهر فلا تحل حراماً أو تحرم حلالًا فمن انقطع عن الصلاة بزعم أنه وصل إلى حد اليقين وأن الله تعالى يقول وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) [الحجر: ٩٩] ويقول هذا الذي لم يفهم عن الله مراده: خلاص أنا وصلت إلى حد اليقين ويزعم من هنا أنه أسقطت عنه التكاليف فيترك الصلاة ويشرب الخمر ويزني ويأتي المنكرات ويدع الواجبات ويسمونه ولي، نعم والله يسمونه ولى، لقد صمت أذناي وأنا أسمع رجلاً يشغل أحد أخطر المنصبين الدينيين في بلدنا وهو يحكي قصة شيخ من شيوخه العظام الكبار الذي يسلك عندهم في سلك كبار الأولياء، هذا الولي دخلت عليه امرأة جميلة تسأله وتستفتيه فأشار إليها ذلك الولي إلى حجرة عنده واستجابت المرأة للإشارة فدخلت الحجرة ودخل الولى! وراءها وأغلق الباب وبعد زمان خرجا فلما خرج لم يجد أحداً من طلابه إلا واحداً فقال: أين إخوانك، أين الطلبة؟ قال: ذهبوا جميعاً قال: ولِمَ؟ قال لما دخلت بالمرأة الحجرة وخلوت بها نفروا وذهبوا مغضبين، قال: وأنت ما أجلسك؟ يقول الشيخ القاصُّ: فقال له الطالب: أسخن لك الماء، جلس يسخن له الماء فقال: ولماذا ما ذهبت مع زملائك؟ قال: ما اتبعتك على أنك نبي؟ ثم أردف الشيخ الكبيرالقصة ليداري ويوارى عوارها بقوله: قيل لعبد القادر: أيزني الولي؟ قال: "وكان أمر الله قدراً مقدورًا"، ثم قال الشيخ الكبير!: وتلميذ المرسي أبي العباس ضبطوه يزني بامرأة فذهبوا ليمسكوه فأفلت فلاحقوه حتى أتى على شاطئ فمشى في البحر على الماء، فما استطاعوا أن يمشوا وراءه وذهبوا إلى المرسي أبي العباس وقالوا: كيف يزني ويمشي على الماء؟ فقال: "إن الكريم إذا وهب ما سلب".

أهذا كلام يعقل يا أولي الألباب؟ وهل مثل هذه السخافات تعد كرامات؟ إن الكرامة لا تكون لعاص أبداً، إنما هذه إهانة ومذلة من الله لمن عصاه واستدراج له من الله.

فمن شرائط الكرامة أن لاتحل حرامًا ولاتحرم حلالًا، ذلك أن الولى تابع للشرع الذى جاء به النبيﷺ.

---

(٤٣٤) أخرجه أحمد (٤ / ١٤٥)، ابن جرير في"التفسير"(٧ / ١١٥)، عن أبي الصلت والدولابي في "الكنى" (١ / ١١١)، وابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (٣٢)، وصححه الألباني في"السلسلة الصحيحة"١ / ٧٠٠.

ومن شرائط الكرامة أن تكون لحي يرزق بين الأحياء أو ميت لكن يبلغ بها عن طريق حي، لكن الميت لا يظهر كرامة بنفسه فليس هناك ميت مثلًا يستعصي أو يتأبى على حاملي نعشه يقول بلسان حاله لحامليه: لا تذهبوا بي إلى القبور واذهبوا بي إلى المسجد لتدفنوني فيه، أو يرغمهم بالقوة على ذلك، هذه ليست كرامة وإنما هي حيلة وجريمة شيطانية، إذ كيف تكون كرامة وقد نهى النبي أن تتخذ المساجد قبوراً وأن ندفن فيها موتانا ولعن الذي يفعل ذلك كما روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". قالت عائشة: يحذر ما صنعوا. (٤٣٥)

وليس هناك نعش يطير في الهواء إنما الميت الكريم على ربه يدفن في الأرض كما دفن رسول الله ﷺ خير الخلق وكما دفن الأنبياء والصحابة والأئمة بين قبور المسلمين هذه كلها لا تكون كرامات بل إهانات.

ومن شرائط الكرامة أيضاً: أن تكون لحاجة فالكرامة ليست ألعوبة في يد الذي تجري على يديه إنما يعطيها الله إياه في وقت يحتاجها بل فى وقت أشد ما يكون حاجة إليها أما ما سوى ذلك فلا ؛ كما صاح عمر بن الخطاب رضي الله عنه"يا سارية الجبل الجبل"تلك الصيحة نجت بها جيوش المسلمين من بين فكي أعداء الله الكافرين وكما نجا أبو مسلم الخولاني من نار الأسود العنسي حين كان وحده ولم يكن به طاقة للدفاع عن نفسه.

والإمام القرطبي –رحمه الله تعالى– يذكر في تفسيره عند قوله تعالى: "وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً"قال:ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن "منثور" من أعمال قرطبة شيء من الكرامة، وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبكه، يعنون شيطاناً، وأعمى الله –عز وجل– أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك.(٤٣٦)

ويقص الحافظ ابن عساكر في كتابه العظيم تاريخ دمشق كرامة لولي من الأولياء هو عبد الواحد بن واقد فيقول: حدثني محمد بن إسماعيل الفرغاني قال: كنت مع عبد الواحد بن واقد فخرجنا نحو الزبداني – مكان– فإذا نبطية معها حمارة قد سخرها جندي فلما خلي بها راودها عن نفسها فمنعه عبد الواحد من ذلك،وقال: دع المرأة فأبى ولح فغضب عبد الواحد من ذلك غضبًا شديدًا وقال: ويلك دع المرأة فأبى وقال لغلمانه: خذوه أي يأخذوا عبد الواحد، فالتفت إليه عبد الواحد

---

(٤٣٥) أخرجه البخاري (٤٣٥) ومواضع، ومسلم (٥٣١).

(٤٣٦) تفسير القرطبي (١٠ / ٢٧٠).

وقال: يا أرض خذيه فأخذته الأرض ومضت المرأة يقول الفرغاني: فقلت له: لا أصحبك فقال: ولم؟ قلت: أنا بشر لا آمن أن أزل زلة فتفعل بي مثل ما رأيت فقال: يا أبا بكر ما هذا حالي ولكن الله أراد أن يريكم آية. (٤٣٧)

ولذلك -أيها الإخوة- فمن آداب الكرامة الاستتار بها وعدم المراءاة بإظهارها إلا إذا كانت هناك حاجة تدعو إلى إظهارها فيظهرها صاحبها ولذلك قالوا: إن الولي يستتر من كرامته كما تستتر المرأة من حيضتها، وكانوا يقولون: "كل ما ظهر من عملنا لا نعده شيئاً" فإذا تحقق لدى الناس صدق ولاية من ظهرت ولايته لحفاظه على الواجبات وتركه وهجره لسائر المنكرات وجب عليهم أن يتعاملوا معه أيضاً بحدود الشرع دون مبالغة أو إطراء فيقفون به عند حده، إن هو إلا عبد أنعم الله عليه وجعله مثلاً وقدوة تحتذى فيهم، فليعرفوا له مكانته وليقتدوا به في عمله،هذا هو الحد الشرعي للولي سواء كان حيّاً أو ميتاً،أما المبالغات والغلو والإطراء والمزايدة على ما ذكرنا فكل ذلك مرفوض في دين الله -عز وجل-، لأن أصحابه هالكون بتنطعهم وغلوهم ذلك، هلك من سبق ويهلك من لحق بالغلو في الصالحين كما بيّن ذلك خير بيان سيد الأنبياء والمرسلين، نعم لا يجوز الغلو في أحد من الأولياء بل ولا الأنبياء بل ولا سيدهم وإمامهم ومسك ختامهم المصطفى عليه الصلاة وأتم التسليم، والأدلة على ذلك متوافرة متكاثرة.

نحن لا نلقى بالكلام جزافًا ولانطلقه عبثًا بل هذا ما علمنا إياه رسول الله ﷺ.

روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله". (٤٣٨)

قال الإمام القرطبي معناه: لا تصفوني بما ليس فيّ من الصفات تلتمسون بذلك مدحي، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا وهذا يقتضي أن من رفع امرءًا فوق حده وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمعتد وآثم لأن ذلك لو جاز في أحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله ﷺ.

ولا يتعللن أحد بأنه يعظم بذلك الغلو رسول الله ﷺ فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح، والتعظيم النافع هو تصديقه ﷺ فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر، والموالاة والمعاداة والحب والبغض لأجله، وتحكيمه وحده والرضا بحكمه،وألا يتخذ من دون شرعه شرع ولا قانون، وإنما يكون بالتحاكم إلى أقواله فما وافقها من قوله ﷺ قبله وما خالفها رده وأعرض عنه.

فهل هؤلاء المطرون الذين يغالون في رسول الله ﷺ كذلك؟ اللهم لا.

---

(٤٣٧) تاريخ دمشق - (٣٧ / ٢٩٠).

(٤٣٨) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

فإن من قال:

ومـــن تــك برســول الله نصــرته	إن تلقـه الأسـد في آجامهـا تجـم
ولقـد تـرى مـن ولي غـير منتصـر بـه	ولا مـن عـدو غـير منفصـم

ليس كذلك.

ومن قال:

فـإن مـن جـودك الـدنيا وضـرتها	ومـن علومـك علـم اللـوح والقلـم

ليس كذلك أيضاً.

هؤلاء جميعاً لا يعرفون قدر المصطفى ولا يعرفون رسالته، فإنه نهى عن الإطراء والغلو فيه وفي غيره.

روى الإمام أحمد بسند صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو"[٤٣٩]

يحذر ﷺ من الغلو في كل شيء في الاعتقاد وفي العمل وفي العادة وفي الأشخاص وفي الهيئات، لأنه هو الداء العضال الذي ضرب الأمم السابقة بسهام الهلاك والقتل والضياع ضاعت بسبب الغلو أمم فقد غلت أمة نوح في الصالحين فهلكت، وغلت اليهود في عزير فهلكوا، وغلت النصارى في عيسى فهلكوا، قال تعالى عن قوم نوح: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)".

وفي الصحيح عن ابن عباس في هذه الآية قال: "أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ....". [٤٤٠]

وقال ابن القيم: "قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم". [٤٤١]

(٤٣٩) أخرجه أحمد ١ / ٢١٥، ٣٤٧ وابن ماجه (٣٠٦٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٩٨)، وقال النووي في (المجموع) (١٣٧/٨): إسناده صحيح على شرط مسلم، وكذا قال شيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم" ص١٠٦، وهو مخرج في" الصحيحة" (١٢٨٣).

(٤٤٠) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

وقال تعالى عن حال اليهود مع العبد الصالح عزير، والنصارى مع نبي الله عيسى عليه وإخوانه النبيين أفضل الصلاة وأتم التسليم: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [التوبة: ٣٠]، ولا زال الغلو في الأمم يبيدها ويحيق بها اللعنات المتتالية من رب الأرض والسموات.

قال الله –عز وجل–: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) [النساء: ١٧١ – ١٧٣].

يا قوم! اتبعوا ولا تبتدعوا وعليكم بالكتاب والسنة، هذا هو الطريق هذا هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، أن نلزم ما كان عليه السلف الأول على نهج محمدﷺ وصحبه عليهم رضوان الله أجمعين فدعوا عنكم بنيات الطريق،هذه معالم الطريق واضحة، دعوا الغلو في القبور، دعوا الغلو في الأولياء والصالحين دعو الغلو في الأضرحة والمقامات، إن قرون الإسلام المتتالية من بعد النبي ﷺ عشرة قرون لم تعرف قبراً يزار إلا للعظة ولا ضريحاً يؤتى إلا للدعاء لصاحبه لا يعرفون مطلقًا ميتاً يدعى ويرجى ويتوسل به بل أبناؤه وذريته يعملون الأعمال الصالحة لتجري عليه في قبره صدقة جارية من الأحياء عليه،ثم جاءت هذه الآفات التي أخذت بالمسلمين من الطريق الصحيح إلى عوج الطريق فكان الحال ما نرى، ضعف ثقة وخور همة، وانخرام عزيمة ومروءة، وذلة وهوان وضعة أمام أعداء الله تعالى بسبب بعدنا عن حقيقة ديننا.

والحل.. اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء:

أيها الإخوة!إن النصر والفرج واليسر والخير كله يرجى من الله، والله لا يحتاج منا إلى واسطة فعليكم بالقرآن العظيم والسنة المطهرة فهما خير دليل على طريق الله وإياكم والغلو في الصالحين فإنه الهلاك المبين لكن ما هو الدواء لهذه المسألة مسألة الغلو في القبور والغلو في الصالحين والجواب بعد جلسة الاستراحة أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

---

(٤٤١) إغاثة اللهفان (ص ٥٥٢).

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد.. فيا أيها الإخوة!

لا ينكر منصف عاقل أن الغلو في القبور بشتى صوره وأنواعه قد عمّ وطمَّ في غالب البلاد، وتلبس بهذه المظاهر الشركية وطرائقها الكثير من الناس، وصارت هذه القبور مزارات بل و(مشاعر) يقصدها الناس، ويشدون إليها الرحال من سائر الأمصار؛ وسدنة هذه الأضرحة وعلماء الضلالة يزيّنون الشرك للعامة بشتى أنواع الدعاوى والشبهات، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله ـ تعالى ..

إنها وثنية في ثوب جديد تحتاج إلى وقفة صادقة من كل مخلص صادق، وإن على المنتسبين للعلم والدعوة واجباً كبيراً تجاه هذا التيار الوثني الذى يسرى فى الأمة سريان النار فى الهشيم، ونشير في عجالة سريعة إلى بعض الأمور التي تسهم في حل وعلاج هذه الظاهرة.

فمن هذه الأمور:

أولًا- الدعوة إلى التوحيد من العلماء والدعاة وطلاب العلم في تلك المجتمعات المولعة بتعظيم القبور والغلو فيها، وأن يجتهدوا في تجلية مفهوم التوحيد ـ من خلال القصص القرآني وضرب الأمثال ـ وضرورة تعلق القلب بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأن الله ـ -عز وجل- ـ هو المتفرد بالنفع والضر والخلق والتدبير، ومن ثَمّ فهو المألوه المعبود الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وخشية ورجاءاً.

وبيان عجز المخلوقين وضعفهم، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ـ فضلاً عن غيرهم ـ نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وإلى تحبيب هذا التوحيد إلى الناس من خلال الحديث عن فضائل التوحيد وبيان ثمراته وآثاره، وأخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والصالحين الذين حققوا التوحيد، كما ينبغي الاهتمام بإظهار أثر التوحيد على الحياة العامة.

ثانيًا- تربية الأمة عموماً ـ وهذه المجتمعات المعظمة للقبور خصوصاً ـ على أهمية التسليم لنصوص الكتاب والسنة والتحاكم إليها وانشراح الصدر لها.

يقول سبحانه: "فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً"[النساء: ٦٥].

وإذا كان طواغيت هذا العصر يفرضون على الناس احترام الشرعية الدولية والإذعان والتسليم لقرارات الأمم المتحدة؛ فإن علينا ـ معشرَ الدعاة إلى الله ـ أن ندعو المسلمين إلى ما أوجبه الله عليهم من التسليم والانقياد لنصوص الوحيين وعدم معارضتها بأي نوع من المعارضات سواءً أكان تقليداً، أو معقولاً، أو ذوقاً، أو سياسة أو غيره؛ فالإيمان مبني على التسليم لله ـ تعالى ـ والإذعان لشرعه[٤٤٢]

يقول أبو الزناد ـ رحمه الله ـ: (إن السنن لا تخاصم ولا ينبغي لها أن تتبع بالرأي، ولو فعل الناس ذلك لم يمضِ يوم إلا انتقلوا من دين إلى دين، ولكنه ينبغي للسنن أن تُلزَم ويُتمسك بها على ما وافق الرأي أو خالفه)[٤٤٣]

ثالثًا– الدعوة إلى الالتزام بالشرع والعمل بالسنة؛ فإن إظهار السنن والتمسك بها يستلزم زوال البدع واندثارها، وكذا العكس فإنه ما ظهرت بدعة إلا رفع مثلها من السنة، والنفوس إن لم تشتغل بسنة وتوحيد؛ فإنها ستشتغل ببدعة وشرك؛ فالنفوس خلقت لتعمل لا لتترك[٤٤٤].

وقد تتثاقل النفوس تجاه الالتزام بالأحكام الشرعية، وتنشط تجاه ما أحدثته من بدع ومحدثات، ومن ثم يتعين على دعاة الإصلاح أن يأخذوا على أيدي هؤلاء ويذكّروهم بفضل التمسك بالشرائع، وأن هذه الشرائع غذاء وروح، وقرة عين وسرور قلب[٤٤٥] يقول أبو الوفاء ابن عقيل ـ متحدثاً عن تلك النفوس المتثاقلة تجاه الشرائع–:

(لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهى الشرع عنه، ومن: إيقاد النيران، وتقبيلها، وخطاب الموتى بالألواح، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا...)[٤٤٦]

رابعًا– الدعوة إلى تدبر آيات القرآن الحكيم، والحث على التأمل والتفكر في معاني القرآن، كما قال ـ سبحانه ـ: "كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ"[ص: ٢٩].

وقال ـ عز وجل– ـ: "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً". [النساء: ٨٢].

---

(٤٤٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم، ٤/١٥٦٠.

(٤٤٣) الحجة لقوام السنة، الأصفهاني، ١/٢٨١.

(٤٤٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/٦١٧.

(٤٤٥) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ١/٢٥، ٢٦.

(٤٤٦) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٤٥٥، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/٦١١، وإغاثة اللهفان، ١/١٣٣.

وإن من أعظم أسباب الضلال واستفحال الشرك: الإعراض عن تدبر آيات القرآن، والاقتصار على مجرد قراءته دون فهم أو فقه.

يقول الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن حسن. –رحمه الله– في هذا المقام.:

(فمن تدبر عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه، والوعيد على فعله، والثواب على تركه، وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن وجهله بما أمر الله به ونهى عنه)[٤٤٧]

وعلينا أن نتواصى بتطهير القلوب وتزكيتها لكي يحصل الانتفاع بمواعظ القرآن وأحكامه.

---

(٤٤٧) قرة عيون الموحدين، ص٣٣.

يقول ابن القيم عند قوله: "لا يَمَسُّهُ إلاَّ المطَهَّرُونَ"[الواقعة: ٧٩]:

(دلّت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوّث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي)(٤٤٨).

خامسًا- يجب علينا -أيها الإخوة- نحو المغالين فى القبور والأضرحة مخاطبة عقولهم، ودعوتهم إلى التفكير والتأمل؛ فإن الولوع في تقديس الأضرحة والغلو فيها لا يظهر إلا عند أقوام ألغوا عقولهم، وعطلوا تفكيرهم، وأشربوا حبّ التقليد ومحاكاة الآباء دون حجة أو برهان.

سادسًا وأخيرًا- يجب علينا التحذير من الوسائل المؤدية إلى هذا الغلو فكل ما كان وسيلة أو ذريعة تؤول إلى الشرك فينبغي التحذير منها ومنعها حماية لجناب التوحيد؛ فالتهاون في هذه الوسائل حتمًا يفضي إلى الوقوع في الشرك بالله ـ -عز وجل- ـ والخروج عن الملة، فمثلاً الصلاة عند القبور والبناء عليها أمور حرمها الشارع؛ لأنها طريق ووسيلة تفضي إلى الشرك بالله ـ تعالى ـ، وقد أشار العلامة الشوكاني ـ رحمه الله ـ إلى أن البناء على القبور سبب رئيس في عبادة القبور فقال: (فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ منه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور ووضع الستور عليها وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين؛ فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبة فدخلها، ونظر على القبور الستور الرائعة، والسرج المتلألئة، وقد سطعتْ حوله مجامر الطيب، فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيماً لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين، وأشدّ وسائله إلى إضلال العباد ما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً، حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله ـ سبحانه ـ، فيصير في عداد المشركين)(٤٤٩).

هذه -أيها الإخوة- أمور ينبغى الأخذ بها لإنهاء وعلاج هذا الوضع المزرى وحتى نلقى الله تعالى مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا اللهم احفظنا من الغلو وطرقه.........الدعاء

(٤٤٨) التبيان في أقسام القرآن، ص١٤٣.

(٤٤٩) انظر شرح الصدور بتحريم رفع القبور، ص ١٧، وقد نقلت عنصر الدواء كله عن: انحرافات القبوريين... الداء الدواء د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، مختصرًا تارة ومتصرفًا أخرى.

تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل على محمد وعلى أهل بيته وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل بيته وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد

يا طريداً ملأ الدنيا اسمُه وغدا لحناً على كلِّ الشِّفاه

وغدتْ سيرتُه أسطورةً يتلقَّاها رواةٌ عن رواه

ليت شعري هل درى مَنْ طاردوا عابدوا اللاتِ وأتباعُ مناه

هل درتْ مَنْ طاردتْه أُمةٌ هُبَلٌ معبودُها شاهتْ وشاه

أما بعد فيا أيها الإخوة!

إن رسول الله ﷺ شرع لنا زيارة القبور للاعتبار والاتعاظ بالموت وحال أهلها، لنتذكر بمصيرهم مصيرنا وقد كان ذلك بعد منع منه ﷺ، نعم كانت زيارة القبور في أول الإسلام ممنوعة محرمة ثم أذن النبي ﷺ فيها بقوله: كما في مسلم من حديث بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: "نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها"[٤٥٠]وعلل ﷺ ذلك أي بيّن السبب فيه –كما في مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة – قال: "زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: "استأذنت ربي في أن أستغفر لأمي فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت". [٤٥١]

نعم.. فإن من رأى ما صار إليه غيره اتعظ بمصيره وأحسن مسيره وعلم أنه موقوف ومسئول وأن دنياه هذه إلى زوال فيحسن فيما بين يديه ويتقي الله –عز وجل– فيما يأتي ويذر، وزيارة القبور تذكر هذا كله:

أتيت القبور فناديتها... وأين المعظَّم والمحتقر

وأين المدَّل بسلطانه... وأين العزيز إذا ما افتخر

(٤٥٠) أخرجه مسلم ٢٣٠٥.

(٤٥١) أخرجه مسلم (٩٧٦)

تفانوا جميعًا فلا مخبر... وماتوا جميعًا ومات الخبر

وصاروا إلى مالك قاهر... عزيز مطاع إذا ما أمر

تروح وتغدو بنات الثرى... وتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائلي عن أناس مضوا... أما لك فيما ترى معتبر

لقد قلد القوم ما قدموا... فإما نعيم وإما سقر

ورحم الله الذي قال:

قف بالقبور بأكباد مصدعة... ودمعة من سواد القلب تنبعث

وسل بها عن أناس طالما رشفوا... ثغر النعيم وما في ظله مكثوا

ماذا لقوا في خباياها وما قدموا... عليه فيها وما من أجله ارتبثوا

وعن محاسنهم إن كان غيرها... طول المقام ببطن الأرض واللبث

وما لهم حشرات الأرض تنهشهم... نهشًا تزول له الأعضاء والنجث

وتلكم الفتيات إذ طرحن بها... هل كان فيهن ذا التغيير والشعث

فإن يجبك على لأي مجيبهم... ولن يجيب وأنى ينطق الجَدَث

فانظر مكانك في أفناء ساحتهم... فإنه الجد لا هزل ولا عبث

واعمل لمصرع يوم هال أوله... ومن أمامك فيه الروع والجأث(٤٥٢)

---

(٤٥٢) انظر العاقبة في ذكر الموت (ص/ ١٤٩)، للإمام عبد الحق الأشبيلي، المعروف بابن الخراط.: مصدعة: قد فطرها الحزن والهم، ورشفوا: مصوا وتذوقوا، والثغر: الفم، خبايا: باطن أو داخل، ارتبثوا: تفرقوا، النجث: غلاف القلب، والشعث: التغير والاتساخ، لأي: بطء، واحتباس، الجدث: القبر، الجأث: الفزع.

لكن بعض الناس للأسف الشديد يحول هذه الزيارة من وسيلة للاتعاظ والاعتبار والادكار إلى وسيلة تفتح عليه بحراً من السيئات كالسيل المنهمر، فمن الناس من إذا زار القبور لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية وصدرت منه كلمات تسخط رب البرية جل في علاه.

نعم.. نسمع ذلك ونراه وكأن رسول الله ﷺ لم يقل كما في الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود أنه ﷺ قال: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية". (٤٥٣)

ومن النساء من تذهب فتنوح وتعدد مآثر من مات وتذكر فضائل من رحل وكأنها لم تسمع قول نبيها ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت". (٤٥٤)

أيها الإخوة.. إنما شرع لنا الله ورسوله في زيارة القبور سنة تتبع وطريقة تحتذى، فمن زار منا قبراً فليدع لأهل القبور عموماً ولأقاربه ومعارفه خصوصاً فيكون محسناً إليهم بالدعاء وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسناً إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الموت والآخرة.

روى مسلم من حديث عائشة وفيه أنه – ﷺ – قال: فإن جبريل أتاني فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قالت عائشة: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المتقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون". (٤٥٥)

هذا هو المشروع في زيارة المقابر –أيها الإخوة– دعاء للأموات واستغفار لهم من رب الأرض والسموات، واتعاظ وادكار واعتبار بحالهم.

أما أن تجعل زيارة المقابر وسيلة للتفاخر وطريقة للتباهي فإذا زار الرجل أو المرأة قبر قريبه ذكر مآثره ومحاسنه ومراتبه ومناقبه، ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد بل والله صار التفاخر إلى بناء المقابر في زخرفتها وتشييدها وبنائها وذلك قد نهى عنه الله ورسوله أ لم تسمع إلى ربنا يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)[التكاثر: ١ – ٨].

---

(٤٥٣) أخرجه البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣).

(٤٥٤) أخرجه مسلم (٦٧).

(٤٥٥) أخرجه مسلم ٢٣٠١.

ذكر ابن كثير –رحمه الله– أن هذه السورة نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان وفلان؟ وقال الآخرون: مثل ذلك تفاخروا بالأجياد قال:ثم انطلقوا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان – يشيرون إلى القبور – ومثل فلان وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله –عز وجل–"ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر"،كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان،وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم. (٤٥٦)

فعلام –أيها الإخوة– .. علام التفاخر والتباهي؟ وهذه القبور التي شيدناها وزيناها علام هي الأخرى؟ علام التشييد وبناؤها عالية ضخمة فخمة أدواراً وفللاً وساحات وأندية إن حال المقام فيها والله لا يتغير بذلك،فلن يقلب البناء الجميل المزخرف المزركش حال التعيس البائس، ولن ينقص من أجر العامل المحسن الصالح أن يدفن في خربة، لأنها مجرد زيارة نعم إنما الميت ضيف في قبره سوف يقضى وقت ضيافته وهو قصير جداً ثم يروح ويتركه.

عن ميمون بن مهران قال كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) [التكاثر: ١، ٢]، فلبث هنيهة ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله يعني أن يرجع إلى منزله، إلى الجنة أو إلى النار.

ولله در أعرابي ثقف لقن ذكي فطن سمع قوله تعالى: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) [التكاثر: ١، ٢] فقال: بعث اليوم ورب الكعبة، أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره.

فعلام هذه الزخارف وإنفاق الأموال في غير موضعها فإن الله سيسألنا عنها فماذا نحن قائلون؟

ومن الناس –أيها الإخوة– من يذهب إلى القبور فيفعل ما هو وسيلة إلى الشرك يتمسح بالقبور والأضرحة والمشاهد ويتوسل بها أو بمن فيها إلى الله أو يصلى عندها ويسرجها ويبني عليها مسجداً للصلاة فيه وهذا ذريعة ووسيلة كما قلنا إلى الإشراك بالله وقد بينا ذلك فيما سبق معنا بينا حرمة التوسل بالمقبورين ونبين الآن حرمة اتخاذ هذه القبور مساجد فما هو –أيها الإخوة– حكم الشرع المطهر في بناء المساجد على القبور، وما حكم الصلاة في هذه المساجد؟

أولاً: حكم بناء المساجد على القبور:

(٤٥٦) تفسير ابن كثير – (٨ / ٤٧٣).

روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها، فقال – وهو كذلك– لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد قالت عائشة يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً[٤٥٧]

وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى فلعن اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل مثلهم.... يعني من هذه الأمة.

فيالله هل استوعبت أخي الحبيب هذا الظرف الذي حكى فيه رسول الله ﷺ هذا الكلام؟ لقد كان النبي في سكرات الموت وكرباته بين إغماءات الموت وغمراته يفيق مرة ويغمى عليه مرة وكان يتذكر الشيء الشديد الأهمية فيذكره يأمر بأعظم الأشياء وينهى عن أشدها حرمة، ومن هذه الأشياء التي ذكرها لنا وذكرنا بها من بين السكرات والكربات والغمرات أن بناء المساجد فوق القبور حرام واتخاذها مسجداً حرام كذلك والنبي ﷺ قد ذكر ذلك كثيراً في مرض موته لما علمه الله من أن أمته تفتن به فصار يحذرها وجعل يذكرها. روى مسلم من حديث جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً،ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك".[٤٥٨]

وواضح جدّاً –أيها الإخوة– أن هذا الموقف كان النبي فيه خطيباً يحدث الناس وهو الموقف الذي جلس فيه بأبي هو وأمي على المنبر لم يقو على القيام فجلس فخطب الناس فذكرهم بهذا ثم ذكرهم به مرة أخرى وهو في سكرات الموت فيا له من موقف عظيم.

وقد كان النبي ﷺ أصل هذا الأصل كثيراً قبل ذلك في حياته ﷺ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". [٤٥٩]

قال الإمام الشافعي –رحمه الله–: "كره والله تعالى أعلم أن يعظم أحد من المسلمين ويتخذ قبره مسجدًا ولم تؤمن في ذلك الفتنة والضلال على من يأتي بعده"[٤٦٠]

---

(٤٥٧) أخرجه البخاري (٤٣٥) ومواضع، ومسلم (٥٣١).

(٤٥٨) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٤٥٩) أخرجه مالك (١٦١٧)، وصححه الألباني في أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم – (ص / ١٤٢).

(٤٦٠) الأم (١ / ٢٤٦).

وفي الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت للرسول ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله". (٤٦١)

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله تعالى–: "فهؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل". (٤٦٢)

وهنا يبدر سؤال يفرض نفسه ربما سأل سائل فطن عن حكم دخول الكنيسة؟ هل يجوز لمسلم أن يدخلها والجواب لا، سواء كان للتعبد أو الصلاة أو للفرجة أو لحاجة دنيوية إلا إن كان داعية مسلماً دخلها للدعوة لدين الله تعالى بشرط أمن الفتنة أيضاً.

ودليل هذا كله قوله تعالى وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) [التوبة: ١٠٧ – ١١٠]، قال عمر رضي الله عنه: "لا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم فإن السَّخطة تنزل عليهم ولأنها مأوى الشياطين".

وقد قال الحافظ ابن رجب –رحمه الله– عن حديث أم سلمة: "هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها كما يفعله النصارى ولا ريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده، فتصوير صور الآدميين يحرم وبناء القبور على المساجد بانفراده يحرم كما دلت عليه نصوص أخرى".

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلم به النبي ﷺ: "أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب واعلموا أن شرار الناس الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد". (٤٦٣)

وهنا استفهام جدير أن نتوقف أمامه فأغالب الأحاديث التي ذكرناها تحدد بالذات قبور الأنبياء فهل معنى ذلك أن النهى عن اتخاذ القبور مساجد خاص بقبورهم هم دون غيرهم أو أنه عام في كل قبر يتخذ مسجداً؟

---

(٤٦١) أخرجه البخاري (٤٢٧) ومواضع، ومسلم (٥٢٨).

(٤٦٢) كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد (ص / ٣٢) الإمام محمد بن عبدالوهاب.

(٤٦٣) أخرجه أحمد (١٦٩١)، والدارمي (٢ / ٢٣٣)، وأبو يعلى (ص ٢٤٨)، والحميدي (٨٥)، والبيهقي (٩ / ٢٠٨)، وهو في الصحيحة (٣ / ١٢٤).

والجواب: بل هو عام في كل قبر يتخذ مسجداً لكن لما كان فضل قبر النبي على غيره يجعل الناس يستولونه على غيره فيتخذونه مسجداً نبه النبي عليه وفي هذا تنبيه على ما سواه لأنه إذا امتنع فى حق الأنبياء فامتناعه في حق غيرهم أولى وأولى.

والمقصود -أيها الإخوة- أن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد ولعن من فعله وشدد في ذلك جدّاً واتخاذ القبور مساجد معناه يشمل:

١- الصلاة على القبور بمعنى السجود عليها. ٢- السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء، ٣- بناء المساجد عليها للصلاة فيها.

قال ابن حجر الهيثمي في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر واتخاذ القبور مساجد معناه: "الصلاة عليه أو إليه"[٤٦٤]وكذا قال الصنعاني في سبل السلام. [٤٦٥]

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "لا تصلوا إلى قبر ولاتصلوا على قبر". [٤٦٦]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه" أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور أو يقعد عليها أو يصلى عليها".[٤٦٧]
وعن أنس -رضي الله عنه- أنه سئل عن الصلاة وسط القبور قال ذكر لي أن النبي ﷺ قال: "كانت بنو إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فلعنهم الله تعالى".[٤٦٨] فيكون اتخاذ القبور مساجد معناه السجود على القبور والصلاة عليها وأيضاً السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء وكذلك من معانيها بناء المساجد عليها وقصد الصلاة فيها.

وهذا المعنى أشارت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: "ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً"[٤٦٩] أي: لولا ذلك اللعن الذي استحقه اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم القبور مساجد المستلزم البناء عليها

---

(٤٦٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر - (١ / ٣٨٥).
(٤٦٥) سبل السلام - (٢ / ٣٨).
(٤٦٦) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٣ / ١٤٥ / ٢)، وهو في الصحيحة (٣ / ١٣).
(٤٦٧) رواه أبو يعلى في" مسنده" (ق ٦٦ / ٢) وإسناده صحيح وقال الهيثمي (٣ / ٦١): "ورجاله ثقات"، وانظر أحكام الجنائز (ص٢٠٧)، وتحذير الساجد (٢٩).
(٤٦٨) رواه عبدالرزاق (١٥٩١) وهو مرسل صحيح الإسناد وموضع الشاهد منه أنه استشهد بالحديث على النهي عن الصلاة بين القبور فدل على أنه يعني المعنى المذكور، انظر: تحذير الساجد - (ص ٢٩).
(٤٦٩) أخرجه البخاري (٤٣٥) ومواضع، ومسلم (٥٣١).

لجعل قبره ﷺ في أرض مكشوفة بارزة ولكن الصحابة رضي الله عنهم لم يفعلوا ذلك خشية أن يبنى عليه مسجد من بعض من يأتي بعدهم فتشملهم اللعنة.

وقد يعترض بعض الفطناء الآن فيقول: إن النبي ﷺ دفن في مسجده والجواب: إن النبي لم يدفن في مسجده وإنما دفن في بيته والدليل على هذا أنه مات في حجرة عائشة ولما مات اختلفوا في دفنه: أين يدفن؟ حتى جاء الصديق –رضي الله عنه– فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما قبض الله نبيّاً إلا دفن حيث قبض روحه، فقال أصحاب رسول الله ﷺ فأنت والله رضى، مقنع ثم خطوا حول الفراش خطًّا ثم احتمله علي والعباس والفضل وأهله ووقع القوم في الحفر يحفرون حيث كان الفراش".(٤٧٠)

وهكذا دفن ﷺ في حجرة عائشة وجاء ضم الحجرة بعد ذلك إلى المسجد في أيام الوليد بن عبد الملك على خلاف ما أراد أصحاب النبي والتابعون لهم بإحسان.

فلا يقال إن النبي دفن في المسجد فيكون مبرراً لدفن الصالحين في المسجد لأنه ﷺ لم يدفن فيه، ثم إن المسجد بناه النبي ﷺ في حياته ولم يبن المسجد على القبر.

والشاهد أنه لا يكون دفن النبي ﷺ حجة لمن يدفنون صالحيهم في المساجد وإن أوصى هؤلاء الصالحون بذلك أو حتى وقفوا المساجد أو اشترطوا أن يدفنوا فيها.

عن عطاء الخراساني قال: أدركت حجر أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمر بإدخالها –أي في المسجد– فما رأيت يومًا كان أكثر باكيًا من ذلك اليوم، قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب، يقول: والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناس من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها.
ومن عجائب ما ذكر في بناء المسجد وقت ذاك أنه بينا العمال يعملون في المسجد إذ خلا لهم فقال بعض عمال الروم: ألا أبول على قبر نبيهم فتهيأ لذلك فنهاه أصحابه فلما هم بذلك اقتلع فألقى على رأسه فانتثر دماغه.
ويذكر أنه في افتتاح الوليد للمسجد بعد التجديد لما استنفد الوليد النظر إلى عمارته وفخامته فأعجبه ذلك التفت إلى أبان بن عثمان بن عفان وقال: أين بناؤنا من بنائكم؟ فقال أبان: بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس. (٤٧١)

---

(٤٧٠) أخرجه الترمذي (٢ / ١٢٩) وقال: "حديث غريب، وعبد الرحمن بن أبي بكر المليكي يضعف من قبل حفظه".قال الألباني: في أحكام الجنائز – (ص١٣٧): قلت: لكنه حديث ثابت بما له من الطرق والشواهد". وانظر: صحيح الأحكام (١٣٧ – ١٣٨)، مختصر الشمائل (٣٢٦).

(٤٧١) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى – (ص ١٣٣).

يقول الدكتور جميل غازي -رحمه الله-: "إن الادعاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام قد دفن في مسجده.. باطل وكاذب، وافتراء على الله وعلى رسوله، وتزييف لحقائق التاريخ، إن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما مات لم يدفن في مسجده، ولا أوصى بذلك، ولا فعل به أصحابه ذلك.. حاشا لله.. وهو القائل عليه الصلاة والسلام: "اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".

إنما الذي حدث أن أصحابه دفنوه في حجرة السيدة عائشة التي كانت تجاور المسجد، وكان حرص أصحابه شديداً على أن يظل قبره عليه الصلاة والسلام خارج المسجد في كل توسعة تمت بمسجده الشريف، حدث هذا في عهد عمر -رضي الله عنه- فلقد حرص حينما وسع المسجد في عام ١٧هـ على أن تكون توسعة المسجد من جميع الجهات إلا من الجهة الشرقية التي يقع فيها قبر الرسول ﷺ وبيته، فلم يمسها حتى لا يدخل القبر داخل المسجد الشريف، ونفس هذا الحرص تم أيضاً في عهد عثمان -رضي الله عنه- حينما وسع المسجد في عام ٢٤هـ (٤٧٢)

وكذلك لا يدل هذا على حل الصلاة بالمساجد التى فيها القبور لأن ذلك مما اتفق علماء المذاهب الأربعة المتبوعة على حرمته بل صرح بعضهم بأنه كبيرة من الكبائر كما سيأتى النقل الآن عن الإمام ابن حجرالهيثمى فى كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر.

أيها الإخوة! إن هذه الأمة لا تصلح إلا إذا أقرت أولاً بتوحيد الألوهية.. فيكون الإله المعبود واحداً لا شريك له.. ثم أقرت ثانياً بتوحيد الاتباع.. فيكون الرسول هو وحده المتبع، وهو وحده الإمام المعصوم.

قال العلامة العراقي: فلو بنى مسجداً يقصد أن يدفن في بعضه دخل في اللعنة — أي التي حذر النبي من أن تصيب هذه الأمة كما أصابت اليهود والنصارى — بل يحرم الدفن في المسجد قال: وإن شرط أن يدفن فيه لم يصح الشرط لمخالفة وقفه مسجداً.

وهكذا -أيها الإخوة- لا يجتمع قبر ومسجد في دين الإسلام أبداً.

قال شيخ الإسلام وحسنة الأيام الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "لا يجوز أن يدفن في المسجد ميت لا صغير ولا كبير ولا جليل ولا غيره فإن المساجد لا يجوز تشبيهها بالمقابر". (٤٧٣)

(٤٧٢) الصوفية والوجه الآخر - (ص / ١٠٢)، للدكتور جميل غازي رحمه الله رحمة واسعة، وهو مجموعة مقالات قام على جمعها د. عبد المنعم الجداوي.

(٤٧٣) الفتاوى الكبرى - (٢ / ٨٥)، ومجموع الفتاوى - (٢٢ / ٢٠٣).

وقال مرة أخرى: "إنه لا يجوز دفن ميت في مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غُيِّر إما بتسوية القبر وإما بنبشه إن كان جديداً. (٤٧٤)

قال الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق العلامة عبد المجيد سليم –رحمه الله تعالى(٤٧٥) "والدفن في المسجد إخراج لجزء من المسجد عما جعل له من صلاة المكتوبات وتوابعها من النفل والذكر وتدريس العلم وذلك غير جائز شرعاً، ولأن اتخاذ القبور في المساجد يؤدي إلى الصلاة إلى هذه القبور أو عندها وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على حظر ذلك ثم قال شيخ الأزهر: قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم" ما نصه: "إن النصوص عن النبي ﷺ تواترت بالنهي عن الصلاة عند القبور مطلقاً وعن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها".(٤٧٦)

ومنها ما أخرجه مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها".(٤٧٧)

وقال ابن القيم –رحمه الله تعالى–: "نصَّ الإمام أحمد وغيره على أنه إذا دفن الميت في المسجد نبش".(٤٧٨)

وقال ابن القيم أيضاً: "لا يجتمع في دين الإسلام قبر ومسجد فأيهما طرأ على الآخر منع منه وكان الحكم للسابق".(٤٧٩)

وقال الإمام النووي –رحمه الله–: "اتفقت نصوص الشافعية والأصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر سواء كان الميت مشهوراً بالصلاح أو غيره لعموم الأحاديث ثم يقول: قال الشافعي والأصحاب: وتكره الصلاة إلى القبور سواء كان الميت صالحاً أو غيره".(٤٨٠)

وهنا نكتة لطيفة نشير اليها إشارة سريعة وهى أن العلماء والأئمة المتقدمين يطلقون لفظة الكراهة على ما هو حرام مستدلين على ذلك بقوله تعالى عقب المحرمات من الشرك والقتل والزنا وأكل أموال اليتامى وغيرها: كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) [الإسراء: ٣٨] فتبين –أيها الإخوة– بجلاء أن هذا العمل بناء المساجد على المقابر أو الدفن فى المساجد أو الصلاة فى المساجد المقبورة شيء ليس من الإسلام فى شيء بل قال الهيثمى فى الزواجر عن اقتراف

---

(٤٧٤) الفتاوى الكبرى – (٢ / ٨٠).

(٤٧٥) فتاوى كبار علماء الأزهر الشريف حول الأضرحة والقبور (ص ٢٦)، رسالة صادرة عن دار اليسر.

(٤٧٦) اقتضاء الصراط المستقيم ٣٢٩.

(٤٧٧) أخرجه مسلم (٩٧٢).

(٤٧٨) زاد المعاد (٥٧٢/٣).

(٤٧٩) نفسه (٥٧٢/٣).

(٤٨٠) المجموع – (٥ / ٣١٦).

الكبائر: الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثانا، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليه.(٤٨١)

فهل يشك عاقل بعد ذلك في حرمة الصلاة في مسجد به قبر -أيها الإخوة-؟

نسأل الله تعالى أن يقينا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب وأستغفر الله لى ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! هذا هو حكم العبادة عند قبر رجل صالح أو يظن به الصلاح يمنعها الشرع المطهر فما بالكم لو عبد شخص هذا الصالح، نعم ماذا لو عبد قبره أو ضريحه وتوسل إليه وتمسح بأعتابه وطاف حوله وذبح له ونذر لضريحه وتقرب اليه بصنوف العبادة؟

قد يقول قائل الآن: حنانيك أيها الشيخ لا ترم الناس بهذا وأنا أقول والله إني لأشفق على كل مسلم ومسلمة من ذلك وأدين الله -تبارك وتعالى- بحب السلامة للمسلمين وأنا من أبعد الناس عن اتهام المسلمين بما ليس فيهم بأدنى الشبهات، لكني هنا لا أتكلم من كيسى ولا من كيس أبي ولكني أنقل عن سادات العلماء وأكابر الفضلاء كلامهم.

وهل قال من عالم أو فاضل هذا الكلام؟ والجواب: نعم وإليك بعض ما قال شيخ الإسلام الإمام الشوكاني في كتابه"نيل الأوطار" تحت الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَلاَّ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ لاَ تَدَعَ تِمْثَالاً إِلاَّ طَمَسْتَهُ وَلاَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلاَّ سَوَّيْتَهُ.(٤٨٢)

قال الشوكاني: ومن رفع القبور الداخل تحت الحديث دخولاً أولِيّاً العبث والمشاهد المعمورة على القبور إلى أن قال: "وَكَمْ قَدْ سَرَى عَنْ تَشْيِيدِ أَبْنِيَةِ الْقُبُورِ وَتَحْسِينِهَا مِنْ مَفَاسِدَ يَبْكِي لَهَا الْإِسْلَامُ، مِنْهَا اعْتِقَادُ الْجَهَلَةِ لَهَا كَاعْتِقَادِ الْكُفَّارِ لِلْأَصْنَامِ، وَعَظُمَ ذَلِكَ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى جَلْبِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ فَجَعَلُوهَا مَقْصِدًا لِطَلَبِ قَضَاءِ الْحَوَائِجِ وَمَلْجَأً لِنَجَاحِ

(٤٨١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١ / ٣٨٤).

(٤٨٢) أخرجه مسلم ٢٢٨٧.

الْمَطَالِبِ وَسَأَلُوا مِنْهَا مَا يَسْأَلُهُ الْعِبَادُ مِنْ رَبِّهِمْ، وَشَدُّوا إِلَيْهَا الرِّحَالَ وَتَمَسَّحُوا بِهَا وَاسْتَغَاثُوا وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا شَيْئًا مِمَّا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ بِالْأَصْنَامِ إلَّا فَعَلُوهُ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ.

يقول الشوكاني: وَمَعَ هَذَا الْمُنْكَرِ الشَّنِيعِ وَالْكُفْرِ الْفَظِيعِ لَا تَجِدُ مَنْ يَغْضَبُ لِلَّهِ وَيَغَارُ حَمِيَّةً لِلدِّينِ الْحَنِيفِ لَا عَالِمًا وَلَا مُتَعَلِّمًا وَلَا أَمِيرًا وَلَا وَزِيرًا وَلَا مَلِكًا، وَقَدْ تَوَارَدَ إلَيْنَا مِنْ الْأَخْبَارِ مَا لَا يُشَكُّ مَعَهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَقْبُورِينَ (٤٨٣) أَوْ أَكْثَرِهِمْ إذَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ يَمِينٌ مِنْ جِهَةِ خَصْمِهِ حَلَفَ بِاَللَّهِ فَاجِرًا، فَإِذَا قِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: احْلِفْ بِشَيْخِك وَمُعْتَقَدِكَ الْوَلِيِّ الْفُلَانِيِّ تَلَعْثَمَ وَتَلَكَّأَ وَأَبَى وَاعْتَرَفَ بِالْحَقِّ.

وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ شِرْكَهُمْ قَدْ بَلَغَ فَوْقَ شِرْكِ مَنْ قَالَ: إنَّهُ تَعَالَى ثَانِيَ اثْنَيْنِ أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ وَيَا مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ، أَيُّ رُزْءٍ لِلْإِسْلَامِ أَشَدُّ مِنْ الْكُفْرِ، وَأَيُّ بَلَاءٍ لِهَذَا الدِّينِ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ؟ وَأَيُّ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ تَعْدِلُ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ؟ وَأَيُّ مُنْكَرٍ يَجِبُ إنْكَارُهُ إنْ لَمْ يَكُنْ إنْكَارُ هَذَا الشِّرْكِ الْبَيِّنِ وَاجِبًا:

لَقَدْ أَسْمَعْت لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

وَلَوْ نَارًا نَفَخْت بِهَا أَضَاءَتْ ... وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ. (٤٨٤)

ويكفي أن هذا العمل من البدع وأنه لم يعمله رسول الله ﷺ ولا أصحابه الكرام وقد عرف كل من شم رائحة الإسلام أن ما لم يعمله النبي مردود عمله على صاحبه واعتبر بما ذكر الشاطبي وغيره عن بعض تلامذة عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداء، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري، فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن يعني ابن مسعود؟، قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفا أمراً أنكرته، قال: فما هو؟، قال: إن عشت فستراه، رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً، ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم؟، قال: ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك، وانتظار أمرك. قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم، وفي رواية، أنه كان قد وضع لثاماً فلما حضر فوقهم كشف لثامه وأخبرهم أنه عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قال: يا أبا عبد الرحمن حصى نعد بها التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه

(٤٨٣) هكذا، ولعلها: القبوريين.

(٤٨٤) نيل الأوطار – (٦ / ٢٦٨).

ثيابه لم تبلى وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة، قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. (٤٨٥)

أفرأيت إلى حساسية أصحاب النبي ﷺ من البدع في العبادات، فما بالك بالبدع في الاعتقاد الذي يكون به الشرك بالله تعالى؟

ومن شاهد ما يفعل عند القبور علم صدق ما أقول.

وقد سردنا قبل ذلك -أيها الإخوة- من أحوال هؤلاء القوم عند القبور والمشاهد والأضرحة ما يكفي للدلالة على هذا الذي قلناه من توسلهم وتضرعهم ودعائهم الأموات نسأل الله حفظه، فاتقوا الله -أيها الإخوة- واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، وفقني الله وإياكم لمرضاته وجعلنا جميعا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته..........الدعاء.

(٤٨٥) أخرجه الدارمي ٢١٠، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٠٠٥، وانظر الباعث على إنكار البدع والحوادث (١ / ١٤).

أين أنتم يا حماة التوحيد؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل على نبينا وحبيبنا محمد

قدْ كانَ هذا الكونُ قبلَ وُصولِهِ *** شُؤْمًا لظالِمِهِ وللمظلومِ

لما أَطَلَّ محمدٌ زَكَتِ الرُّبا *** واخضرَّ في البُسْتانِ كلُّ هشيمِ

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، وسلم تسليمًا كثيرًا؛

أما بعد فيا أيها الإخوة!

لم يمتن الله علينا بمنة بعد الإسلام أعظم من بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام منّا وفينا فقال سبحانه: "لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين".

فقد كانت البشرية قبل بعثته ﷺ في جاهلية جهلاء وظلمة عمياء فأنار الله الحياة وأضاءها ببعثة رسول الله ﷺ وصارت من بعد غيها إلى رشد، ومن بعد جهلها إلى علم،فظهرت على الأمم كرامتها فصارت خير أمة أخرجت للناس، وهذا كله لم يأت من فراغ وإنما جاء بجهد جهيد وسعي وبذل شديد من النبي ﷺ حتى أرسى الله به قواعد التوحيد وأقام به الملة العوجاء، ثم قام بأبي هو وأمي وأمتي ﷺ على حماية التوحيد وسد كل الطرق الموصلة إلى الشرك، فحافظ على بنيان التوحيد، وأقامنا على المحجة البيضاء، وليس الجهد الذي بذله النبي ﷺ في ذلك بالقليل، ولا الجهد الذى بذله أصحابه معه ومن بعده وكذا الائمة من بعدهم، ويحتاج كل مسلم – أيها الإخوة– أن يقف على شيء من هذا الجهد حتى يعرف نعمة الله التي أنعم بها عليه حين خلقه موحداً وأرسل إليه النبي محمداً، فتعالوا بنا – أيها الإخوة– في عجالة نتعرف إلى جانب من جوانب جهاد النبي ﷺ من أجل هذه الكلمة كلمة"لا إله إلا الله"، وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع الخطير في عناصر محددة:

أولاً: لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

ثانياً: صور شركية جاهلية في أمة خير البرية.

ثالثاً وأخيرًا: أين جهدنا لحماية جناب التوحيد.

فأعيروني القلوب والأسماع –أيها الإخوة– والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أولاً: لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية:

–أيها الإخوة– كلمة صادقة كل الصدق تلك التي قالها الفاروق عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يعبر عن مقدار وأهمية التعرف إلى حال العرب قبل رسالة النبي ﷺ ذلك لندرك قدر فضل الله الذي تفضل به ونعمته علينا نحن أهل الإسلام كما قال من قال:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

أو قول من قال وهو أحسن وأجود:

والضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتبين الأشياء

هذه الكلمة التي قالها الفاروق –رضي الله عنه– هي: "يوشك أن تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"[٤٨٦] نعم.. لأنه لا يدري شيئًا عن أمور الجاهلية أو لعله يحسبها شيئاً طيباً أو ليست بهذا السوء الذى يحذر بل وربما يقع بعضنا فى أمر من أمورها وهو لا يدرى أنه من أمور الجاهلية فهذه كلها أسباب تدعونا للوقوف على شيء من معرفة الجاهلية التي جاء الإسلام فبدد ظلماتها، فما هي الجاهلية أيها الإخوة؟

الجاهلية– كما كان عليها مشركو قريش قبل الإسلام –عبادة أحجار وأشجار واتخاذ أنداد وأوثان وأصنام من دون الله تعالى يصنعونها بأيديهم ويسجدون لها ويعبدونها من دون الله رب العالمين الذي خلقهم وخلق لهم كل شيء، قال تعالى: "واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً".

وروى البخاري عن مَهْدِيِّ بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيَّ يَقُولُ: كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ، فَإِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قُلْنَا مُنَصِّلُ الأَسِنَّةِ. فَلاَ نَدَعُ رُمْحًا فِيهِ حَدِيدَةٌ وَلاَ سَهْمًا فِيهِ حَدِيدَةٌ إِلاَّ نَزَعْنَاهُ وَأَلْقَيْنَاهُ شَهْرَ رَجَبٍ.[٤٨٧]

---

(٤٨٦) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام (٥/٢٥٩) والجواب الكافي (ص٣١، ١٥٢).

(٤٨٧) أخرجه البخاري ٤٣٧٦.

وفي الحلية لأبي نعيم عنه أيضًا قال: "كنا نعمد إلى الرمل فنجففه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه". (٤٨٨)

وفي لفظ: "كنا نجمع التراب في الجاهلية فنجعل وسطه حفرة فنحلب فيها ثم نسعى حولها ونقول: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك". (٤٨٩)

فالجاهلية سفه في العقل وحقارة في النفس وتقليل للشأن وإهانة لكرامة الإنسان الذي كرمه ربه تفشت فى الناس بعد خفوت النور الذى كان قد بقى من أثر عيسى والنبيين من قبله فخلقت مجتمعاً مهلهل العقيدة مشتتًا في وجهته وغايته لا يعرف هدفًا مثله مثل الأشياء من حوله وما أصدق قول شوقي:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم

قال ابن إسحاق: لما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الثانية إلى المدينة أظهروا الإسلام بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك منهم عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنما من خشب في داره يقال له مناة كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلها يعظمه ويظهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة، ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكسا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيبه وطهره ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.
فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يوما، فغسله وطهره وطيبه.
ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع، هذا السيف معك.
فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر من عذر الناس وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى إذا وجده في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه فأسلم برحمة الله،

(٤٨٨) حلية الأولياء - (١ / ٣٤٨).
(٤٨٩) نفسه (١ / ٣٤٨).

وحسن إسلامه، فقال حين أسلم، وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة ويقول:

والله لو كنت إلهًا لم تكن * أنت وكلب وسط بئر في قرن

أف لملقاك إلهًا مستدن * الآن فتشناك عن سوء الغبن

الحمد لله العلي ذي المنن * الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذي أنقذني من قبل أن * أكون في ظلمة قبر مرتهن(٤٩٠)

والجاهلية فوضى وفرقة واختلاف وتنازع، فالناس مختلفون والقبائل متناحرون، لا تكاد تجد شخصين يلتقيان على كلمة سواء ولا زوجين يسيران في اتجاه واحد، فبيوت ممزقة وأسر متفرقة، وزنى وخنا وضياع للأعراض، ضياع رجولة وذهاب غيرة وقذر بل أشد من ذلك اسمع لما روى البخارى عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – أَخْبَرَتْهُ أَنَّ النِّكَاحَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لاِمْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِى إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِى مِنْهُ. وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِى تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِى نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاِسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا. فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِىَ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِى كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ. تُسَمِّى مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِى يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِىَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ – صلى الله عليه وسلم – بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ.(٤٩١)

والجاهلية قبل الإسلام –أيها الإخوة– تشتت وضياع وضعف وتمزق وكبير يأكل الصغير وقوي يذهب بحق الضعيف، اقتسمت الدولتان القويتان يومئذ الفرس والروم الناس بينهما:

والأرض مملوءة جوراً مسخرة لكل طاغية في الخلق محتكم

مسيطر الفرس يبغي في رعيته وقيصر الروم من كبر أصمُّ عم

---

(٤٩٠) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠١).

(٤٩١) أخرجه البخاري ٥١٢٧.

يعذبان عباد الله في شُبه ويذبحان كما ضحيت بالغنم

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

والجاهلية قبل الإسلام –أيها الإخوة– قتل وتشريد بلا حق، وارتكاب للفواحش والموبقات بلا عقوبة،وسفك للدماء بأقل سبب بل ربما بلا سبب، أكل لمال اليتيم والفقير والمسكين بادنى الحيل بل وبغير حيلة بغياً وعدواناً، تقطيع للصلات وتمزيق للأرحام، وها هو ذا شاهد صدق شاهد من أهلها ينقل إلينا طرفاً من أوصافها وما كانت عليه يقول جعفر بن أبي طالب مخاطباً النجاشي ملك الحبشة: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيي الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاءنا به من دين فعبدنا الله وحده، فلا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث"[٤٩٢]وظل الشهيد الطيار جعفر بن أبي طالب –رضي الله عنه– في حديثه مع النجاشي عن مساوئ الجاهلية حتى أقنعه بخبث ما كانوا عليه وطيب وجمال ما صاروا إليه حتى ترك بذرة الإيمان فى قلب النجاشى أصحمة رضى الله عنه فإذا بها تزهر بعد ذلك وتترعرع ويصير النجاشى موحدًا ويموت موحدًا.

والجاهلية قبل الإسلام –أيها الإخوة– عصبية بغيضة على أساس من القرابة أو الحلف بعيداً عن الصواب والحق:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم على ما قال في النائبات برهاناً.

والجاهلية سفاهة وجهل وطيش، أنا ومن بعدي الطوفان، لا أبالي إن نجوت نجا الناس أو هلكوا.

كما قال شاعرهم:

أَبا هِندٍ، فَلا تَعْجَلْ عَلَينا،... وَأَنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقينَا

بِأَنّا نُورِدُ الرّاياتِ بِيضاً،... ونُصْدِرُهنّ حُمراً قَد رَوِينَا

وَقَدْ عَلِمَ القَبَائِلُ غيرَ فَخْرٍ،... إذا قُبَبٌ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا

---

(٤٩٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام (١/٣٣٤، وما بعدها)، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي (١١٤).

بِأَنَّا العاصِمُونَ، إذا أُطِعنا،... وَأَنَّا الغارِمُونَ، إذا عُصِينَا

وَأَنَّا المُنْعِمُونَ، إذا قَدَرْنَا،... وَأَنّا المهْلِكُونَ، إذا أُتِينَا

وَأَنّا الحاكِمُونَ بما أَرَدْنا،... وأَنّا النّازِلونَ بِحَيْثُ شَينَا

وَأَنّا التّارِكُونَ لِمَا سَخِطنا،... وَأَنّا الآخِذُونَ لِمَا هَوِينَا

وَأَنّا الطّالِبونَ، إذا نَقَمنا،... وأَنّا الضّارِبُونَ، إذا ابتُلينَا

وأَنّا النّازِلُونَ بِكُلّ ثَغْرٍ... يَخَافُ النّازِلُونَ بِهِ المنُونَا

وَنشْرَبُ، إنْ وَرَدْنا، الماءَ صَفواً،... وَيَشْرَبُ غَيْرُنا كَدَراً وطِينَا(٤٩٣)

والجاهلية –أيها الإخوة– قلب قاس يئد البنت حية، اعتراضاً على قدر الله تعالى، وبلا ذنب جنته تلك الطفلة البريئة.. قال سبحانه: "وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) [النحل: ٥٧ – ٦٠]

وقال سبحانه: وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) [التكوير: ٨، ٩]

والجاهلية –أيها الإخوة– افتراء على الله جل في علاه، وكذب عليه ونسبة ما لا ينسب إليه فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً وجعلوها بنات الله وعبدوها معه فأخطأوا خطأً كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاثة فنسبوا إليه تعالى الولد ولا ولد له ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات.

وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال تعالى: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) [النجم: ٢١، ٢٢] وقال عز من قائل: أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) [الصافات: ١٥١ – ١٥٤]، ثم عبدوهم من دون الله فبئس ما صنعوا.

أيها الإخوة! روى أبوداود وابن ماجه وغيرهما، سياق خطبة الوداع فكان مما قال فيها رسول الله: "ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمانا، دم ابن ربيعة ابن الحارث بن

(٤٩٣) جمهرة أشعار العرب – (١ / ٤٢). لأبي زيد القرشي.

عبد المطلب، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع كله، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله".(٤٩٤)

"إن هذه الكلمات المنبعثة من مشكاة النبوة، ليؤكد المصطفى صلى الله عليه وسلم فيها حتمية المخالفة لما كان عليه أهل الجاهلية، ويبين بذلك أن مسمى الجاهلية، يعني أن يكون الأمر إسلامًا أو لا إسلام، فالجاهلية والإسلام أمران نقيضان، لا يمكن أن يجتمعا في نفس واحدة ألبته.

إن كلمة الجاهلية، لم تكن نشازًا من حديث النبي، لا وكلا، بل هي كلمة مطروقة، تكرر ذكرها في غير ما موضع من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد قال سبحانه أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) [المائدة: ٥٠] وقال –عز وجل–: يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ [آل عمران: ١٥٤] [سورة آل عمران:١٥٤]. ويقول جل شأنه: وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى [الأحزاب: ٣٣] ويقول أيضًا: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ [الفتح: ٢٦]

ولقد بوب البخاري في صحيحه بابًا فقال: باب المعاصي من أمر الجاهلية. وذكر فيه قول النبي لأبي ذر لما عير رجلًا بأمه "إنك امرؤ فيك جاهلية"(٤٩٥)، قال الحافظ ابن حجر: إن كل معصية تؤخذ، من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخلاق الجاهلية.(٤٩٦)

وعن ابن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية قال: "من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر"(٤٩٧)

وقد قال ثابت بن الضحاك: نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبي: "هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟"قالوا:لا، قال: "فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟"قالوا: لا، فقال رسول الله: "أوف بنذرك ..."(٤٩٨)الحديث،

فيؤخذ من هذا الحديث وغيره – عباد الله – التحذير الشديد من أمور الجاهلية، أو مشابهة أهلها، في أي لون من ألوانها، كيف لا ورسول الله يقول: "ألا إن كل شيء من أمور الجاهلية تحت قدمي موضوع"(٤٩٩)، ولو لم يكن من ازدرائها وشناعة قبحها، إلا حكم النبي بأنها تحت قدميه لكفى.

---

(٤٩٤) أخرجه أبو داود (٣٣٣٤) والترمذي (٣٠٨٧)، و ابن ماجه (١٨٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٠٦٨.

(٤٩٥) أخرجه البخاري ٣٠.

(٤٩٦) فتح الباري (١ / ٤٨).

(٤٩٧) أخرجه البخاري (٦٩٢١) ومسلم (١٢٠)..

(٤٩٨) أخرجه أحمد (٤١٩/٣)، وأبو داود (٣٣١٣)، وغيرهما، وهو في الصحيحة (٢٨٧٢).

لقد أكد رسول الله مخالفة ما عليه أهل الجاهلية من الكتابيين والأميين، مما لا غنى للمسلم في أن ينبذها وينأ بنفسه عن الوقوع في هوتها، وأن ينسل بنفسه، عن أشدها خطرًا وآكدها ضررًا، وهو عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول، ناهيكم عما ينضاف إلى ذلك، من استحسان ما عليه أهل الجاهلية، الذي تتم به الخسارة والبوار كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) [العنكبوت: ٥٢] وقال تعالى: أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) [آل عمران: ٨٣]. (٥٠٠)

هذه بعض صفات الجاهلية وإلا فهو غيض من فيض وقل من كثر ونقطة من بحر لجي متلاطم الأمواج فما أحرانا وأجدر بنا التعرف إلى صفات هذه الجاهلية حتى لا نقع فيها، فإن من عرف الشر تبصر به، ومن جهله وقع فيه وهذا ما حدث فعلاً من بعض الأمة العظيمة الخيرة وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء:

---

(٤٩٩) أخرجه مسلم ٣٠٠٩.

(٥٠٠) السيرة النبوية، نواقض الإسلام ص ١٨٥، لفضيلة الشيخ سعود الشريم.

صور شركية جاهلية في أمة خير البرية:

نعم -أيها الإخوة- وقع هذا الشرك في الأمة ويا للأسف شابهت الأمة الجاهلية في صور كثيرة وتعجبون إذا علمتم أن النبي ﷺ نبه إلى هذا ونبأ أنه يقع في هذه الأمة بل يصير أمرها في آخر الزمان إلى الشرك المحض كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن ثوبان وفيه أن النبي ﷺ قال: "ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان". (٥٠١)

وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية". (٥٠٢)

بل روى مسلم من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ اللَّهُ اللَّهُ ».(٥٠٣)

ومن الأدلة على هذا المعنى وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قول الله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } [النساء: ٥١].

وقوله تعالى: { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ } [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا } [الكهف: ٢١].

مع ما أخرجه الشيخان عن أبي سعيد -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه". قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟! ». (٥٠٤)

---

(٥٠١) حديث ثوبان هذا – مع الزيادة المذكورة – أخرجه بتمامه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٠٢)، (٢٢١٩)، (٤٩٩)، وقال فيهما الترمذي:" حديث حسن صحيح" وابن ماجه – مع اختلاف يسير في ألفاظ الحديث –، (٣٩٥٢)، وإسناده صحيح على شرط مسلم وانظر: (السلسلة الصحيحة – (٤ / ١٥٦).

(٥٠٢) أخرجه البخاري ٧١١٦، ومسلم ٧٤٨٢.

(٥٠٣) أخرجه مسلم ٣٩٣.

ولمسلم عن ثوبان -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا ».(٥٠٥)

وأخرجه البرقاني في صحيحه، وزاد: "وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله -تبارك وتعالى- ».

وصور الجاهلية الشركية في الأمة كثيرة فمن هذه الصور -أيها الإخوة- :

أن كثيرًا من الناس يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، يريدون شفاعتهم عند الله في حين أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ؛بل إنهم لأحوج إلى عفو الله ورحمته من أولئك الذين يدعونهم ؛ كما قال سبحانه أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً [سورة الإسراء:٥٧].

وهذه – عباد الله – هي أعظم مسألة خالف فيها الرسول ما كان عليه أهل الجاهلية، وعندها بدت بينه وبينهم العداوة والبغضاء أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده، ومن هنا افترق الناس إلى مسلم وكافر، ولأجل هذه القضية العظمى شرع الجهاد في سبيل الله "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله" [سورة البقرة:١٩٣]. (٥٠٦)

-أيها الإخوة-! لو أننا نظرنا إلى بلاد الإسلام المختلفة لوجدناها تعج بالأضرحة التي تعبد من دون الله إن معظم مساجدنا الكبيرة في القاهرة وعواصم المحافظات فضلاً عن الغالبية العظمى من مساجد الريف، قد تحولت من بيوت لله إلى مقابر للأولياء والصالحين، تمارس فيها كل مظاهر الشرك بالله من طواف ودعاء واستغاثة وتقبيل للأعتاب!! سبحان الله.. البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه قد تحولت لغير الله، وفقدت الصلاة فيها القدسية والجلال. (٥٠٧)

---

(٥٠٤) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) بنحوه.

(٥٠٥) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٥٠٦) السيرة النبوية، نواقض الإسلام ص ١٨٥، لفضيلة الشيخ سعود الشريم.

(٥٠٧) الصوفية والوجه الآخر – (ص / ٩٦)، للدكتور جميل غازي.

يقول العلامة عبد الله بن جبرين –رحمه الله–: كنت على صعيد عرفات.. والناس في بكاء ودعوات.. قد لفوا أجسادهم بالإحرام.. ورفعوا أكفهم إلى الملك العلام.. وبينما نحن في خشوعنا وخضوعنا.. نستنزل الرحمات من السماء.. لفت نظري شيخ كبير.. قد رق عظمه.. وضعف جسده.. وانحنى ظهره.. وهو يردد: يا شيخ فلان.. أسألك أن تكشف كربتي.. اشفع لي.. وارحمني.. ويبكي وينتحب.. فانتفض جسدي.. واقشعرّ جلدي.. وصحت به: اتق الله.. كيف تدعو غير الله!! وتطلب الحاجات من غير الله!! الجيلاني عبدٌ مملوكٌ.. لا يسمعك ولا يجيبك.. ادعُ الله وحده لا شريك له..

فالتفت إليَّ ثم قال: إليك عني يا عجوز.. أنت ما تعرف قدر الشيخ فلان عند الله!!.. أنا أؤمن يقيناً أنه ما تنزل قطرة من السماء.. ولا تنبت حبة من الأرض إلا بإذن هذا الشيخ.. فلما قال ذلك.. قلت له: تعالى الله.. ماذا أبقيت لله.. فلما سمع مني ذلك.. ولاني ظهره ومضى.. (٥٠٨)

ومن مظاهر الشرك المنتشرة للأسف في كثير من بلاد المسلمين نشير سريعًا إلى:

أولًا: اعتقاد أن الأولياء الموتى يقضون الحاجات ويفرجون الكربات والاستعانة والاستغاثة بهم والله –سبحانه وتعالى– يقول: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...)سورة الإسراء/٢٣، وكذلك دعاء الموتى من الأنبياء والصالحين أو غيرهم للشفاعة أو للتخليص من الشدائد والله يقول: (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله)النمل/٦٢ وبعضهم يتخذ ذكر اسم الشيخ أو الولي عادته وديدنه إن قام وإن قعد وإن عثر وكلما وقع في ورطة أو مصيبة وكربة فهذا يقول يا محمد وهذا يقول يا علي وهذا يقول يا حسين وهذا يقول يا بدوي وهذا يقول يا جيلاني وهذا يقول يا شاذلي وهذا يقول يا رفاعي وهذا يدعو العيدروس وهذا يدعو السيدة زينب وذاك يدعو ابن علوان والله يقول: (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم...) سورة الأعراف/١٩٤ وبعض عباد القبور يطوفون بها ويستلمون أركانها ويتمسحون بها ويقبلون أعتابها ويعفرون وجوههم في تربتها ويسجدون لها إذا رأوها ويقفون أمامها خاشعين متذللين متضرعين سائلين مطالبهم وحاجاتهم من شفاء مريض أو حصول ولد أو تيسير حاجة وربما نادى صاحب القبر يا سيدي جئتك من بلد بعيد فلا تخيبني والله –عز وجل– يقول (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون)سورة الأحقاف/٥ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار)(٥٠٩)، وبعضهم يحلقون رؤوسهم عند القبور، وعند بعضهم كتب بعناوين مثل: "مناسك حج المشاهد"ويقصدون بالمشاهد القبور وأضرحة الأولياء، وبعضهم يعتقد أن الأولياء يتصرفون في الكون وأنهم يضرون

(٥٠٨) اركب معنا للعريفي.

(٥٠٩) أخرجه البخاري (٤٤٩٧)، من حديث ابن مسعود.

وينفعون والله -عز وجل- يقول: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله...)سورة يونس/١٠٧، وكذلك من الشرك النذر لغير الله كما يفعل الذين ينذرون الشموع والأنوار لأصحاب القبور.

أيها الإخوة! أخبروني بالله عليكم عن الذي يقال في الأناشيد والقصائد التي تقال مثلا بمناسبة الاحتفال بالمولد أو بذكرى تاريخية غيرها، فقد سمعناهم ينشدون:

يا إمام الرسل يا سندي أنت باب الله ومعتمدي

و في دنياي و آخرتي يا رسول الله خذ بيدي

وآخر يقول:

ما يبدلني عسرا يسرا إلاك يا تاج الحضره

ماذا لو سمع رسول الله مثل هذا؟ تالله لو سمع الرسول مثل هذا لتبرأ منه، إذ لا يبدل العسر باليسر إلا الله وحده، ومثلها قصائد الشعر التي تكتب في المجلات والكتب وفيها طلب المدد والعون والنصر من الرسول والأولياء والصالحين العاجزين عن تحقيقها.

ثانيًا:ـ ومن صور الشرك الأكبر المنتشرة الذبح لغير الله والله يقول: (فصل لربك وانحر)سورة الكوثر/٢ أي انحر لله وعلى اسم الله وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لعن الله من ذبح لغير الله)(٥١٠)، وقد يجتمع في الذبيحة محرمان وهما الذبح لغير الله والذبح على غير اسم الله وكلاهما مانع للأكل منها، ومن ذبائح الجاهلية - الشائعة في عصرنا -"ذبائح الجن"وهي أنهم كانوا إذا اشتروا دارًا أو بنوها أو حفروا بئرا ذبحوا عندها أو على عتبتها ذبيحة خوفًا من أذى الجن(٥١١)

ثالثًا:ـ ومن أمثلة الشرك الأكبر العظيمة الشائعة تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أو اعتقاد أن أحدا يملك الحق في ذلك غير الله -عز وجل-، أو التحاكم إلى المحاكم والقوانين الجاهلية عن رضا واختيار واعتقاد بجواز ذلك وقد ذكر الله -عز وجل- هذا الكفر الأكبر في قوله: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)التوبة/٣١ ولما سمع عدي بن حاتم نبي الله صلى الله عليه وسلم يتلوها قال: فقلت: إنهم لم يكونوا يعبدونهم قال: (أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم)(٥١٢)، وقد وصف الله المشركين بأنهم (لا يحرمون

(٥١٠) أخرجه مسلم ١٩٧٨.

(٥١١) تيسير العزيز الحميد (ص/ ١٥٨).

(٥١٢) أخرجه الترمذي ٣٠٩٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١١٦/١٠، وحسنه الألباني في غاية المرام (ص١٩).

ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق..)سورة التوبة/٢٩، وقال الله –عز وجل–: (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون)

إن فصل الدين عن سائر شؤون الحياة وهي ما يعرف بالعلمانية والتي تدعوا إلى إقامة حياة لا علاقة لها بالدين ولا تعترف بحلال ولا حرام ويعيش الناس في ظل هذا النظام كالبهائم، هي من مظاهر الشرك بالله فالله –عز وجل– قال: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)، وهنا يجب أن أنبه إلى أن بعض المسلمين يصلون ويؤدون الفرائض وعند معاملاتهم الاقتصادية وحياتهم الاجتماعيه لا يراعون لشرع الله حرمة ويقولون العبارة المشهورة (الدين في المسجد)وهذه حقيقة العلمانية والتي هي ومن اعتقد أن شرع الله لا يحكم في معاملات الناس كفر بالله وبشرعه وبنبيه الكريم.(٥١٣).

رابعًا:- ومن أنواع الشرك المنتشرة السحر والكهانة والعرافة:

أما السحر فإنه كفر ومن السبع الكبائر الموبقات وهو يضر ولا ينفع قال الله تعالى عن تعلمه (فيتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم)البقرة/١٠٢، وقال (ولا يفلح الساحر حيث أتى)طه/٦٩، والذي يتعاطى السحر كافر قال الله تعالى: (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر)البقرة/١٠٢

وحكم الساحر القتل وكسبه حرام خبيث، والجهال والظلمة وضعفاء الإيمان يذهبون إلى السحرة لعمل سحر يعتدون به على أشخاص أو ينتقمون منهم ومن الناس من يرتكب محرما بلجوئه إلى الساحر لفك السحر والواجب اللجوء إلى الله والاستشفاء بكلامه كالمعوذات وغيرها.

أما الكاهن والعراف فكلاهما كافر بالله العظيم لادعائهما معرفة الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله وكثير من هؤلاء يستغفل السذج لأخذ أموالهم ويستعملون وسائل كثيرة من التخطيط في الرمل أو ضرب الودع أو قراءة الكف والفنجان أو كرة الكريستال والمرايا وغير ذلك وإذا صدقوا مرة كذبوا تسعا وتسعين مرة ولكن المغفلين لا يتذكرون إلا المرة التي صدق فيها هؤلاء الأفاكون فيذهبون إليهم لمعرفة المستقبل والسعادة والشقاوة في زواج أو تجارة والبحث عن المفقودات ونحو ذلك وحكم الذي يذهب إليهم إن كان مصدقا بما يقولون فهو كافر خارج عن الملة والدليل قوله صلى الله عليه وسلم: "من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد"(٥١٤) أما إن كان الذي يذهب إليهم غير مصدق

---

(٥١٣) نداء القرآن إلى عباد الرحمن (ص ٢٦)، ناصر بن يحيى بن ناصر الحنيني.

(٥١٤) أخرجه أحمد ٤٢٩/٢، وهو في صحيح الجامع ٥٩٣٩.

بأنهم يعلمون الغيب ولكنه يذهب للتجربة ونحوها فإنه لا يكفر ولكن لا تقبل له صلاة أربعين يوما والدليل قوله صلى الله عليه وسلم: "من أتى عرافا فسأله عن شئ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"(٥١٥)، هذا مع وجوب الصلاة والتوبة عليه.

خامسًا:ـ ومن صور الشرك المنتشرة الاعتقاد في تأثير النجوم والكواكب في الحوادث وحياة الناس:

عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية . على أثر سماء كانت من الليلة . فلما انصرف أقبل على الناس فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم؟ "قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب. وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب"(٥١٦)ومن ذلك اللجوء إلى أبراج الحظ في الجرائد والمجلات فإن اعتقد ما فيها من أثر النجوم والأفلاك فهو مشرك وإن قرأها للتسلية فهو عاص آثم لأنه لا يجوز التسلي بقراءة الشرك بالإضافة لما قد يلقي الشيطان في نفسه من الاعتقاد بها فتكون وسيلة للشرك.

سادسًا:ـ ومن صور الشرك المنتشرة اعتقاد النفع في أشياء لم يجعلها الخالق –عز وجل– كذلك كما يعتقد بعضهم في التمائم والعزائم الشركية وأنواع من الخرز أو الودع أو الحلق المعدنية وغيرها بناء على إشارة الكاهن أو الساحر أو اعتقاد متوارث فيعلقونها في رقابهم أو على أولادهم لدفع العين بزعمهم أو يربطونها على أجسادهم أو يعلقونها في سياراتهم وبيوتهم أو يلبسون خواتم بأنواع من الفصوص يعتقدون فيها أمورًا معينة من رفع البلاء أو دفعه وهذا لاشك ينافي التوكل على الله ولا يزيد الإنسان إلا وهنًا وهو من التداوي بالحرام وهذه التمائم التي تعلق في كثير منها شرك جلي واستغاثة ببعض الجن والشياطين أو رسوم غامضة أو كتابات غير مفهومة وبعض المشعوذين يكتبون آيات من القرآن ويخلطونها بغيرها من الشرك وبعضهم يكتب آيات القرآن بالنجاسات أو بدم الحيض وتعليق كل ما تقدم أو ربطه حرام لقوله صلى الله عليه وسلم: (من علق تميمة فقد أشرك)(٥١٧)وفاعل ذلك إن اعتقد أن هذه الأشياء تنفع أو تضر من دون الله فهو مشرك شركا أكبر، وإن اعتقد أنها سبب للنفع أو الضرر، والله لم يجعلها سببا، فهو مشرك شركا أصغر وهذا يدخل في شرك الأسباب(٥١٨)

أيها الإخوة!

---

(٥١٥) أخرجه مسلم ١٧٥١/٤.

(٥١٦) أخرجه البخاري (٨٤٦).

(٥١٧) أخرجه أحمد ١٥٦/٤ وهو في السلسلة الصحيحة ٤٩٢.

(٥١٨) محرمات استهان بها الناس يجب الحذر منها (ص). لفضيلة الشيخ محمد صالح المنجد، ومنهاج الفرقة الناجية و الطائفة المنصورة (ص ٤٠)، لفضيلة الشيخ محمد بن جميل زينو.

إن مظاهر الشرك المنتشرة في العالم الاسلامي هي السبب الرئيس في مصائب المسلمين وما يلاقونه من الفتن والزلازل والحروب وغيرها من أنواع العذاب الذي صبه الله على المسلمين بسبب إعراضهم عن التوحيد و ظهور الشرك في عقيدتهم وسلوكهم، والدليل على ذلك ما نراه في أكثر بلاد المسلمين من مظاهر الشرك المتنوعة التي حسبها الكثير من المسلمين أنها من الاسلام، ولذلك لم ينكروها علمًا بأن الإسلام جاء ليحطم مظاهر الشرك أو المظاهر التي تؤدي إليه.

أيها الإخوة! هذه إلماحة سريعة لبعض مظاهر الشرك المنتشرة في بلاد المسلمين وإن تعجب فعجب أن تعتبر هذه الشركيات من دلائل تأصل الدين في قلوب العامة على حد تعبير بعض المنتسبين الى العلم وإن تسأل فاسأل عن العلماء والدعاة أين هم من هذا كله؟

واستمع لما روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله البجلي –رضي الله عنه– قال: "كان بيت في الجاهلية يقال له ذو الخلصة، والكعبة اليمانية،والكعبة الشامية، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: ألا تريحني من ذي الخلصة؟ فنفرت في خمسين ومائة فارس من أحمس، فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس. (٥١٩)

فانظر إلى هذا التعبير النبوي، "ألا تريحني من ذي الخلصة؟!" فكان وجود الأوثان يقض مضجعه ويقلقه عليه الصلاة والسلام فلا يقر له قرار ولا يجد راحة واعجب من واقع كثير من الدعاة اليوم يرون أمام أعينهم مظاهر الشرك فلا تحرك فيهم ساكنًا ولا يحسبون لهذا الواقع المر حسابًا بل الأدهى والأمر أنهم يتذمرون ممن ينكر ويتألم لهذا الواقع الجاهلي السيئ. (٥٢٠)

وهكذا –أيها الإخوة– آل الحال بأمة التوحيد إلى هذه المخازي والمهاوي العميقة التي يستحي أصحابها أن يلقوا الله تعالى بها، وأن يقابلوا يوماً رسول الله ﷺ بفعلها والحرص على قولها وامتثالها.

واعجب لقوم مسلمين يعتقدون بأن للكون أربع أقطاب يتصرفون فيه وهؤلاء الأقطاب عند الصوفية هداهم الله، هم: أحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي، وعبد القادر الجيلاني، وأحمد الرفاعي، ويعتقدون بأن أرواح الأولياء الصالحين تتصرف في العباد وأحوالهم بعد الموت، ويعتقدون أنهم يملكون للخلق نفعًا وضرًا.

وكأن رسول الله ما جاءهم بحرب هذه الجاهلية إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الإخوة لم يدخر"وسعًا في الأمر بهدم القبور ونهى أن يبنى عليها أو يزاد عليها ونهى عن تجصيصها ونهى عن الصلاة عليها وإليها وحذر التحذير الشديد

---

(٥١٩) أخرجه البخاري (٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧)، ومسلم (١٣٦، ١٣٧).

(٥٢٠) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة...والعقل، الدكتور ربيع بن هادي مدخلي بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – (٣١ / ١٢٥).

من شرها ولعن من يتخذون المساجد عليها، عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبِي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم،"ألا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبراً مشرفًا إلا سويته"(٥٢١).

ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعث عليًّا لتسوية القبور كما يبعثه لطمس التماثيل ولا تستبعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجند رجالًا هنا وهناك للقيام بهدم الأصنام والقبور.

واستمع معى الى هذه الأحاديث: عن ثمامة بن شفي قال: كنا مع فضالة بن عبيد، بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره، فسوى ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها (٥٢٢)، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبني عليه (٥٢٣)، وعن أبي مرثد الغنوى –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها"(٥٢٤).

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"(٥٢٥)

وتستمر هذه العناية النبوية الواعية، لأخطار الأوثان والقبور إلى آخر لحظة من لحظات حياة الرسول الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه. فعن جندب بن عبد الله البجلي –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك"(٥٢٦).

وعند احتضاره وبعد اختياره للرفيق الأعلى كان شغله الشاغل خطر فتنة القبور على هذه الأمة التي جهل أكثرها قدر هذه الاهتمامات النبوية وجهلت خطر هذه الفتنة الماحقة.

---

(٥٢١) أخرجه مسلم (٩٣).

(٥٢٢) أخرجه مسلم (٩٢).

(٥٢٣) أخرجه مسلم (٩٤).

(٥٢٤) أخرجه مسلم (٩٨،٩٧).

(٥٢٥) أخرجه مالك في الموطأ ٨٥ مرسلا، وأحمد (٢/٢٤٦) عن أبي هريرة--رضي الله عنه– – مرفوعا، وصححه الألباني في المشكاة (٧٥٠).

(٥٢٦) أخرجه مسلم (٢٣)

فعن عائشة أم المؤمنين وابن عباس رضي الله عنهم قالا: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال: وهو كذلك: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"يحذر مثل ما صنعوا (٥٢٧).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي مات فيه: "ادخلوا عليّ أصحابي، فدخلوا عليه وهو مقنع ببردة معافري (٥٢٨)فكشف القناع، فقال: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.(٥٢٩)

وعن أبي عبيدة -رضي الله عنه- قال: كان آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اخرجوا يهود الحجاز من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد"(٥٣٠)

أخي الحبيب! "سرّح طرفك في مشارق بلاد المسلمين ومغاربها تر العجب العجاب تر واقعا يتحدى هذه النصوص النبوية، وإذا قرأت عليهم هذه النصوص وبينت لهم مصادرها وتمسك الصحابة وأعيان الأمة بها واجهوك بتأويلات أسخف من تأويل من قالوا: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا}. واتهموك بعداء الأولياء."(٥٣١)
وبعد أيها الإخوة!

إن العقل والقلب ليحتاران أهذه أمة المصطفى التي زكاها الله بقوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [آل عمران: ١١٠]، والتي من لوازم خيريتها أن تلزم الصراط المستقيم لا تحيد عنه قيد أنملة وإلا سلبت هذه الخيرية؟

أهذه هي الأمة الوسط التي قال فيها الله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: ١٤٣]

والتي من لوازم وسطيتها أن لا تقصر في الدين ولا تغلو فيه وإلا سلبت هذه الوسطية؟

---

(٥٢٧) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، (١٣٨٩) ومسلم (١٩) عن عائشة، (٢٢) عن عائشة وابن عباس- رضي الله عنهم-

(٥٢٨) برود باليمن منسوبة إلى معافر وهي قبيلة باليمن (لابن الأثير).

(٥٢٩) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٠٤) والطبراني في الكبير (٣٩٣)، (٤١١) والطيالسي في مسنده (٦٣٤)، وحسنه الألباني في تحذير الساجد (ص ١٩).

(٥٣٠) أخرجه أحمد (١٩٥/١) وإسناده صحيح إن شاء الله.

(٥٣١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة...والعقل، الدكتور ربيع بن هادي مدخلي بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - (٣١ / ١٢٥).

أإلى هذا الحد نسيت الأمة جهود الأئمة فيها ممن قام بدحض الشرك وهدم الأوثان؟

وقبلهم أنسيت الأمة قيام أصحاب النبي ﷺ على التوحيد والدعوة إليه وسد الثغور عنه دون الشرك؟ وقبلهم أنسيت حماية النبي ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك؟ أفإن نسيت ذلك كله أنسيت كتاب ربها الذي يهتف ليل نهار: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) [البقرة: ٢٢]؟، فإن كانت الأمة نسيت ذلك كله فأين جهودنا لحماية التوحيد وإرجاع الأمة إلى التزام سواء السبيل، وهذا هو عنصرنا الأخير أيها الإخوة: أين جهودنا لحماية التوحيد؟

لقد جاء النبي ﷺ داعياً إلى التوحيد محذراً ومنذراً من الشرك وعاقبته فلم يدع باباً يقرب ويحض على التوحيد إلا ودل عليه وطرقه ورغب فيه، ولم يدع باباً يوصل إلى الشرك إلا وحذر من ولوجه وسده وعظم طرقه فكان كما قال فيه ربنا –سبحانه وتعالى–: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]

فهذه الآية –أيها الإخوة– تدل على حرص النبي ﷺ على أمته، ومن حرصه أنه يسد كل طرق الشرك عنها إذ لا أضر من الشرك والكفر والنفاق الذي يخلد صاحبه في النار أبد الآبدين، وفيها أيضاً حرصه –ﷺ– على صلاح شأن أمته وأي صلاح أعظم من صلاح التوحيد الذي لو أتى العبد ربه بكل حسنة لم يقبلها الله –عز وجل– منه إلا به، لابد أن يأتي بالتوحيد ليقبل منه كل حسنة بعدها [٥٣٢].

وقد قام النبي ﷺ على هذين الأمرين خير قيام، فعلمنا التوحيد ودلنا عليه، وحذرنا من الشرك وأنذرنا إياه وسد علينا طرقه ومنافذه، ومن ذلك أنه ﷺ قال: "لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم"[٥٣٣]والحديث أخرجه أبو داود بسند صحيح من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– ومعنىلا تجعلوا بيوتكم قبورا، أي: لا تدفنوا موتاكم في البيوت فيكون ذلك وسيلة إلى الشرك.

وأيضاً لا تخلوها من الصلاة بحيث تعطلوها من السنن والنوافل[٥٣٤]

كما في الحديث الآخر: "اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً [٥٣٥] والحديث ظاهر جدًّا في المعنيين المذكورين.

---

(٥٣٢) عون العلي الحميد (٣٦٦/١) بتصريف يسير.

(٥٣٣) أخرجه أبو داود ٢ / ٥٣٤. وأحمد ٢ / ٣٦٧. والحديث سنده حسن على شرط مسلم، وهو صحيح بما له من طرق وشواهد. انظر أحكام الجنائز وبدعها للشيخ الألباني، ط٤، طبع المكتب الإسلامي، ٢١٩ – ٢٢٠.

(٥٣٤) عون العلي الحميد (٣٦٦/١).

وقال -ﷺ- ولاتجعلوا قبرى عيدًا فما معنى ذلك؟وما مقتضاه؟وما حكم من فعله،والجواب عن هذه الأسئلة نلتقى به بعد جلسة الاستراحة أسأل الله لى ولكم الخير وأستغفر الله لى ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

روى أبوداود وأحمد وصححه الألبانى من حديث أبى هريرة أنه ﷺ قال: "لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم".

فما معنى ذلك؟ وما مقتضاه؟

أيها الإخوة إن المجيء إلى قبر النبي ﷺ من الناحية الشرعية له أحكام لابد أن تتبع ونلخص ذلك في نقاط:

أولا: زيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قبل الحج أو بعده سنة لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».[٥٣٦] والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ثانيًا: كيفية الزيارة: إذا وصل الزائر إلى المسجد استحب له أن يقدم رجله اليمنى عند دخوله ويقول: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم اللهم افتح لي أبواب رحمتك. كما يقول ذلك عند دخول سائر المساجد، وليس لدخول مسجده صلى الله عليه وسلم ذكر مخصوص ثم يصلي ركعتين فيدعو الله فيهما بما أحب من خيري الدنيا والآخرة وإن صلاهما في الروضة الشريفة فهو أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ».[٥٣٧] ثم بعد الصلاة يزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فيقف تجاه قبر النبي صلى الله عليه وسلم بأدب وخفض صوت ثم يسلم عليه، عليه الصلاة والسلام قائلا: "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته" لما في سنن أبي داود بإسناد حسن عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى

(٥٣٥) أخرجه البخاري (٤٣٢)، (١١٨٧)، ومسلم (٧٧٧).

(٥٣٦) أخرجه البخاري ١١٩٠، ومسلم ٣٤٤١.

(٥٣٧) أخرجه البخاري (١١٩٦)، ومسلم ٣٤٣٥.

أرد عليه السلام ».[538] وإن قال الزائر في سلامه: "السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا خيرة الله من خلقه، السلام عليك يا سيد المرسلين وإمام المتقين، أشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده ". فلا بأس بذلك لأن هذا كله من أوصافه صلى الله عليه وسلم ويصلي عليه، عليه الصلاة والسلام ويدعو له لما قد تقرر في الشريعة من شرعية الجمع بين الصلاة والسلام عليه عملا بقوله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦] ثم يسلم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويدعو لهما ويرضى عنهما.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا سلم على الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه لا يزيد غالبا على قوله: "السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه" ثم ينصرف.

ثالثًا: مستحبات يسن للزائر أن يحافظ عليها: يسن للزائر أن يصلي الصلوات الخمس في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن يكثر فيه من الذكر والدعاء وصلاة النافلة اغتناما لما في ذلك من الأجر الجزيل.

ويستحب أن يكثر من صلاة النافلة في الروضة الشريفة لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ».

رابعًا: - لا يجوز لأحد أن يتمسح بالحجرة أو يقبلها أو يطوف بها ؛ لأن ذلك لم ينقل عن السلف الصالح بل هو بدعة منكرة.

ولا يجوز لأحد أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم قضاء حاجة أو تفريج كربة أو شفاء مريض أو نحو ذلك، لأن ذلك كله لا يطلب إلا من الله سبحانه. وطلبه من الأموات شرك بالله وعبادة لغيره.

ودين الإسلام مبني على أصلين:

أحدهما: ألا يعبد إلا الله وحده.

والثاني: ألا يعبد إلا بما شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

- وهكذا لا يجوز لأحد أن يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم الشفاعة لأنها ملك الله سبحانه، فلا تطلب إلا منه كما قال تعالى { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا } [الزمر: ٤٤]

---

(٥٣٨) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٦).



فتقول: "اللهم شفع في نبيك. اللهم شفع في ملائكتك وعبادك المؤمنين. اللهم شفع في أفراطي" ونحو ذلك.

وأما الأموات فلا يطلب منهم شيء لا الشفاعة ولا غيرها سواء كانوا أنبياء أو غير أنبياء لأن ذلك لم يشرع ولأن الميت قد انقطع عمله إلا مما استثناه الشارع.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ».[٥٣٩]

وإنما جاز طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ويوم القيامة لقدرته على ذلك، فإنه يستطيع أن يتقدم فيسأل ربه للطالب، أما في الدنيا فمعلوم وليس ذلك خاصا به بل هو عام له ولغيره، فيجوز للمسلم أن يقول لأخيه. اشفع لي إلى ربي في كذا وكذا بمعنى ادع الله لي، ويجوز للمقول له ذلك أن يسأل الله ويشفع لأخيه إذا كان ذلك المطلوب مما أباح الله طلبه.

وأما يوم القيامة فليس لأحد أن يشفع إلا بعد إذن الله سبحانه، كما قال الله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } [البقرة: ٢٥٥]

وأما حالة الموت فهي حالة خاصة لا يجوز إلحاقها بحال الإنسان قبل الموت ولا بحاله بعد البعث والنشور لانقطاع عمل الميت وارتهانه بكسبه إلا ما استثناه الشارع، وليس طلب الشفاعة من الأموات مما استثناه الشارع فلا يجوز إلحاقه بذلك، لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته حي حياة برزخية أكمل من حياة الشهداء ولكنها ليست من جنس حياته قبل الموت ولا من جنس حياته يوم القيامة، بل حياة لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله سبحانه، ولهذا تقدم في الحديث الشريف قوله عليه السلام: "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام »

دل ذلك على أنه ميت وعلى أن روحه قد فارقت جسده لكنها ترد عليها عند السلام. والنصوص الدالة على موته صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة معلومة، وهو أمر متفق عليه بين أهل العلم ولكن ذلك لا يمنع حياته البرزخية كما أن موت الشهداء لم يمنع حياتهم البرزخية المذكورة في قوله تعالى { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } [آل عمران: ١٦٩]نسأل الله لنا ولجميع المسلمين السلامة من كل ما يخالف شرعه.

– لا يجوز رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم وطول القيام هناك وأما ما يفعله بعض الزوار من ذلك فهو خلاف المشروع لأن الله سبحانه نهى الأمة عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم وعن الجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض وحثهم على غض الصوت عنده في قوله تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ

---

(٥٣٩) أخرجه مسلم (١٦٣١).

وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }{ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } [الحجرات ٢، ٣]

ولأن طول القيام عند قبره صلى الله عليه وسلم والإكثار من تكرار السلام يفضي إلى الزحام وكثرة الضجيج وارتفاع الأصوات عند قبره صلى الله عليه وسلم وذلك يخالف ما شرعه الله للمسلمين في هذه الآيات المحكمات وهو صلى الله عليه وسلم محترم حيا وميتا فلا ينبغي للمؤمن أن يفعل عند قبره ما يخالف الأدب الشرعي وهكذا ما يفعله بعض الزوار وغيرهم من تحري الدعاء عند قبره مستقبلا للقبر رافعا يديه يدعو فهذا كله خلاف ما عليه السلف الصالح من أصحاب رسول الله وأتباعهم بإحسان بل هو من البدع المحدثات، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ».[٥٤٠]

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » أخرجه البخاري ومسلم وفي رواية لمسلم: « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ».[٥٤١]

ورأى علي بن الحسين (زين العابدين) رضي الله عنهما رجلا يدعو عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه عن ذلك وقال ألا أحدثك حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم ».[٥٤٢]

وهكذا ما يفعله بعض الزوار عند السلام عليه صلى الله عليه وسلم من وضع يمينه على شماله فوق صدره أو تحته كهيئة المصلي فهذه الهيئة لا تجوز عند السلام عليه صلى الله عليه وسلم ولا عند السلام على غيره من الملوك والزعماء وغيرهم لأنها هيئة ذل وخضوع وعبادة لا تصلح إلا لله كما حكى ذلك الحافظ ابن حجر –رحمه الله– في الفتح عن العلماء، والأمر في ذلك جلي واضح لمن تأمل المقام وكان هدفه اتباع هدي السلف الصالح.

وأما من غلب عليه التعصب والهوى والتقليد الأعمى وسوء الظن بالدعاة إلى هدي السلف الصالح فأمره إلى الله ونسأل الله لنا وله الهداية والتوفيق لإيثار الحق على ما سواه إنه سبحانه خير مسئول.

(٥٤٠) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤ / ١٢٦)، وصححه الألباني "الصحيحة" ٢ / ٦٤٨.

(٥٤١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٥٤٢) أخرجه الحافظ محمد بن عبد الواحد المقدسي في كتابه الأحاديث المختارة.

وكذا ما يفعله بعض الناس من استقبال القبر الشريف من بعيد وتحريك شفتيه بالسلام أو الدعاء فكل هذا من جنس ما قبله من المحدثات ولا ينبغي للمسلم أن يحدث في دينه ما لم يأذن به الله وهو بهذا العمل أقرب إلى الجفاء منه إلى الموالاة والصفاء وقد أنكر الإمام مالك –رحمه الله– هذا العمل وأشباهه وقال: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ".

ومعلوم أن الذي أصلح أول هذه الأمة هو السير على منهاج النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وصحابته المرضيين وأتباعهم بإحسان ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا تمسكهم بذلك وسيرهم عليه.

وفق الله المسلمين لما فيه نجاتهم وسعادتهم وعزهم في الدنيا والآخرة إنه جواد كريم.

خامسًا: ليست زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم واجبة ولا شرطًا في الحج كما يظنه بعض العامة وأشباههم بل هي مستحبة في حق من زار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أو كان قريبًا منه، بشرط ألا يعتاد ذلك فإن من جعل ذلك عادة له مستمرة من غير سبب كساكن المدينة كلما دخل وخرج يذهب يصلي على النبي ويسلم، فقد خالف الشرع، لا، لا يصح هذا، فليس في كل مرة يذهب ويسلم فقد منع العلماء من ذلك لأن هذا من معنى العيد الذي حذر منه النبي في قوله ﷺ: "لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ».

أما البعيد عن المدينة فليس له شد الرحل لقصد زيارة القبر، ولكن يسن له شد الرحل لقصد المسجد الشريف، فإذا وصله زار القبر الشريف وقبر الصاحبين، ودخلت الزيارة لقبره عليه السلام وقبر صاحبيه تبعا لزيارة مسجده صلى الله عليه وسلم وذلك لما ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى ».(٥٤٣)

ولو كان شد الرحال لقصد قبره عليه الصلاة والسلام أو قبر غيره مشروعا لدل الأمة عليه وأرشدهم إلى فضله، لأنه أنصح الناس وأعلمهم بالله وأشدهم له خشية. وقد بلغ البلاغ المبين، ودل أمته على كل خير وحذرهم من كل شر كيف وقد حذر من شد الرحل لغير المساجد الثلاثة وقال: « لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ».

والقول بشرعية شد الرحال لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم يفضي إلى اتخاذه عيدًا، ووقوع المحذور الذي خافه النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو والإطراء كما قد وقع الكثير من الناس في ذلك بسبب اعتقادهم شرعية شد الرحال لزيارة قبره عليه الصلاة والسلام.

---

(٥٤٣) أخرجه أحمد ٩٩٧، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وأما ما يروى في هذا الباب من الأحاديث التي يحتج بها من قال بشرعية شد الرحال إلى قبره عليه الصلاة والسلام فهي أحاديث ضعيفة الأسانيد بل موضوعة كما قد نبه على ضعفها الحفاظ كالدارقطني، والبيهقي، والحافظ ابن حجر، وغيرهم فلا يجوز أن يعارض بها الأحاديث الصحيحة الدالة على تحريم شد الرحال لغير المساجد الثلاثة.

وإليك أيها الكريم شيئا من الأحاديث الموضوعة في هذا الباب لتعرفها وتحذر الاغترار بها:

الأول: (من حج ولم يزرني فقد جفاني).

والثاني: (من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي).

والثالث: (من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد ضمنت له على الله الجنة).

والرابع: (من زار قبري وجبت له شفاعتي).

فهذه الأحاديث وأشباهها لم يثبت منها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص: - بعد ما ذكر أكثر هذه الروايات - طرق هذا الحديث كلها ضعيفة ، وقال الحافظ العقيلي: لا يصح في هذا الباب شيء، وجزم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، أن هذه الأحاديث كلها موضوعة. وحسبك به علما وحفظا واطلاعا، ولو كان شيء منها ثابتًا لكان الصحابة رضي الله عنهم أسبق الناس إلى العمل به وبيان ذلك للأمة ودعوتهم إليه لأنهم خير الناس بعد الأنبياء وأعلمهم بحدود الله وبما شرعه لعباده وأنصحهم لله ولخلقه، فلما لم ينقل عنهم شيء من ذلك دل ذلك على أنه غير مشروع ولو صح منها شيء لوجب حمل ذلك على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شد الرحال لقصد القبر وحده ؛ جمعا بين الأحاديث والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

وأما قصد المدينة للصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والدعاء فيه ونحو ذلك مما يشرع في سائر المساجد فهو مشروع في حق الجميع لما تقدم من الأحاديث في ذلك. [٥٤٤]

عباد الله! لقد قطع عمر -رضي الله عنه- الشجرة التي حصلت عندها بيعة الرضوان، لماذا؟ صيانة للتوحيد والدين، ولما حاول بعض الناس جعل بعض الآثار مزارات يزورونها مثل غار حراء، وغارثور، وجبل النور، والمساجد السبعة، ونحو ذلك، كتب العلماء التوضيح والبيان، لأن ذلك ليس من دين الإسلام، قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: (وكذلك قصد الجبال والبقاع التي حول مكة، غير المشاعر عرفة، ومزدلفة، ومنى،وقصد الجبال والبقاع التي حول مكة كجبل حراء،

---

(٥٤٤) استفدت هذه المسائل من الرسالة القيمة: "التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة" للعلامة عبد العزيز بن باز --رحمه الله تعالىوطيب ثراه-.

والجبل الذي عند منى، والذي يقال إنه كان فيه قبة الفداء، ونحو ذلك،، فإنه ليس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، زيارة شيء من ذلك بل بدعة).

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمه الله–: (ومعلوم أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بدين الله، وأحب الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكملهم نصحاً لله ولعباده، ولم يحيوا هذه الآثار، ولم يعظموها، ولم يدعوا إلى إحيائها، ولو كان إحياؤها أو زيارتها أمراً مشروعاً لفعله النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، وبعد الهجرة، أو أمر بذلك، أو فعله أصحابه أو أرشدوا إليه، فلما لم يعرف أن أحداً منهم زار تلك الآثار أو تتبعها وأمر بتشييدها، فليعلم بأن زيارة تلك الأماكن واعتبارها أثرية و جعلها مزارات للناس بدعة من البدع، يؤدي إلى تقديس الأماكن وإلى أن ترتكب عندها أنواع الشرك والبدعة).

فليتق الله تعالى من يريدون إحياء دين الجاهلية والتمسح بمقامات وقبور ومشاهد وأضرحة، وليقوموا كما قام نبيهم ﷺ بإحياء التوحيد وحماية جنابه والعمل على سد الطرق الموصلة إلى الشرك وإلا فليسوا من الله ورسوله في شيء مصداقًا لقول الله تعالى: قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)[يوسف: ١٠٨]

هذه مسؤلية الجميع ف"ليس القيام بأمر الله والدفاع عن الدين والغيرة هو من شأن العلماء وحدهم، ولا من شأن الدعاة وحدهم، بل ولا من شأن المتمسكين بالدين فقط، بل هو شأن عامة الناس كلهم، يجب أن يوضحوا ذلك وأن يبينوه، وأن يذبوا عن الشرع، وأن يدعوا إلى الالتزام بأحكام الدين الحنيف، والامتناع عن العمل بأي شيء فيه مخالفة لأحكام الشريعة، ومن الأمثلة الطريفة في ذلك، أن الدفاع عن الدين ليس وظيفة أهل الاستقامة فقط،ولنعتبر بما فعله أبو محجن الثقفي –رحمه الله– وقد أتي به يوم القادسية إلى سعد بن أبي وقاص، وقد شرب الخمر فأمر به إلى القيد، فلما التقى الناس أي المسلمون والمشركون، صحيح الرجل هذا يشرب الخمر لكنه يريد الجهاد في سبيل الله، ويريد الذب عن المسلمين، ويريد الطعان في هؤلاء الكافرين، فتحسر أنه مقيد، والمسلمون يجاهدون فقال:

كفى حزنا أن تطرد الخيل بالقنى وأترك مشدوداً علي وثاقيا

فقال لامرأة سعد: أطلقيني ولك والله علي إن سلمني الله أن أرجع حتى أضع رجلي في القيد، فإن قتلت استرحت مني فأشفقت المرأة لحاله، فحلته وذهب أبو محجن حتى التقى الناس وكانت بسعد جراحة لم يستطع المشاركة فكان يشرف عليهم من علو، فلم يخرج يومئذ إلى الناس، كان سعد القائد جريحاً فصعدوا به لينظر ويشرف على المعركة، واستعمل على الخيل خالد بن عرفطه، فوثب أبو محجن على فرس لسعد يقال لها: البلقاء، ثم أخذ رمحاً ثم خرج فجعل لا يحمل على ناحية من العدو إلا هزمهم، من جرأته وقوته، وجعل الناس يعني المسلمون يقولون: هذا ملك لما رأوه يصنع، وجعل سعد يقول متعجباً: (الصبر صبر البلقاء والظفر ظفر أبي محجن، عجباً!)سعد يتعجب هذه الدابة فيما يظن هذا شأن دابته

البلقاء، والطعن طعن أبي محجن وأبو محجن في القيد، فكيف هذا؟ فلما هزم العدو ورجع أبو محجن حتى وضع رجليه في القيد، فأخبرت ابنته حفصة سعداً بما كان من الأمر، فقال سعد: (لا والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى للمسلمين ما أبلاهم)، فخلى سبيله، فقال أبو محجن: (قد كنت أشربها إذ يقام علي الحد وأطهر منها، فأما إذ، أي: أنقذتني وتركتني، فوالله لا أشربها أبداً)وهكذا يكون الذب عن الدين مسؤولية الجميع".[٥٤٥]

هم الرجال بأفياء الجهاد نموا وتحت سقف المعالي والندى ولدوا

جباههم ما انحنت إلا لخالقها وغير من أبدع الأكوان ما عبدوا

الخاطبون من الغايات أكرمها والسابقون وغير الله ما قصدوا

فالمسئولية في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك مسئولية كل مسلم،يجب على كل موحد أن يعمل لنصرة التوحيد وسد طرق الشرك عن المسلمين بعدما يصحح العبد توحيده يدعو غيره إلى هذا التوحيد الصحيح، فاللهم إنا نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات.......... الدعاء

(٥٤٥) الصادعون بالحق – خطبة من موقع المنبر.

عالــم السحــر [١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وأنا المحب ومهجتي لا تنثني عن وجدها وغرامها بمحمد

قد لامني فيه الجهول ولو درى معنى الهيام به لكان مساعدي

يا رب صل على الحبيب المصطفى واجعله شافعنا بفضلك في غد

أما بعد فيا أيها الإخوة نحن الآن على موعد مع الحديث عن موضوع له تعلق كبير وخطر عظيم بعقيدة المسلم حديث عن عالم عجيب تختلط فيه الحقيقة بالخرافة والعلم بالشعوذة وكما تختلط فيه الدوافع والبواعث والغايات والأهداف.

عالم ظاهره جميل خلاب يفتن قلوب البسطاء ويخدع السذج والرعاع وباطنه قذر يتجافى عنه أولوا الألباب وينأى عنه أصحاب القلوب المستنيرة والفطر السليمة.

أظنكم عرفتموه نعم نعم إنه السحر، لقاؤنا -أيها الإخوة- اليوم عن عالم السحر والشعوذة.

وتاريخ السحر -أيها الإخوة- تاريخ أسود قاتم فهو خدعة شيطانية يضل بها شياطين الإنس والجن عباد الله فيوقعونهم بالسحر في أعظم جريمة ألا وهي جريمة الكفر بخالق السموات والأرض يجذبونهم الى الهاوية والشرك والضلال. [٥٤٦]

فتعالوا بنا -أيها الإخوة- نستضيء بنور الوحي ونتعرف إلى معالم هذا العالم الغامض ونستكشف بعض خفاياه.

فما هو السحر، ما حقيقته وماهيته؟ وهل يسري السحر في عمله ومهمته بنفسه؟ وما هو حكم الشرع المطهر في السحر وتعلمه وتعليمه؟ وما حكمه في الساحر؟، وأخيراً كيف نقي أنفسنا شر السحر وشرور السحرة والمشعوذين، وإذا وقع بنا شيء من ذلك فما السبيل إلى علاجه وحله؟

أسئلة مهمة -أيها الإخوة- ينبغي أن لا نخرج من لقائنا هذا إن شاء الله تعالى إلا وقد تعرفنا على إجاباتها فهذا الموضوع من الأهمية بمكان وهو مما يحتاج إليه الخاص والعام من الناس أسأل الله -عز وجل- أن يجنبنا الشرور والفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(٥٤٦)عالم السحر والشعوذة (ص ٧، وما بعدها)، للدكتور عمر الأشقر، بتصرف.

أيها الإخوة.. ما هو السحر وما هي حقيقته وماهيته؟ السحر يطلق في اللغة على كل شيء خفي ولطف ودق سببه ولهذا سمي آخر الليل سحرًا لأنه خفي وسمي السحور سحوراً لأنه يقع خفيّاً آخر الليل وهكذا...

وقد تعددت عبارات العلماء في تحديد معنى السحر اصطلاحاً تعدداً كبيراً حتى كثرت جدّاً وذلك لأن السحر ليس نوعاً واحداً يمكن حده بحد يميزه عن غيره بل هو أنواع كثيرة متداخلة، ومن أجمع ما قرأت في تعريفه ما قال الإمام ابن قدامة – رحمه الله– في المغني فقد عرفه بقوله: "هوعقد ورقى وكلام يتكلم به أى الساحر أو يكتبه أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له بإذن الله تعالى".[٥٤٧]

وأيضاً سمي الساحر بهذا الاسم لأنه يعمل أشياء خفية فيها التمويه والخداع، وأيضاً – والله أعلم– لأنه إنما يفعل ذلك في الخفاء حيث لا يعمل هؤلاء إلا في ظلمة الليل ولذا ذكر الله تعالى السحر آمراً بالاستعاذة منه عقب دخول الليل. قال تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤).والغاسق إذا وقب هو الليل إذا غربت الشمس وأقبل المساء ثم قال وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)، فغالب ما يعمل من السحر إن لم يكن أجمعه يكون في الليل والله تعالى أعلم.

ولكن –أيها الإخوة– هل السحر يؤثر؟ قلنا في تعريف السحر: "يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله"، فهل السحر يؤثر؟ هل للسحر تأثير فعلًا؟ يحسن بنا قبل الجواب عن هذا السؤال أن نتعرف أولاً إلى أنواع السحر فما هي أنواع السحر؟

السحر يطلق على ثلاثة أنواع: (سحر حقيقي، وسحر خيالي، وسحر مجازي).

النوع الأول: السحر الحقيقي وهو ما له حقيقة في الخارج وله أثر وتأثير. نعم فالسحر له حقيقة وأثر كما دل عليه الكتاب والسنة والواقع كما سنعرف الآن بالتفصيل، المهم أن النوع الأول هو: السحر الحقيقي.

النوع الثاني: سحر الخيال أو التخييل وهذا إنما يتم بطريقة يعمد فيها الساحر إلى قوى الخيال الموجودة في الإنسان فيتصرف فيها ويلقي فيها خيالات وصور يريدها ثم ينزلها إلى حس المقصودين بقوة نفسه المؤثرة فينظرها الراءون كأنها في الخارج وهي لا يوجد لها أصل في الواقع وهذا ما يسمى أو يعرف بالشعوذة أو الشعبذة.[٥٤٨]

وكذلك من سحر التخييل ما يعتمد على شغل البصر بشيء معين حتى يمرر شيء آخر لحين قلب الشيء المراد قلبه وهذا يعتمد على خطأ البصر ويدخل ضمن هذا النوع ما يلقيه الساحر في قلب الإنسان وفكره من صور قبيحة للزوجة عند

---

(٥٤٧) المغني نقلا عن خطب الشيخ حسان (٢/ ١٨٨).

(٥٤٨)مقدمة ابن خلدون (١٩٤/٢) نقلًا عن عون العلي الحميد (٣٨٧/١)

زوجها أو للزوج عند زوجته فيتخيلان تلك الصور فيكرها بعضيهما فيحصل التفريق بينهما بسبب إحداثه لتلك الصور القبيحة وهذا هو سحر الصرف وضده العطف ويكون بالتحبيب. فالنوع الثاني هو سحر الخيال أو التخييل.

النوع الثالث: هو السحر المجازي وهو عبارة عن خيالات وتمويهات وحيل علمية وعملية وإنما يقال له سحر على سبيل المجاز وليس سحراً فى الحقيقة وإنما هو حيل وخيالات ومعرفة ببعض خواص المواد كما يقوم على خفة اليد في الحركة وكذا على الكذب على ضعاف العقول كالذي يدخل يده في النار فلا تحترق بسبب أنه دهنها بدهان مقاوم للنار والحرارة أو يحول لون الوجه من البياض إلى السواد بواسطة دهن الوجه بمادة أكسيد البزموت ويعرضه لمادة الهيدروجين في إناء يشمه فيتغير إلى اللون الأسود أو نحو ذلك من ألعاب السيرك وما شابهها من الحيل.[٥٤٩]

هذه باختصار –أيها الإخوة– أنواع السحر ولا زال السؤال معنا هل السحر يؤثر؟

أظن الجواب الآن صار واضحاً فالسحر حقيقة لا سبيل أبداً لإنكارها وهو مؤثر وله حقيقة في الخارج ولا طريق إلى إنكار ذلك على الإطلاق، لأنه مما قامت عليه الأدلة من الكتاب الكريم، ومن سنة النبي ﷺ، ومن الواقع وهو بعد القرآن والسنة خير دليل.

ألم تسمع إلى قول الله تعالى: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

انتبه أيها الحبيب "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ"، وهذا يدل على أن السحر له تأثير في الحب وفي البغض، ألم تسمع أن النبي ﷺ قد سحر؟ وإن كان الله –عز وجل– قد عصمه من أثر السحر في قلبه ورسالته لكنه أثر في بدنه ﷺ وسيأتي الحديث معنا إن شاء الله تعالى، والإجماع فقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن السحر له حقيقة وهذه كتب علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة تتحدث عنه في الجانب العقدي في كتب العقيدة وفي الجانب الفقهي في كتب الحدود والتعزيرات وغير ذلك.

والواقع بعد هذا كله خير شاهد –أيها الإخوة– على ما نقول، لماذا نذهب مع المكابرين في مكابراتهم ونحن نسمع ونرى ونلابس أحوال أناس نعرف فعلاً أنهم مسحورون، كانوا بالأمس بيننا بحالة طبيعية جيدة فصاروا اليوم إلى حالة سيئة تصدر عنهم خلالها تصرفات لا تعقل ولا يمكن أن تصدر من أمثالهم نعرف ذلك منهم ونوقن به، و هاهم يعجز الأطباء

---

(٥٤٩) عالم السحر والشعوذة نقلا عن عون العلي الحميد(٣٨٨/١).

عن وصف حالتهم فضلاً عن علاجها، ثم يشفون بإذن الله تعالى على يد من يعالجهم بكتاب الله والأذكار، لماذا المكابرة؟ والواقع بعد الوحي خير دليل؟!

فالسحر –أيها الإخوة– له أثر وحقيقة، ولذا أمر ربنا سبحانه بالاستعاذة من السحرة والسواحر وإن كان بعض السحر ليس له حقيقة وإنما هو تخييل وتمويه وحركات كما فصلت فليس معنى هذا إنكار ما له حقيقة فبعض الناس يستدل بقوله تعالى: يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) [طه: ٦٦] على أن السحر كله تخيل وينسى هذا أو يتناسى أن الله الذى قال هذه الآية هو الذي قال أيضا: "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ" أم أننا نؤمن ببعض القرآن دون بعض، نعوذ بالله من ذلك سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولكن السؤال الأهم من هذا: هل السحر يباشر عمله وأثره ومهمته بنفسه ويؤثر بذاته؟

والجواب: لا طبعاً.. وإنما ذلك كله بمشيئة الله تعالى وبإذنه وإرادته وقدره فلا يحدث في الكون شيء أبداً إلا بتقدير الله ومشيئته كما قال سبحانه: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) [القمر: ٤٩]، فالسحر وكل شيء غيره لا يحدث في الكون إلا بتقدير الله وعن إذنه ومشيئته كما أوضحت آية السحر التي سقناها.

فهل سمعتم –أيها الإخوة– هذا التعبير القرآني الراقي الرائق: وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ!!

فطب نفساً وقر عيناً واهدأ بالاً أيها الحبيب فلا يتم شيء في كون الله تعالى إلا بإذنه ومشيئته.

دع الأيـــام تفعــــل مــــا تشــــاء ... وطـــب نفســـاً إذا حكـــم القضـــاء
إذا نـــزل القضـــاء بـــأرض قـــوم ... فـــلا أرض تقيـــه ولا سمـــاء

وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله.

قال ابن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد.

قال الحسن البصري: "وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" قال: نعم من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد شيئاً إلا بإذن الله كما قال الله،" وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ "(٥٥٠)

(٥٥٠) تفسير ابن كثير – (١ / ٣٦٤).

فهل عندك –أخي – ثقة في الله –عز وجل–؟ اعلم أنه على قدر هذه الثقة منك تكون الحماية من ربك سبحانه لك، وسأزيد هذه النقطة إيضاحاً عند الحديث عن: كيف تحمي نفسك من السحر وشروره؟

أيها الإخوة.. فإذا كان هذا هو تعريف السحر وهذه أنواعه فما هو موقف الشرع المطهر من السحر والسحرة؟

هل يجيز الشرع المطهر تعلم السحر ولو للدفاع عن النفس وحمايتها من شروره على حد قول من قال: تعلموا السحر ولا تعملوا به،ما هو حكم الشرع الحنيف في هذه المسألة؟

والجواب –أيها الإخوة– .. في آيات وأحاديث وأقوال للعلماء الكرام الأجلاء أسردها على مسامع حضراتكم فأعيروني القلوب والأسماع في هذه النقطة بالذات فإنها من الأهمية بخطر ومكان..

قال الله تعالى: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)"هذه الآية معنا من أول اللقاء إلى آخره فهي عمدة الحديث عن هذا الموضوع في كتاب الله –عز وجل– وفيها –أيها الإخوة– .. الجواب عن سؤالنا من كافة جوانبه وها هي قد بينت حكم السحر وأنه كفر أكبر وذلك أن الله تعالى قال: "وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ "فنفي الكفر عن سليمان لأنه لم يكن ساحراً وكفر الشياطين السحرة لأنهم عملوا بالسحر، فدل هذا على أن السحر كفر، وكذا قوله تعالى: وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ }

قال العلامة الشنقيطي: وهذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة وكفى بدخول الجنة خلاقاً ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة". وأيضا: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ } [البقرة: ١٠٢] أي من نصيب، ونفي النصيب في الآخرة بالكلية لا يكون إلا للكافر عياذاً بالله تعالى.

وهذه الآيات أدلة واضحة على أن من السحر ما هو كفر بواح، وذلك مما لا شك فيه. [٥٥١]

وكذا قوله سبحانه: "وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ "

---

(٥٥١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن – (٤ / ١١٢).

وقال -عز وجل- في غير هذه الآية: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت"قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الجبت: السحر، وقال جابر: الطاغوت: كهان كان ينزل عليهم الشياطين في كل حي واحد الآن، أكمل الآية والتي بعدها"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)".

هذا كتاب الله -عز وجل- أوضح لنا أن السحر كفر وأن الساحر كافر، وأما في السنة على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم فقد روى الشيخان من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ قَالَ « الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ ».[٥٥٢]

فبدأ النبي ﷺ بالسحر بعد الشرك ليدلنا على خطورة أمره ومعنى الموبقات: المهلكات. فتعلم السحر وتعليمه واستعماله مهلك وموقع في الشرك والكفر بالله تعالى حتى لو تعلمه الإنسان ولم يعمل به، وليس هناك حديث ولا أثر بمعنى ما يفترى الناس على رسول الله أنه قال: تعلموا السحر ولا تعملوا به، لا، ما قال هذا رسول الله ﷺ ولا ورد عنه، لا في كتب السنة ولا غيرها وقد نص أهل العلم على ما ذكرنا قال الإمام مالك -رحمه الله-: "إن تعلم السحر وتعليمه كفر وإن لم يعمل به

قال العلامة الدردير: وهذا ظاهر إذ تعظيم الشياطين ونسبة الكائنات إليها لا يستطيع عاقل يؤمن بالله أن يقول فيه: إنه ليس بكفر. [٥٥٣]

وقال الخرشي: "والمشهور أن تعلم السحر كفر وإن لم يعمل به". [٥٥٤]

وقال ابن قدامة: إن تعلم السحر وتعليمه حرام ولا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته. [٥٥٥]

نعم -أيها الإخوة- .. ولا ريب فيما سمعتم من أقوال أهل العلم فإن السحر لا يتأتى إلا بالشرك وعبادة الشياطين والكواكب فأنى لهذا الإيمان وقد قال ربنا سبحانه" وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى" فنفى عنه الفلاح وأي خير فيه بعد

---

(٥٥٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).

(٥٥٣) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٦/ ٢٨٢)، نقلًا عن عون العلي الحميد ١/ ٣٩٠. بتصرف.

(٥٥٤) الخرشي على مختصر سيدي خليل (٨/ ٦٣)، نقلًا عن السابق.

(٥٥٥) المغني (٣٠١/١٢).

ذلك يبقى، وأيضاً فقد قال القرآن عقب آية السحر التي في البقرة" وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)" فجعل الله تعالى ضد هذا الإيمان فعل السحر ولا شك أن هذا يدل على أن الساحر كافر.

ولذلك –أيها الإخوة– من عمل بالسحر كانت عقوبته في الشرع المطهر أن يقتل ضربة بالسيف كما ثبت ذلك عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وحفصة بنت عمر وعبد الله بن عمر وجندب بن عبد الله رضي الله عنهم ومعلوم أن دماء المسلمين محظورة لا يحل أبداً إراقتها إلا ما استثناه الشرع بقوله ﷺ لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة[٥٥٦] وليس الساحر زانياً ولا قاتلاً فتعين أن يكون مرتداً ولذلك ثبت عن هؤلاء الصحابة أنهم قالوا: حد الساحر ضربة بالسيف كما جاء عن جندب. [٥٥٧]

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عماله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر. [٥٥٨]

وصح عن حفصة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ وبنت عمر أنها أمرت بقتل جارية سحرتها فقتلت [٥٥٩] قال الإمام أحمد ورد ذلك عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ وعلى الرغم من هذا –أيها الإخوة– على الرغم من أن الشرع شدد في حكم الساحر فعده كافراً وجعل حده القتل ضربة بالسيف وعلى الرغم من أن الإسلام شن حرباً لا هوادة فيها على السحر والسحرة والكهان وأشياعهم وجعل السحر من الموبقات وحارب كل مظاهر السحر والشعوذة، وبالتالي نظر المسلمون في أعصار الإسلام المتتابعة إلى السحروفاعليه نظرة احتقار وازدراء. وكانت سيوف الحكام في الخلافة الإسلامية تلاحق السحرة بالقتل، فكسدت سوق السحرة في صدر الخلافة الإسلامية، على الرغم من كل ذلك سرعان ما انتشرت مظاهر السحر والشعوذة في العالم الإسلامي بسبب البعد عن الله تعالى وانصراف ولاة الأمور عن حماية الدين وحراسته على يد مجموعة من غلاة المتصوفة والفلاسفة كما ذكر ابن خلدون في مقدمته[٥٦٠]، وذلك بسبب ظهور الجهل بأحكام الشريعة الإسلامية، وسذاجة الكثير من المسلمين وجهلهم بأحوال هؤلاء السحرة والمشعوذين، وكذا بسبب تعطيل أحكام الله تعالى في السحرة، وفي هذا العصر تزداد ظاهرة السحر نفوذًا وانتشارًا، فأكثر شعوب العالم تقدمًا ماديًّا تجرى فيها طقوس

---

(٥٥٦) أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

(٥٥٧) أخرجه البخاري في التاريخ (٢/٢٢٢) والبيهقي (٨/١٣٦).

(٥٥٨) أخرجه البخاري (٣١٥٦).

(٥٥٩) أخرجه عبد الله بن أحمد في مسائله (١٥٤٣)، وعبد الرزاق (١٠/١٨٠).

(٥٦٠) انظر: "المقدمة" لابن خلدون (٢/١٩٣) وما بعدها.

السحر على نطاق واسع، وبطرق متنوعة، بل إن السحر قد واكب هذا التطور المادي، فأقيمت الجمعيات والمعاهد لتعليم السحر سواء عن طريق الانتظام أو الانتساب، كما نظمت المؤتمرات والندوات في هذا المجال. (٥٦١)

والذي يتابع أخبار السحرة والمشعوذين في بلادنا العربية والإسلامية يجد أن الأمر لا يقل سوءًا عما يحدث في بلدان العالم غير الإسلامي، مع أن المفروض أن لا يجد السحرة سوقًا رائجة لهم في بلاد الإسلام التي يحرم دينها ممارسته ويعده إحدى المحرمات والموبقات(٥٦٢)

والسؤال المهم الذى ينبغي أن نشترك جميعا في الإجابة عليه: لماذا يروج السحر ويكثر السحرة في بلاد المسلمين؟والجواب بعد جلسة الاستراحة هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

والسؤال المهم الذى ينبغي أن نشترك جميعا في الإجابة عليه: لماذا يروج السحر ويكثر السحرة في بلاد المسلمين؟
وللإجابة عنه يمكن رصد عدد من الأسباب، ومنها:
١- ضعف الإيمان فى نفوسنا أحيانا، إذ الإيمان دعامة كبرى، ووقاية عظمى من كل فتنة وشر ومكروه" وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ".
وفى الحديث: "إن الإيمان ليَخلَق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم" فحين يضعف الرجاء بالله، ويقل الخوف منه ويهتز جانب التوكل على الله، والرضاء لما قدر، واليقين بما قسم يتسامح بعض الناس بالذهاب للسحرة والمشعوذين فيزيدهم ذلك وهنا على وهنهم، وتستلب أموالهم وعقولهم.
٢- الجهل بأحكام الشريعة، وما جاء فيها من زواجر عن الذهاب إلى هؤلاء السحرة والعرافين، وما ورد فى ذلك من ضرر على المعتقد والدين.
وهل يذهب إليهم من عرف وقدر قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة".

---

(٥٦١) عالم السحر والشعوذة (٥٥، ٥٦).

(٥٦٢) عون العلى الحميد(١/٣٨٥).

أما إن سألهم وصدقهم فالخطب أكبر، والخطر أعظم، فقد روى الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم" وعند البزار بسند صحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه موقوفا قال: "من أتى كاهنا أو ساحرا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم".

٣- سذاجة بعض المسلمين وجهلهم بحال أولئك السحرة والمشعوذين فتراهم يذهبون يستطبون عندهم، وأولئك لا يملكون من أنواع العلاج إلا ما يضر ولا ينفع، تخرصات وأوهام وفصد للعروق تسيل منه الدماء وتمتمات وطلاسهم وكتابات وربط تباع بغالي الأثمان، وهي لا تساوي فلسا عند أولي الألباب.

بل ولو ذهبت ترقب أحوال هؤلاء المشعوذين الدينية والخلقية لرأيت العجب العجاب، ولأيقنت أنهم أحوج الناس إلى العلاج والاستصلاح وإن نصبوا أنفسهم على هيئة الشيوخ وحذاق الأطباء؟

٤- طغيان الحياة المادية المعاصرة قست له القلوب وجفت ينابيع الخير في أرواح كثير من الناس ونتج عن ذلك العقد النفسية والمشكلات الوهمية وارتفاع مؤشر القلق، وزاد الطين بلة ظن أولئك المرضى أن شفاءهم يتم على أيدي السحرة والمشعوذين، فراحوا يطرقون أبوابهم ويدفعون أموالهم وينتظرون الشفاء على أيديهم، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

٥- وباتت بعض بيوت المسلمين مرتعاً للشياطين يقل فيها ذكر الله، وقلَّ أن يقرأ فيها كتاب الله أو تردد فيها التعاويذ والأوراد الشرعية التي لا يستقر معها الشياطين، وفي مقابل ذلك تجد هذه البيوت ملأى بأنواع المنكرات المرئي منها والمسموع والصور العارية وغير العارية وألوان الكتب والمجلات السيئة، وقد لا تخلو من مأكول أو مشروب محرم، وهذه البيوت الخربة وإن كان ظاهرها العمران تصبح مأوى للشياطين وتصطاد أهلها وتصيبهم بالأدواء، فلا يجدون في ظنهم سبيلًا للخلاص إلا عن طريق السحر والشعوذة والكهانة، وهكذا يسري الداء، وكلما ابتعد الناس عن الله ومنهجه عظمت حيرتهم وكثر بلاؤهم، ووجد شياطين الجن والإنس لدجلهم رواجًا.

٦- ضعف دور العلماء والمفكرين وأهل التربية في التحذير من السحرة وبيان الأضرار الناجمة عن الذهاب للمشعوذين والعرافين، وتلك وربي تستحق أن تعقد لها الندوات وأن تسلط عليها الأضواء في وسائل الإعلام المختلفة حتى يتم الوعي ولا يؤخذ الناس بالدجل.

٧- وإذا عطل أو قلّ تنفيذ حكم الله في السحرة أو ضعف المتابعة لهم انتشروا وراج دجلهم وقد يكون من أسباب ذلك عدم الإثبات وضعف تعاون الناس فى البلاغ، إذ من الناس من يقل أو ينعدم خوفه من الله، فيسعى في الأرض مفسدًا إلا أن تردعه قوة أو يخاف الحد، ومن المعلوم أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وقد جاء فى حديث يصح وقفه – دون رفعه – "حد الساحر ضربة بالسيف" وينبغي أن يتعاون الناس في الرفع للجهات المسئولة لمن يثبت تعاطيه السحر.

استمرار المرض وضيق الصدر. وقلة الصبر وضعف الاحتساب للأجر عند الله. وكل ذلك قد يدفع البعض للذهاب لهؤلاء. وإن لم يكن مقتنعا فى البداية.

وربما أقنع نفسه أو أقنعه غيره أن ذلك من فعل الأسباب.

و الإنسان لاشك مأمور بفعل الأسباب. ولكنها الأسباب المشروعة دون المحرمة.

٨- والدعاية الكاذبة سبب للرواج وذهاب لهؤلاء الدجالين، فقد يكتب الله شفاء لمريض على أيدي هؤلاء لتكون له فتنة.

فيطير بالخبر و ينشر في الآفاق الدعوة للذهاب لهؤلاء ليفتن غيره كما فتن، وبعض الناس لديه القابلية للتصديق لأي خبر دون تمحيص أو نظر في العواقب.

وهكذا يفتن الناس بعضهم بعضًا. و يكونون أداة للدعاية الكاذبة الخاسرة من حيث يشعرون أو لا يشعرون؟

أيها الإخوة! هذه بعض الأسباب لرواج السحر والذهاب للسحرة، وقد يكون هناك غيرها.

ومن العدل و الإنصاف أن يقال: إنه على الرغم من انتشار السحر ووجود من يذهب إليهم، فثمة فئات من المسلمين يربأون بأنفسهم ومن تحت أيديهم عن الذهاب لهؤلاء الدجالين من السحرة والكهنة والعرافين والمشعوذين، يحميهم الدين، ويبصرهم العقل، وملاذهم التوكل واليقين، وزادهم الصبر و احتساب الأجر من رب العالمين، و تلك شموع تضيء، وهي نماذج للعلم والعقل والدين، جعلنا الله منهم وإخواننا المسلمين.[٥٦٣]

وبعد أيها الإخوة! ما هو حكم إتيان السحرة والمشعوذين والكهان فإن كثيراً من المسلمين قد استهان بهذه المسألة ولا حول ولا قوة إلا بالله على الرغم من أن الشريعة شددت وعظمت وأنكرت على من فعل هذا تعظيماً وإنكاراً شديداً ففي الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: "من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها، أو كاهنًا فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد". [٥٦٤]

وبعض الناس يقول: أنا لا أصدقه ولكني آتيه للفرجة والترفيه ولا أصدقهم بالغيب بل أنا أعتقد بطلان السحر والسحرة فهذا أيضاً لا يخرج من الإثم بل عليه منه الكثير فإتيانه هذا حرام وهو من الكبائر لحديث حفصة الذي أخرجه مسلم أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "من أتى عرافاً فسأله لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"[٥٦٥]

فسبحان الله يبقى أربعين يوماً لا يقبل الله منه صلاة واحدة. ولذلك كان الشرع حازماً في أمره حين قال النبي ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر......"(٥٦٦) فلم يقل لا تصدقوا السحرة وإنما قال: اجتنبوا وذلك لايحصل الا بأن نجتنبهم ونبتعد عنهم مطلقاً.

(٥٦٣)السحر حقيقته وحكمه، خطبة للشيخ سليمان حمد العودة.

(٥٦٤) أخرجه أحمد (٢/٤٠٨) وأبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، وصححه الألباني في داب الزفاف (٣١)، الإرواء (٢٠٠٦)، المشكاة (٥٥١).

(٥٦٥) أخرجه مسلم ٥٩٥٧.

(٥٦٦) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) وأخرجه مسلم (٨٩).

فاجتناب السحر واجب وتجنيبه لمن استرعانا الله آمانتهم واجب كذلك فلنتق الله فيما يشاهده أبناؤنا من أعمال السحرة والمشعوذين إما عن طريق التلفاز أو المشاهدة عياناً في بعض البلدان وذلك بقيام المشعوذ بعمل أعمال خفية فتصرف الأبصار إليها كإماتة طير وإحيائه أو إخراج الطائر من البيضة على يديه وهكذا ونحن نحتاج الى معرفة هل هذه الأشياء من ناحية الشرع تعد من السحر فما حكم مشاهدة هذه الأشياء وهل هي من السحر؟

والجواب:هذه الأشياء ضرب من ضروب السحر وهو سحر التخييل الذي قدمنا الحديث عنه وهو يشبه سحر سحرة فرعون الذي قال الله فيه: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى {٦٦} (طه).

وقال فيه أيضا: {قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ {١١٦} (الأعراف). [٥٦٧]

فرؤية هذه الأعمال غير جائز يحرم على الإنسان رؤيتها وينبغي عليه أن يحذر أبناءه من مشاهدة هذه الأشياء.

ودليل ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٦٨} (الأنعام).

وقوله تعالى للمؤمنين: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً {١٤٠} (النساء).

نعم.. فكيف يقر المسلم بحضوره و مشاهدته الشرك بالله وهو أعظم المنكرات فى حين أنه مأمور أن ينكر المنكر لا أن يقره؟ كيف تروق للمسلم مشاهدة الكفر بالله وهو يتفرج وهو على يقين بأن هذه الخدمة من الشياطين للسحرة يعينوهم على ما يفعلونه لقاء ثمن دفعوه لهم هو الشرك بالله وعبادتهم والتقرب إليهم بالكفر فالعلاقة التي بين الساحر والشيطان – أيها الإخوة– علاقة معاوضة وعبودية فمن الساحر تذلل واستغاثة وخضوع ونظير ذلك يقوم الجني بإسداء بعض الخدمات لهذا الساحر فهو إذن اتفاق وعقد بين طرفين فمن الأول العبادة ومن الثاني التسلط والتنفيذ والإعانة.

"ولكن الثمن الذي يدفعه السحرة لقاء السحر الذي يحصلون عليه ثمن باهظ كبير، ذلك أنهم يدفعون في مقابل السحر أنفسهم، فلا يرضى الشيطان بأقل من العبودية له، وإذا دان العبد للشيطان فإنَّ نفسه تصبح خبيثة، وقلبه مظلمًا، وأخلاقه دنسة فاسدة، وتصرفاته معوجة هوجاء، فتراه دائمًا يغرس الشر حيثما حلَّ، ويشع في كل مكان وصل إليه خبث نفسه وسوء سلوكه..."(٥٦٨) أ.هـ فياله من عوض بخس تافه، ويا لعظم الخسارة التي تنزل بأمثال هؤلاء؟!

فلنتق الله في أنفسنا ودينا ولننأى عن هذه المواطن حتى لا تزل أقدامنا فيما يهلكنا ويدمر حياتنا ويذهب بآخرتنا.

---

(٥٦٧) كيف تتخلص من السحر ؟ (ص١٠) عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار.

(٥٦٨) عالم السحر للأشقر (ص٨٥) وما بعدها.

ولسائل فطن أن يسأل الآن هل هناك علامات يعرف بها الساحر؟:

والجواب: إن من رحمة الله بعباده أنه أوضح لهم بل كشف لهم خبايا أهل الزيغ والضلال من السحرة والمشعوذين ليكونوا منهم على حذر حتى أصبح العامي والجاهل يعرف الساحر من غيره.

فمن العلامات التي يمكننا أن نستدل بها على الساحر:

١. أنه يسأل المريض عن اسمه و اسم أمه.

٢. أنه يأخذ أثراً من آثار المريض مثل ثوب، غترة، منديل، فانيلة، سروال، طاقية وغيرها من ملابس أو غيرها مما يستخدمه المصاب.

٣. أحيانا يطلب حيواناً بصفات معينة ليذبحه ولا يذكر اسم الله عليه، وربما لطخ بدمه أماكن الألم من المريض أو يرمي به في مكان خرب.

٤. كتابة الطلاسم والتعوذات الشركية.

٥. تلاوة الطلاسم والعزائم غير المفهومة.

٦. إعطاء المريض حجاباً يحتوي على مربعات بداخلها حروف أو أرقام.

٧. أن يأمر المريض أن يعتزل الناس فترة معينة في غرفة لا تدخلها الشمس ويسميها العامة "الحجبة".

٨. أحيانًا يطلب من المريض ألا يمس الماء مدة معينة غالباً تكون أربعين يومًا.

٩. يعطي المريض أشياء يدفنها في الأرض.

١٠. يعطي المريض أوراقاً يحرقها ويتبخر بها.

١١. يتمتم بكلام غير مفهوم وخارج تماماً عن اللغة العربية.

١٢. أحيانًا يخبر الساحر المريض باسمه واسم بلده ومشكلته التي جاء من أجلها بدون أن يذكر له المريض ذلك.

١٣. يكتب للمريض حروفاً مقطعة في ورقة "حجاب" أو في طبق من الخزف الأبيض ويأمر المريض بإذابته وشربه.

١٤. يقضي معظم الأوقات بعيداً عن الناس ولايعاملهم ولايتصل بهم لأنه دائماً يخلو بشيطانه الذي يسخره لأعمال سحرية أو إلحاق الضرر بالناس فإذا جاء إليه من يريد منه سحراً قام إليه.

١٥- أنه يدعي معرفة الأمراض بغير أسبابها المعتادة.

فهذه جملة من العلامات التي يُستدل بها على الساحر فعلى كل مسلم ومسلمة أن يتنبهوا لهذه العلامات وإلا وقعوا في المحظور وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ". (٥٦٩)

وتبقى فراسة المؤمن تدله على الصالح والطالح فكما أن هناك من الناس من إذا رءوا ذكر الله فهناك من إذا رءوا عرفت فى وجوههم المعصية والذنوب، فالوجوه صحائف القلوب وكما قال الحسن: "إنهم وان هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق وجوههم أبد الدهر أبى الله إلا أن يذل من عصاه".

فلنحذر السحرة والسحر ولا نقربهم، وأظن الآن أن الوقت داهمنا ولم نجب عن السؤال الأخير من اللقاء ألا وهو كيف نحمي أنفسنا من السحرة وشرورهم وأرجئ الجواب عن هذا السؤال إلى الجمعة المقبلة إن قدر الله لنا اللقاء لنعرف كيف نتقي السحر قبل وقوعه وكيف نعالج المسحور بعد وقوع السحر عليه؟ وهل سحر النبي ﷺ فعلاً؟ السؤال الذي رأيته ولازلت أراه يلح على الأذهان: كيف وهو رسول الله؟ وكيف سحر؟ ومن سحره؟وكيف انجلى عنه السحر ﷺ؟.......... إلى آخر هذه السؤالات المثيرة ونلتقى مع إجاباتها فى اللقاء القادم بمشيئة الله تعالى..

أسأل الله أن يحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بالله أن نغتال من تحتنا.... الدعاء

---

(٥٦٩) كيف تتخلص من السحر ؟ (ص١١، ١٢) عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار.

عالم السحر [٢]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا -أيها الإخوة- تحدثنا في اللقاء السابق عن السحر وخطره وحكم الشرع فيه وعن إتيان السحرة وحرمته سواء كان ذلك تصديقاً لهم أو حب استطلاع وقد طرحنا في اللقاء الماضي سؤالاً ضاق الوقت عن الجواب عنه ألا وهو: كيف نحمي أنفسنا من السحر قبل وقوعه؟ وكيف نعالجه لو وقع؟ واليوم بمشيئة الله تعالى نجيب عن هذا السؤال، فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- ، والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أيها الإخوة! إن الذي يقدر الخير والشر هو الله والذي ينزل الإيمان والكفر والطاعة والمعصية وكل شيء هو الله -سبحانه وتعالى- كما قال تعالى: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)" [القمر: ٤٩].

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث أُمِّ سَلَمَةَ أن النبي ﷺ استيقظ ذات ليلة فقال: "سبحان الله! ماذا فتح الليلة من الخزائن؟ وماذا أنزل الله تعالى من الفتن؟ أيقظوا صواحب الحجر فرب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة"[(٥٧٠)] فأخبر ﷺ أن الله تعالى هو الذي أنزل الفتن على الخلق.

لكن من حسن الأدب في الحديث عن الله -عز وجل- أن لا ينسب الشر إليه كما حكى القرآن ذلك في أكثر من موضع عن خيرة الخلق من الأنبياء والصالحين قال الله -عز وجل- عن نبيه الخضر عليه السلام في تفسير الثلاث التي حدثت في رحلته مع موسى عليه السلام"أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠)فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)".

فهذه ثلاث، قال الخضر في الأولى وهو خرق السفينة فأردت أن أعيبها فلما كان ظاهره الشر نسب الفعل إلى نفسه فقال فاردت لكنه لما تكلم عن الخير لليتيمين في هدم الجدار وبنائه قال فأراد ربك أن يبلغا.

وهكذا نسب الشر إلى نفسه ونسب الخير إلى ربه كما حكى القرآن ذلك أيضاً على ألسنة الجن الذين أنصتوا للقرآن فأسلموا وآمنوا فتساءلوا: "وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)" [الجن: ١٠].

(٥٧٠) أخرجه البخاري ١١٥.

ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ في ثنائه على ربه: "والشر ليس إليك"[٥٧١]وهكذا –أيها الإخوة– فالله –عز وجل– هو خالق الخير والشر على الحقيقة وهو منزلهما ومن هذا الباب أنزل الله –عز وجل– السحر إلى الأرض كما أنزل المعاصي والشرور والكفر والفجور وله في خلقه –عز وجل– الحكمة وله في خلقه شئون وأمور.

قال عز من قائل: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ [البقرة: ١٠٢] "فالنص القرآني هنا صريح في أن الله –عز وجل– أنزل السحر على الملكين ببابل فتنة واختباراً وابتلاءً ولله أن يختبر عباده بما شاء وقد خلق الحق جل جلاله إبليس الذي هو أصل كل الشرور، ونهى العباد عن متابعته وحذر منه، واختبر الحق جيش طالوت بعدم الشرب من النهر.

فإذا سأل سائل ما هي الحكمة التي في تعليم الملكين السحر للناس فنقول: كفى أولاً بورود النص على أنه فعله سبحانه فثم كل حكمة، لأنه من الحكيم جل جلاله الذي شأن عمله كله الحكمة.

ونقول ثانياً: لعل الحكمة من وراء هذا الاختبار والله أعلم تنبيه الناس في ذلك الزمان إلى أن السحر ليس بالشيء العظيم الذي لا يناله إلا الخاصة وأصحاب العقول كما كان كثير من الناس يظن ذلك فأقام الله –عز وجل– الملكين يعلمان الناس السحر ويقولان لهم كل واحد يستطيع أن يكون ساحراً ولكننا نحذركم من السحر، فإن السحر كفر يجلب غضب الله، وهذا أخف حالا بلاشك من أن يعتقد الناس فى هؤلاء أنهم آلهة أو أرباب جهلًا منهم بحالهم وحقيقتهم، فجاءت الحكمة فى أن يعرفوا الناس حقيقة أمرهم وأنهم ليسوا كذلك وإنما هم يقومون بهذه الأشياء عن طريق السحر والاتفاق مع الشياطين، وليعلم –أيها الإخوة– مع ذلك أن الملكين ليسا بعاصيين في حال تعليمهما الناس السحر بل هما مطيعان لله، لأنهما مكلفان بهذا من الله تعالى ابتلاءً واختباراً من الله لعباده[٥٧٢].

قال العلامة الألوسي: وهذان الملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله تعالى للناس فمن تعلم وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن قوم طالوت بالنهر[٥٧٣].

وأنبه –أيها الإخوة– إلى أمر خطير وهو أن الأخبار التي وردت في هذا السياق من قصص وحكايات والتى تفيد عصيان الملكين، أو أنهما افتتنا بامرأة جميلة، أو أن نزولهما أصلاً إلى الأرض كان بسبب الاعتراض على خلق آدم فهذا كله من كذب اليهود على ملائكة الله ورسله وقد نقل ذلك العلماء وسطروه في كتبهم وعرفوا بكذبه وحذروا منه أيضاً، لكن

---

(٥٧١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧١).

(٥٧٢) عالم السحر والشعوذة للأشقر ص٢٤٥.

(٥٧٣) روح المعانى للآلوسى (١/٣٤٠).

كثيراً ممن في قلوبهم مرض يحكون هذه الروايات على الرغم من علمهم بكذبها لهوى فى نفوسهم أو جهلًا منهم وأحلاهما مر علقم، فلم يذكر من ذلك حرف عن رسول الله ﷺ أبداً وإنما هو كله افتراء وهراء.

وأيضاً –أيها الإخوة– لا يتفلسف متفلسف ويقول: أنا أتعلم السحر اقتداء بالملكين فإنه لا يجوز لك ذلك بل هو حرام عليك، نعم كان حلالاً للملكين لأنهما كان لهما فيه إذن من الله تعالى، وأما بقية العباد فأدلة القرآن والسنة قائمة ودالة على نهي الله ورسوله عن تعلم السحر وتعليمه والعمل به كما أوضحت ذلك لحضراتكم في اللقاء السابق بحمد الله تعالى وفضله العظيم.

ويبقى بعد هذا التأصيل المهم –أيها الإخوة– أن أجيب عن السؤال الذي طرحناه في اللقاء السابق ألا وهو: كيف نحمي أنفسنا من السحر والسحرة وشرورهم قبل وقوعها بنا وكيف نعالجها بعد وقوعها؟ وهل سحر النبي ﷺ؟ وكيف وهو رسول الله؟ وكيف انجلى عنه ﷺ هذا السحر؟ وأرى الآذان والعيون تتلهف لسماع الجواب عن السؤال الثاني قبل الأول وأنا أوافق على هذا الشوق وأؤيده فإن هذا الموضوع مما خاضت فيه ألسنة كثيرة بالباطل وأقلام أكثر بالزيف والهراء، فما حقيقة هذا الأمر، فلنبدأ به، خاصة أنه يأخذ بنا إلى وسيلة الحماية من السحر ويدلنا على طريقة العلاج منه إن وقع بنا.

فأعيروني القلوب والأسماع –أيها الإخوة– ، وأنا أعاهد الله أمام حضراتكم ألا أتكلم الآن إلا بآية من القرآن أو حديث من السنة أو قول لواحد من سلف الأمة.

–أيها الإخوة– هل سحر النبي ﷺ فعلاً وحقاً؟ والجواب بآية من كتاب الله وبحديث صحيح عن الصادق ﷺ قال الله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(٥)

وقال تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) أيها الإخوة هاتان السورتان هما اللتان قال فيهما النبي ﷺ كما في مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" و" قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ"

وقد أجمع العلماء على أن هاتين السورتين نزلتا لما سحر النبي ﷺ، نزل بهما جبريل فرقاه، والحديث رواه البيهقي في الدلائل وفيه: "فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمار بن ياسر في نفر فأتوا الركية فإذا ماؤها مثل ماء

الحناء فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الكرية وأحرقوها فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة وأنزلت عليه هاتان السورتان فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة" قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ "،" قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ "(٥٧٤)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك قال: صنعت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فأصابه من ذلك وجع شديد فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه لما به فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما فخرج إلى أصحابه صحيحًا. (٥٧٥)

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه والنسائي والبيهقي وغيرهم من عدة طرق عن عدد من أصحاب النبي ﷺ وأنا أسوق لفظ أقرب وأحب الناس إلى قلب المصطفى وأعرف الناس به وبما يحدث له إنها الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها وقد ذكر هذه الرواية البخاري في كتاب الطب عَنْ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – قَالَتْ سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – رَجُلٌ مِنْ بَنِى زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّىْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهْوَ عِنْدِى لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ثُمَّ قَالَ « يَا عَائِشَةُ، أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِى فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِى رَجُلاَنِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِى، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَىَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ مَا وَجَعُ الرَّجُلِ فَقَالَ مَطْبُوبٌ. قَالَ مَنْ طَبَّهُ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَ فِى أَىِّ شَىْءٍ قَالَ فِى مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ وَأَيْنَ هُوَ قَالَ فِى بِئْرِ ذَرْوَانَ ». فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فِى نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَجَاءَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أَسْتَخْرِجُهُ قَالَ « قَدْ عَافَانِى اللَّهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا ». فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ. (٥٧٦)

وعن زيد بن أرقم –رضي الله عنه– قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا فأرسل رسول الله ﷺ فاستخرجها فحلّها فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال فما ذكر ذلك لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط. (٥٧٧)والحديث أخرجه النسائي بسند صحيح.

وللأسف –أيها الإخوة– فقد رد كثير ممن ينسبون إلى العلم هذا الحديث الصحيح وتبعهم في ذلك من يقدمون عقولهم على صحيح السنة ويردون النصوص لأنها لا توافق عقولهم ولعمر الله أي عقل ذلك الذي يرد كلام ووحي من خلق الخلق فإن السنة وحى وليست العقول وحدها الميزان لمعرفة الصحيح من السقيم فإن العقول تستحسن القبيح وتستقبح

---

(٥٧٤) انظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (ص ٢٢٠)، وقال عقبه: لأصله شاهد في الصحيح بدون نزول السورتين وله شاهد بنزولهما.

(٥٧٥) انظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (ص ٢٢٠).

(٥٧٦) أخرجه البخاري (٥٨٦٣، ٦٣٩١، ٥٧٦٦).

(٥٧٧) أخرجه أحمد (٣٦٧/٤) والنسائي (١١٢/٧)، وصححه الألباني هناك.

الحسن بمجرد الهوى ورضي الله عن علي بن أبي طالب الذي قال: لو كان الدين بالرأي لكان المسح على باطن الخف أولى من المسح على أعلاه، ولكني رأيت رسول الله ﷺ يمسح على أعلى الخف. (٥٧٨)

ولكن كيف انجلى السحرعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أيها الإخوة؟ رأينا كيف كان النبي ﷺ حينما شعر بالأعراض في جسمه كان ﷺ يكثر من الدعاء وهذه هي أولى خطوات العلاج لمن ابتلى بالسحر وهو اللجوء إلى الله – عز وجل– ثم بعد ذلك أطلع الله نبيه على السحر وأرسل النبي ﷺ من يستخرج السحر من مكانه وحله.

وهذا أوان الإجابة على السؤال الخطير في هذه النقطة ألا وهو كيف سحر النبي ﷺ وهو رسول الله؟ فالجواب –أيها الإخوة– أنه ﷺ بشر كبقية البشر تعتريه الأمراض وهذا منها والسحر ما أثر على رسالته ولا على تبليغها بل أثَّر علي حياته الزوجية نوعًا ما فكان يخيل إليه أنه أتى الشئ ولم يأته، وما علم به إلا أقرب الناس إليه وأخصهم عائشة زوجته – رضي الله عنها– كما هو في الصحيحين.

قال القاضي عياض: "السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته ﷺ ".(٥٧٩)

وقال القرطبي: الأنبياء من البشر فيجوز عليهم من الأمراض والآلام والغضب والضجر والسحر والعين وغير ذلك ما يجوز على البشر لكنهم معصومون عما يناقض دلالة المعجزة من معرفة الله تعالى والصدق والعصمة عن الغلط في التبليغ".(٥٨٠)

والخلاصة مما مر كله أن السحر ابتلاء من الله لعباده ليبلو الله المؤمن الصادق من الكاذب ويختبر عباده به فمن ثبت فله الرضا من الله تعالى والثبات وحسن العاقبة ورفع الدرجات وزيادة الحسنات،ومن هذا الباب ابتلى المصطفى ﷺ لرفعة درجته مع أن الله تعالى صان نبيه في جانب الوحي والرسالة.

والآن –أيها الإخوة– نأتي إلى السؤال الثاني والعملي في الموضوع كله ألا وهو كيف نتقي السحر وشره قبل وقوعه؟ و ما هوعلاج السحر.

والجواب –أيها الإخوة– في نقاط:

(٥٧٨) أخرجه أبو داود (١٦٢)، والدارقطني (٧٣) والبيهقي (١ / ٢٩ ٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٥٣).

(٥٧٩) الشفا بتعريف حقوق المصطفى – مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء (١ / ١٨١) العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي ٥٤٤ هـ، بحاشية: العلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى ٨٧٣.

(٥٨٠) المفهم ٥/ ٥٧٠.

فأول الطريق بل وأوسطه وآخره: هو الاستعانة بالله تعالى: فنحن ولله الحمد موحدون نعلم أن التوكل على الله تعالى أعظم الأسباب للنجاة من كل شيء فأول خطوة على طريق العلاج هي تحقيق التوحيد نعم.

أولاً: تحقيق التوحيد لله العزيز الحميد وإخلاص العبودية لله -جل وعلا- والتوكل عليه -تبارك وتعالى- فقلب الموحد قد أشرق فيه مصباح التوحيد وأزهر فيه نور الإيمان ومن ثم خرج منه الخوف من كل أحد إلا من الله -جل وعلا- بل لا يفرد بالمحبة والخوف إلا الله صاحب هذا القلب كما يقول ابن تيمية في جنة وهو في الدنيا قبل الآخرة.

إن قوة الإيمان في القلب تضعف الشيطان وكلما زاد إيمان العبد وأخلص العبادة لله ضعف تسلط الشيطان عليه فها هو فاروق الأمة عمر — -رضي الله عنه- كان الشيطان يهرب منه كما جاء في البخاري ومسلم من حديث سعد ابن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال استأذن عمر على النبي ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه — وفي رواية: يسألنه ويستكثرنه — عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر قمن يتبدرن الحجاب، فأذن له النبي ﷺ، فدخل عمر والنبي ﷺ يضحك.. فقال عمر: أضحك الله سنك، بأبي أنت وأمي يعني ما أضحكك؟ قال: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب.

قال عمر: فأنت يا رسول الله الأحق أن يهبن، ثم قال عمر: أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن النبي ﷺ؟

قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من النبي ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ"إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غير فجك". (٥٨١)

والفج: المسلك والطريق، فالشيطان يهرب ويفر حتى من الطريق الذي يسير فيه عمر هرباً من قوة إيمانه — -رضي الله عنه- —.

وساق ابن الجوزي في كتابه القيم تلبيس إبليس قصة تبين ما نقول بوضوح.

قال: كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة فجاء ليقطعها غضباً لله فلقيه إبليس في صورة إنسان.. فقال ما تريد؟

قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله.

---

(٥٨١) أخرجه البخاري (٣٢٩٤) وأخرجه مسلم (١٣٩٦).

قال: ما ضرك إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها؟

قال: لأقطعنها، فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك!! لا تقطعها ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك.

قال: فمن أين لي ذلك؟ قال أنا لك.

فرجع فأصبح فوجد دينارين عند وسادته، ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئاً، فقام غضباً ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته وقال: ما تريد؟

قال: أريد قطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله تعالى.. قال: كذبت ما لك إلى ذلك سبيل.

فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد أن يقتله.. قال: أتدري من أنا؟ أنا الشيطان جئت أول مرة غضباً لله فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك!!

فتدبر يا عبد الله!! قال تعالى: "إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون".

فإن الشيطان لا سلطان له عليهم قال سبحانه: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان".

ولله در ابن القيم اذ يقول: والله ما عدا عليك العدو الا لما تخلى عنك المولى فلا تحسبن العدو غلب ولكن المولى تخلى ونحن نعلم -أيها الإخوة- أن الأمر كله لله وأن الملك كله لله وأنه لا يقع شيء في هذا الكون إلا بعلمه جل فى علاه. قال تعالى: "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)[الأنعام: ٥٩].

لا تستطيع قوة على ظهر هذه الأرض أن تضر ولا تنفع إلا بإذن الله -جل وعلا- والأصل في كل هذا قول الله تعالى والنص يزيد فى يقين القلوب المطمئنة، ويطمئن النفوس الحائرة القلقة. قال الله تعالى: "وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله".

الله أكبر.. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولو اجتمع سحرة أهل الأرض لا يستطيعون أن يؤثروا بسحرهم في مخلوق إلا بإذن الله.

فوجه أخي الحبيب قلبك إلى ملك الملوك وجبار السموات والأرض وتوكل عليه وثق به فهو المرتجى وهو الملجأ والملاذ ولا حول ولا قوة إلا به.. من توكل عليه كفاه ومن اعتصم به نجاه ومن فوض إليه الأمر هداه. قال تعالى: "أليس الله بكاف عبده". وقال تعالى: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه".

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه	لا تيأسن فإن الفارج الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الفارج الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله في كل لك الله

ومن أجمل ما قاله الإمام ابن الجوزي –رحمه الله– في كتابه القيم"تلبيس إبليس"قال: حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال التلميذ: أجاهده قال الشيخ: فإن عاد؟ قال: أجاهده قال الشيخ: فإن عاد فقال: أجاهده، فقال الشيخ هذا يطول يا بني ولكن إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور فماذا تصنع؟ قال: أجاهده قال: يا بني هذا أمر يطول، استعن برب الغنم يكفك كلابه.

فمِنْ أيْنَ . إنْ لم يَرْأبِ الله . تُرْأَبُ

فاستعن بالله أيها الحبيب والجأ إليه فهذا هو الحصن الحصين والملاذ المكين ولما كان الله هو خالقنا فتحصن به فهو الذي يعلم ضعفنا وعجزنا فقد تفضل علينا بحصون وحروز ولكننا كثيراً ما نغفل عن الدواء إلا إذا حل بنا الداء فهيا إلى الحصن الثانى الا وهو ذكر الله ونلتقى به بعد جلسة الاستراحة هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا –أيها الإخوة–! الحصن الثاني هو: كثرة ذكر الله –عز وجل–.

فالذكر يضعف الشيطان ويقوي الإيمان ويرضي الرحمن وهو الركن الركين والحصن الحصين الذي يتحصن به الإنسان من الشيطان الرجيم وفي حديث الحارث الأشعري الطويل وهو حديث أخرجه الترمذي بسند صحيح وفيه أن النبي ﷺ قال: "وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره حتى إذا أتى على حصن حصين أحرز نفسه منهم وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله –عز وجل–". (٥٨٢)

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– أن الحبيب النبي ﷺ قال: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت". (٥٨٣)

ثالثاً: قراءة سورة البقرة..

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة. (٥٨٤)

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم: "اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ ». قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ سَلاَّمٍ بَلَغَنِى أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ. (٥٨٥)

رابعاً: قراءة آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ وَاللَّهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –. قَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم –" يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ». قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ ». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –. قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ ». فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا. قُلْتُ مَا هُوَ؟ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ

---

(٥٨٢) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٦٩٤)، وصحيح الجامع (١٧٢٤).

(٥٨٣) أخرجه البخاري ٦٤٠٧، ومسلم ١٨٥٩.

(٥٨٤) أخرجه مسلم (٧٨٠).

(٥٨٥) أخرجه مسلم (١٩١٠).

وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ، يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ « مَا هِيَ ». قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَىْءٍ عَلَى الْخَيْرِ. فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم –" أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ». قَالَ لاَ. قَالَ « ذَاكَ شَيْطَانٌ ».[٥٨٦]

خامساً: قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة قوله تعالى: "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه"إلى آخر السورة.. ففي صحيح البخاري من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه"[٥٨٧]أي من كل شر وسوء ومن الشياطين.

سادساً: قراءة المعوذات..

ففي البخاري عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)وَ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)وَ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. [٥٨٨]

وعن عبد الله بن خُبَيْبٍ قَالَ: خَرَجْنَا فِى لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يُصَلِّى لَنَا – قَالَ – فَأَدْرَكْتُهُ فَقَالَ « قُلْ ». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ « قُلْ ». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا. قَالَ « قُلْ ». قُلْتُ مَا أَقُولُ قَالَ « قُلْ (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِى وَتُصْبِحُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ». وفي رواية قال: "ما تعوذ الناس بأفضل منها. [٥٨٩]

وعن عقبة بن عامر –رضي الله عنه– قال: بينما أنا أقود برسول الله ﷺ راحلته في غزوة إذ قال: "يَا عُقْبَةُ قُلْ ». فَاسْتَمَعْتُ ثُمَّ قَالَ « يَا عُقْبَةُ قُلْ ». فَاسْتَمَعْتُ فَقَالَهَا الثَّالِثَةَ فَقُلْتُ مَا أَقُولُ فَقَالَ « (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)». فَقَرَأَ السُّورَةَ حَتَّى خَتَمَهَا ثُمَّ قَرَأَ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)وَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا ثُمَّ قَرَأَ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)فَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا ثُمَّ قَالَ « مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ ».[٥٩٠]

---

(٥٨٦) أخرجه البخاري (٢٣١١، ٣٢٧٥).

(٥٨٧) أخرجه البخاري (٥٠٤٠).

(٥٨٨) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٥٨٩) أخرجه أبوداود ٥٠٨٢ والترمذي (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في التعليق الرغيب (١ / ٢٢٤).

(٥٩٠) أخرجه النسائي (٥٤٣٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣١٥).

سابعاً: روى مسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ »(٥٩١).

ثامناً وأخيراً: روى البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: "من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر" وفي رواية: "من تمر العاليه"(٥٩٢) وهي في المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلوات و أتم التسليم.

هذه هي –أيها الإخوة– الحصون والحروز التي يتصف بها الإنسان السحر والمس والربط فما هو علاج من سحر فعلاً؟ والجواب يفعل هذه الأشياء.

أولاً: لابد أن يحافظ ابتداء على هذه الأذكار التي ذكرناها آنفاً.

ثانياً: حل السحر من المسحور بالرقى الشرعية كما قال ابن القيم –رحمه الله– وكما قال العلامة ابن باز يصف ذلك بقوله: ومن علاج السحر بعد وقوعه وهو علاج نافع بإذن الله –عز وجل– للرجل إذا حبس عن جماع أهله وغير ذلك من أنواع الربط قال الشيخ: أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر ويدقها بحجر أو نحوه ويجعلها في إناء ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغسل ويقرأ عليها آية الكرسي والكافرون والإخلاص والفلق والناس وأن يقرأ آيات السحر في الأعراف: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) [الأعراف: ١١٧، ١١٨] والآيات التي في سورة يونس" وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)[يونس: ٧٩ – ٨٢] والآيات في سورة طه: "قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) [طه: ٦٥ – ٧٠]

يقول الشيخ –رحمه الله تعالى– وأجزل مثوبته: بعد قراءة ما ذكر في الماء يشرب منه ثلاث مرات ويغتسل، بالباقي وإن دعت الحاجة إلى استعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول مرضه وسحره عنه إن شاء الله تعالى. (٥٩٣)

(٥٩١) أخرجه البخاري ٣٢٩٣، ومسلم ٢٦٩١.

(٥٩٢) أخرجه البخاري ٥٤٤٥، ومسلم ٥٤٦٠.

فمن سحر أو مس –أيها الإخوة– وجب عليه الصبر مع طلب الدواء عند من له خبرة بهذا وهو حلال بالنسبة له طالما كان ذلك عن يقين من سلامة معتقد الراقي والمرقي وهذه هى النشرة التي ورد بها الشرع بخلاف النشرة البدعية الجهنمية التي فيها استعانة بالشياطين فالنشرة على التحقيق نوعان نشرة جاهلية وهي التي من عمل الشيطان ويدل عليها ما روى أحمد من حديث جابر قال سئل النبي ﷺ عن النشرة فقال: "هي من عمل الشيطان ». [٥٩٤]

وقال أبو داود: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله، وقال الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر، أي من حله فهو كذلك.

والنوع الثاني نشرة شرعية وهي الرقى التي ذكرناها في لقائنا هذا وهذا النوع هو الذي قال فيه سعيد بن المسيب فيما روى البخاري عنه أنه سئل: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس.

قال ابن القيم –رحمه الله–: "والنشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان. وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز. [٥٩٥]

أيها الإخوة! ويستطيع الإنسان أن يرقي نفسه أو يرقيه غيره بغير قصر للرقية على شخص معين يظن أن له خصوصية وأن معه عهداً من فلان ونحو هذا فهذا من الضلال، إذ الرقية دعاء والتجاء إلى الله والله يجيب من دعاه كما قال سبحانه: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ "، وكما قال عز من قائل: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)[البقرة: ١٨٦] هذا –أيها الإخوة– علاج السحر وطريق الوقاية من السحرة وشرورهم نسأل الله أن يقينا شرورهم إنه ولي ذلك ومولاه وهو على كل شيء قدير....... الدعاء.

السحر الخفي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

---

(٥٩٣) خطب الشيخ محمد حسان (٢/ ٢١١، وما بعدها)، بتصرف، دار ابن رجب ط الأولى، ١٤٢٦، ٢٠٠٥.

(٥٩٤) أخرجه أحمد ٣ / ٢٩٤، وأبو داود (٣٨٦٨)، وحسنه الحافظ في « الفتح" ١ / ٢٣٣، وصححه الألباني في"السلسلة الصحيحة"٦ / ٦١١.

(٥٩٥) إعلام الموقعين – (٤ / ٣٩٦).

اللهم صل على نبينا وحبيبنا محمد!

قدْ كانَ هذا الكونُ قبلَ وُصولِهِ *** شُؤْمًا لظالِمِهِ وللمظلومِ

لما أَطَلَّ محمدٌ زَكَتِ الرُّبا *** واخضرَّ في البُسْتانِ كلُّ هشيمِ

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، وسلم تسليمًا كثيرًا؛

أما بعد فيا أيها الإخوة.. تحدثنا في اللقاءين الماضيين عن السحر خطره وحكمه وكيف السبيل إلى الوقاية منه حتى لا يصيبنا، وإذا أصابنا السحر كيف نعالج أنفسنا منه؟

ولا زال حديثنا موصولاً عن بعض ما يتعلق بالسحر وفي البداية أستهل الحديث -أيها الإخوة- بما أخرجه الترمذي بسند صحيح عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسًا وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا يقول: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء وإله كل شيء أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدًا عبدك ورسولك والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثمًا أو أجره على مسلم، قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام.[٥٩٦]

لاحظ حبيبي في الله أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر ابن عمرو أن يقول في أول ما علمه: "أعوذ بك من الشيطان وشركه".

بل وأخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قال: يا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: قل: "اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه"، قال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك".[٥٩٧]

والسؤال: ما هو "شركه"؟ ما هو شرك الشيطان المذكور في الحديث؟

---

(٥٩٦) أخرجه الترمذي ٣٥٢٩، وصححه الألباني الكلم الطيب (٢٢ / ٩)، الصحيحة (٢٧٦٣).

(٥٩٧) أخرجه أبو داود ٥٠٦٧، الترمذي (٣٦٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الكلم الطيب (ص ٢٠).

قال في عون المعبود: (وَشِرْكه): بِكَسْرِ الشِّين وَسُكُون الرَّاء أَيْ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ الْإِشْرَاك بِاَللَّهِ، قال: وَيُرْوَى بِفَتْحَتَيْنِ (وشَرَكه) أَيْ: مَصَائِدِهِ وَحَبَائِلِه الَّتِي يَفْتَتِن بِهَا النَّاس. (٥٩٨)

فاستعيذوا بالله –أيها الإخوة– من شر الشيطان وشِرْكه وشَرَكه واحذروا كفره ومصائده على السواء، ومن هذه الشراك التي ينصبها الشيطان لإضلال الإنسان: السحر الخفي وهي أفعال أطلق الشرع الحكيم عليها اسم السحر لاشتباهها وشبهها بالسحر في بعض الأحيان لشدة خفائها أو عدم معرفة كثير من الناس بها، وهي: العيافة والطرق والطيرة والنميمة والبيان فما معنى هذه المسميات تعالوا بنا نذكرها ذكراً سريعاً على سبيل الاختصار حتى تتم الفائدة فنكون قد وقفنا على السحر كله جليه وخفيه فانتبهوا يرحمكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم.

روى أبو داود وحسنه النووي في رياض الصالحين عن قبيصة أنه سمع النبي ﷺ قال: "إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت"(٥٩٩)وقد عرفنا في الخطب السابقة معنى الجبت وأنه السحر فهذه الثلاثة (العيافة والطرق والطيرة) يبين النبي ﷺ أنها من السحر.

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ ».(٦٠٠) والعضه –أيها الإخوة– هو السحر، فالنبي ﷺ يسأل ما هو السحر أتدرون ما هو؟ ثم قال: السحر، هو النميمة، القالة بين الناس، فعد النبي ﷺ النميمة من السحر.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "إن من البيان سحراً"(٦٠١) والبيان هو البلاغة والفصاحة، ولكن جعله النبي من السحر، لماذا؟ هذا ما سوف نتعرف إليه بعد قليل.

فهذه خمسة أمور بين النبي ﷺ أنها من السحر [العيافة والطرق والطيرة والنميمة والبيان]

فما هي حقيقة القول في هذه الأشياء فانتبهوا يرحمكم ربكم، قولوا: آمين.

أيها الإخوة العيافة هي زجر الطير، ومعناه: أن الجاهلي من هؤلاء كان إذا خرج من بيته أخذ طيراً أو خرج على طير فنفره وأضاقه حتى يطير ثم ينظر أين يذهب حين يطير ثم يحدد على أساس من ذلك إن كان يخرج إلى عمله الذي كان

(٥٩٨) عون المعبود – (١١ / ١١٩).

(٥٩٩) أخرجه أحمد المسند (٥/٦٠) وسنن أبي داود برقم (٣٩٠٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٠٨)، لكن ضعفه الألباني في غاية المرام (٣٠١) //، المشكاة (٤٥٨٣) وانظر حديث رقم: ٣٩٠٠ في ضعيف الجامع.

(٦٠٠) أخرجه مسلم ٦٨٠٢.

(٦٠١) أخرجه البخاري ٥١٤٦، ومسلم ٢٠٤٦.

قد عزم على الخروج إليه، وهذا هو الذي تفاءل من خروج الطير وانزجاره إلى ما يحب، أو هو لا يخرج إلى شيء من ذلك ويظل رهين وحبيس البيت، وهذا هو الذي تطير وتشاءم من خروج الطير إلى ما لا يحب.

وقد سمى النبي ﷺ هذا العمل وعده من الجبت أي من السحر ويدخل في هذه العيافة التشاؤم بسماع أصوات الطير وأسمائها كذلك، هذه -أحبتي- هي العيافة قد عرفناها فما هو الطرق؟

الطرق هو الخط يخط في الأرض سواء في الرمل أو غيره وهو نوع من الأنواع التي يستطلع بها الأفاكون – زعموا – المستقبل ويتعرفون به على أنباء الغيب ولا زال هذا النوع موجودًا متمثلًا فيمن يشتغلون بهذا العمل ويسمونه"ضرب الرمل".

فهذا النوع من أنواع السحر التي حرمها الله ورسوله وهي أمور جاهلية يدعون بها استطلاع الأمور الغائبة وما جعل الله – عز وجل– هذه الطريقة أبداً ولا غيرها سبيلاً إلى معرفة الغيب، إنما لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، فهم لا يعلمون الغيب بهذه الأشياء ولكنها طرق يعمون على الناس الحقيقية بها ويموهون على الناس ما يخفونه من أن الشياطين هي التي تأتي لهم بما يريدون، وذلك كما أوضحت في اللقاء السابق والذي قبله يكون إذا تقربوا إلى الشياطين بالعبادة وكفروا بالله -عز وجل-، لأن الشياطين تريد إضلال بني آدم مهما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وقد أفلحوا في ذلك إلى حد كبير ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم فهذا هو الطرق.

إذا عرفنا -أيها الإخوة- العيافة وهي الطيرة، وعرفنا الطرق وهو الخط في الأرض لمعرفة الغيب واستطلاع المستقبل، ومنه ضرب الرمل والودع.

فالثالث من الأمور الخمسة هو:

العَضْهُ: وهو السحر وعن عِكْرِمَة في قوله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآن عِضِينَ قَالَ: الْعَضْه السِّحْر بِلِسَانِ قُرَيْش، تَقُول لِلسَّاحِرَةِ الْعَاضِهَة، أَخْرَجَهُ اِبْن أَبِي حَاتِم. وَرَوَى اِبْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا مِنْ طَرِيق عَطَاء أنه قال: عَضُّوا الْقُرْآن أَعْضَاء، فَقَالَ بَعْضهمْ: سَاحِر وَقَالَ آخَر: مَجْنُون وَقَالَ آخَر: كَاهِن، فَذَلِكَ الْعِضِينَ.

وقد فسر النبي ﷺ العضه بالنميمة على الرغم من أن العضه هو السحر، ليبهنا لخطر النميمة ومدى قبحها في الشرع، كأن النبي ﷺ حصر السحر في النميمة وهذا تحذير عظيم منها يجعل المرء لا يستهين بخطر النميمة على الإطلاق، والسؤال لماذا صارت النميمة بهذه الخطورة؟

وربما لا يعرف بعضنا ما هي النميمة وما هو خطرها فلنلق الضوء على بعض ذلك على وجه السرعة، النميمة -أيها الإخوة- معناها: نقل الحديث بين الناس على وجه الوشاية والإفساد، تجد الرجل يذهب إلى الرجل فيقول له: ألم تسمع

فلاناً؟ ألم يبلغك ما يقول فيك فلان؟ ألم يأتك الخبر أن فلانًا يسبك ويشتمك ويتنقصك ويقول فيك كذا وكذا؟ فيكون نتيجة هذا أن يغضب هذا الشخص على فلان هذا ثم يذهب النمام لا يكتفي بل يذهب إلى ثان وثالث ورابع وكثير، فيكون بسبب ذلك الشحناء والبغضاء بين عباد الله -عز وجل-، ربما بين الولد وأبيه، بل ربما تقوم الحروب الطاحنة بين الناس بسبب النميمة فهي شر مستطير وخطر عظيم استهان الناس به ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

ومن أعجب ما قرأت في ذلك أن رجلاً ذهب إلى السوق ليشتري عبداً يخدمه فما كان من البائع الأمين إلا أن قال له: هو ممتاز إلا أن فيه عيباً واحداً قال: ما هو؟ قال: إنه نمام فاستهان صاحبنا بهذا العيب وقال: هو عيب صغير، واشتراه فمكث العبد عنده أيامًا ثم إنه قال لزوجة سيده: إن سيدي يريد أن يتزوج عليك أو يتسرى وقد قال إنه لا يحبك فإن أردت أن يعطف عليك ويترك ما عزم عليه فإذا نام فخذي الموسى واحلقي شعرات من تحت لحيته واتركي الشعرات معك فقالت في نفسها: نعم واشتعل قلب المرأة وعزمت على ذلك إذا نام زوجها ثم جاء هذا الخبيث إلى زوجها وقال: سيدي إن سيدتي زوجتك قد اتخذت لها صديقا ومحبا غيرك ومالت إليه وتريد أن تخلص منك وقد عزمت على ذبحك الليلة وإن لم تصدقني فتناوم لها الليلة وانظر كيف تجيء إليك وفي يدها شيء تريد أن تذبحك به وصدقه سيده فلما كان الليل جاءت المرأة بالموسى لتحلق الشعرات من تحت لحيته والرجل يتناوم لها فلما رآها أيقن بما قال الغلام الخبيث وقال في نفسه: والله صدق الغلام بما قال فلما وضعت المرأة الموسى وأهوت إلى حلقه قام وأخذ الموسى منها وذبحها به فجاء أهلها فرأوها مقتولة فقتلوه وجاء أهله أيضًا، فوقع القتال بين الفريقين بشؤم ذلك العبد المشئوم، فانظروا إلام وصل ضرر النميمة فلا غرو أن سمى الله النمام فاسقًا كما في قوله تعالى: { إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين }[٦٠٢]

نعم -أيها الإخوة-! فلا زال نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض للإفساد بينهم من أعظم أسباب قطع الروابط وإيقاد نيران الحقد والعداوة بين الناس ولذلك كانت النميمة من كبائر الذنوب وقد نهى الله -تبارك وتعالى- عباده عن السير أو الطاعة أو الاستماع لأصحاب هذه المقولات السيئة والأفعال القبيحة وذم أصحابها أبشع وأشنع الذم فقال سبحانه: "ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم".

وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة قتات"[٦٠٣] أي: نمام وبين النبي أن النميمة من أسباب عذاب القبر ففي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُ مَرَّ

(٦٠٢) القصة في كتاب الكبائر المنسوب للذهبي في باب الحديث عن كبيرة النميمة.

(٦٠٣) أخرجه الجماعة: البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢) وأبو داود (٢٠) والترمذي (٧٠) النسائي (٢٨/١) وابن ماجة (٣٤٧).

بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِى كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِى بِالنَّمِيمَةِ ». (٦٠٤) فدل على أن النميمة تسبب عذاب القبر.

ويبقى السؤال –أيها الإخوة– بعد أن تعرفنا على حقيقة النميمة وخطرها وحكمها لماذا صارت النميمة بهذه الخطورة؟ والجواب: لأن النميمة تعمل على السحر فتفرق بين الناس كما يفعل السحر بل ربما كانت أشد كما قال بعضهم: "يفسد النمام في ساعة ما يفسده الساحر في سنة".

فالنميمة أشد تأثيراً من السحر، لأنها تفرق بين المسلمين والسحر إنما يفرق ويؤثر فيمن وقع عليه فقط، كما أنه ليس كل أحد يتيسر له السحر إن أراده لكن كل واحد تتيسر له النميمة إن أرادها فلا ريب أن يجعلها النبي ﷺ من السحر أو يحصر السحر في معناها كما في هذا الحديث الذي معنا.

العيافة، والطرق، والطيرة والنميمة والنميمة والبيان وقد انتهينا من الأربعة الأولى

إذاً –أيها الإخوة– لم يبق معنا من هذه الأشياء الخمسة التي أطلق النبي ﷺ عليها اسم السحر إلا الأخير منها ألا وهو"البيان"وذلك في قوله ﷺ: "إن من البيان لسحراً"، وقد عرفنا أن البيان هو الفصاحة والبلاغة وإنما أطلق على الفصاحة والبلاغة سحر لأن الناس يسمعون بإصغاء وانتباه شديدين يجتذبهم ويستحوذ على ألبابهم وقلوبهم البيان الرائع البليغ والكلام الجميل يخرج من فصيح بخلاف غيره ممن لا يكون كذلك وهذا المتكلم المبين الفصيح قد يكون كلامه في الشر كما قد يكون في الخير ولذلك قال النبي ﷺ هذه الكلمة "إن من البيان لسحراً"، وتركها هكذا لتحمل المعنيين: معنى المدح والذم فهي تحتمل هذا وهذا فإذا أراد المتكلم بكلامه الخير فله منها معنى المدح وإذا أراد بكلامه نصرة الشر فهي في حقه للذم ولا شك أن الكلام الجميل الفصيح البليغ يستعمل لنصرة الخير والحق كما يستعمل لنصرة الهوى والشر والباطل ولكل امرئ ما كسب أو اكتسب.

فإن استعمل المرء الذي آتاه الله تعالى هذه القوة البيانية إن هو استعملها في الخير والدفاع عن الحق والردّ على الباطل، فهو مأجور، وهذا هو الممدوح، أما إن استعملها بضدّ ذلك، فاستعملها في نُصرة الباطل، وهدم الحق فهو آثم ومأزور، وهذا هو المذموم.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يذم البيان مطلقاً، وإنما ذم البيان الذي يقلب الحق باطلاً والباطل حقًّا، فإن البليغ الفصيح يستطيع بأسلوبه أن يزيّن للناس الباطل، وان يزوّره بكلامه حتى يظنّوه صحيحاً، ويستطيع أن يؤثّر على الحق حتى يخيّل إلى النّاس أنه باطل.

---

(٦٠٤) أخرجه البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢).

فالواجب على المسلم إذا أعطاه الله مقدرة في الكلام والمحاورة أن يستعمل هذا في طاعة الله –سبحانه وتعالى–، وفي الدعوة إلى الخير، وترغيب النّاس في الخير، وتنفيرهم من الشرّ.

أما أن يستعمله بضدّ ذلك بأن يستعمله بالكلام في أعراض العلماء الربانيين وتبديعهم، وتجهيلهم؛ فهذا من السحر.

أو يستعمله في تزيين الشرك، وعبادة القبور، وتزيين البدع والخرافات والمحدثات؛ فهذا من السحر، لأن السحر يقلب الحق باطلاً والباطل حقًّا، كذلك البليغ الذي يستعمل فصاحته في الدعوة إلى الشر.

وما ضلّ كثير من النّاس إلاَّ بسبب الدعاة البُلغاء المنحرفين إما في الإذاعات، وإما في الصحف، وإما فوق المنابر، وإما في مدرّجات الجامعات، إذا تكلموا استمالوا الحاضرين، وملأوا أدمغتهم بكلام مزوّر، حتى يخرجوا وهم يُبغضون الحق ويحبون الباطل– والعياذ بالله–، فهذا خطر عظيم.(٦٠٥)

وقد بين النبي ﷺ خطر هذه الطائفة التي تتحدث بلسان جميل جذاب تجمل به الشر والباطل وتزينه للناس فذمهم وقبحهم، حتى سماهم دعاة على أبواب جهنم وجعلهم شياطين في جثمان إنس كما في الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث حذيفة قال كان الناس يسألون رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِى فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِى جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ « نَعَمْ » فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ « نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ ». قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ قَالَ « قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِى وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِى تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ ». فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ « نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا ». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ « نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِى ذَلِكَ قَالَ « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ ». فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ قَالَ « فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ ».

وفيه أيضا: قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ نَعَمْ. قُلْتُ هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ قَالَ « نَعَمْ ». قُلْتُ فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ « نَعَمْ ». قُلْتُ كَيْفَ قَالَ « يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاىَ وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِى وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِى جُثْمَانِ إِنْسٍ ». قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَالَ « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ ».(٦٠٦)

---

(٦٠٥) إعانة المستفيد الشيخ الفوزان صـ١/٣٦٤.

(٦٠٦) مسلم ١٨٩٠ والذي بعده.

ويدخل في هذا الذي أطلق النبي ﷺ عليه اسم السحر تعلم التنجيم كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود بسند صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد". (٦٠٧)

إلا أنه ليس بسحر خفي بل هو جلي ظاهر الجلاء لكل من أراد أن يراه وهو خدعة كبيرة يخدع بها كثير من إخواننا الطيبين بسبب الوسائل التي يستعملها أصحاب هذه الصنعة ويسخرونها لأجل نشره من هذه الوسائل: القنوات والمجلات والجرائد التي فتحت أبوابها لهؤلاء على مصاريعها ولنا وقفة مع هؤلاء وأعمالهم قريبًا في خطبة خاصة لكن نشير إلى طرف من خطرهم في هذا المقام، وللحديث صلة بعد الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد فيا أيها الإخوة! من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر

والتنجيم -أيها الإخوة- معناه اعتقاد أن النجوم تؤثر في الكون بحيث تنسب الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية دون رب البرية، وهذا اعتقاد جاهلي شركي كان في العرب فحذر النبي -صلى الله عليه وسلم- منه، ولا تزال آثار هذه الخصلة الجاهلية في عصرنا الحاضر فيما يظهر عند المنجّمين والذين يذهبون إليهم، وبما يُكتب في بعض الصّحف والمجلاّت من أحوال البُرُوج وغيرها، لأن نسبة هذه الأمور إليها في طلوعها أو غروبها، أو إلى الأفلاك في تحرُّكها؛ شرك بالله -عز وجل-، لأن الذي يدبِّر النجوم، ويدبِّر الأفلاك، ويدبِّر الكون كله هو الله -سبحانه وتعالى-، فيجب أن نؤمن بذلك.

أما النجوم، وأما الأفلاك، وأما جميع المخلوقات فليس لها تدبير، وليس لها إحداث شيء، من جَلْبِ نفع، أو دفع ضر إلاَّ بإذن الله -سبحانه وتعالى-، فالأمر يرجع كلّه إلى الله. ويجب على المسلم أن يعتمد على الله، وأن يتوكّل على الله، ولا يتأثّر بما يقوله المنجّمون والفلكيُّون.

أما تعلّم حساب منازل القمر من أجل معرفة مواقيت العبادات، ومواقيت الزراعة والبذور؛ فلا بأس به، وهذا ما يسمِّيه العلماء بعلم التَّسْيِير.

---

(٦٠٧) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥) وابن ماجه (٢٧٢٦)، وأحمد ٢٠٠٠، وصححه الألباني في"الصحيحة"٢ / ٤٣٥.

وأما الاعتقاد بالنجوم بأنها تؤثّر فهو علم التَّأْثير، وهو المحرّم. (٦٠٨)

ولا أريد أن أطيل النفس في هذه النقطة فإن لنا معها وقفة خاصة في لقاء خاص كما قلت.

وأخيراً -أيها الإخوة-! فإن علاج هذه الأمور كلها في التوكل على الله فإنه من توكل على الله -عز وجل- كفاه، أعلم أنني تحدثت عن التوكل والثقة وتحقيق التوحيد في اللقاء السابق حديثاً مطولاً بعض الشيء كسبب أول للوقاية والعلاج من السحر وذلك يكفي لأنا لو ظللنا كل يوم نتحدث عن التوكل لا يكفي ولو سنون، ولكن إنما ينبغي أن نبدئ فيه ونعيد ونتحدث عنه ونزيد في كل لحظة ليبقى في القلوب والنفوس ماثلًا، فإن التوكل هو نهاية تحقيق التوحيد فلهذا ينبغي علينا تعلمه بل إتقانه، لنتعلم -أيها الإخوة- أن نعلق قلوبنا بالله ليكلنا الله إلى ما تعلقنا فإذا كان تعلقنا به سبحانه وحده كان هو حسبنا ووكيلنا وكافينا جل جلاله، فإن من تعلق شيئاً وكل إليه.

ومن جميل ما قرأت هنا ما قال العلامة ابن باز -رحمه الله- يقول: "من تعلق بالله وكل إلى الله وكفاه – جل وعلا – ما أهمه، لقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر:٣٦] ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق:٣]، ومن تعلق بالسحر والشياطين وكله الله إليهم، ومن توكل على غير الله فقد خاب وخسر وهلك."(٦٠٩)

واعلم أن سعادة العبد وصلاح قلبه وروحه لا يكون إلا إذا تعلق بالله وحده، أما من تعلق بمخلوق فإنه يوكل إليه.

والعبيد فقراء إلى الله، والله – جل وعلا – هو ولي النعمة وولي الفضل، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، ورحم الله الجنيد حين قال: "إذا صح الافتقار إلى الله – -عز وجل- – فقد صح الاستغناء بالله – تعالى -، وإذا صح الاستغناء بالله – تعالى – كمل الغنى به".

وهكذا ؛ فما تعلق بباب الغنى فقير فخاب، ولا قصد حماه عبد فغُلِّقت دونه الأبواب. ولله در القائل:

كن مع الله تر الله معك   واترك الكل وحاذر طمعك

لا تعلق بسواه أملًا   إنما يسقيك من قد ذرأك

فإذا أعطاك من يمنعه؟   ثم من يعطي إذا ما منعك؟ (٦١٠)

---

(٦٠٨) إعانة المستفيد – الفوزان ١ / ٣٦٠.

(٦٠٩) شرح كتاب التوحيد، ص١٣٥.

(٦١٠) عون العلي الحميد ٢/ ٤٢٩.

وهكذا ؛ فمن تعلق بمخلوق كائنا ما كان فقد وكل إليه، ومن وكل إلى المخلوق ضره ذلك أعظم الضرر، كما قال – تعالى –: ﴿ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ [الحج:١٣].

ولنعلم –أيها الإخوة– أن هذه الأشياء أعني التعلقات على غير الله من سحر وعرافة وكهانة والتعلق بالشجر والحجر ليس لها حقيقة أو واقع وإنما هي موجودة في صدورنا فقط ، فإذا طرحناها بالتوكل على الله خاب مراد أصحابها منا وبطل سعيهم لكيدنا وأنجانا الله من شرورهم ومكائدهم كما في الحديث العذب الماتع الجميل الذي أخرجه مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا أَنَا أُصَلِّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ. فَرَمَانِى الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَىَّ. فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِى لَكِنِّى سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَبِأَبِى هُوَ وَأُمِّى مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِى وَلاَ ضَرَبَنِى وَلاَ شَتَمَنِى قَالَ « إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَىْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ ». أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّى حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلاَمِ وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ « فَلاَ تَأْتِهِمْ ». قَالَ وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ.

قَالَ « ذَاكَ شَىْءٌ يَجِدُونَهُ فِى صُدُورِهِمْ فَلاَ يَصُدَّنَّهُمْ ». قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ « فَلاَ يَصُدَّنَّكُمْ ». قَالَ قُلْتُ وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قَالَ « كَانَ نَبِىٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ ». قَالَ وَكَانَتْ لِى جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِى قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِى آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّى صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَىَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُعْتِقُهَا قَالَ « ائْتِنِى بِهَا ». فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا « أَيْنَ اللَّهُ ». قَالَتْ فِى السَّمَاءِ.

قَالَ « مَنْ أَنَا ». قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ « أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ ». [٦١١]

قال النووي –رحمه الله–: قوله: "ومنا رجال يخطون قال: كان نبي من الأنبياء عليهم السلام يخط فمن وافق خطه فذاك": اختلف العلماء في معناه، فالصحيح أن معناه: من وافقه خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح، والمقصود: أنه حرام، لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي ﷺ: فمن وافق خطه فذاك، ولم يقل: هو حرام، بغير تعليق على الموافقة، لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا. فالمعنى أن ذاك النبي لا منع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم به. وقال الخطابي: هذا الحديث يحتمل النهي عن هذا الخط إذا كان علما لنبوة ذاك النبي، وقد انقطعت فنهينا عن تعاطي ذلك. وقال القاضي عياض: المختار أن معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون

(٦١١) أخرجه مسلم ١٢٢٧.

إصابته فيما يقول، لا أنه أباح ذلك لفاعله، قال: ويحتمل أن هذا نسخ في شرعنا، قال النووي: فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن. [٦١٢]

هذا -أيها الإخوة- وأسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، وأن يجعلنا ممن يسعون فيوفقهم لمرضاته، وأن يجنبنا الشرور كلها وأن يكون وكيلنا في جميع أمورنا، فيا رب لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أو أقل من ذلك، آمين... الدعاء.

(٦١٢) شرح النووي على مسلم - (٢ / ٢٩٨).

ويسألونك عن الكهان

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا -أيها الإخوة- إن الله هو المنفرد وحده بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه، وكذب على الله ورسوله، ومن أعظم ممن ذهب يفتري على الله تعالى فيدخل نفسه في شيء مما اختص به سبحانه نفسه عند ذاكم يغضب الجبار فلا يأمن هذا المتدخل غضبه فيدخله النار كائناً من كان.

روى أبو داود بسند صحيح من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كَانَ رَجُلاَنِ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِى الْعِبَادَةِ فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ أَقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ أَقْصِرْ فَقَالَ خَلِّنِى وَرَبِّى أَبُعِثْتَ عَلَىَّ رَقِيبًا فَقَالَ وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقُبِضَ أَرْوَاحُهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ أَكُنْتَ بِى عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِى يَدِى قَادِرًا وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِى وَقَالَ لِلآخَرِ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ. [٦١٣]

فانظر! هذه عاقبة من جعل لنفسه شيئاً مما هو من خصائص الله وهذا الذي يقع فيه اليوم كثير من الناس وللشياطين في إضلال العباد وسائل كثر منها هذه الوسيلة وهي أن يوقعوهم في ادعاء ما هو من خصائص الله -عز وجل- وما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه إلا هو.

ومن ذلك -أيها الإخوة- ادعاء علم الغيب أو ما يعرف بالكهانة والعرافة فتعالوا بنا نطل من نافذة قريبة على شيء من ذلك نحذر به لديننا ونحتاط فيه لإيماننا.

أيها الإخوة:

من هو الكاهن؟ ومن هو العراف؟ وما حكمه؟

وما هي مصادره في الأخبار عن الغيبيات؟

وما حكم سؤالهم وإتيانهم؟ وإذا كنا نراهم يخبرون في بعض الأحيان ببعض الحق فما حقيقة ذلك؟

---

(٦١٣) أخرجه أبو داود ٤٩٠١، وصححه الألباني في المشكاة (٢٣٤٧ / التحقيق الثاني)، الطحاوية (٢٩٦) // (٣٦٤) //

ولنتعرف إلى شيء من أحوالهم وأخبارهم، فإلى شيء من خبر اليقين من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة تعالوا بنا نتحدث عن هذا الصنف من الناس وعن شيء من أمورهم أسأل الله أن يخرج الحق منا ويرضى به عنا.

من هو الكاهن؟ الكاهن –أيها الإخوة– هو من يدعي معرفة الغيبيات ويخبر عنها، وقيل: هو الذي يخبر عما في المستقبل عن طريق الجن والشياطين، وقيل: هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب ويخبر الناس عن الكوائن.

ومن أجمل التعريفات التي أصابت الحقيقة التعريف الذي عرفه العلامة ابن حجر الهيثمي فقد عرف الكاهن بأنه هو الذي يخبر عن بعض المضمرات فيصيب بعضها ويخطئ أكثرها ويزعم أن الجن تخبره بذلك.

هذا هو الكاهن فمن هو العراف؟ قال البغوي: العراف هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات ليستدل به على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

قال الإمام أحمد: العرافة طرف من السحر، وقال أبو السعادات: العراف هو المنجم

والكاهن والعراف –أيها الإخوة– عمدتهم السحر والاعتماد على الجن بواسطة خدمتهم وتقديم المحبوبات لديهم، ومن ذلك الذبائح والقرابين التي يتأتى لهم بها منهم ما يريدون، تماماً مثلما أصلنا ذلك في الحديث عن السحر والسحرة خدمة بثمن والثمن باهظ هو الدين فيدفع الواحد من هؤلاء دينه وعقيدته في مقابل أن يقال فلان عنده معرفة فلان عراف، فلان طبيب روحاني ليشتهر بين الناس، ومن هؤلاء من يضحك على نفسه والناس ويقول: إن هذا الذي يفعله ويعلمه علم يتعلم ويعلم وطب يداوي ويعالج كذبوا كما يقال وصدقوا كذبتهم.

وهذه طريقة من الطرق التي يتحصل بها هؤلاء على الأخبار والحوادث تصل الساحر منهم فيعلنها ويتحدث بها والجني الذي حدثه بها إما يتحصل عليها باستراق السمع من السماء وتبليغ الكلمة التي سمع قبل أن يصل إليه الشهاب فيحرقه فيتحدث بها من بلغته إلى الكاهن ويزيد الكاهن فيها، كما يخبرونه عن بعض ما لم يقع في الأرض من أشياء يؤمر بها أن تكون كالنصر والهزيمة ولكنها في الغالب لنقصانها معلومات مشوهة مبتورة.

وإما أن الكاهن يتحصل على هذه المعلومات عن طريق قرينه من الجن وهذا يخبره بالوقائع التي وقعت في الأرض في مكان ما منها ولكنها غابت عن الآخرين، وهذا الذي يسمى بالغيب النسبي ويدل عليه الحديث الماتع الذي ذكره البخاري في إسلام عمر وفصّله غيره ولا بأس أن نذكره فإنه يتصل بموضوعنا وأيضاً لطرافته، ولكن بعد أن نذكر المصدر الثالث من مصادر الكهان.

المصدر الثالث من مصادر الكهانة والتي يتعرف بها الكاهن أو العراف على ما يخبر به فإنه الحدس والتخمين وحساب المقدمات وترتيب النتائج عليها كما قال ذلك البغوي في تعريفه الذي قدمناه فقد قال في العراف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

ومنه الذي يسميه الناس المندل ويذهبون إليه يتعرفون منه على أماكن وأشخاص السارقين وكل هؤلاء لهم أعوان من الجن كما في الحديث الذي أشرنا إليه وهو ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر لشيء قط يقول: إني لأظنه كذا، إلا كان كما يظن، بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، على الرجل، فدعى له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك قال بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ولحوقها بالقلاص وأحلاسها قال عمر: صدق، بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح، أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت، فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله، فقمت فما نشبنا أن قيل: هذا نبي. [٦١٤]

قال الحافظ ابن كثير: وهذا الرجل هو سواد بن قارب، ثم ذكر ما أخرجه البيهقي في دلائل النبوة عن البراء –رضي الله عنه– قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد حدثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإني كنت نازلاً بالهند، وكان لي رئي من الجن، قال: بينا أنا ذات ليلة نائم، إذا جاءني في منامي ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤي بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عجبـــــت للجـــــن وأنجاســــــها	وشـــدها العــــيس بأحلاســـــها
تهـــوي إلى مكــــة تبغـــي الهـــدى	مـــا مؤمنـــو الجـــن كأرجاســـها
فـــانهض إلى الصـــفوة مـــن هاشـــم	واســـم بعينيـــك إلى رأســـها

قال: ثم أنبهني فأفزعني، وقال يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد.. فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني، ثم أنشأ يقول كذلك:

---

(٦١٤) صحيح البخاري برقم (٣٨٦٦).

عجبـــــت للجــــــن وتطلابهـــــا	وشــــدها العــــيس بأقتابهــــا
تهــوى إلى مكـــة تبغـــي الهـــدى	لـــــيس قـــــداماها كأذنابهــــا
فــانهض إلى الصـــفوة مـــن هاشـــم	واســـــم بعينيــــك إلى نابهـــا

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني، ثم قال:

عجبــــــت للجــــــن وتخبارهـــــا	وشــــدها العـــيس بأكوارهــــا
تهــوي إلى مكـــة تبغـــي الهـــدى	لـــيس ذوو الشــــر كأخيارهــــا
فــانهض إلى الصـــفوة مـــن هاشـــم	مــــا مؤمنــــو الجـــن ككفارهــــا

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع قلبي في حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي، فما حللت عليه نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة – يعني مكة – والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآني النبي ﷺ قال: "مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك". قال: قلت يا رسول الله، قد قلت شعرا، فاسمعه مني. قال سواد فقلت:

أتـــاني رئـــي بعـــد ليـــل وهجعـــة	ولم يـــك فيمـــا قـــد بلـــوت بكــــاذب
ثـــلاث ليـــالٍ قولـــه كـــل ليلـــة	أتـــاك رســـول مـــن لـــؤي بـــن غالـــب
فشـــمرت عـــن ســـاقي الإزار ووســـطت	بي الـــدعلب الوجنـــاء عنـــد السباســـب
فأشـــــهد أن الله لا شـــــيء غـــــيره	وإنـــك مـــأمون علـــى كـــل غائـــب
وأنـــــك أدنى المرســـــلين شـــــفاعة	إلى الله يـــا ابـــن الأكـــرمين الأطايـــب
فمرنـــا بمـــا يأتيـــك يـــا خـــير مرســـل	وإن كـــان فيمـــا جـــاء شـــيب الـــذوائب
وكـــن لي شـــفيعاً يـــوم لا ذو شـــفاعة	ســـواك بمغـــن عـــن ســـواد بـــن قـــارب

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: "أفلحت يا سواد": فقال له عمر: هل يأتيك رئي الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن[٦١٥]

(٦١٥) دلائل النبوة للبيهقي (٢٤٨/١).

هذا خبر من أخبار الكهان -أيها الإخوة- لنعلم أن الذي يحدثون به إنما هو من وحي الشياطين وهنا يثور سؤال قد يستحي صاحبه من إعلانه والجهر به وهو: ولكن بعض هؤلاء العرافين والكهان يخبروننا أيها الشيخ بشيء فيكون تماماً كما أخبروا به فما هو تفسيرك لذلك؟ وأقول: إن الصادق ﷺ قد أخبرنا عن هذا كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أمنا عائشة قالت: سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم رسول الله ﷺ: "ليسوا بشيء". قالوا يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً الشيء يكون حقاً. قال رسول الله ﷺ: "تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة".[٦١٦]

وفيهما أيضًا أن عبد الله بن عباس قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمى بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: "ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمى بمثل هذا". قالوا الله ورسوله أعلم كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم فقال رسول الله ﷺ: "فإنه لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا -تبارك وتعالى- اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحمة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ماذا قال – قال – فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون".[٦١٧]

وربما قال قائل: إن هذا كان في الجاهلية قبل البعثة أما الآن فإن الكهان لا يستعينون بالشياطين والجواب: بل هذا مستمر إلى الآن ولذلك يرمى إلى اليوم بالشهب وإن كان قليلًا بعدما نزل القرآن وحرست السماء وجبن الجن عن استراق السمع ولذلك قلت إصابتهم عما كان قبل الإسلام، قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: كانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرةً جداً فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حُرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: "إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب"[٦١٨] فاتقوا الله -أيها الإخوة- والزموا حدود الله. لكن ما هو -أيها الإخوة- حكم الشرع في هذه الأمور؟

والجواب بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

(٦١٦) أخرجه البخاري ٦٢١٣ ومسلم ٥٩٥٣.

(٦١٧) أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

(٦١٨) فتح الباري لابن حجر – (١٦ / ٢٩١).

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد.. فيا -أيها الإخوة-! ما هو حكم الشرع في الكهان وفي إتيانهم.؟

وأحب قبل أن نبين حكم هذه الأمور: أريد أن أوضح أمراً هاماً جداً بالنسبة لعلم الغيب. وهو أن المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أنه لا جدوى من محاولة معرفة الغيب، إذ هذا العلم من اختصاص الله علام الغيوب، ولا سبيل إلى معرفته بأي طريقة كانت يقول سبحانه: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير"[لقمان: ٣٤].

ويقول -سبحانه وتعالى- أيضاً: "أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً"[مريم: ٧٧-٧٨].

وفي هاتين الآيتين الكريمتين دليل قاطع على عدم إمكانية الإنسان الاطلاع على الغيب بأي شكل كان.

لكن الله لحكمة يعلمها سبحانه قد يطلع بعض الرسل على بعض الغيب كما قال تعالى: "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً"[الجن: ٢٦-٢٨].

وكَشفُ الله بعض الغيب لبعض رسله لحكمة معينة وإلا فالرسل أنفسهم لا يعلمون ما يحدث لهم قبل أن يحدث.

فهناك أمر من الله سبحانه إلى رسوله أن يعلم الناس بأنه لا حول ولا قوة له إلا بمشيئة الله -سبحانه وتعالى- وأنه لا يعلم الغيب، وهذا قد جاء به قوله تعالى على لسان رسوله: "قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون" [الأعراف: ١٨٨]

فإذا كان خير البشر محمد ﷺ لا يعلم الغيب، فكيف بمن هم دونه مرتبة وشرفاً ومكانة؟ واسمحوا لي -أيها الإخوة- أن أجيب عن بعض ما يجول في الصدور وتتحرج أن تتكلم به الألسنة في هذا المقام إذ إننا حين نطرح هذه الكلمات يتساءل البعض: كيف يقول الله: "وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام" [لقمان: ٣٤]. وقد تمكن العلم مؤخرًا من تحديد وقت نزول المطر، وتمكن الطب من تحديد نوعية الجنين أذكر هو أم أنثى؟!

وابتداء أقول: لا حرج أبدًا على هذه النفوس الحائرة أن تعبر عن ما فيها طلبًا للراحة مما يؤرقها على أن يكون ذلك التعبير على سبيل الاستفهام والاستفسار لا على سبيل الجدل والسفسطة وإلا كانوا ممن قال الله تعالى فيهم: "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير" [الحج: ٨]

أيها الإخوة! إن الله عنده علم الساعة: أي أن علم وقت الساعة مختص بالله سبحانه فلا يعلم أحد بوقته سواه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما قال سبحانه: يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله [الأحزاب: ٦٣].

ويقول: لا يجليها لوقتها إلا هو [الأعراف: ١٨٧]. ونحن نعلم أن الله -تبارك وتعالى- بعد خلقه للسموات والأرض، خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فمه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخ بالصور. فإذا كان إسرافيل الملك المكلف بالنفخ بالصور إيذاناً ببدء القيامة لا يعرف موعدها، إذا كان هذا هو حاله فكيف بأي منجم أو دجال يقول: إن الساعة ستقوم في يوم كذا أو في عام كذا. تلكم كلها أكاذيب.

وينزل الغيث ومما يختص الله تعالى بمعرفته وقت إنزال المطر ومكانه المعين. أما نشرة الأرصاد الجوية في أيامنا فتعتمد على بعض الحسابات والأمارات.

وما ترصده بعض الأجهزة المخصصة لمعرفة نسبة الرطوبة وسرعة الرياح فليس ذلك غيباً، وإنما هو تخمين وظن وحسابات قد تخطئ وقد تصيب فذلك ظن، وقد يحدث نقيضه كما أن معرفته تكون قبل مدة قريبة، يلاحظ فيها اتجاهات الرياح والمنخفضات الآتية من الشمال أو الغرب مثلاً.

ورغم هذا فنحن نسمع دائماًَ: يتوقع الفلكيون نزول الأمطار، ويقولون إن الفرصة مهيأة لنزول الأمطار. وتتجمع الغيوم في السماء، وتنذر الحالة بأن المطر سينزل ولكن في اللحظات الأخيرة، يأمر الله الرياح كيف يشاء فتذهب بهذه الغيوم القاتمة دون أن تنزل منها قطرة واحدة فنزول المطر عملية دقيقة جداً لا يستطيع البشر أن يقوم بها مهما بلغ علمه، بل لو اجتمعت البشرية كلها على أن تنزل مطراً في مكان ما أو تمنع المطر من النزول في مكان ما فهي لا تستطيع ولن تستطيع.

"ويعلم ما في الأرحام" فهل تحديد نوع الجنين هو المقصود بالآية؟ والجواب: لا، فإن علماء المسلمين من المفسرين لم يقولوا بهذا، بل وجدنا من المفسرين وهو الإمام القرطبي وتفسيره في الأرض منذ مئات السنين قال: وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك.

إذن فمعنى ما في الأرحام ليس المقصود منه هل المولود ذكر أم أنثى بل معناه أوسع من ذلك بكثير، لأن الله يعلم من هو أبو المولود ومن هي أمه قبل أن يتزوجا"أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير"[الشورى: ٥٠]

إن معنى كلمة ما في الأرحام هنا: تعني حياة المولود من لحظة ولادته إلى لحظة وفاته هل هو شقي أم سعيد طويل أم قصير، ما هو لونه، هل هو صحيح أم مريض؟ ما هو عمره، وماذا سيفعل، ما هي الأحداث التي ستقع له، وماذا سيعمل؟ وأي مهنة سيمتهنها؟ وأي البلاد سيسافر إليها؟ وبمن سيتزوج؟ وما هو رزقه؟ وهل سيرزق بأولاد أم لا؟ وهكذا فمن يعلم مثل هذه الأمور غير الله؟ هل يستطيع أحد من البشر أن يدعي هذا العلم؟ لا يستطيع ولكن الله يستطيع ذلك؟ وقد فعل فالله كتب مقادير الخلق وأرزاقهم وآجالهم قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام وهو موجود عنده سبحانه فوق العرش"إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير"[الحج: ٧٠]

هذا غيض من فيض مما تحمله الآية الكريمة من معان.

وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، أي لا تعلم ماذا تكسب في الغد من خير أو شر في دنياها وأخراها.

"وما تدري نفس بأي أرض تموت" من يعلم ساعة موته، متى تكون؟ وأين تكون؟ لا علم لأحد بذلك.

ومن جميل ما قرأت أن ملك الموت مر على نبي الله سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه. فقال الرجل: من هذا؟ قال سليمان عليه السلام: هذا ملك الموت، فقال: كأنه يريدني، وسأل الرجل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل. ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك.

وهذا مصداق ما روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير،عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما جعل الله ميتَة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة"[(٦١٩)]

أيها الإخوة! ورغم هذه الآيات الصريحة في أن علم الغيب مختص بالله -سبحانه وتعالى- إلا أن هذه الآيات تتعرض لمصادمات صريحة من الكهان والعرافين والدجالين ومن يصدقهم بادعائهم الغيب. [(٦٢٠)]

فما هو حكم من عمل بالكهانة والعرافة وما حكم من أتاهم يسألهم؟

أيها الإخوة! إذا كان هذا هو عمل الكهان والعرافين وتلك طرائقهم في التعرف إلى ما به يتكلمون فلا يجوز لأحد أن يذهب إليهم ليعرف منهم شأنه أو مرضه، كما لا يجوز أن يصدقهم فيما يخبرونه به فإنهم يتكلمون رجماً بالغيب أو يستحضرون الجن ليستعينوا بهم على ما يريدون، وهؤلاء شأنهم الكفر والضلال لكونهم يدعون أمور الغيب، وقد روى

(٦١٩) المعجم الكبير (١/١٧٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/١٩٦)"ورجاله رجال الصحيح"وفيها: "منية"بدل"ميتة".

(٦٢٠) الكهانة والعرافة والتنجيم، لصالح الجبري، خطبة من موقع المنبر.

مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً"[(٦٢١)]، وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال: "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ"والحديث أخرجه أبو داود وأخرجه أهل السنن الأربع وصححه الحاكم عن النبي ﷺ بلفظ: (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).[(٦٢٢)]

وعن عمران بن حصين –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكُهِّن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد"[(٦٢٣)] والحديث أخرجه البزار بإسناد جيد.

ففي هذه الأحاديث الشريفة النهي عن إتيان العرافين وأمثالهم وسؤالهم وتصديقهم والوعيد على ذلك، فالواجب على ولاة الأمور وأهل الحسبة وغيرهم ممن لهم قدرة وسلطان إنكار إتيان الكهان والعرافين ونحوهم، ومنع من يتعاطى شيئاً من ذلك في الأسواق وغيرها والإنكار عليهم أشد الإنكار، والإنكار على من يجيء إليهم، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يأتي إليهم ممن ينتسب إلى العلم، فإنهم غير راسخين في العلم ؛ بل من الجهال لما في إتيانهم من المحذور، لأن الرسول ﷺ قد نهى عن إتيانهم وسؤالهم وتصديقهم لما في ذلك من المنكر العظيم، والخطر الجسيم، والعواقب الوخيمة، ولأنهم كذبة فجرة، كما أن في هذه الأحاديث دليلاً على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، ولأنهما لا يتوصلان إلى مقصودهما إلا بخدمة الجن وعبادتهم من دون الله، وذلك كفر بالله وشرك به سبحانه، والمصدق لهم بدعواهم على الغيب ويعتقد بذلك يكون مثلهم، وكل من تلقى هذه الأمور عمن يتعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ، ولا يجوز للمسلم أن يخضع لما يزعمونه علاجاً كنمنمتهم بالطلاسم، أو صب الرصاص، ونحو ذلك من الخرافات التي يعملونها، فإن هذا من الكهانة والتلبيس على الناس ومن رضي بذلك فقد ساعدهم على باطلهم وكفرهم، كما لا يجوز أيضاً لأحد من المسلمين أن يذهب إلى من يسأله من الكهان ونحوهم عمن سيتزوج ابنه أو قريبه أو عما يكون بين الزوجين وأسرتيهما من المحبة والوفاء أو العداوة والفراق ونحو ذلك لأن هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله –سبحانه وتعالى–.

وقد شرع الله سبحانه لعباده ما يتقون به شر السحر قبل وقوعه، وأوضح لهم سبحانه ما يعالجونه به بعد وقوعه رحمة منه بهم وإحساناً منه إليهم وإتماماً لنعمته عليهم.

وقد سبق ذلك معنا مفصلاً في اللقاء الماضي.

---

(٦٢١) أخرجه مسلم ٥٩٥٧.

(٦٢٢) أخرجه الإمام أحمد ٤٢٩/٢ وهو في صحيح الجامع ٥٩٣٩.

(٦٢٣) أخرجه البزار ١٨٧٣، قال المنذري: إسناده جيد (الترغيب ٣٣/٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٠٤١.

نسأل الله العافية والسلامة من شر السحرة والكهنة وسائر المشعوذين، كما نسأله سبحانه أن يقي المسلمين شرهم، وأن يوفق المسلمين للحذر منهم، وأن يهدي ولاة الأمور إلى تنفيذ حكم الله فيهم حتى يستريح العباد من ضررهم وأعمالهم الخبيثة إنه جواد كريم.

فالجئوا إلى الله يا عباد الله، حققوا التوحيد، ثقوا بالله، ثقوا بأنه على كل شيء قدير، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون وأن ما قدره الله لا يخلفه غيره.

اللهم قنا الشرور والفتن ما ظهر منها وما بطن...................... الدعاء

التشاؤم لا يأتي بخير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة إن الله -تبارك وتعالى- هو المدبر لكل ما في الكون من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه لا يخرج من ذلك شيء عن أمره ولا يصدر إلا بإذنه ولذلك وجب على كل إنسان أن يثق أنه لا يضره إلا ما جعل الله له فيه ضرراً ولا ينفعه إلا ما قدر الله له به نفعاً" واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد قدره الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"[٦٢٤] هذه هي عقيدة المسلم الراسخة في ربه -عز وجل- وقدره.

لكن الشيطان الرجيم لا يفتأ يلقي في القلب من وسوسته ما يزعزع به هذه العقيدة أو يهزها حين يجد من الإيمان ضعفاً أو نقصاناً وقد يستجيب له القلب أو لا بحسب الإيمان فيه، ومن هذه الوساوس التي يجب أن تحذرها القلوب المؤمنة: "التطير" بالأشياء، فما هو التطير؟ وما حكمه؟ وما علاقته بالتوحيد؟ وما علاج التطير وطريقة التخلص منه؟

وفي هذا اللقاء بمشيئة الله تعالى نجيب عن هذه التساؤلات الكبيرة الخطيرة فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعلنا ممن أوتي بصيرة فصار له سراج يضيء له الظلمات حتى نصل إلى الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، محفوظين بعين الله التي لا تنام، مكلوئين بكلئه الذي لا يرام ولا يضام.

أيها الإخوة ما هو التطير؟ التطير هو التشاؤم بالأشياء سواء كانت مشاهدة مرئية أو مسموعة أو معلومة ومن العلماء من قصره على التشاؤم بالطيور، فقد سُمِّيَ التشاؤم تطيراً؛ لأنَّ العرب كانُوا في الجاهلية إذا خرج أحدُهم لأمرٍ قصد عش طائر فيهيجه، فإذا طار الطيرُ من جهة اليمين تيمن به ومضى في الأمر، ويسمون هذا الطائر في هذه الحالة: (السانح). أما إذا طار جهة يسار الإنسان تشاءم به، ورجع عما عزم عليه، وكانوا يسمون الطير في هذه الحالة: (البارح).

وهذا وإن كان أصل التطير إلا أنه ليس قاصرا عليه اليوم، فالصحيح أنه يعم كل ما يتشاءم منه من الطيور والألفاظ والأماكن وغيرها.

كأن يعتقد الإنسان أنه يضره شيء حتماً لو ذهب إلى المكان الفلاني، أو يرجع إلى بيته لا يذهب إلى عمله لأنه قابل في طريقه وهو خارج طائراً أسود، أو يقعد عن عمله لأن أول كلمة سمعها كلمة شر، أو يحدد الذهاب إلى موعد فينفي يوم

(٦٢٤) أخرجه الترمذي ٢٣٢٦، وقال: حديث حسن صحيح. والحديث ورد بألفاظ متعددة وقد صححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير (٢/ ١٣١٨) برقم (٧٩٥٧).

الأربعاء أو يوم الجمعة من حسابه ويلغيه لأنه يعتقد أن فيهما شرًّا وسوءًا كما انتشر على ألسنة بعض الجهال أن يوم الأربعاء يوم نحس أو أن في بعض يوم الجمعة شر ومن أقوالهم في ذلك في يوم الجمعة ساعة نحس وكذبوا بل الأيام كلها أيام الله وما هي إلا ظروف المقادير إن شاء قدر فيها ربنا خيراً وإن شاء قدر فيها شراً لا بحسبها هي نحس أو سعد بل بحسب تقديره سبحانه ومشيئته وإرادته.

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ». (٦٢٥)

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه – قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" قَالَ اللَّهُ يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ». (٦٢٦)

وروى أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–" لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ –عز وجل– قَالَ أَنَا الدَّهْرُ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِى لِى أُجَدِّدُهَا وَأُبْلِيهَا وَآتِى بِمُلُوكٍ بَعْدَ مُلُوكٍ ».(٦٢٧)

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ أنه قال: "قال الله تعلى: "يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار. (٦٢٨)

ففي هذه الأقوال والاعتقادات خطآن عظيمان: الأول: أنه ينسب السعد والنحس إلى غير الله –عز وجل– وهما إنما يجريان بقدره، والثاني: أن فيه سبّاً لله عز شأنه وعظم جاهه.

فلا ينبغي أن يقال: هذا يوم أسود أو لا بارك الله في هذه الساعة أو هذا يوم مشئوم، أو هذا يوم أغبر أو زمان أسود ونحوها من الألفاظ والعبارات التي فيها شرك بالله تعالى و إيذاء لرب البرية –سبحانه وتعالى–.

فلننأى بأنفسنا عن هذا كله –أيها الإخوة– الكرام ولنعلم أن كل شيء بقدر وكل شيء بأمر الله –عز وجل–: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)[القمر: ٤٩].

وهؤلاء الذين يقولون في يوم الجمعة ساعة نحس يقلبون الحقيقة المقررة في الشرع العظيم، كذبوا والله إن في يوم الجمعة ساعة إجابة كما قال النبي ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه النسائي وابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَيْتُ الطُّورَ فَوَجَدْتُ ثَمَّ كَعْبًا فَمَكَثْتُ أَنَا وَهُوَ يَوْمًا أُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُحَدِّثُنِي عَنْ التَّوْرَاةِ فَقُلْتُ لَهُ قَالَ

(٦٢٥) صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦).

(٦٢٦) أخرجه البخاري ٦٠٠٣.

(٦٢٧) أخرجه أحمد ١٠٧١٠.

(٦٢٨) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦).

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُصِيخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنْ السَّاعَةِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا مُؤْمِنٌ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَقَالَ كَعْبٌ ذَلِكَ يَوْمٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَقُلْتُ بَلْ هِيَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فَقَرَأَ كَعْبٌ التَّوْرَاةَ ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ.

فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ بَصْرَةَ بْنَ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيَّ فَقَالَ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ قُلْتُ مِنْ الطُّورِ قَالَ لَوْ لَقِيتُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَهُ لَمْ تَأْتِهِ قُلْتُ لَهُ وَلِمَ قَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا تُعْمَلُ الْمَطِيُّ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي وَمَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ فَقُلْتُ لَوْ رَأَيْتَنِي خَرَجْتُ إِلَى الطُّورِ فَلَقِيتُ كَعْبًا فَمَكَثْتُ أَنَا وَهُوَ يَوْمًا أُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُحَدِّثُنِي عَنْ التَّوْرَاةِ فَقُلْتُ لَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُصِيخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنْ السَّاعَةِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ قَالَ كَعْبٌ ذَلِكَ يَوْمٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ كَذَبَ كَعْبٌ قُلْتُ ثُمَّ قَرَأَ كَعْبٌ فَقَالَ صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ صَدَقَ كَعْبٌ إِنِّي لَأَعْلَمُ تِلْكَ السَّاعَةَ فَقُلْتُ يَا أَخِي حَدِّثْنِي بِهَا قَالَ هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ فَقُلْتُ أَلَيْسَ قَدْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا يُصَادِفُهَا مُؤْمِنٌ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ وَلَيْسَتْ تِلْكَ السَّاعَةَ صَلَاةٌ قَالَ أَلَيْسَ قَدْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ صَلَّى وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ لَمْ يَزَلْ فِي صَلَاتِهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ الصَّلَاةُ الَّتِي تُلَاقِيهَا قُلْتُ بَلَى قَالَ فَهُوَ كَذَلِكَ.(٦٢٩)

فلنحذر من هذه الألفاظ التي فيها تطير وتشاؤم لأن خطرها عظيم ومصابها في الدنيا - قبل الآخرة- جسيم وبيان ذلك أن نجيب عن السؤال الثاني ما حكم التطير والتشاؤم بالأشياء والأسماء؟ قال العلماء:

وذلك ينقسم إلى أقسام:

١ - أن يعتقد في الطير ونحوه من كل مسموع أو مرئي أو معلوم، أن له تأثيرا في جلب النفع أودفع الضرر، وأنها تنفع بذاتها، فهو شرك أكبر شرك في الربوبية لأنه اعتقد النفع والضرر في غير الله، وأيضًا شرك في الألوهية لأن قلبه تعلق بغير الله فيما لا يقدر عليه غير الله.

---

(٦٢٩) أخرجه النسائي ١٤٣٠، وابن ماجة (١١٣٩)،وانظر: الإرواء (٧٧٣).

٢ – أن يعتقد أنها سبب للخير أو للشر وهو موقن أن الله هو الفاعل فهذا من الشرك الأصغر لأنه جعل ما ليس سببا لا شرعا ولا قدرا سببا.

٣ – أن يجعلها علامة يخبر بها عن الغيب، وهذا من الشرك الأكبر لأنه ادعاء لعلم الغيب والقاعدة: أن ادعاء علم الغيب بأي وسيلة يعتبر شركًا أكبر. (٦٣٠)

وانتبه معي أيها الحبيب لهذا السيل من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤصل لنا هذه القضية فها هو ذا القرآن العظيم يذكر عن فرعون وقومه أنهم تطيروا بموسى والمؤمنين معه وتشاءموا منهم فقال: "فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون".

وذكر –عز وجل– عن القوم الذين كذبوا الرسل وهم أصحاب القرية أنهم: "قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)[يس: ١٨]

وقبل هؤلاء وهؤلاء قوم صالح –عليه السلام– حكى القرآن عنهم أنهم {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}

وهكذا لا تجد الله تعالى ذكر التشاؤم والتطير إلا عن أعدائه الكفار فدل ذلك على أن التطير والتشاؤم ليس من أمر الإسلام في شيء وإنما هو من أمور الجاهلية ولذا نهى الله ورسوله عنه وجعل الشرع اعتقاده مناقضاً للتوحيد وأخبرا أنها وسيلة من وسائل الشرك وزعزعة يقين القلب في رب العالمين.

والتفت إلى هذه اللطيفة الأخرى في هذه الآيات وهي أن الله تعالى قال: "ألا إنما طائرهم عند الله"قال ابن عباس في معناها أي إلا من قبل الله، فمن عند الله –تبارك وتعالى– ذلك كله"قل كل من عند الله" فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً.

وهكذا قال المشركون للرسول ﷺ: "وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولون هذه من عندك فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً".

فاحذروا أحبتي من التطير ولا يستجرينكم الشيطان ويستميلكم إلى شركه فإنه الشرك.

روى أبو داود والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: "الطيرة شرك الطيرة شرك". (٦٣١)

---

(٦٣٠) عون العلي الحميد (٢/ ٣٠).

ومن روائع ما قرأت من التعليق على هذا الحديث ما قاله الإمام الشوكاني في نيل الأوطار يقول – رحمه الله -: "وإنما جعل الطيرة من الشرك، لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعًا أو يدفع عنهم ضررًا إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى..."(٦٣٢)

وهذا الاعتقاد منافٍ لما قرره الله تعالى في قوله تعالى في غير ما آية: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس:١٠٧]، فالله هو الضار النافع، وهذه الطيور لا تعلم الغيب، وسنوحها لا ينفع، وبروحها لا يضر. ومن قرع باب التطير فقد قرع باب الشرك بل ولجه، وبرئ من التوكل على الله سبحانه، فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله، ويبقى هدفا لسهام الطيرة..."(٦٣٣)

ومن العجب العجيب أن "للناس في التشاؤم أيام معينة أو ساعات محددة أو أعداد معينة مما لا ينقضي منه العجب. فالرافضة قبحهم الله (يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة حتى البناء لا يبنون على عشرة أعمدة،ولا بعشرة جذوع ونحو ذلك؛لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة)(٦٣٤) وكثير من الناس في الغرب يتشاءمون بالرقم(١٣)؛ ولذا حذفته بعض شركات الطيران من ترقيم المقاعد كما حذفوه في ترقيم المصاعد والأدوار في العمائر الكبار. وآخرون يتشاءمون بنعيق البوم والغراب، ورؤية الأعور والأعرج والعليل والمعتوه". (٦٣٥)

قال الشيخ ابن عثيمين(٦٣٦): (والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم فإنها تضيق عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشترِ –والعياذ بالله– وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولاسيما في النكاح، وقد نقضت عائشة –رضي الله عنها– هذا التشاؤم بأنه–صلى الله عليه وسلم–عقد عليها في شوال؛ وبنى بها في شوال، فكانت تقول: أيُّكن كانت أحظى عنده مني؟)(٦٣٧)

---

(٦٣١) أخرجه أبو داود (٣٤١١)، انظر: صحيح الجامع الصغير ٣٩٠٨.

(٦٣٢) نيل الأوطار للشوكاني: ٤٨/٩.

(٦٣٣) باختصار من الشرك بالله أنواعه وأحكامه (٨٠٤)، عالم السحر (٣٠٠)، نقلا عن عون العلي الحميد (٢/ ٣٣).

(٦٣٤) منهاج السنة لا بن تيمية (١٠/١).

(٦٣٥) التشاؤم أو التطير – خطبة من موقع المنبر.

(٦٣٦) المجموع المفيد، (٣٢/٢).

(٦٣٧) أخرجه مسلم، (٢٥٥١).

ولذلك نفى النبي ﷺ الطيرة كلها فقال كما روى مسلم من حديث أبي هريرة: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول". (٦٣٨)

لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول فهذه ستة ينفيها النبي ﷺ أما الطيرة فقد عرفناها، وعمومًا فما نفرك من المكان أو الشخص أو أي شيء رأيته أو سمعته وفررت منه تأثراً بالتشاؤم فهو التطير وهو الشرك الذي نهى عنه النبي ﷺ في هذا الحديث وغيره.

والواجب عليك حينما يحصل لك شيء من هذا مما تكرهه في نفسك أن ترفضه متوكلاً على الله –سبحانه وتعالى– وأن تمضي في حاجتك وسنذكر العلاج الكامل بمشيئة الله بعد استكمال شرح هذا الحديث.

فهذا هو معنى "لا طيرة" وأما معنى قول النبي ﷺ "لا عدوى" فمعناه: أن انتقال المرض من شخص إلى شخص أو من بهيمة إلى بهيمة أو من مكان إلى مكان لا يكون من تلقاء نفسه فالأشياء لا تعدى بنفسها ولكن عن تقدير من الله –سبحانه وتعالى– فالمقدر لانتقالها هو الله فقد يقرب الصحيح من المريض فيعدي وقد يقرب فلا يحصل له شيء، لأن الله قدر له العدوى في المرة الأولى ولم يقدرها له في المرة الثانية.

روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « لاَ عَدْوَى وَلاَ صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ ». فَقَالَ أَعْرَابِىٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا بَالُ إِبِلِى تَكُونُ فِى الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَيَأْتِى الْبَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا. فَقَالَ « فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ »(٦٣٩)

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقرر أنه"لا عدوى"مع أنه هو ﷺ الذي قال فر من المجذوم فرارك من الأسد(٦٤٠)
والسؤال الآن: هل هنا تعارض؟ هل هنا تضاد؟ فمرة يأمر بالفرار ومرة يقول: "لا عدوى"؟ فهل بين هذين القولين من تعارض؟ والجواب بكل ثقة واطمئنان: لا، فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وإنما نهى النبي ﷺ عن مخالطة المجذوم ونهى ﷺ عن القدوم على الأرض الموبوءة ونهى من كان في أرض فيها وباء أن يخرج منها ومن كان خارجها لا يدخل فيها، لأن هذه أسباب لانتشار المرض والامتناع عنها أخذ بالأسباب الواقية والإقدام عليها إلقاء إلى التهلكة والله يقول: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" — انتبه أيها الحبيب اللبيب — إلا من قوى إيمانه وكمل توكله ووثق قلبه واطمأنت نفسه بقضاء الله وقدره فهذا يقدم على الوباء ويخالط المرض ولا يصاب لأنه متوكل على الله –سبحانه وتعالى– ، لكن هذا لا يكون إلا لأهل الإيمان القوي أما أهل الإيمان الضعيف فهؤلاء يبتعدون عن هذه المواقف لئلا يصابوا ثم

---

(٦٣٨) أخرجه مسلم ٥٩٢٠.

(٦٣٩) أخرجه البخاري ٥٧١٧، ومسلم ٥٩١٩.

(٦٤٠) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) تعليقا، قال البغوي في"شرح السنة"(٣ / ٣٦٧ نسخة المكتب الإسلامي) بعد ما أخرجه عن البخاري: "هذا حديث صحيح"، ووصله أحمد في المسند (٢/٤٤٣).

تسوء عقيدتهم وبالجملة فالأخذ بالأسباب الواقية حسن، وإذا كان هناك مصلحة راجحة فالإقدام أحسن وهذا كله بحسب الأحوال. (٦٤١)

قال العلامة الألباني: واعلم أنه لا تعارض لأن المقصود إثبات العدوى وأنها تنتقل بإذن الله تعالى من المريض إلى السليم وأما نفي العدوى فمعناه نفي العدوى التي كان أهل الجاهلية يعتقدونها، وهي انتقالها بنفسها دون النظر إلى مشيئة الله في ذلك كما يرشد إليه قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي: "فمن أعدى الأول؟". فقد لفت النبي صلى الله عليه وسلم نظر الأعرابي بهذا القول الكريم إلى المسبب الأول ألا وهو الله –عز وجل– ولم ينكر عليه قوله"ما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها الأجرب فيجربها"، بل إنه صلى الله عليه وسلم أقره على هذا الذي كان يشاهده، وإنما أنكر عليه وقوفه عند هذا الظاهر فقط بقوله له: "فمن أعدى الأول؟". وجملة القول: أن الحديثين يثبتان العدوى وهي ثابتة تجربة ومشاهدة.

والأحاديث الأخرى لا تنفيها وإنما تنفي عدوى مقرونة بالغفلة عن الله تعالى الخالق لها. وما أشبه اليوم بالبارحة، فإن الأطباء الأوربيين في أشد الغفلة عنه تعالى لشركهم وضلالهم وإيمانهم بالعدوى على الطريقة الجاهلية، فلهؤلاء يقال: "فمن أعدى الأول؟" فأما المؤمن الغافل عن الأخذ بالأسباب، فهو يذكر بها، ويقال له كما في الحديث: "لا يورد الممرض على المصح" أخذًا بالأسباب التي خلقها الله تعالى، وكما في حديث: "وفر من المجذوم فرارك من الأسد". (٦٤٢)

قال ﷺ: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة" ما معنى ولا هامة؟ كان العرب يتشاءمون بطائر البومة ويقولون: البوم لا يقع إلا على الخراب، ولا يزال من هذا شيء في نفوس بعض الناس في أيامنا هذه فربما تسمع من بعض الناس إذا صوتت بومة يقول لك: سوف يموت واحد بلا شك، لماذا؟ لأن هذه البومة لا تأتي إلا لنعي وهذا بلا شك خطأ.

بل أشنع من هذا فاسمع، كان بعض أهل الجاهلية يزعمون أن القتيل الذي لم يأخذ أهله بثأره فإنه يخرج منه طائر يسمى البومة"الهامة"ويصوت ويقول: اسقوني اسقوني يعني خذوا لي بالثأر! ولا شك أن واضع مثل هذه الأفكار والذي يعمل على بثها وتهييجها إرهابيون دمويون أو انتهازيون مستفيدون وكلاهما يجب الأخذ على أيديهم بشدة، إن هذه المزاعم الباطلة لتصب في جانب إشباع رغبة الانتقام أو التربح من باب التحريش بين الناس، ولا شك أن هذه عادات جاهلية جاء الإسلام بإبطالها، ولا شك أيضاً أن هذا خطأ فلا شيء من هذا يكون –أيها الإخوة– لأنه لم يعلمنا به ربنا ولم يجعله الله سبباً فهو شرك أصغر بل وفيه شرك أكبر كاعتقاد أن البوم يعلم بموت فلان أو بحاله بعد الموت أو غير ذلك.

---

(٦٤١) إعانة المستفيد (٢/ ٨، ٩).

(٦٤٢) انظر"السلسلة الصحيحة"٢ / ٦٩٦.

ليس في دين الله ما يدل على ذلك أبدًا، ولكن هذه المزاعم إذا عاشت في نفوس الناس كان لها أثر في حياتهم وواقع في علاقاتهم جراء التطير الذي يعلق بالنفس وتسعى هي إلى التشبث به، ومن عجيب ما قرأت مما يمكن أن يندرج ضمن حديثنا هذا ما أخرجه الدارمي بسند حسن عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَتْ: كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَهَا زَوْجٌ تَاجِرٌ يَخْتَلِفُ فَكَانَتْ تَرَى رُؤْيَا كُلَّمَا غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَقَلَّمَا يَغِيبُ إِلاَّ تَرَكَهَا حَامِلاً فَتَأْتِى رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَتَقُولُ: إِنَّ زَوْجِى خَرَجَ تَاجِراً وَتَرَكَنِي حَامِلاً، فَرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّ سَارِيَةَ بَيْتِي انْكَسَرَتْ وَأَنِّي وَلَدْتُ غُلاَماً أَعْوَرَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–:« خَيْرٌ، يَرْجِعُ زَوْجُكِ عَلَيْكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى صَالِحاً، وَتَلِدِينَ غُلاَماً بَرًّا ». فَكَانَتْ تَرَاهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً كُلُّ ذَلِكَ تَأْتِى رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَيَقُولُ ذَلِكَ لَهَا، فَيَرْجِعُ زَوْجُهَا وَتَلِدُ غُلاَماً، فَجَاءَتْ يَوْماً كَمَا كَانَتْ تَأْتِيهِ وَرَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– غَائِبٌ، وَقَدْ رَأَتْ تِلْكَ الرُّؤْيَا فَقُلْتُ لَهَا: عَمَّ تَسْأَلِينَ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَا أَمَةَ اللَّهِ؟ فَقَالَتْ: رُؤْيَا كُنْتُ أُرَاهَا فَآتِى رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَأَسْأَلُهُ عَنْهَا فَيَقُولُ خَيْراً فَيَكُونُ كَمَا قَالَ. فَقُلْتُ: فَأَخْبِرِينِي مَا هِيَ. قَالَتْ: حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَأَعْرِضَهَا عَلَيْهِ كَمَا كُنْتُ أَعْرِضُ. فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهَا حَتَّى أَخْبَرَتْنِي فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَئِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاكِ لَيَمُوتَنَّ زَوْجُكِ وَتَلِدِينَ غُلاَماً فَاجِراً، فَقَعَدَتْ تَبْكِي وَقَالَتْ: مَا لِي حِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكِ رُؤْيَاىَ؟ فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ لَهَا: "مَا لَهَا يَا عَائِشَةُ؟». فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ وَمَا تَأَوَّلْتُ لَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: «مَهْ يَا عَائِشَةُ، إِذَا عَبَرْتُمْ لِلْمُسْلِمِ الرُّؤْيَا فَاعْبُرُوهَا عَلَى خَيْرٍ، فَإِنَّ الرُّؤْيَا تَكُونُ عَلَى مَا يَعْبُرُهَا صَاحِبُهَا». فَمَاتَ وَاللَّهِ زَوْجُهَا وَلاَ أُرَاهَا إِلاَّ وَلَدَتْ غُلاَماً فَاجِراً. [٦٤٣]

فانظر كيف كان النبي يبعد عن الشيء الذي يتطير ويتشاءم به حتى يحفظ على المسلم دينه.

قال ﷺ "ولا صفر"، لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، "صفر" هو شهر صفر الشهر المعروف من الأشهر العربية وكانوا يتشاءمون به فلا يتزوجون ولا يسافرون ولا يتاجرون ولا يفعلون أي شيء أيامه لأنهم يعتقدون أنه مشئوم.

وقال بعض العلماء: إنهم كانوا يعتقدون بمرض في المعدة يقال له: صفر يُعدي أيضاً فرد عليهم النبي ﷺ بقوله: "ولا صفر".

يعني إن كان الشهر فليس في الشهر شؤم فالشهور كلها شهور الله وهي ظروف للأعمال كلها النافعة والضارة الخيرة والشريرة وإنما النفع والضر والخير والشر بيد الله، وإن كان المرض فكذلك الأمراض إنما هي بيد الله –سبحانه وتعالى– هو وحده الذي ينزلها وهو الذي يرفعها هو الذي يمرض وهو الذي يشفي ويعافي –سبحانه وتعالى– لا دخل للشهور ولا غيرها في مقادير الله –عز وجل–.

(٦٤٣) أخرجه الدارمي ٢٢١٨.

"لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء"، وسنفرد الخطبة القادمة بمشيئة الله للحديث عن الأنواء والكواكب ومنازلها وفهم الناس الخاطئ المتعلق بها لنعلم أنه لا دخل للأنواء وهي النجوم في شيء كما كان يعتقد أهل الجاهلية فيها من هبوب الرياح أو نزول الأمطار إلى غير ذلك مما عاب –عز وجل– عليهم فيه بقوله سبحانه: "أفبهذا الحديث – وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون" أي وتجعلون المطر من عند غير الله فتنسبونه إلى الأنواء والنجوم والكواكب والبروج فنفى النبي ذلك بقوله: "ولا نوء"، وسيأتي معنا الحديث عن هذا مشبعاً في الخطبة القادمة إن قدر الله لنا اللقاء والبقاء.

وقال ﷺ "ولا غول": والغول –أيها الإخوة– هو من أعمال الشياطين إذ تتشكل أمام الناس في الأماكن الخالية خصوصاً إذا استوحش الإنسان لتضله عن الطريق وترعبه وكان أهل الجاهلية يرون ذلك في سفرهم إما في شكل نار تنتقل أو أصوات تسمع أو أي شيء تخيفهم الشياطين به ليأسروا قلوبهم ويعلقونها بغير الله إمعاناً في الإضلال لهم حتى صاروا يعتقدون أنها تحدث لهم شراً وكل على حسب ما يخيفه ومن عجيب ما قرأت بهذا الصدد ما ذكره الحافظ الكبير الإمام ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره سورة الجن عند قوله تعالى: "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً قال أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً – يعني صغيراً – من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك يعني يا عظيم هذا الوادي أنا مستجيرك انظر إلى الشرك وثب فقال: يا عامر الوادي جارك قال فنادى مناد ولا نراه يقول: يا سرحان وسرحان اسم من أسماء الذئب، قال: يا سرحان أرسله، اترك هذا الحمل الصغير فتركه فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة ولا جرحة قال وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة "وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)"[الجن: ٦].

قال العلامة الفطن اللبيب الحافظ ابن كثير: "وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جنيّاً حتى يرهب الإنسي ويخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويغويه ويخرجه عن دينه، والله أعلم. (٦٤٤)

فنفي النبي ﷺ للغول نفي لكونه يملك نفعاً أو ضراً، نعم الغول لا يملك نفعاً ولا ضراً ولا يحدث لنا شراً انتبه انتبه ولا تحدث لنا شراً إذا أخذنا بالعلاج النبوي والوقاء المصطفوي الذي علمنا إياه الحبيب النبي وما هو؟ ذكر الله –عز وجل– ففي الحديث الذي أخرجه مسلم عَنْ سُهَيْلٍ قَالَ: أَرْسَلَنِي أَبِي إِلَى بَنِي حَارِثَةَ – قَالَ – وَمَعِي غُلاَمٌ لَنَا – أَوْ صَاحِبٌ لَنَا – فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِطٍ بِاسْمِهِ – قَالَ – وَأَشْرَفَ الَّذِى مَعِى عَلَى الْحَائِطِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لأَبِى فَقَالَ لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أُرْسِلْكَ وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا فَنَادِ بِالصَّلاَةِ فَإِنِّى سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– أَنَّهُ قَالَ « إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِىَ بِالصَّلاَةِ وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ ». (٦٤٥) أي ضراط، فإن حدث لك – أخي

---

(٦٤٤) تفسير ابن كثير – (٨ / ٢٤٠).

(٦٤٥) أخرجه مسلم ٨٨٤.

الحبيب – شيء من هذا فبادرت إلى ذكر الله –عز وجل– فإن ذكر الله يطرد الشيطان، إذا ذكرت الله تعالى أو تلوت القرآن انصرف عنك كل ذلك، لكن بقلب واثق، لا تخش أحداً يا رجل، فإن معك الله، ملك الملوك وجبار السموات والأرض فإذا فعلت ذلك ذهبت هذه الحيل الشيطانية أدراج الرياح

روى الترمذي عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ سَهْوَةٌ فِيهَا تَمْرٌ فَكَانَتْ تَجِيءُ الْغُولُ فَتَأْخُذُ مِنْهُ قَالَ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « فَاذْهَبْ فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– ».

قَالَ فَأَخَذَهَا فَحَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ فَأَرْسَلَهَا فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ». قَالَ حَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ فَقَالَ « كَذَبَتْ وَهِىَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ ». قَالَ فَأَخَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَحَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ فَأَرْسَلَهَا فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ». قَالَ حَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ. فَقَالَ « كَذَبَتْ وَهِىَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ ». فَأَخَذَهَا فَقَالَ مَا أَنَا بِتَارِكِكِ حَتَّى أَذْهَبَ بِكِ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم–. فَقَالَتْ إِنِّى ذَاكِرَةٌ لَكَ شَيْئًا آيَةَ الْكُرْسِىِّ اقْرَأْهَا فِى بَيْتِكَ فَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ وَلاَ غَيْرُهُ.

قَالَ فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ». قَالَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَتْ. قَالَ « صَدَقَتْ وَهِىَ كَذُوبٌ ».(٦٤٦)

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن عبد الله بن أبي بن كعب: أن أباه أخبره: أنه كان له جرن فيه تمر قال: فكان أبي يتعاهده فوجده ينقص قال: فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم قال: فسلمت عليه فرد السلام. قال: فقلت: ما أنت، جني أم إنسي؟ قال: جني. قلت: ناولني يدك. قال: فناولني، فإذا يد كلب وشعر كلب. فقلت: هكذا خَلْقُ الجن؟ قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني، قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له فما الذي يجيرنا منكم؟ قال: هذه الآية: آية الكرسي. ثم غدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "صدق الخبيث".(٦٤٧)

وهكذا.. جمع النبي ﷺ لنا عدة أمراض جاهلية موجودة في الأنفس فعالجها ﷺ علاجها الوافي وهي ستة أشياء [العدوى والطيرة والصفر والهامة والنوء والغول] فهذا حديث عظيم أبطل الجاهلية، وقرر التوحيد ونفى الشرك وقرر اليقين في رب العالمين.

ويتبادر إلى الأذهان الآن فيما ألمح من هذه النظرات المتوثبة سؤال ألا وهو إذا كان الشرع قد حرم علينا التشاؤم بالمكان أو الزمان أو الأسماء القبيحة، فإذا وجدنا في صدورنا التشاؤم منها ماذا نفعل تجاه ذلك؟ ثم ماذا عن الأسماء الجميلة هل هناك من بأس أن نتفاءل بما فيها من معنى جميل طيب؟

---

(٦٤٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٥٦٢)، وابن حبان (١٧٢٤)"موارد"، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٤٥).

(٦٤٧) أخرجه الترمذي وصححه الألباني التعليق الرغيب (٢ / ٢٢٠).

وهذا سؤال غاية في الأهمية -أيها الإخوة- الألباء جزاكم الله خير الجزاء وقد جمع النبي ﷺ بين النهي عن الطيرة والتشاؤم بالقبيح وبين استحسان الفأل وهو التفاؤل بالجميل وذلك في حديث أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من حديث أنس أنه ﷺ قال: "لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل قالوا وما الفأل يا رسول الله؟ قال: الكلمة الطيبة".[٦٤٨]

والفأل هو تأميل الخير، وتأميل الخير مطلوب فإنما هو حسن ظن بالله -جل وعلا- فإذا سمع الشخص كلمة طيبة انشرح صدره، أو رأى شخصاً طيباً جاء إليه انشرح صدره وأمل خيراً وأحسن الظن بالله -سبحانه وتعالى- فهذا أمر طيب، ولهذا كان النبي ﷺ يعجبه الفأل فكان بأبي هو وأمي ﷺ إذا سمع اسماً حسناً أو كلمة طيبة أو مر بمكان طيب انشرح صدره ﷺ من حسن الظن بالله جل جلاله، ولما أقبل سهيل بن عمرو الحديبية ليتفاوض مع النبي ﷺ وهو سهيل بن عمرو لما رآه ﷺ مقبلاً قال: " **لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ** ".[٦٤٩] وقد كان خيراً عليهم كما أمل الرسول ﷺ من مجيئه[٦٥٠] فقد كان سبب خير، فلهذا نقول: الفأل هو سماع الكلمة الطيبة أو رؤية الشيء الحسن الذي يدفع الإنسان إلى الاستبشار والفرح والسرور وتأميل الخير والنفع ولا شيء في هذا لكن بشرط ألا ينسب هذا الخير أو النفع إلى هذا الشيء وإلا كان حرامًا، وأيضًا لا يعلق المسلم قلبه بهذا الشيء إنما يعلق قلبه بالله جل في علاه، قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل: خير خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر، فأنكر عليه لئلا يعتقد تأثيره، وصاح غراب فقال رجل: خير. فقال طاووس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني.

وأخيرًا -أيها الإخوة-! كيف يفعل الإنسان الذي يجد في صدره الشيء من الطيرة أو التشاؤم كيف يعالج ذلك ويداويه؟

والجواب بعد جلسة الاستراحة إن شاء الله، هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد.. فيا أيها الإخوة!

كيف يفعل الإنسان الذي يجد في صدره الشيء من الطيرة والتشاؤم؟ كيف يعالج ذلك ويداويه؟

---

(٦٤٨) أخرجه البخاري ٥٧٥٤، ومسلم ٥٩٣١.

(٦٤٩) أخرجه البخاري ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

(٦٥٠) بتصرف من إعانة المستفيد (٢ / ١٢، ١٣).

وابتداء قبل أن أضع نقاط العلاج بين يدي حضراتكم أحب أن أطمئن القلوب والنفوس بأن هذا أمر طبيعي ولا شيء فيه، أن يجد الإنسان في صدره بعض شيء من التطير هذا أمر طبيعي، المطلوب أن يبدأ في علاجه لا أن يفزع ويرتعب من وجوده، فما من إنسان خلا الأنبياء إلا ويجد في صدره بعض ذلك كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: "الطيرة شرك"قال ابن مسعود: وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل. (٦٥١)

الله! كلام يطمئن القلوب، ويسكن النفوس، ويهدئ القلق الذي يعتريهما، "وما منا إلا" أي: وما منا أحد إلا ويقع في قلبه الشيء من هذا، فلا يضرك، لا يضرك أيها الحبيب إن وقع في قلبك شيء من التطير أو التشاؤم لكن بادر إلى رده ودفعه بالعلاج فما هو العلاج.

قال السادة العلماء: تعالج الطيرة بثلاثة أمور:

الأمر الأول:- وهو الأصل-: التوكُّل على الله -سبحانه وتعالى-، والثقة بأنه لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر إلاّ هو -سبحانه وتعالى-، هو الذي يأتي بالخير ويدفع الشر، وهو الذي يضرُّ وينفع، وهو الذي يتصرف في الكون فإذا توكّل العبد على الله فإن الطيرة لا تضره.

والمتوكل على الله في حياة طيبة بإيمانه وصالح أعماله قال الله: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)"هذا خبر من أيها المؤمنون؟ ينبيك عنه [ابن القيم] بما ملخصه -في تصرف- إنه خبر أصدق الصادقين وأحكم الحاكمين، الله رب العالمين، وهو خبر يقين، وعلم يقين بل عين يقين، فحوى الخبر، أنه لابد لكل من عمل صالحًا مؤمنًا أنه يحييه الله حياة طيبة، بحسب إيمانه وعمله، (وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)". (٦٥٢)

فالأمر الأول في علاج الطيرة ونحوها التوكل والاعتماد والثقة في الله رب العالمين.

الأمر الثاني: أنْ يمضيَ في حاجته التي أرادها، ولا يرجع عنها بسبب الطيَرة، فإذا عزمت فتوكل على الله لا تتراجع ولا تنكص بل امض وتوكل.

(٦٥١) أخرجه أبو داود (٣٤١١)، انظر: صحيح الجامع الصغير ٣٩٠٨.

(٦٥٢) بلسم الحياة، محاضرة لفضيلة الشيخ علي عبد الخالق القرني.

الأمر الثالث: الدعاء، بأن يدعوَ الله بالدعاء الذي أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أن يقول: "اللهم لا يأتي بالحسنات إلاَّ أنت، ولا يدفع السيّئات إلاَّ أنت، ولا حول"(٦٥٣)

هذا هو العلاج -أيها الإخوة- أقول: وأما ما وقع منا قبل هذا من التشاؤم أو التطير فليتب العبد منه وليردد ما علمناه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث العذب الجميل، وهو مل روى أحمد وغيره عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك قالوا: يا رسول الله وما كفارة ذلك؟ قال: يقول: "اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك). (٦٥٤)

نسأل الله العلي القدير الذي بيده مقاليد الأمور وتصريف الأشياء وتدبيرها أن يدبر أمورنا على خير ما يحب وأن يصرف عنا الشر مما نكره وأن يصرف قلوبنا إلى خير ما يحب وأن يصرفها عما يكره... الدعاء.

---

(٦٥٣) إعانة المستقيد ٢/١٤، ١٥، بتصرف، والحديث أخرجه أبو داود (٣٧١٩) وصححه النووي: شرح النووي على مسلم - (٧ / ٣٨٨)، وضعفه الألباني، انظر: الكلم الطيب (٢٥٢) //، المشكاة (٤٥٩١) //

(٦٥٤) أخرجه أحمد ٧٠٤٥، وغيره، وصححه الألبانيي انظر حديث رقم: ٦٢٦٤ في صحيح الجامع.

لا تصدقوه فإنه كذاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل على النبي المصطفى والرسول المجتبى:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماءُ

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماءُ

حن جذع إليك وهو جماد فعجيب أن يجمد الأحياءُ

أما بعد فيا أيها الإخوة إن مما انتشر بين الناس منذ قديم ولا يزال الانشغال بمتابعة الحديث عن الأبراج والنجوم وما يتبع ذلك من كلام عن الحظوظ والمقادير، فما من مجلة اليوم ولا جريدة إلا وخصصت جزءاً من صفحاتها للحديث عن هذا الموضوع، بل زاد الطين بلة أن أفسحت له كثير من الفضائيات المجال في برامج ولقاءات جعلت الناس يفتتنون أكثر بهذه المسألة [٦٥٥] وهذا يقتضي منا –أيها الإخوة– أن نعرف حكم الشرع الحنيف في هذا السلوك ونفصل القول فيه فإنه يتعلق بعقيدة الإسلام فلننفسح الصدر والعقل لقبول حكم الشرع المبني على دقة وإحكام نظر في هذه المسألة من خلال الأدلة وأقوال الأئمة.

وسأتناول الحديث عن هذا الموضوع في العناصر التالية:

أولاً: النجوم فوائد ومنافع.

ثانياً: أنا وأنت والنجوم.

---

(٦٥٥) هذه الأمور وغيرها مما يعالج قضايا العقيدة لها مناسباتها من السيرة، والمواضع التي يتناول إجماليها الدعاة في المواسم المختلفة، غير أن الخطبة الموسمية – للأسف الشديد – ضعفت كثيرًا، وصارت لما يعمد إليه فيها من التكرار والسرد ضعيفة الأثر مملولة رغم ما لها من التأثير الذي لو وظف لخدم قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق جميعها بلا مبالغة، وقد ظن من لا يحسن أن الإبداع في اختراع موضوعات بعيدة عن هذه المواسم فعمد – على ما يقال–: يتحدث عن شرق والناس في غرب فكان كما قيل:

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عي في الحي انتسابا

أو كمغلوب على ذاكرة يشتكي من صلة الماضي انقضابا

ولذا ففي النية – بمشيئة الله تعالى – عمل مجموعة من الخطب تحت عنوان: "رؤية جديدة للخطبة الموسمية"أحاول فيها بعث الشعور من جديد بالمعاني الواقعية لهذه المواسم والمناسبات ومعالجة قضايا الحاضر –خاصة قضايا العقيدة والحضارة– من خلالها أسأل الله تمامها.

ثالثاً: لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله.

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعلنا ممن أوتي بصيرة فصار له سراج يضيء له الظلمات حتى نصل إلى الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، محفوظين بعين الله التي لا تنام، مكلوئين بكلئه الذي لا يرام ولا يضام.

أولاً: النجوم فوائد ومنافع:

أيها الإخوة: ما خلق الله -تبارك وتعالى- شيئاً في الكون صغيراً أو كبيراً عظيماً أو غير ذلك يخلو أبدًا عن منفعة سواء ظهرت لنا هذه المنفعة أم لم تظهر أو ظهر لنا بعضها وخفي عنا البعض الآخر.

وقد يحسن الناس استغلال هذه الأشياء التي خلقها الله -عز وجل- وقد يسيئون استغلالها والواجب -أيها الإخوة- على كل مؤمن أن يعتقد حكمة الله تعالى في خلق الأشياء ويؤمن بذلك ويوقن به.

لله في الآفاق آيات لعل أقلها هو ما إليه هداكَ

ولعل ما في النفس من آياته عجب عجاب لو ترى عيناك

الكون مشحون بأسرار إذا حاولت تفسيراً لها أعياك

وعلى المؤمن كذلك أن ينتفع بما خلق الله في طاعة الله وعبادته حتى يكون حجة له لا حجة عليه.

لكن كثيراً من الناس للأسف الشديد يحرصون على ما يضرهم ولا ينفعهم ويشترون الضلال المبين ويبيعون الهدى النفيس الثمين.

ومن ذلك -أيها الإخوة- الانصراف عن الاعتبار بخلق النجوم وما فيها من الفوائد وما أودعها الله من الأسرار والمنافع والمعارف.

نعم فقد خلق الله -عز وجل- هذه النجوم وجعلها دليلاً يسوق إليه ويعرف الناس عليه عز شأنه، فالنجوم آية من آيات الله المبثوثة في الكون دليلاً على الله، ومصابيح تنير الطريق وترشد الناس إليه سبحانه جل في علاه.

كـــل الوجـــود علـــى وجـــودك شـــاهد وكـــل الكائنـــات لـــك تقـــر وتشـــهد

فواعجبـــاً كيـــف يعصـــى الإلـــه أو كيـــف يجحـــده الجاحـــد

وفي كـل شـيء لـه آيـة تـدل علـى أنـه الواحـد

ومما يظهر لنا –أيها الإخوة– من حكمة خلق النجوم ومن منافعها وفوائدها:

أولاً: أنها زينة للسماء:

قال عز من قائل: "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح" قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله– تعالى: "وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت [٦٥٦]، وقال تعالى: "إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب"أي زين الله السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض، وقال –تبارك وتعالى–: "ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين"انظر يا أخي في السماء وتمتع بالنظر إليها ورحم الله ورضي عمن قال في حقهم: إِنَّ فِي خَلْقِ السموات وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السموات وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) [آل عمران: ١٩٠ – ١٩٢]، ولذلك كان النبي ﷺ يكثر النظر إلى السماء يتأمل فيها وهو يقرأ هؤلاء الآيات، ففي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث ابن عباس أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَخَرَجَ فَنَظَرَ فِى السَّمَاءِ ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ فِى آلِ عِمْرَانَ (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)حَتَّى بَلَغَ (فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى ثُمَّ اضْطَجَعَ ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَتَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ رَجَعَ فَتَسَوَّكَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى. [٦٥٧]

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري قَالَ صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– ثُمَّ قُلْنَا لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّىَ مَعَهُ الْعِشَاءَ – قَالَ – فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ «مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّىَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ «أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ». قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِى فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِى مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِى أَمَنَةٌ لأُمَّتِى فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِى أَتَى أُمَّتِى مَا يُوعَدُونَ».[٦٥٨]

---

(٦٥٦) تفسير ابن كثير – (٨ / ١٧٧).

(٦٥٧) أخرجه مسلم ٦١٩.

(٦٥٨) أخرجه مسلم (٢٥٣١).

ولهذا قال الله -عز وجل-: "تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً".

فمن منافع النجوم أنها زينة للسماء، ولا زلت أتذكر حوارًا لطيفًا دار بين رجلين أحدهما مثقف له دراية بالأشياء والآخر عاميّ منعته أشغاله ومهامه أن يلتفت إلى شيء من هذا إلا فيما ندر وكان الاثنان جالسين بينما نظر الثاني في الفضاء فرأى ضوءًا مشعًّا يأتي من السماء إلى الأرض فنظر إلى مصدر الضوء وقال مستفهمًا: ألا تختلف هذه النجمة عن ما حولها من النجوم؟ فنظر المثقف حيث نظر صاحبه فابتسم وهز رأسه بالنفي قائلا: هذه ليست نجمة وإنما هذا هو القمر الصناعي.

أيها الإخوة! هذا مثال صغير لكن لا ينبغي أن نمر به دون أن نفيد منه فائدة فدعونا أيها الإخوة نتساءل: ترى لو أن السماء خلت من النجوم وبدا لأهل الأرض أن يزينوا السماء والبشر اليوم مولعون بوضع الزينات في كل مكان بسبب وبغير سبب ترى لو بدا لهم أن يزينوا السماء ولا يدعوها هكذا ظلاما حالكا كم كان يكفيهم ذلك من أموال؟! وبحسبة صغيرة دعونا نعود إلى قصة الرجلين مع القمر الصناعي ونقول: إن تكلفة إيجار قناة إعلامية واحدة لمدة سنة واحدة يكلف خمسة ملايين جنيها تقريبا هذه قناة واحدة لمدة سنة واحدة إيجارًا، فماذا لو كانت تمليكا؟ ثم كم تكلفة قنوات القمر التي تزيد عن ألف قناة؟ وهذا كله في النهاية لصناعة قمر صناعي واحد يشبه النجم وليس هو النجم فكم تكون الحسبة في ملايين أو قل بلايين أو ما شاء الله من النجوم؟؟ إننا أمام هذه الآية الربانية لا نملك إلا أن نردد في يقين وخضوع قول ربنا وأحق القول قول ربنا: "تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) [الفرقان: ٦١، ٦٢]

ثانياً: أنها رجوم للشياطين ترجم من تسول له نفسه من الشياطين أن يقترب ليسترق السمع من السماء:

قال تعالى: "وجعلناها رجوماً للشياطين"قال الحافظ ابن كثير: عاد الضمير في قوله"وجعلناها"على جنس المصابيح لا على عينها لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم.

وهذه أحبتي نقطة في غاية الأهمية أن بعض الناس نسمعه يقول حين يرى شهاباً ينزل من السماء يقول: سقط النجم أو النجوم سقطت أو نزلت وهذا خطأ فليس النجم هو الذي سقط وإنما هو شهاب من دون النجوم وليست النجوم.

ومن هدي النبوة الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ إذا رأينا ذلك أن ندعو الله -تبارك وتعالى- بدعاء فحين نرى هذا الشهاب نقول: "ما شاء الله لا قوة إلا بالله".

ففي الحديث الذي أخرجه ابن السني عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: أمرنا أن لا نتبع أبصارنا الكوكب إذا انقض وأن نقول عند ذلك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.(٦٥٩)

قال النووي في الأذكار: وروى الشافعي -رحمه الله- في الأم بإسناده عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: إذا رأى أحدكم البرق أو الودق فلا يشر إليه وليصف وليثبت.

قال الشافعي: ولم تزل العرب تكرهه أي الإشارة والنظر إلى الشهاب إذا انقض أو إلى البرق.

ولكن -أيها الإخوة- .. لماذا ينقض شهاب من الكوكب؟ أو لماذا نرى الشهب تسقط من السماء؟

والجواب: كما قال ربنا سبحانه: "رجوماً للشياطين"وقال -عز وجل-: "وحفظناها"أي السماء"وحفظناها من كل شيطان رجيم"وقال -عز وجل- إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) [الصافات: ٦ - ١٠] ، وتفصيل ذلك له قصة ذكرتها سورة الجن على ألسنة شهود من أهلهم أخبروا عما كان من حالهم كما قال تعالى: "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨)وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩)وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)[الجن: ٨ - ١١]".

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئَت حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن. فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن: { وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه، { وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدًا؟ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله -عز وجل-. وقد ورد في الصحيح: "والشر ليس إليك".(٦٦٠)

---

(٦٥٩) ذكره النووي في الأذكار باب ما يقول إذا انقض الكواكب.

(٦٦٠) أخرجه مسلم ١٨٤٨.

فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله. (٦٦١)

فيرمون بالشهب إذا ارادوا استراق السمع ومن أدركه الشهاب قتله هذا ما لهم في الدنيا، ومن ظل على عمله ذك منهم قال الله تعالى فى حقه "وأعتدنا لهم عذاب السعير"أي جعلنا للشياطين فوق خزي الدنيا عذاب السعير في الآخرة.

إذاً النجوم لها فوائد:

أولاً: زينة للسماء.

ثانياً: رجوم للشياطين.

ثالثاً: علامات يهتدى بها في البر والبحر.

قال الله –عز وجل–: "وعلامات وبالنجم هم يهتدون".

فمن نعم الله –عز وجل– ومننه على عباده أنهم يهتدون بالنجوم في سيرهم،في أسفارهم يستدلون بها على صحة طريقهم، وكذا يستخدمها إلى اليوم أصحاب الفلك في البحر والطيارون فى الجو إلى غير ذلك من الاستخدامات النافعة المفيدة فمن فوائد النجوم ومنافعها أنها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

فهي علامات هداية في الدنيا إلى صالح العباد وآيات هداية في الدين إلى رب العباد –سبحانه وتعالى– لمن تفكر فيها وتأملها وتدبر الحكم والعبر التي خلقها الله فيها وأودعها إياها.

رابعاً: النجوم أمنة للسماء كما في الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث أبي موسى قَالَ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّىَ مَعَهُ الْعِشَاءَ – قَالَ– فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: « مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّىَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ: « أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ ». قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: « النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِى فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِى مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِى أَمَنَةٌ لأُمَّتِى فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِى أَتَى أُمَّتِى مَا يُوعَدُونَ». (٦٦٢)

---

(٦٦١) تفسير ابن كثير (٨ / ٢٤٠).

(٦٦٢) أخرجه مسلم (٢٥٣١).

فالنجوم أمنة للسماء إذا ذهبت كان ذلك إيذانًا بزوال الدنيا وفنائها، كما قال ربنا سبحانه في سورة التكوير: "إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت"أي انتثرت وانصبت وتساقطت وعن أبي بن كعب -رضي الله عنه- قال: ست آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففزعت الجن بالإنس والإنس بالجن واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم في بعض (٦٦٣)، سبحانك سبحانك سلم يا رب سلم.

وقال ربنا -سبحانه وتعالى- أيضاً في سورة الانفطار: "إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت" إلى آخر الآيات.

أيها الإخوة!

هذه بعض فوائد النجوم ومنافعها وقد أجمل الثلاث الأول منها قتادة فيما أخرجه البخاري في صحيحه عنه قال: "خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به". (٦٦٤)

قال أهل العلم: وهذا ليس حصراً فإن ثبتت فوائد وعلل أخرى فلا مانع من إثباتها، بشرط أن يدل عليها دليل من الشرع.

هذه إخوتي فوائد ومنافع النجوم، ولأجل هذا -أيها الإخوة- كان للنجوم مكانة عظيمة في القرآن الكريم حتى أقسم الله -عز وجل- بها غير مرة في كتابه فمن ذلك قوله -عز وجل-: "والسماء ذات البروج: قال ابن كثير: يقسم -تبارك وتعالى- بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام. (٦٦٥)

ومن ذلك قوله -عز وجل-: "والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب" قال ابن كثير: يقسم الله -تبارك وتعالى- بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال والسماء والطارق ثم قال وما أدراك ما الطارق ثم فسره بقوله النجم الثاقب أي المضيء وقال بعضهم: الثاقب الذي يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وقال عكرمة تلميذ ابن عباس رضي الله عنهم: هو مضيء ومحرق للشيطان، ومن ذلك أيضاً قوله -عز وجل-: "فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس"، قال علي بن أبي طالب: هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل. (٦٦٦)

---

(٦٦٣) تفسير ابن كثير - (٨ / ٣٢٩).

(٦٦٤) صحيح البخارى - (١١ / ٣٣٩)

(٦٦٥) تفسير ابن كثير - (٨ / ٣٦٢).

(٦٦٦) تفسير ابن كثير - (٨ / ٣٣٦).

ومن ذلك أيضاً قوله -عز وجل-: فلا أقسم بمواقع النجوم (اسمع وانتبه) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم".

وقال عز شأنه: "تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً".

أي عظمة هذه التي تحتلها النجوم وأي مكانة تلك التي تتبوؤها ما أعظمها منزلة وأفضل بها من مكانة وأجدر بها، ولذلك كان الصواب والحق أن يهدينا ذلك الجندي على سيده العظيم الجليل وأن يأخذ بأيدينا إليه وقد استفاد العلماء منه ما هو كذلك فعلاً وهو علم التسيير وهو علم مفيد في أحوال دينية ودنيوية أيضاً وعلم التسيير المقصود به الاستدلال بالنجوم وسيرها على المصالح المباحة فالاستفادة من النجوم وعلومها وما أودعت من العلوم والمعارف على نوعين:

النوع الأول: علم التأثير.

والنوع الثاني: علم التسْيير.

أولا: علم التأثير: أي تأثير النجوم علي الحوادث الأرضية كأن يعتقد أن النجم فاعل في الأشياء ومؤثر في الكون ويخلق الأحداث ونحو ذلك. وهذا كفر بالإجماع لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، و"هل" هنا استفهام بمعني النفي، أي لا خالق إلا الله -سبحانه وتعالى-.

أو أن يُستدل بحركة النجوم طلوعًا وغروبًا واجتماعًا وافتراقًا على بعض الغيب.

كأن يقال: من ولد من نجم الجوزاء سيكون من السعداء، ومن تزوج من برج كذا سيكون كذا، فهذا شرك أكبر، لأنه ادعاء لعلم الغيب والله تعالي يقول:

﴿ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السموات وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥]، وهذا قد ادعى علم الغيب ومن قام به فهو كافر كفرا أكبر.

وهناك من يعتقد أن النجوم سبب في الأشياء ولكنه موقن أن الله هو الفاعل فهو يجعلها سببًا للحوادث فإذا وقع أمر ما نسبه للنجم، كأن يسلم الزرع مثلًا من الهلاك فينسب المزارع هذا الذي حدث إلى نجم الثريا على أنه سبب السلامة، وهذا أيضًا حرام بل هو شرك أصغر.

ثانيًا: علم التسيير، ومعناه الاستدلال بسير النجوم علي المصالح الدينية المباحة كالاستدلال بالنجوم على المصالح الدينية، كمعرفة اتجاه القبلة، ووقت دخول ثلث الليل الآخر، ودخول أوقات الصلاة. فهذا فرض كفاية، ويستحب، وهذا ليس محل نزاع. بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات. (٦٦٧)

وأيضًا مثل الاستدلال بالنجوم على المصالح الدينية والدنيوية، كالاستدلال على الجهات الأربع والفصول الأربعة، والفصول الزراعية، وفصول السنة ونحوها. فهذا لا بأس به إن اقتصر الأمر على ذلك مع صحة عقيدة وخلو الزمان عن الافتتان بالتنجيم وصحة إيمان الناس بالعزيز العليم سبحانه.

هذه هي منافع النجوم وفوائدها –أيها الإخوة– .. لكن نفراً من الناس قد أعمى الله أبصارهم وطمس على بصيرتهم فلم يروا هذه الفوائد والمنافع التي دل عليها كتاب ربنا وأرشدت إليها سنة نبينا ﷺ فراحوا يخترعون ويصدقون اختراعات بعضهم البعض فتعلموا التنجيم –وهو نوع من أنواع السحر– وفتنوا به الناس وللأسف تبعهم كثيرون على هذا الطريق، وليس أدل على هذا كما قدمنا في أول اللقاء من كثرة الأبواب والنوافذ واللقاءات والبرامج التي تهرف بما لا تعرف في هذا الباب بغير هدى عن الله ورسوله ﷺ وهذا هو عنصرنا الثاني: أنا وأنت والنجوم:

أيها الإخوة: أنت والنجوم، حظك اليوم، بنك الحظ، مع النجوم، حظك من نجمك، عالم الأبراج... كلمات كثيرة صارت في الآونة القريبة جدّاً من الماضي القريب وإلى اليوم تشغل أذهان القراء والمستمعين والمشاهدين نعم.. تطاردهم في الإعلام بكافة أشكاله وصوره المقروء والمسموع والمشاهد.

وخلاصة فكرة هؤلاء العارضين وهؤلاء المعروض عليهم أنهم يعتقدون في هذه النجوم والأبراج والفلكيات تأثيراً يؤثر على الأشياء، وأنها كذلك باب للاطلاع على شيء من مستقبل الإنسان وما يصير إليه، حتى صرنا نسمع والله سخفاً من القول لا يقبله عقل عاقل بل شين في عقل المجنون قبوله.

واسمعوا معي إلى بعض هذا السخف: مواليد نجم الجوزاء سيكونون من السعداء، لابد من الاتحاد في الأبراج بين كل من الزوجين حتى يضمنا كامل السعادة الزوجية، تقابلك اليوم مشكلة تتغلب عليها وتمضي بسلام، مشكلة عاطفية تخرج منها سريعًا...... إلى آخر هذا السخف والهراء الذي من اعتقد فيه أشرك مع الله تعالى ولذلك قال العلماء: يلزم الحذر من هذه المجلات لأنها تروج الشرك في بيوت المسلمين فيجب مقاطعتها والإنكار عليها والإنكار على المتعاطي لها.

بل من أعجب ما قرأت في ذلك ما كتبه العلامة الألباني في كتابه القيم التوسل قال: ومن أمثلة الوسائل الباطلة شرعاً وكوناً في آن واحد، ما يراه المار في شارع النصر في دمشق في كثير من الأحيان، إذ يجد بعض الناس قد وضعوا أمامهم مناضد صغيرة، وعليها حيوان صغير يشبه الفأر الكبير، وقد وضع بجانبه بطاقات مضمومة كتب فيها عبارات فيها

---

(٦٦٧) يراجع: القول السديد: ص ٨٣، ٨٤.

توقعات لحظوظ الناس، كتبها صاحب الحيوان، أو أملاها عليه بعض الناس كما شاء لهم جهلهم وهواهم، فيمر الصديقان الحميمان فيقول أحدهما للآخر: تعال لنرى حظنا ونصيبنا، فيدفعان للرجل بضعة قروش، فيدفع الحوين لسحب بطاقة ما، ويعطيها أحدهما فيقرؤها، ويطالع حظه المزعوم فيها!

ترى ما مبلغ عقل هذا الإنسان الذي يتخذ الحيوان دليلاً ليعلمه ما جهله، وليطلعه على ما غُيّب عنه من قدره؟

إنه إن كان يعتقد فعلاً أن هذا الحيوان يعلم الغيب فلا شك أن الحيوان خير منه، وإن كان لا يعتقد ذلك ففعله هذا عبث وسخف وإضاعة وقت ومال يتنزه عنه العقلاء. كما أن تعاطي هذا العمل تدجيل وتضليل وأكل لأموال الناس بالباطل. [(٦٦٨)]

ما مبلغ عقل هذا الإنسان؟ وقبل هذا ما عمق إيمانه؟ وهذا سؤال مفتوح لا أبغي الجواب عنه، بل ليجب كل منا في نفسه عن نفسه لو كان في حاله أو في مثل حاله، وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة.. إن النجوم خلق من خلق الله تعالى لا ينبغي أن يطلب منها ما هو حق خالص للخالق – سبحانه وتعالى–: فهل من خالق غير الله؟"هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون".

فلا يجوز الاستدلال بحركة النجوم طلوعاً وغروباً واجتماعاً وافتراقاً على ما هو من خصائص الله –عز وجل–، لا ينبغي أن نتكهن ونفتري على الله أننا نعلم شيئاً من الغيب لا عن طريق النجوم ولا غيرها والله –عز وجل– يقول عن نبيه ﷺ وهو أفضل الخلق: "قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)[الأعراف: ١٨٨].

ويقول عن سائر رسله عليهم الصلاة والسلام: "عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)[الجن: ٢٦ – ٢٨].

---

(٦٦٨) التوسل أنواعه وأحكامه (٩).

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "الله -عز وجل- يعلم الغيب والشهادة ولا يطلع أحد من خلقه أبداً على شيء من علمه إلا على ما أطلعه عليه هو -عز وجل-".

فهل يقول لنا هؤلاء المنجمون من أين يأتيهم الغيب وبأي واسطة يتعرفون على الحظ والسعادة والشقاوة والذي حدث ويحدث للإنسان؟ أجيبونا يا من تطالعون جرائدهم ومجلاتهم وتتشوقون وتتعلق قلوبكم بهذه السخافات؟ هل من مجيب؟ ألا من راد؟

أنا أجيب أحبتي، أجيب الذين يريدون معرفة ذلك أنهم يقتبسون ذلك من النجوم بطريق السحر نعم بطريق السحر الذي هو كفر كما أوضحنا في الجمعات السابقات عن السحر والسحرة وقد قال الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ فيما روى أبو داود بسند صحيح من حديث أبي موسى الأشعري أن الحبيب النبي ﷺ قال: "من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر". (٦٦٩)

وقال أيضاً ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه بسند حسن من حديث أبي موسى كذلك قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة لا يدخلون الجنة.. انتبه أيها الحبيب يا من تطالع هذه الجرائد لتعرف حظك وتطمئن على حالك ومستقبلك وتعلق قلبك بها.

ثلاثة لا يدخلون الجنة: "مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر". (٦٧٠)

وربما يقول بعض الأحبة الآن: الحمد لله أنا لا أطالعها مصدقاً بها إنما هو حب الاستطلاع والشوق إلى معرفة ما يقول هؤلاء فقط ولا أصدقهم فيما يقولون بل ربما أقرؤه وأنا أضحك وأهزأ منهم، مجرد حب استطلاع يعني.

إن ذلك حرام أيضاً فقد قال ﷺ فيما روى أبو داود عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ أَوْ أَتَى امْرَأَةً وفي لفظ: امْرَأَتَهُ حَائِضًا أَوْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِى دُبُرِهَا فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ». (٦٧١)

وعند الترمذي: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِى دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- ». (٦٧٢)

---

(٦٦٩) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وحسنه الألباني.

(٦٧٠) أخرجه أحمد المسند (١٣٤/٢) وسنن النسائي (٨٠/٨)، وابن حبان ٧ / ٣٦٦، وحسنه الألباني، انظر"الصحيحة": (٢٩٥/٢).

(٦٧١) أخرجه أبو داود ٣٩٠٤، وابن ماجة (٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيحيهما، وفي آداب الزفاف (٣١)، الإرواء (٢٠٠٦)، المشكاة (٥٥١)

وروى مسلم عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَىْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ».(٦٧٣)

هذا هو حكم الإسلام في المنجم ومن أتاه ولله در التاج الكندي إذ يقول:

دع المنجم يكبو في ضلالته * إن ادعى علم ما يجري به الفلك

تفرد الله بالعلم القديم فلا ال * إنسان يشركه فيه ولا الملك

أعد للرزق من إشراكه شركًا * وبئست العدتان: الشِّرك والشَرَك(٦٧٤)

فليحذر كل امرئ لنفسه وليحتط لدينه، واتقوا الله في أنفسكم يا أولي الألباب واعلموا أنه لا يعلم الغيب إلا الله وهذا هو عنصرنا الثالث والأخير بإيجاز.

أيها الإخوة..وقد اخترع بعض بني آدم طرقاً أخرى زعموا أنهم بها يتعرفون على شيء من الغيب، من هذه الطرق:

– ضرب الرمل والودع أو الطرق وهو الخط في الأرض ويسمى أيضاً علم الرمل حيث يقوم أصحابه بأشكال الرمل على أطوال المسألة حيث السؤال وهذه الأشكال تدل على أحكام مخصوصة يعرفونها تناسب أوضاع البروج والنجوم.

وهذا الأمر –أيها الإخوة– مبني على التعلق بالغيب الذي لا يمكن التحقق منه حيث يبني أصحابه أحكامهم على تأثيرات النجوم ودلالاتها المزعومة المدعاة وهذا نوع من التنجيم والسحر فيكون كفراً بالله تعالى.

– ومن هذه الطرق: حروف أبي جاد وهي حروف مرتبة ترتيباً معيناً يستدل بها أصحابها –زعموا– على المغيبات فيطلعون على سعود فلان ونحوس علان ومن هذه الطريقة أيضاً ما عند الشيعة هداهم الله أو هدهم مما يسمونه أسرار الحروف أو علم الجفر الذي ينسبونه إلى جعفر الصادق –رحمه الله– وهو وآله براء من الشيعة وأعمالهم إلى يوم القيامة.

– ومن هذه الطرق كذلك: قراءة الكف ويعتمد أصحابه على قراءة الخطوط الموجودة في الأكف والأقدام والجباه بحسب التقاطيع وخلافه، ومثله قراءة الفنجان وكل ذلك مما روج له إعلامنا المصون، لا حفظ الله الإعلام الذي من هذا النوع ولا أبقاه.

---

(٦٧٢) أخرجه الترمذي ١٣٥، وابن ماجة (٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيحيهما.

(٦٧٣) أخرجه مسلم ٥٩٥٧.

(٦٧٤) سير أعلام النبلاء – (٢٢ / ٤٠).

إلى غير هذه الطرق التي ما أنزل الله بها من آية في كتابه ولا عرفنا إياها رسوله ﷺ في سنته ولا أقرها أحد من الأئمة ولا يقبلها عقل عاقل فضلاً عن إنسان محترم فاضل.

بل ستعجبون إذا علمتم أن الأمريكان اخترعوا عرافًا سموه العراف الإليكتروني، وهو عبارة عن جهاز يعتمد على مجموعة من المعلومات عن الدورة النفسية والعصبية وغيرها، يجري عليها حسابات خاصة، ثم يخرج النتيجة التي هي عبارة عن توجيه لصاحب هذه المعلومات وفيها افعل ولا تفعل!! فوا أسفاه على العقل يوم يكون بعيدًا عن دين الله تعالى.

هذا كله حرام، بل قرر العلماء والفقهاء أن علم التنجيم وما يلحق به كالخط على الرمل ومعرفة الطالع وقراءة الفنجان والكف وما أشبه ذلك كلها كلها من أعمال الجاهلين ومن طرق الشرك التي حرمها الإسلام وجاء بإبطالها والتحذير منها ومن إتيان من يتعاطاها وسؤاله عنها أو تصديقه فيما يخبر به من ذلك لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله به وصدق ربي إذ يقول: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)[البقرة: ٢٥٥، ٢٥٦].

فاتقوا الله يا أولي الألباب اتقوا الله يا ذوي العقول السليمة، ويا أصحاب الفكر السام احجبوا عنا فكركم ويا قراءنا السعداء أنكروا هذا بقلوبكم وأقوالكم وأحوالكم يسد عنكم ويغلق بابه دونكم.

أقول قولي هذا وأدعو الله أن يحفظ علينا ديننا وأن يحفظ بالدين حياتنا وأن يجعلنا من حفظة دينه... الدعاء.

الله خالق كل شيء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة!

إن من توحيد الله -تبارك وتعالى- الواجب على كل مسلم ومسلمة الاعتراف لله بتفرده بجلب النعم ودفع النقم وإضافتها إليه وحده سبحانه معبرين عن ذلك بأقوالنا وأفعالنا وجميع أحوالنا.

نعم.. فنعترف ابتداءً بنعمه -عز وجل- علينا، ثم نستعين بها على طاعته وعبادته، فلا يتم توحيد العبد إلا إذا اعترف لله -عز وجل- بنعمه عليه ظاهرة وباطنة واستعان بتلك النعم على عبادته وشكره، وعلى قدر إحساس العبد بهذه النعم تكون معرفته بقدر ربه -عز وجل- وعظمته ومعرفته به ومحبته، ولعل هذا هو السر الذي لأجله يذكرنا القرآن الكريم على

الدوام بهذه الحقيقة ولنتأمل بعض الآيات في القرآن الكريم بخصوص هذا المعنى. فمن ذلك قوله جل شأنه: "الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار"فتأمل كم مرة تكررت هذه الكلمة: "لكم" وضمير المخاطبين "كم" وكان في ذكرها مرة واحدة غناء عن إعادتها لو كانت لمجرد التعريف بأن ذلك من أجلنا فحسب ولكن من تأمل وتدبر أحس وراء ذلك التكرار معنى آخر وهو إرادة الهيمنة على ذلك القلب أن يسكنه صاحب تلك النعم وفقط وأن يشغل الإنسان بهذا المعنى دائمًا وأن يمعن التأمل والتدبر فيه، وفي بعض الآثار: "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه". [٦٧٥]

لكن -أيها الإخوة- وكما وضحت الآيات السابقة: "إن الإنسان لظلوم كفار" فكثير من خلق الله تعالى يأكل خيره ويشكر غيره، رزق الله -عز وجل- إليه نازل وشره وسيئاته وعمله القبيح إلى الله صاعد، يتحبب الله تعالى إلى هذا الصنف بالنعم وهو تعالى الغني عنهم ويتبغضون هم إليه بالمعاصي وهم أحوج شيء لديه، فيا له من إله عظيم كبير غفور رحيم حليم، ما أحلمه سبحانه وما أصبره أن يكون كل ما في الكون من خيره وينسب إلى غيره، ولا يزال ينعم عليهم لم يقطع أفضاله عنهم، وعلى ذلك أمثلة عديدة.

أيها الإخوة.. ومن أظهر هذه النعم التي ينعم الله بها على عباده وبها يكفرون هذا الرزق الذي يأتي الله به كسبب للحياة بأسرها. نعم.. المطر الذي سماه الله -عز وجل- رزقاً، فقال تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم حم (١)تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)إِنَّ فِي السموات وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣)وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)[الجاثية/١-٧]

قال الحافظ ابن كثير: يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران هذا بظلاله وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه وسماه رزقاً، لأن به يحصل الرزق قال تعالى: "فأحيا به الأرض بعد موتها "أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء. [٦٧٦]

فسبحان ربي! نعم تحيا الأرض كلها كما قال -عز وجل-: "وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج"إنها تحيا بعد موات! وقد جاءت هذه الآية في موقع عجيب من الكتاب المجيد فهي تحتل ختام

(٦٧٥) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩)، وضعفه الألباني في تخريج فقه السيرة (٢٣)، ضعيف الجامع الصغير (١٧٦).

(٦٧٦) تفسير ابن كثير - (٧ / ٢٦٤).

آية ترتيب الخلق يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) [الحج: ٥]

أرأيت حبيبي إلى رجل وامرأة لم يرزقا الولد كيف تكون حياتهما؟ وكيف يكون شوقهما إلى الولد؟ وكيف ترى ذبول الزوج والزوجة وبؤسهما؟ ثم كيف ترى لو أن الله أذن لهذه الأسرة المحرومة بالسرور؟ ما الذي يحدث؟ لو أن الله أنعم عليها بنعمة الولد؟ كيف لو أعطياه؟ أما ترى إلى سعادتهما؟ أما ترى إلى سرورهما؟ ألم تر إلى ابتهاجهما وإقبالهما على الحياة واستعادة آمالهما فيها وأحلامهما كيف تتجدد؟ كذلك حبيبي الأرض إذا احتاجت إلى الماء في عطشها، ثم إذا نزل المطر تحيا الأرض وتسقى البلاد والعباد وتطيب الأحوال جميعها، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

عن أنس -رضي الله عنه- قال: (أصاب الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر قائمًا في يوم الجمعة قام وفي رواية: دخل أعرابي من أهل البدو من باب كان وجاه المنبر نحو دار القضاء ورسول الله قائم فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع وفي رواية: هلك العيال ومن طريق أخرى: هلك الكراع وهلك الشاء وفي أخرى: هلكت المواشي وانقطعت السبل فادع الله لنا أن يسقينا وفي أخرى: يغيثنا فرفع يديه يدعو حتى رأيت بياض إبطه: اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا ورفع الناس أيديهم معه يدعون ولم يذكر أنه حول رداءه ولا استقبل القبلة ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار وفي رواية: قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة فرفع رسول الله يديه ثم قال: اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس. فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم وفي رواية: فهاجت ريح أنشأت سحابا ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عزاليها ونزل عن المنبر فصلى فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا وفي رواية: حتى ما كاد الرجل يصل إلى منزله فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى ما تقلع حتى سالت مثاعب المدينة وفي رواية: فلا والله ما رأينا الشمس ستًّا وقام ذلك الأعرابي أو غيره وفي رواية: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله تهدم البناء وفي رواية: تهدمت البيوت. وتقطعت السبل وهلكت المواشي وفي طريق: بَشِق المسافر. ومنع الطريق وغرق المال فادع الله يحبسه لنا فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم فرفع يديه فقال: اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على رؤوس الجبال والآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت مثل الجَوْبة وفي رواية: فنظرت إلى السحاب تصدع حول المدينة يمينًا وشمالًا كأنه إكليل وفي أخرى:

فانجابت عن المدينة انجياب الثوب يمطر ما حوالينا ولا يمطر فيها شيء وفي طريق: قطرة وخرجنا نمشي في الشمس يريهم الله كرامة نبيه صلى الله عليه وسلم وإجابة دعوته. وسال الوادي وادي قناة شهرًا ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود(٦٧٧)

فيا الله،كم من نعمة لك علينا لا نعرفها، وكم نعرف من نعمك ما لا نشكره، وكم نشكر له شكراً هو دون ما يجب علينا لك.

يا كريم كم من نعمة أنعمت بها علينا قل لك عندها شكرنا، وكم من بلية ابتليتنا بها قل لك عندها صبرنا، فيا من قل عند نعمائه شكرنا فلم يحرمنا اجعلنا لنعمتك من الشاكرين ويا من قل عند بلائه صبرنا فلم يطردنا اجعلنا عند بلائك من الصابرين، إنك أكرم مسئول يا أكرم من سئل يا جواد.

أيها الإخوة!أما ساءلنا أنفسنا ماذا يكون فعلنا لو قطع الله عنا المطر؟ ما ستكون حيلتنا؟ لو عاملنا الله بعدله وعلى قدر ما نستحق أعطانا ترانا نستحق قطرة أترانا؟ فيا ربنا لك الحمد على نعمائك ولك الشكر على آلائك وأفضالك حمداً يوافي نعمك وشكرًا يكافئ مزيدك، أقول: مع ذلك –أيها الإخوة– قد ترى من العباد من يجعل هذه النعمة العظيمة جدّاً من فعل غير الله نعم والله وهذا ليس من عندي ولا من عند أبي بل هو قول الصادق الذي لا ينطق عن الهوى بأبي هو وأمي ﷺ. ففي الصحيحين عن زيد بن خالد ﷺ قال: "صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية. على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب ». (٦٧٨)

يا الله تصور معي الموقف جيداً أيها الحبيب اللبيب، حتى تكون على دراية كاملة بالحديث فحتى تعيه لابد أن تعيش الحدث الذي وقع فيه، فها هو النبي ﷺ خرج قاصداً البيت معتمراً فتمنعه قريش من دخول مكة فيعسكر النبي بصحبه الأبرار عند الحديبية ويطول الانتظار فى مراسلات ومباحثات بين الفريقين وليس مع أصحاب النبي ﷺ ماء وليسوا نازلين على ماء وعددهم كثير فنفد الماء الذي معهم وكاد الناس يموتون عطشاً.

ثم منّ ربك –عز وجل– فبات أصحاب النبي ﷺ وقد مطروا في ليلة من الليالي فلما أصبحوا صلى بهم النبي ﷺ صلاة الصبح فلما سلم من صلاته أقبل عليهم بوجهه كما هي السنة فوعظهم ﷺ وهو سيد الوعاظ فقال مستخدماً أسلوباً

---

(٦٧٧) أخرجه البخاري في مواضع هذا مجموعها هنا، وانظر مختصر الألباني للبخاري (١ / ٢٢٤ – ٢٢٦ رقم ٤٩٧).

(٦٧٨) أخرجه مسلم ٢٤٠.

تعليميّاً تربويّاً فذّاً وهو التعليم عن طريق السؤال والجواب لما يكون فيه من الاستثارة والتشويق والتحفيز للمستمع وكذلك من تثبيت المعلومة في الذهن. قال ﷺ: "أتدرون ماذا قال ربكم؟"

واسمحوا لي –أيها الإخوة– بهذه الاستطرادة القصيرة أقول: إن الصحابة لم يسألوا النبي ﷺ قائلين وهل يتكلم ربنا؟مع أنه سؤال بدهي يخطر على أذهاننا الآن، نعم لم يسأل الصحابة رضوان الله عليهم ذلك السؤال لأن الجواب كالسؤال أيضًا بدهي فهم يقرءون في القرآن ليل نهار: وكلم الله موسى تكليماً و"لما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه" و"حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير". كان أصحاب النبي ﷺ يتلقون عقيدتهم من القرآن الذي يتلونه ليل نهار وحديث النبي الذي يجلو الآذان والأبصار، لأن العلاقة التي كانت تربطهم بذلك كله هي علاقة الاتعاظ والاعتبار علاقة التفكر والتدبر لا مجرد التنغيم والطرب كما صار حالنا مع القرآن ولا الاهتزاز والترنح كحال بعضنا إذا ذكر النبي ﷺ.

ففي قوله "قال ربكم" إثبات أن الله تكلم، فصفة الكلام ثابتة لله فهو سبحانه يتكلم متى شاء وإذا شاء –سبحانه وتعالى–.. كيف؟ كيف يتكلم ربنا –أيها الإخوة–؟ إن السؤال بكيف سؤال خاطئ، لأن الكيفية لا يعلمها إلا الله والخلاصة نحن مع صفات الله نعلم المعنى وأما الكيف فنكله ونفوضه إلى الله –عز وجل– ثم قال ﷺ أتدرون ماذا قال ربكم قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» وهكذا جعل النبي ﷺ. الناس فريقين تجاه هذه النعمة فريق يعلم أنها من عند الله وينسبها إلى الله ويشكر الله تعالى عليها فهؤلاء هم المؤمنون وفريق آخر ينكرها كنعمة لله وينسبها إلى الأنواء وهى الكواكب والنجوم هؤلاء هم المشركون الكافرون إن المطر رزق من الله لا ينزل إلا بقدرة وفضل الله وفي الحديث الجليل الجميل الذي أخرجه مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِى سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِى حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِى حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ. لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِى السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِى عَنِ اسْمِى فَقَالَ إِنِّى سَمِعْتُ صَوْتًا فِى السَّحَابِ الَّذِى هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لاِسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّى أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِى ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ ».[٦٧٩] فنزول المطر إنما هو بقدرة الله –سبحانه وتعالى– وقدره هو الذي ينزله أو يمنعه، متى شاء، وأين شاء، ويصرفه إلى من شاء، ويصرفه عمن يشاء، قد تطلع الأنواء ولا يحصل مطر بل وتظهر الأسباب كلها ولا ينزل مطر وقد يحصل المطر بأمره في غير طلوع الأنواء أو أى من الأسباب فالمطر يحصل في أي وقت شاءه الله –سبحانه وتعالى–، وهنا –أيها الإخوة– شيء مشاهد وهو أن المطر ينزل في جميع الأحيان ولا يتقيد بظهور النجم الفلاني أو العلاني.

(٦٧٩) أخرجه مسلم ٧٦٦٤.

ولهذا فالمؤمن له حال خاص مع المطر قبل نزوله وأثناءه وبعده وإذا أراده وإذا استغنى عنه كل ذلك يعرفه من سنة نبيه ومصطفاه ﷺ فمن هديه ﷺ إذا قحط المطر أن يخرج ليصلي صلاة الاستسقاء نعم عندنا صلاة نصليها إذا قحط المطر لينزل الله –عز وجل– لنا بها المطر نتوسل إلى الله خلالها ونضرع إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ونتذلل ونتخشع و نتوب عن الذنوب كلها ونقلع ونطلب منه السقيا والغيث، فيا ترى كيف كان هدي النبي ﷺ في هذه الصلاة؟

قال ابن القيم ما مختصره: "ثبت عنه ﷺ أنه استسقى على وجوه.

أحدهما: يوم الجمعة على المنبر في أثناء الخطبة.

الثاني: أنه وعد الناس يوما يخرجون فيه إلى المصلى، فخرج لما طلعت الشمس متواضعا متبذلا متخشعا متوسلا متضرعا، فلما وافى المصلى صعد المنبر – إن صح ففي القلب منه شيء – فحمد الله وأثنى عليه، وكبره، وكان مما حفظ من خطبته ودعائه: « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت تفعل ما تريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلته علينا قوة لنا، وبلاغا إلى حين ثم رفع يديه وأخذ في التضرع والابتهال والدعاء »، وبالغ في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، واستقبل القبلة، وحول إذ ذاك رداءه، وهو مستقبل القبلة، فجعل الأيمن على الأيسر وعكسه، وكان الرداء خميصة سوداء، وأخذ في الدعاء مستقبل القبلة، والناس كذلك، ثم نزل فصلى بهم ركعتين كالعيد من غير نداء، قرأ في الأولى بعد الفاتحة بـ (سبح) وفي الثانية بـ (الغاشية).

الثالث: أنه استسقى على منبر المدينة في غير الجمعة، ولم يحفظ عنه فيه صلاة.

الرابع: أنه استسقى وهو جالس في المسجد رفع يديه، ودعا الله –عز وجل–.

الخامس: أنه استسقى عند أحجار الزيت قريبا من الزوراء وهو خارج باب المسجد الذي يدعى اليوم: "باب السلام" نحو قذفة حجر، ينعطف عن يمين الخارج من المسجد.

السادس: "أنه استسقى في بعض غزواته لما سبقه المشركون إلى الماء، فأصاب المسلمين العطش، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال بعض المنافقين: لو كان نبيا لاستسقى لقومه، كما استسقى موسى لقومه. فبلغه ذلك، فقال: أو قد قالوها؟ عسى ربكم أن يسقيكم ثم بسط يديه فدعا، فما رد يديه حتى أظلهم السحاب، وأمطروا وأغيث صلى الله عليه وسلم في كل مرة ».

« واستسقى مرة، فقام أبو لبابة، فقال: يا رسول الله إن التمر في المرابد. فقال: اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانا، فيسد ثعلب مربده بإزاره فأمطرت فاجتمعوا إلى أبي لبابة. فقالوا: إنها لن تقلع حتى تقوم عريانا، فتسد ثعلب مربدك بإزارك. ففعل، فأقلعت السماء »، ولما كثر المطر سألوه الاستصحاء، فاستصحا لهم، وقال: "اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الظراب، والآكام والجبال، وبطون الأودية، ومنابت

الشجر" وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى المطر قال: « صيبا نافعا » وحسر ثوبه حتى يصيبه من المطر، فسئل عن ذلك، فقال: « لأنه حديث عهد بربه »

قال الشافعي أخبرني من لا أتهم، عن يزيد بن عبد الهادي، « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سال السيل، قال: اخرجوا بنا إلى هذا الذي جعله الله طهورا، فنتطهر منه، ونحمد الله عليه» وأخبرنا من لا أتهم، عن إسحاق بن عبد الله، أن عمر كان إذا سال السيل ذهب بأصحابه إليه، وقال: ما كان ليجيء من مجيئه أحد، إلا تمسحنا به. وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الغيم والريح، عرف ذلك في وجهه، فأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه، وكان يخشى أن يكون فيه العذاب".[(٦٨٠)]

فالمؤمن يدعو الله تعالى ويتوسل إليه ويطلب السقيا منه ليقينه أنها بيده لا بيد غيره سبحانه، وأما أثناء المطر فكان من هديه ﷺ أن يدعو الله تعالى أن يكون هذا المطر نافعاً للعباد والبلاد وأن يكون سقيا رحمة فكان يقول: اللهم صيباً نافعاً يعني مطراً نافعاً مفيداً وكان يفرح إذا نزل ويقول: رحمة، كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ناشئاً في أفق السماء ترك العمل فإن كشف حمد الله، فإن أمطرت قال: "اللهم صيباً نافعاً". [(٦٨١)]

وروى مسلم من حديث عائشة قالت: "كان ﷺ إذا كان يوم ريح عرف ذلك في وجهه ويقول إذا رأى المطر: رحمة". [(٦٨٢)]

بل كان النبي ﷺ يعبر عن فرحه ذلك بنوع من التعبير لطيف رقيق يدل على كمال يقين النبي ﷺ بمنزل المطر –سبحانه وتعالى–:

فقد روى مسلم من حديث أنس قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه– أي كشفه– حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: لأنه حديث عهد بربه تعالى"[(٦٨٣)] فيا الله وهذه الشفافية، هذه الرقة،هذا اليقين والثقة التامين من رسول الله ﷺ في آيات ربه وأين العباد منها؟.

أيها الإخوة! قرأت في بعض الكتب عن محاولة قام بها بعض العلماء – في بعض الدول– أراد أن يهيئ أسباب نزول المطر ويوجد مسبباته وأنفق في ذلك جهداً كبيراً جدًّاً زاد على شهور وأنفق عليه ألوفاً كان يرجو أن ينزل مطراً صناعيّاً بتهيئة الجو والعوامل صناعيّاً ويوم ظن أنه نجح وترقب نتيجة عمله ذاك إذا ألوفه التي أنفق وجهده الذي أفنى ووقته الذي صرف يأتي ترى بأي نتيجة؟ لقد أتى ولكن "بدلو واحد من ماء يشبه الزفت أو القطران" كان هو نتيجة تفاعل المواد التي عمل على استخدامها، فكم نحتاج نحن أن ننفق على ألوف الألوف من الأمتار المكعبة في نهر النيل أو الفرات أو

(٦٨٠) مختصر زاد المعاد – (ص / ٦٥) الإمام محمد بن عبد الوهاب.

(٦٨١) أخرجه مسلم ٢١٢٠.

(٦٨٢) أخرجه مسلم ٢١٢١.

(٦٨٣) أخرجه مسلم ٢١٢٠.

غيرهما؟ ترى كم يدفع أهل الأرض في ذلك؟ فلا ريب أن يخرج النبي ﷺ يتعرض للمطر مستذكرًا نعمة الله الكبرى فيه مبادرًا إلى الاعتراف بها وشكرانها ثم يقول: "إنه مطر حديث عهد بربه".

ومن طريف ما اطلعت عليه شيئ قريب من هذا وقع لنبي الله أيوب عليه السلام لكن كان المطر شيئاً آخر غير الماء لقد كان مطراً من ذهب، نعم مطر من ذهب والحديث أخرجه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِى فِى ثَوْبِهِ، فَنَادَى رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لاَ غِنَى لِى عَنْ بَرَكَتِكَ ». (٦٨٤)

نعم لا غنى بي عن بركتك نسأل الله أن لا يجعل بنا غنى عنه أبداً، وأن يغنينا بفضله عمن سواه أبدا وأن لا يحرمنا بركاته أبدًا.

هذا هو هدي النبي أثناء نزول المطر، أما إذا نزل المطر فقد كان النبي ﷺ كما في الحديث الذي قدمنا يرشد المؤمنين إلى أن يقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته.

أما إذا كثر المطر وفاض الماء وخشي منه على الزرع والبناء فقد كان النبي يدعو فيقول: "اللهم حوالينا لا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر". (٦٨٥)

ومن هديه صلى الله عليه وسلم طلب الإجابة عند نزول الغيث والمطر، ونتعرف إلى ذلك بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

ومن هديه صلى الله عليه وسلم طلب الإجابة عند نزول الغيث قال ابن القيم:

---

(٦٨٤) أخرجه البخاري برقم (٢٧٨).

(٦٨٥) سبق.

قال الشافعي: وأخبرني من لا أتهم عن عبد العزيز بن عمر عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اطلبوا استجابة الدعاء عند التقاء الجيوش وإقامة الصلاة ونزول الغيث، وقد حفظت عن غير واحد طلب الإجابة عند: نزول الغيث وإقامة الصلاة.

وقال البيهقي: وقد روينا في حديث موصول عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء لا يرد عند النداء، وعند البأس، وتحت المطر.

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن: عند التقاء الصفوف، وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلاة وعند رؤية الكعبة"(٦٨٦)

أحبتي في الله! هذه حال المؤمن مع المطر اعتراف وشكران وامتنان وطاعة وإذعان للواحد الديان، وهكذا علمنا الله ورسوله ما يكون عوضاً لنا عن التكذيب بآلائه والكفر بنعمائه من العرفان والشكران لها نعم فمن نسب شيئاً من نعمه –عز وجل– إلى غيره فقد كفرها وكذب على الله فيها، ومن أظلم ممن كذب على الله أو كفر بآلائه.

قال تعالى: "ومن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين"، فالذي ينسب نعمة من نعم الله كهذا المطر إلى مخلوق من مخلوقات الله فقد كذب على الله أعظم الكذب، بدل أن يشكر الله فهو يكذب عليه وينسب نعمه إلى غيره وهو جحود للنعمة وكفران بها كذلك ولهذا قال ربنا –عز وجل– في شأن من ينسبون نزول المطر إلى المواقف والنجوم والأنواء.

قال تعالى: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١)وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)[الواقعة/٧٥-٨٢].

يعلن الله –عز وجل– بهذا أن النجوم ومواقعها مخلوقة لله سبحانه ثم يقرع المشركين قائلاً: "أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون"أي: تكذبون بهذا الحديث ولا تصدقونه وهو أن الله خالق كل شيء ورب العالمين ومالكهم، وتجعلون رزقكم أي المطر الذي رزقكم الله إياه مستحقاً عليه الشكر فتجعلون التكذيب مكان الشكر بدلاً من أن تشكروه تكفروه وتقولون: مطرنا بالأنواء والنجوم ولهذا قال الحسن –رحمه الله–: "خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب"أو كان يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب.(٦٨٧)

---

(٦٨٦) زاد المعاد (١ / ٤٤٤)، بتصرف.

(٦٨٧) تفسير ابن كثير – (٧ / ٥٤٧).

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن بعضهم لما نزل المطر قال: لقد صدق نوء كذا وكذا فأنزل الله تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١)وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)[الواقعة/٧٥-٨٢]. [٦٨٨]

فسماهم الله مكذبين بآلائه ولذا صح عن النبي ﷺ فيما روى مسلم من حديث أبي مالك الأشعري -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب». [٦٨٩]

فما حكم الاستسقاء بالنجوم؟

انتبه – أيها الحبيب – يختلف حكم من استسقى بالنجوم باختلاف حال الشخص، من حيث الاعتقاد وعدمه فمن اعتقد أن النوء هو الموجد للمطر والمنزل للمطرأودعا النوء واستغاث به لإنزال المطر فقد أشرك لأن الله قال: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [فاطر:٣].

وقال عز من قائل: ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

وكذا إن ادعى أن المطر سينزل فى وقت كذا كما يفعله المنجمون لأن النجم المعين سينزل فى موقع كذا ودور كذا، لأن فيه تكهنا بالغيب ولا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله.

وأما من نسب نزول المطر إلى الأنواء والكواكب كسبب مع اعتقاده أنها لاتنزل إلاباذن الله فهو حرام أيضًا، لأنه جعل ما ليس سببًا فى الشرع ولا فى العادة سببًا ومثل هذا حرام.

وأما من أشار إلى أن وقت نزول المطر هو وقت النجم الفلانى مع اعتقاده أن النجم ليس بفاعل ولا سببًا بل كله بأمر الله فهذا جائز إن شاء الله ولا شيء فيه.

فلننتبه يرحمكم الله حتى لا نقع في شرك بالله ونحن لا ندري، فربما يقول المرء كلمة يهوى بها في جهنم سبعين خريفاً وهو لا يدري أنها تبلغ ما بلغت ولا يلقي لها بالاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم-" إِنَّ الرَّجُلَ

---

(٦٨٨) أخرجه مسلم (٧٣).

(٦٨٩) صحيح مسلم برقم (٩٣٤).

لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لاَ يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِى بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِى النَّارِ ».[٦٩٠]ولهذا فلنراعِ الكلمات التي نقولها والألفاظ التي ننطق بها ولنحذر أن تزل ألسنتنا بما فيه شرك بربنا ولنضرب لذلك مثالاً ذكره العلماء لأقوال واعتقادات خاطئة تتعلق بما نحن بصدده.. مثل قول الناس: "جئت وجاء على وجهك الخير"، و"بركات قدومك" ونحوها.

فمثل هذه الألفاظ يجب أن تجتنب ولا يجوز قولها ويجب إنكارها من باب حماية جناب التوحيد، لأن النبي ﷺ ما كان يتساهل فيما يتعلق بحماية حمى التوحيد.

هذا وأسأل الله -عز وجل- بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يحفظنا وأن يحفظ علينا التوحيد وأن يحفظنا من الشرك، فوالله لولا الله ما سقينا ولا تنعّمنا بما أوتينا"أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فولا تشكرون".

اللهم لك الشكر على آلائك التي لا تعد ولا تحصى، اللهم لو شئت لجعلت ماءنا أجاجاً، ولكن رحمتك أدركتنا فجعلته عذباً زلالاً، فلك الشكر لا نحصي ثناءً عليك، فما بنا من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك،"ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور".

اللهم فارزقنا الخشية منك. اللهم اجعلنا من العلماء أهل الخشية منك. فمنك ماؤنا، ومنك طعامنا، فلك الشكر ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت"أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُ ُز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون"....فغفرانك ربنا لما قصرنا وغفرانك ربنا لما قدمنا وأخرنا وغفرانك ربنا لما أسأنا وغفرانك ربنا من رؤية العمل، الدعاء.

---

(٦٩٠) أخرجه الترمذي ٢٣١٤، وابن ماجة (٣٩٧٠) وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٦١٨.

حياة القلوب في محبة علام الغيوب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فيا أيها الإخوة.

لا يستكمل العبد الإيمان حتى يحب الله ورسوله أكثر مما سواهما، ولا يجد حلاوة الإيمان ولذته إلا أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولا يستمتع بهذا الدين ويجد ثماره إلا أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،وهذه المحبة هي جنة الدنيا التي من حرمها حرم الخير في الدنيا بل وربما حرم جنة الآخرة قال الحسن: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة".

نعم.. في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة هي جنة الحب وأوله حب الله ورسوله، وفي الدنيا نعيم من لم يذقه فلن يذوق نعيم الآخرة هو نعيم القرب من الله تعالى، وفي الدنيا حلاوة من لم يجدها فلن يجد حلاوة الآخرة، هي حلاوة طاعة الله ورسوله، ولا يستقيم ذلك كله للعبد إلا بعد أن تستقيم له المحبة، فالمحبة أصل كل عمل إن صحت المحبة هان العمل يسيره وعسيره، فتعالوا بنا –أيها الإخوة– نعيش هذه اللحظات في هذه الحديقة الغناء والبستان الرائع الماتع بستان المحبة وكما تعودنا فسوف نقسم الحديث حفظاً للكلام وتقديراً للوقت والمقام إلى العناصر التالية:

أولاً: ما هي المحبة؟

ثانياً: فهيا نؤصل المحبة في القلوب لتؤتي ثمارها الشهية.

ثالثاً وأخيراً:جولة في بستان المحبين ونزهة المشتاقين.

فأعيروني القلوب والأسماع– أيها الإخوة– والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعلنا ممن أوتي بصيرة فصار له سراج يضيء له الظلمات، حتى نصل إلى الأمن والأمان في الدنيا والآخرة محفوظين بعين الله التي لا تنام،مكلوئين بكلئه الذي لا يرام ولا يضام.

أولاً: ما هي المحبة؟

أيها الإخوة الكرام!

سأل سفيان الثوري رجلاً يوماً كيف حبك لأبي بكر -رضي الله عنه-؟ فقال: شديد. قال سفيان: فكيف حبك لعمر.؟ قال: شديد. قال: فكيف حبك لعثمان؟ قال: شديد. قال: فكيف حبك لعلي؟ فقال الرجل: شديد – وأطال فيها – فقال سفيان: هذه الشديدة الأخيرة تحتاج إلى ضربة على رأسك لتعتدل.

قال العلماء: إن المحاب ترتيبها توقيفي لا ينبغي أن يعطى أحد منها فوق من هو أفضل منه فينبغي أن يحب المرء الصحابة أكثر مما يحب غيرهم ويحب الخلفاء الراشدين منهم أكثر مما يحبهم، ويحب أبا بكر أكثر من عمر، وعمر أكثر من عثمان، وعثمان أكثر من علي، وهكذا على حسب درجاتهم ومراتبهم ينبغي أن يترتب في القلب حبهم.

فينبغى أن يترأس حبهم فى القلب على حب كل بشر سواهم أيًا كان هذا البشر، خلا الأنبياء، وأعلى من هذا وأغلى حب الرسول ﷺ، وأعلى وأغلى منه وأفضل وأكبر وأكثر حب الله تعالى فهو الحب الأول وكل شيء يحب لله إلا حب الله فهو يحب لذاته.

ولذلك كانت محبة الله هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمَها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب فيالها من نعمة على المحبين سابغة، تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل... تمشي رويدا وتجي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو

والرواح تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم وشكروا مولاهم على ما أعطاهم وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

وقل لمنادي حبهم ورضاهم... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

وخذ منهم زادًا إليهم وسر على... طريق الهدى والفقر تصبح واصلا

وأحي بذكراهم سراك إذا ونت... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا

وإما تخافن الكلال فقل لها... أمامك ورد الوصل فابغ المناهلا

وخذ قبسًا من نورهم ثم سر به... فنورهم يهديك ليس المشاعلا

وحي على جنات عدن بقربهم... منازلك الأولى بها كنت نازلا

ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا... وقفت على الأطلال تبكي المنازلا

فدعها رسوما دارسات فما بها... مقيل فجاوزها فليست منازلا

رسوم عفت يفنى بها الخلق كم بها... قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا

وخذ يمنة عنها على المنهج الذي... عليه سرى وفد المحبة آهلا

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة... فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي... ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أيها الكرام! إذًا فما هو الحب؟ وما هي المحبة؟

الحب هو الحب والمحبة هي المحبة وقد قيل: من المعاني ما هو كالورد يشم ولا يلمس، ويتنسم ولا يتحسس لأنه يستروح به ولا يجدي أن "يفعص".

يقول العلامة ابن القيم: لا تحد المحبة بحد أوضح منها فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

وإن كان ولابد فالمحبة هي وصف قائم بالقلب يؤدي إلى السرور وغيره من المقتضيات كالطاعة واللذة ونحوها".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأصل المحبة قوة في القلب تحرك إرادة الإنسان لتحصيل المحبوبات أصلاً، ودفع المكروهات تبعاً، فتميل النفس إلى الشيء إذا كان محبوباً وتنفر عنه إن كان مكروهاً.

وقــــف الهــــوى بي حيـــــث أنـــــت	فلـــــيس لي متــــأخر عنــــه ولا متقـــــدم
أجــــد الملامــــة في هــــواك لذيــــذة	حبــــا لــــذكرك فليلمــــــني اللـــــوم
أشــــبهت أعـــــدائي فصــــرت أحــــبهم	إذ كــــان حظـــى منـــك حظـــى مـــنهم
وأهنتـــــني فأهنـــــت نفســــي صـــــاغراً	مـــا مـــن يهـــون عليـــك ممـــن يكـــرم

وكما قال بعضهم:

ولــــئن ســــــاءني أن نلتــــني بمضـــــرة	فلقد سرني أني خطرت ببالك

هذا كلام يقوله أهل الدنيا في محبة بعضهم بعضاً فما البال إن كان المحبوب الذي هو بكل جميل كفيل وهو الحسب ونعم الوكيل، فما من نعمة إلا هو منعمها، وما من منة إلا هو صاحبها، وما يعرف يد لها جميل إلا هو سائقها وموجهها، عز شأنه وعظم سلطانه وتعظمت آلاؤه وتقدست أسماؤه فهو سبحانه أولى بالحب من كل أحد.

ولذلك –أيها الإخوة– الكرام.. كان لابد وأن نجعل محبة الله في القلب في أعلى وأوسع وأرسخ مكان وأن تأتي المحاب كلها في القلب بعد ذلك، هذا من أصل التوحيد ولبه وإلا كانت شركاً، وبهذا نعلم أن المحبة نوعان أي بالنسبة إلى الله تعالى محبة واجبة ومحبة محرمة.. فالمحبة الواجبة هي محبة الله تعالى أكبر من محبة غيره.. والمحبة المحرمة هي محبة غير الله أعظم من محبته أو مثل محبته فمن المحبة المحرمة أن تدفعك محبة شخص إلى طاعته في الكفر فهذا حرام لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، أو تدفعك محبته إلى عبادته كذات الإله والسجود له والاستغاثة به، ولا شك أن هذا شرك أكبر.

ومن المحبة المحرمة محبة الكفار لدينهم أو محبة دينهم، وهذا كفر، والأدلة على هذا فى القرآن والسنة كثيرة جدًا كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ

لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]، وكما قال النبي ﷺ: "المرء مع من أحب»[٦٩١]، فلا شك ان من أحب الكفار لدينهم وكفرهم كفر.

فهذه أمثلة للمحاب المحرمة وكل محبه جائزة دفعتك إلى فعل محرم أو ترك واجب فهى محرمة،إذا محبة الله واجبة وهذه المحاب التى ذكرناها محرمة، وهناك نوع ثالث وهى المحاب الجائزة فمنها: محبة المال والزوجة، وقد قالﷺ: "حبب إلي من دنياكم النساء والطيب»[٦٩٢].

ومنها محبة الولد لوالده، ومحبة الطالب لأستاذه وشيخه، ومنها محبة الوالد لولده ومحبة المسكين والمريض، ومنها المحبة التى تكون للألف والأنس أي للمؤالفة والمؤانسة كمحبة المشركين في صنعة، ومحبة الذين من بلد واحد في الغربة.

وهذه المحاب جائزة في الأصل لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ....﴾[التوبة:٢٤] الآية.[٦٩٣]

فالشرط أن لا تكون مثل محبة الله ولا أكثر، والأصل فى هذا كله أن نفهم هذه الآيات: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

قال ابن القيم: أخبر أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادا في الحب والتعظيم

فينبغي –أيها الإخوة– أن نضبط مقاييس هذه المحاب في القلوب وأن يكون مرجع ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله فما وجدناه حلالاً فعلناه وما كان حراماً اجتنبناه، فإن الله –عز وجل– ذم من آثر على محبته محبة غيره مع أنه مجبول عليها فقال –عز وجل–: "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)[التوبة: ٢٤، ٢٥]".

---

(٦٩١) أخرجه البخاري ٦١٦٨، ومسلم (١٦٥).

(٦٩٢) أخرجه أحمد (١٢٨/٣) والنسائي في السنن (٦١/٧) عن أنس ﷺ، وانظر صحيح الجامع الصغير (٣١٢٤).

(٦٩٣) انظر الشرك بالله: ص (٤٨٨) نقلًا عن عون العلى الحميد(٧٤/٢) بتصرف كثير جدًا.

ودعا عليهم النبي ﷺ ودعاؤه مقبول بالتعاسة وخيبة الرجاء وانقلاب المقصد إلى ضد ما يقصد فقال ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– وفيه أن النبي ﷺ قَالَ: « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ ».(٦٩٤)

فحاذر أيها الكريم أن يكون أحد في قلبك أعظم محبة من الله تعالى، والسؤال الآن: كيف يصل إلى قلب المسلم هذا التصور ويرسخ فيه كاعتقاد؟

والجواب: يكون ذلك بأمور:

منها: أن يتفكر في خلق الله –عز وجل– فيصل بذلك إلى تعظيمه ومحبته فإن من عظم شيئاً خضع له.

ومنها: أن يستشعر نعم الله عليه وأنها لا تعد ولا تحصى فيؤسر قلبه لذلك، فالإنسان أسير الإحسان والإحسان يدك العنق وكما قيل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فلطالما استعبد الإنسان إحسان

ومنها: التعرف إلى الله –عز وجل– بأسمائه الحسنى ومنها الودود القريب المجيب الرحمن الرحيم الرءوف المنان الحنان وكذلك التعرف إلى صفاته العليا فعن طريق معرفة الأسماء الحسنى والصفات العلى يحب المرء الله تعالى يرسخ في قلبه حبه –عز وجل–.

ومنها: الاقتراب منه تعالى، و إدمان طرق بابه، والوقوف على نعمه الخفية التي لا يشعر بها إلا من اغترف من معين العبودية، و كما قيل: من ذاق عرف ومن عرف اغترف.

بهذه الأسباب وأشباهها – أيها الإخوة – يجد القلب محبة الله، ومن وجد محبة الله ذاق طعم الإيمان، ووجد حلاوته، واستشعر نعيمه ولذته، واستمتع بهذا الدين فعاش في جنة في الدنيا قبل الآخرة.

(٦٩٤) صحيح البخاري برقم (٢٨٨٦).

روى البخاري ومسلم من حديث أنس –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: ""ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». (٦٩٥)

إنه فرح ولذة وسرور ونشوة لا يعدلها شيء في الدنيا على الإطلاق حتى قال من وجدها يوماً: إنا لفي نعيم لو يعلم به الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: "إنه لتمر على القلب لحظات أقول عنها: لو أن أهل الجنة في مثل ما أنا فيه من النعيم إنهم لفي نعيم مقيم".

وقال آخر: "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ولم يذوقوا أحلى ما فيها، قيل: وما أحلى ما فيها؟ قال: ذكر الله –عز وجل–".

وقال آخر: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة وفي الدنيا نعيم من لم يذقه فلن يذوق نعيم الآخرة" يقصد جنة محبة الله ونعيم القرب من الله.

لله در شيخ الإسلام ابن تيمية وقد حبسوه في سجن القلعة فقال: "فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب".

ثم قال: ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أينما ذهبت فهي معي، إن نفوني فنفيي سياحة وإن قتلوني فقتلي شهادة وإن سجنوني فسجني خلوة".

ثم قال: "المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه، والله لو بذلت ملء القلعة ذهبًا ما عدل ذلك عندي شكر نعمة الحبس، وما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، سبحان الله ينطق حاله قائلا:

أنا لست إلا مؤمنًا بالله في سري وجهري

أنا نبضة في صدر هذا الكون فهل يضيق صدري

يقول تلميذه [ابن القيم] –رحمه الله–: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والتنعم، وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق ومع ذلك فهو من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرُّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون،

---

(٦٩٥) أخرجه البخاري (١٦) و(٢١) و(٦٩٤١) ومسلم (٤٣).

وضاقت بنا الأرض أتيناه؛ فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

رجحوا حلمًا وخفوا همًا *** ونشوا سِيدًا وشبوا عُلَما

علموا من أين ينزاح الشقاء، فأزاحوه وعاشوا سعداء.

إنه بلسم الحياة.

وإذا بآخر يحكم عليه بالقتل ويُعلن عليه يحكم عليه، فما يزيد على أن يفتر ثغره عن ابتسامة نابعة من صدر مطمئن هادي، واثق بموعود الله، فيقال له: ما تنتظر؟ قال: أنتظر القدوم على ربي، لقد عملت لهذا المصرع خمسة عشر عامًا، وإني لأرجو الله أن تكون شهادة في سبيله،

فوالله إني أرى مصرعي *** ولكن أمدُّ إليه الخطا.

وتالله هذا ممات الرجال *** فمن رام موتًا شريفًا فذا[٦٩٦]

وهكذا -أيها الإخوة- سرور وفرحة ورغد ونشوة خير من كل متاع إنها على حد تعبير بعضهم لحظات من الجنة.

فلا ريب أن يكون التعبير عنها بهذا اللفظ: "وجد حلاوة الإيمان" فأثبت النبي ﷺ للإيمان حلاوة، أقول بل أثبت النبي ﷺ أن للإيمان مذاقًا وطعمًا كذلك ففي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيّاً". [٦٩٧]

أيها الإخوة! كيف السبيل إلى وجدان هذه الحلاوة والجواب - كما أوضحه الحديث- بثلاث:

الأول: تقديم محبة الله والرسول ﷺ على ما سواهما يعني أن يقدم العبد أمر الله وأمر رسوله ونواهي الله ورسوله ﷺ على كل شيء.

الثاني: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، لا من أجل دنيا يصيبها ولا مصلحة يحصلها بل لله وحده محبة خالصة يكتب الله لها الدوام والاتصال ويتصل نعيمها بنعيم الآخرة كما قال -عز وجل-: "إنما المؤمنون إخوة".

(٦٩٦) بلسم الحياة محاضرة لفضيلة الشيخ / علي عبد الخالق القرني.

(٦٩٧) أخرجه مسلم ١٦٠.

الثالث: أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

فأثبت لهم عقد الإيمان والأخوة فلا يحب محبة خالصة إلا المؤمن ولا يكون مؤمناً حقّاً إلا إذا أحب محبة خالصة فإذا رأيت إيماناً بلا أخوة فاعلم بأنه إيمان ناقص وإن رأيت أخوة بلا إيمان فاعلم بأنها التقاء مصالح وتبادل منافع وإذا رأيت أخوة الإيمان فتلك التي سمى الله –عز وجل– في كتابه.

بثلاثة أمور يجد العبد طعم الإيمان –أيها الإخوة– : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، و أن يكره الكفر كراهية شديدة كما يكره أن يلقى في النار.

فمن حرص على هذه الأمور الثلاثة فقد حصّل محبة الله تعالى وعلى قدر الطاعة لله وعلى قدر العبادة لله يذوق العبد حلاوة الإيمان وعلى قدر المعصية يفقد هذه الحلاوة حسب زيادة الإيمان ونقصانه فعقيدتنا عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بزيادة الطاعات والصالحات وينقص بالمعاصي والزلات والسيئات، وعلى قدر الإيمان يكون مذاقه وطعمه وحلاوته.

أيها الإخوة! ناجى نبي الله داود ربه فقال: "يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ فقال الله –عز وجل–: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، فقال داود: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك، قال: يا داود ذكرهم بآلائي، ونعمائي وبلائي".

ومن جعل السعي إلى مراض الله تعالى وجهه ومقصده كان من أكمل الناس إيماناً فلا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطي إلا لله ولا يمنع إلا لله ولا يصل إلا لله ولا يقطع إلا لله روى أبو داود وحسنه الألبانى من حديث أبي أمامة مرفوعاً: "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان". [٦٩٨]

وروى أحمد وابن جرير عن ابن عباس أنه قال: "من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً.[٦٩٩]

---

(٦٩٨) أخرجه أبوداود (٤٦٨١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/١٦/٦، ٣٩٦/٩)، والطبراني في الكبير (١٣٥٣٧)، وحسنه الألباني.

(٦٩٩) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) وأبو نعيم في الحلية ١ / ٣١٢، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٩٦).

هذه هي حقيقة الموالاة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين كما قال تعالى: "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا..."فالموالاة بنص هذه الآية لا تكون إلا لله تعالى لذاته وتكون لرسوله ﷺ وللمؤمنين لأمر الله تعالى بموالاتهم، فمن كان عنده موالاة لغير الله ورسوله والمؤمنين فقد أشرك مع الله غيره في الحب، ولا شك أن شرك الولاية داخل في شرك المحبة لكون موالاة أهل الشرك والكفر من نواقض التوحيد بل لا تتحقق شهادة أن لا إله إلا الله إلا بإخلاص المحبة والولاية لله وحده لا شريك له وموالاة من أمر الله تعالى بموالاتهم فمن فعل ذلك ضمن مع الله تعالى النجاح والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة فما كان لله دام واتصل وهذا هو الذى والى الله ورسوله والمؤمنين وما كان لغيره سبحانه أنقطع وانفصل وهذا هو الولاء للشرك والمشركين والمنافقين وصدق الله تعالى إذ يقول:﴿ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦]، قال حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما: "المودة"[٧٠٠].

وهذا يدلنا على أن المحبة التي تكون لغير الله لا تنفع، وعلى أن المحبة من أجل الدنيا مذمومة، وصدق ربى إذ يقول: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]. [٧٠١]

وهكذا أيها الكرام فأصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، بل هي حقيقة العبادة ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

نعم -أيها الإخوة- .. لا يكمل للعبد إيمان ولا يتم له توحيد إلا إذا أخلص المحبة لله وحده، فأحب ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال، وأبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأحوال، ووالى أولياءه وعادى أعداءه.

وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة إن شاء الله وأستغفر الله لي ولكم.

(٧٠٠) موقوف على ابن عباس وله حكم الرفع.

(٧٠١) الشرك بالله ٤٩٠، نقلا عن عون العلي الحميد (٢/ ٨٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد.

فتعالوا بنا يا أيها الإخوة! نتجول في بستان المحبين نستمتع بأخبارهم ونستنشق عبيرهم عسانا تفوح علينا نفحة من نفحاتهم تبعث فينا الهمة للقيام بمثل قيامهم، فكيف كان حبهم لله ورسوله؟ وكيف كان سعيهم لمرضاته؟ وكيف كان حبهم لإخوانهم، وكيف كان حرصهم على موالاة المؤمنين والبراءة من المشركين؟

فمن هذه المواقف التي لازال التاريخ يحكيها ولا يحاكيها ويمثل بها ولا يمثلها ما سطره البطل ربعي بن عامر بأحرف من نور فقبل معركة القادسية أرسل رستم قائد الفرس إلى المسلمين يطلب رسولا يكلمه، فأرسل إليه سعد بن أبي وقاص ربعي بن عامر، فدخل على رستم وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة النفيسة، وقد جلس على سرير من ذهب..

ودخل الشاب البطل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه..

فقالوا له: ضع سلاحك..

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا، وإلا رجعت..

فقال رستم: ائذنوا له..

فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامته..

فقالوا له: ما جاء بكم..

فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله..

قالوا: وما موعود الله؟، قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي..

قال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا فيه؟..

قال: نعم، كم أحب إليكم؟، يوما أو يومين؟..

قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا..

فقال: ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل..

فقال: أسيدهم أنت؟، قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم..

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟..

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟..

فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة".(٧٠٢)

سبحان من خلق هذا الإنسان وتعظم الدين الذي رباه وصدق الله حين قال: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون}.

ومن أروع صور المحبة لله ورسوله ما أخرجه ابن جرير الطبري وغيره بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ادعوا لي عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول.

فلما جاء قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(ألا ترى ما يقول أبوك يا عبد الله)؟

فقال عبد الله: وماذا يقول أبي، بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال عبد الله: لقد صدق والله يا رسول الله فأنت والله الأعز وهو الأذل.

(٧٠٢) البداية والنهاية - (٧ / ٤٧).

أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب لا يعلمون أحدًا أبَّرَ بأبيه مني، أما وقد قال فلتسمعن ما تَقَرُّ به عينُك.

فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟!

أما والله لتعرفن هل العزة لك أم لرسول الله، والله لا يؤيك ظلها، ولا تبيتن الليلة فيها إلا بإذن من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

فصرخ عبد الله بن أُبيّ: يا للخزرج ابني يمنعني بيتي.

فقال: والله لا يدخل بيته إلا بأذن من الله ورسوله.

فأتوا النبي فأخبروه فقال: اذهبوا إليه فقولوا له: يقول لك رسول الله: خلّه مسكنه.

فأتوه فقالوا له ذلك فقال: أما وقد جاء الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعم ليعلم من الأعز ومن الأذل!!! (٧٠٣)

إنه الولاء لله ولرسوله (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)(المجادلة: من الآية٢٢)

الله أكبر هؤلاء هم الذين حققوا الآية وحولوها إلى أرض الواقع إلى منهج حياة.

ومن هذه المواقف الطيبة ما حكى تعالى في قوله عز شأنه: (لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون). [المجادلة: ٢٢].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح، فقد قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وعمر بن الخطاب، قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وأبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(٧٠٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٦٤/١٤)، وأحمد ١٥٢٦٠، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرطهما.

(متعنا بنفسك)، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير، وعلي بن أبي طالب وعبيدة (وحمزة)[٧٠٤] قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر، أخبر أن هؤلاء لم يوادوا أقاربهم وعشائرهم غضبًا لله ولدينه. [٧٠٥]

– عبد الله بن حذافة ومثل في السماء:

وأختم بهذا المشهد الذي يتألق سموًا وروعة وجلالًا، إنه مشهد الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي رضى الله عنه الذي وقع أسيرًا في بلاد الروم فقالوا لملكهم: ها هو رجل من أصحاب محمد.

قال أدخلوه عليّ فدخل عبد الله بن حذافة على ملك الروم فعرض عليه صفقةً لو عُرِضَت على كثير من الساقطين المجرمين المتآمرين في هذه الأيام لباع الأرض والعرض كما باعوا العقيدة فماذا عرض ملك الروم؟!

عرض على عبد الله بن حذافة نصف ملكه ويتنصر!!

فقال عبد الله: والله لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أتخلى عن ديني طرفة عين ما فعلت!!

قال ملك الروم: إذن أقتلك، قال أنت وذاك!!

فأمر ملك الروم بأسيرين من أسرى المسلمين فَقُتِلا أمام عبد الله بن حذافة لتختل قوته، ويختل يقينه، ولكن أنىَّ للقلوب التي امتلأت بالخوف من علام الغيوب وحده أن تخشى طواغيت الأرض ولو اجتمعوا.

ثم قال له الملك: تتنصر؟

قال عبد الله: لا.، قال الملك: اقتلوه

فأخذوه ليقتلوه فبكى!! قال الملك ردوه عليّ لعله بكى خوفًا من الموت ويريد أن يقبل ما عرضته عليه، ثم سأله لماذا بكيت؟!

قال عبد الله: والله ما بكيت خوفا من الموت، ولكنني علمت يقينًا أنني سأقتل الآن وكنت أتمنى أن تكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تقتل في سبيل الله.

---

(٧٠٤) ما بين القوسين غير موجود في النص. هنا. وهو موجود في كتب السيرة، راجع زاد المعاد (٣/١٧٩)]

(٧٠٥) التفسير الكبير (٢٩/٢٧٦،٢٧٧).

قِمَمٌ شمَّاء..مُثُل عُليا وقدوات طيبة.. والله لو رأى الأعداء من أهل العقيدة الاستعلاء والعزة لأتوا إليهم في غاية الذلة والصغار ولكنهم رأو أهل الإسلام في غاية المهانة والذلة والصغار فأذلوهم وساموهم سوء العذاب.

قال ملك الروم: هل تُقَبِّل رأسي وأعفو عنك؟!

قال عبد الله: أُقَبِّلُ رأسك بشرط أن تعفو عنى وعن جميع أسرى المسلمين.

فقال ملك الروم أفعل:.. فقام عبد الله بن حذافة فقبَّل رأس ملك الروم فعفى عنه وعن جميع أسرى المسلمين وانطلق عبد الله بالأسرى إلى المدينة فقابلهم فاروق الأمة عمر، فلما علم عمر بالأمر قال رضى الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أولكم..فقام عمر فقبَّل رأس عبد الله وقام أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم جميعًا". (٧٠٦)

ولا أملك أمام هذه المثل التى تتألق روعة وسموًا وجلالًا وعظمة إلا أن أتلو هذه الآية من كتاب ربنا" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) [الممتحنة: ٦]

أيها الإخوة! إن المحبة هى أصل الأصول وهى قاعدة القواعد فالمحبة هي حقيقة العبودية وإنما تمكن الأعمال الأخرى من الحمد والشكر والخوف والرجاء والصبر والزهد والحياء والفقر والشوق والإنابة باستمرار المحبة في القلوب وهي حقيقة الإخلاص بل هي حقيقة شهادة لا إله إلا الله.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول: "إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى".

وقال شيخ الإسلام وتلميذه –رحمهما الله-: إن القلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يُسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده، ومحبته والإنابة إليه، فلو حصل على كل ما يتلذذ به المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي، واضطرار وحاجة إلى ربه معبوده محبوبه مطلوبه بالفطرة، لا يسعد ولا يطمئن ولا يَقِرُّ إلا بالإيمان بالله رب العالمين، فمن قرَّت عينه بالله قرَّت به كل عين، ومن لم تقِر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وإنما يصدِّق هذا من في قلبه حياة. فوا أسفاه، وا حسرتاه، كيف ينقضي الزمان وينفد العمر، والقلب محجوب، ما شم لهذا البلسم رائحة؟ وخرج من الدنيا كما دخل فيها وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقال

(٧٠٦) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريجه لسير أعلام النبلاء (٢/١٤): أخرجه ابن عساكر في تاريخه من طريق البيهقى، وكذا الحافظ في الإصابة، وله شاهد من حديث ابن عباس، موصولا عند ابن عساكر، وابن الأثير في أسد الغابة (٢١٢/٣).

المفاليس، فكانت حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعاده حسرة وأسفًا، اللهم فلك الحمد وإليك المشتكي، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فيا أيها الذين آمَنوا آمِنوا، ويا من أعرضوا أقبلوا تسعدوا، (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا من ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

اللهم ارزقنا إيمانًا نجد حلاوته، وقلوبًا خاشعة، وألسنة ذاكرة، وأعينًا من خشيتك مدرارة، لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين.[٧٠٧]

وختامًا أحبتي: ما هي الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها؟ كيف يصل المحب إلى هذه الدرجة فإن المحبة –أيها الإخوة– لا توصف ولا تعرف إنما يعرفها من وجدها وذاقها وإنما البحث في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها ومن أخذ بالأسباب ذاق وعرف فما هي الأسباب والموجبات التي بها يذوق المريد المحبة؟

والجواب من العلامة ابن القيم طيب الله ثراه: الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة ولهذا كانت المعطلة والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات

(٧٠٧) بلسم الحياة محاضرة للشيخ علي للقرني.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله -عز وجل-.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب[٧٠٨]

وهكذا -أيها الإخوة- حب الله تعالى: هو حياة القلوب ونعيم الأرواح وبهجة النفوس وقرة العيون وأغلى نعيم الدنيا والآخرة.

أذاقنا الله وإياكم محبته وقربنا جميعًا من حضرته، ولا حرمنا من رؤيته، والتمتع بأنسه في الدنيا والآخرة.

فاللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنا بالإسلام حتى نلقاك. واملأ قلوبنا من معرفتك ومحبتك والإنابة إليك إنك يا ربنا جواد كريم، اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلينا، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندنا، واقطع عنا حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك الدعاء

(٧٠٨) مدارج السالكين - (٣ / ١٧).

من تخاف؟؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

فهو العليم أحاط علمًا بالذي *** في الكون من سر ومن إعلان

وهو العليم بما يوسوس عبده *** في نفسه من غير نطق لسان

بل يستوي في علمه الداني *** مع القاصي وذو الإصرار والإعلان

فهو العليم بما يكون غدًا وما *** قد كان والمعلوم في ذا الآن

وبكل شي لم يكن لو كان كيف *** يكون موجودًا لذي الأعيان

فهو السميع يرى ويسمع كل ما *** في الكون من سرٍ ومن إعلان

فلكل صوت منه سمع حاضر *** فالسر والإعلان مستويان

والسمع منه واسع الأصوات لا *** يخفى عليه بعيدها والدَّاني

ويري دبيب النمل في غسق الدُّجى *** ويرى كذاك تقلُّب الأجفان

لهو البصير يرى دبيب النملة *** السوداء تحت الصَّخر والصَّوَّان

ويرى مجاري القوت في أعضائها *** ويرى نِيَاطَ عروقها بعيان

ويرى خيانات العيون بِلَحْظِها *** إي والذي برأ الورى وبَرَانِي

فهو الحميد فكل حمدٍ واقع *** أو كان مفروضًا على الأزمان

هو أهله سبحانه وبحمده ***كل المحامد وصف ذي الإحسان

فلك المحامد والمدائح كلها *** بخواطري وجوارحي ولساني

ولك المحامد ربنا حمدًا كما *** يرضيك لا يفنى على الأزمان

ملء السموات العلا والأرض *** والموجود بعد ومنتهى الإمكان

مما تشاء وراء ذلك كله *** حمدًا بغير نهاية بزمان

وعلى رسولك أفضل الصلوات *** والتسليم منك وأكمل الرضوان

صلى الإله على النبي محمد *** ما ناح قُمْرِيٌ على الأغصان

وعلى جميع بناته ونسائه *** وعلى جميع الصَّحب والإخوان

وعلى صحابته جميعًا والأُلَى *** تبعوهم من بعد بالإحسان

أما بعد، فيا أيها الإخوة! إن القلب في سيره إلى الله –عز وجل– بمنزلة الطائر لابد له لصحة السير من ثلاث: رأس وجناحان فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر.

وقد تحدثنا في اللقاء السابق بحمد الله تعالى عن المحبة، واليوم بمشيئة الله تعالى نتحدث عن الخوف من الله، فأعيروني القلوب والأسماع –أيها الإخوة – أسأل الله أن يجعلنا ممن سار إليه على بصيرة فوصل إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يثبتنا على الإيمان.

أيها الإخوة.

ما هو الخوف؟ وما أقسامه؟

وكيف يأخذ الإنسان نفسه بالخوف؟

ومتى يكون ذلك أنفع لها؟ ومتى لا ينفعها؟

وأخيراً: إلى رياحين بستان الخائفين نستنشق بعض عبيرها.

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعلنا ممن أوتي بصيرة فصار له سراج يضيء له الظلمات، حتى نصل إلى الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، محفوظين بعين الله التي لا تنام، مكلوئين بكلئه الذي لا يرام ولا يضام.

أحبتي ما هو الخوف؟ في الحقيقة أفاض أهل العلم في تعريف الخوف وتنوعت فى التعبير عنه أقوالهم فكثرت وأجمع ما قيل في تعريفه: أنه وصف قائم بالقلب يؤدي إلى فعل الأوامر وترك النواهي، وقد تفنن العباد والزهاد والعلماء في تعريف الخوف على حسب ما ذاقه كل واحد منهم فمنهم من قال: الخوف هو توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

ومنهم من قال: الخوف هو سراج القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله -عز وجل- إنك إن خفته هربت إليه فالخائف من ربه هارب إليه ومن ثم قال الله تعالى: "ففروا إلى الله".

إلى آخر هذه الأقوال التى تدل على نزول القوم بهذا المنزل فى مسيرهم وحلول تلك الدرجة فى سلوكهم جعلنا الله واياكم من السائرين السالكين على الصراط المستقيم إلى رب العالمين.

والخوف من الله -عز وجل- -أيها الإخوة- منزلة من أجلّ منازل العبودية وأنفعها وهي فرض وواجب على كل أحد بنص قول الله تعالى: "إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين" فقوله -عز وجل- "وخافون" فيه الأمر بوجوب إخلاص الخوف لله تعالى قال الإمام الشوكاني -رحمه الله- في معنى الخوف من الله -سبحانه وتعالى-: "أي فافعلوا ما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه،لأني الحقيق بالخوف مني والمراقبة لأمري ونهيي لكون الخير والشر بيدي".[(٧٠٩)]

يقول العلماء: وقوله تعالى: "فلا تخافوهم"نهي عن خشية غير الله وتمحيض الخوف منه وحده ففيها دلالة على وجوب تجريد الخوف لله -جل وعلا- وألا يخشى غير الله كخشيته -عز وجل- وكان الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون والعلماء يذكرون منزلة الخوف ويعظمونها ويرون وجوب تمحيضها لله تعالى ومن ثم عظم لهم من الله المدح والثناء وكذلك عظمت العاقبة والجزاء فمن المدح والثناء قوله سبحانه: "مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)[التوبة: ١٧ - ١٩] [(٧١٠)]

ومن بيان العاقبة والجزاء قوله تعالى: "ولمن خاف مقام ربه جنتان".

---

(٧٠٩) فتح القدير(١/٤٠٠)

(٧١٠) تعليقات على القول المفيد للشيخ عبدالرحمن المحمود نقلًا عن عون العلى الحميد(٢/٩٧)

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: "ولمن خاف مقام ربه بين يدي الله –عز وجل– يوم القيامة ونهى النفس عن الهوى ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه فله يوم القيامة عند ربه جنتان كما في الحديث الذي أخرجه الجماعة من حديث عبد الله بن منيس –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم –عز وجل– إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. (٧١١)

وما أجمل التعبير القرآني الرائق الراقي"ولمن خاف مقام ربه جنتان ذواتا أفنان" فوصف الله –عز وجل– هاتين الجنتين بأنهما ذواتا أفنان أي ذواتا أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة وقال عطاء في معنى أفنان أغصان الشجرة يمس بعضها بعضاً وقيل أيضاً: ذواتا أفنان أي فيهما فنون من الملاذ والطيبات نعم ففي الجنة جميع أنواع الثمار مما يعلم الناس ومما لا يعلمون وخيراً مما يعلمون مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويكفي أن نعلم أن الله لما قص علينا ما في الجنة ضرب لنا به المثل فقط فقال مثل الجنة وذلك لكي نتصور شيئاً عنها وإلا فهو مثل والحقيقة فوق ذلك ومن أجمل ما قال العلماء في ذلك ما قاله حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقد قال: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء يعني بذلك أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً في التفاضل.

والسؤال الآن –أيها الإخوة– .. كل هذا لمن؟ والجواب هو لمن خاف الله تعالى وسكن خوف الله وحده في قلبه ولذلك عظم سلفنا الخوف من الله تعظيماً شديداً ورفعوا من مكانته.

قال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها.

وقال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

وقال ذو النون: الناس على الطريق — أي طريق السلامة والاستقامة والوصول إلى الجنة دار الكرامة والمقامة — ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال الخوف ضلوا الطريق.

وليس الخوف كله ممدوحًا محمودًا فهناك خوف ذمه الشرع هناك أقسام للخوف فليس الخوف كله رتبة واحدة فهناك خوف محمود وخوف مذموم.

أما الخوف المحمود فهو الخوف الصادق وهو ما حال بينك وبين محارم الله تعالى وهذه هي الوسطية في الخوف فإنه إذا تجاوز ذلك خيف اليأس والقنوط وإن قل عن ذلك خيف الركون والتواكل.

---

(٧١١) تفسير ابن كثير – (٧ / ٥٠١)، والحديث أخرجه الجماعة: البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠) والترمذي (٢٥٢٨) والنسائي في الكبرى (٧٧٦٥) وابن ماجه (١٨٦).

والحق أن يلزم العبد الوسطية في الخوف وهو الخوف الذي يحجزه عن محارم الله ويمنعه عنها، قال أبو عثمان الحيري: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطناً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

ومن أقسام هذا الخوف خوف واجب وخوف مستحب: فالخوف الواجب هو ما حمل على فعل الواجبات وترك المحرمات والخوف المستحب هو ما حمل على فعل المستحبات وترك المكروهات.

ومن أقسام هذا الخوف خوف التألة أو السر: فخوف التأله والتعبد والتقرب هو الذي يزجر صاحبه عن معصية الله الذي يخافه خشية من أن يصيبه بما شاء من فقر أو قتل أو غضب أو سلب نعمة ونحو ذلك بقدرته ومشيئته كما قال الإمام المبارك عبد الله بن المبارك:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وصنها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم

وهذا النوع من الخوف من أهم أنواع العبادة القلبية التي يجب إخلاصها لله –سبحانه وتعالى– وهذا النوع لا يجوز صرفه لغير الله –عز وجل– وصرفه له سبحانه يعد من أجلّ العبادات ومن أعظم القربات وهو ركن من أركان العبادة ومن خشى الله –عز وجل– على هذا الوجه فهو مخلص موحد له عند الله أعظم الجزاء.

ولذلك –أيها الإخوة– تعهد الله لصاحب هذا النوع من الخوف أن لا تمسه النار أبداً فقد قال ﷺ: "عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله[٧١٢]وصاحبها ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله"كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِى ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِى عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِى الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِى اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ». [٧١٣]

وتكفل الله لصاحب هذا الخوف أن يغفر له ما بعده بفضل هذه الخشية وهذا الخوف كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِى ثُمَّ اسْحَقُونِى ثُمَّ اذْرُونِى فِى الرِّيحِ فِى الْبَحْرِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَىَّ رَبِّى

(٧١٢) سنن الترمذي برقم (١٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٢٢٩.

(٧١٣) أخرجه البخاري (٦٦٠، ١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا. قَالَ فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ فَقَالَ لِلأَرْضِ أَدِّى مَا أَخَذْتِ. فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ لَهُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ فَقَالَ خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ - أَوْ قَالَ - مَخَافَتُكَ. فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ».(٧١٤)

كتب عمرو بن العاص وكان أميرًا على مصر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن نهر النيل يفيض على الناس فيهدم البيوت، فكتب عمر رسالة من عمر بن الخطاب إلى نهر النيل في مصر.. أما بعد، فإن كنت تجري بأمرك فاجر كما شئت، وإن كنت تجري بأمر الله فتوقف!! ثم أمر عمرو بن العاص أن يلقيها في النيل، فلما ألقاها توقف في الحال عن الفيضان، هؤلاء أناس حكموا بأمر الله فطوع الله لهم كل شيء فيا له من مرتقى ارتقى إليه أهل هذه العبادة ولم لا؟ وقد عملوا بخوفهم من الله –عز وجل– الذي منه فعل ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، لمعرفتهم أنه سبحانه هو وحده الحقيق بالخوف منه –تبارك وتعالى– والمراقبة لأمره ونهيه، لكون الخير والشر بيده سبحانه فهذا حال من حفظ هذا النوع من الخوف ولم يضيعه، وأما من ضيعه فصرفه لغير الله فقد أشرك شركاً أكبر، إذ جعل لله نداً في الخوف وذلك كحال المشركين الذين يعتقدون في آلهتهم ذلك الاعتقاد ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن كما قال قوم هود لهود عليه السلام الذين ذكر الله –عز وجل– عنهم أنهم خوفوا هوداً بآلهتهم فقالوا: "إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء"إلا أن أهل التوحيد الكامل وإخلاص الخوف وتمحيضه لله –عز وجل– وحده أعلنوها صريحة مدوية بأنهم لا يخافون إلا الله ولا يخشون إلا الله تعالى وإمامهم إبراهيم عليه السلام قدوة المحققين وسيد الموحدين يقول كما حكى الله –عز وجل– عنه: "وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)[الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

فالخائفون من الله في الدنيا هم أهل الأمن في الدنيا والآخرة وهم أهل الهداية والاهتداء في الدنيا والآخرة كما قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية وغيره من حديث شداد بن أوس وسند حسن كما في الصحيحة وصحيح الجامع أنه ﷺ قال: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ولمن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي". (٧١٥) فهذا أحبتي هو خوف التأله خوف التعبد خوف التقرب خوف السر الذي به يرضى الله عن عباده ويدخل تحت هذا أيضاً الخوف من وعيد الله الذي توعد به العصاة وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان.

وهناك خوف على الضد من هذا تماماً فإن كان هذا الخوف الذي تحدثنا عنه تعبدي يتقرب به العباد إلى الله وتكون لأصحابه المنزلة العالية والمكانة السامية عند ربهم –تبارك وتعالى– فإن هذا النوع من الخوف الذي ابتدئ لحضراتكم

---

(٧١٤) أخرجه مسلم ٧١٥٧.

(٧١٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية وحسنه الألباني انظر حديث رقم: ٤٣٣٢ في صحيح الجامع.

الحديث فيه خوف يبعد عن الله خوف يورث غضبه وعقابه، خوف يضيع لا أقول منزلة العبد عند ربه، بل يضيع العبد نفسه ويورثه الهلاك ويورده النار وبئس القرار، وهذا الخوف –أيها الإخوة– هو ما يسميه العلماء الخوف الشركي وهل هناك شرك في الخوف؟ نعم ألم أقل لحضراتكم إن الخوف من الله الجليل ركن من أركان العبادة وهو منزلة رفيعة من أجل منازلها؟ فهناك من العباد من لا يمحض الخوف لله تعالى وحده بل يشرك فيه مع الله غيره فربما خاف العبيد أكثر مما يخاف العزيز الحميد، من الناس من يخاف من غير الله أن يصيبه ذلك الغير بمكروه وسوء وهو لا يدري أو يدري ولكنه لا يوقن أن الضرر والنفع والشر والخير إنما هو بيد الملك –سبحانه وتعالى– وحده إن شاء أن ينفعه نفعه ولو منع ذلك عنه أهل الأرض جميعًا، وإن شاء أن يضره ضره ولو منع ذلك عنه أهل الأرض جميعًا فما شاءه الله كان وما لم يشأه لم يكن، كما قال نبيه المصطفى ﷺ: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ».[٧١٦]

فإذا كان هذا الخوف في قلب عبد من غير الله يخاف أن يقطع رزقه أو ينقصه عمره أو يحرمه نفعاً فقد أشرك هذا العبد مع الله تعالى، لأن هذا كله من خصائصه سبحانه نعم.. فكل من سواه وكافة من عداه لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضرّاً، لنوقن بهذا أحبتي ولننعم بذلك عيناً سواء كان هذا الواحد من الإنس أو الجن وسواء كان ملكاً أو نبيّاً وسواء كان حيّاً أو ميتاً، فهناك من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله من أشرك في باب الخوف وجعل لله ندّاً في هذه العبادة العظيمة.

نعم.. انتشر هذا الأمر في كثير من المسلمين فمنهم الذين يعتقدون في الأولياء أو الجن أو الطواغيت الضرر والنفع من دون الله جل جلاله فصاروا يخافون منهم ويصرفون لهم كثيراً من العبادات بناء على ذلك الخوف.

"ومن هؤلاء الذين أشركوا مع الله –عز وجل– في جانب الخوف غلاة المتصوفة الذين غالوا في المشايخ والأولياء حتى اعتقدوا أن لهم التصرف في الكون والحياة، واعتقدوا فيهم القدرة المطلقة والعلم المحيط والعصمة من الزلل، وبالتالي خافوهم كما يخافون الله أو أكثر، ونسجوا في كتبهم كثيرًا من القصص والروايات والأساطير المكذوبة حول قدرتهم على نفع أو ضر غيرهم متى شاءوا، وروَّجوا لذلك بغرض حمل الناس على الخضوع لهم وتمكينهم من أموالهم وما يشاءون دون اعتراض، وإلا فالهلاك لمن يشك في ذلك[٧١٧].

وممن وقع في هذا النوع من الشرك طائفة العلمانيين والمستغربين من الحكام والمثقفين.. وغيرهم ممن عظم في قلوبهم الخوف من الغرب أو النظام العالمي الجديد أو أمريكا أو غيرها من دول الكفر إلى درجة أنهم أشركوا فيها هؤلاء من دون الله –

---

(٧١٦) أخرجه الترمذي، ١٥١٦، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٦٤٨، وفي ظلال الجنة ٣١٥ – ٣١٨.

(٧١٧) ينظر روايات المتصوفة في هذا الشأن: "طبقات الشافعية"للسبكي (٢١١/٩، ٤١٠)، و"الكواكب الدرية"للمناوي (١٣/١، ٦٦)، و"جامع كرامات الأولياء"للنبهاني (٢٤٤/٢– ٢٧٥)، و"الطبقات الكبرى"للشعراني (٨٨/٥، ١٠٦).

-عز وجل- -، وظنوا أن أمريكا والغرب لا رادَّ لقدرتهم ولا يقدر أحد على مقاومتهم، وأنهم أصبحوا الموجهين للعالم، فلابد من طاعتهم وخوفوا الناس منهم، كما قال سبحانه عن أسلافهم من المنافقين: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٣٦]، وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

ونتيجة هذا الخوف فقد أطاعوهم في كل ما يأمرون وينهون، فأحلوا الحرام، وحرموا الحلال ونبذوا شريعة الله، واستبدلوها بأحكام هؤلاء الكفرة وعادوا أولياء الله —عز وجل— وقربوا أعداءه، وهذا كله بناءً على خوفهم لهم من دون الله -عز وجل-[(٧١٨)]

فلا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم رد المسلمين إلى دينك ردًا جميلا، وخذ بأيديهم إليك أخذ الكرام عليك، فلا يجوز أبداً -أيها الإخوة- أن نخاف من غير الله تعالى كل هذا الخوف ولا أن نجعل الخوف من بطشه كخوفنا من الله فنرضى أن نتنازل عن ديننا وعقيدتنا وعن فعل الخير حتى لا نقع تحت البطش والتهديد والخوف زاعمين أنا بذلك ننجو من البطش ونهرب ونحن بذلك نضحك على أنفسنا نكذب ونصدقها ولا نسألها أفإن تركنا ذلك الدين والعمل له وتركنا الالتزام والخير والعمل به ونجونا من البطش أفننجوا من عذاب الله الذي عصينا أوامره والجواب بلا شك واضح نهرب من عذاب بشر ولكننا لن نهرب من عذاب رب البشر ولذلك جاء التعبير القرآني رائعاً في قوله تعالى: "ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله".

إن عذاب الله -عز وجل- يصد العبد أن يعصيه فكلما تذكر العبد أنه منهي عن المعصية فإن فعلها عوقب بعقاب من الله صده ذلك عن اقتراف المعصية، فإذا جعل ما يصيبه من أذى في طريق الله صادّاً له عن الطاعة فيتركها بسبب هذا الأذى ويفعل المعصية خوف الأذية فهو بذلك قد جعل فتنة الناس كعذاب الله فسوى بين الله وبين عباده ففي هذه الآية -أيها الإخوة- أنه لا يجوز أن يخشى العبد الناس ويخافهم مهما عظمت البلية ومهما كثرت الفتن والمصائب وكل على قدر إيمانه كما نوضح ذلك إن شاء الله، الآن ونحن نتحدث عن طرق الخوف من الله وكيف يغرس المرء اليقين بالله في قلبه وانتبه أيها الحبيب إلى هذه اللطيفة في الآية فإن الله تعالى سمى بطش البشر وتعذيبهم فتنة فالناس لا يملكون إلا الفتنة وأما عمل الله -عز وجل- وفعله فسماه عذاباً فأيهما ينبغي أن يخاف العبد؟ ثم إن تسميتها فتنة أي اختبار وامتحان وابتلاء إشارة إلى أنها من الله -عز وجل- أجراها على يد هؤلاء ليبتلي عبده المؤمن بهذا، فهي أيضاً من الله لم تخرج عن فعله وإرادته ومشيئته -سبحانه وتعالى- فمم الخوف؟! فليتيقن القلب بأن الله لا يسلم أولياءه لأعدائه أبداً وإنما هو الامتحان والابتلاء والفتنة، فلا يقدم الإنسان التنازلات سريعاً فإنه من ضعف الإيمان واليقين أن ترضى الناس

---

(٧١٨) الشرك بالله ٤٩٦، وما بعدها، نقلاً عن عون العلي الحميد (٢/ ٩٥، ٩٦).

بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك إلا الله، حبيبي إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره وإن عذاب الله لا يدفعه التجاء أو احتماء بغيره أبداً.

وما أجمل الكلمات التي تحدث فيها شيخ الإسلام عن اليقين وتتضمن القيام بالطاعة والأوامر والبعد عن المعاصي والنواهي فلنصغ إليه ونلقي الأسماع بين يديه.

قال شيخ الإسلام: "إن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله ؛ لم تكن موقنا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك، إما ميلٌ إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد في الدنيا والآخرة ؛ فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفا منهم، ورجاءًا لهم، وذلك من ضعف اليقين"(٧١٩).

ولذلك جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "من التمس رضى الله بسخط الناس –رضي الله عنه– وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضي الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[٧٢٠] والحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه بسند صحيح.

سبحان الله! كان يسعى إلى رضاء الناس ففقده وقبل ذلك فقد رضا الله فخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، فماذا كسب من خسر الله؟ أما من أرضى الله بسخط الناس فإن الله يرضى عنه ويُرضي عنه الناس أيضاً.

ففي هذا الحديث وجوب تجريد الخوف من الله –عز وجل– وضرورة وجوب تقديم رضا الله على رضا المخلوق والوعيد لمن خاف الناس فآثرهم على رضا الله –جل وعلا– فهو من ضعف الإيمان ومن علامات وموجبات نقصانه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والخلاصة مما مر –أيها الإخوة– وهي النتيجة التي لابد أن نخرج بها من هذا اللقاء أن نخاف الله ولا نخشى سواه وأن نحقق ذلك عمليّاً لا قولاً ولفظاً فحسب، وأن ندأب على توقيع هذا المعنى في نفوسنا ونروضها عليه حتى يستقيم لها ذلك على الطبيعة، والآن بعد أن تبينا الخوف الذي هو عبادة لله، والخوف الذي هو شرك بالله، لا زلت وأنا أتحدث ألمح سؤالاً يراود الأذهان ويداعب الأفهام يكاد يسرع إلى اللسان ليقول: لكن الخوف شيء جبليّ فطر عليه العبد وجبل عليه الإنسان وخلق عليه المخلوق أفيعاب على الإنسان أن يخاف مما يعلم أنه يصيبه بالضر؟ إننا ولابد نخاف من السباع بل

(٧١٩) مجموع الفتاوى: ١/٥١.

(٧٢٠) أخرجه ابن حبان ١ / ٢٤٧، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٢٥٠.

من الكلاب ونخاف من الحيات والثعابين بل هناك من يخاف من الصراصير والفئران فهل هذا حرام علينا؟ لطفك لا تقول نعم فأنت أيضا يا شيخ من بعض هذا تخاف.

وأقول: نعم.. ولا عيب ولا شين في هذا لا علي ولا عليكم -أيها الإخوة- فإن الله تعالى ما كلفنا أبداً أن نخرج ذلك الخوف من قلوبنا فهذا لا يذم وكيف يذم وقد قال الله في حق نبي مرسل من أولي العزم هو موسى عليه السلام: "فخرج منها خائفاً يترقب" وقال: "فأوجس في نفسه خيفة موسى" فهذا خوف طبيعي لا يذم بل ربما يحمد إذا ساعد وحمل صاحبه على أخذ الأهبة والاستعداد لكنه – وتشاركوني الرأي في هذا- يذم إذا كان حاملاً على الجبن والخور والانهزام وترك الإقدام، وهناك أيضاً الخوف الوهمي من شيئ لا وجود له أو شيء ضعيف واه لا يكاد يكون سبباً لخوف وهذا أيضًا خور وضعف وجبن كان النبي ﷺ يتعوذ بالله منه صباح مساء فيقول: اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل". [٧٢١] فهو بهذا من الأخلاق الرذيلة التي يجدر بالمسلم أن يترفع عنها لكن من غلبته طبيعته فلم يستطع أن يخرج ذلك من نفسه فلا يأثم ولا يذم، لكن أن يداهن المرء في دينه خشية أن يقول الناس متشدد أو غير حضاري فهذا غدًا يقول له رب العالمين إياي كنت أحق أن تخشى.

ويذكر هذا بما "حدث في لجنة الشؤون الدينية بمجلس الشعب فقد جرى كلام حول استصدار قرار بإلغاء مهرجانات السينما لما فيها من عري وفساد وما لها من تأثير على دين الناس، فاستنكر ذلك صاحب أخبار الناس بجريدة الأخبار، ويبدو أن استنكاره كان موجها لرئيس اللجنة، فسارع رئيس لجنة الشؤون الدينية الذي يحمل درجة الدكتوراه لينفي اللوم عنه وعن جميع أعضاء اللجنة، ولو مجرد التفكير في هذا القرار فقال ردا على المقال: عزيزي محرر صفحة أخبار الناس، بخصوص مقالتك الخاصة بإلغاء مهرجانات السينما في مصر إن الأمر لم يتعد رأيا من الضيوف الذين يحضرون اجتماعات اللجنة، ولم يؤيده أحد من الأعضاء، وبالتالي لم يصدر به قرار".

فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- إذ يقول: "والسعادة في معاملة الخلق أن تعاملهم لله فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله".

وبعد أيها الإخوة.. وقد طوفنا في بستان الخوف هل لنا أن نستروح عبير الخائفين من رب العالمين، ونستنشق نسيم اللائذين بجناب رب العالمين؟ نعم ولكن نلتقي بهم بعد جلسة الاستراحة بمشيئة الله تعالى وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

---

(٧٢١) أخرجه البخاري ٢٨٢٢.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

إلى وردات طيبات نتنسمها من هذا البستان الماتع اليانع من بستان الخائفين اللائذين بجناب رب العالمين، وأستحي أن أقدم أحدًا بين يدي أعظم الناس خوفاً من الله وهو رسوله ونبيه ومصطفاه محمد رسول الله ﷺ فها هو الترمذي يخرج عن خباب بن الأرت — وكان قد شهد بدراً مع رسول الله ﷺ أنه (راقب رسول الله الليلة كلها (وفي لفظ: في ليلة صلاها كلها)حتى كان مع الفجر فلما سلم من صلاته قال له خباب: يا رسول الله بأبي أنت وأمي لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها، قال: "أجل، إنها صلاة رغب ورهب [وإني] سألت ربي –عز وجل– ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا (وفي لفظ: أن لا يهلك أمتي بسنة) فأعطانيها، وسألت ربي –عز وجل– أن لا يظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربي أن لا يلبسنا شيعاً فمنعنيها). (٧٢٢)

وهاهو أيضا ﷺ كما في النسائي وغيره (يقوم ليلة بآية يرددها حتى أصبح وهي: إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم [بها يركع وبها يسجد وبها يدعو] [فلما أصبح قال له أبو ذر رضي اللهعنه: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها] [وتدعو بها] [وقد علمك الله القرآن كله] [لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه] [قال: (إني سألت ربي –عز وجل– الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً)] (٧٢٣)

وروى ابن حبان في صحيحه وسنده حسن عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال عبد الله بن عمير: حدثينا بأعجب شيئ رأيتيه من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: قام ليلة من الليالي، فقال: يا عائشة! ذريني أتعبد لربي قالت: قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ثم تلا الآيات من آخر سورة آل عمران "إن في خلق السموات والأرض". (٧٢٤)

---

(٧٢٢) أخرجه النسائي (١/٢٤٣)، والترمذي (٢/٢٦ – طبع بولاق)، وأحمد (٥/١٠٨و ١٠٩)، { وابن حبان (٧١٩٢ – الإحسان)، والطبراني (١/١٨٧/٢) = [٤/٥٧ و ٥٨و ٥٩] } وانظر: أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم – (٢ / ٥٣٥).

(٧٢٣) أخرجه النسائي (١/١٥٦ – ١٥٧)، وابن ماجه (١/٤٠٧)، والطحاوي (١/٢٠٥)، والحاكم (١/٢٤١)، وأحمد (٥/١٥٦ و١٧٧) من طرق عن قُدامة بن عبد الله العامري عن جَسْرَةَ بنت دِجاجة عنه. وقال الحاكم: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. وكذا صححه الحافظ العراقي (١/٢٥٢) وغيره. وفي"الزوائد":

"إسناده صحيح، ورجاله ثقات". وانظر: أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم – (٢ / ٥٣٥).

(٧٢٤) أخرجه ابن حبان ٦٢٢، والأصبهاني كما في الترغيب والترهيب برقم (٦٦٦)، وأبو الشيخ ابن حبان في"أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم"(٢٠٠ – ٢٠١) وانظر: "الصحيحة"١ / ١٠٦.

وفي الحديث كما هو ظاهر واضح: بيان"فضل النبي صلى الله عليه وسلم، وكثرة خشيته، وخوفه من ربه، وإكثاره من عبادته، مع أنه تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو المنتهى في الكمال البشري. ولا جرم في ذلك فهو سيد البشر صلى الله عليه وسلم".

وكل ورد البستان ورياحينه قد أخذت من ريحه صلى الله عليه وسلم مسًّا ومن طيبه عبقًا ومن أريجه مسكة فها هو عمر -رضي الله عنه- كما روى ذلك ابن حبان عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يَعِسَ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: "والطور"حتى بلغ"إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع". فقال: قسم – ورب الكعبة – حق. فنزل عن حماره واستند إلى الحائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه، رضي الله عنه.

وروى الإمام أبو عبيد في"فضائل القرآن": عن الحسن: أن عمر قرأ: "إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع"، فربا له ربوة عيد منها عشرين يوماً.

وهذا الأسود بن يزيد وهو من سادات التابعين روى عن عائشة وغيرها، ويقول عنه علقمة بن مرثد: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين منهم الأسود بن يزيد، كان مجتهداً في العبادة يصوم حتى يخضر جسده ويصفر، وكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب هذا الجسد؟ فيقول: راحة هذا الجسد أريد. فكان من أشد الناس خوفاً من الله: لما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: مالي لا أجزع ومن أحق بذلك مني، والله لو أتيت بالمغفرة من الله -عز وجل- لهمني الحياء منه مما قد صنعته. إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحيياً منه.

وهذا إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل يدخل عليه تلميذه أبو حامد الخلقاني يستفتيه في مسألة تعرفون ما هذه المسألة؟ نظر إلى الإمام وقال:

ماذا أقول لربي إذا ما قال لي يوماً أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني

فما قولي له لما يعاتبي ويقصيني

فنظر إليه الإمام وقال: أعدها علي بالله عليك يا أبا حامد، كرر علي هذه الأبيات فكررها عليه أبو حامد يقول: فدخل الإمام داره وهو يبكي وأغلق بابها قال: فسمعته من وراء الباب ينتحب وهو يردد الأبيات ويقول:

ماذا أقول لربي إذا ما قال لي يوماً أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني

فما قولى له لما يعاتبي ويقصيني

ولما وقف الفضيل بن عياض على جبل عرفات في هذا الموقف الأعظم في هذا اليوم الأكرم الأشرف رفع رأسه إلى السماء وهو قابض على لحيته يبكي بكاء شديداً مراً وهو يقول: واسوأتاه منك يا سيدي وإن عفوت واسوأتاه منك يا سيدي وإن عفوت.

وعن جعفر بن زيد –رحمه الله– قال: خرجنا غزاة إلى [كأبول] وفي الجيش [صلة بن أشيم العدوي] –رحمه الله–، قال: فترك الناس بعد العتمة (أي بعد العشاء)ثم اضطجع فالتمس غفلة الناس، حتى إذا نام الجيش كله وثب صلة فدخل غيضة وهي الشجر الكثيف الملتف على بعضه، فدخلت في أثره، فتوضأ ثم قام يصلي فافتتح الصلاة، وبينما هو يصلي إذ جاء أسد عظيم فدنا منه وهو يصلي!! ففزعت من زئير الأسد فصعدت إلى شجرة قريبة، أما صلة فوالله ما التفت إلى الأسد!! ولا خاف من زئيره ولا بالى به!! ثم سجد صلة فاقترب الأسد منه فقلت: الآن يفترسه!! فأخذ الأسد يدور حوله ولم يصبه بأي سوء، ثم لما فرغ صلة من صلاته وسلم، التفت إلى الأسد وقال: أيها السبع اطلب رزقك في مكان آخر!! فولى الأسد وله زئير تتصدع منه الجبال!! فما زال صلة يصلي حتى إذا قرب الفجر!! جلس فحمد محامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة!!! ثم رجع –رحمه الله– إلى فراشه (أي ليوهم الجيش أنه ظل طوال الليل نائماً)فأصبح وكأنه بات على الحشايا (وهي الفرش الوثيرة الناعمة والمراد هنا أنه كان في غاية النشاط والحيوية)ورجعت إلى فراشي فأصبحت وبي من الكسل والخمول شيء الله به عليم.

أمثلة وأمثلة ولو ذهبنا نستقصي ونتتبع ما انتهينا إلى آخر، فلقد كان سلفنا رحمهم الله يخشون ربهم كلهم حق الخشية ويخافون ويحذرون غضبه وعقابه.

وعلى ضوء هذه المصابيح النيرة تعالوا بنا نؤمل الوصول كما وصلوا، فأين هو الطريق إلى خوف الله –عز وجل– كيف نجعل النفوس تخشى ربها وتهابه وتخشى غضبه وعقابه وألخص ذلك في نقاط، فمن أول ذلك –أيها الإخوة– معرفة الله –عز وجل– بأسمائه الحسنى وصفاته العلى محال أن تخشى وتخاف منه وأنت لا تعرفه تعرف على الله، تعرف على عظمته وجلاله وقدره وقوته وشدته وبأسه وطالع فعله بأعدائه وانتقامه منهم لأوليائه كيف فعل بهم وكيف نكل! بل اقرأ قبل ذلك في صفات الجمال ونعوت البهاء والله تبكي رقة وخشية قبل أن تبكي خوفاً وهيبة.

فأول خطوة على الطريق معرفة الله -عز وجل-، إن الخوف أساسه المعرفة فكلما كان الإنسان أعرف بربه وغناه وعظمته، وأعرف بنفسه وفقره وحاجته كان أخوف لله تعالى، ولذلك كان المصطفى ﷺ أعلم الناس بربه وأخوف وأخشى الناس لربه كما في الحديث: "فوالله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية". [(٧٢٥)]

وقال الله تعالى: "إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ" أي: ما يخشى الله حق خشيته مثل العارفين العالمين بقدره وقوته وعظمته.

وذلك لأن المعرفة إذا كملت أثمرت الخوف ففاض أثره على القلب ثم ظهر على الجوارح والصفات فينكف العبد عن المعاصي ويلتزم بالطاعات ولهذا جاء في الحديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل"[(٧٢٦)] أي من خاف فوات الوقت سار مسرعاً واستيقظ وتنبه قبل أن يلحقه قاطع أو يعوقه عائق.

ثانياً: -أيها الإخوة- تجديد الإيمان في القلوب، لأن الخوف من الإيمان والإيمان يزيد وينقص فمراعاة الإيمان وتجديده باستمرار يقوي الخوف في القلب تبعاً لقوة الإيمان فيه وقد قال المصطفى ﷺ كما في المستدرك بسند حسن من حديث عبد الله بن عوف: "إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب – أي كما يبلى الثوب – فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم"[(٧٢٧)]

وهذا إنما يحصل بالذكر وقراءة القرآن والمحافظة على الطاعات والبعد عن المعاصي والسيئات وكل هذه الأعمال تقوي الإيمان في القلب وبالتالي يقوى الخوف من الله فيه.

ثالثاً: وأجمع فيها أسباباً عدة: مطالعة أخبار السلف الصالح ومعرفة أحوالهم والعلم بخطر المعصية وقدر جناية العبد إذا خالف أوامر الله، والمعرفة بعقوبات المعاصي ولك أن تقرأ ما كتب ابن القيم في آثار الذنوب والمعاصي في كتابه القيم الداء والدواء ففيه الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ذكر فيه مائة أثر للمعصية أو يزيد تحل كعقوبات عليها.

رابعًا: ومن عوامل ترسيخ الخوف من الله في القلب: مجالسة العلماء العاملين من عباد الله تعالى الذين يذكرون العبد بالله إذا نسي ويعينونه إذا ذكر:

---

(٧٢٥) أخرجه البخاري (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٧٢٦)أخرجه أبو نعيم في" الحلية" (٨ / ٣٧٧) عن وكيع و الحاكم (٤ / ٣٠٨)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" ٢ / ٦٧٥.

(٧٢٧) أخرجه الحاكم (١ / ٤)، وقال الهيثمي في" المجمع" (١ / ٥٢): "رواه الطبراني في" الكبير "، وإسناده حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٥٩٠.

قيل للحسن: يا أبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال: والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك خوف.

خامسًا وأخيراً: الخوف من أن يمنع الإنسان من التوبة بأن يحال بينه وبينها إذا وقع في الذنب فربما جاءه الموت قبل أن يتوب فلا تقبل توبته كما قال الله –عز وجل–: "وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)[النساء: ١٨].

أيها الإخوة! لما ظهر السلطان ابن غازان على دمشق المحروسة ، جاءه ملك الكرج ، وبذل له أموالا كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ، فوصل الخبر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية فقام من فوره ، وشجع المسلمين ورغبهم الشجاعة ، ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف ، فانتدب منهم رجال من وجوههم وكبرائهم وذوي أحلامهم ، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان ، فلما رأى الشيخ أوقع الله فه في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدناه منه وأجلسه ، وأخذ الشيخ في الكلام معه في عكس رأيه من تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكره ووعظه فأجابه إلى ذلك طائعا وحقنت بسببه دماء المسلمين وجميت ذراريهم وصين حريمهم.

قال الشيخ كمال الدين بن الأنجا: كنت حاضرا مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان ، ويقرب منه في اثناء الحديث ، حتى لقد قرب أن يلاصق بربكبته ربكة السلطان والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته مصغ لما يقول ، شاخص إليه لا يعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله في قلبه من المحبة والهيبة سأل من هذا الشيخ فإني لم أر مثله ، ولا أثبت قلبا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقيادا لأحد منه ، فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان : قل لغازان أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت ، وجرت ثم خرج من بين يديه مكرما معززا بحسن نيته الصالحة من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله . تعالى . ما اراده ، وكان أيضا سببا لتخليص غالبا اسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهليهم وحفظ حريمهم وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة التجاسر.

وكان يقول: لا يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه ، فإن رجلا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال : لو صححت لم تخف أحدا ، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك.

أسأل الله أن يجعلنا ممن يخشاه ويتقيه ويخافه حق الخشية والتقوى والخوف... الدعاء

وما لنا ألا نتوكل على الله؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل على محمد وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليما كثيرا.

روحي الفداء لمن أخلاقه شهدت *** بأنَّه خير مبعوثٍ من البشرِ

عمَّت فضائله كل البلاد كما *** عمَّ البرية ضوء الشمس والقمرِ

أما بعد فيا أيها الإخوة.. ما من عبد يسعى إلى رضا ربه وإن سخط عليه الناس إلا رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، إذ قلوب الخلق بين يديه هو -جل وعلا-، وما من عبد يرضي الناس بسخط الله إلا كانت العاقبة أن يسخط الله عليه وأن يسخط عليه الناس فباء خاسراً منتكسًا مقلوبا عليه قصده بأن صار على عكس مراده ولم يغن الناس عنه من دون الله شيئاً بل وعاد حامده منهم ذاما له، وقد نبه على ذلك النبي ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه ابن حبان وجود إسناده الألباني من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "من التمس رضا الله بسخط الناس -رضي الله عنه- وأرضى عنه الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس". (٧٢٨)

والسر في هذا -أيها الإخوة- أن من أرضى الله بسخط الناس كان بذلك قد اتقى الله وكان عبده الصالح والله تعالى يتولى الصالحين وهو كاف عبده "ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه"، فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب وهذا هو لب التوكل على الله وأساس الاعتماد عليه وقاعدة تفويض كل الأمور إليه قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: "فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟! أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب".

وصدق الذي قال:

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر	وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب

---

(٧٢٨) أخرجه ابن حبان ١ / ٢٤٧، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٢٥٠.

ولذلك -أيها الإخوة- عظمت منزلة التوكل على الله حتى صارت من الإيمان كمثل الرأس من الجسد، وصارت نهاية تحقيق التوحيد وساقي العبادة التي لا تقوم إلا بهما ولهذا قال ربنا وأحق القول قول ربنا -عز وجل-: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين".

قال العلامة ابن القيم: "فجعل سبحانه التوكل على الله شرطاً في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولذا يجمع الله في مواضع من كتابه بين التوكل والإسلام وبين التوكل والهداية. [٧٢٩]

قال تعالى: "وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين".

وقال جل شأنه: "فالتوكل على الله -أيها الإخوة- فريضة على كل من وحد الله: "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون".

"أي لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ولا يطلبون حوائجهم إلا منه ولا يرغبون إلا إليه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذوه وكيلاً."[٧٣٠]

فما هو التوكل؟ وما منزلته؟ وما أقسامه؟ وما هي مظاهر ضعف التوكل؟ وكيف يحقق العبد منزلة التوكل؟ وأخيراً هل يتعارض التوكل مع الأخذ بالأسباب؟

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أيها الإخوة ما هو التوكل؟ التوكل هو الاعتماد على الله وتفويض الأمور إليه وإظهار العجز له والثقة بما في يديه الكريمتين والانخلاع من كل حول وطول وقوة ومدد وعون إلا منه جل جلاله فهو المولى وهو النصير، لما نام الزبير بن العوام على فراش الموت دخل عليه ابنه عبد الله بن الزبير فرأى الزبير ابنه مهموماً حزيناً فقال: يا بني مالي أرى عليك كآبة هم وغمامة حزن؟ فقال: ديونك يا أبت؟ ديون عليك كثيرة كيف نسددها؟ فقال الزبير بلغة المتوكل على الله المعتمد عليه الواثق بالله المفوض أموره كلها إليه قال: يا عبد الله إذا عجزت عن سداد شيء من ديني فاستعن عليه بمولاي فلم يفطن إليها عبد الله فقال: ومن مولاك يا أبت فقال الزبير: مولاي هو الله نعم المولى ونعم النصير، مولاي هو الله نعم المولى

(٧٢٩) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص ٢٦٤).

(٧٣٠) من مظاهر ضعف التوكل – خطبة على موقع المنبر.

ونعم النصير، يقول عبد الله فما وقعت في شيء من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير بن العوام اقض عنا دين الزبير حتى يفرج الله كربنا ويقضي عنا.

قال ابن عباس: التوكل هو الثقة بالله. وصدق التوكل أن تثق في الله وفيما عند الله فإنه أعظم وأبقى مما لديك في دنياك.

ولله در الصديق الأكبر أبي بكر –رضي الله عنه– الذي جاء إلى النبي يحمل كل ماله حين حث رسول الله الصحابة في غزوة تبوك على الإنفاق بسبب بعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته وكان عثمان صاحب القدح المعلى في الإنفاق في هذه الغزوة) [٧٣١]

وتصدق عمر بن الخطاب بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك ونترك الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله، ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر بكل ماعنده، فقال له رسول الله: ما أبقيت لأهلك؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً[٧٣٢]

أبقيت لهم الله ورسوله، ولا زالت هذه الثقة في الله في أصحاب الصدق والسبق الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان فها هو العالم الأجل الإمام المفضال عبد الرحمن الإفريقي أستاذ ابن عثيمين ورفيق الشنقيطي وهذا الجيل المبارك –رحمه الله– وطيب ثراه يحكي المجذوب عنه فيقول: ودرت أخلاف الرزق على الشيخ المهاجر فدرت معونته للمحاويج أعطاه الله فأطعم عباد الله يقول: حتى ليكاد ينسى مسئوليته نحو بيته وذريته، فإذا قيل له: دع بعض هذا لآلك. قال: إني تارك لهم خيرًا من ذلك. الله رب العالمين، يقول المجذوب: وصدق الله ظن الشيخ فتولى عنه رعاية بنيه الأربعة وبناته الأربع فغمرهم بالفيض من نعمائه، وساق إليهم ضروب التوفيق من حيث لا يحتسبون.[٧٣٣]

هذا هو التوكل على الله –عز وجل– "والمسلم إذ يدين لله تعالى بالتوكل عليه والاطراح الكامل بين يديه لا يفهم من التوكل ما يفهمه الجاهلون بالإسلام وخصوم عقيدة المسلمين من أن التوكل مجرد كلمة تلوكها الألسن، ولا تعيها القلوب، وتتحرك بها الشفاه، ولا تفهمها العقول، أو تترواها الأفكار، أو هو نبذ الأسباب وترك العمل، والقنوع والرضا بالهون والدون تحت شعار التوكل على الله والرضا بما تجري به الأقدار، لا أبدًا بل المسلم يفهم التوكل الذي هو جزء من إيمانه وعقيدته أنه طاعة الله بإحضار كافة الأسباب المطلوبة لأي عمل من الأعمال التي يريد مزاولتها والدخول فيها، فلا يطمع في ثمرة بدون أن يقدم أسبابها ولا يرجو نتيجة ما بدون أن يضع مقدمتها، غير أن موضوع إثمار تلك الأسباب،

---

(٧٣١) مروج الذهب للمسعودي (٣٠٩/٢).

(٧٣٢) نهاية الأرب للنويري (١٦٨/٦).

(٧٣٣) علماء ومفكرون عرفتهم (١/ ٧٦)، للأستاذ الشيخ محمد المجذوب، دار الشواف.

وإنتاج تلك المقدمات يفوضه إلى الله –سبحانه وتعالى– إذ هو القادر عليه دون سواه. فالتوكل عند المسلم إذًا هو عمل وأمل، مع هدوء قلب وطمأنينة نفس، واعتقاد جازم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، "وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً". (٧٣٤)

إن قعود قوم بدون عمل زاعمين أنهم متوكلون على الله معتقدين أن هذا هو التوكل الذي شرعه الإسلام إن هذه لأغلوطة كبرى في حق الإسلام، لا يحاسب الإسلام أبداً عنها إنما يحاسب من أخطأ فهمها عن الإسلام، وقد قال سيد المتوكلين على الله تعالى فيما روى الترمذي وسنده حسن من حديث أنس لما قال رجل يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل (لأنه قد ترك الناقة سائبة) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعقلها وتوكل".(٧٣٥)

فالتوكل عمل وعقيدة وليست كلمة خفيفة ترددها الألسنة الطويلة وتعجز عن تحقيقها الأيدي القصيرة، رأى عمر بن الخطاب في رحلة الحج أناساً لا زاد لهم ولا راحلة فقال من أنتم؟ قالوا نحن المتوكلون على الله، فقال عمر يصحح لهم الفهم: بل أنتم المتوكلون على القافلة ثم قال قولته الخالدة: "إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة".

أيها الإخوة! ولقد "كان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجرًا.... فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما كفيها فرعيت له وكان يحلب للحي أغنامهم ومن نوادر ذلك أنه لما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي (الآن لا تحلب لنا منائح دارنا) فسمعها أبو بكر فقال: (بلى لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه من خلق كنت عليه) فكان يحلب لهم" فلما استُخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقالا:(انطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً. فانطلق معهما.

إن للمتوكلين على الله حالًا، يقص صاحب نزهة المجالس ومنتخب النفائس علينا قصة وكذا ذكرها النيسابوري في التفسير: عن طاووس اليماني التابعي قال: جاء أعرابي إلى باب المسجد الحرام فنزل عن ناقته وعقلها وقال: يا رب هي في ضمانك ودخل فصلى صلاة كاملة ودعا دعاء حسنا فلما خرج من حرم الكعبة لم يجد الناقة فقال بفطرته وسجيته: يا رب أديت أمانتك فأين أمانتي؟ يا رب إنه ما سرق إلا منك، فلم يمكث حتى جاء رجل نازل من جبل أبي قبيس فنظرنا

(٧٣٤) منهاج المسلم ١٧١، ١٧٢، المكتبة القيمة.

(٧٣٥) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، والبيهقي في"شعب الإيمان"(٢/٨٠)، وحسنه الألباني في"صحيح الجامع"(١٠٦٨).

فإذا هو قد قطعت يده وهو يقود الناقة فتعجبنا من ذلك قال طاووس: فسألناه ما سبب ذلك قال جاءني رجل على فرس أشهب فقطع يدي وقال لي: رد الناقة على ولي الله.(٧٣٦)

ولما حج هشام بن عبد الملك دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال له: يا سالم! سلني حاجة، فقال: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: من حوائج الدنيا، فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟

وهذا التوكل –أيها الإخوة– إنما يظهر ويتضح بجلاء ويقوي القلب على جمعه واحتوائه إذا أنزله العبد منزلته ولم يره أمراً دون ما جعل الله له من المكانة والمنزلة فما منزلة التوكل على الله تعالى؟ ما هي رؤية الإسلام له في المكانة والفضل والتي ينبغي أن يراها له المسلم؟

ولنتأمل لمعرفة ذلك آيات من القرآن العظيم: قال الله تعالى: "وعلى الله فليتوكل المؤمنون"وقال تعالى: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين"وقال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)[الأنفال: ٢ – ٥].

أرأيت أيها الحبيب إلى ذلك الارتباط الذي يربط به القرآن الكريم بين التوكل والإيمان وهذا معناه أن التوكل من الإيمان بل صريح الآية: "وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)[المائدة: ٢٣] يقتضي أن يكون التوكل شرطاً في الإيمان إذا وجد التوكل فتم الإيمان وإذا ذهب التوكل ذهب الإيمان، وأيضًا إشارة إلى أن الإيمان يوجد على قدر وجوده ولذا فالمسلم لا يرى التوكل على الله تعالى في جميع أعماله واجباً خلقياً فحسب بل يراه فريضة دينية ويعده عقيدة إسلامية وهذا من منطلق فهمه لهذه الأوامر الربانية ولهذا كان التوكل المطلق والتسليم التام لله –سبحانه وتعالى– جزءاً من عقيدة المؤمن بالله تعالى: فلابد للمؤمن من تمحيض التوكل وتجريد الاعتماد على الله ولذا قال تعالى: "ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور"والعروة الوثقى هي لا إله إلا الله، وما مكانة لا إله إلا الله في الإسلام؟ ألم أقل لحضراتكم إن التوكل عقيدة واجبة وفريضة لازمة.

ولهذا لا ينبغي أبداً أن يتصرف الإنسان فيها هكذا سبهللاً يصرفها إلى من يشاء ويصرفها عمن يشاء بل لابد من ضبطها بالضوابط الشرعية وقياسها بالموازين الربانية والنبوية فيعرف الإنسان على من يعتمد وفي أي شيء؟

وهذا هو جواب السؤال: ما هي أقسام التوكل؟

---

(٧٣٦) نزهة المجالس ومنتخب النفائس – (ص / ٢٢٤)، تفسير النيسابوري – (١ / ٤٤).

أيها الإخوة الاعتماد على المخلوق فيما يقدر عليه وهو ما يعرف بالاعتماد على الأسباب شيء والاعتماد على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق شيء آخر، والاعتماد على المخلوق فيما يقدر عليه مع حفظ القلب من الالتفات عن الله شيء ثالث.

فهذه ثلاث بينها بون شاسع وفرق كبير، فالاعتماد على المخلوق فيما يقدر عليه أي من الأحياء الحاضرين القادرين فيما يقدرون عليه من الأمور مع العلم واليقين والاعتقاد الجازم بأنه لا يأتي بالنفع والضر إلا الله وأنهم ما هم إلا سبب فهذا جائز ومن أدلته حديث الأعمى والأقرع والأبرص فقد كان الملك يقول فيما يقول: "وليس لي بلاغ إلا بالله تعالى ثم بك".

ولذا نقول: اعتمدت على الله ثم عليك في هذا الأمر، توكلت على الله ثم عليك في هذا، فوضت هذا الأمر إلى الله ثم إليك وهكذا بلا نكير، فهذا جائز لكن دون أن يلتفت القلب إلى العبد أو السبب وينسي مسبب الأسباب سبحانه وأنه هو النافع الضار في الأمر كله فهذا حرام، انتبه أيها الغالي! أما من اعتمد على المخلوق فيما يستطيعه ويقدر عليه دون التفات إلى كون النفع والضر كله بيد الله تعالى فهذا أشرك شركًا أصغر، وهو حرام نعم لأنه اعتماد وتوكل على الأسباب الظاهرة دون الاعتماد على مسبب الأسباب –سبحانه وتعالى–.

وهذا كأن "يعتمد العبد على الطبيب لحصول الشفاء فيعالج عند طبيب معين لمهارته مع الثقة بالشفاء في يديه أو كالاعتماد على كثرة الجيش وقوته لحصول النصر أو الاعتماد على الوظيفة في الحصول على الرزق، وعلى مهارة السائق في السلامة" وهكذا، آه فالأمر جد خطير ليس باليسير، فتش في قلبك أيها الحبيب فتش في قلبك ما الذي بداخله؟ هل بداخله الاعتماد على الله تعالى وحده والتوكل عليه دون سواه؟ أم هو الاعتماد على شيء آخر لا ينفعك ولا يضرك من ناحية ما ترجو ولكن يضرك من حيث عقيدتك فيفسدها عليك ويضعف إيمانك بالله، فيجب على كل أخ وأخت من الآن أن يفتش عن قلبه.

وقد قال تعالى: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين" فهذا أمر منه سبحانه بأسلوب الحصر أن يتوكل المؤمنون عليه وحده ولا يتوكلوا على غيره فيخالفون بذلك الإيمان الواجب عليهم. (٧٣٧)

---

(٧٣٧) قال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله تعالى–: والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول : توكل عبادة وخضوع ، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه ، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر ، فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً ، مع شعوره بافتقاره إليه ، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى ، ومن صرفه لغير الله ، فهو مشركاً أكبر ، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين ، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون ، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار .

أما الاعتماد على المخلوق في شيء لا يقدر عليه إلا الله -عز وجل- فهذه الطامة الكبرى والمصيبة العظمى سواء كان ذلك الاعتماد على أحد من الأحياء أو الأموات وهو الشرك الأكبر الذي حذر منه رب الأرض والسموات وجاء بالتبري منه كل نبي وكل رسول فلا اعتماد إلا على الله، ولا ثقة إلا بالله ولا يقين إلا في الله ولا توكل إلا على الله، قال ربي وأحق القول قول ربي جل في علاه: "فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون"لا تجعلوا لله نداً تطلبون منه ما لا يقدر عليه إلا هو -سبحانه وتعالى- من الشفاء أو السلامة أو الحفظ أو الرزق أو النسل.

يحكي لنا بعضهم فيقول: كنت معهم أريد أن أرى ماذا يفعلون دعوني أكثر من مرة لأحضر معهم يقولون إنهم يرجعون يكادون يطيرون في السماء تحليقاً من الشعور بنعيم ومتعة ما سمعوا، ذهبت لأحضر معهم فما رأيت إلا شركاً بالله وكلاماً لا يليق يسمونها حضرة وما هي كذلك بل هي غيبة غيبة عن الشعور غيبة عن العقل غيبة قبل هذا وهذا عن الدين والشرع قال: والطامة الكبرى أننا خرجنا من عند شيخهم وتركناه وراءنا لما ركبنا الحافلة وسارت بنا إلى ما يقرب من منتصف الطريق كادت تنقلب بنا لولا ستر الله تعالى ولطفه بنا، ولكن العجيب أنني سمعت صراخهم أثناء ما كان السائق لا يستطيع السيطرة على السيارة كانوا يرفعون أصواتهم عالية يجأرون وينادون أتدرون من كانوا ينادون؟ أتدرون بمن كانوا يستغيثون؟ لقد كانوا ينادون الشيخ الذي تركناه وراءنا على بعد عشرات الكيلومترات، ينادونه ليحفظهم ويمسك بهم ولا يهلكهم! فأخذت أقول في دهش: سبحان ربي، وتساءلت: هل هؤلاء مسلمون حقاً؟

وصدق ربي إذ يقول: "ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون".

إن التوكل من الدعاء والدعاء عبادة فمن صرف التوكل إلى غير الله فقد صرف العبادة إلى غير الله وهذا شرك، ولذلك قال علماؤنا: "الاعتماد بالقلب على غير الله -عز وجل- في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله من جلب نفع أو دفع ضر، كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت في تحقيق المطالب من النصر والحفظ والرزق والشفاعة وغيرها هذا شرك أكبر في ألوهيته – سبحانه – لأنه صرف لإحدى العبادات لغير الله وهي من العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله وحده ".[٧٣٨]

الثاني : الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك ، وهذا من الشرك الأصغر ، وقال بعضهم : من الشرك الخفي ، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصول رزقه ، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار ، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر ، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب ، بل جعله فوق السبب .

الثالث : أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه ، كما لو وكلت شخصاً في بيع شيء أو شرائه ، وهذا لا شيء فيه ، لأنه أعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا فوقه ، لأنه جعله نائباً عنه ، وقد وكل النبي – صلى الله عليه وسلم – على ابن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه، ووكل أبا هريرة على الصدقة، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له شاة ، وهذا بخلاف القسم الثاني ، لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك ، ويرى اعتماده علي المتوكَّل عليه اعتماد افتقار، القول المفيد (٢/ ٢٩).

(٧٣٨) عون العلي الحميد (٢ / ١٠٥).

فهذه أقسام التوكل وبالإجمال فالتوكل على الله وحده واجب والتوكل على غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر والتوكل على غير الله من المخلوقين إن كان فيما هو في استطاعتهم فينبغي أن يتعلق القلب بالله في قضاء المصالح، وإلا كان تعلق القلب بغير الله في هذه الحالة شركاً أصغر وهو حرام كذلك.

أيها الإخوة! إن من صفات المؤمنين التوكل على ربهم ولذا مدحهم الله به وأثنى عليهم لما تلبسوا به، وينبغي أن يوطن كل منا قلبه على ذلك ليرزقه الله تمام الإيمان وكمال الإسلام فليرسخ في قلوبنا ولتعقد النياط عليه، على ماذا؟ على أنه لا يتحرك ساكن ولا يسكن متحرك ولا تسود دولة ولا تزول دولة ولا يجيء حاكم ولا يزول حاكم إلا بأمر مدبر السموات والأرض: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)[آل عمران: ٢٦، ٢٧].

ولذلك فالمؤمن إن اعتقد هذه العقيدة كفاه الله ووقاه ونصره ونجاه وإن لم يكن معه من الخلق أحد بل ولو كان الخلق جميعهم ضده قال ابن مسعود: الجماعة هي الحق ولو كنت عليه وحدك وصدق الله القائل لنبيه: "يا أيها النبي حسبك الله "نعم كفى به ملاذًا ومعتمدًا وصدق الله القائل: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" القائل: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧)وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)[الزمر: ٣٦ – ٣٨]

فمم يخاف العالمون؟ إذا كان الله معك فماذا خسرت؟ وإذا كانت الدنيا كلها معك وليس الله معك فقد خسرت، ولذا كان المتوكلون على الله هم المنصورون لما لجأوا إلى إعلان التوكل على الله فمن كان في ضيق وكرب فمحض وجرد التوكل والاعتماد على الله أتاه الفرج سريعًا من الله، ولنطف سوياً بهذه المثل نستنشق عبيرها ونشم طيبها وأريجها.

فهذا إبراهيم عليه السلام يلقى في النار التي لو قدر الله لها أن تأكله لما تحمل منها ذرة ولما قضى فيها ثانية بل ينتهي الأمر وينقضي في لمح البصر، فماذا قال إبراهيم حتى ينجو؟ تعلق قلبه بالله وحده وأعلن ذلك قائلاً: حسبي الله ونعم الوكيل فقال الله لجنديه النار"كوني برداً وسلاماً على إبراهيم"فخرج منها عليه السلام لم يمس بسوء.

روى البخاري وغيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال:(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ أُلْقِىَ فِى النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ – صلى الله عليه وسلم – حِينَ قَالُوا: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

الْوَكِيلُ(٧٣٩) فهذا الخليل يلجأ إلى الله في الشدة بتجريد التوكل والتجرد من الحول والقوة إلى الاعتماد على رب البرية فيفرج الله شدته ويبدد الله ظلمته ويفك الله كربته.

وهذا الكليم موسى عليه السلام يخرج من مصر ببني إسرائيل هارباً من بطش فرعون الذي لو أدركهم لن يفلت منهم اليوم الكبار ويذبح الصغار كما كان يفعل، بل يقضي على الصغار والكبار في آن وقدر الله أن يذهب موسى ليلاً بقومه فيتجهون إلى البحر وينتهون إلى شاطئه وما إن وصلوا حتى سمعوا صوت صهيل الخيول وصليل السيوف فعرفوا أن فرعون وجنوده قد لحقوا بهم وتخيلوا مع هذا هدير شلالات الدم التي تقام بعد قليل من صلب وقتل وقطع ونسي القوم العظيم الجليل الذي أمرهم ابتداء بالخروج والتفتوا إلى موسى قائلين: "إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)[الشعراء: ٦١] هذا الجيش قد أتى وهذا البحر قدامنا منعنا من مواصلة السير فإلى أين المفر؟ إنا لمدركون لا محالة لا مفر لا محيد لا مهرب. فقطع موسى الكليم عليه السلام هذه الوساوس قائلاً في ثقة واعتماد وتوكل على الله: "قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ" (٦٢)[الشعراء: ٦٢، ٦٣] نعم "معي" هذه الكلمة كافية أن تطمئن النفوس الهالعة والقلوب المفزّعة فارتدت النفوس إلى القلوب لتطمئن القلوب بدورها الأطراف والجوارح قائلة بلسان الحال طالما "معي" فقد أعد المهرب والمفر، قد أعد موسى عدته حتى لهذا الموقف فلتهدأوا ولتطمئنوا لا تقلقوا، ولهذا السبب –أيها الإخوة– قدم موسى عليه السلام لفظة المعية على لفظة الربوبية فقال: "إن معي ربي" ولم يقل إن ربي معي، ذلك لأنه يخاطب أنفسًا فى شك وريب وتردد لاتتمتع بثقه ولم يرسخ فى قلوبها إيمان أو يقين، وأنجى الله موسى ومن معه كما قال –عز وجل–"فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤)وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥)ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧)وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)[الشعراء: ٦٣ – ٦٨].

أيها الإخوة! إذا كان هذا موقف الخليل وهذا موقف الكليم فإن موقف الحبيب كان أعظم وأجل وأعلى.. نعم فها هو الحبيب النبي ﷺ في الهجرة المباركة تلك الرحلة التي تجلت فيها حقائق الإيمان والتوكل معاً مقترنين يخرج النبي ﷺ إلى الهجرة بعدما أخذ بالأسباب جميعها كما سأبين بعد قليل وكان آخرها الاختباء في الغار ولكن يقدر الله أن يصل المشركون إلى باب الغار وأخذوا يطوفون ويدورون حوله، وهنا دب القلق على النبي في قلب الصديق رفيق النبي في الغار الصديق أبوبكر المبكر المبارك فقد خاف على النبي ﷺ وعلى مستقبل الإسلام والدعوة كلها في شخص رسول الله ﷺ حامل لوائها ورافع رايتها وعبر عن خوفه ذاك قائلاً: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدمه لأبصرنا فقال الصادق المصدوق ﷺ بأبي هو وأمي وأمتي ونفسي يعلم الصديق أن"آخر الأسباب للمؤمن اطراحه بين يدي الله وتفويضه أمره كله إليه في ثقة واطمئنان وقد استنفد الرسول ﷺ جميع الوسائل في طلب النجاة حتى حشر نفسه التي طلب النجاة لها

(٧٣٩) أخرجه البخاري (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

في غار مظلم تسكنه العقارب والحيات ولذا قال في ثقة المؤمن ويقين المتوكل لصاحبه لما ساوره الخوف: "لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما". (٧٤٠)

أخي! هل تدبرت هذه اللفظة النبوية في التعبير عن معية رب البرية"اثنين الله ثالثهما"اثنين الله ثالثهما، إذاً فلتخرج مكة كلها بخيلها ورجلها، برجالها ونسائها وأطفالها، بشيوخها وشبابها، بل لتخرج الدنيا بأسرها لتبحث عن محمد وصاحبه فوالله لو قلبوا رمال الصحراء حبة حبة لن يصلوا أبداً إلى اثنين الله ثالثهما.

وأمثله التوكل لا تقف عند حد الرسل والأنبياء وإن كانوا القدوة العظمى فى ذلك روى البخاري عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –" أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ ائْتِنِى بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، قَالَ فَأْتِنِى بِالْكَفِيلِ. قَالَ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً. قَالَ صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِى الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِى أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِى كَفِيلاً، فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً، فَرَضِىَ بِكَ، وَسَأَلَنِى شَهِيدًا، فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِىَ بِكَ، وَأَنِّى جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِى لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّى أَسْتَوْدِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِى الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهْوَ فِى ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِى كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِى فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِى كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِى طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِى أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَىَّ بِشَىْءٍ قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّى لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِى جِئْتُ فِيهِ. قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِى بَعَثْتَ فِى الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا ». (٧٤١)

أكتفي بهذه الأمثلة الأربعة الرائعة لأنتقل إلى العنصر الأهم في اللقاء كله ألا وهو كيف يحقق العبد منزلة التوكل، وإلا فوالله لو ظللنا نتحدث عن المتوكلين ونطوف في بستانهم ما كفتنا جمعات وجمعات.

أقول: إننا أمة التوكل شرعيًا ومنهجيًا، لكننا نقصر في هذه الفريضة كثيرًا جدًّا عمليًّا وتطبيقيًّا حتى ضعف لدينا عطاؤها و مظاهر ضعف التوكل على الله والتعلق بغيره، والاعتماد على سواه، بلي بها كثير من المسلمين ولاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم، وسنتحدث عن هذه المظاهر بعد جلسة الاستراحة هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

---

(٧٤٠) أخرجه البخاري ٣٦١٥، ومسلم ٧٧٠٦.

(٧٤١) أخرجه البخاري ٢٢٩١.

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! قلت: إن ضعف التوكل والتعلق بغيره، والاعتماد على سواه، قد بلي به كثير من الناس، ومن مظاهر ذلك:

أن كثيراً من الناس إذا نزلت بهم الأمراض أو أصابتهم الأسقام تعلقت قلوبهم بالأسباب الحسيّة وغفلوا عن قوله –عز وجل–: "وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ" فتجد فريقاً ممن أصيبوا بالأمراض علقوا قلوبهم بالأطباء أو الأدوية ورجوا منهم الشفاء وزوال الداء، ومنهم فريق جاب الفيافي والقفار وقطع الصحاري والبحار، وشرَّق وغرَّب في الأمصار، يلاحق السحرة والمشعوذين يرجو منهم رفع البلاء، وكشف الضراء، فخربوا قلوبهم لإصلاح أبدانهم، ففسدت قلوبهم، ووهنت أبدانهم "وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً" فاتقوا الله عباد الله فإن من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً فسأله فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – فكيف يا عبد الله تطلب الشفاء من السحرة والكفرة الذين لا حول لهم ولا قوة وتغفل عن الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء كيف تيأس من روحه ورحمته وقد وسعت رحمته كل شيء أما سمعت نبي الله أيوب عليه السلام "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"

ألم تر كيف أجابه الكريم المنان "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ" فاتقوا الله عباد الله وإياكم إياكم إياكم أن تأتوا هؤلاء الكهنة والمشعوذين تحت أي ظرف، فلأن تموت يا عبد الله مريضاً موحداً مؤمناً خير لك من أن تموت صحيحاً معافىً مشركاً، فإِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ".

ومن مظاهر ضعف التوكل أن الناس إذا نزلت بهم المصائب وأصابتهم النوائب فزعوا إلى غير مفزع، وفروا إلى غير مهرب، فتجد الواحد من هؤلاء إذا نالته نائلة توجه إلى مخلوق مثله يطلب شفاعته وغوثه وتحقيق طلبه، ولو أن هؤلاء صدقوا الله لكان خيراً لهم، طرقوا كل باب وسلكوا كل سبيل إلا أنهم غفلوا عن الله الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون فإنه سبحانه قد قال:؟وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ؟. أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته يكفيه ما أهمه وأقلقه فاتقوا الله عباد الله وأنزلوا حاجاتكم بالذي ينادي كل ليلة فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له".

جاء رجل إلى الربيع بن عبد الرحمن يسأله أن يكلم الأمير في حاجة له فبكى الربيع –رحمه الله– ثم قال: أي أخي اقصد إلى الله –عز وجل– في أمرك تجده سريعاً قريباً فإني ما طلبت المعونة من أحد في أمرٍ أريده إلا الله فأجده كريماً قريباً لمن قصده وتوكل عليه.

ومن مظاهر ضعف التوكل عند بعض الناس: التشاؤم والتطير ببعض الأسماء أو الأشخاص أو الأرقام أو الألوان أو الأيام أو الشهور وغير ذلك من الشرك المحرم قال – صلى الله عليه وسلم–: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك). (٧٤٢)

فاتقوا الله عباد الله واعلموا أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله –جل وعلا– ولا يدفع السيئات إلا الله سبحانه، فعلقوا قلوبكم بالله يا عباد الله واعتقدوا قوله –جل وعلا–: "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (٧٤٣)

هذه بعض مظاهر ضعف التوكل على وجه السرعة.

وأخيرًا أيها الإخوة كيف يحقق العبد منزلة التوكل والجواب على ما ذكره العلامة السعدي –رحمه الله– (٧٤٤) أن سبيل ذلك أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة.

فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين.

وأخيراً أيها الإخوة هل يتعارض التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب؟ والجواب بحول الملك الوهاب: إن الذي أمرنا بالأخذ بالأسباب هو الله تعالى والذي أخذ بالأسباب هو رسول الله ﷺ والله هو الذي أمرنا بالتوكل ورسول الله هو سيد المتوكلين على ربه، فهل ترى بين هذا من تعارض؟ واسمع إلى هذه الدرر الغوالي الغاليات يقول الشوكاني –رحمه الله–: "والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب اتباعًا لسنته وسنة رسوله، فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك.

وقال للذي سأله أيعقل ناقته أو يتوكل؟: "اعقلها وتوكل"فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل.(٧٤٥)

---

(٧٤٢) أخرجه أحمد ٧٠٤٥، وغيره، وصححه الألباني انظر حديث: ٦٢٦٤ في صحيح الجامع.

(٧٤٣) من مظاهر ضعف التوكل – خطبة من موقع المنبر.

(٧٤٤) القول السديد (ص / ١٢٢).

(٧٤٥) نيل الأوطار للشوكاني أبواب الطب باب إباحة التداوي وتركه تحت الحديث (٣٧٦٢).

فعلى أهل التوكل الحق أن يلزموا عتبة التوكل ومتى صح التوكل على الله صحت كفايته لعبده فلا يحتاج إلى أحد ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لأحد فيه.

نعم فالتوكل لا يتم إلا مقترناً بالأسباب المشروعة فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل بشرط أن يعتقد العبد أنها بإذن الله وتقديره.

ولذا قيل: الأخذ بالأسباب المشروعة من تمام التوكل وعدم الأخذ بالأسباب يقدح في التوكل بل يقدح فى العقل.

حبيبي! "إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فأفرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله، وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة"، كما يقول ابن القيم طيب الله ثراه.

أسأل الله أن يجعل اعتمادنا عليه ويقيننا فيه واستسلامنا له وثقتنا به وتفويضنا إليه.

اللهم إنا نبرأ من الثقة إلا بك ومن التفويض إلا إليك ومن التوكل إلا عليك ومن الإنابة إلا لك ومن الرجاء والأمل إلا من يديك الكريمتين واسلموا لمن يحبكم... الدعاء.

المسلم بين الأمن والقنوط

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وصلِّ يا رب على خير الورى *** ما صدحت قُمْرية على الذرى

والآل والأزواج والأصحاب *** والتابعين من أولي الألباب

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

فحياة المسلم جميعها قائمة على التوازن فلا إفراط ولا تفريط ولا شطط ولا غلو وإنما التوسط والاعتدال، وأول هذا علاقته بربه –سبحانه وتعالى– فهي قائمة على الوسطية فالمسلم لا يأمن ويركن إلى الرجاء ويترك الجد والعمل لنيل الأجر

والثواب، ولا يقنط ويركن إلى اليأس من روح الله ورحمته فيترك العمل، وإنما هو وسط بين هذا وهذا ولذلك لما بحث العلماء قضية الخوف والرجاء وكيف يجمع العبد بينهما؟ منهم من قال يركن إلى الخوف في وقت وسوسة النفس الأمارة بالسوء ويركن إلى الرجاء في وقت المرض والمصائب، ومنهم من قال: يركن إلى الخوف دائماً، ومنهم من قال يركن إلى الرجاء دائماً والأول هو الصحيح اللائق المقبول فلابد للعبد من الجمع بين الخوف والرجاء والمحبة نعم فهذه الأركان الثلاثة هي طريق الوصول إلى رضا الله وطاعة الرسول ﷺ والفوز بجنة الله تعالى، لأن عبادة الله بالخوف وحده طريقة الخوارج ؛ فهم لا يجمعون إليه الحب والرجاء ؛ ولهذا لا يجدون للعبادة لذة، ولا إليها رغبة، فيجعلون الخالق بمنزلة سلطان جائر، وهذا يورث اليأس والقنوط من رحمة الله، وغايته إساءة الظن بالله، والكفر به سبحانه.

وعبادة الله بالرجاء وحده طريقة المرجئة الذين وقعوا في الغرور والأماني الباطلة، وترك العمل الصالح، وغايته الخروج من الملة.

وعبادة الله بالحب وحده طريقة غلاة الصوفية الذين يقولون: نعبد الله لا خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته وإنما حباً لذاته.

وهذه طريقة فاسدة، ولها آثار وخيمة، منها الأمن من مكر الله، وغايته الزندقة، والخروج من الدين، ولهذا رأيناهم يخترعون ما أسموه برفع التكاليف فلا يصلون ولا يتعبدون بحجة أنهم وصلوا إلى حد اليقين، وكذبوا فإن سيد الموقنين صلى الله عليه وسلم عبد ربه حتى آخر لحظة من حياته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى فهذه طريقة نبيهم ما لهم عنها يرغبون؟ إلا إن كان لهم نبي آخر.

ولهذا قعد السلف رحمهم الله قاعدة للسير إلى الله سيرا صحيحا يضمن لمن التزمها الوصول إلى مرضاته في كلمة مشهورة وهي: "من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري أي خارجي، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن موحد".

فلابد من جمع هذه الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة لضمان الوصول قال ابن القيم: "القلب في سيره إلى الله –عز وجل– بمنزلة الطائر ؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه ؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر".

وقال: "السلف استحبوا أن يُقَوِّي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف".

وقال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء فسد. (٧٤٦)

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب ؛ فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه.

وأحب أن أنبه – أيها الإخوة – إلى أمر خطير للغاية ألا وهو شنشنة قديمة حديثة يرددها بعض من لم يفهم مراد الله ورسوله ألا وهى قولهم: إننا نعبد الله لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في رحمته ثم يقسمون العبادة تبعاً لهذه النظرية الفاسدة إلى أقسام فيقولون: هناك عباد يعبدون الله طلبًا للجنة فهؤلاء تجار وهذه عبادة التجار، وهناك عباد يعبدون الله تعالى خوفا من النار وهذه عبادة العبيد، وإنما من أراد أن يعبد الله خالصاً فليعبده لذاته لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته بل منهم من يقولون: "من كان يعبد الله طمعاً في جنته، أو خوفاً من ناره، فقد عبد الوثن"ونسي هؤلاء أن الله في القرآن مدح خيرة خلقه وهم الأنبياء قائلاً: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهباً وكانوا لنا خاشعين". [سورة الأنبياء: ٩٠]

فهل كلام هؤلاء مقدم على كلام الله،؟! وبعضهم ينسب إلى علي –رضي الله عنه– أنه يقول: "الذي يعبد الله طمعاً في جنته، عبادة التجار"فهذا –أيها الإخوة– لايصح أبدًا عن على ولا عمن مثله فى العلم والفضل على أيام الإسلام المديدة وليخبرنا هؤلاء أين وجدوا ذلك في أي كتاب، وهل هو صحيح؟ وهل يعقل أن يخالف علي –رضي الله عنه– القرآن وهو من أصحاب الرسول ﷺ، ومن المبشرين بالجنة؟ ثم إن الله تعالى ذكر وصف المؤمنين يمدحهم قائلاً:

"تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً"[سورة السجدة: ١٦]

فالله يقول عن أنبيائه: إنهم كانوا يدعونه –سبحانه وتعالى– راغبين في ثوابه خائفين من عقابه،ويصف الذين يقومون فى الليل بين يديه بهذا الوصف يدعون ربهم خوفًا وطمعًا. والرسول (قال هذا للأعرابي الذي جاءه وقال له يا رسول الله إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ولا أحسن دندنتك ولا دندنة "معاذ بن جبل" فقال النبي ﷺ: "حولها ندندن"(٧٤٧) (يعني حول الجنة والنار) فإذا كان الرسول (يدندن حول الجنة والنار) فهل نصدق من يقول: إن عبادة من سأل الله الجنة واستعاذ به من النار هي عبادة التجار؟ كذبوا والله، بل هي عبادة سيد الأبرار الأخيار الأطهار.

يقول بعض العلماء: إن فئاماً من المسلمين إلى اليوم قد صدقوا بعض الجهال في خرافتهم وتزييفهم للحقائق من الذين يزعمون أنهم لا يعبدون الله خوف ناره فهذه في زعمهم عبادة العبيد، ولا من أجل جنته فهذه عبادة التجار، وإنما

---

(٧٤٦) مدارج السالكين (١/ ٥١٧)، وفي مواضع هنا استفدت من رسالة: كلمات في المحبة والخوف والرجاء للشيخ الجليل: محمد بن إبراهيم الحمد.

(٧٤٧) أخرجه أبو داود ٧٩٢ وابن ماجه ٩١٠، وصححه الألباني في، صحيح أبي داود (٧٥٧).

عشقوه لذاته، ولم تندفع هذه الفئام في تصديق هذا الهراء إلا لأنهم في سبات روحي عميق، وإلا فالخشية من ذي الجلال والرغبة فيما عنده من عليا مراتب الإيمان بل من شأن الرسل العظام، اقرأ إن شئت قوله تعالى في حق زكريا عليه السلام وأهل بيته: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً.". ثم قال جل شأنه بعدها: "وكانوا لنا خاشعين".

وكعادتهم ينسبون الكلام المعسول لفظاً المسموم معنى إلى المشاهير كي يدخل على ضعاف العقول من المسلمين كما نسبوا لعلى ما قدمنا وكما ينسبون لرابعة أنها قالت: اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فاحرقني بها، وإن كنت أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها، وإن كنت أعبدك لذاتك فلا تحرمني لذة قربك.

وينشدون عنها أنها كانت تقول:

أحبـــك حبـــين حـــب الهـــوى	وحبـــاً لأنـــك أهـــل لـــذاكا
فأمـــا الـــذي هـــو حـــب الهـــوى	فـــذكر شـــغلت بـــه عـــن ســـواكا
وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــل لـــه	فكشـــفك للحجـــب حـــتى أراكـــا
فمـــا الحمـــد في ذا ولا ذاك لي	ولكـــن لـــك الحمـــد في ذا وذاكـــا

ونسبوا لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام أنه كان يقول: إن قوماً عبدوا الله –عز وجل– رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار.

وهذا لا يصح عن رابعة ولا عن علي بن الحسين وهما منه براء، فلنحذر من ذلك كله أحبتي ولنكن على ما كان عليه النبي وسلفنا الصالح فهي الوسطية كما قدمنا: عيش لا يأمن فيه المسلم مكر الله ولا ييأس فيه من روح الله، والسؤال الآن أيها الإخوة:

ما هو المكر؟ وما معنى الأمن من مكر الله؟ وهل يصح وصف الله –عز وجل– بهذا الوصف؟ وما هي أسباب الأمن من مكر الله؟ وما خطره وما عاقبته؟

ثم ما هو القنوط من روح الله؟ وما حكمه؟ وما هي أسباب اليأس والقنوط؟ وما هو علاج اليأس والقنوط والمكر جميعًا؟

أيها الإخوة! الأمن من مكر الله معناه: اطمئنان القلب بعدم عقوبة الله وعدم مراقبته والغفلة عنها والعبد مع هذا مقيم على معاصي الله ومساخطه فلا يحذر الله فيما هو عليه ولا يخافه فكأنه شك أو أنكر اسم القهار.

وهذا خلاف حال أهل السلامة فإن الطمأنينة من مكر الله واستدراجه لعباده يخالف كمال التوحيد الواجب ويورث المهالك، بل يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله كما يرجوه وهذا هو حال الأنبياء والصالحين كما ذكرنا قبل قليل راغبين راهبين، إن نظر العبد إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خاف ربه، وإن نظر إلى عفوه الشامل رجا وطمع، وإن ابتلى بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشى عقابه، وعند المكاره والمصائب يرجو من الله دفعها وينتظر من الله الفرج بحلها.

وقد كان خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ وهم أصحاب رسول الله ﷺ على هذه الحال فهذا الصديق يسمع قول الله –عز وجل–: "من يعمل سوءاً يجز به". فيقول: لو حاسبني ربي على كل ذنب لهلكت ويبكي وهو الذي يحفظ الناس أيضا قوله: لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماي في الجنة فقد كان آدم وحواء وإبليس فيها فخرجوا، وكان يقول: "يا ليتني شعرة في صدر رجل مؤمن" مع أنه صاحب المناقب التي لا يحصيها محص ولا يعدها عادّ. وهذا الفاروق –رضي الله عنه– لما حضرته الوفاة كان ابنه عبد الله يضع رجله تحت رأسه فكان إذا أفاق قال: "يا بني ضع رأسي بالأرض" فيقول عبد الله: يا أبت وهل رجلي والأرض إلا سواء؟ فيقول: ضع رأسي بالأرض لا أم لك، عسى الله أن ينظر إليّ نظرة فيرحمني" ثم يقول: "ويل عمر إن لم يغفر الله له، وكان يقول: وددت أني أخرج منها كفافاً لا لي ولا علي والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول يوم المطلع".

مع أنه صاحب المناقب التي لا يحصيها محص ولا يعدها عاد.

وهذا عثمان –رضي الله عنه– كان إذا ذكر القبر يبكي حتى يبل لحيته فسئل في ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه، قال: وقال رسول الله ﷺ: "ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه. والحديث أخرجه ابن ماجة وسنده حسن في صحيح ابن ماجة. (٧٤٨) يقول عثمان هذا مع أنه صاحب المناقب التي لا يحصيها محص ولا يعدها عادّ.

وغيرهم وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ بل كذلك كانوا كلهم، ومن بعدهم سلفنا الصالحون من التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الناس هذا.هذا هو حال الايمان الذى مدحهم الله لأجله ونالوا به رضا الله كما قال الله تعالى "إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يوتون ما أتوا وقلوبهم وجلة انهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون".

(٧٤٨) أخرجه ابن ماجه ٤٢٦٧، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه، تخريج المختارة (٣٦٦ – ٣٦٧).

روى الترمذي عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: "لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات"(٧٤٩)

ومن تأمل آيات وأحاديث الشريعة وجد أن الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم قد وصفا أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصفا الأشقياء بالإساءة مع الأمن

يقول ابن القيم -رحمه الله-: ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن.

فهذا الصديق يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن، وكان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكى كثيرًا ويقول: ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا، وكان اذا قام الى الصلاة كأنه عود من خشية الله -عز وجل-، وأتي بطائر فصار يقلبه ثم قال: ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة الا بما ضيعت من التسبيح، ولما احتضر قال لعائشة: يا بنية إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد فأسرعى به إلى ابن الخطاب وقد كانت أعطيت له بحكم مجلس شورى المسلمين برئاسة عمر ليستعين بها على الخلافة، قال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد، وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: "إن عذاب ربك لواقع" فبكى واشتد بكاؤه حتي مرض وعادوه، وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عل أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي، ثلاثا، ثم قضى، وكان يمر بالآية في ورده بالليلفتخنقه العبارات فيبقى في البيت أيامًا ويعاد ويحسبونه مريضًا وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء وقال له ابن عباس: مصر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال: وددت اني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكى حتى تبل لحيته وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم الى أيتهما أصير.

وهذا على بن أبي طالب -رضي الله عنه- وبكاؤه وخوفه وكان يشتد خوفه من اثنتين طول الأمل واتباع الهوي قال فأما طول الأمل فينسي الآخرة وأما إتباع الهوي فيصد عن الحق ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولاحساب وغدًا حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسى يوم القيامة أن يقال: يا أبا الدرداء! قد علمت فكيف عملت فيما علمت؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة ولا شربتم شرابًا على شهوة ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل، وهذا عبد الله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

---

(٧٤٩)أخرجه الترمذي ٣١٧٥، وابن ماجة ٤١٩٨، وصححه الألباني في الصحيحة ١٦٢.

وكان أبو ذر يقول: ياليتني كنت شجرة تعضد وودت أني لم أخلق، وعرضت عليه النفقة فقال عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة وإني أخاف الحساب فيها، وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتي على هذه الآية: "أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات" جعل يرددها ويبكى حتي أصبح.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: وددت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في صحيحه: باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وقال ابراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا، وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول:إنه على ايمان جبريل وميكائيل، ويذكر عن الحسن: ما خافه الا مؤمن ولا أمنه إلا منافق وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشدك الله هل سماني لك رسول الله يعني في المنافقين؟ فيقول: لا ولا أزكى بعدك أحدًا. فسمعت شيخنا شيخ الإسلام يقول: ليس مراده إني لا أبرىء غيرك من النفاق بل المراد:إني لا أفتح على هذا الباب فكل من سألني هل سماني لك رسول الله فأزكيه(٧٥٠)

وقبل أن أستطرد في إجابة باقي الأسئلة –أيها الإخوة– أود أن أجيب سؤالًا يتراءى لي، وأنظره يلوح على مخايل الوجوه التي أمامي يجول في الصدور يتحرج أصحابه من سؤاله ألا وهو أنني رددت مراراً وتكراراً لفظة (مكر الله) فما معنى ذلك، وكيف يوصف الله –تبارك وتعالى– بالمكر مع أن المكر ظاهره أنه مذموم؟

وأؤصل الكلام حول هذه النقطة تأصيلاً لا يختص بمقامنا هذا فحسب وإنما ليفيد إفادة عامة عند من يتعرض لمثل هذه الجمل في القرآن الكريم وهو يقرؤه أو في السنة النبوية وهو يطالعها.

فأقول –أيها الإخوة– : لقد ورد في القرآن الكريم أفعال أطلقها الله تعالى على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال لكن لا يجوز أن يشتق له تعالى منها أسماء كما لا يصح أن تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله تعالى: "إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم"وقوله تعالى: "ومكروا ومكر الله"وقوله تعالى: "نسوا الله فنسيهم"وقوله تعالى: "وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم"ونحو ذلك من آيات،فلا يجوز أن يطلق على الله تعالى مخادع أو ماكر أو ناس مستهزئ تعالى ربي وجل عن ذلك ولا يقال: الله يستهزئ ويخادع ويمكر وينسى هكذا على سبيل الإطلاق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً قال الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى–: "إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقاً ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى ومن ظن ذلك فقد فاه بأمر عظيم تقشعر منه الجلود وتكاد الأسماع تصم عند سماعه وإنما غر هذا الجاهل أنه –سبحانه وتعالى– أطلق على نفسه هذه الأفعال".(٧٥١)

---

(٧٥٠) الجواب الكافي (ص ٢٦).

(٧٥١) مختصر الصواعق(٢٩٠– ٣٩٢).

فلا يطلق على الله من هذه الأفعال شيء إلا في السياق الذي وردت فيه وهي حينئذ تدل على المدح والكمال، هذا هو منهج أهل السنة والجماعة فى هذه المسألة –أيها الإخوة– وهو المنهج الحق الذي يؤيده الفكر السليم والعقل الصحيح، فكيف يجوز أن نشتق لله وحده من هذه الأفعال أسماء كالماكر أو الناسى أو المخادع وكل أسماء الله حسنى وفضلى؟ كيف نقرن هذه الأسماء باسم الله الرحيم أو الودود أو الحكيم أو الكريم؟ والمقصود أن الله تعالى سمى نفسه بأسماء حسنة وصفات عليا ثم إنه أطلق على نفسه بعض صفات الأفعال على وجه الجزاء والمقابلة لمن فعل ذلك، فالماكر يمكر الله به والمخادع يخدعه الله من باب قول النبي ﷺ: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته". ثم قرأ قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢].(٧٥٢)

فهذا من وجوه المكر والخداع له ومعلوم أن المجازاة على ذلك إن كانت من المخلوق فهي حسنة فكيف إذا كانت من الخالق –سبحانه وتعالى–؟!

فالمكر إذا كان في محله فهو محمود، ولذا فمثل هذا لا يطلق على الله كاسم ولا كوصف وإنما يكون في مقام وسياق يدل على المدح والحمد.

ولذلك ما كان السلف رضوان الله عليهم يتحرجون من التحدث بمثل هذا في مثل هذا السياق والمقام كما سمعنا عن أبي بكر رضي الله عنه.

نعود –أيها الإخوة– لنجيب عن بقية الأسئلة التي طرحناها في بداية اللقاء ما حكم الأمن من مكر الله –عز وجل–؟

إن العبد الذي سولت له نفسه معصية الله –عز وجل– فاستمرأها واعتاد عليها وما عاد يصده عنها صاد ولا يرده عنها راد سواء كانت تلك المعصية ظلماً لنفسه أو ظلماً لغيره لهو عبد جاهل مغرور بحلم الله عليه وهو لا يدري أسكرته نشوة المعصية وأذهلته عن مقتضى التفكير الصحيح، فإن الله – أيها الإخوة– قال عن أقوام: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ(٤٤) [الأنعام: ٤٤]" كان المنتظر بعدما نسوا ما ذكروا، وعظوا فلم يتعظوا، ونصحوا فلم ينتصحوا، وذكروا فلم يتذكروا بل أعرضوا ونسوا كان من المنتظر أن يأتي العقاب من الله –عز وجل– بمثل: أخذناهم أخذ عزيز مقتدر، أو مثل: أنزلنا عليهم صاعقة من السماء، أو مثل: أمرنا الجبال فأهلكتهم أو البحار فأغرقتهم، لكن لم يحدث شيء من هذا كله بل حدث العكس من ذلك: فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء أغدقنا عليهم من كل الخيرات وجميع الأرزاق والنعم والمسرات ثم قال فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون"أي آيسون من كل خير، ولذلك قال الحسن البصري –رحمه الله تعالى–: "من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له ثم قرأ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا

---

(٧٥٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) [الأنعام: ٤٤] وقال: مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا، وقال قتادة: مكر الله بهم وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وعزتهم ونعمهم،فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. (٧٥٣)

إي والله –أيها الإخوة– لا تغتروا بالله لا يقل أحدكم ربي يحبني والدليل أنه أعطاني وحباني وأنعم علي وأكرمني يقصد أنه أعطاه المال وأعطاه الأولاد وأعطاه الزوجة وأعطاه الوظيفة ثم يحسب أن الله بذلك يحبه ومن حرم من شيء من هذا ظن أن الله –عز وجل– يكرهه ويهينه، لا، فهذا او هذا على خطأ فما هذه بعلامة حب وكرامة وما هذه بعلامة سخط وإهانة قال تعالى: "فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)[الفجر: ١٥، ١٦] ثم قال ربنا سبحانه"كلا"أي ليس الإعطاء دليل كرامة وليس المنع دليل إهانة وإنما الحال أنهما ابتلاء فمن شكر حين أعطى وصبر حين حرم فقد أفلح، ومن جحد حين أعطى وسخط حين حرم فقد خسر خسراناً مبيناً.

ولذلك روى أحمد وغيره من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا النبي ﷺ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)[الأنعام: ٤٤]. (٧٥٤)

فالأمن من مكر الله عظيم خطره كبير ضرره مستطير ومستطيل شره وشرره وهو محرم ينافي كمال التوحيد الواجب ولذلك جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: "أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون" فهذا دليل على أنه لا يجوز الأمن من مكر الله، فلا يغترن بالله أحد والآية سيقت مساق الإنكار والتعجب فالمؤمن الموحد –أيها الإخوة– في كل أحواله وشئونه ملازم للخوف والرجاء وهذا هو النافع وهو الواجب وبذلك تحصل السعادة.

قال العلامة السعدي –رحمه الله تعالى–: وإنما يخشى على العبد من خلقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه، والثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

فإن سأل سائل فما هى الأسباب التى تصل بالإنسان إلى القنوط واليأس من روح الله؟

---

(٧٥٣) تفسير ابن كثير – (٣ / ٢٥٦).

(٧٥٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٩٢٦)"مجمع البحرين"، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٠)، وأحمد في مسنده (١٤٥/٤)، والدولابي في الكنى (١١١/١)، وقد حسنه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

قال السعدي –رحمه الله–: وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله، لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.

فلو عرف هذا من ربه ولم يخلد إلى الكسل، لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه، وإلى رحمته وجوده وكرمه.

وإن سأل سائل ما الأسباب التي تدفع الإنسان الى اليأس من رحمة الله بالعبد إلى الأمن من مكر الله حتى نجتنبها فلا نقع فيها ونحذرها فلا تنزلق أقدامنا إليها؟

والجواب: للأمن من مكر الله سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وماله من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضًا غافلاً مقصرًا عن الواجبات، منهمكًا في المحرمات، حتى يضمحل خوف الله من قلبه، ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء، لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدًا جاهلًا معجبًا بنفسه مغرورًا بعمله فلا يزال به جهله حتى، يدل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنا من مكر الله متكلًا على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه. (٧٥٥)

ولذلك –أيها الإخوة– كانت عاقبة وعقوبة الأمن من مكر الله –عز وجل– وخيمة وعظيمة وأنا أسرد على مسامع حضراتكم بعضها عسانا نتعظ بها ونورد في ثنايا ذلك أحوال نبينا وسلفنا في المخافة منها فيا –أيها الإخوة– ذكر الذهبي في كتابه الكبائر والعهدة عليه قال:وفي الأثر: أنه لما مكر بإبليس – وكان مع الملائكة – طفق جبريل وميكال يبكيان فقال الله –عز وجل– لهما: ما لكما تبكيان؟ قالا: يا رب ما نأمن مكرك فقال الله تعالى: "هكذا كونا لا تأمنا مكري".

---

(٧٥٥) القول السديد ص ١٢٤، ١٢٦.

ولذلك أحبتي كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك". فقيل له يا رسول الله أتخاف علينا فقال رسول الله ﷺ: "إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء".(٧٥٦)

وعَنْ سَالِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – يَحْلِفُ «لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ».(٧٥٧) ومعناه يصرفها أسرع من ممر الريح على اختلاف في القبول والرد والإرادة والكراهية وغير ذلك من الأوصاف قال تعالى: "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه"قال مجاهد: المعنى يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما تصنع بنانه قال تعالى"إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب" أي عقل واختار الطبري أن يكون ذلك إخباراً من الله تعالى أنه أملك لقلوب العباد منهم وأنه يحول بينهم وبينها إن شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله –عز وجل–.

ولو لم يكن إلا هذه الآية التى حذر الله فيها من الظن به ما لم يرده فى كتابه ولم يدل عليه رسوله لكانت كافية أن يخافه الناس ولا يركنوا إلى أمان قال تعالى: "وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين".

ومن عاقبة الأمن من مكر الله ما قص الله تعالى في كتابه العزيز من قصة بلعام. وأنه سلب الإيمان بعد العلم والمعرفة قال تعالى: واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٦) ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧) وكانت قصته –على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم – أن موسى لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إلى بلعم –وكان عنده اسم الله الأعظم على ما يقال –فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير، وأنه جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله أن يردهم عنا، فقال: ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم، وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي، فراجعوه وألحوا عليه فقال: حتى أؤامر ربي، وكان لا يدعوه حتى ينظر ما يؤمر به في المنام فآمر في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام لا تدع عليهم، فقال لقومه: إني قد آمرت ربي وإني قد نهيت فأهدوا إليه هدية فقبلها، ثم راجعوه فقال: حتى أؤامر، فآمر، فلم يوح إليه شيء، فقال: قد آمرت فلم يجز إلي شيء، فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولى، فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتانا له متوجهًا إلى جبل، يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له: حسبان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به، فنزل عنها فضربها حتى إذا أذلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت، ففعل بها مثل ذلك فقامت، فركبها فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت، فضربها حتى أذلقها، فأذن الله لها بالكلام فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب بي؟ ألا ترى الملائكة أمامي

(٧٥٦) أخرجه البخاري ٧٣٩١.

(٧٥٧) أخرجه البخاري ٦٦١٧.

تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب بي إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع، فخلى الله سبيلها فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل حسبان جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشيء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: يا بلعام أتدري ماذا تصنع إنما تدعو لهم علينا؟! فقال: هذا ما لا أملكه، هذا شيء قد غلب الله عليه، فاندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمِّلوا النساء وزيِّنوهن وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنا رجل واحد منهم كفيتموهم، ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين، اسمها كستى بنت صور، برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب، فقام إليها فأخذ بيدها حين [أعجبه جمالها] ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، فقال: إني أظنك ستقول هذه حرام عليك؟ قال: أجل هي حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، ثم دخل بها قبته فوقع عليها فأرسل الله الطاعون على بني اسرائيل في الوقت، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى، وكان رجلا قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائبًا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليهما القبة، وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورُفع الطاعون، فحُسِب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفا في ساعة من النهار، فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى، لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بكر العيزار وفي بلعم أنزل الله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (١٧٦) [الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] [٧٥٨]

فتأمل أدلع لسانه على صدره وصار يلهث كما يلهث الكلب، أمن المكر فساقه ذلك إلى أن قنع بالفاني من حطام الدنيا عن الباقي من نعيم الجنة فأطاع هواه فما كان له مثل إلا الكلب وسلبه الله الإيمان والعلم والمعرفة.

نعوذ بالله من الأمن والركون إلى الدنيا الدنية ونشهد الله على محبتنا له وخوفنا منه ورجائنا فيه وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة، وأستغفر الله لي ولكم.

---

(٧٥٨) انظر: الطبري: ١٣ / ٢٦٤-٢٦٧، تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٦٧-٢٦٨، البداية والنهاية: ١ / ٣٢٢ وقال: "هذا الذي ذكره ابن إسحاق في قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من السلف".

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

وهكذا فمن يأمن من بعد برصيصا العابد الذي تعبد ستين سنة، والذي أراده الشيطان فأعياه لكن الله لما تخلى عنه، مات على الكفر وبرصيصا هذا هو الذي قيل إن الله ذكره في قوله -عز وجل-: كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين (١٦) فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين.

قال العلامة ابن كثير: وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكله لها، روى ابن جرير عن عبد الله بن نَهِيك قال: سمعت عليًّا، رضي الله عنه، يقول: إن راهبًا تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنَّها ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها. قال: فجاءوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، فاسجد لي سجدة. فسجد له، فلما سجد له قال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ }. [٧٥٩]

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة أخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب. قال: فنزل الراهب ففجَر بها، فحملت، فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مُصدَّق يسمع قولك. فقتلها ثم دفنها. قال: فأتى الشيطانُ إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجَر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا. فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: لا بل قصها علينا. قال: فقصها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك. فقالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء. قال: فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه ثم

---

(٧٥٩) تفسير ابن كثير - (٨ / ٧٥).

انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدةً وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به مَلكهم تَبَرأ منه، وأُخِذَ فقتل. قال: وكذا روي عن ابن عباس، وطاوس، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا، والله أعلم. (٧٦٠)

وقال الذهبي –رحمه الله تعالى–: وروي أنه كان رجل بمصر ملتزم المسجد للآذان والصلاة وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة فرقي يوماً المنارة على عادته للآذان وكانت تحت المنارة دار لنصراني ذمي فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار وكانت جميلة فافتتن بها وترك الآذان ونزل إليها فقالت له: ما شأنك وما تريد فقال: أنت أريد. قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها: أتزوجك، قالت له: أنت مسلم وأبي لا يزوجني بك قال: أتنصر. قالت له: إن فعلت أفعل فتنصر ليتزوج بها وأقام معهم في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط فمات فلا هو فاز بدينه ولا هو تمتع بها. نعوذ بالله من مكره وسوء العاقبة وسوء الخاتمة.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك. فقلت: يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا فهل تخشى قال: وما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء إذا أراد أن يقلب قلب عبد قلبه. (٧٦١)

ولذلك –أيها الإخوة– كان من دعاء الراسخين في العلم ما ذكره الله في معرض الثناء عليهم: "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب".

وفي الحديث الصحيح"إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها". (٧٦٢)

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ويعمل الرجل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم". (٧٦٣)

يقول الإمام الذهبي –رحمه الله تعالى–: فإذا كانت الهداية مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير معلومة ولا مغالبة، فلا تُعجَب بإيمانك، وصلاتك وجميع قربك فإنها من محض فضل ربك وجوده فربما سلبه عنك فوقعت في هوة الندم حيث لا ينفع الندم.

---

(٧٦٠) نفسه (٨ / ٧٦).

(٧٦١) الكبائر ص ٩٠، المنسوب للذهبي.

(٧٦٢) أخرجه البخاري ٤٢٠٧.

(٧٦٣) أخرجه البخاري ٦٦٠٧.

فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك ذلك إن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك فمهما افتخرت بذلك كنت مفتخراً بمتاع غيرك ربما سلبه عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف العير. فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم أضحت وزهرها يابس هشيم إذ هبت عليها الريح العقيم كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم ويصبح وهو بمعصية الله مظلم سقيم ذلك تقدير العزيز العظيم.

ابن آدم! الأقلام عليك تجري وأنت في غفلة لا تدري ابن آدم دع المغاني والأوتار والمنازل والديار والتنافس في هذه الدار حتى ترى ما فعلت في أمرك الأقدار [٧٦٤].

وكذا لا ينبغي -أيها الإخوة- للعبد أن ييأس من روح الله ورحمته فكما أن الأمن من مكر الله محرم وكبيرة فكذلك الإياس من روح الله والقنوط من رحمته كبيرة قال الله تعالى: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون"فاليأس وشدة القنوط واستبعاد فرج الله ورحمته أن تدرك العبد كل هذا محرم والله -تبارك وتعالى- جعله من صفات الكافرين فقال عز من قائل: "إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون"

وكيف يفعل عبد بنفسه هذا والله تعالى هو القائل: "ورحمتي وسعت كل شيء"؟ ولذلك- ولاغرو- قال النبي ﷺ وقد سئل عن الكبائر ما هي؟ فقال: الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله"[٧٦٥] والحديث روه البزار وسنده حسن في صحيح الجامع وروى عبد الرزاق عن ابن مسعود أنه قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله.(٧٦٦)

وفي الحديث الذي أورده الألباني في السلسلة الصحيحة: "ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا، وأمة أو عبد أبق فمات، وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده، فلا تسأل عنهم.، وثلاثة لا تسأل عنهم: رجل نازع الله عز و جل رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره العزة، ورجل شك في أمر الله والقنوط من رحمة الله".(٧٦٧)

وإنما يقع العبد في اليأس من رحمة الله كما قدمنا بالإسراف والجرأة على محارم الله ومعاصيه فييئسه الشيطان من رحمة الله ويقنطه ويغلب على ظنه عقوبة الله وغضبه وانتقامه ويأسه من رحمته وعفوه وغفرانه.

---

(٧٦٤) الكبائر (ص٩٠)

(٧٦٥) روه البزار، (١٠٦)"كشف الأستار"، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٠٥١).

(٧٦٦) تفسير الطبري (٨/٢٤٣، ٢٤٤) وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٠١) ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٩/١٧١) من طريق أبي إسحاق عن وبرة به، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٣١) من طريق الأعمش عن وبرة به.

(٧٦٧) السلسلة الصحيحة – مختصرة – (٢ / ٨١)، ح (٥٤٢).

وعلاج هذا كله في الوسطية التي شرحناها وذلك بالاعتدال بين الخوف والرجاء والمحبة وأيضًا بالاستقامة على منهج الله وطاعة رسول الله على منهج سلفنا الصالح بلا إفراط أو تفريط وكفى بالتزام السنة والبعد عن البدعة كفى بها اعتدالاً وكفى بها استقامة.

يا آلِفَ الهَمِّ، لا تَقْنَط، فأيأسُ ما تكونُ يأتيكَ لُطفُ اللّهِ بالفَرَجِ

ثق بالذي يَسمعُ النَّجوى، ويُنجى من البلوى ويستنقذ الغرقى من اللجج

أسأل الله تعالى أن يحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ونعوذ به سبحانه أن نغتال من تحتنا اللهم انا نخافك ولا نجرؤ على عصيانك ونرجوك ولانقطع الأمل من غفرانك، فهيي اللهم لنا من أمرنا رشدًا نخاف فيه عقابك ونأمل فيه غفرانك وتسوقنا خلاله محبتنا لك حتى يكون آخر ذلك أن تكتب لنا رضوانك فلا نبأس أبدا وتحل علينا نعمك فلا نشقى سرمدًا، اللهم انصرنا ولا تنصر علينا وامكر لنا ولا تمكر علينا واهدنا ويسر الهدى لنا اللهم اجعلنا لك شاكرين لك ذاكرين لك أواهين لك مخبتين إليك راغبين إليك راهبين لك مطاويع ربنا تقبل توباتنا واغسل حوباتنا وثبت حجحنا واهد قلوبنا اسلل سخيمة صدورنا،... الدعاء.

سفينة النجاة "واصبر وما صبرك إلا بالله"

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد

صلى عليه الله ما جنَّ الدُّجى *** وما جَرَتْ في فَلَكٍ شمس الضحى

أما بعد فيا -أيها الإخوة- ، إن من تمام توحيد العبد ربه أن يصبر على أقدار الله تقرباً إلى الله ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه فيطمئن القلب ويقوى إيمان العبد وتوحيده ويقينه، وهذا هو أحد أنواع الصبر التي أرشد الله إليها ورسوله وورد في الكتاب والسنة فضل أهله وثوابهم وما لهم في الآخرة من الأجر الجزيل والثواب العظيم.

فتعالوا بنا -أيها الإخوة- لنشنف الآذان ونمتع الأسماع ونرقق القلوب ببعض أخبار الصبر وأحاديثه وآثاره في النفس والواقع.

وكما تعودنا فسوف ننظم سلك هذا الموضوع في العناصر المحددة التالية:

أولاً: ما هو الصبر وما أقسامه؟

ثانياً: فضل الصبر ومكانته.

ثالثاً: كيف يوفق العبد لتحصيل فضل الصبر ويكون من الصابرين؟

فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- والله أسأل أن يحفظنا بعينه التي لا تنام، وأن يكلأنا بكلئه الذي لا يرام ولا يضام.

أيها الإخوة.. أولاً: ما هو الصبر وما أقسامه؟

أحبتي! الصبر لغة: الكف والحبس، واصطلاحاً هو: حبس القلب عن الجزع وحبس النفس عن التسخط وحبس اللسان عن التشكي وحبس الجوارح عن فعل ما يغضب الله -عز وجل-.

ولذلك قال الله –عز وجل– لنبيه: "فاصبر صبراً جميلاً"أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: الصبر الجميل هو ما لا شكوى فيه إلى أحد غير الله تعالى، وأخرج عن عبد الأعلى بن الحجاج أنه قال: الصبر الجميل هو ما يكون معه صاحب المصيبة في القوم حيث لا يُدرى من هو.

وقال علي رضي الله عنه: إن من إجلال الله ومعرفة حقه أن.. لا تشكو وجعك.. ولا تذكر مصيبتك.

وقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة.. وما شكوت ذلك لأحد..

يقول صاحب الظلال: "الصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذي لا يصاحبه سخط ولا قلق ولا الشك في صدق الوعد، صبر الواثق من العاقبة، الراضي بقضاء الله وقدره، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء، الموصول بالله المحتسب لكل شيء عنده مما يقع به". [(٧٦٨)]

ولذلك –أيها الإخوة– لا ينال أجر الصبر إلا من حفظ قلبه ولسانه وجوارحه عن الشكوى لغير الله أما الشكوى لله فلا حرج فيها على الإطلاق.

لأن التحقيق –أيها الإخوة– أن الشكوى نوعان: شكوى إلى الله وشكوى من الله، أما الشكوى إلى الله تعالى فلا بأس على صاحبها أبداً ولا مؤاخذة عليه فيها، كيف وقد لجأ إليها أنبياء الله ورسله وصحابة النبي والصالحون من أمته؟.

كما قال الله –عز وجل– عن نبيه أيوب عليه السلام: وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)[ص: ٤١، ٤٢]

وكما قال الله –عز وجل– عن نبيه يعقوب عليه السلام: قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)[يوسف: ٨٦]

وقال عن نبيه نوح عليه السلام: فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠)فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)[القمر: ١٠، ١١].

وقال –عز وجل– عن نبينا ﷺ: "وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً"فهذه أيها الأحباب شكوى إلى الله وهي رجاء ودعاء ورغبة، كما قال أيضاً –عز وجل– عن زكريا عليه السلام: إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥)يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)[مريم: ٣ – ٦]

---

(٧٦٨) في ظلال القرآن – (٦ / ٣٣٠).

ولذلك قال تعالى عنه وعن زوجه: وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)[الأنبياء: ٨٩، ٩٠]

لا بأس على الإطلاق أن يلجأ العبد إلى هذا بل هو الحق والهدى أن يلجأ إلى الله ويرغب إليه ويناديه ويناجيه.

مددت يد الرجاء والناس قد رقدوا   وبت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كل نائبة يا   من عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أموراً أنت تعلمها   ما لي على حملها صبر ولا جلد

لقد مددت يدي بالذل مفتقرًا   إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنها يا رب خائبة   فبحر جودك يروي كل من يرد

هذه أيها الكرام الشكوى إلى الله وهي كما ترون رغبة ورجاء وتقرب وتزلف إلى الملك –سبحانه وتعالى–، وعلى الضد من هذا تماماً الشكوى من الله فإنها سخط وتضرم وتبرم من الله –عز وجل– تسمع هذا من بعض أهل البلاء ممن أنزل الله بهم بعض أقداره في تعبيرات شتى فمن قائل: أما وجد الله بين السماء والأرض من خلقه إلا أنا؟ ومن قائل: هي كل بلوى في الدنيا تنزل على فلان، أليس في الدنيا إلا فلان، كل مصائب الدنيا على رأس فلان، أليس هناك غيري، أما وجدت إلا أنا وهكذا.

وربما لا تظهر هذه الألفاظ على الألسن لكن القلوب تكنها وتحويها والعبارات تحوم حولها وتظهر رغما عنها في بعض لحنها كما جاء رجل يوماً إلى أبي حامد الغزالي رحمه الله وعفا عنه يشكو إليه شدة حاجته وفقره فأكثر وأطال حتى أحس أبو حامد منه سخطاً ونقمة على الرحمن جل جلاله فأراد أن يرده الى صوابه لكن بطريقة حسنة سهلة راشدة فقال: يا فلان إني أعرف رجلاً من أهل اليسر والغنى في مكان كذا وكذا وقد ابتلاه الله بالعمى فهو يريد عيناً يبصر بها أتعطيه إحدى عينيك ويعطيك عشرة آلاف؟ فأجاب الرجل على الفور: لا، قال أبو حامد: أفتعطي الكسيح رجلاً بعشرة آلاف،قال: لا، قال أبو حامد: فتعطي الأشل يداً بعشرة ألاف، قال: لا قال أبو حامد: أفتعطي الأصم أذناً بعشرة آلاف، قال الرجل: لا،. واستمر أبو حامد يعدد عليه نعم الله الظاهرة فيه فقط كل ذلك والرجل يقول: لا، بتعبيرنا: ثم

قال أبو حامد: يا هذا إن معك من الأموال ما يزيد على ألف ألف مما ظهر فكيف بما خفي (إنك مليardير) ومثلك لا تحق له الشكوى. ورحم الله الذي قال:

لا تسألن بني آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال آخر:

فإذا شكوت إلى ابن آدم حاجة ... فإنك تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ولذلك -أيها الإخوة- من نزلت به فاقة فأنزلها بالله قضاها الله له ومن نزلت به حاجة فأنزلها بالناس لم يقضها الله له أبداً، هذا سر من أسرار قبول الدعاء وتفريج الكروب والإخلال به هو سبب عدم استجابة الله لنا وهو أننا ننزل حوائجنا بالناس أولاً ونتذكر الله آخراً هذا إذا تذكرناه.

روى أبو داود بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى إما بموت عاجل أو غنى عاجل". [٧٦٩]

هذا هو تحقيق مسألة الشكوى أنها نوعان شكوى إلى الله وهي لا تنافي الصبر بل تدعمه وتقويه، وشكوى من الله وهي تضاد الصبر وتنافيه، والصبر -أيها الإخوة- ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على المأمور، وصبر عن المحظور، وصبر على المقدور.

أما الصبر على المأمور فهو الصبر على طاعة الله -عز وجل- فالطاعة تحتاج إلى صبر كما قال الله -عز وجل-: "واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين". فالطاعة تحتاج إلى صبر ومجاهدة ومرابطة ومصابرة حتى تؤتي ثمارها بإذن ربها وإلا كانت آلية ميكانيكية يؤديها العبد ولا يحس حلاوتها ولا يذوق لذتها ولذلك قال من قال من رجالات السلف: عالجت قيام الليل سنة ثم استمتعت به عشرين سنة فالطاعة تحتاج إلى صبر.

القسم الثاني: صبر عن المحظور وهو الصبر عن المعصية والذنوب والسيئات فيحجز العبد نفسه الأمارة بالسوء عن ارتكاب المعصية ولا يسارع إليها أول ما تدعوه بل يجاهدها ويجاهد شيطانها وهذا إنما يتأتى بالصبر.

---

(٧٦٩) أخرجه الترمذي (٢٣٢٧) والحاكم (١ / ٤٠٨) والبيهقي (٤ / ١٩٦)، وانظر: الصحيحة ٦ / ٦٧٦.

القسم الثالث: هو الصبر على المقدور وهو الصبر على أقدار الله مما يصيب الله به عباده من الأمراض والأوجاع وجميع المصائب وهذا هو محك الإيمان ومختبر الإسلام والاستسلام والإيقان، ولذلك جاء الفضل فيه في القرآن العظيم وسنة النبي الكريم كثيرًا جدًّا وحثت عليه الآيات والأحاديث والآثار عن السلف وسارع فيه المتنافسون وفاز في دربه المتسابقون وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء: فضل الصبر ومكانته.

أيها الإخوة.. ذكر الله تعالى الصبر في القرآن الكريم في تسعين موضعاً وكفى بهذا شرفًا و فضلاً للصبر وأهله وحسبك بذلك حثاً عليه وترغيباً فيه، ولا نستطيع في مقامنا هذا أن نشير إلى جميع هذه المواضع لكن بحسبنا أن نومئ إلى بعضها فمن ذلك قوله تعالى آمراً بالصبر حاثاً عليه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)[آل عمران: ٢٠٠]

وقال -عز وجل- معلناً أن الصبر من شيم طلاب المعالي: "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور".

وقال -عز وجل- يعلن عن شرف صحبة الصابرين وذلك لشرف معيته لهم سبحانه: "إن الله مع الصابرين".

وقال -عز وجل- يكشف عن عظيم أجرهم لديه: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب". وقال: "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)[البقرة: ١٥٥ - ١٥٨].

هذه بعض آيات القرآن العظيم في بيان مكانة الصبر وفضل الصابرين، وقد أفاضت السنة المطهرة كذلك في الحث على الصبر والترغيب فيه والتعريف بفضل الصابرين والكشف عن علو درجاتهم.

روى مسلم من حديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء".[(٧٧٠)]

الله! أرأيت إلى هذا التعبير: "والصبر ضياء"، قال العلامة ابن عثيمين -رحمه الله-: والصبر ضياء: يضيء للإنسان عندما تحتلك الظلمات وتشتد الكربات يهدي صاحبه إلى الحق، ولهذا أمر الله -عز وجل- بالاستعانة بالصبرفقال: "واستعينوا بالصبر"فهو ضياء للإنسان في قلبه وضياء له في طريقه ومنهاجه وعلمه فكلما سار العبد إلى الله على طريق الصبر زاده الله هدى وضياء وبصيرة. [(٧٧١)]

---

(٧٧٠) أخرجه مسلم ٥٥٦.

(٧٧١) شرح رياض الصالحين (٤ / ١٦).

وروى مسلم من حديث صهيب –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن".(٧٧٢)

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: "وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر".(٧٧٣)

ويكفي –أيها الإخوة– أن الصبر دليل محبة الله للعبد كما قال –عز وجل–: "إن الله يحب الصابرين"وكما في الحديث الذي أخرجه الترمذي وسنده حسن من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط". (٧٧٤)

الله! من رضي فله الرضا، ولنا في السابقين الصادقين الأسوة والقدوة

أين الذين رضوا بالفقر وأحبوا الفقراء فمحمد إمامهم إلي الجنة.

أين الذين حجوا واعتمروا فآدم إمامهم إلي الجنة.

أين الذين أحبوا الكرم وأكرموا الضيوف فإبراهيم إمامهم إلي الجنة.

أين الذين صبروا في البلاء فأيوب إمامهم إلي الجنة.

أين الذين قالوا الحق لوجه الله فموسي إمامهم إلي الجنة.

أين الذين أحبوا الصدق واتصفوا به فأبو بكر إمامهم إلي الجنة.

أين الذين أحبوا العدل واتصفوا به فعمر إمامهم إلي الجنة.

أين الذين أحبوا الجهاد في سبيل الله فعلي إمامهم إلي الجنة.

أين الذين أحبوا الإيثار واتصفوا به فالحسين إمامهم إلي الجنة.

أين الذين خافوا الله عند المقدرة فيوسف إمامهم إلي الجنة.

---

(٧٧٢) أخرجه مسلم ٧٦٩٢.

(٧٧٣) أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ٢٤٧١.

(٧٧٤) أخرجه الترمذي (٢ / ٦٤) و ابن ماجه (٤٠٣١)، وانظر: الصحيحة ١ / ٢٢٧.

أيها الإخوة! من علامات حب العبد لله: أن يكون صابراً على المكاره، فالصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، فإنَّ بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب، يُعلم صحة محبته، ولهذا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى، فلما امتحنهم بالمكاره، ظهروا على حقيقتهم، ولم يثبت إلا الصابرون، فلولا تحمّل المشاق، وتجشم المكاره، بالصبر، لما ثبتت صحة محبتهم، انظر رعاك الله، كيف وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: { إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً }، ثم أثنى عليه قائلاً: { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ }، وأمر الله أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه وأخبر أنَّ صبره به وبذلك تهون جميع المصائب فقال: { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } وقال: { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ } وأثنى الله على الصابرين أحسن الثناء فقال: { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }. ونعود فنردد ما قال سيد الصابرين صلى الله عليه وسلم: (وما أُعطي أحدٌ عطاءً خير وأوسع من الصبر). وقال سبحانه: { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }. فهنيئاً لهم بشارة ربهم، وهنيئاً لهم: { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }"(٧٧٥)

وهذا الجزاء –أيها الإخوة– لمن صبر الصبر الجميل الذي أشرنا إليه في بداية اللقاء فمن كان كذلك حاله نال هذا الأجر والثواب والفضل، فليس كل أحد على هذه الدرجة ليس أهل البلاء كلهم سواء في تلقي أمر الله وقدره بل يختلفون في أحوالهم ويتباينون في مواقفهم.

ولذلك كان تلقي البلاء بالشكر والرضا هو محك اختبار الإيمان وبه تستبين درجة العبد ويظهر قدره كما في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألبانى فى الصحيحة من حديث سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه"(٧٧٦) فلا ريب أن ينزل الصبر تلك المنزلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى قال علي رضي الله عنه: "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ثم قال: أما إنه لا إيمان لمن لا صبر له".

ولذا تنافس المتنافسون في تحصيل هذا الثواب العظيم من أنبياء الله والصالحين ومنهم نبي الله أيوب الذي لبث في البلاء ثمانية عشر عاماً ومع ذلك استحيا أن يسأل الله العافية حتى يكون له من النصيب في البلاء قدر ما كان له في العافية ولنستمع إلى شيء من خبره فيما أخرجه الحاكم وابن حبان والطبري والبزار وقال الهيثمي رجال البزار رجال الصحيح من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: "إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَة، فَرَفَضَه القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، إلا رَجُلانِ مِنْ إخْوَانِهِ كانا مِنْ أخَصّ إخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوانِ إلَيْهِ ويَرُوحانِ، فَقالَ أَحَدُهُما لِصَاحِبه: تَعْلَم والله لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا ما أَذْنَبَهُ أحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ الله فَيَكْشِفَ ما بِهِ؛

---

(٧٧٥) يحبهم ويحبونه – خطبة للشيخ خالد الراشد.

(٧٧٦) أخرجه أحمد (١٧٢/١)، والترمذي (٢٣٩٨)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٤٣).

فَلَمَّا رَاحا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فقَالَ أيّوُبُ: لا أدْرِي ما تَقُولُ، غَيرَ أنَّ الله يَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ أمُرُّ على الرَّجُلَيْنِ يَتَنازَعانِ فَيَذْكُرَانِ الله، فَأَرْجِعَ إلى بَيْتِي فَأكَفِّرُ عَنْهُما كَرَاهِيَةَ أنْ يُذْكَرَ الله إلا في حَقٍّ؛ قال: وكان يَخْرُجُ إلى حاجَتِهِ، فإذَا قَضَاها أمْسَكَت امْرأتُه بِيَدِهِ حتى يَبْلُغ فَلَما كانَ ذاتَ يَوْمٍ أبْطَأَ عَلَيْها، وأوحِيَ إلى أيُّوب في مَكانِهِ:(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)فاسْتَبطأتَهُ، فتَلقتهُ تَنْظُرُ، فأقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أذْهَبَ الله ما بِهِ مِنَ البَلاءِ، وَهُوَ عَلى أحْسَنِ ما كانَ؛ فَلَمَّا رَأتْهُ قَالَتْ: أيْ بارَكَ الله فِيكَ، هَلْ رَأيْتَ نَبِيَّ الله هَذَا المُبْتَلى، فوالله على ذلك ما رَأَيْتُ أحَدًا أشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إذْ كانَ صحيحا؟ قال: فإنّي أنا هُوَ؛ قال: وكانَ لَهُ أنْدرَانِ: أنْدَرٌ لِلْقَمْحِ، وأنْدَرٌ للشَّعِيرِ، فَبَعَثَ الله سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كانَتْ إحْداهُما على أنْدَرِ القَمْحِ، أفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حتى فاضَ، وأفرغَتِ الأخْرَى في أنْدرِ الشَّعِيرِ الوَرِق حتى فاضَ".(٧٧٧)

قال الله تعالى: "وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين".

نعم

كـــن عـــن همومـــك معرضـــا	ودع الأمـــــــور إلى القضـــــــا
وانعــــم بطــــول ســـــلامة	تغنيــــك عمـــا قـــد مضـــى
فلربمــــا اتســـع المضـــيق	وربمـــا ضـــاق الفضـــا
الله يفعـــــل مـــــا يشـــــاء	فــــلا تكــــن متعرضــــا

والمثل الأعلى للمبتلين الصابرين: المصطفى الذي عاش طوال أيامه ولياليه يمشي على شوك الأسى ويخطو على جمر الكيد والعنت يتلمس الطريق لهداية الضالين وإرشاد الحائرين فناله في سبيل ذلك ما لم ينل نبياً فضلاً عن صديق أو صادق.

روى البخاري من حديث عَائِشَةَ - رضى الله عنها — زَوْج لنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِى عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِى إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِى، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِى، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِى، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِى فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِى مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَىَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِىُّ -

---

(٧٧٧) تفسير الطبري (١٠٧/٢٣) ورواه البزار في مسنده (٢٣٥٧) "كشف الأستار"، وهو في "الصحيحة" ١ / ٢٥.

صلى الله عليه وسلم – بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». (٧٧٨)، وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

ومن أمثلة الصبر العليا والنجوم في سمائه: بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

وقد كان عبداً لأمية بن خلف فلما بعث رسول الله اتبعه وآمن به وصدقه على ما جاء به فكان أمية يمنعه الطعام والشراب يوماً ويومين حتى يشتد به الجوع والعطش ويخرج به إلى الصحراء في شدة الحر وسط الظهيرة فيجرده من ثيابه ويضعه على الرمضاء ويعذبه ويقول: لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد أو تقول في اللات والعزى خيراً،قال ابن مسعود هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، هانت على بلال نفسه في الله فأبى إلا أن يغيظ أمية بن خلف وسائر المشركين، كلما قالوا له: لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد يأبى ذلك ويصر أن يتمسك بالإسلام ويعض عليه ويثبت عليه ويأبى إلا أن يغيظ المشركين بالنطق بكلمة التوحيد تحت سياط التعذيب فيقول:أحدٌ أحد، أحدٌ أحد، فهانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فجعل أمية بن خلف مولاه الحبل في عنقه وأعطاه غلمان مكة فجعلوا يلعبون به في شعاب مكة وطرقها وهو يقول: أحد أحد (٧٧٩)

ولو ذهبنا نتتبع ما نال التعذيب والابتلاء من أصحاب النبي ﷺ لأعيانا الحصر والعد ولكن بحسبنا هذا المثال وما نعلم.

وهذا أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي التابعي الجليل الذي وصفه ابن حبان فقال: من عباد أهل البصرة وزهادهم يروى عن أنس بن مالك ومالك بن الحويرث وروى عنه أيوب وخالد مات بالشام سنة أربع ومائة في ولاية يزيد بن عبد الملك حدثني بقصة موته محمد بن المنذر بن سعيد من طريق الأوزاعي عن عبد الله بن محمد قال خرجت الى ساحل البحر مرابطا وكان رابطنا يومئذ عريش مصر قال فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحه وفى البطيحه خيمة فيها رجل قد ذهب يداه ورجلاه وثقل سمعه وبصره وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول اللهم أوزعنى أن أحمدك حمدا أكافىء به شكر نعمتك التي أنعمت بها على وفضلتنى على كثير ممن خلقت تفضيلا قال الأوزاعي قال عبد الله قلت والله لآتين

---

(٧٧٨) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٧٧٩) طبقات ابن سعد (٣/٢٣٢).

هذا الرجل ولأسألنه أنى له هذا الكلام فهم أم علم أم إلهام ألهم فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت سمعتك وأنت تقول اللهم أوزعنى أن أحمدك حمدا أكافىء به شكر نعمتك التي أنعمت بها على وفضلتنى على كثير من خلقت تفضيلا فآى نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها وأي فضيله تفضل بها عليك تشكره عليها قال وما ترى ما صنع ربي والله لو أرسل السماء علي نارا فأحرقتنى وأمر الجبال فدمرتنى وأمر البحار فغرقتنى وأمر الأرض فبلعتنى ما ازددت لربى إلا شكرا لما أنعم على من لساني هذا ولكن يا عبد الله إذ أتيتني لي إليك حاجة قد تراني على أي حالة أنا أنا لست أقدر لنفسى على ضر ولا نفع ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني وإذا جعت أطعمني وإذا عطشت سقاني ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله فقلت والله ما مشي خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجرا ممن يمشي في حاجة مثلك فمضيت في طلب الغلام فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه فاسترجعت وقلت أني لي وجه رقيق آتى به الرجل فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي صلى الله عليه و سلم فلما أتيته سلمت عليه فرد على السلام فقال ألست بصاحبي قلت بلى قال ما فعلت في حاجتي فقلت أنت أكرم على الله أم أيوب النبي قال بل أيوب النبي قلت هل علمت ما صنع به ربه أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده قال بلى قلت فكيف وجده قال وجده صابرا شاكرا حامدا قلت لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه قال نعم قلت فكيف وجده ربه قال وجده صابرا شاكرا حامدا قلت فلم يرض منه بذلك حتى صيره عرضا لمار الطريق هل علمت قال نعم قلت فكيف وجده ربه قال صابرا شاكرا حامدا أوجز رحمك الله قلت له إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر فقال المبتلى الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقا يعصيه فيعذبه بالنار ثم استرجع وشهق شهقة فمات فقلت انا لله وانا اليه راجعون عظمت مصيبتي رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع فسجيته بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكيا فبينما أنا قاعد إذ تهجم على أربعة رجال فقالوا يا عبد الله ما حالك وما قصتك فقصصت عليهم قصتي وقصته فقالوا لي اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه فكشفت عن وجهه فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مره ويديه أخرى ويقولون بأبي عين طال ما غضت عن محارم الله وبأبي وجسمه طال ما كنت ساجدا والناس نيام فقلت من هذا يرحمكم الله فقالوا هذا أبو قلابه الجرمي صاحب بن عباس لقد كان شديد الحب لله وللنبي صلى الله عليه و سلم فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا وصلينا عليه ودفناه فانصرف القوم وانصرفت الى رباطى فلما أن جن على الليل وضعت رأسي فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار فقلت ألست بصاحبي قال بلى قلت أنى لك هذا قال إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز و جل في السر والعلانية. (٧٨٠)

(٧٨٠) الثقات لابن حبان ٥/ ٧.

وبعد –أيها الإخوة– كيف نكون مع أفراد هذا الموكب الكوكبي الدري والنجم الساطع الضوئي كيف نكون من الصابرين ونحصل درجتهم ونشرف بمكانتهم؟

والجواب في نقاط:

أولاً: الاستعانة بالله تعالى فإن صبر المؤمن يكون بالله تعالى كما قال –عز وجل–"واصبر وما صبرك إلا بالله"يعني أنه من لم يصبره الله ويوفقه للصبر لم يصبر وكذلك ينبغى ان يكون الصبر لله أي حبًّا له وإرادة لوجهه ورغبة في ثوابه لا لإظهار قوة النفس أو استجلاب الحمد من الناس وينبغي أن يكون الصبر مع الله، والصبر مع الله هو أن يكون العبد مع أحكام الله الدينية صابراً نفسه معه سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها حيث كانت وليس كمن يصبر على تعذيب نفسه في غير مرضاة الله مثل صبر المشركين القائلين: "أن امشوا واصبروا على آلهتكم".(٧٨١)

فالله –عز وجل– هو المعين على الصبر لمن أراد وهو الموفق الهادي له كما قال علقمة في تفسير قوله تعالى: "ومن يؤمن بالله يهد قلبه"قال –رحمه الله–: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وهذه الهداية –أيها الإخوة– هي هداية التوفيق ومن هذه الهداية هداية الله عبده الى الرضا والتسليم، فمن أصابته مصيبة فعلم أنها من قدر الله فصبر واحتسب هدى الله قلبه لليقين وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً و يخلف عليه خيراً مما فاته.

ثانيًا: الإيمان "فالإيمان خير معين، الإيمان بلسم الحياة، وأس الفضائل ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزم في الشدائد، وبلسم العبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة بالحظوط، ونور الأمل في الصدور وسكن النفوس، وعزاء القلوب إذا أوحشتها الخطوب، والعروة الوثقى عند حلول الموت بسكراته العظمي"، ولله در معاذ بن جبل لما أصابه الطاعون طاعون عمواس يقول الحارث بن عميرة: طعن معاذ وأبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة، وأبو مالك الأشعري في يوم واحد، فقال معاذ: أنه رحمة ربكم –عز وجل– ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم وقبض الصالحين قبلكم. اللهم آت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة، فما أمسى حتى طعن ابنه عبد الرحمن بكره الذي كان يكنى به وأحب الخلق إليه، فرجع من المسجد فوجده مكروباً، فقال: يا عبد الرحمن كيف أنت؟ فاستجاب له فقال: يا أبت" الحق من ربك فلا تكن من الممترين" آل عمران – ٦٠ –. فقال معاذ: وأنا إن شاء الله ستجدني من الصابرين، فأمسكه ليلة ثم دفنه من الغد، فطعن معاذ فقال حين اشتد به النزع – نزع الموت – فنزع نزعاً لم ينزعه أحد، وكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال: رب اخنقني خنقتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك. (٧٨٢)

---

(٧٨١) فضل الغني الحميد (ص٣٢).

(٧٨٢)حلية الأولياء – (١ / ١٢٧).

هات ما عندك هات *** معي الإيمان يهديني لبحر الظلمات

بلسم الإيمان ينجي *** مركبي والموج عاتي

هل ترى الإعصار يومًا *** هزَّ شُمًّا راسيات.

فالإيمان بعد عون الله وتوفيقه أعظم الأسباب المعينة على الصبر

ثانياً: أن يتصبر العبد ويتعلم الصبر درجة درجة كما قيل: "إنما الصبر بالتصبر". فمن عود نفسه الصبر تعودت وأخذت به وتدرجت.

ثالثاً: أن يعرف فضل الصبر ودرجة الصابرين فمن عرف فضل الصبر حمل نفسه عليه حملاً وينسيه ذلك مرارة المصاب والبلية كما قال من قال: وقد أصيبت أصبعه فتبسم فعجب من رآه وقال: تبتسم وقد انقطع أصبعك؟! فقال: نعم حلاوة أجرها أنستني مرارة ألمها.

فإذا تذكر العبد أمثال قوله تعالى: "إن الله يحب الصابرين"،وقوله تعالى: "إن الله مع الصابرين"و قوله ﷺ فيما روى الترمذي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شرًا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة".[٧٨٣]

فعلم أن المصيبة مكفرة ورافعة للدرجات وماحية للسيئات وإذا تذكر قول النبي ﷺ: - "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه"[٧٨٤]

علم أنه على درجة عظيمة في القرب من الله تعالى ومشابهة أنبيائه ورسله وعلى درج الصالحين يسير.

رابعاً: التعرف إلى ضد الصبر إلى أين يسير بالعبد فالضد يظهره حسنه الضد وبضدها تبين الأشياء فليتعرف على مثل قوله ﷺ: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ». [٧٨٥]

---

(٧٨٣)أخرجه الترمذي (٢ / ٦٤)، والبيهقي في"الأسماء"(ص ١٥٤)، وهو في "الصحيحة"٣ / ٢٢٠.

(٧٨٤) أخرجه أحمد (١٧٢/١) والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصححه الألباني فى الصحيحه (١٤٣).

(٧٨٥) أخرجه البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣).

وليتعرف على مثل قوله ﷺ: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– «اثْنَتَانِ فِى النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِى النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».(٧٨٦)

هذه هي الأسباب المعينة على الصبر ويبقى توفيق وهداية المولى –سبحانه وتعالى– الذي لا يكون شيء إلا بإذنه.

أخي المبتلى: لقد أنعم الله عليك كثيرًا فإن كنت عند حسن ظنه في نعمائه، فكن عند حسن ظنه بك في بلائه، يهتف بك ابن كثير: كان نبي الله أيوب، عليه السلام، غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك.

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرّغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت، حسدني. قال: فلقي إبليس من ذلك منكرًا.

قال: وقال أيوب، عليه السلام: يا رب، إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطء الفرش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. (٧٨٧)

حبيبي المبتلى**!**"لا يسلبك الله شيئا إلاَّ عوَّضك خيراً منه، إذا صبرْتَ واحْتَسَبْتَ ((منْ أخذتُ حبيبتيه فصبر عوَّضتُه منهما الجنة)) (٧٨٨)يعني عينيه ((من سلبتُ صفيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسب عوَّضْتُهُ من الجنَّة))(٧٨٩)

من فقد ابنه وصبر بُني له بَيْتُ الحمدِ في الخُلْدِ، وقِسْ على هذا المنوالِ فإن هذا مجردُ مثال.

فلا تأسفْ على مصيبة فان الذي قدّرها عنده جنةٌ وثوابٌ وعِوضٌ وأجرٌ عظيمٌ.

إن أولياء الله المصابين المبتلين ينوّهُ بهم في الفِرْدوْسِ "سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ".

---

(٧٨٦)أخرجه مسلم (٦٧).

(٧٨٧) تفسير ابن كثير – (٥ / ٣٦٠).

(٧٨٨) أخرجه البخارى (٥٣٢٩).

(٧٨٩) أخرجه البخاري (٦٤٢٤)، بلفظ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِى الْمُؤْمِنِ عِنْدِى جَزَاءٌ، إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلاَّ الْجَنَّةُ».

وحق علينا أن ننظر في عِوض المصيبةِ وفي ثوابها وفي خلفها الخيِّر "أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" هنيئاً للمصابين، بشرى للمنكوبين.

إن عُمْر الدنيا قصيرٌ وكنزُها حقيرٌ، والآخرةُ خيرٌ وأبقى فمن أُصيب هنا كُوفِئ هناك، ومن تعب هنا ارتاح هناك، أما المتعلقون بالدُّنيا العاشقون لها الراكنون إليها، فأشدَّ ما على قلوبهم فوت حظوظُهم منها وتنغيصُ راحتهم فيها لأنهم يريدونها وحدها فلذلك تعظُمَ عليهمُ المصائبُ وتكبرُ عندهمُ النكباتُ ؛ لأنهمْ ينظرون تحت أقدامِهم فلا يرون إلاَّ الدُّنيا الفانية الزهيدة الرخيصة.

أيها المصابون ما فات شيءٌ وأنتمُ الرابحون، فقد بعث لكمْ برسالةٍ بين أسطرها لُطْفٌ وعطْفٌ وثوابٌ وحُسنُ اختيار. إن على المصابِ الذي ضرب عليه سرادقُ المصيبة أن ينظر ليرى أن النتيجة؟فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ؟، وما عند اللهِ خيرٌ وأبقى وأهنأ وأمرأُ وأجلُّ وأعلى.

اللهم فاجعلْ مكان اللوعة سلْوة، وجزاء الحزنِ سروراً، وعند الخوفِ أمْناً. اللهم أبردْ لاعِج القلبِ بثلجِ اليقينِ، وأطفئْ جمْر الأرواحِ بماءِ الإيمانِ.

يا ربُّ، ألق على العيونِ السَّاهرةِ نُعاساً أمنةً منك، وعلى النفوسِ المضْطربةِ سكينة، وأثبْها فتحاً قريباً. يا ربُّ اهدِ حيارى البصائرْ إلى نورِك، وضُلاَّل المناهجِ إلى صراطكْ، والزائغين عن السبيل إلى هداك.

اللهم أزل الوساوس بفجْر صادقٍ من النور، وأزهقْ باطل الضّمائرِ بفيْلقٍ من الحقِّ، وردَّ كيد الشيطانِ بمددٍ من جنودِ عوْنِك مُسوِّمين.

اللهم أذهبْ عنَّا الحزن، وأزلْ عنا الهمَّ، واطردْ من نفوسِنا القلق.

نعوذُ بك من الخوْفِ إلا منْك، والركونِ إلا إليك، والتوكلِ إلا عليك، والسؤالِ إلا منك، والاستعانةِ إلا بك، أنت وليُّنا، نعم المولى ونعم النصير".(٧٩٠)

أيها الإخوة! حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى؛ فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى" اصبروا وصابروا ورابطوا" اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء. وقد قيل في معناه:

---

(٧٩٠) لا تحزن.

والصبر عنك فمذموم عواقبه... والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضاً:

الصبر يجمل في المواطن كلها... إلا عليك فإنه لا يجمل(٧٩١)

فيا من لا يزال يتخبط في غيه بعيدًا عن رضا ربه إنك يا مسكين محروم ويالشدة صبرك عن محبوبك، تالله لو تعي حقيقة ما تفعل لسقطت ميتًا.

نسأل الله أن يأخذ بأيدينا إليه أخذ الكرام عليه وأن يرزقنا الصبر على المأمور والصبر عن المحظور والصبر على المقدور... الدعاء.

---

(٧٩١) إحياء علوم الدين (٣ / ١٨١).

آكل الحسنات

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

إلهي ماذا فقد من كان معك؟ وماذا وجد من فقد قربك؟! فبك الغنية عن كل أحد، وليس غنية أبدًا عنك، فليتك ترضى وإن غضب الناس، وليت الذي بيني وبينك عامر وإن خرب ما بيني وبين كل الناس.

فليتك تحلو والحياة مريرة... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر... وبيني وبين العالمين خراب

وليت شرابي من ودادك صافياً... وشربي من ماء العين سراب

إذا صح منك الود فالكل هين... وكل الذي فوق التراب تراب

إخواني! تأهبوا ليومٍ تترادف فيه العَبَرات، وتعظم الحَسَرات، فَيعضُ الظالم على يديه ويقول: يا حسرتا يوم يقول لك أين من أرضيتَ عنك بغضبي عليك، ابن آدم أين من كنتَ تَزَيَّنْتَ له وبالقبيح بارزتني، ما هذا التذلل بين يديّ وقد كنت جبّاراً عنيداً، طالما ذُكِّرْتَ بموقفكَ هذا فتناسيتَ، وطالما بُصِّرْتَ بأمركَ هذا فتعاميتَ، ولم تزدد إلاّ فراراً، يا حسرةَ العاصين، يا ذُلّ مقام المتجبرين، والخيبة المضطرين، والخسارة المسرِفينْ.(٧٩٢)

أما بعد فيا -أيها الإخوة- إن الله -تبارك وتعالى- عزيز ومن عزته أن لا يقبل شريكاً في عمل من عمل له فأشرك في إرادته وقصد غيره معه، فلا يقبل -عز وجل- من العمل إلا ما كان خالصاً يبتغي به وجهه وحده فحينئذ يقبل ويؤجر ويثيب، بهذا أمر الله عباده وبهذا أعلمهم قال تعالى: "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء"ولذا شن الوحي المبارك قرآنا وسنة حرباً لا هوادة فيها على الرياء وأهله معلنًا بوسائل شتى أن هؤلاء ليس لهم خلاق ولا نصيب في الآخرة بل هم عاملون ناصبون كادحون في الدنيا خاسرون بائرون في الآخرة، لأنهم لا يجدون فى ساح القيامة من أعمالهم التي عملوها لغير الله إلا ما يجده الذي يحرث في البحر، يجد البحر كما هو ولا أثر لحرثه ولا سعيه.

ولذلك وجب على كل عبد أن يتعلم الإخلاص ويتعرف على الرياء فيقصد إلى الأول "الإخلاص" ويحافظ عليه ويجتنب الثاني "الرياء" ويحذره.

---

(٧٩٢) المنثور (ص ٤)، لابن الجوزي.

فتعالوا بنا –أيها الإخوة– نتعرف من نافذة قريبة إلى حقيقة الرياء ما هو؟ وما مداخله؟ وما خطره؟ وما عاقبته؟ وكيف يتقيه الإنسان ويحذره؟ فأعيروني القلوب والأسماع والله أسأل أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه، وأن يرزقنا في كل عمل نية خالصة صافية.

أيها الإخوة ما هو الرياء؟ الرياء بكل وضوح هو إظهار العبد عمل الصالحات ليراه الناس ويحمدوه ويثنوا عليه ويمدحوه، وقد سماه الشرع بأسماء عدة كلها تحذر منه وتدعو إلى اجتنابه، فسمى القرآن الكريم الرياء شركاً وسماه تسميعًا وأضافه إلى خصال المنافقين ونفر منه أشد التنفير حتى يحذره الناس ولا يقربوه.

قال تعالى: "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً".

وهذا يشمل الشرك الأكبر والأصغر وهو الرياء.

وقال تعالى: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦)وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

وقال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)[الأنفال/٤٧، ٤٨].

وقال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)[النساء/١٤٢، ١٤٣].

فذم الله –عز وجل– صاحب الرياء الذي يريد بعمله وجه الخلق ومدح العبد المخلوق وهو في غفلة عن الخالق المعبود جل جلاله وجعله سبحانه من خصال الكافرين والمنافقين وتوعدهم بالويل وهو واد في جهنم شديد حره بعيد قعره أعاذنا الله وإياكم من شره وكما قال سبحانه: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)[النساء/١٤٥].

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه ﷺ قال: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه. (٧٩٣)

(٧٩٣) أخرجه مسلم ٧٦٦٦.

وفي الحديث الذي أخرجه البزار بسند صحيح من حديث الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ إن الله يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك بي أحدا فهو لشريكي! يا أيها الناس! أخلصوا الأعمال لله، فإن الله -عز وجل- لا يقبل من العمل إلا ما خلص له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم فإنه للرحم وليس لله منه شيء! ولا تقولوا: هذا لله ولوجوهكم، فإنه لوجوهكم، وليس لله منه شيء".(٧٩٤)

ومن أجمل ما قاله الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- يوضح أهمية الإخلاص وخطر الشرك: إن قول العبد لا إله إلا الله يقتضي أن لا إله له غير الله، والإله هو الذي يُطاع فلا يعصى هيبةً له وإجلالاً، ومحبة وخوفًا ورجاءً وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاء له، وهذا لا يصح إلا لله — -عز وجل- — فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وهذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله، أو خوفه أو رجائه أو التوكل على غير الله، والاعتماد عليه.(٧٩٥)

فمن أراد سعادة الدنيا والآخرة، وهناءتهما فليلزم الإخلاص إلى آخر الأنفاس وليبتعد قدر الإمكان عن مراءاة الناس فمن فعل فقد سعد روى البخاري من حديث أبي هريرة أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال ﷺ: "ما كنت أظن أن أحداً يسبقك إلى هذا السؤال لما علمت من حرصك على الحديث، يا أبا هريرة! أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه"(٧٩٦) وهكذا تبلغ النية بأصحابها بل إن الفقير المعدم الذى لا يملك شيئاً يكون بالنية الصالحة مع حسن العمل المتيسر له ملكاً متوجاً يرث ما يرثه خير الناس من أصحاب الأموال التي تمكنهم من أفضل الأعمال ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري أن النبي ﷺ قال: ""إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِى مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ».(٧٩٧)

---

(٧٩٤) أخرجه البزار (٣٥٦٧) والبيهقي في"الشعب"(٢ / ٣٢٠ / ٢)، وهو في الصحيحة (٦ / ٢٦٧)، ٢٧٦٤.

(٧٩٥) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، (ص٢٣، ٢٤).

(٧٩٦) أخرجه البخاري (٦٥٧٠).

(٧٩٧) أخرجه الترمذي ٢٣٢٥، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني فيهما، وانظر صحيح الجامع ٣٠٢٤.

فانظر كيف تصنع النية الخالصة لله تعالى ترجو ثوابه وتخشى عقابه، أما من أسلم نيته إلى الناس يستمطر ثناءهم ويستجر مدحهم ويتسول محمدتهم فهذا باء بخسارة دونها كل خسارة تتحمل وكلكم أحبتي يعرف حديث الأشقياء الثلاثة المجاهد في سبيل الله الشهيد، وقارئ القرآن وعالمه، والمنفق في سبيل الله الكريم الجواد، ماذا، أشقياء؟ أشقياء وهم بهذا الاسم والوصف؟! نعم، وما مصدر شقائهم يا ترى، إنه ليس في عدم إجادتهم لما قاموا به من أعمال أو سوء اختيارهم للعمل الفاضل من بين الأعمال ولكنه الاشتغال بالعمل لاستجلاب مدح الناس ومراءاتهم وإظهار الأعمال رياء وتسميعاً والانصراف عن الله وإرادة وجهه ورضاه، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل راءوا فراءى الله بهم في الآخرة وسمعوا فسمع الله بهم على رءوس الأشهاد يوم يحشر العباد وأختار أن أسرد الحديث على مسامع حضراتكم من رواية الترمذي وابن حبان من حديث شفى الأصبحي ففيها تفصيل ربما نسمعه لأول مرة وفيها عظة وعبرة عملية وقدوة حسنة من أصحاب رسول الله ﷺ في الحرص على الإخلاص والخوف من الرياء والحديث صححه الألباني وهو أن شفيًّا الأصبحي دخل المدينة مدينة النبي ﷺ فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال من هذا قالوا أبو هريرة قال فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فلما سكت وخلا قلت له أسألك بحق وبحق لما حدثتني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقلته وعلمته فقال أبو هريرة أفعل لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلا ثم أفاق فقال لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح عن وجهه فقال أفعل لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ثم مال خارا على وجهه فأسندته طويلا ثم أفاق فقال حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله –تبارك وتعالى– إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله –عز وجل– للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي قال بلى يا رب قال فما عملت فيما علمت قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله –عز وجل– له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله –تبارك وتعالى– بل أردت أن يقال فلان قارىء وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله –عز وجل– ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله –تبارك وتعالى– بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له في ماذا قتلت فيقول أي رب أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة قال الوليد أبو عثمان المديني وأخبرني عقبة أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا قال أبو عثمان وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافا لمعاوية قال فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس ثم بكى معاوية بكاء شديدا حتى ظننا أنه هالك وقلنا قد جاء هذا الرجل بشر ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه

وقال صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذي ليس لهم في الأخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون(٧٩٨)

وصدق المصطفى إذ يقول: من قام مقام رياء وسمعة راءى الله به يوم القيامة وسمع(٧٩٩) والحديث أخرجه أحمد بإسناد جيد، بل وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني من حديث سعيد بن المسيب، قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول يومًا في ملإ من المسلمين فيهم ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سمع الناس بعمله سمع الله به مسامع خلقه وصغره وحقره(٨٠٠)قال سعيد: فرأيت عيني ابن عمر تذرفان. وهذا كله يوضح لنا خطر الرياء ومدى عاقبته السيئة، إن المرائي لا يدرى ماذا يجني على نفسه حين يقصد بالعمل وجه غير الله، روى الطبراني بسند صحيح من حديث أبي هند الداري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من رايا بالله لغير الله فقد برئ منه الله".(٨٠١)

فالرياء داء عضال يغضب الله –عز وجل– ويحبط الأعمال ويورث عاقبة السوء ولذلك خافه علينا رسول الله ﷺ ففي غير حديث يحذر منه ويخبر بخطره ويخبر عن خوفه علينا منه كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره وسنده حسن من حديث أبي علي الكاهلي قال: "خطبنا أبو موسى الأشعري فقال يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقال: والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون فقال: بل أخرج مما قلت خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فقال له من شاء الله أن يقول وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله قال قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه(٨٠٢)

وروى أحمد كذلك من حديث محمود بن لبيد قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر"قالوا يا رسول الله وما شرك السرائر قال: "يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر"(٨٠٣) بل ما ذكر النبي ﷺ شيئاً منذ خلق الله الأرض إلى أن يرثها وما عليها أعظم فتنة من المسيح الدجال، تصوروا معي، ومع ذلك خاف النبي ﷺ على الأمة من الرياء أعظم من خوفه عليها من الدجال ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجة وغيره وسنده حسن من حديث أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر المسيح

---

(٧٩٨) أخرجه الترمذي ٢٣٨٢، وابن حبان ٤٠٩، وصححه الألباني في التعليق الرغيب (١ / ٢٩ – ٣٠).

(٧٩٩) أخرجه أحمد ٢٢٣٧٦، بإسناد جيد والدارمي ٢٨٠٤، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٥.

(٨٠٠) أخرجه أحمد ٦٦٦٥، والطبراني ٦٥٠، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٥.

(٨٠١) أخرجه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٤.

(٨٠٢) أخرجه أحمد ٢٠١٣٣، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٦.

(٨٠٣) أخرجه ابن خزيمة ٨٩٢، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣١.

الدجال فقال: ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ فقلنا: بلى يا رسول الله فقال: "الشرك الخفي أن يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل"(٨٠٤)

وأحب أن أنبه تنبيهاً ليس هذا بابه ولكن الإشارة إليه في هذا الحديث تدفعني إلى بيانه ذلك أن بعض الناس أو جلهم معظمهم يقولون عن الدجال المسيخ الدجال يظنون أنهم إن قالوا المسيح كانت لابن مريم وهذا خطأ فكل الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ سمته المسيح –بالحاء- وليس في شيء منها ذكر المسيخ بالخاء كما نبه على ذلك الحافظ وليس أحرص على الخير والضبط من رسول الله ﷺ الشاهد –أيها الإخوة- أن النبي ﷺ حذر أمته الرياء وخوفها منه بكل سبيل وورث ذلك الحذر الصحابة والتابعون الذين سمعوا وصية الله في قرآنه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)[البقرة/٢٦٤].

وسمعوا وصية النبي ﷺ في حديثه: "إياكم وشرك السرائر قالوا يا رسول الله وما شرك السرائر قال يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر".(٨٠٥)

وعى سلفنا الصالح هذه الكلمات عن الله جل في علاه وعن المصطفى ﷺ فجعلوها نبراساً يضيء حياتهم ويهديهم سبيلهم، فكانت خير معوان لهم على التخفي بالصالحات والطاعات.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء في زمن النبي ﷺ الشرك الأصغر. (٨٠٦)

ومن ثم ذموا الرياء والمرائين فهذا عمر بن الخطاب يرى رجلًا يمشى يطأطئ رقبته، فقال له: يا صاحب الرقبة: ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب.

وقال علي رضي الله عنه: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذم به.

وأتى أبو أمامة على رجل وهو ساجد يبكي في سجوده، ويدعو فقال له: أنت أنت! لو كان هذا في بيتك.

وقال الحسن: المرائي يريد أن يغلب قدر الله فيه، هو رجل سوء يريد أن يقول للناس هو صالح، فكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء.

---

(٨٠٤) أخرجه ابن ماجه ٤٣٤٤، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٠.

(٨٠٥) أخرجه ابن خزيمة ٨٩٢، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣١.

(٨٠٦) أخرجه البيهقي في الشعب ٦٥٧٥، ٦٥٧٦، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٥.

وقال قتادة: إذا راءى العبد، يقول الله: انظروا إلى عبدي كيف يستهزئ بي.

وقال الفضيل: ترك العمل لأجل الناس شرك، والعمل لأجل الناس رياء، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل، فإنه أشرف من إظهاره بالنهار، لأن السمت بالنهار للمخلوقين، والسمت بالليل لرب العالمين.

ولذلك قال بعض الحكماء في مثل الرياء: مثل من يعمل رياء وسمعة كمثل من ملأ كيسه حصى ثم دخل السوق ليشتري به فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح وضرب به وجهه فلم يحصل له به منفعة سوى قول الناس ما أملأ كيسه ولا يُعطى به شيئاً فكذلك من عمل للرياء والسمعة لا منفعة له في عمله سوى مقالة الناس ولا ثواب له في الآخرة قال تعالى: "وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً"أي كمثل الغبار الذي يرى في شعاع الشمس ولا منفعة فيه فاحذروا –أيها الإخوة– الرياء، وأخلصوا في أعمالكم لربكم الإخلاص الإخلاص البواطن البواطن النيات النيات السرائر السرائر فإن عليكم من الله عينًا ناظرة.

والسؤال –أيها الإخوة– ما هو حكم العمل الذي راءى فيه العبد؟ وأبين هذا مع أن الأحاديث قد تقدمت به لأن في المسألة تفصيل ذكره العلماء وهذا من رحمة الله بنا إذ لو كان الأمرأن يرد كل عمل راءى العبد فيه جملة واحدة لضعنا جميعاً، لو أن الله تعالى كلما راءى عبد في عمل في أوله أو أوسطه أو آخره أو بعده فأحبط عمله كله لضعنا وضاعت أعمالنا بأسرها ولكن من رحمة الله أن في الأمر تفصيلاً أوضحه –أيها الإخوة– بهذا التقسيم السهل اليسير.

أولًا: إذا كان العمل فيه رياء خالص:

إن العمل تارة يكون رياء خالصاً، بحيث لا يراد به سوى مرآة المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم، والحمد لله فإن هذا الرياء الخالص لا يكاد يصدر من مسلم في فرض الصلاة والصيام ولكن قد يصدر منه في الصدقة الواجبة أو الحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

ثانيا:إذا كان العمل لله مع رياء:

فقد يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه في أصله أى فى القصد والنية، فالنصوص الصحيحة من السنة تدل على بطلان هذا العمل وحبوطه وثوابه.

ثالثًا:إذا كان العمل يخالطه غير الرياء:

إن العمل إذا خالطه شيء غير الرياء لم يبطل بالكلية، فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية أخرى غير الرياء مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر المجاهد ولم يبطل بالكلية. [٨٠٧]

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: "ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم".[٨٠٨]

رابعًا: إذا كان العمل خالصًا لله ثم تطرأ عليه نية الرياء:

إذا كان أصل العمل لله وحده ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بغير خلاف بين العلماء، فإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويُجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجّحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازي بنيته الأولى، وهذا القول مروي عن الحسن البصري وغيره، وذكر ابن جرير الطبري أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط بأوله كالصلاة والصيام والحج فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال، ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة، ويحتاج إلى تجديد نية.

خامسًا: إذا كان العمل لله لكن يصاحبه ثناء من الناس:

إذا كان عمل المسلم عملاً خالصاً لوجه الله تعالى ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح المسلم بفضل الله ورحمته واستبشر به لم يضره ذلك روى مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: "تلك عاجل بشرى المؤمن". [٨٠٩]

هذه هى أقسام الرياء مع العمل نسأل الله تعالى أن يحسن نوايانا فى الأمور كلها وهناك أمور -أيها الإخوة- ربما يحسبها البعض من الرياء وهي في الحقيقة ليست منه على الإطلاق ونتعرف إليها وأيضا إلى علاج الرياء بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

---

(٨٠٧) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٨).

(٨٠٨) أخرجه مسلم (٥٠٣٤).

(٨٠٩) أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد فيا –أيها الإخوة–! هناك أمور ربما يحسبها البعض من الرياء وليست منه على الإطلاق

"منها: لو طرأ عليه الرياء بعد انتهاء العبادة.

فهذا لا يضره لأنه بعد انتهاء العمل ويدل عليه مفهوم حديث أبي هريرة: «من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[٨١٠].

فلا يتصور بعد الفراغ من العمل أن يرائي فيه، لكن قد يدخله الرياء من باب التحدُّث به.

ومنها: مدح الناس له وثناؤهم عليه دون قصد منه أوإثارة له هذا أيضا ليس من الرياء لقوله ﷺ لما سئل عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس قال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[٨١١]. ولأن ذلك طرأ بعد الفراغ من العبادة.

ومنها: إذا عمل العالم أو طالب العلم عملًا ليس من عادته إظهاره وإعلانه ولكن فعل ذلك ليتأسى به الناس فلا يُعَدُّ من الرياء ؛ لحديث سهل المتفق عليه أن النبي ﷺ قال على المنبر: «فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي»[٨١٢].

ومنها: فرح العبد بفعل الطاعات، فهذا دليلٌ على إيمانه لقول النبي ﷺ: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو المؤمن»[٨١٣].

ومنها: لو أن إنسانا لم يعتد على عمل صالح كالصيام أو قيام الليل وحضر مع قوم ملتزمين فصام معهم أو قام الليل فليس من الرياء ؛ لأنه ما صام يريد مدحهم،وإنما هو نشط لهذه العبادة لما جالسهم، ويشهد لهذا حديث حنظلة رضي الله عنه قال: «قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– «وَمَا ذَاكَ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ

(٨١٠) أخرجه مسلم (٧٦٦٦).

(٨١١) أخرجه مسلم (٦٨٩١).

(٨١٢) أخرجه البخاري (٩١٧)، ومسلم (٥٤٤).

(٨١٣) أخرجه أحمد (١١٤)، والحاكم (٣٤)، وقال: "صحيح على شرط الشيخين ". ووافقه الذهبي. قال الألباني: وهو كما قالا(إرواء الغليل – (٦ / ٢١٥).

رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.(٨١٤)

ومن الصور التي ليست من الرياء أيضًا: لو تحدث بعمله الصالح لينشط الناس ويفيدهم، هذا أيضا جائز لقول النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ». (٨١٥).(٨١٦)

أيها الإخوة ومن الناس من يغفل عن المقصود الأعظم من العمل وهو بلوغ مرضاة الله واستحقاق دخول الجنة ويكون مقصوده وغاية ما يريده من الأعمال الصالحة شيئا من أمور الدنيا؛ كالمال أو المرتبه ونحوها، فهو يريد بعمله نفعا في الدنيا، غافلا عن ثواب الآخرة.

وذلك كالجهاد من أجل الدنيا فقط، والهجرة من أجل الدنيا فقط، والأذان من أجل الراتب فقط، والإمامة من أجل الراتب فقط، وقراءة القرآن من أجل المال فقط، وتطبيق الحدود للأمن فقط، والدراسة الشرعية من أجل المال فقط، وكذا من تعبَّد لله لدفع السوء عنه، وحفظه في أهله أو لصرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير ونحوها فلا شك أن هذا خاسر حابط عمله باطل سعيه ذاهب أجره وجهده. فألق سمعك بين يدى قول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦](٨١٧) فحكم سبحانه بحبوط العمل إذا كان للدنيا، وقضى بخسارة صاحبه.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع». (٨١٨)

ألا فلتنظر نفس ما هي عليه حتى تتدارك أمرها عسى الله أن يخلصها من هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم.

وطوبى لمن أخرج من قلبه كل إرادة سوى إرادة وجه الله جل فى علاه أولئك هم المفلحون الفائزون.

---

(٨١٤) أخرجه مسلم (٧١٤٢).

(٨١٥) أخرجه مسلم ٩٦٧٥.

(٨١٦) انظر:عون العلي الحميد (١/١٤٣).

(٨١٧) نفسه (١/١٥١).

(٨١٨) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

وبعدما أرهقنا القلوب –أيها الإخوة– بهذا الحديث المضني المؤرق عن الرياء وخطره وسوء عاقبته يحسن بنا أن نعطيها الدواء والعلاج لتطمئن نفساً وتقر عيناً وتطيب خاطراً وهذا ما نشرع فيه نسأل الله السداد والرشاد فما هو علاج الرياء؟وانتبه أيها الحبيب اللبيب فهذا لب الحديث وغايته: فتعالج آفة الرياء بما يلي:

١ – معرفة أنواع التوحيد، وتحقيقها، والتعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فإن معرفة الله بأسمائه وصفاته تنقي القلب من الضعف، فإذا علم العبد أن الله وحده هو الذي ينفع ويضر؛ طرح من قلبه الخوف من الناس، حيث زين له الشيطان تزيين عبادته أمامهم خشية ذمهم، وطمعًا في ثنائهم، ومتى علم أن الله سميع بصير يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ طرح مراقبة الناس وأطاع الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

٢ – أن يعلم المكلف علمًا يقينًا بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أُجرة ؛ إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته ؛ فما يناله من سيده من الأجر تفضُّل وإحسان إليه لا معاوضة.

٣ – مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه، وأنه بالله لا بنفسه؛ فكل خير فهو مجرد فضل الله ومنته.

٤ – مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره في عمله، وما فيه من حظ للنفس ونصيب للشيطان.

٥ – خوف مقت الله تعالى.

٦ – الإكثار من العبادات غير المشاهدة وإخفاؤها ؛ كقيام الليل، وصدقة السر، والبكاء من خشية الله.

٧ – تذكر الموت وسكراته، والقبر وأهواله، واليوم الآخر.

٨ – معرفة الرياء ومداخله وخفاياه حتى يحترز منه.

٩ – النظر في عاقبة الرياء في الدنيا والآخرة.

١٠– دعاء الله بالخلاص من هذا الداء، ومن ذلك حديث أبي موسى مرفوعًا ﷺ، وفيه: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»(٨١٩).

١١– مصاحبة أهل الإخلاص والتقوى (٨٢٠).

(٨١٩) أخرجه أحمد (٤/٤٠٣)، وغيره.

(٨٢٠) انظر: حاشية"القول المفيد" ط. ابن الجوزي ودار العاصمة (٢/٢٩١، ٢٩٢)، نقلًا عن عون العلي الحميد (٢ / ١٤١).

هذه أهم الأمور التي يعالج بها الرياء ويخرج العبد بها من أسره، هذا ونسأل الله أن يجنبنا الرياء ومحبطات الأعمال وجميع الآفات وجالبات السيئات وآكلات الحسنات.

وأقدم في النهاية هدية إلى هذه القلوب التي عزمت أن تتخلص من الرياء وأن تخلص لرب الأرض والسماء ألا وهي البشرى بأن الله –عز وجل– يقلب لنا العمل المباح من العادات والأعمال والأفعال والأقوال والحركات إلى عبادات وقربات وذلك بالنية الصالحة الخالصة كما قال النبي ﷺ: "وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِيّ امْرَأَتِكَ". [٨٢١]

وفي الحديث أنه ﷺ قال: "وَفِى بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِى أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِى حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِى الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».[٨٢٢]فأبشروا عباد الله فنحن عباد رب غفار رحيم لكن لمن عمل لوجهه ولم يشرك معه أحداً وإلا فهو جبار منتقم، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص حتى آخر الأنفاس وأن يقيمنا على جادة الطريق وسواء السبيل والصراط المستقيم إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل... الدعاء.

(٨٢١) أخرجه البخاري (٢٧٤٢).

(٨٢٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٦).

إنما الطاعة في المعروف

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد فيا أيها الإخوة إن الله -عز وجل- هو صاحب الخلق فكل صانع قد صنع الذى صنع بتوفيقه، فإليه تعالى يرجع فضل ما صنعت يداه، كما قال ربنا: "فتبارك الله أحسن الخالقين".

وهو سبحانه كذلك صاحب الأمر فكل أمر فلابد أن ترجع طاعته إلى طاعة الله فإن كانت توافقها مضى المأمور فيها، وإن كانت تخالفها فلا طاعة أبداً لمخلوق في معصية الخالق أيا كان ذلكم المخلوق من عظيم أو حقير، أو ملك أو فقير، أو عالم أو جاهل، كما قال سبحانه: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"فأفرد طاعته وأفرد طاعة رسوله ثم تحدث عن أولي الأمر دون أن يفرد لهم طاعة، لماذا؟

إشارة إلى أن طاعتهم ليست مستقلة، وإنما هى تعود إلى طاعة الله وطاعة رسوله فإنهم إن أمروا بما وافق طاعة الله ورسوله أطيعوا، وإلا فلا يطاعون، لكن -أيها الإخوة- من هم أولو الأمر في هذه الآية؟ وما حكم طاعتهم؟ وما هي أقسامها؟

فانتبهوا -أيها الإخوة- يرحمكم الله فإن هذا الموضوع زلت بسببه أقدام، وضاعت في متاهته أفهام، وورثت الأمة بسبب جهله الأمراض والأسقام، ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك العزيز العلام، -أيها الإخوة-! من هم أولو الأمر؟والجواب: أولو الأمر هم العلماء والأمراء، فالعلماء والخطباء والدعاة والوعاظ، والأمراء والرؤساء والملوك والحكام هؤلاء جميعًا هم أولوا الأمر الواجب طاعتهم كما أمرنا الله -تبارك وتعالى- في الآية السابقة، وكما قال النبي ﷺ آمراً بذلك في غير ما حديث منه ما أخرجه أحمد وأصحاب السنن من حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها الدموع ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: قد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشيًّا فإنما المؤمن كالجمل الآنف حيثما قيد انقاد". [٨٢٣]

روى البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: "اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة". [٨٢٤]

---

(٨٢٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣) و أحمد (٤ / ١٢٦)، وصححه الألباني: "السلسلة الصحيحة"٢ / ٦٤٨.

(٨٢٤) أخرجه البخاري (٦٩٣).

وروى مسلم من حديث أبي ذر الغفاري –رضي الله عنه– قال: "أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشيًّاً مجدع الأطراف". (٨٢٥)

وروى مسلم من حديث أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول: "ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، اسمعوا وأطيعوا". (٨٢٦)

و روى ابن جرير الطبري بإسناده من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ سيليكم بعدي ولاة، فيليكم البَرُّ ببِرِّه، والفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، وصلُّوا وراءهم. فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساؤوا فلكم وعليهم. (٨٢٧)

ففي هذه الأحاديث كلها – أيها الإخوة – يأمر النبي ﷺ بطاعة أولي الأمر، ويحض على السمع لهم والانقياد لما أمروا به، ويحذر من مخالفتهم، لأنهم المخولون بمصالح العباد بكلمة الله تعالى وحكمه، ويبلغ الحد أن يقول النبي ﷺ – يعرفنا مبلغ طاعة ولي الأمر ومبلغ معصيته — يقول: "من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصى أميري فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله"(٨٢٨)والحديث أخرجه البخاري ومسلم.

لكن هذه الطاعة – أيها الإخوة – مشروطة في كل هذا بأن لا تكون في معصية الله –عز وجل–، نعم فالشرط أن تكون طاعة أولي الأمر في طاعة الله ورسوله، أما في معصية الله ورسوله، أما فيما يصادم الكتاب والسنة، أما فيما يتعارض مع كلام الله وكلام رسوله، فلا طاعة على الإطلاق، ولا سمع ولا شيء وقد دلت الآية كما أوضحت على هذا المعنى، وكما دلت عليه جملة من الأحاديث، منها سبب نزول هذه الآية، وهو يوضحها خير توضيح.

قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنت تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً".

روى البخاري عن ابن عباس قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية.(٨٢٩)

---

(٨٢٥) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٣٧).

(٨٢٦) أخرجه مسلم (١٨٣٨).

(٨٢٧) تفسير الطبري (٨/٤٩٨).

(٨٢٨) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٨٢٩) أخرجه البخاري (٨٥٨٤)، ومسلم (١٨٣٤).

وقد أوضح الذي حدث في هذه السرية ما روى أحمد عن علي قال: "بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء. قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا لي حطباً. ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. [قال: فهم القوم أن يدخلوها] قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم رسول الله لما أخبروه: "لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ؛ إنما الطاعة في المعروف"(٨٣٠)

نعم إنما الطاعة في المعروف ولذا روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ قال: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة". (٨٣١)

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال: "إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم فيه من الله برهان"أخرجاه.(٨٣٢)

فالطاعة إنما تكون فى المعروف الذى يقره الشرع، أما فى معصية الله فلا طاعة ولا كرامة، هذا كلام ربنا وكلام نبينا.

وهذا فهم سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم الذي به عملوا فى هذه المسألة وإياه علموا وإليه أرشدوا.

روى مسلم عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليعطه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر". قال: فدنوت منه فقلت: أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: "يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

---

(٨٣٠) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠)، وأحمد (٦٢٢).

(٨٣١) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

(٨٣٢) أخرجه البخاري (٧١٤٣)، ومسلم (١٨٤٩).

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً". [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله. (٨٣٣)

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله– – بعد أن ذكر الأحاديث التي مرت معنا –: فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: "أطيعوا الله"أي: اتبعوا كتابه"وأطيعوا الرسول"أي: خذوا بسنته"وأولي الأمر منكم"أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: "إنما الطاعة في المعروف". (٨٣٤)وروى أحمد عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: "لا طاعة في معصية الله".

وقوله: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول"قال مجاهد وغير واحد من السلف أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا أمر من الله –عز وجل–، بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: "وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله"[الشورى: ١٠] فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: "إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر"أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم"إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر".

فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله: "ذلك خير"أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع في فصل النزاع إليهما خير"وأحسن تأويلاً"أي: وأحسن عاقبة ومآلا كما قاله السدي وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب. (٨٣٥)

فهذا –أيها الإخوة– كلام ربنا وكلام نبينا وكلام سلفنا في أنه يجب طاعة الأئمة والأمراء والحكام وتبجيلهم واحترامهم فإن تقديرهم من تقدير الله –عز وجل– كما جاء في الحديث الذي أخرجه أبو داود من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: "إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام السلطان المقسط(٨٣٦)والحديث حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب أوجب الشرع علينا طاعة أولي الأمر في طاعة الله فإن أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة فإنما الطاعة في المعروف فلا يصح من مسلم بعد هذا التأصيل الذي أصلت من القرآن

---

(٨٣٣) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

(٨٣٤) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

(٨٣٥) تفسير ابن كثير – (٢ / ٣٤٥).

(٨٣٦) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣) والبيهقي في الكبرى (٨/١٦٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٩٩.

والسنة أن يقول نطيع ثم نطيع ثم نطيع تمشياً ونسجًا على هذه الثلاثية الشهيرة حلال حلال حلال لا -أيها الإخوة- فالطاعة المطلقة إنما هي لله ولرسوله ﷺ فلا يعصي الله ورسوله في أمر أمرا به أو نهي نهيا عنه وكل الطاعات بعد هذا تبع لطاعة الله -عز وجل- لكن أناساً من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله قلبوا المسألة فجعلوا طاعة العلماء والأمراء هي الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها وهذا ليس من الإسلام في شيء وقد ذم الله -تبارك وتعالى- ذلك أعظم الذم في كتابه وسمى عملهم ذلك اتخاذ هؤلاء العلماء والأمراء مصدراً للطاعة، لا يعصون ولو في معصية الله، أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله تألهوهم وتحاكموا إليهم وعبدوهم، ولا شك أن هذا كفر بالله رب العالمين سبحانه.

فإن الحكم كله لله، كما أن العبادة كلها لله، وكما أن الخلق كله لله، وهذا هو السر -أيها الإخوة- في أن الله تعالى جمع بين الخلق والأمر في قوله عز من قائل: "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)"

نعم ألا له الخلق والأمر فالخلق كله خلقه، وما داموا كذلك فالأمر الواجب أن يسير فيهم هو أمره وحده، وذلك في كل شيء، ولهذا جاء الخبر بصيغة الاختصاص: ألا له الخلق والأمر أي: لا خالق إلا هو ولا آمر إلا هو جل في علاه، كما نقول: "إياك نعبد وإياك نستعين" أي: لا نعبد إلا أنت، ولا نستعين إلا بك، نعم احترام العلماء والأمراء واجب، ولكن من استبان له الحكم من كتاب الله وسنة نبيه- ﷺ - فليس له أن يدعه لأمر أو قول أحد من الناس كائناً من كان.

أيها الإخوة! لقد حدث ابن عباس يوماً ببعض أمور الشرع، فقال له قائل: "إن أبا بكر وعمر يقولان خلاف هذا، فما كان من ابن عباس إلا أن قال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟. [(٨٣٧)]

فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر، وهما من هما، فماذا تظنه يقول فيمن يعارض قول الله وقول رسوله ببعض آراء من ينسبون إلى العلم وبعضهم في الحقيقة ليسوا بعلماء؟!

ومثل هذا الذي حدث من ابن عباس حدث من ابن عمر ولكن مع من هو أوثق وشيجة وأشد قربى، فقد سئل ابن عمر عن المتعة في الحج - أي عمل العمرة ثم التحلل منها، ثم الشروع في أعمال الحج بعد هذا عند دخول وقته، فقال: هو سنة نبيكم ﷺ فقيل: إن عمر كان ينهى عنها، فقال عبد الله بن عمر: ومن عمر؟ أأمر رسول الله ﷺ أحق أن يتبع أم قول عمر؟؟!

---

(٨٣٧) أخرجه عبد الرزاق في: «المصنف» وصححه الألباني.

سبحان ربي إنه لا توقير ولا احترام ولا تقدير في تقديم قول القائل كائنًا من كان وأيًّا كان على قول الله وقول رسوله بل التقدير والاحترام والتقدير كله حتى للذي كنت تريد أن تتبع رأيه أن تذهب به إلى ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ وهل ضاع الإسلام إلا من هذا؟ فمن هنا أتينا.

يوم نحّى الناس شرع الله وتحاكموا إلى قول فلان وفلان، ورحم الله الأئمة المتبوعين الذين أرادوا أن يعلموا الناس الدرس الغالي العظيم الذي به يفلحون ويسعدون، فما منهم من أحد إلا وقد نهى عن اتباعه، والعمل بأقواله، وأمر بتجريد اتباع وطاعة الله ورسوله فيا ليت أتباعهم يعون ويسمعون ويا ليت قومي كذلك يعلمون.

وأسوق إلى حضراتكم بعض أقوالهم في هذا لعل فيها عظة وذكرى لمن يقلدهم – بل لمن يقلد اليوم من هم دونهم بدرجات تقليداً أعمى – ويتمسك بمذاهبهم وأقوالهم كما لو كانت نزلت من السماء، فاستحلوا الربا بقول بعض هؤلاء، واستحلوا الدخان بقول آخرين، ولبست المرأة البنطال بمثل هذه التكأة والحجة الباطلة، إلى آخر هذه الأفعال الرذيلة المعتمدة على الفتاوى الهزيلة، والله –عز وجل– يقول: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون".

فاسمعوا: ما ذا يجب علينا أن نتبع؟ القرآن والسنة لا أقوال أشباه العلماء الذين انحرفوا عنهما ويقولون: "علقها في رقبة عالم واطلع سالم" فاسمع إذا ماذا يقول العلماء:

فأولهم الإمام أبو حنيفة –رحمه الله– وقد روي عنه أصحابه أقوالاً شتى وعبارات متنوعة كلها تؤدي إلى شيء واحد وهو وجوب الأخذ بالسنة وترك تقليد آراء الأئمة المخالفة لها منها قوله:

(إذا صح الحديث فهو مذهبي). [٨٣٨]

وقال –رحمه الله–: (لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه)[٨٣٩]

وفي رواية: (حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً)

وقال –رحمه الله–: (ويحك يا يعقوب (هو أبو يوسف)لا تكتب كل ما تسمع مني فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد)

(إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولي)[٨٤٠]

---

(٨٣٨) ابن عابدين في"الحاشية" (٦٣/١).

(٨٣٩) ابن عابدين في"حاشية على البحر الرائق" (٢٩٣/٦).

وهذا مالك بن أنس –رحمه الله– قال: (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه)(٨٤١)

(ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ)(٨٤٢)

قال ابن وهب: سمعت مالكاً سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء فقال: ليس ذلك على الناس. قال: فتركته حتى خف الناس فقلت له: عندنا في ذلك سنة فقال: وما هي قلت: حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو ابن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحمن الحنبلي عن المستورد بن شداد القرشي قال: رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه. فقال: إن هذا الحديث حسن وما سمعت به قط إلا الساعة ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع. (٨٤٣)

وأما الإمام الشافعي –رحمه الله– فالقول عنه في ذلك أكثر وأطيب وأتباعه أكثر عملاً بها وأسعد فمنه: (ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ لخلاف ما قلت فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي). (٨٤٤)

(أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد)(٨٤٥)

(إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت). (وفي رواية (فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد). (٨٤٦)

(إذا صح الحديث فهو مذهبي)(٨٤٧)

(أنتم أعلم بالحديث والرجال مني فإذا كان الحديث فأعلموني به أي شيء يكون: كوفياً أو بصرياً أو شامياً حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً). (٨٤٨)

---

(٨٤٠) الفلاني في الإيقاظ (ص٥٠).

(٨٤١) ابن عبد البر في الجامع (٣٢/٢).

(٨٤٢) ابن عبد البر في الجامع (٩١/٢).

(٨٤٣) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ص ٣١-٣٢.

(٨٤٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣/١/١٥).

(٨٤٥) الفلاني (ص٦٨).

(٨٤٦) النووي في المجموع (٦٣/١).

(٨٤٧) النووي (٦٣/١).

(كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي)[٨٤٩]

(إذا رأيتموني أقول قولاً وقد صح عن النبي ﷺ خلافه فاعلموا أن عقلي قد ذهب)[٨٥٠]

(كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح فحديث النبي ﷺ أولى فلا تقلدوني)[٨٥١]

(كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي وإن لم تسمعوه مني)[٨٥٢]

وأما الإمام أحمد فهو أكثر الأئمة جمعاً للسنة وتمسكاً بها حتى (كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي)ولذلك قال:

(لا تقلدوني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا)[٨٥٣]

وفي رواية: (لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به ثم التابعين بعد الرجل فيه مخير).

وقال مرة: (الاتباع أن يتبع ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه ثم هو من بعد التابعين مخير)[٨٥٤]

(رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء وإنما الحجة في الآثار)[٨٥٥]

(من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة)[٨٥٦]

تلك هي أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في الأمر بالتمسك بالدليل والنهي عن تقليدهم دون بصيرة، وهي من الوضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً، وعليه فإن من تمسك بكل ما ثبت في السنة ولو خالف بعض أقوال الأئمة لا يكون مبايناً لمذهبهم ولا خارجاً عن طريقتهم بل هو متبع لهم جميعاً ومتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام

---

(٨٤٨) الخطيب في الاحتجاج بالشافعي (٨/١).

(٨٤٩) أبو نعيم في الحلية (١٠٧/٩).

(٨٥٠) ابن عساكر وصححه الألباني (١/١٠/١٥).

(٨٥١) ابن عساكر وصححه الألباني (٢/٩/١٥).

(٨٥٢) ابن أبي حاتم (٩٣-٩٤).

(٨٥٣) ابن القيم في إعلام الموقعين (٣٠٢/٢).

(٨٥٤) أبو داود في مسائل الإمام أحمد (ص ٢٧٦-٢٧٧).

(٨٥٥) ابن عبد البر في الجامع (١٤٩/٢).

(٨٥٦) ابن الجوزي في المناقب (ص ١٨٢).

لها، وليس كذلك من ترك السنة الثابتة لمجرد مخالفتها لقولهم بل هو بذلك عاص لهم ومخالف لأقوالهم المتقدمة والله تعالى يقول: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً.[٨٥٧] وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد فأيها الإخوة إن من استبان له الدليل في مسألة من المسائل عن الله ورسوله ولم ينقد لحكمهما اتباعاً لقول أحد من الناس يخشى عليه الفتنة عند الموت والزيغ عند الشهادة بالحق عند الموت، وفي القبر، وكذا يخشى عليه الهلاك في الحشر، وعند السؤال يوم الحساب، وهذا الكلام ليس من عندي ولا من عند أبي ولكنه قول الله العظيم في قرآنه.

قال الله تعالى: فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم

قال الحافظ ابن كثير [٨٥٨]: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم،هو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله، كائنًا ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عمل عَمَلًا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ"[٨٥٩]

والمعنى: "فليحذر الذين يخالفون عن أمره". أي: فليحذر وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا { أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ } أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، { أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. وقد كان الإمام أحمد -رحمه الله- تعالى يقول:(عجبت لقومٍ عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك)[٨٦٠]

إن الواجب على المكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: "اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون".

---

(٨٥٧) انظر لزاما مقدمة صفة صلاة النبي ﷺ، للعلامة الألباني.

(٨٥٨) تفسير ابن كثير (٦ / ٨٩).

(٨٥٩) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) وأخرجه مسلم (١٧١٨).

(٨٦٠) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (ص٩٧).

وقال تعالى: "أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون". (٨٦١)

نعم فلا يوزن قول الله تعالى وقول رسوله بقول أحد وإنما يوزن بقول الله وبقول رسول الله قول كل أحد كما قال الزهري: إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر الذي توزن عليه الأشياء على سنته وسيرته وهديه ﷺ فما وافقها فهوالحق وما خالفها فهو الباطل ورحم الله الذي قال:

وقـــول أعــــلام الهــــدى لا يعمـــل	بقولنـــــــا دون نـــــــص يقبـــــل
قــــال أبــــو حنيفــــة الإمـــــام	لا ينبغـــــي لمـــــن لـــــه إســــلام
أخـــــذاً بقــــولي حــــتى تعــــرض	علـــى الحــــديث والكتـــاب المرتضـــى
ومالـــــــك إمــــــام دار الهجــــــرة	فـــال وقـــد أشـــار نحـــو الحجـــرة(٨٦٢)
كـــــل كــــلام منــــه ذو قبــــول	ومـــــــردود ســـــــوى الرســـــول
وأحمـــد قـــال لهـــم لا تكتبـــوا	عــــني بــــل أصــــل ذاك فــــاطلبوا
فـــاسمع مقــــالات الهــــداة الأربعــــة	واعمــــل بهــــا فــــإن فيهــــا منفعــــة
لقمعهـــــا لكـــــل ذى تعصـــــب	والمنصـــــــفون يكتفـــــون بـــــالنبي

ورحم الله الإمام مالك الذي سئل يوماً عن الإحرام هل أحرم من البيت؟ فقال لسائله بل أحرم من ذي الحليفة ميقات أهل المدينة فقال السائل: فهل في إحرامي من بيتي شيئ؟ قال الإمام: نعم أخشى عليك الفتنة قال: الفتنة في بضع خطوات؟ قال: نعم فإن الله قال عن نبيه: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)[النور: ٦٣]

وفي الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي وحسنه الألباني عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحللون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم".(٨٦٣)

(٨٦١) شرح كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لسليمان بن محمد اللهيميد.

(٨٦٢) أي حجرة النبيﷺ.

(٨٦٣) أخرجه الترمذي (٣٠٩٤)، وحسنه الألباني في صحيحه، وأحمد ٤ / ٢٥٧ و ٣٧٨، والدارمي ٢٢٠.

فسمى الله طاعة أولى الأمر من حكام أو علماء فى معصية الله تعالى عبادة وطاعة لهم من دون الله فالحذر الحذر عباد الله!

وقد عمت البلوى -أيها الإخوة - بمثل هذا فترى الرجل يعمل في أمواله ونفسه أو تجارته أو زرعه بالشيء فتنهاه عن ذلك وتذكر له قول الله وقول نبيه فيرد عليك بكل هدوء وكأنه صاحب حق حقيق لقد قال -يعنى من المنتسبين الى العلماء أو العلماء- فلان كذا وقال فلان كذا فاستحلوا الربا بقول فلان واستحلوا الخمر بقول فلان واستحلوا التدخين بقول فلان وصاروا يترخصون في دينهم بما يتبعون من أقوال هؤلاء العلماء أو المنتسبين إلى العلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم،ولتعلم أيها الحبيب أن الذي يفعل هذا إنما يتبع هواه لأنهما اثنان لا ثالث لهما إما اتباع الله ورسوله وإما اتباع الهوى قال -عز وجل-: "فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)[القصص: ٥٠]

وهذا هو الذى حذرنا الله أن نهلك بسببه ونضل فقال مخاطبًا نبيًا كريما هو داود عليه السلام يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) [ص: ٢٦]

وعن زياد بن حُدَيْر قال: قال لي عمر: "هل تعرف ما يهدم الإسلام؟، قلت: لا، قال: يهدمه زلَّة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلّين".(٨٦٤)

أيها الإخوة! ومن سبق ذلك منه فى الماضى جهلًا بما أصلنا الآن فليتب الى الله تعالى وليرجع الى حكمه -عز وجل-.

"فإن من أطاع العلماء والأمراء في تحليل الحرام أو العكس واعتقاد أن هذا جائز مع العلم بأنه خلاف الشرع فيكون قد عبدهم وهذا بلا شك قد كفر، أما إذا تبعهم جهلًا أو اجتهادًا فهذا لا يكون عبادة لهم ولا يدخل في الوعيد ؛ لأن الإنسان مطالب بسؤال العلماء والأخذ بفتواهم فيما لا يعلم مخالفته لشرع الله."(٨٦٥)أ.هـ

نسأل الله تعالى أن يرزقنا طاعته واتباع نبيه، وأن يحبب إلينا الإيمان وأن يزينه فى قلوبنا وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان وأن يجعلنا من الراشدين... الدعاء.

---

(٨٦٤) فتح المجيد (٢/٦٥٤).

(٨٦٥) شرح كتاب التوحيد: ص ١٩٤،للشيخ ابن باز رحمه الله.

صيحة نذير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أغر عليه من نور النبوة خاتم   من نور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد

أما بعد، فيا أيها الإخوة! إن من أجل العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى ربه هي العمل بشريعته سبحانه عند الاتفاق والتراضي، والتحاكم إليها عند الاختلاف والتنازع،فهو برهان الإيمان وعلامة توحيد الرحمن، ولذا نفى الله –تبارك وتعالى– الإيمان عمن لم يفعله، مقسماً على ذلك كما في قوله جل جلاله: "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥).

فتعالوا بنا –أيها الإخوة– نطوف سويّاً حول هذا الموضوع الجليل، وحتى لا ينسحب بساط الوقت من تحت أقدامنا فسوف نحدد الحديث في العناصر التالية:

أولاً: هذا ديننا.

ثانياً: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله.

ثالثاً: ورقة عمل ما هو واجب المسلمين تجاه تحكيم شريعة رب العالمين؟

أولاً: هذا ديننا:

أيها الإخوة! يتأسس دين الإسلام من جزأين رئيسين: عقيدة تؤسس بنيانه وتقعد أركانه، وشريعة تحدد مسيرة المؤمنين به وتنظم شئونهم، وابتداء أقول: ليس هذا قضاء بتقسيم الدين إلى قسمين، كما أنه ليس فصلا بين حقائقه، فإن الدين كل لا يتجزأ وهو كالبنيان المرصوص لا ينفصل جزء منه عن جزء، بل نسبة الشريعة إلى العقيدة كالثمرة التى تخرج من الزرع فلا هي بدونه تخرج، ولا هو من غيرها يصلح، وقد أحسن من قال: إن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة، تنظم هذه الشريعة كل شئون الحياة ولا يقبل الله من قوم شريعتهم إلا إذا صحت عقيدتهم فليس هذا تقسيمًا للدين أو فصلًا بين حقائقه، وليس هذا كذلك من التوهين لمكانة الشريعة، فالعقيدة والشريعة الكل يرجع في النهاية إلى الأخذ بالدستور

القويم والوحي المحفوظ المنزل، المتمثل في القرآن الكريم وبيانه في سنة النبي العظيم"والقرآن كل لا يتجزأ، وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة، بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد، فبعضها يؤثر في بعض، ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء، فالعقيدة تغذي العبادة، والعبادة تغذي الأخلاق، وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة، ولا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يقرأ المسلم قول الله تعالى في سورة البقرة: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، فيقول: سمعنا وأطعنا، ولكنه إذا قرأ في نفس السورة قوله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى)قال: سمعنا وعصينا!!

ولماذا؟ لأن الآية الأولى في مجال العبادات، والأخرى في مجال العقوبات!

ومعنى هذا أن الإنسان أصبح معقبًا لحكم الله تعالى، يأخذ منه ويدع، ويقبل منه ويرد، بهواه وحده، والله لا معقب لحكمه.

ولا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يأخذ المسلم من سورة البقرة آية الكرسي: (الله لا إله إلا هو، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم)الآية.

ولا يأخذ منها آية: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون). لأن آية الكرسي في الإلهيات، وآيات الربا في المعاملات!!

ومثل ذلك يقال فيمن يقبل من سورة المائدة قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق)... الآية.

ويرفض من السورة قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله، والله عزيز حكيم).

ويقرأ قوله تعالى: (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)، فيقول: آخذ الصلاة ولا آخذ الزكاة، لأن الصلاة شعيرة روحية خالصة، أما الزكاة ففريضة تتعلق بالمال والاقتصاد، فأنا أقبل ذلك، ولا أقبل هذه"! (٨٦٦)

يا لله العجب! هل غدا العبد أعلم من ربه؟ أو بات المخلوق أعلى من خالقه؟!!

إنه لم يعد حينئذ ندًّا لله فحسب، بل زاد على ذلك، فجعل من نفسه محكمة عليا للتمييز، أو للنقض والإبرام، فينقض ما شاء له عقله أو هواه أن ينقض من أحكام الله، ويبرم ما شاء له أن يبرم!

---

(٨٦٦) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده (ص)، للعلامة القرضاوي.

إن الشيء المؤكد الذي لا خلاف عليه، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة . بمعنى أنه لم يعد في حاجة إلى إقامة أدلة عليه، لأنه مما يشترك في معرفته الخاص والعام . أن تعاليم القرآن كلها واجبة التنفيذ، ولا فرق فيها بين ما يسمى"روحيًّا"وما يسمى"ماديًّا"، ما يعتبر من"شئون الدين"وما يعتبر من"شئون الدنيا"، ما يتعلق بحياة"الفرد"وما يتعلق بحياة"الجماعة".

أيها الإخوة! إن هذه التسميات والعناوين لا وجود لها في كتاب الله تعالى، ولا توجد فوارق معتبرة بين بعضها وبعض، ما دامت كلها في دائرة أمر الله سبحانه أو نهيه.

ومن فتح المصحف وقرأ سورة الفاتحة، ثم شرع في سورة البقرة، وجد أول ما يطالعه وصف المتقين المهتدين بكتاب الله بأنهم: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)، فقرن بين الجانب الاعتقادي"الإيمان بالغيب"، والجانب الشعائري"إقامة الصلاة"، والجانب الاقتصادي"الإنفاق مما رزق الله".

وهكذا نجد أوصاف المؤمنين وأهل التقوى والإحسان، في سائر سور القرآن لا تفرق بين جانب وجانب.

ومثل ذلك نجده في الأوامر والنواهي والوصايا القرآنية، مثل: الوصايا العشر في سورة الأنعام: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم..)إلى آخر الآيات.

ووصايا الحكمة في سورة الإسراء: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا..). إلى آخر الآيات

فهذه الآيات كلها أيها الإخوة! تجمع بين العقيدة والعبادة والخلق والسلوك، مما يتعلق بالدين وما يتعلق بالدنيا، وما يتعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع، في سياق واحد، ونسج واحد لا ينفصل بعضه عن بعض، ولا يتميز بعضه عن بعض.

وأحيانًا يستخدم القرآن صيغة واحدة في طلب الأمور التي يعتبرها الناس مختلفة باختلاف مجالاتها، مثل قوله تعالى: (كتب عليكم القصاص في القتلى)، (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرًا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا على المتقين)، (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، (كتب عليكم القتال وهو كره لكم).

فهذه صيغة واحدة: (كتب عليكم)وهي تفيد تأكيد الوجوب والفرضية استعملت في القصاص وهو في القانون الجنائي، وفي الوصية وهي من الأحوال الشخصية وشئون الأسرة، وفي الصيام وهو من شعائر العبادات، وفي القتال وهو من شئون العلاقات الدولية.. وكلها مما كتبه وفرضه على المؤمنين.[٨٦٧]

(٨٦٧) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده (ص)، الدكتور يوسف القرضاوي.

ولذا كان ما أقدم عليه المسلمون في هذا الزمان من تنحية شريعة ربهم، وتحكيم أهوائهم وعقولهم في حكم الحياة كما يشاءون، وما راحوا ينتهجون من طرق ومناهج الحكم التي تصطدم اصطدامًا مباشرًا مع ما يؤمنون به من الإسلام، ليحكموا بها أنفسهم، إنما هي نكبة ورزء لم يصب الإسلام وأهله قبل بمثله، فهلا أفاق المسلمون وابتدروا الرجوع قبل أن تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون، فلا يستطيعون الحياة الهانئة في الدنيا، بعيدًا عن الذلة التي فيها يحيون، ولاهم يوم القيامة من الفالحين، بما تجرءوا على أحكام الله فعطلوها وقوانين لأعدائه فأعملوها، هم بسببها يوم القيامة من المقبوحين!!

أيها الإخوة! إن أعظم ما تعانيه الأمة من أمراض وعلل على الإطلاق لا يضارع في خطره وشدة مصابه تعطيل شريعة الله، وما أحوج العالم كله، وليس المسلمين فحسب، إلى تنسم الحياة الهانئة يوم ترفرف راية الله على سمائهم، وذلك يوم يعملون بأوامره، ويقفون عند زواجره، ذلك يوم يحكمون كتابه، أما أن يضيعوا الكتاب ويغيبوا الشريعة عن ساحة الحياة فوا أسفاه على بني الإنسان العقلاء وعلى ملايين المسلمين منهم على وجه الخصوص.

إن تحكيم الشريعة والتحاكم إليها فريضة من أعظم الفرائض المضيعة التي تقف وراءها كل فريضة، والقضية التي تتضاءل بجوارها كل قضية. بل هي كما وصفها أحد العلماء بأنها – ونعم ما قال- القضية الأم، ولله در الإمام أبي حامد الغزالي -رحمه الله- إذ يقول: "اعلم أن الشريعة أصل، والملك حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع".(٨٦٨)

هذا هو ديننا عقيدة وشريعة وهذه هى مكانة الشريعة فى دين الاسلام، فلا تقدموا بين يدي الله ورسوله وهذا هو عنصرنا الثاني من عناصر اللقاء أيها الإخوة:

ثانياً: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله.

قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آَمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)[النساء: ٦٠].

---

(٨٦٨) الاقتصاد للغزالي ص ١٩٩، وينسب إلى أمير المؤمنين علي، انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (١/٢٠٠).

ففي هذه الآيات إنكار شديد على من يرغبون ويميلون إلى التحاكم إلى غير الله –عز وجل–، وإخبار بأن ذلك شأن الكافرين والمنافقين لا شأن المسلمين المؤمنين ولذلك نفى الله –تبارك وتعالى– الإيمان عنهم إلا أن يرجعوا فيحكموا الرسولﷺ ويذعنوا وينقادوا ويرضوا بحكمه.

يقول الحافظ ابن كثير: "والآية ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل". (٨٦٩)

أيها الإخوة.. إن مقتضى الإيمان: الإذعان والانقياد لأوامر ونواهي الله ورسوله، وأن لا يقول المسلم ولا يفعل إلا ما دله عليه الكتاب والسنة وهذا هو الأمر الذي أمرنا الله –تبارك وتعالى– به منبهاً في الوقت ذاته على خطورة مخالفته فقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)[الحجرات: ١]

فأمر الله –تبارك وتعالى– بأن لا نقدم بين يديه ويدي رسوله ﷺ قال علماؤنا: ومعنى قوله تعالى: "لا تقدموا بين يدى الله ورسوله" أي: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، ولا تقولوا قولاً ولا تعملوا عملاً قبل قول الله وقبل قول وعمل رسول الله ﷺ وهذا الأمر يحمل التحذير من مخالفته والتنبيه على خطورته فقد سمت الآية مخالفة الكتاب والسنة تقديمًا على الله ورسوله كأن الذي ذهب يعمل بخلاف أحكام الله ورسوله قد جعل من نفسه ربّاً أو من هواه إلهاً فاتبعه على التحليل والتحريم كما قال الله تعالى: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً"وقال: "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)[الجاثية: ٢٣]

فلابد للمسلم إن كان صادقاً حقاً أن ينقاد لأوامر الله ورسوله وأن يخضع ويسلم ويذعن لكل ما يقتضيه عقد الإيمان والإسلام فهذا هو المحك العملي الحقيقي الذي يتبين به الوفاء بمقتضى هذا العقد أو نقضه من أساسه، فلا يمكن لأحد أن يدعي الإسلام دون الانقياد لأوامر العزيز المتعال، والانقياد –أيها الإخوة– هو إسلام الوجه لله تعالى كما عبر عنه القرآن الكريم فقال: "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له".

وقال تعالى: "ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى".

"ومن يسلم وجهه إلى الله" أي ينقاد لله جل جلاله "وهو محسن": أي وهو موحد لله جل جلاله ومعنى فقد استمسك بالعروة الوثقى: العروة الوثقى هي لا إله إلا الله.

وقال الله –عز وجل–: "ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه إلى الله وهو محسن".

---

(٨٦٩) تفسير ابن كثير – (٦ / ٣٨٠).

وما نجح أصحاب النبي ﷺ وما أفلحوا إلا يوم صار الانقياد لأوامر الله تعالى ديدنهم حتى صار لهم سجية أن يسمع الواحد منهم الأمر أو النهي فيستبق إلى العمل ويسارع في تلبيته وإجابته ولذا أثنى الله عليهم بفضل ذلك منهم كما قال سبحانه: "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (١٠٠) [التوبة: ١٠٠]. وكما قال سبحانه: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

وكما قال سبحانه يخفف عنهم ويرفع عنهم الإصر والأغلال وعن هذه الأمة بفضل انقيادهم واستجابتهم لأوامره كما في الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- (لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا أَىْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِى إِثْرِهَا (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ -عز وجل- (لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)قَالَ نَعَمْ (رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا)قَالَ نَعَمْ (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ)قَالَ نَعَمْ (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)قَالَ نَعَمْ.[٨٧٠]

نعم -أيها الإخوة- إن أول مظاهر الانقياد وأول براهين العقد الذي به يصح الإسلام أن يطيع المسلم الله ورسوله فيما أمر وأن ينتهي عن كل ما نهى الله ورسوله عنه وزجر وأن يسلم لحكم الرسول الذي هو حكم الله و يرضى به وهذا هو صريح الآية فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)[النساء: ٦٥] يقول بعض المفسرين: يقسم الله سبحانه بذاته العلية أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ. وهذا هو الإسلام والإيمان.. فلتنظر نفس أين هي من الإسلام؟ ؛ وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! [٨٧١]

---

(٨٧٠) أخرجه مسلم (١٢٦).

(٨٧١) الظلال ٢/٦٩٧.

وفي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إِلاَّ مَنْ أَبَى». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى». (٨٧٢)

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلًا، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيها كان ذلك فضلا، فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله فيرضي ما يرضي الله ورسوله ويسخط ما يسخط الله ورسوله ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض(٨٧٣)

ولا شك أن من مظاهر الانقياد –أيها الإخوة– قبول شرع الله –عز وجل– ورفض ما سواه فالحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله والدين ما شرعه الله على لسان رسوله فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط.

أيها الإخوة! إن من قال لا إله إلا الله يجب أن يعلم أن الحكم لله وحده وليس من حق فرد أو هيئة أو مجلس أو دولة أن تشرع للبشر من دون الله –عز وجل– فما الخلق إلا خلق الله وما دام الخلق له ولم يكن له شريك فيه وإذا كان هو الذي يرزق الناس وإذا كان هو سبحانه القائم بتدبير نظام هذا الكون وتسيير شئونه، ولم يكن له في كل ذلك من شريك وإذا كان هو –سبحانه وتعالى– وحده الذي يستحق أن يعبد بلا منازع أو شريك فهو وحده صاحب الحق في التشريع والحكم ولا مبرر مطلقاً لأن يكون أحد شريكاً له في هذا الجانب، فينبغي على العبد أن يلزم حده وأن يعرف قدره وأن لا يطغى ويجاوز حدوده ويتعدى على شئون وخصوصيات ربه فإنها الهلكة وإذا كان رجل ممن كان قبلنا أخطأ فقال كلمة لكنها كلمة عبرت عما في قلبه من كبير الكبر وعظيم البطر والأشر تجاوز بها هذا العبد حده وتدخل بها في شئون ربه فأوبقت دنياه وأخراه فما بالنا بمن غيروا حكم الله وبدلوا شرعه ونحوا قضاءه ووضعوا بدلاً من دين الله الحق قانوناً وضعيّاً هزيلاً حكموه في الأعراض والأموال واسمع الى خبر هذا الهالك ينبيك عنه الصادق المصدوق ﷺ كما فى الحديث الذى رواه أبوداود وصححه الألبانى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ رَجُلاَنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ أَقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ أَقْصِرْ فَقَالَ خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا فَقَالَ وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقُبِضَ أَرْوَاحُهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ أَكُنْتَ بِي عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ اذْهَبْ

---

(٨٧٢) أخرجه البخاري ٧٢٨٠.

(٨٧٣) فتح المجيد ٣٩٨.

فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَقَالَ لِلآخَرِ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ. (٨٧٤)

فهذا رجل تكلم بكلمة فما بالك بمن نحى دستور السماء ووضع بدل منه زبالة أفكار اليونان والفرنسين والانجليز كأنه يقول هذا خير لكم من هذا؟

فهل هذا هو الانقياد لأحكام الله التي تقتضيه كلمة لا إله إلا الله؟ أم هو التناقض مع ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان؟ راح البشر يشرعون من عقول مهازيلهم تشريعات يضاهئون بها شرع الله وينحون بها أمره وحكمه، بل رميت الشريعة بالعجز والضعف والقصور والجمود وأنها لم تعد قادرة على مواكبة ومسايرة روح العصر... إلى قوله وفي جميع شئون حياتها". (٨٧٥)

وأود أن أشير هنا إلى أمر جدير بالتنبيه ألا وهو أن فهمًا خاطئًا أو تحريفًا متعمدًا ينصب دومًا على لفظ الشريعة ولاسيما إذا أطلق نداء التطبيق لأحكامها؛ إذ يتصور البعض أو يصورون أن تطبيق الشريعة هو فقط تنفيذ الحدود الجنائية والصحيح أن تطبيق الشريعة الإسلامية لا يقف عند حد إقامة الحدود، فليس التشريع في الإسلام محصورًا في الحدود والعقوبات،"إن التشريع في الإسلام ينظم العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأسرته، وبين الإنسان ومجتمعه، وبين الحاكم والمحكوم، وبين الأغنياء والفقراء، والملاك والمستأجرين، وبين الدولة الإسلامية وغيرها في حالة السلم وحالة الحرب، فهو قانون مدني وإداري، ودستوري ودولي ...... إلخ إلى جانب أنه قانون ديني.

ولهذا اشتمل الفقه الإسلامي على العبادات والمعاملات، والأنكحة والمواريث، والأقضية والدعاوى، والحدود والقصاص والتعازير، والجهاد والمعاهدات، والحلال والحرام، والسفر والآداب، فهو ينظم حياة الإنسان من أدب قضاء الحاجة للفرد إلى إقامة الخلافة والإمامة العظمى للأمة.

ولا نقول هذا هروبًا من الإقرار بأن للحدود فى الشريعة منزلتها ومكانتها، فإن الحدود كما شرعها الإسلام هي السياج الحارس للمحارم، وهي الإعلان الناطق بأن المجتمع المسلم يرفض جرائم معينة، ولا يسمح بها بحال من الأحوال.

والحدود – كما شرعها الإسلام – ليست بالبشاعة التي يتصورها بعض الناس أو يصورها المبشرون والمستشرقون ومن يركب مركبهم وينهج منهجهم، من علمانيينا ومتغربينا من المتنكرين لدينهم المنسلخين من زي قومهم إلى عباءة أعدائهم العفنة القذرة.

---

(٨٧٤) أخرجه أبو داود ٤٩٠١، وصححه الألباني في المشكاة (٢٣٤٧ / التحقيق الثاني).

(٨٧٥) حقيقة التوحيد ص ٢٨-١٣١

ولقد صار هنالك انتشار لهذا الفهم الخاطئ الذي نشأ لأجل هذا التبشيع الناشئ أصالة عن نظرة خاطئة انتقلت إلى بني قومنا تبعًا لنظرة الغربيين لعقوبات الحدود، والغربيون يستبشعون هذه العقوبات لسببين:

- أنه لم تكتمل بعد نشأة شعوره الخلقي، فهو بينما كان يعد الزنا من قبل عيبًا وهجنة إذ به الآن لا يعتبره إلا لعبًا وسلوة، يعلل به شخصان نفسيهما ساعة من الزمن! ولكنه إذا ارتقى شعوره الخلقي والاجتماعي وعلم أن الزنا سواء كان بالرضا أو بالإكراه، وكان بامرأة متزوجة أو باكرة، جريمة اجتماعية في كل حال تعود مضارها على المجتمع بأسره
- أن حضارة الغرب قد قامت على إعانة (الفرد)على (الجماعة)وتركبت عناصرها بتصور مغلو فيه للحقوق الفردية، لذلك مهما كان من ظلم الفرد واعتدائه على المجموع، فلا ينكره أهل الغرب، بل يحتملونه غالبًا بطيبة نفس، ولكنه كلما امتدت إلى الفرد يد القانون حفظًا لحقوق الجماعة، اقشعرت منه جلودهم خوفًا وفزعًا، وأصبح كل نصحهم وتحمسهم بحق الفرد دون الجماعة.

إن الإسلام يشدد في إثبات الجريمة تشديدًا غير عادي، وخصوصًا في جريمة الزنا، ومن ثم إذا ثبتت لا يتهاون في إنزال العقوبة المقررة على فاعلها وحكمته في ذلك ما أوضحنا وهي حكمة لا تقوم لها تعليلات الغرب في المأخذ عليها ولعل هذا يطمئن القلوب الفزعة والنفوس الهلعة إلى تشريع الحكيم الخبير إن كان لايزال فيهم بعض عقل يسوقهم إلى الحق بتفكيرهم من غير تبعية لغيرهم.

إن المطالبة بتطبيق الشريعة لا يختص بالحدود وحدها ولكنه نداء لتطبيق الشريعة جمعاء في كل شئون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومنها كفاية الناس من الإفلاس بحمل ضعيفهم وإعانة محتاجهم وسد حاجة فقيرهم وكفاية معوزهم، كل ذلك قبل أن ينظر في عقوبة فلا قطع يد ولا جلد ظهر فاعقلوا عباد الله.

ومن هنا –أيها الإخوة– كان للشريعة بركاتها ونتائجها الطيبة التي يحصدها كل من التزم بها ويجر التخلي عنها آثارسيئة لا حدود لسوئها

أيها الإخوة إنّ التزام المسلمين بأحكام شرعهم الحنيف ودينهم القويم هو أساس فلاحهم وعنوان سعادتهم وسبب عزهم ونصرهم على أعدائهم، وهو مصدر أمنهم واستقرارهم. ومتى كانت حالهم بعكس ذلك حصل لهم الخسران والهلاك والذل والهوان. وقد أقسم الله بالعصر على خسارة كل إنسان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وكتاب الله –عز وجل– وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مليئان بالنصوص التي توضح هذه الحقيقة، وما سجله التاريخ من حصول العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه يصدق ذلك، والواقع المشاهد المعاين أصدق برهان.

قال تعالى: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (آل عمران: ١٠١)، وقال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَو ا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} (الحج – ٤١).

هكذا قال الله في حق من أطاعه واتقاه والتزم شرعه وهداه، ولنستمع لما قاله في حق من زهد بالحق واستبدل الأدنى بالذي هو خير، فأعرض عن ذكر الله، يقول الله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} (طه: ١٢٧)، ويقول سبحانه: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فهو لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} (الزخرف:٣٧).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى"، قيل: يا رسول الله ومن يأبى؟ فقال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى".[٨٧٦]

وقد حوى التاريخ في طياته أخبار انتصار المسلمين الصادقين على أعدائهم وتغلبهم عليهم ليس لكثرة عددهم وعددهم وإنما هو بسبب قوة إيمانهم وتمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم مع الأخذ بالأسباب التي أمرهم الله بها بقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} (الأنفال: ٦٠)، فظفروا بنصر الله لأنهم نصروه وجاهدوا في سبيله لتكون كلمته هي العليا، وكلمة أعدائه السفلى، فكان لهم ما أرادوا نصرًا في الدنيا وسعادة في الآخرة، وصدق الله إذ يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد: ٧)، ويقول: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (آل عمران:١٦٠)

وإذا أراد العاقل في هذا العصر الذي نعيش فيه معرفة الشاهد من الواقع على صدق هذه الحقيقة، وهي أن المسلمين ينتصرون بسبب التزامهم شريعة الإسلام التي اختارها الله لهم وينهزمون عند زهدهم فيها وبعدهم عن الأخذ بتعاليمها لم يجد شاهدًا أوضح من نتائج الحرب بين العرب واليهود التي تجلت فيها هذه الحقيقة بوضوح ذلك أن العرب الذين أعزهم الله بالإسلام لما لم يلتزموا في هذا العصر – إلا من شاء الله منهم – بشرع الله، ولم يحكموا الوحي الذي نزل به جبريل من الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، واختاروا لأنفسهم التحاكم إلى قوانين وضعية ما أنزل الله بها من سلطان، لما لم يلتزموا بهذه الشريعة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان ظفروا بالخذلان وصارت لهم الذلة أمام من كتب الله عليهم

(٨٧٦) أخرجه البخاري ٦٨٥١، من حديث أبي هريرة.



الذلة، وأي ذل وهوان أشد من هذا الذل والهوان، وسيسجل التاريخ ذلك للذين يأتون من بعد، كما سجل ما جرى من خير وشر للذين مضوا من قبل، ولن يقوم للمسلمين قائمة إلا إذا رجعوا إلى الاعتصام بالله والالتزام بشريعة الله.[٨٧٧]

ولقد ظهر ذلك جليًّا واضحًا لما عادت تلك الشعوب إلى باريها وراعيها –سبحانه وتعالى– وراجعوا أخطاءهم وأفاقوا من سباتهم فرجعت دعاتهم واعظة مذكرة وعادت شعوبهم آيبة تائبة واعترفت رئاساتهم بالتقصير والتفريط فنصرهم الله تعالى كما حدث في انتصار العاشر من رمضان، ولكنهم عادوا اليوم فنكسوا تلك الرايات البيض وأبدلوا تلك الشارات الحسنة ويوم يعودون ويثبتون على شرع ربهم تحل عليهم بركات الله من السماء والأرض ويأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن حيث لا يحتسبون ولا يشعرون ولا يقدّرون، فإن للعمل بالشريعة المطهرة بركات لا تحصى، فأول ذلك أن الله –سبحانه وتعالى– قد أناط خير الدنيا بتطبيق شريعته.

قال تعالى عن أهل الكتاب: {ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم} (المائدة:٦٦)، وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا أنها تنسحب علينا أيضًا،

وقال أيضًا سبحانه: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (الأعراف:٩٦) ولا شك أن المؤمنين يصدقون بوعد الله ويعلمون يقينًا أن خير الدنيا والآخرة في اتباع مرضاته.

وإذا كان ثم من يكذب بهذا الوعد ولا يرى رابطًا وسببًا بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم، وبين نزول المطر ووفرة الزراعات ورواج االتجارات، فإن ثمة روابط مادية أيضًا يشاهدها كل ذي بصر من مؤمن وكافر بين هذا وذاك، فالصلاة والصيام تربية وتزكية لضمير الفرد وتوجيه له نحو البر والإحسان، ومحبة الخير للناس، ولا شك أن من هذا صفته أجاد صناعته وزراعته، ولم يغش في تجارته، ولم يقبل رشوة إن كان موظفًا، وحافظ على الأموال العامة من الضياع، ولا شك أن مجتمعًا تكون عامته وأكثريته على هذا النحو سيكون مجتمعًا للرخاء والثروة وزيادة الإنتاج. ولا شك أيضًا أن في إخراج الزكاة أعظم فائدة لنماء الأموال والقضاء على الثورات والشحناء التي تشل الاقتصاد وتوصل البلدان إلى الخراب والدمار.

وفضل الحج وهوعبادة في التقريب بين الشعوب الإسلامية لا ينكر ومع التقريب تحصل المودة وتتبادل المنافع التجارية والصناعية والزراعية، والعالم كله يسعى إلى إقامة مؤتمر كالحج تنتفي فيه الفروق بين البشر ولا يستطيع، وهذا في العبادات وأما المعاملات فهي أبلغ من ذلك لأنها تستهدف أصلًا رفع الظلم وإقامة العدل في الأرض، ولا شك أن الظلم يتبعه الخراب، وأن العدل يتبعه الرخاء والنماء. فلماذا لا تكون إقامة شريعة الله، تعني انفتاح البركات وزيادة الخيرات.

---

(٨٧٧) لزوم التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية.

ولا شك أيضًا عند كل ذي لب من مؤمن وكافر أن إقامة الحدود أعني العقوبات الشرعية هي من أكبر أسباب زيادة الخيرات والبركات فقطع يد السارق يعني المحافظة على الأموال وخروجها من المخابىء ليعمل بها في التجارات والزراعات والصناعات، لأن رأس المال جبان –كما يقولون– فإذا توفرت له الحماية خرج، وإذا انتشرت اللصوصية والظلم اختبأ أو هرب، ولا شك أيضًا أن قتل القاتل ردع عن هذه الجريمة المسببة لخراب العمران وتقطيع أو صال المجتمعات، وناهيك بتنفيذ حد الزنا حيث يقطع دابر البغاء، وإنفاق الأموال في غير وجهها، ويقطع الطريق على إنجاب أولًا:د الزنا الذين هم آفة المجتمعات، فالطفل الذي ينشأ لا يعلم له أبًا يمتلئ قلبه بالحقد والكراهية للمجتمع، ولا شك أنه يظلم الناس إذا وجد الفرصة لذلك. ولهذا كان عامة المنحرفين والمجرمين من هؤلاء.

والمجتمع الإسلامي الذي يظهر على هذا النحو من النظافة والطهر لا شك أنه سيكون مجتمع الخير والبركة والنماء. فلماذا ننكر إذن أن يكون هناك رابط وسبب مباشر تراه كل عين ويفقهه كل قلب بين تطبيق الشريعة المطهرة وبين الرخاء المادي والسعادة الدنيوية. وصدق الله القائل: {من عمل عملًا صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} (النحل:٩٧). ولذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إقامة حد في الأرض خير من أن يمطروا أربعين صباحًا"[(٨٧٨)][(٨٧٩)]

لكن ورغم كل هذا أضاع المسلمون شريعة ربهم كأسهل شيء عليهم يضيعونه وفرطوا فيها كأي شيء سهل عليهم التفريط فيه فيا حسرة على العباد.

إن تصور أمة محمد صلى الله عليه وسلم تتحاكم إلى غير شريعة الله لهو أمر مذهل... وأمر بشع.. لا يخفف من بشاعته عموم البلوى ولا ثقل الأمر الواقع!

كيف تخلت هذه الأمة عن رسالتها وعن تميزها الذي ميزها الله به؟

هل أخرج الله هذه الأمة لتكون في ذيل القافلة تلهث وراء الركب؟

وهل أخرجها لتبهم شخصيتها، تصبح مقلدة بل مشوهة من الجاهلية.

ألم يخرجها لتكون قائدة ورائدة وشاهدة على كل البشرية؟

كما قال تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران: ١١٠].

---

(٨٧٨) أخرجه النسائي (٤٩٠٥)، من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣١٣٠).

(٨٧٩) وجوب تطبيق الحدود الشرعية (ص)، لفضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق.

وكما قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: ١٤٣].

وهل تستطيع أن تحقق شيئًا من ذلك حين تتخلى عن شريعة الله وتنتهج شرائع الجاهلية.

إنما أخرج الله هذه الأمة لأمر أعظم من هذا بكثير أخرجها لتكون هي النموذج الذي تحتذيه البشرية لتهتدي إلى ربها، وتطبق منهجه في الأرض فتنال خير الدنيا وخير الآخرة، وتنال رضوان الله.

وذات يوم حققت الأمة ذلك النموذج الفذ في عالم الواقع ولن تعود إلى التمكين والقوة حتى تعود إلى السبب الذي مكنها من قبل.{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات...}. ولن يعبدوه حق عبادته عبادة خالية من الشرك حتى يلتزموا بتطبيق شريعة الله.{فلا وربك لا يؤمنون...}[٨٨٠] فالتزام شرع الله، وترك شرع ما سواه، هو من مقتضى لا إله إلا الله.

وكذا كل صغير من أمر المرء وكبير لا بد أن يكون على وفق أمر الله ونهيه سبحانه لا على هوى الإنسان ووفق مراده، ولكن الإنسان يأتي عليه ساعة يتكبر فيها ويتجبر ويظن بنفسه القوة والقدرة على أن يكون مستغنيًا عن السير على أوامر الله فيمضي بعيدًا عنها ليختار لنفسه من المناهج ما شاء وليسن له ولمن ارتضى ما يصنع والذين يتبعونهم على نهجهم قوانين غير قوانين الله ظنًّا منه أنه إنما يفعل ما هو من جملة مستحقاته، ونسي أنه إنما هو عبد مسكين فقير للنفس الذي يخرج منه أن يعيده إليه رب العلمين سبحانه وما أجمل ما عبر عن ذلك شاعر الإسلام الحكيم محمد إقبال —-رحمه الله تعالى- إذ يقول:

الحب ذو العصف والريحان ينبته *** من ظلمة الطين رب الحب والطينِ

والغيم من لج الأمواج يرفعه *** إلى السموات سلطان السلاطينِ

يسوق للزهر أنسامًا تهيجه *** فيرسل الزهر أنغام البساتينِ

للشمس من نوره طوق يزينها *** وللندى نسب من حوره العينِ

فقل لصاحب تاج يدعيه له *** أفقْ فإنك مسكين المساكين

(٨٨٠) تطبيق الشريعة (ص ٢٧).

أيها الإخوة! إن الله تعالى إنما أنزل الكتاب ليعمل به و بعث الرسول ليقتدى به، فأي ادعاء للإنسان يصح إذا ما انفك عن العمل بما جاءه به الرسول، ثم يقول أنا متبع له، بل أي إيمان له يحق إذا كان يقول إنه مؤمن بالله ثم يمضي ليختار لنفسه نهجًا غير الذي به أمر وشرعًا دون ما إليه أرشد؟! يقول صاحب التحرير والتنوير: "إنّ مراد الله تعالى من توجيه الشرائع وإرسال الرسل، ليس مجرّد قرع الأسماع بعبارات التشريع أو التذوّق لدَقائق تراكيبه، بل مراد الله تعالى ممّا شرع للناس هو عملهم بتعاليم رسله وكتبه"[(٨٨١)]

لقد خلق الله الجن والإنس لعبادته وأداء حقه سبحانه فيها، وقد فسر العلماء رحمهم الله العبادة بمعان من أجمعها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– إذ يقول:

العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. وهذا يدل على أن العبادة تقتضي: الانقياد التام لله تعالى، أمرًا ونهيًا واعتقادًا وقولًا وعملًا، وأن تكون حياة المرء قائمة على شريعة الله، يحل ما أحل الله ويحرم ما حرم الله، ويخضع في سلوكه وأعماله وتصرفاته كلها لشرع الله، متجردًا من حظوظ نفسه ونوازع هواه، يستوي في هذا الفرد والجماعة، والرجل والمرأة، فلا يكون عابدا لله من خضع لربه في بعض جوانب حياته، وخضع للمخلوقين في جوانب أخرى، وهذا المعنى يؤكده قول الله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

وقوله –سبحانه وتعالى–: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}

وما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[(٨٨٢)]

يقول سماحة العلامة ابن باز –رحمه الله تعالى–: "فلا يتم إيمان العبد إلا إذا آمن بالله ورضي حكمه في القليل والكثير، وتحاكم إلى شريعته وحدها في كل شأن من شئونه، في الأنفس والأموال والأعراض، وإلا كان عابدا لغيره، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه، فهو العابد له، ومن خضع لغيره، وتحاكم إلى غير شرعه، فقد عبد الطاغوت، وانقاد له، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}

---

(٨٨١) التحرير والتنوير (٣/٥٨).

(٨٨٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (١/ ٩٨)، وقال النووي في أربعينه: "هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح"، لكن ضعفه الألباني في ظلال الجنة ١٥، و المشكاة ١٦٧، وانظر رسالة العبودية لشيخ الإسلام.

والعبودية لله وحده والبراءة من عبادة الطاغوت والتحاكم إليه، من مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فالله سبحانه هو رب الناس، وإلههم، وهو الذي خلقهم وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحييهم ويميتهم، ويحاسبهم ويجازيهم، وهو المستحق للعبادة دون كل ما سواه قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} فكما أنه الخالق وحده، فهو الآمر سبحانه، والواجب طاعة أمره.

لقد بيّن الله تعالى أن الحكم بغير ما أنزل الله حكم الجاهلين، وأن الإعراض عن حكم الله تعالى سبب لحلول عقابه، وبأسه الذي لا يرد عن القوم الظالمين، يقول سبحانه: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} والقارئ لهذه الآية والمتدبر لها يتبين له أن الأمر بالتحاكم إلى ما أنزل الله، أكد بمؤكدات ثمانية:

الأول: الأمر به في قوله تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}

الثاني: أن لا تكون أهواء الناس ورغباتهم مانعة من الحكم به بأي حال من الأحوال وذلك في قوله: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ}

الثالث: التحذير من عدم تحكيم شرع الله في القليل والكثير، والصغير والكبير، بقوله سبحانه: {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ}

الرابع: أن التولي عن حكم الله وعدم قبول شيء منه ذنب عظيم موجب للعقاب الأليم، قال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ}

الخامس: التحذير من الاغترار بكثرة المعرضين عن حكم الله، فإن الشكور من عباد الله قليل، يقول تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}

السادس: وصف الحكم بغير ما أنزل الله بأنه حكم الجاهلية، يقول سبحانه: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ} {يَبْغُونَ}

السابع: تقرير المعنى العظيم بأن حكم الله أحسن الأحكام وأعدلها، يقول –عز وجل–: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا}

الثامن: أن مقتضى اليقين هو العلم بأن حكم الله هو خير الأحكام وأكملها، وأتمها وأعدلها، وأن الواجب الانقياد له، مع الرضا والتسليم، يقول سبحانه: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}.

وقد قال ابن عباس –رضي الله عنه– لبعض من جادله في بعض المسائل: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر).

ومعنى هذا: أن العبد يجب عليه الانقياد التام لقول الله تعالى، وقول رسوله، وتقديمهما على قول كل أحد، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة.(٨٨٣)

إن الفساد الذي يستشري في الناس الآن لهو بسبب المعاصي والذنوب ومن أولها إبطال شريعة رب العالمين يقول ابن القيم –رحمه الله– في قوله –عز وجل–: "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في ألأرض بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس وقال عطية في الآية ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله هو أعظم الفساد في الأرض ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده ونهي عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله، ومن تدبير أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلا وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله (٨٨٤)

والسؤال الآن –أيها الإخوة– : ما هو واجب المسلمين اليوم إزاء هذه القضية الخطيرة في حياة الإسلام؟

وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر اللقاء ونلتقي به بعد جلسة الاستراحة أسأل الله أن يحفظ علينا شريعتنا وأن يعيد إلينا عزتنا.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! ثالثا: ورقة عمل: ما هو واجب المسلمين اليوم نحو القيام بتحكيم شريعة رب العالمين؟

(٨٨٣) وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه ص (٦ – ١٤)، لسماحة العلامة عبد العزيز بن باز –رحمه الله تعالى–، بتصرف كثير.
(٨٨٤) بدائع الفوائد – (٣ / ٥٢٥).

والجواب في نقاط محددة: أولًا: ماهو واجب المسلمين اليوم إزاء هذه القوانين الوضعية الجائرة وهم ملزمون في بلادهم بالتحاكم إليها، يرزحون تحت نيرها وتئن بلادهم من ظلماتها؟

والجواب عن هذه النقطة: "الواجب عليهم شرعًا أن يتحاكموا إلى من يحكم بينهم بحكم الكتاب والسنة من علمائهم – وإن لم يكن لهم القوة المادية لإلزام الناس بالأحكام أو لتطبيق كل أحكام الشريعة – إلا أن قوة إيمان المسلم تدفعه للقبول بحكم الشرع ... وإذا وقف المسلم مضطرًا أمام هذه المحاكم الوضعية فعليه أن يدعوهم، ويأمرهم أن يحكموا له بحقه الشرعي فقط. وكذلك من ترافع أمام هذه المحاكم لدفع الظلم عن مسلم أو رفعه، فعليه أن يطلب مثل ذلك. ومن يطلب هذا الحق لنفسه أو لغيره من المسلمين فلا جناح عليه، لأنه لم يأمر إلا بمعروف."(٨٨٥)

ثانيا: ما هو واجب المسلمين ودورهم تجاه العمل لتحكيم شريعتهم؟ وأقول واجب المسلمين فهو واجب وفرض لازم وهو واجب المسلمين كل المسلمين بلا استثناء.

يقول العلامة الألباني –رحمه الله تعالى-: لا بد لكل جماعة مسلمة من العمل بحق لإعادة حكم الإسلام ليس فقط على أرض الإسلام بل على الأرض كلها وذلك تحقيقًا لقوله –تبارك وتعالى-: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون} (٩ – الصف). وقد جاء في بعض بشائر الأحاديث النبوية أن هذه الآية ستتحقق فيما بعد، فلكي يتمكن المسلمون من تحقيق هذا النص القرآني والوعد الإلهي فلا بد من سبيل بين وطريق واضح (٨٨٦)

إذا ما هو المنهج؟ وما هو الطريق؟

والجواب: الطريق سهلة واضحة فهي كما يقول العلامة الألباني: "لا شك أن الطريق الصحيح هو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدندن حوله ويذكر أصحابه به في كل خطبة: "وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم"(٨٨٧)فعلى المسلمين كافة – وبخاصة منهم من يهتم بإعادة الحكم الإسلامي – أن يبدؤوا من حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما نوجزه نحن بكلمتين خفيفتين: (التصفية والتربية) ومعناهما: أن نبدأ – وجوبًا – بما بدأ به الرسول عليه الصلاة والسلام (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة). ولكن بماذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

من المتيقن أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بالدعوة بين الأفراد الذين كان يظن فيهم الاستعداد لتقبل الحق ثم استجاب له من استجاب من أفراد الصحابة –كما هو معروف في السيرة النبوية – ثم وقع بعد ذلك التعذيب والشدة التي أصابت

---

(٨٨٥) فضل الغني الحميد تعليقات على كتاب التوحيد: ص ١٧١ – ١٧٢.

(٨٨٦) فتنة التكفير (ص ١٣وما بعدها).

(٨٨٧) أخرجه مسلم ١٤٣٥.

المسلمين في مكة ثم جاء الأمر بالهجرة الأولى والثانية حتى وطد الله -عز وجل- الإسلام في المدينة المنورة وبدأت هناك المناوشات والمواجهات وبدأ القتال بين المسلمين وبين الكفار من جهة ثم اليهود من جهة أخرى... هكذا

إذًا لا بد أن نبدأ نحن بتعليم الناس الإسلام الحق كما بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام لكن لا يجوز لنا الآن أن نقتصر على مجرد التعليم فقط فلقد دخل في الإسلام ما ليس منه وما لا يمت إليه بصلة من البدع والمحدثات مما كان سببًا في تهدم الصرح الإسلامي الشامخ فلذلك كان الواجب على الدعاة أن يبدءوا بتصفية هذا الإسلام مما دخل فيه هذا هو الأصل الأول: (التصفية).

وأما الأصل الثاني: فهو أن يقترن مع هذه التصفية تربية الشباب المسلم الناشئ على هذا الإسلام المصفي، فلا نزال نسمع من كثير من المسلمين العقائد المخالفة للكتاب والسنة والأعمال المنافية للكتاب والسنة فضلًا عن تكرارهم تلك المحاولات الفاشلة المخالفة للشرع، وهناك كلمة لأحد الدعاة طيبة هي: (أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم)؛ لأن المسلم إذا صحح عقيدته بناء على الكتاب والسنة فلا شك أنه بذلك ستصلح عبادته وستصلح أخلاقه وسيصلح سلوكه... الخ

ثالثا: فلنحكم الإسلام في شؤوننا الخاصة:

أيها الإخوة! إن الشريعة لا يمكن أن تطبق تطبيقًا حقيقيًّا إلا إذا قام على تطبيقها أناس يؤمنون بقدسيتها، وربانية مصدرها، وعدالة أحكامها، وسمو أهدافها، ويتعبدون لله بتنفيذها، وهذا يجعلهم يحرصون على فهمها فهمًا دقيقًا، وعلى فقه أحكامها ومقاصدها فقهًا عميقًا، ويتفانون في تذليل العقبات أمامها، كما يحرصون على أن يكونوا صورة طيبة لمبادئها، وأسوة حسنة لغير المقتنعين بها، يراهم الآخرون في إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم، فيحبون الشريعة لما يرون من أثرها في حياتهم. وهكذا كان الصحابة والمسلمون الأوائل - رضي الله عنهم - أحب الناس الإسلام بحبهم، ودخلوا فيه أفواجًا، متأثرين بأخلاقهم وإخلاصهم، فقد كان كل منهم قرآنًا حيًّا يسعى بين الناس على قدمين. إن عيب كثير من التجارب العاملة لتطبيق الشريعة الإسلامية، التي كانت موضع المؤاخذة والتنديد من الناقدين والمراقبين: أنها نفذت بأيدي غير أهلها، أعني غير دعاتها ورعاتها. أي على أيدي أناس كانوا من قبل في صف المناوئين لها، أو على الأقل، من الغافلين عنها، غير المتحمسين لها، والملتزمين بها.

إن الرسالات الكبيرة تحتاج إلى حراس أقوياء، من رجالها وأنصارها يكونوا هم المسئولين الأوائل عن وضع قيمها وتعاليمها النظرية موضع التنفيذ، وبغير هذا يكون التطبيق أمرًا صوريًّا لا يغير الحياة من جذورها، ولا ينفذ بالإصلاح إلى أعماقها.

أيها الإخوة! إن تطبيق الشريعة ليس عمل الحكام وحدهم، وإن كانوا هم أول من يطالب بها، باعتبار ما في أيديهم من سلطات تمكنهم من عمل الكثير من الأشياء التي لا يقدر عليها غيرهم، وقد كان بعض السلف يقولون: لو كانت لنا

دعوة مستجابة لدعوناها للسلطان، فإن الله يصلح بصلاحه خلقًا كثيرًا. وهذا كان في عصر لم يكن زمام التعليم، والإعلام، والتثقيف، والتوجيه، والترفيه بيد السلطان كما هو اليوم.

ومع هذا نقول: إن على الشعب مسؤولية تطبيق الشريعة في كثير من الأمور التي لا تحتاج إلى سلطان الدولة وتدخل الحكام.

إن كثيرًا من أحكام الحلال والحرام، والأحكام التي تضبط علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالأسرة، والفرد بالمجتمع، قد أهملها المسلمون أو خالفوا فيها من أمر الله، وتعدوا حدود الله، ولن يصلح حالهم إلا إذا وقفوا فيها عند حدود الله تعالى، والتزموا بأمره ونهيه بوازع من أنفسهم، وشعورهم برقابة ربهم عليهم.

ويجب على الدعاة والمفكرين والمربين أن يبذلوا جهودهم لتقوم الشعوب بواجبها في تطبيق ما يخصها من شرع الله، ولا يكون كل همها مطالبة الحكام بتطبيق الشريعة، وكأنهم بمجرد أن يرفعوا أصواتهم بهذه المطالبة قد أدوا كل ما عليهم.

هذه إلماحة سريعة عن الطريق إلى تحكيم الشريعة وكيفية إعمالها ونوجز الوسائل الى ذلك فى نقاط كما يلى

١-البدء بما بدء به النبى صلى الله عليه وسلم من تعليم الناس الإسلام الحق الصافى من البدع والمحدثات

٢- تربية الشباب المسلم الناشئ على هذا الإسلام المصفى

٣- تحكيم الإسلام فى الشؤن الخاصة من الحلال والحرام وغيرها مما لا دخل للسلطان فيه

أيها الإخوة.. إن الحكم بغير ما أنزل الله يوجب غضب الله وينزل مقته وعقابه ولن تعود الأمة إلى سالف عزها ومجدها إلا بالعودة إلى الله وتحكيم شرعه، فإننا جنس لا يصلح أبدا بغير دين ولا نستعلي ونعز إلا بعقيدة، وعقيدة التوحيد تقتضي وجوب تحكيم الشريعة والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية في جميع مناحي الحياة، وإن قوما يرددون القول بعدم صلاحية الشريعة لزماننا لأنها نازلة فى بيئة عربية بدائية لأفاكون كذبة.

إن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان قادرة على حل مشاكلها التي تحياها والتي ستكون إلى قيام الساعة كما لا يقدر قانون على وجه المعمورة أن يحلها سواها، شهد بذلك الوحي وشهد بذلك التاريخ وشهد بذلك المنصفون حتى من رجال القانون الوضعي وحتى من غير المسلمين وشهد بذلك الواقع الذي نعيشه، الوحي شهد بأن هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع (ولكن رسول الله وخاتم النبيين)، ما دامت هذه الشريعة ليس بعدها شريعة معناها أنها صالحة لكل زمان ومكان ثم إنها شريعة عالمية (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)فهي شاملة مكانًا وزمانًا وشانًا لأنها أيضًا تشمل كل شؤون الحياة، فالوحي شهد لها، التاريخ أيضًا شهد لها، نحن لو تتبعنا التاريخ الإسلامي نجد أن المسلمين عندما يعملون بالشريعة

ويطبقونها تطبيقًا صحيحًا يكونون أسعد ما يكونون، يزدادون قوة على قوة وينتصرون على أعدائهم، تتوحد كلمتهم ويشعرون بالرخاء والازدهار في حياتهم، إذا ابتعدوا فالمد والجزر والامتداد والانكماش والازدهار والذبول والنصر والهزيمة والسعادة والشقاء مرتبطان بمدى الاقتراب من الشريعة الإسلامية أو البعد عنها، فهذا ما سجله التاريخ ولذلك أعظم فترات التاريخ هي الفترات التي نرى فيها أناسًا يحسنون تطبيق الشريعة الإسلامية مثل عهد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز، نور الدين محمود الشهيد، صلاح الدين الأيوبي، وهكذا، فنجد عهد هؤلاء يحصل النصر والازدهار والقوة والوحدة، هذا التاريخ يقول لنا.

الواقع يقول لنا أيضًا أن المؤتمرات العالمية شهدت لهذه الشريعة بالخصوبة وبالتميز مثل مؤتمر لاهاي في سنة ١٩٣٧م ومؤتمر باريس للحقوق الدولية سنة ١٩٥١م وحضر أناس مثلوا الشريعة الإسلامية في هذه المؤتمرات، ثم الواقع يقول لنا، بدراستنا نحن للشريعة نجد هذه الشريعة والحمد لله تضمنت أفضل المبادئ وأرسخ القواعد وأدق التشريعات لصلاح الفرد وصلاح الأسرة وصلاح المجتمع وصلاح الأمة وصلاح الدولة وصلاح الإنسانية، ونحن لا نقول هذا مجرد كلام عاطفي، هذا كلام أُلِّفت فيه الكتب وقامت عليه أدلة وقُدِّمت فيه دراسات وأطروحات للماجستير وللدكتوراه بالمئات، سواء في الجانب القانوني البحت أو الجانب الاقتصادي أو الجانب السياسي، قدمت مئات الأطروحات من هذه الناحية وأجازتها الجامعات، ورجال القانون الوضعي أيضًا يشهدون بهذا[٨٨٨]

وأبشركم –أيها الإخوة– لقد بدأ التشريع في شرق العالم وغربه يقترب من التشريع الإسلامي في المئات من المسائل حتى بات لا يختلف كثيرًا عنه، وأحيانًا يكاد يتطابق معه.

في نظام المواريث الإسلامي، وفي نظام الطلاق الحر، وتعدد الزوجات ونظام العدة بالنسبة للمرأة المطلقة،و الذمة المالية للمرأة، وتحريم تعاطي الخمور ومحاربتها التي صارت سياسة عامة، ونظام تقنين التأمين الاجتماعي الذي بدأه الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا وبدأه العالم في نهاية القرن التاسع عشر، وفي الاقتصاد العالمي الذي يسجل نجاحًا مطردًا بقدر ما يقترب من الاقتصاد الإسلامي الذي وضع أسسًا للتعامل الاقتصادي يمارسها العالم اليوم، وغيرها من الأمور الكثير التي تثبت أن العالم في مسيره يتجه نحو التشريع الإسلامي.[٨٨٩]

فقد صحا العالم وأفاق وتنبه إلى أن التشريع الإسلامي فيه صلاح حاله وسلامة وضعه فسعى إلى الاقتباس منه لكنه إلى الآن لا زال لم يفق كامل الإفاقة ليعرف أن الإسلام صالح للحال والمآل ولكي يكون ذلك لا بد أن يدخله كافة وأن يعمل بأحكامه جمعاء والمسلمون أولى الناس بضرب المثل والقدوة والأسوة للغرب في ذلك فهلا فعلوا.

---

(٨٨٨) المجتمع المسلم الذي ننشده (ص)، للدكتور القرضاوي.

(٨٨٩) انظر كتاب مسيرة العالم نحو التشريع الإسلامي للدكتور حافظ يوسف.

اللهم انصر الإسلام وأعز أهله اللهم أيدنا بالإسلام وأيد الإسلام بنا، اللهم يا ولى الإسلام وأهله مسكنا بالإسلام حتى نلقاك، اللهم هيئ لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ويحكم فيه كتابك وسنه نبيك ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، يا مجيب الدعاء........................ الدعاء.

الحياة المثلى.. مع أسماء الله وصفاته الحسنى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

الله صل على محمد وعلى آل محمد

قدْ كانَ هذا الكونُ قبلَ وُصولِهِ *** شُؤْمًا لظالِمِهِ وللمظلومِ

لما أَطَلَّ محمدٌ زَكَتِ الرُّبا *** واخضرَّ في البُسْتانِ كلُّ هشيمِ

أما بعد فيا -أيها الإخوة- من أراد أن يلقى الله غداً مسلماً تامّاً إسلامه موحداً كاملاً توحيده ضامناً على الله السلامة مستحقاً دار الكرامة فليحرص اليوم على صحة توحيده فإنه أساس النجاح والفلاح والنجاة.

وصحة التوحيد لها ثلاثة أركان في دين الإسلام فلابد أن يكون المسلم على يقين من أن الله هو خالق الكون بمن فيه وما فيه من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وأنه المدبر المتصرف في كل شيء فيه وهذا هو توحيد الربوبية.

ولابد أن يوقن العبد بأن الله هو المعبود الحق وما سواه باطل فلا يستحق العبادة أحد غيره ومن ثم فهو يتوجه إليه بكل عبادة وهذا هو توحيد الألوهية.

ولابد أن يوقن العبد أن الله متصف بكل ما أثبته الله لنفسه في كتابه وما أثبته له رسوله في سنته من الأسماء والصفات من غير تمثيل لله بعباده ولا تعطيل لصفات الله التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ولا تشبيه ولا تكييف فلا يمكن لعقل أن يتصور الله -عز وجل- فكل ما دار ببالك فالله بخلاف ذلك.

فمن آمن بربوبية الله وآمن بألوهية الله ووصف الله بما وصف نفسه ووصفه بما وصفه رسوله فقد استكمل التوحيد الذي ينجو به من النار ويدخل الجنة دار القرار.

ولعل اللقاءات الماضية -أيها الإخوة- كانت كفيلة بإيضاح المقصود من توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فلنخص في هذا اللقاء الحديث عن توحيد الأسماء والصفات.

فما هي الأسماء؟ وما هي الصفات؟ وكيف يوحد العبد ربه بها؟ وما هو أثر الإيمان بها؟ وما حكم من جحدها أو أنكرها؟

نعرض لكل هذه الأسئلة بجواب كما تعودنا شاف كاف من القرآن وسنة النبي وآثار الصحابة وكلام السلف الصالحين فأعيروني القلوب والأسماع -أيها الإخوة- أسأل الله أن يجعلنا من أهل التوحيد الكامل وأن يمسكنا به حتى نلقاه.

-أيها الإخوة- إن لله -تبارك وتعالى- أسماء سمى بها نفسه في كتابه وسماه بها رسوله وهذه الأسماء كلها حسنة جميلة ولذلك اقترن بها كما نعلم وصفها فلا يقال إلا الأسماء الحسنى وهي هذه الأسماء المبثوثة فى القرآن والسنة كما في قوله تعالى: "الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى"وقد ضرب الله المثل ببعضها وبينه في قوله تعالى: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السموات وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)[الحشر: ٢٢ - ٢٤]

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر". [٨٩٠]

وقد أرشدنا الله تعالى -أيها الإخوة- إلى أن نتعبده بهذه الأسماء وأن نتقرب إليه بها وندعوه بها فقال سبحانه: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)[الأعراف: ١٨٠]

وقال -عز وجل-: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

وأسماء الله كلها حسنى أي في غاية الحسن وأحب أن أنبه بعض الأحباب الذين يظنون أن أسماء الله الحسنى تسعة وتسعين اسماً فحسب لا بل أسماؤه تعالى كثيرة كثيرة حتى إن هناك من الأسماء -أيها الإخوة- ما لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل فلا يعلمها إلا الله تعالى ولذلك كان المصطفى ﷺ يدعو الله -عز وجل- ويعلمنا هذا الدعاء الجميل بل أوجب النبي ﷺ على كل مسلم أن يتعلمه روى أحمد وغيره بسند صحيح من حديث عبد الله بن مسعود أنه ﷺ قال: «مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّى عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِى بِيَدِكَ مَاضٍ فِىَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِىَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِى وَنُورَ صَدْرِى وَجَلاَءَ حُزْنِى وَذَهَابَ هَمِّى. إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجاً». قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ «بَلَى يَنْبَغِى لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا».[٨٩١]

---

(٨٩٠) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٨٩١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨٤)، وابن ماجه (٣٨٦١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٨).

ومعنى ذلك أن أسماء الله الحسنى ليست محصورة في تسعة وتسعين اسماً ولكن ما معنى التقييد الموجود في حديث النبي ﷺ إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحدًا؟ ما معنى هذا العدد؟

والجواب: إن الكلام جملة واحدة وقوله ﷺ: "من أحصاها دخل الجنة"صفة، لا خبر مستقبل، والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها كما أوضحنا وهذا كما تقول لفلان مائة مملوك قد أعدهم للجهاد في سبيل الله فهذا لا ينفي أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد وهذا لا خلاف عليه بين العلماء كما قال ابن القيم في (بدائع الفوائد). [٨٩٢]

أيها الإخوة! وقد حذر الله تعالى من الركون إلى من ألحد في أسمائه وتوعدهم أشد الوعيد فقال سبحانه: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)[الأعراف: ١٨٠، ١٨١] ومعنى الإلحاد في أسماء الله –عز وجل– هو الميل عن الحق الواجب اعتقاده فيها سواء كان ذلك بتحريفها والإشراك فيها كما سمت المشركون آلهتهم اللات تحريفًا لاسم الله والعزى من اسم العزيز وهذا كفر أكبر، أو يكون الميل عنها بتحريف معناه الذي تدل عليه كما فعل الأشاعرة والمعتزلة وهذا بدعة محرمة في دين الله –عز وجل–.

وأرى أن الكثير إن لم يكن الجميع يتطلعون الآن لجواب سؤال دائما يتردد في الصدور حينما نتناول هذا الموضوع بالكلام ألا وهو ما هو اسم الله الأعظم؟

والجواب –أيها الإخوة– : اختلف أهل العلم في الاسم الأعظم على أقوال:

فمنهم من قال إن الاسم الأعظم هو "الله" قالوا: وإذا كان الناس جميعًا يدعون الله بهذا الاسم ومع ذلك لا يستجاب لهم فذلك لأنه إنما يستجاب لمن أكل الحلال وطهر قلبه من الغش والأدناس.

وقيل: إنه "الحي القيوم"، لأنه قد كرر في آية الكرسي وفي سورة آل عمران وفي طه في قوله تعالى: (وَعَنَتِ الوُجوهُ لِلحيِ القَيوم)

وللحديث الذي رواه أصحاب السنن عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } و { الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } [آل عمران: ١، ٢] "[٨٩٣]

---

(٨٩٢) بدائع الفوائد (١ / ١٧٧)، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة.

(٨٩٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٦) والترمذي (٣٤٧٨) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤٣)، تخريج المشكاة (٢٩٩١ / التحقيق الثاني).

وقيل: أخفاه الله تعالى في أسمائه كما أخفى ليلة القدر في رمضان حتى يجتهد الناس في العبادة، وكما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة حتى يكثر الطالب، وكما أخفى رضاه في الطاعة حتى لا يشغل بطاعة وإن قلت، وكما أخفى سخطه في المعصية حتى لا يستهان بمعصية.

وقيل غير ذلك والذي ينبغي للإنسان هو أن يقول في دعائه (اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا) فإنها تشمل الاسم الأعظم وغيره وروى الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو في دعائه اللهم إني أسألك إنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقال صلى الله عليه وسلم: (هذا سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطي وإذا دعي به أجاب) [٨٩٤]

هذا -أيها الإخوة- عن أسمائه تعالى، فما هي الصفات؟ وما هو توحيد الصفات؟ توحيد الصفات معناه: الاعتقاد الجازم بأن الله -عز وجل- له الصفات العلى، وهو متصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص، متفرد بذلك عن جميع الكائنات.

وأهل السنة والجماعة يستمدون عقيدتهم من آيات القرآن الكريم ومن سنة النبي العظيم ﷺ **فأهل السنة والجماعة**: يعرفون ربهم بصفاته الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسول الله ﷺ ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون أن الله -سبحانه وتعالى- هو الأول الذى ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، كما قال سبحانه: "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم".

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن الكرسي والعرش حق: قال تعالى: "وسع كرسيه السموات والأرض لا يؤدوه حفظهما وهو العلي العظيم".

والعرش لا يقدر قدره إلا الله والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة وسع السموات والأرض، والله مستغن عن العرش والكرسي، ولم يستو على العرش لاحتياجه إليه ؛ بل لحكمة يعلمها، وهو منزه عن أن يحتاج إلى العرش أو ما دونه، فشأن الله -تبارك وتعالى- أعظم من ذلك ؛ بل العرش والكرسي محمولان بقدرته وسلطانه.

---

(٨٩٤) أخرجه أبو داود (٩٨٥)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي (١٣٠١)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وأحمد (٢٣٠٩١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤١).

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بيديه، وأن كلتا يديه يمين ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، قال تعالى: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي".

وأهل السنة والجماعة: يثبتون لله سمعاً، وبصراًُ وعلماً وقدرة، وقوة، وعزاً، وكلاماً، وحياة، وقدماً وساقاً، ويداً، ومعية.. وغيرها من صفاته -عز وجل- التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه ﷺ بكيفية يعلمها الله ولا نعلمها ؛ لأنه تعالى لم يخبرنا عن الكيفية، قال تعالى: إنني معكما أسمع وأرى وقال: وهو العليم الحكيم.

وقال جل جلاله: "وكلم الله موسى تكليماً ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"، وقال جل جلاله: "رضي الله عنهم ورضوا عنه يحبهم ويحبونه"، وقال: "فلما آسفونا انتقمنا منهم يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون"، وقال: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وقال: "غضب الله عليهم" وغيرها من آيات الصفات

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة".

وسوف يرونه كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، كما قال النبي ﷺ: "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته".[٨٩٥]

وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل نزولاً حقيقيّاً يليق بجلاله وعظمته. قال النبي ﷺ: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير ؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفر لي فأغفر له؟" [٨٩٦]

ويقولون كما قال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: "آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله".

وقال الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة -رحمه الله-: "إياكم والبدع. قيل وما البدع؟ قال: أهل البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان".

وسأله رجل عن قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى"كيف استوى؟ فقال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً" وأمر أن يخرج من المجلس.

---

(٨٩٥) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٨٩٦) أخرجه البخاري ١١٤٥، ومسلم ١٨٠٨.

فقوله جل جلاله: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" نعم استوى كما اخبر وما معنى استوى قال الإمام الطبري في تفسيره: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)يقول تعالى ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا. (٨٩٧)
وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل. (٨٩٨)

وقال الإمام أبو حنيفة –رحمه الله تعالى–: "لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء ؛ بل يصفه بما وصف به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئاً ؛ تبارك الله تعالى رب العالمين". ولما سئل –رحمه الله– عن صفة النزول. فقال: "ينزل بلا كيف".

وهكذا –أيها الإخوة– نؤمن بأسماء الجمال وصفات الجلال من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل "(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، استوى كما أخبر وعلى الوجه الذي أراد وبالمعنى الذي قال استواء منزها عن الحلول والانتقال فلا العرش يحمله ولا الكرسي يسنده بل العرش وحملته والكرسي وعظمته الكل محمول بلطف قدرته مقهور بجلال قبضته –سبحانه وتعالى–. فالاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. قال جل جلاله: "ولا يحيطون به علما، وقال جل جلاله: فلا تضربوا لله الأمثال".

فما هي أهمية الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى وما ثمرات الإيمان بها؟ وكيف نتعبد الله بها؟

ونجيب عن هذين السؤالين الكبيرين الجليلين المهمين في الخطبة الثانية، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تنجينا من النار وأن تلحقنا بالمتقين الأبرار وأن تنجينا من مفاوز الدنيا والآخرةواجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة يا كريم يا جواد اللهم صل وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

إن أهمية الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى كبيرة كثيرة نشير إلى بعضها في عجالة:

---

(٨٩٧) تفسير الطبري – (١٨ / ٢٧٠).

(٨٩٨) تفسير ابن كثير – (٥ / ٢٧٣).

أولًا: إن العلم بالله، وأسمائه وصفاته أشرف العلوم، وأجلها على الإطلاق لأن شرف العلم بشرف المعلوم، والمعلوم في هذا العلم هو الله –سبحانه وتعالى– بأسمائه، وصفاته وأفعاله، فالاشتغال بفهم هذا العلم اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب، فليست الأرواح قط بأحوج إلى شئ أعظم منها إلي معرفة ربها وباريها ولا سبيل إلي معرفة ذلك إلا من أسمائه وصفاته تعالي فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب والله تعالي ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه ومن تعلق بأسماء الله وصفاته كانت معرفة الله قوة قلبه وحياته ولسان حاله:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانا فتنتكس.

إن معرفة الله أصل الدين وركن التوحيد وأول الواجبات وهذه المعرفة لا طريق لنا للوصول إليها إلا من خلال أسماء الله وصفاته و إلا تاه العقل وشت الفكر،

ولذلك فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لكي يعرف الناس ربهم ، فركن التوحيد الأساسي هو أن يعرف الإنسان ربه –عز وجل–: روى البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا – رضى الله عنه – عَلَى الْيَمَنِ قَالَ «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً { تُؤْخَذُ } مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ».(٨٩٩)

فأول واجب على العبد هو أن يعرف ربه تعالى ويوحده وذلك بمعرفة ما له من الأسماء والصفات فمن لم يوحد الله لم يعرف الله ومن لم يفقه أسماء الله وصفاته يبقى جاهلا به سبحانه، وذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وكما قيل" ما عرف الله إلا بالله "

ثانيا: إن لآيات الصفات فضلا خاصا يعرفه كل من تتبع ذلك من الآيات والأحاديث فأعظم آية في كتاب الله هي آية الكرسي وكلها أسماء وصفات قال تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) [البقرة: ٢٥٥، ٢٥٦]

بل إن حب السور والآيات المتضمنة لأسماء الله وصفاته تكون سبب لدخول الجنة روى البخاري عَنْ أَنَسٍ – رضى الله عنه – كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ

(٨٩٩) أخرجه البخاري ١٤٥٨، ومسلم ١٣٢.

تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لاَ تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى. فَقَالَ مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ. وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ «يَا فُلاَنُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ». فَقَالَ إِنِّى أُحِبُّهَا. فَقَالَ «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ». [٩٠٠]

بل وحب السور والآيات المتضمنة لأسماء الله وصفاته سبب لحب الله روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِى صَلاَتِهِ فَيَخْتِمُ بِـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ «سَلُوهُ لأَىِّ شَىْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ». فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ».[٩٠١]

فالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته، يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره واجتناب نهيه، والقيام بأمر الله تعالى واجتناب نهيه، يحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع ونيل الثواب والمكرمات والحياة الطيبة هي انشراح الصدر وطمأنينة القلب، حتى ولو كان الإنسان في أشد بؤس، فإنه مطمئن القلب منشرح الصدر، نعم لو تعبد العبد لله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى لحصل له من زيادة الإيمان ورسوخ اليقين ولأحس بنعيم وحياة لا توصف ولتحصن بها العبد من فتن الشهوات والشبهات أسأل الله أن يفتح لي ولكم هذا الباب العظيم، فإذا حلَّ الهم، وخيم الغم، واشتد الكرب، وعظم الخطب، وضاقت السبل، وبارت الحيل فالحيلة أن نفزع إلى مفرج الهم، ومنفِّس الكرب القائل: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]. ولقد امتن الكريم على العباد بأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وأن ذلك دليل من دلائل الألوهية، وبرهان من براهين الوحدانية قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

ثالثًا: إن معرفة الله –سبحانه وتعالى– بأسمائه الحسنى طريق لزيادة الإيمان فإن الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء، والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه، وقوي يقينه. فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، من غير تعطيل ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تكييف. بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه هي المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه، وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله، ومحبة لربه فمن عرف الله بأسمائه، وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية، والجهمية قطّاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى محبة الله تعالى.

---

(٩٠٠) أخرجه البخاري ٧٧٤.

(٩٠١) أخرجه البخاري ٧٣٧٥.

رابعًا: إن الفرق بين المسلمين وبين اليهود هو في الأسماء والصفات إذ نسبوا إليه الفقر والتعب وغل اليدين والعجز قال تعالى: "لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء"، وقال تعالى: "ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب" وذلك عندما زعم أهل الكتاب أن الله خلق السموات والأرض ثم استراح، ووصفوه جل جلاله بالبخل قال تعالى: "قالت اليهود يد الله مغلولة".

ونسبوا إليه سبحانه العجز وفي التوراة التي حرفت: "أنه بينما الرب يطوف في الأرض إذ أمسك به يعقوب من حقوه (من وسطه) فصارعه فصرعه ولم يتركه يصعد حتى أعطاه لقب إسرائيل (وهم يقولون إن إسر معناها: الذي صرع الرب، ئيل معناها: (الرب) وهذا باطل لأن يعقوب هو عبد غلب نفسه لله. بل والجهل نسبوا إلى الله الجهل كما في التوراة المحرفة: "أن آدم اختبأ منه بعد ما أكل من الشجرة فجعل الرب يبحث عنه فقال يا آدم أين أنت؟ فقال: أنا هنا، فقال له: لماذا أكلت من الشجرة... والعياذ بالله، ونسبو إليه أيضًا المرض ففي التوراة المحرفة"أنه سبحانه بعد ما أهلك الأرض بالطوفان حزن حزناً شديداً حتى مرض وعادته الملائكة..."، والعياذ بالله، فالفرق بين المسلمين وبين النصارى هو في الأسماء والصفات حيث نسبوا لله الصاحبة والولد قال تعالى: "وقالوا اتخذ الله ولدا"، سبحانه بل ويعتقدون في الله الموت حيث يعتقدون أن المسيح هو الله ويعتقدون موته على الصليب لمدة ثلاثة أيام ثم قام ثانية وهو عيد القيامة عندهم.

إن الظن الذي أهلك أهل الجاهلية هو ظنهم الباطل في أسماء الله وصفاته عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، أَوْ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ قَالَ الآخَرُ يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا وَقَالَ الآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ) الآيَةَ. وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين".(٩٠٢)

أيها الإخوة هذه بعض أهمية الأسماء والصفات والإيمان بها، ولذلك كان الثناء على الله بأسمائه الحسنى من أفضل أنواع الذكر، ولذلك أمر بها الله تعالى كما قال سبحانه: "ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها" فأصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف العظيمة، والتعبد بها ودعاؤه بها. فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه، فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمن دعاه لحصول الرزق فليسأله باسمه الرزاق، ومن دعاه لحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجل المعارف.

---

(٩٠٢) أخرجه البخاري ٧٥٢١.

إن التعبد بالأسماء والصفات حقيقة التوحيد: وذلك بأن يمتلئ القلب بأجلِّ المعارف باستحضار معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، ويتأثر القلب بآثارها ومقتضياتها ويدعو الله بها، فمثلاً:

أسماء (العظيم) و(الكبير) و(المتعال) و(المجيد) و(الجليل) تملأ القلب تعظيماً لله وإجلالاً له.

وأسماء (البر) و(الكريم) و(الجواد) و(المنان) و(الرحيم) و(الجميل) و(الودود) تملأ القلب حباً له وشوقاً إليه وحمداً له وشكراً.

وأسماء (العزيز) و(شديد العقاب) و(الجبار) و(القدير) تملأ القلب خضوعاً وانكساراً وذلاً وخوفاً ورهبةً منه سبحانه.

و أسماء (العليم) و(الخبير) و(السميع) و(البصير) و(الشهيد) و(الرقيب) و(الحسيب) تملأ القلب مراقبةً لله في الحركات والسكنات، وتؤدي بالعبد إلى أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

وأسماء (الغني) و(الغفور) و(التواب) و(المجيب) و(اللطيف) تملأ القلب افتقاراً إلى فضله ورجاءً لرحمته ورغبةً في منته.

نسأل الله أن يفتح لنا وللمسلمين أبواب هذا الخير الذي لا يوصف والسعادة التي لا تقارن، فإن ذلك لا يُنال إلا بفضله ورحمته.

أيها الإخوة! إن معرفة الله بأسمائه وصفاته ومحبته ودعاؤه بها، والتعبد له بمقتضاها، هي جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، لأن أعظم سعادة في الدنيا أن يعرف العبد ربه ويحبه ويتقرب منه، ومن لم يعرف الله كان من جملة الأموات، ولذلك لما ذكر الله نعيم أهل الجنة من السابقين إليها قال: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) [الواقعة: ١٠ – ١٢]، فأول ما ذكر من نعيمهم قربهم منه سبحانه ذكر قربهم قبل أن يذكر الجنة وما أعد لهم فيها من الطعام والشراب والأزواج وباقي الملذات ، بل وختم نعيمهم أيضًا بنعيم معنوي حين قال: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فأعظم نعيم أهل الجنة قربهم من ربهم وتمتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم وسماع كلامه ومعرفته ومحبته.

روى مسلم من حديث صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ – قَالَ – يَقُولُ اللَّهُ – تبارك وتعالى– تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ – قَالَ – فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ –عز وجل–».[٩٠٣] ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص، والإيمان الكامل الذي لا يحصل إلا للكمل من الموحدين، وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.[٩٠٤]

---

(٩٠٣) أخرجه مسلم ٤٦٧.

(٩٠٤) انظر: المنة شرح اعتقاد أهل السنة (ص ١٥– ٢٢)، ثم (ص ٦٨– ٨٢)، يمتلئ قلبك إيمانًا.

فلا غرو ولا عجب أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم كما في البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».(٩٠٥)

أيها الأحباب ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين في الدعاء عن الحسن قال: كان رجل من أصحاب النبي من الأنصار يكنى أبا معلق وكان تاجراً بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك. قال: فما تريد إلا دمي فشأنك والمال، قال: أما المال فلي ولست أريد إلا دمك، قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صلي ما بدا لك، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما تريد أسألك بعزك الذي لا يرام وبملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني يا مغيث أغثني يا مغيث أغثني ثلاث مرات، فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصر اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم، فقال: من أنت بأبي أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم؟ فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب فسألت الله أن يوليني قتله. قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب[٩٠٦]

أيها الإخوة! إن السعادة والحياة الطيبة نصيب من تعرف على أسماء الله وصفاته فمن عايش الأسماء الحسنى والصفات العلى فهو في جنة الحياة الطيبة في الدنيا، ونعيم الجنة في الآخرة قال تعالى: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون" "فوا أسفاه وواحسرتاه كيف ينقضي الزمان وينفذ العمر والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة وخرج من الدنيا كما دخل إليها وما ذاق أطيب ما فيها بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس فكانت حياته عجزا وموته كمدا ومعاده حسرة وأسفا اللهم فلك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك"[٩٠٧]

أفرأيتم –أيها الإخوة– إلى جميع هذه الخيرات والثمرات إنه لا يحصلها إلا من آمن بأسماء الله وصفاته أما من جحدها وأنكرها أو تأولها فهذا يحرم خيرها بل ربما هلك بسبب جحوده لها وذلك إذا جحدها على سبيل الإنكار كما فعل المشركون الذين قال الله –عز وجل– عنهم: "وهم يكفرون بالرحمن"فمن أنكر أسماء الله وصفاته كإنكار المشركين والكافرين كفر وأما الجزع والإنكار لها على سبيل التنزيه زعموا تجد الواحد من هؤلاء إذا قرأ آية: "بل يداه مبسوطتان"، أو قرأ آية: "وجاء ربك والملك صفاً صفاً". قال: الله ليست له يدان، الله لا يجيء، ما أكذبك أأنت أعلم بالله من الله

(٩٠٥) أخرجه البخاري ٢٧٣٦.

(٩٠٦) الجواب الكافي ص ٧.

(٩٠٧) طريق الهجرتين ٣٢٧.

ومن رسوله الذي قرأها فأمرها وأقرها كما هي؟! وتلك -أيها الإخوة- طريق المنافقين والهالكين وأما أهل السنة فطريقتهم أن يثبتوا لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله أعلم الخلق كلهم به جل جلاله قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)[آل عمران: ٧ – ٩].

روى عبد الرزاق عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات . استنكاراً لذلك . فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه.[٩٠٨]

نسأل الله أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم ارزقنا فرحة لا حزن بعدها، وارزقنا سعادة لا شقاء بعدها، اللهم أفض علينا رزقًا ليس بعده حاجة، واجعل يومنا العظيم هذا فاتحة لتحقيق أمانينا، وجلاء متاعبنا، واجعل اللهم القرآن والهدى والعلم في صميم قلوبنا.

اللهم أمرتنا فأطعناك ودعوتنا فأجبناك فاغفر لنا جدنا وهزلنا وما أنت أعلم به منا وارزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال، وحسن الفهم عنك وعن رسولك ﷺ اللهم.......... الدعاء.

(٩٠٨) مصنف ابن أبي شيبة – (٨ / ٧٣٤).

أصناف الناس مع نعم الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

لا تَرْتَجِ الخلقَ؛ فالأبوابُ مُرْتَجَةٌ دون الحطام وباب الله مفتوح

والرّزقُ لو كان في أيدي الأنامِ أَبَوْا أَنْ يشرَبَ الماَءَ مِنْ طُوفانِه نوح

لكنه في يدي من فضله أبداً للطائعينَ وللعاصينَ مَمْنُوحُ

أما بعد.. فيا أيها الإخوة..

إن حقيقة التوحيد الذي يفلح صاحبه في الدنيا والآخرة هو تعليق القلب بالله ومعرفة أن الله هو المنعم على الحقيقة وأن يقطع العبد قلبه عن التعلق بالعباد فما العباد إلا أسباب يسخرهم الله تعالى وما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل.

روى الترمذي بسند صحيح من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ».[٩٠٩]

فيجب على كل مسلم –أيها الإخوة– أن يجعل الهموم همّاً واحداً ألا وهو إرضاء الله تعالى وإحسان ما يلاقيه به يوم معاده إليه ووقوفه بين يديه حتى يوقى السوء ويلقى الخير كما قال تعالى: "وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧)وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢)وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)[المؤمنون: ٩٧ – ١٠٤]".

وفي الصحيحين عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». [٩١٠]

(٩٠٩) أخرجه الترمذي (٢٣٢٧) والحاكم (١ / ٤٠٨)، وهو في الصحيحة"٦ / ٦٧٦.

(٩١٠) أخرجه البخاري ٧٤٤٣، ومسلم ٢٣٩٥.

ومن سبل إرضاء الله التي غفل عنها كثير من الناس شكره على نعمه وذلك بإضافتها إليه قولاً واعترافاً أولاً واستخدامها في طاعته ثانياً وحمده وذكره بها ثالثاً وهكذا فالعبد يتقلب ليل نهار في نعم الله ومع ذلك قليلاً إن شكره –سبحانه وتعالى– على ما أنعم عليه من نعمة وما أسدى إليه من منة، ومن كان حاله كذلك –أيها الإخوة– كان إيمانه ناقصاً وتوحيده غير تام، فإن الشكر رأس الإيمان وهو مبني على ثلاثة أركان اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره، والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته سبحانه.

فقم واشكر الله الكريم بنهضة إليهمْ، فشكرُ اللّهِ للخلق لاَزِمُ

أيها الحبيب إن الفضل في كل ما تعمل وتذر هو لله رب العالمين ولو لم يقدرك الله ما قدرت ولو لم يعنك ما استطعت فمتى تعرف أنك به، ولو لم يكن لك فلن تكون؟ ومن عرف هذا فقد عرف نفسه وعرف ربه يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى–:

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء ولا مني شيء ولا في شيء وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدى وابن المكدى وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا، قال ابن القيم: وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات أنا المسيكين فى مجموع حالاتى

أنا الظلوم لنفسى وهي ظالمتي والخير إن يأتنا من عنده ياتى

لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ولا عن النفس لى دفع المضرات

وليس لي دونه مولى يدبرني ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى

إلا بإذن من الرحمن خالقنا إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات

ولست أملك شيئًا دونه أبدًا ولا شريك أنا فى بعض ذرات

ولا ظهير له كي يستعين به كما يكون لأرباب الولايات

والفقر لى وصف ذات لازم أبدًا كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمهم وكلهم عنده عبد له آتى

فمن بغى مطلّبا من غير خالقه فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

والحمد لله ملء الكون أجمعه ما كان منه وما من بعد قد ياتى

فأي ظلم أيها العبد يقع منك أعظم من أن يخلقك ربك من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم سواك رجلاً ورزقك من كل نعمة، وآتاك من كل ما سألته، ودفع عنك كل نقمة واستجاب لشكاتك وفرج كربك، ثم بعد هذا تحبس لسانك وجوارحك عن شكر نعمه، وربما تشكر غيره، إن هذا لهو النبأ العظيم أن ينزل خيره إليك متواتر، ولا يصعد منك إليه إلا الشر مستطيراً.

إن منا –أيها الإخوة– من إن شفاه الله وعافاه لا يذكر إلا مهارة الطبيب، وجهد الأولاد ، ووفرة المال، وربما نظافة المستشفى وسرعة أداء الممرضات واختيار الحذاق من أصحابه لهذه المستشفى، وهكذا في سلسلة طويلة لا نمنع أبداً من الثناء عليها، لكن وللأسف ينسى في هذه السلسلة كلها أولها ومسببها وموجدها وخالقها صاحب النعمة الأولى والأخيرة في الشفاء ألا وهو الله الذي طببك قبل أن يطببك الطبيب، بل الذي هو فعلًا الطبيب وما الذي باشر الفحص والتشخيص إلا رفيق، ألم يقل النبي ﷺ والحديث أخرجه أبو داود وأحمد بسند صحيح عَنْ أَبِي رِمْثَةَ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– مَعَ أَبِي فَرَأَى الَّتِي بِظَهْرِهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ أُعَالِجُهَا لَكَ فَإِنِّ طَبِيبٌ قَالَ «أَنْتَ رَفِيقٌ وَاللَّهُ الطَّبِيبُ». وفي رواية: طبيبها الذي خلقها"[٩١١]

والأولى –أيها الإخوة– أن يجعل المسلم الحديث عن هذه الأسباب في ترتيبها الطبيعي ومكانها الصحيح وهو بعد رتبة فضل الله –عز وجل– فيقول: لولا الله ثم العلاج ما حصل الشفاء، ولولا الله ثم قوّة الجيش لما حصل النصر.

وقد قال الله –عز وجل– مخبراً عن حال الكفار مع نعمه يحذرنا أن نكون مثلهم: "يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها" فمن نسب النعم إلى غير الله فقط مثنياً شاكراً فإنه مما ينافي كمال التوحيد ويشبه حال الكفار بالعزيز الحميد بل فيه إنكار لنعمة الله بنسبتها إلى غيره وهذا نوع من جحودها.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فِى أَضْحًى – أَوْ فِطْرٍ – إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّى أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ».

---

(٩١١) أخرجه أبو داود (٢ / ١٩٥) وأحمد (٢ / ٢٢٦ – ٢٢٧)، وانظر"السلسلة الصحيحة"٤ / ٥١.

فَقُلْنَ وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ». قُلْنَ وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ». قُلْنَ بَلَى. قَالَ «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ». قُلْنَ بَلَى. قَالَ «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا». (٩١٢)

وكفران العشير –أيها الإخوة– هو إنكار حسن عشرة الزوج لأجل موقف واحد كما في الرواية الأخرى"لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط"(٩١٣)، فإذا كان النبي ﷺ جعل كفران المرأة عشرة زوجها يُدخلها النار فكيف بمن جحد وأنكر نعمة العزيز الغفار.

ومن أضاف النعمة إلى غير الله تعالى ومنعها أن يضيفها إلى الله تعالى فقد أساء وأساء عقله فهذا يتضمن قطع إضافة النعمة عمن لولاه لم تكن وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره.

وقد كان المشركون يقولون عن نعم الله تعالى عليهم: هذا بشفاعة آلهتنا والشفاعة شفاعة الآلهة المزعومة هذه ليست شيئاً شرعيّاً ولا قدريّاً حتى ينسب إليها رزق أو نعمة أو خير ولكنه الشرك طمس على قلوبهم فأضافوا نسبة النعم إلى غير أسبابها فالأمر في ذلك على ما قال الله تعالى: "في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً".

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ». قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بِى وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِى وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِى وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» (٩١٤).

قال شيخ الإسلام: والله تعالى يذم من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به وهذا كثير في الكتاب والسنة.

قال تعالى: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون"قال الحافظ ابن كثير أي تكذبون بدل الشكر، فهذه النعم تستحق الشكر منكم وأنتم تجعلون حظكم ونصيبكم من النعم التكذيب والكفر بها بدل الشكر والمعرفة لها. (٩١٥)

---

(٩١٢) أخرجه البخاري ٣٠٤.

(٩١٣) أخرجه مسلم (٧٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، و (٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩١٤) أخرجه البخاري (٨٤٦) وأخرجه مسلم (٧١).

(٩١٥) تفسير ابن كثير – (٧ / ٥٤٤).

وهكذا يذم سبحانه من كذب بنعمه أو أنكرها وجحدها ونسبها إلى غيره -عز وجل- فما من نعمة في الأرض ولا في السماء إلا منه قال تعالى: "وما بكم من نعمة فمن الله"وقد قص الله علينا ما كان ممن أنكر نعمه كيف آلت حاله وانتهت عاقبته كما قال -عز وجل-: "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢)كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣)وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥)وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧)لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢)وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣)هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)[الكهف: ٣٢ - ٤٤].

فليحذر المسلم أن تجري على لسانه هذه الكلمات وإن لم يقصدها بقلبه من مثل لولا الكلب لسرقنا ولولا الريح لسلمنا ولولا المطر ما كسرت قدمي ولولا سعيه وجده ما صار غنيّاً وهكذا، وليجعل فضل الله أول ما يطرأ على لسانه.

وإذا امتلأ القلب بهذه الحقيقة – أيها الإخوة – وهي أنه ما من شيء في هذا الملكوت إلا والله هو الذي يفتحه وأنه هو الذي يغلق ما يشاء وأن كل النعم من المنعم سبحانه وأن الناس والعباد مجرد أسباب في ذلك لأثمر ذلك فيه ثمرات يجد حلاوتها ألذ وأشهى من كل شيء ولتمنى أن تكون الجنة في مثل حلاوة ولذة هذه اللحظات والثمرات قال تعالى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)[فاطر/٢]

يقول صاحب الظلال: في هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى. وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعًا.

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السموات والأرض وتصله بقوة الله. وتيئسه من مظنة كل رحمة في السموات والأرض وتصله برحمة الله. وتوصد أمامه كل باب في السموات والأرض وتفتح أمامه باب الله. وتغلق في وجهه كل طريق في السموات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله.

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد ؛ ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه ؛ وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير.

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح. ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع وفي كل حال، وفي كل مكان.. يجدها في نفسه، في مشاعره ؛ ويجدها فيما حوله، وحيثما كان وكيفما كان. ولو فقد كل شيء مما يَعُد الناس فقده هو الحرمان.. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة – يمسك الله معها رحمته – حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما من محنة – تحفها رحمة الله – حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك – مع رحمة الله – فإذا هو مهاد. وينام على الحرير– وقد أُمسكت عنه – فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور – برحمة الله – فإذا هي هوادة ويسر.

ويعالج أيسر الأمور – وقد تخلت رحمة الله – فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي هوادة ويسر وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار!

ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك. ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء. فمن داخل النفس برحمة الله تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة. ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة!

هذا الباب وحده يُفتح وتُغلق جميع الأبواب، وتوصد جميع النوافذ، وتسد جميع المسالك.. فلا عليك فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء.. وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع. وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء!

هذا الفيض يُفتح، ثم يضيق الرزق. ويضيق السكن ويضيق العيش، وتخشن الحياة، ويشوك المضجع.. فلا عليك. فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة. وهذا الفيض يمسك. ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء. فلا جدوى. وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء!

المال والولد، والصحة والقوة، والجاه والسلطان.. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أُمسكت عنها رحمة الله. فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان.

يبسط الله الرزق – مع رحمته – فإذا هو متاع طيب ورخاء ؛ وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة. ويمسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار.

ويمنح الله الذرية – مع رحمته – فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله. ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء، وسهر بالليل وتعب بالنهار!

ويهب الله الصحة والقوة – مع رحمته – فإذا هي نعمة وحياة طيبة. والتلذذ بالحياة. ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يُسلِّطه الله على الصحيح القوي. فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح، ويدخر السوء ليوم الحساب!

ويعطي الله السلطان والجاه – مع رحمته – فإذا هي أداة إصلاح. ومصدر أمن. ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر. ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما، ومصدر طغيان وبغي بهما، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار. ولا يستمتع بجاه ولا سلطان، ويدخر بهما للآخرة رصيدًا ضخمًا من النار!

والعلم الغزير. والعمر الطويل. والمقام الطيب. كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال... مع الإمساك ومع الإرسال.. وقليل من المعرفة يثمر وينفع، وقليل من العمر يبارك الله فيه. وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة.

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال. وجدها إبراهيم عليه السلام في النار. ووجدها يوسف عليه السلام في الجُب كما وجدها في السجن. ووجدها يونس – عليه السلام – في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى عليه السلام في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض: ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف:١٦]. ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار.. ووجدها كل من آوى إليها يأسًا من كل ما سواها. منقطعًا عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصدًا باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها. ومتى أمسكها فلا مرسل لها. ومن ثم فلا مخافة من أحد ولا رجاء في أحد. ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء، ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة إنما هي مشيئة الله. ما يفتح الله فلا ممسك. وما يمسك الله فلا مرسل، والأمر مباشرة إلى الله.. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.. يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك. ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام. [٩١٦]

---

(٩١٦) في ظلال القرآن – (٥ / ٢٩٢٣).

أيها الإخوة! "إنها دعوة حرّى لليقين بأن الله –عز وجل– هو مسبب الأسباب ومقدر الأقدار وهو المعطي المانع الضار النافع لا مضادة لأمره ولا معقب لحكمه ولا محادة لقضائه يفعل ما يشاء ويختار، وحين يتم هذا اليقين في قلب فلا يمكن أبدًا في لحظة من اللحظات أن ينسب نعم الله إلى من سواه الذين لا يعدون أيضا أن يكونوا من خلق الله.[٩١٧]

أيها الإخوة! إن نعم الله على الناس واضحة بينة، يرونها ويحسونها ويلمسونها، ولكنهم ينسون فلا يذكرون.

وحولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنعم، وتفيضان عليهم بالرزق ؛ وفي كل خطوة، وفي كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه من السماء والأرض. يفيضها الخالق على خلقه. فهل من خالق غيره يرزقهم بما في أيديهم من هذا الفيض العميم؟ وجواب المسلمين والكافرين عن هذا السؤال معروف وهو: لا، لا خالق إلا الله، فإذا لم يكن هناك خالق رازق غير الله، فما لهم لا يذكرون ولا يشكرون؟ وما لهم ينصرفون عن حمد الله والتوجه إليه وحده بالحمد والابتهال؟ إنه ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ فكيف يصرفون عن الإيمان بهذا الحق الذي لا مراء فيه.. ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟ ﴾.. وإنه لعجيب أن ينصرف منصرف عن مثل هذا الحق، الذي يواجههم به ما بين أيديهم من الرزق. وإنه لعجيب أن ينصرف عن حمد الله وشكره من لا يجد مفرًّا من الاعتراف بذلك الحق المبين"[٩١٨]

ومن الناس –أيها الإخوة– من يرزقه الله –عز وجل– النعمة فيجعلها من نتيجة عمله وعاقبة جده وسعيه وينظر إلى نفسه باستحقاقها وأهليتها له.

كما قص الله علينا في القرآن في قصة قارون أنه قال: "إنما أوتيته على علم عندي" قال قتادةك أي علم بوجوه المكاسب.

وقال آخرون معناه: على علم من الله أني له أهل وعلى شرف كما عنده، وكذب فإن المتفضل ابتداء وانتهاء هو الله رب العالمين.

وقال تعالى يتحدث عن هذا الصنف "لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)[فصلت: ٤٩ – ٥٢].

وقد قص علينا الصادق المصدوق قصة ثلاثة من بني إسرائيل أنعم الله عليهم بعد حاجة وأعطاهم بعد فقر ليبتليهم ويختبر إيمانهم فكانت عاقبة من شكر فضل الله الزيادة وعاقبة من جحدها ونسبها إلى نفسه الخسران والبوار والكساد ففي

(٩١٧) عون العلي الحميد (٢/ ٢٢٩).

(٩١٨) الظلال (٥/ ٢٩٢١).

الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ «إِنَّ ثَلاَثَةً فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَا لِلَّهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ. فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَذِرَنِى النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأُعْطِىَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. فَقَالَ أَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الإِبِلُ – أَوْ قَالَ الْبَقَرُ هُوَ شَكَّ فِى ذَلِكَ، إِنَّ الأَبْرَصَ وَالأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا الإِبِلُ، وَقَالَ الآخَرُ الْبَقَرُ – فَأُعْطِىَ نَاقَةً عُشَرَاءَ. فَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّى هَذَا، قَدْ قَذِرَنِى النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ، وَأُعْطِىَ شَعَرًا حَسَنًا. قَالَ فَأَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ. قَالَ فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلاً، وَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ يَرُدُّ اللَّهُ إِلَىَّ بَصَرِى، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ فَأَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ. فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ، وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِىَ الْحِبَالُ فِى سَفَرِى، فَلاَ بَلاَغَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِى أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِى سَفَرِى. فَقَالَ لَهُ إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ كَأَنِّى أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الأَقْرَعَ فِى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. وَأَتَى الأَعْمَى فِى صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِىَ الْحِبَالُ فِى سَفَرِى، فَلاَ بَلاَغَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِى رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِى سَفَرِى. فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِى، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِى، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَىْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». (٩١٩)

فعلى المسلم أن يتحرز في ألفاظه ويتحرى في كلماته، ولذلك حال متى بلغها الإنسان استطاع ذلك التحرز والتحري بيسر وسهولة، فمتى يكون ذلك؟

نكمل الحديث عن هذه النقطة بعد جلسة الاستراحة هذا وأستغفر الله لي ولكم.

---

(٩١٩) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) و (٦٦٥٣)، ومسلم (٢٩٦٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

على المسلم أن يتحرز في ألفاظه ويتحرى في كلماته ومثل هذا التحرز والتحفظ لا يصدر إلا عن قلب معظِّم مُجِلٍ مخبتٍ لله –جل وعلا–، يعلم أن ربه هو ولي الفضل وهو وحده وليُّ الإنعام وهو يستحق أن يُجَلَّ فوق كلِّ جليل وأنْ يُحبَ فوق كل محبوب، وأنْ يُعظم فوق كل معَظَمَّ وهذا يوجب توقيره وتعظيمه بالألفاظ.

وعلى المسلم الذي امتلأ قلبه بالتوحيد أن يعلم أن الله هو المستحق للعبودية وهو المستحقُّ للشكر وللإجلال وحده ؛ فالعباد فقراء مذنبون، وأن طاعاتِ العباد وأعمالَهم – مهما عظمت أو جلت – لا تفي لحظة بأصغر نعمةٍ أسْبغها الله وخوّلها لعبيده.فها هو الصدِّيق يُعلِّمُه النبي ﷺ أن يقول في آخر صلاته: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي»(٩٢٠). فإذا كان مِثلُ أبي بكر الصديق علمًا وعملا وجهادا ودعوة ونصرةً للنبي ﷺ يقول هذا فكيف بحال المساكين أمثالنا؟ كيف يظنون أنهم يستحقون على الله شيئًا؟!(٩٢١) نسأل الله أن يسترنا وألا يؤاخذنا بذنوبنا وأن يرحمنا وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدًا.

وعلى المسلم أن يخرج من الحول والقوة وأن يبرأ منهما ويعلم يقيناً أن كل خير هو فيه فإنما هو من الله وأن ما به من نعمة فهي من الله سواء كان بواسطة خلق من خلقه أو بلا واسطة.

وعلى المسلم أن يشكر نعم الله عليه بالجنان واللسان والأركان.

وعلى المسلم أن يتخلَّص من رؤية نفسه، وأن يعلم أنه لاحول ولا قوة إلا بالله، فلذا كانت هذه الكلمة كنزٌ من كنوز الجنة، روى عَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ – رضى الله عنه – قَالَ لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – خَيْبَرَ – أَوْ قَالَ لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – – أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهْوَ مَعَكُمْ». وَأَنَا خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فَسَمِعَنِى وَأَنَا أَقُولُ لاَ حَوْلَ

(٩٢٠) أخرجه البخاري (٨٣٨٧) و (٧٣٨٨) ومسلم (٢٧٠٥).

(٩٢١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد – (٢ / ١٩٧).

وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، فَقَالَ لِي «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ». قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ». قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي. قَالَ «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ». (٩٢٢)

وعلى الموحد أن يحاول تَخْليصَ قلبه ولسانه من الألفاظ للاعتقادات الباطلة من ظن المرء أنه يستحق أشياء على الله – جل وعلا– ؛ فالتوحيد هو أن يكون العبد ذليلاً خاضعًا بين يدي الله، ويوقن أنه لا يستحق شيئًا على الله، وإنما هو محض فضل الله يؤتيه من يشاء، فالعباد أحوج ما يكونون إلى الاعتراف والعلم بأسماء الله وبصفاته وبآثار ذلك في ملكوته وفي ربوبيته – جل وعلا – على خلقه، وأن يعبدوه حق عبادته.(٩٢٣)

فالزم يا عبد الله عتبة الحمد، احمد الله على كل نعمة ودقق النظر إن أخطأت الشكر والحمد على النعم فيمن أصيبوا من أصحاب الأسرة البيضاء من أصحاب الملازمة للفراش، وانظر لنفسك، انظر إلى تاج الصحة على رأسك في حين أصيب قوم في نفوسهم في أجسامهم أو في عقولهم وآخرون في أبنائهم وسل الله تعالى العافية وهؤلاء كثير في العالم من حولنا لكننا لا نحس بالمرض إلا إذا حل بنا وللأسف فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

أما أن ينسب العبد فضل الله الذي أنعم به عليه إلى غيره، أو يزعم أن الله آتاه النعمة لاستحقاقه ذلك وجدارته به وأحقيته وأهليته له يرى نفسه له مستحقاً وجديراً فهذه حال الكافرين ولذا كانوا يعبدون أبناءهم إلى آلهتهم كعبد عمرو وعبد الكعبة وعبد العزى وعبد يا ليل وهكذا كما قال –عز وجل–: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آَتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)فَلَمَّا آَتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آَتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [الأعراف/١٨٩، ١٩٠]

واستطرادا أقول: هذه الآية – أيها الإخوة!– أشكل فهمها على كثير من الناس، فظنوا – وأخطأوا – أن النفس الواحدة هي آدم والزوج التي خلقها الله منها هي حواء، وجعلوا الإشراك في الولد قد وقع من آدم وحواء، واتبعوا فى ذلك بعض الأحاديث المنكرة والروايات المكذوبة التي تخبر أن آدم وزوجه حواء سميا ابنهما عبد الحارث، يقولون: والحارث هذا اسم إبليس وهو تعبيد للابن إلى إبليس يقولون: وإنما فعلوا ذلك لأن إبليس هددهما إن لم يفعلا ذلك قتله أى قتل الولد وهذا خطأ بل الصحيح أن هذه الآية وهذا الكلام في المشركين من جنس ولد آدم فالحديث فى الآية هوعن كل ذكر وكل أنثى من جنس بني آدم وهذا قد وقع فعلًا كما أخبر الله –عز وجل– في المشركين الذين عبدوا أبناءهم لغير الله تعالى.

ولا يزال في المسلمين للأسف الشديد من يشابه الكافرين في هذه العادة المرذولة فيسمون أبناءهم عبد النبي وعبد الرسول وهناك من يسمي عبد المسيح وعبد علي وعبد الحسين وعبد المهدي وعبد المطلب وهذا كله حرام وعلى من كان اسمه

(٩٢٢) رواه البخاري (٦٦١٠) ومسلم (٢٧٠٤).

(٩٢٣) التمهيد لشرح كتاب التوحيد – (٢ / ١٩٧).

كذلك ياعباد الله أن يسعى في تغييره فإن النبي ﷺ كان يغير الأسماء القبيحة إلى أسماء حسنة وكثير منها لم يكن شركاً فكيف بما نعلم يقيناً أنه شرك؟ هو أولى بلا شك بالتغيير.

وهناك من الإشراك في نعمة الولد صور غير هذه منها:

– أن ينسب نعمة الولد إلى غير الله إيجادًا وخلقًا، وهذا كفر لأنه إثبات خالق مع الله وهو يدخل في الآية.

– أو أن يضيفوا سلامة الولد إلى الطبيب أو القابلة وهذا أيضًا من الإشراك.

– أو أن يقدم الأبوان محبة الولد على محبة الله[٩٢٤].

– أو يحدث أن يطيع الوالدان أولادهما في معصية الله كما قال بعض السلف وهو قتادة إن من الإشراك بالله الإشراك في الطاعة بمعنى أن من أطاع الأولاد في معصية الله وجعلهم نداً لله في المحبة وقدم محبتهم على محبة الله، فإن ذلك من الإشراك بالله، فلا ينبغي –أيها الإخوة– للمسلم أن يسخط ما وهبه الله كما يفعل أهل الجاهلية، بل يحمد الله على نعمة الولد ولا ينسبها إلى غيره كائنا من كان، ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها، إذا بُشِّرت بمولود لم تسأل إلا عن صورته لا عن ذكوريته وأنوثته، وأن تسمية الولد وتعبيده لغير الله –كما يفعله الجهلة – هو من جعل المشركين لله –عز وجل– شركاء فيما آتاهم.

وحقيق على من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله له النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم ودينهم أن يشكروا الله على إنعامه وأن لا يعبِّدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم مما سوى ذلك لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم منافٍ للتوحيد."[٩٢٥]

وهكذا حال وأصناف الناس مع نعم الله تعالى نسأل الله أن نكون ممن شكروا نعم الله عليهم وأن يوفقنا إلى المزيد من الشكر، اللهم كم من نعمة أنعمت بها علينا قل لك عندها شكرنا وكم من بلية ابتليتنا بها قل لك عندها صبرنا فيا من قل عند نعمائه شكرنا فلم يحرمنا، ويا من قل عند بلائه صبرنا فلم يطردنا اجعلنا لنعمائك من الشاكرين وعند بلائك من الصابرين... اللهم اغمرنا بنعيم الإيمان وعافية الأبدان وبركات الإحسان اللهم ارزقنا عند لقاك رضاك...الدعاء.

---

(٩٢٤) عون العلي الحميد (٢/ ٣٢٥).

(٩٢٥) القول السديد (ص ١٢٢، ١٢٣)، بتصرف.

أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر [١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

صلى الله على المصطفى الذي

هو نورٌ هدى الله العبادَ بهِ من بعدِ خبطهمُ صمّاً وعميانا

فأبْصَرُوا فاستبانَ الرُّشْدَ مُشعِرةً بعد الضلالِ قلوبُ الناسِ إيمانا

أما بعد فيا -أيها الإخوة- إن الله -تبارك وتعالى- ما ترك من شيئ يقربنا منه إلا دلنا عليه وأرشدنا إليه وأوضحه لنا، وما ترك من شيء يبعدنا عنه إلا وعرفنا به وحذرنا منه وأمرنا باجتنابه وجعل ذلك باقياً محفوظاً فينا أبد الدهر في كتاب منزل وسنة مفسرة موضحة له كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الجمعة: ٢] فالكتاب هو القرآن والحكمة هي سنة النبي عليه الصلاة والسلام ومن جملة ذلك الذى حذر منه القرآن والسنة -أيها الإخوة- أقوال وأفعال حذر منها الله ورسوله لأنها تسخط ربنا -عز وجل- وتغضبه وفيها من سوء الأدب معه ما يتنافى وإجلاله وتعظيمه الواجبين ولولا ستر الله وحلمه بنا لخسف بنا بسببه الأرض ولكن الله حليم ستير -عز وجل- وفى هذا اللقاء -أيها الإخوة- ننبه على هذه الأقوال والأفعال حتى نحذرها ونأمن شرها فكما أن العبد لا يدري أي كلمة تنجيه فهو لا يأمن من كلمة فربما كان فيها هلاكه وضياعه كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب".[٩٢٦]

نعم فهو لا يلقي لها بالاً لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها ولا يظن أنها تؤثر شيئاً هذا ظنه ولكن الحقيقة بخلاف ذلك فلا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى عظمة من عصيت وكما قال تعالى: "وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم".

فمن هذا -أيها الإخوة- أولاً: سب الدهر.. وهذا مما لا يحتاج الى مثال فقد أصبح بين الناس كشرب الماء او تنفس الهواء فلا تكاد تمرساعة حتى تسمع من يصف يومه فيقول: هذا يوم أسود أو هذا يوم مشؤوم ومن يذم ساعته فيقول: لا بارك الله فى هذه الساعة أو الزمان كله بقول!هذا زمن أغبر ولا ينكر كثير من الناس أنه قد أصبحت بيننا مصطلحات تتكلم بها ونكتب بها لا تجد أحدًا يحيد عنها ومنها على سبيل المثال: الأيام الحالكة، أو أيلول الأسود، أو أيام النكسة وهناك من ينشد أو يغنى فيقول: زمن غدار على منهج قدر أحمق الخطى، وهكذا -أيها الإخوة- اعتدنا ذلك وهو

(٩٢٦) أخرجه البخاري ٦٤٧٧، ومسلم ٧٦٧٢.

جهل وخور وضعف بصيرة ذلك أن الذي يسب الدهر فى الحقيقة هو لا يعى شيئاً على الإطلاق فإنما الأمور وحوادثها والأشياء وتصريفاتها ليس بيد الدهر شيء منها إنما هي بيد ملك الملوك –سبحانه وتعالى– الله وحده – أيها الإخوة – هو الذي بيده أزمة الأمور وهو الذي يدبرها على ما يشاء ويقلب الليل والنهار، وأما الدهر فليس عنده ولا له من الأمر شيء، وإنما الأمر بيد صاحب الأمر، الأمر كله لله، والذي يسب الدهر أو يسب الأيام والليالي إنما هو في الحقيقة يسب الله رب العالمين، لأنه هو الذي يدبر الأمر ويصرف شئونه وهو العزيز الحكيم.

وهذا ضد الأدب معه –عز وجل– وينافي تعظيمه وفيه أيضًا اعتراض عليه سبحانه فيما أراده وشاءه وربما اعتقد هذا الذي يسب الدهر أن الدهر يضر وينفع فيكون باعتقاده ذلك مشركاً بالله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولذلك سفه الله تعالى رأي الذين ينسبون الحوادث إلى غيره وعاب الذين يؤذونه في تدبيره وإحكامه ونسبهم الى الجهل وسوء الفهم وحسبك بذلك تسفيها قوله تعالى: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)[الجاثية: ٢٤]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: "يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر». [٩٢٧]

فالذي يسب الدهرإنما يسب الله –عز وجل– وأنبه –أيها الإخوة– أن قول الله –عز وجل– في الحديث وأنا الدهر ليس معناه أن الدهر اسم من أسماء الله وإلا ما عاب الله على الدهريين الذين قالوا وما يهلكنا إلا الدهر وتأمل قوله تعالى فى الحديث: بيدي الأمر أقلب الليل والنهار فهذا هو المقصود بكلمة أنا الدهر فيكون معنى أنا الدهر أي أنا الله سبحانه مدبر الدهر ومصرفه ومقلبه.

ويفهم –أيها الإخوة– من نهي الله عن سب الدهر في هذا الحديث أنه تنبيه على عدم السب لأي شيء مطلقاً إلا ما أذن الشرع فيه كسب إبليس ولعنه.

أيها الإخوة! إن الذي يسب الدهر يسب الله الذي يدبر أمور الدهرويصرفها فهو بذلك سيئ الأدب مع ربه، و فى نفس الوقت هو يدل على نقص عقله إذ نسب الأمور إلى غير سببها ونافى الواجب عليه تجاه مخلوقات الله –عز وجل– المسخرة المدبرة من عنده سبحانه لخدمة العباد ومنهم هذا العبد الذى كان من الواجب عليه تجاه هذه المخلوقات من الشكر أو الصبر أن يشكر الله عليها وعلى سائر نعمه التي تجري بها هذه الأسباب إن أتت بنعمة وأن يصبر على المصائب التي تأتي بها هذه الأسباب إن أتت بنقمة.

(٩٢٧) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

أما شكوى الدهر وسب الدهر ولعن الدهر فلن يجدي شيئاً ولن يحل شيئاً بل على العكس يعقد الأمور ويزيدها شدة، فعلى المؤمن أن يرضى بتدبير الله، و أن يسلم لأمره وبذلك يتم توحيده وطمأنينته، ويرضى بقضائه وقدره فإن الإيمان بالقضاء والقدر له دور كبير في طمأنينة القلب عند المصائب، خاصة إذا أدرك العبد تماما أن الله لطيف بعباده يريد بهم اليسر. ومن تيقن بذلك كف عن شكاية الدهر

يا شاكي الدهر جهلاً في تصرفه لا تشك دهرك فإن الدهر مأمور

ما ذنب دهرك والأيام غالية وكل أمر إذا وافاك مسطور

فاصبر على حدثان الدهر وارض به ما دام في الدهر مهموم ومسرور

فالحذر الحذر من سب الدهر وسب الأيام والليالى ووصفها بما يفهم منه ذمها وتقبيحها.

فإذا الحادثات بلغن المدى وكادت تذوب لهن المهج

وحل البلاء وقل العزاء فعند التناهي يكون الفرج

فيا رب يا كريم يا جواد يا حنان يا منان عجل لنا من لدنك في كل عسرنا بالفرج.

ثانياً من الأقوال والأفعال التي يجب الحذر منها:

الإقسام على الله، ما معنى الإقسام على الله؟ معناه: أن يقسم الإنسان على الله أن يفعل كذا أو يحلف عليه –جل وعلا– ألا يفعل كذا ونحو ذلك وهذا حرام، لأنه – بلغتنا– حجر على الله وفيه تكبر عليه سبحانه، وكثير من الناس يقع في هذا المحظور يوم يقول لواحد من الناس: إن الله لن يغفر لك، أنت لن ترد على جنة، أنت وجهك وجه نار وبئس القرار، أنت من أصحاب الجحيم، إلى آخر هذه الكلمات التي فيها تدخل من العبد فيما لا يعنيه وما ليس من شئونه وفي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث جندب بن عبد الله –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله –عز وجل–: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك). [٩٢٨]

فعلى العبد أن يلزم حدوده وأن يتأدب مع الله –عز وجل– فالعبد عبد والرب رب جل الله روى أبو داود بسند صحيح من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كان رجلان في بني إسرائيل مُتَآخِيَيْنِ فَكَانَ

(٩٢٨) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِى الْعِبَادَةِ فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ أَقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ أَقْصِرْ فَقَالَ خَلِّنِى وَرَبِّى أَبُعِثْتَ عَلَىَّ رَقِيبًا فَقَالَ وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقُبِضَ أَرْوَاحُهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ أَكُنْتَ بِى عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِى يَدِى قَادِرًا وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِى وَقَالَ لِلآخَرِ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ. (٩٢٩)

فيا –أيها الإخوة– على المؤمن أن يعظم الله ويخبت له وينيب إليه وأن يسيء الظن بنفسه ويقوم بقلبه أنه لم ولن يوفِّ الله حقه، فأين ذلك من التعاظم في الكلام، والإغراق في المدح والثناء ونحو ذلك مما يتنزَّه عنه المبجِّلون لله الخائفون من تقلِّب القلوب. فيا صاحب القلب المخبت المنيب إلزم عتبة الخوف والحذر، وكن من لفظك وسمعك على حذر، وألظَّ بمقلب القلوب أن يثبتك على الإيمان والتوحيد، وألا يكلك إلى نفسك طرفة عين(٩٣٠).

فالحذر الحذر من القسم على شيئ من هذا أو الحلف على الله فى شيئ، وهذا إذا كان الإقسام على الله على جهة التكبر والتعالي أما إذا كان على جهة حسن الظن بالله مع عظيم الافتقار للعزيز الغفار فإنه غير مذموم بل هو جائز ان شاء الله تعالى لقوله ﷺ: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره".

وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ومنهم البطل المغوار أنس بن النضر رضى الله عنه وأرضاه ولا حرمنا فى الجنة صحبتة ولقياه فقد روى البخاري عن أنس أن الربيع وهي ابنة معوذ كسرت ثنية جارية فطلبوا الأرش وطلبوا العفو فأبوا فَأَتَوُا النَّبِىَّ – صلى الله عليه وسلم – فَأَمَرَهُمْ بِالْقِصَاصِ. فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لاَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا فَقَالَ «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ». فَرَضِىَ الْقَوْمُ وَعَفَوْا فَقَالَ النَّبِىُّ – صلى الله عليه وسلم – «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ» قال أَنَس: فَرَضِىَ الْقَوْمُ وَقَبِلُوا الأَرْشَ.(٩٣١)

ومنهم الشهيد السعيد البراء بن مالك رضى الله عنه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك". ثم إن البراء لقى زحفاً من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين: فقالوا له: يا براء إن النبي ﷺ قال: "لو أقسمت على ربك لأبرك، فاقسم على ربك". فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، فمنحوا أكتافهم. ثم التقوا على قنطرة السوس فأوجعوا المسلمين، فقالوا: أقسم

(٩٢٩) أخرجه أبو داود ٤٩٠١، وصححه الألباني في المشكاة (٢٣٤٧ / التحقيق الثاني)، الطحاوية (٢٩٦) // (٣٦٤) //

(٩٣٠) عون العلي الحميد (١/ ٢٦٢).

(٩٣١) أخرجه البخاري ٢٧٠٣.

يا براء على ربك –عز وجل–، قال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك ﷺ فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء شهيداً". (٩٣٢)

ومنهم عبدالله بن جحش صاحب الغزوات والمشاهد والسرايا والمعارك العظام عن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش: اللهم أقسم عليك أن ألقي العدو غداً فيقتلوني ثم يبقروا بطني ويجدعوا أنفي، أو أذني أو جميعها ثم تسألني فيم ذلك. فأقول فيك. قال سعيد بن المسيب: فإني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله.(٩٣٣)

ومنهم الذى حكى عنه العجائب ممن لا نعرفهم وما ضرهم جهلنا بهم فحسبهم أن الله تعالى يعرفهم:

قال محمد بن المنكدر: إني لليلة مواجه هذا المنبر أدعو في جوف الليل إذا إنسان عند اسطوانة مقنع الرأس فأسمعه يقول: أي رب إن القحط قد اشتد على عبادك وإني أقسم عليك يا رب إلا سقيتهم. قال: فما كان إلا ساعة إذا سحابة قد أقبلت ثم أرسلها الله. وكان عزيزاً علي ابن المنكدر أن يخفي عليه أحد من أهل هذا الخير، فقال: هذا بالمدينة وأنا لا أعرفه؟ فلما سلم الإمام تقنع وانصرف واتبعه ولم يجلس للقاص حتى أتى دار أنس فأخرج مفتاحاً ففتح ثم دخل قال ورجعت فلما سبحت أتيته فإذا أنا أسمع نجراً في بيته. فسلمت ثم قلت: أدخل؟ قال: ادخل، فإذا هو ينجر أقداحاً يعملها. قال فقلت: كيف أصبحت أصلحك الله؟ قال: فاستشهرها واستعظمها مني. فلما رأيت ذلك قلت: إني سمعت إقسامك البارحة على الله يا أخي، هل لك في نفقة تغنيك عن هذا وتفرغك لما تريد من أمر الآخرة؟ قال: لا، ولكن غير ذلك، لا تذكرني لأحد ولا تذكر هذا لأحد حتى أموت، ولا تأتني يا ابن المنكدر، فإنك إن تأتيني شهرتني للناس. قلت: إني أحب أن القاك. قال: القني في المسجد – وكان فارسياً – قال: فما ذكر ذك ابن المنكدر حتى مات الرجل. قال ابن وهب: بلغني أنه انتقل من تلك الدار فلم ير، ولم يدر أين ذهب. فقال أهل تلك الدار: الله بيننا وبين ابن المنكدر، أخرج عنا الرجل الصالح.

وقال الإمام المبارك عبدالله بن المبارك: قدمت مكة فإذا الناس قد قحطوا من المطر وهم يستسقون في المسجد الحرام وكنت في الناس مما يلي باب بني شيبة إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فصار في موضع خفي إلى جانبي فسمعته يقول إلهي اخلقت الوجوه كثرة الذنوب ومساوئ الأعمال وقد منعتنا غيث السماء لتؤدب الخليقة بذلك فأسألك يا حليماً ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل اسقهم الساعة الساعة.

قال ابن المبارك فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى استوت بالغمام وأقبل المطر من كل مكان وجلس مكانه يسبح وأخذت أبكي إذ قام فاتبعته حتى عرفت موضعه فجئت إلى فضيل بن عياض فقال لي ما لي أراك كئيباً فقلت سبقنا إليه

(٩٣٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد – (١٠ / ٩٨)، الإصابة (١ / ٩٥).

(٩٣٣) زاد المعاد – (٣ / ١٨٠)، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة – (ص ٢٦٠).

غيرنا فتولاه دوننا فقال وما ذاك فقصصت عليه القصة فصاح وسقط وقال ويحك يا ابن المبارك خذني إليه فقلت قد ضاق الوقت وسأبحث عن شأنه.

فلما كان من الغد صليت الغداة وخرجت أريد الموضع فإذا شيخ على الباب قد بسط له وهو جالس فلما رآني عرفني وقال مرحبا بك يا أبا عبد الرحمن حاجتك فقلت له احتجت إلى غلام أسود.

قال نعم عندي عدة فاختر أيهم شئت فصاح يا غلام فخرج غلام جلد فقال هذا محمود العاقبة ارضاه لك فقلت ليس هذا حاجتي فما زال يخرج واحداً بعد واحد حتى أخرج لي الغلام فلما بصرت به بدرت عيناي فقال هذا هو قلت نعم قال ليس إلى بيعه سبيل قلت ولم قال قد تبركت بموضعه من هذه الدار وذلك أنه لا يرزؤني شيئاً قلت ومن أين طعامه وشرابه قال يكسب من فتل الشريط نصف دانق أوأقل أو أكثر فهو قوته فإن باعه في يومه وإلا طوى ذلك اليوم وأخبرني الغلمان عنه أنه لا ينام هذا الليل الطويل ولا يختلط بأحد منهم مهتم بنفسه وقد أحبه قلبي فقلت له انصرف إلى سفيان بن عيينة وإلى فضيل بن عياض بغير قضاء حاجة فقال إن ممشاك عندي كبير خذه بما شئت.

قال فاشتريته فأخذت نحو دار فضيل ابن عياض فمشيت ساعة فقال لي يا مولاي فقلت لبيك قال لا تقل لي لبيك فإن العبد أول أن يلبي من المولى.

قلت حاجتك يا حبيبي قال أنا ضعيف البدن لا أطيق الخدمة وقد كان لك في غيري سعة وقد أخرج إليك من هو أجلد مني فقلت لا يراني الله استخدمك ولكن أشتري لك منزلاً وأزوجك وأخدمك أنا بنفسي قال فبكى فقلت له ما يبكيك قال أنت لم تفعل هذا إلا وقد رأيت بعض متصلاتي بالله تعالى وإلا فلم اخترتني من بين أولئك الغلمان فقلت له ليس أي حاجة إلى هذا فقال لي سألتك بالله إلا ما أخبرتني فقلت له بإجابة دعوتك فقال لي إني أحسبك إن شاء الله تعالى رجلاً صالحاً إن الله -عز وجل- خيرة من خلقه لا يكشف شأنهم إلا لمن أحب من عباده ولا يظهر عليهم إلا من قد ارتضى.

ثم قال لي ترى أن تقف علي قليلاً فإنه قد بقيت على ركعات من البارحة فقلت هذا منزل فضيل قريب قال لا ههنا أحب إلى أمر الله -عز وجل- لا يؤخر فدخل من باب الباعة إلى المسجد فما زال يصلي حتى إذا أتى على ما أراد ألتفت إلي وقال يا أبا عبد الرحمن هل من حاجة قلت ولم قال لأني أريد الانصراف قلت إلى أين قال إلى الآخرة قلت لا تفعل دعني أسر بك.

فقال لي إنما كانت تطيب الحياة حيث كانت المعاملة بيني وبينه تعالى فأما إذا اطلعت عليها أنت فسيطلع عليها غيرك فلا حاجة لي في ذلك ثم خر لوجهه فجعل يقول إلهي اقبضني الساعة الساعة، فدنوت منه فإذا هو قد مات فوالله ما ذكرته قط إلا طال حزني وصغرت الدنيا في عيني -رحمه الله-.

نسأل الله أن يرزقنا من فضله العميم ما يثبت به إيماننا وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة، هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

ثالثاً -أيها الإخوة- من أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر: قول ما شاء الله وشئت، فهذه الكلمة أو الجملة مما يجب أن يحذرها المسلم ولا يتكلم بها ففيها جعل ند لله -عز وجل-، وقد قال تعالى: "فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون و فسر ابن عباس معنى اتخاذ الأنداد المنهي عنه في هذه الآية فقال: "الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلانة. وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً. هذا كله به شرك"، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم وذكره عنه ابن كثير فى التفسير. (٩٣٤)

وقد نهى النبي ﷺ عن هذه الكلمة فقال كما روى أبو داود بسند صحيح من حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان. (٩٣٥)

وهذا الحديث أو التوجيه النبوي الكريم له قصة طريفة أخرجها ابن ماجة فى سننه وصحح إسنادها العلامة الألبانى وهى «أن الطفيل أخي أم المؤمنين عائشة لأمها، قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، قال: "هل أخبرت بها أحدا؟". قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء

---

(٩٣٤) تفسير ابن أبي حاتم – (١ / ٣٧٩)، وعنه تفسير ابن كثير – (١ / ١٩٦).

(٩٣٥) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وغيره، وهو في"السلسلة الصحيحة"١ / ٢١٤.

الله وحده».(٩٣٦) وكذلك –أيها الإخوة– روى النسائي عن قتيلة: "أن يهودياً أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة. وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت» (٩٣٧)

ولذلك رد النبي–ﷺ – هذا القول على من قاله له–ﷺ – بعدما علمهم النبي خطره وضرره روى النسائي أيضاً عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده". (٩٣٨)

وقد أمرهم النبي ﷺ بذلك للبعد عن الشرك دقه وجله وحضاً لهم على الناس عن ألفاظه وكلماته.

فمثل هذه الكلمات ينبغي أن يحذر منها –أيها الإخوة– فلا تقل ما شاء الله وشئت، توكلت على الله وعليك، فوضتك في هذا الأمر وفوضت الله، فلا يعطفها بالواو التى تفيد الجمع والتشريك إنما يعطفها بـ"ثم" فيقول: ما شاء الله ثم شئت، توكلت على الله ثم عليك، فوضتك في هذا الأمر من بعد الله تعالى، وهكذا ولذا جاء عن إبراهيم النخعي أنه كان يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، وأنه يقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان.

قال الإمام المحقق ابن القيم: وفي معنى الشرك المنهي عنه: قول من لا يتوقى الشرك أنا بالله وبك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، وهذا من الله ومنك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، ووالله وحياتك، وأمثال هذا من الألفاظ التي يجعل فيها قائلها المخلوق ندًّا للخالق وهي أشد منعًا وقبحًا من قوله ما شاء الله وشئت. فأما إذا قال أنا بالله ثم بك، وما شاء الله ثم شئت، فلا بأس بذلك كما في حديث الثلاثة لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك وكما في الحديث المتقدم الإذن أن يقال ما شاء الله ثم شاء فلان. (٩٣٩)

فالحذر الحذر –أيها الإخوة– الكرام.

رابعاً: من أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر: الغلو وعدم التحفظ في الأقوال.

فيجب على المؤمن أن يبتعد عن كل قول أو لفظ يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك، ويتعين عليه اجتنابه إذ لا يتم توحيد العبد إلا بهذا.

---

(٩٣٦) أخرجه ابن ماجه (٢١١٨)، وصححه الألباني في صحيحه.

(٩٣٧) أخرجه النسائي ٧ / ٦، وفي عمل اليوم والليلة (٩٨٦)، وصححه الحافظ في الإصابة ٤ / ٣٨٩.، وانظر الصحيحة ١٣٦.

(٩٣٨) أخرجه أحمد (١/٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٩).

(٩٣٩) زاد المعاد – (٢ / ٣٢٠)

روى أبو داود من حديث عبد الله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا، فقال: "السيد الله –تبارك وتعالى–"، قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولًا، فقال –ﷺ–: "قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان». (٩٤٠) وروى أحمد عن أنس أن ناساً قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، فقال: "يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله –عز وجل–". (٩٤١)

فعلى العبد المسلم الموحد أن يلتزم القصد في الأقوال واجتناب الغلو وعليه التأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعماله مع الرسل أو مع العلماء والصالحين.

كما أنه يلزم العبد المملوك أن يذل ويخضع لملك الملوك، وأن يدعوه رغبا ورهبا كما قال تعالى مثنيا على صفوة عباده: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾.

وانظر كيف سد النبي ﷺ طرق الشرك الموصلة إليه ومنافذه كلها فعلية وقولية حتى لا يتسرب إلى المسلم ما يضعف إيمانه أو يزعزع توحيده، فأين هذا — أيها الإخوة – من ألفاظ وأقوال تقال في النبي ﷺ لا يرضى عنها الله ورسوله، من مثل قول من قال: وهو البكري في لاميته!

ما أرسل الرحمن أو يرسل *** من رحمة تصعد أو تنزل

في ملكوت الله أو ملكه *** من كل ما يختص أو يشمل

إلا وطه المصطفى *** عبده نبيه مختاره المرسل

واسطة فيها وأصل لها *** يعلم هذا كل من يعقل

فلذ به به من كل ما تشتكي *** فهو شفيع دائماً يقبل

ولذ به من كل ما ترتجي *** فإنه المأمل والمعقل

يا أكرم الخلق على ربه *** وخير من فيهم يسأل

---

(٩٤٠) أخرجه أبو داود ٤٨٠٦، وصححه الألباني في المشكاة (٤٩٠١)، إصلاح المساجد (١٠٣)، صحيح الجامع (٣٧٠٠).

(٩٤١) أخرجه الإمام أحمد (٣ / ١٥٣ و ٢٤١ و ٢٤٩) و البيهقي في"دلائل النبوة" (٣ / ١١٣ / ٢)، وهو في"السلسلة الصحيحة"٣ / ٨٨.

كم مسني الكرب و كم مرة *** فرجت كرباً بعضه يُذهل

فبالذي خصك بين الورى *** برتبة عنه العلى تنزل

عجل بإذهاب الذي اشتكى *** فإن توقفت فمن الذي أسأل

وقول من يقول وهو البوصيري في بردته:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

وقوله: فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن بعض علومه علم اللوح والقلم لأن"من"للتبعيض، فماذا بقى للخالق -جل وعلا-؟

ويدخل في هذا دخولاً أولياً -أيها الإخوة- المبالغة التي كان يأخذ بها الملوك والحكام في ألقابهم وأسمائهم وكذلك بعض القضاة فقد كانوا يسمون أنفسهم ملك الملوك أو شاه شاه أو سلطان السلاطين أو أحكم الحاكمين وكل هذا حرام قال رسول الله ﷺ: «إن أخنع اسم عند الله، رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».[٩٤٢]يعني أوضع الأسماء

بل وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه». [٩٤٣] سبحان ربي!"يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله -عز وجل-».

يقول هذا مع أنه سيد الأولين والآخرين وكذلك مما ينهى عن التسمية به في الشرع: التسمية بما يشتمل على مبالغة وغلو وإفراط في الوصف والمدح كالتسمي بناصر الدين وكمال الدين وبهي الدين وسيد الدين وسيد السادات وسيد الناس وهذا احتراماً لأسماء الله تعالى ومثله يجب تغييره إن حدث ووقع - ما أمكن - كما فعل النبي ﷺ مع أبي شريح أحد الصحابة فقد روى أبو داود بسند صحيح من حديث أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم"، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: "ما

(٩٤٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

(٩٤٣) أخرجه مسلم (٢١٤٣).

أحسن هذا! فمالك من الولد؟" قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: "فمن أكبرهم؟"قلت: شريح، قال: "فأنت أبو شريح». (٩٤٤)

فاللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه. فالحذر الحذر عباد الله من الغلو والإفراط في الأسماء والأوصاف والمدح والثناء.

خامساً: من أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر قول العبد في دعائه: اللهم اغفر لي إن شئت، نعم فبعض الناس يدعون الله – تبارك وتعالى– فيقولون في دعائهم: اللهم أعطني إن شئت واغفر لي إن أردت واصفح عني إذا رأيت ذلك، وهكذا، وهذا بخلاف الهدي النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم فهذه الكلمات وأمثالها فيها منافاة لحقيقة العبودية فهو سبحانه الغني القادر الحي القيوم الذي لا معجز له ولا مكره له، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له».(٩٤٥) ولمسلم: "وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شئ أعطاه". (٩٤٦)

إن مثل هذه الكلمات لتظهر عدم وثوق العبد في ربه سبحانه وتنبئ عن تردد كبير في نفسه تجاه توحيد العبودية ومن ذلك أيضاً –أيها الإخوة– ألفاظ تجري على ألسنة بعض الناس"مثل قول أحدهم للآخر: غفر الله لك فيرد صاحبه: إن شاء الله، وكقول بعضهم: جعل الله هذه المحاضرة أو الخطبة في موازين حسناتك إن شاء الله، أو قول الأم لولدها: حفظك الله ووفقك إن شاء الله ونحو ذلك. (٩٤٧)

أيها الإخوة ينبغي أن يكون المسلم شديد الوثوق في الله عظيم الرغبة فيه قويّاً في إظهار فاقته وحاجته وأنه لا غنى له عن ربه طرفة عين وأن يوقن بسعة عطاء وجود ربه وكرمه سبحانه، وأن يلح في دعائه وليسأل ما أراد عازماً المسألة، فإن الله لا يعظم عليه شيء فكل شيء لديه يسير، وكل عبد إلى عفوه وكرمه فقير.

أيها الإخوة! ضاق بنا المقام عن استيعاب أهم الألفاظ والأقوال والأفعال التي اشتهرت في الناس ويجب عليهم اجتنابها والحذر منها فأستميح حضراتكم عذرًا أن أرجئ الحديث عما تبقى منها إلى الجمعة القادمة إن قدر الله لنا اللقاء وكتب لنا البقاء فأنا لا أريد أن أطيل عليكم هذا وأسأل الله أن يقينا الشر كله دقه وجله، وأن يجنبنا الزيغ والزلل والفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يحسن ظنوننا به، وأن يكون لنا حيث نظن به...

يا رب حسن رجائي فيك حسن تضييع وقتيَ في لهوٍ وفي لعِب

---

(٩٤٤) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٣٨٧)، وصححه الألباني المشكاة (٤٧٦٦)، الإرواء (٢٦١٥).

(٩٤٥) أخرجه البخاري (٦٣٣٩) ومسلم (٢٦٧٩).

(٩٤٦) أخرجه مسلم (٢٦٧٩).

(٩٤٧) عون العلي الحميد ٢/ ٣٥٦، بتصرف.

وأنتَ قلتَ لمن أضحى على ثِقَةٍ بحسن عفوك: إني عند ظنك بي

الدعاء.

أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر [٢]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أنا الفقير إلى رب البريات أنا المسيكين فى مجموع حالاتى

أنا الظلوم لنفسى وهي ظالمتي والخير إن يأتنا من عنده ياتى

لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ولا عن النفس لى دفع المضرات

وليس لي دونه مولى يدبرني ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى

إلا بإذن من الرحمن خالقنا إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات

ولست أملك شيئًا دونه أبدًا ولا شريك أنا فى بعض ذرات

ولا ظهير له كي يستعين به كما يكون لأرباب الولايات

والفقر لى وصف ذات لازم أبدًا كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمهم وكلهم عنده عبد له آتى

فمن بغى مطلَبا من غير خالقه فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

والحمد لله ملء الكون أجمعه ما كان منه وما من بعد قد ياتى

أما بعد فيا أيها الإخوة لا زال حديثنا موصولاً عن أقوال وأفعال ينبغي أن تحذر وكنا قد تحدثنا في اللقاء الماضي عن خمس من هذه الأقوال والأفعال هي:

سب الدهر، والإقسام على الله، وقول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت، وقول ما شاء الله وشاء فلان، والغلو في الألفاظ جدًا بقول يا سيدنا يا خيرنا يا عظيمنا وابن عظيمنا ويا سيد السادات، ومثله التسمي بقاضي القضاة وملك الملوك.

وفي هذا اللقاء –أيها الإخوة– نواصل الحديث عن أهم ما بقي معنا في هذا الموضوع نسأل الله أن يجنبنا الشرور والفتن ما ظهر منها وما بطن.

فمن هذه الأقوال والأفعال التي ينبغي أن تحذر -أيها الإخوة- ما نبه عليه النبي ﷺ بقوله كما في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "لا يقل أحدكم: أطعم ربك وضئ ربك وليقل: سيدي ومولاي ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي". (٩٤٨)

ينبهنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلى تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ وذلك بأن يعظم العبد ربه في ربوبيته، ويحترز من الألفاظ التي فيها إساءة أدب مع جناب الربوبية، وأن يعترف العبد لربه سبحانه بأنه -عز وجل- المالك لكل الرقاب وأن يتأدب العبد ويتهذب في تعامله وحديثه مع رب الأرباب.

والحديث -أيها الإخوة- تعليم للسيد الذي يملك العبيد والإماء ألا يقول: عبدي وأمتي ولكن يقول: فتاي وفتاتي، وأن لا يقول من تحت يده من العبيد والإماء عن سيدهم: ربي ولكن يقول: سيدي ومولاي، وهذا من حرص النبي ﷺ على التوحيد وتحقيقه وحض الناس على تعظيم الله تعالى ولا سبيل إلى بلوغ ذلك الأدب مع الله إلا بكمال وشديد التحفظ عن الألفاظ التي فيها إيهام ومحذور ولو كان ذلك على وجه بعيد، فإن الأدب -أيها الإخوة- في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص للعلي العظيم وحماية لتوحيد الرب جل جلاله.

ولئن كان التوجيه في الحديث النبوي للأسياد والعبيد في عصر ولي ومضى ولم يعد له الآن وجود فيبقى حديث النبي ﷺ هذا علامة فارقة على ما تميز به الإسلام من محاسن التنزيه للربوبية وتعظيمها وإجلالها.

وكذلك يبقى لنا من الناحية العملية أن لا نجعل عبودية لفظاً ولا معنى إلا لله الذي يستحقها فلا تضاف العبودية لفظاً ومعنى إلا إلى مدبر الأمور -سبحانه وتعالى- الذي خلق ورزق وأبرم وأتقن، لأنه سبحانه الغني عمن سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، وهو أهل الثناء والمجد وكلنا له عبد فالعبيد كلهم عبيد الله، والإماء كلهن إماء الله فحري بأهل التوحيد التزام جادة الأدب مع الغني العلي الحميد.

أقول -أيها الإخوة-: ولئن كان عصر الرق والعبودية قد انتهى من الواقع إلا أنه لا يزال على النفوس جاثم وفيها ساكن فرغم أن الله من على الناس بالحرية إلا أن بعضهم يرقون أنفسهم ويذلونها ويخضعونها لبشر مثلهم وعبيد أشكالهم تعبر عن ذلك كثير من أفعالهم وأحوالهم بل وأقوالهم ولذا كان من هذا الباب مما ينبغي أن يحذر أن يقول القائل أنا عبد المأمور وهذا خطأ والصحيح أن الإنسان كل إنسان عبد الآمر المدبر الملك جل جلاله ولا عبودية أبدًا لمأمور، وإن كان ولابد من استعمال هذه الكلمة على نحو شرعي صحيح فليقل القائل: أنا عبدٌ مأمورٌ، والتنزه عنها مطلقًا أولى وأحرى.

---

(٩٤٨) أخرجه البخاري (٢٥٥٢) ومسلم (٢٢٤٩).

أقول: على الرغم من هذا لا زال أيضاً يسكن قلوب بعض الكبراء والوجهاء الكبر والأشر والبطر نحو إخوانهم الذين رفعهم الله فوقهم بمنصب أو جاه أو مال فهم يظنون من تحتهم خلقوا لخدمتهم وسخروا لحاجتهم فلذلك هم يذلونهم ويخضعونهم كما لو كانوا خلقوهم وأوجدوهم.

ألا فليرحم الناس أنفسهم، وليتراحموا فيما بينهم، ليرحم الضعيف نفسه فلا يذلها لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منه في الدين.

لا تَخْضَعَنْ رَغَباً ولا رَهَباً، فما المرجو والمخشي إلا الله

ما قد قضاه الله ما لك من يد بدفاعه وسواه لا تخشاه

وليرحم الكبير إخوانه الذين جعلهم الله تحت يده فإنهم إخوانه استرعاهم والله إياه فليحسن إليهم يحسن الله إليه، روى البخاري عَنِ الْمَعْرُورِ قَالَ لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».[٩٤٩] وفقنا الله وإياكم –أيها الإخوة– إلى كل خير ومعروف.

ثانياً: ومن هذه الأفعال التي ينبغي أن تحذر: التصوير.

فالتصوير –أيها الإخوة– من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص إيمانه وتضعفه والتصوير فيه كذب وتحوير على الخلقة الإلهية وتزوير وربما يؤول أمر الناس إلى عبادة هذه الصور كما حدث في قوم نوح عليه السلام فإنهم صوروها على نية صحيحة ثم آل أمرها إلى أن عبدت من دون الله ومن يدري نعم إننا نعيش في عصر الحضارة والتكنولوجيا غير أننا نحن المسلمين رأينا من أصحاب هذه الحضارة من يعبد بقرة ومن يعبد فأرًا فمن يدري؟ ولا شك قبل هذا وبعده أننا مأمورون باتباع كلام الله ورسوله، فالتصوير مضاهاة لخلق الله ووسيلة إلى الشرك بالله تعالى يجب سدها وغلق بابها، وأيًّا ما كان –أيها الإخوة– يعني سواء ظهرت لنا الحكمة من وراء حرمة التصوير أو لم تظهر فكفى بنهي الله عنها حكمة وهو العليم الحكيم جل جلاله وقد وردت النصوص بهذا فالواجب التسليم والانقياد لها فيما أمرت به أو نهت عنه فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن

(٩٤٩) أخرجه البخاري ٣٠.

ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة».[٩٥٠] وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله». [٩٥١]

وعن ابن عباس، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم». [٩٥٢]

وعنه مرفوعا: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ».[٩٥٣]

وروى مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته". [٩٥٤]

فانظر يا أخي كم العقوبات التي ذكرتها هذه الأحاديث للمصورين فمن هذه العقوبات

١ – أنه في النار – عياذًا بالله –.

٢ – يُجْعَل له بكل صورة نفس يُعذّب بها في جهنم.

٣ – تكليفه النفخ فيما صور.

٤– أنه أشد الناس عذاباً أو من أشدهم عذاباً.

٥– أنه ملعون، كما في حديث أبي جحيفة في" البخاري" وغيره. [٩٥٥]

وهذا يدل –أيها الإخوة– على مدى ما في الشرع من حكمة وحرص على دين الناس وانظر لما وقع التساهل في بعض ما نهى عنه الشرع من الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأصحاب القبور، إذ صور أصحاب الأهواء أضرحة وقبورًا، وأقاموا مشاهد وصارت محطًّا لرحال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جل العبادة من الدعاء والإستغاثة، والذبح لها، والنذور وغير ذلك والله المستعان؟!

---

(٩٥٠) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) و (٧٥٥٩) ومسلم (٢١١١).

(٩٥١) أخرجه البخاري (٥٩٥٤) ومسلم (٢١٠٦).

(٩٥٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥) و(٥٩٦٣) و (٧٠٤٢) ومسلم (٢١١٠).

(٩٥٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٣) ومسلم (٢١١٠).

(٩٥٤) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٩٥٥) القول المفيد (٢/ ٢٥٨).

يقول بعض العلماء: من الفتن التي عمت وطمت وانتشرت بين المسلمين فتنة التصوير والصور، فهي فتنة عظيمة وإن استهان بها كثير من الناس، حتى بعض من ينسبون إلى علم وصلاح، وكيف يستهين بها مسلم مع ما ورد فيها من الوعيد الشديد في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما، وأذنان يسمع بهما، ولسان ينطق به فيقول: إني وُكّلت بثلاثة: بكل جبَّار عنيد، وبكل من ادّعى مع الله إلها آخر، والمصورين»[٩٥٦]

انظر كيف جمع النبي ﷺ بين المصورين وبين هؤلاء الضالين المرتكبين لأعظم الكبائر ويؤكد هذا المعنى ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون»[٩٥٧]، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة وأم حبيبة ذكرتا عند النبي ﷺ كنيسة رأتاها بأرض الحبشة يقال لها: مارية، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله».[٩٥٨]

قال الإمام النووي –رحمه الله–: "صانع الصورة لتُعبد، وهو صانع الأصنام ونحوها فهذا كافر، وهو أشد الناس عذابًا، ومن قصد المعنى – الذي في حديث عائشة من مضاهاة خلق الله تعالى، واعتقد ذلك فهذا كافر أيضًا، وله من شدة العذاب ما للكفار، ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره، فأما من لم يقصد بها العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق، صاحب ذنب كبير، لا يكفر كسائر المعاصي."[٩٥٩]

أقول أيها الإخوة: وأي خير في رجل يتردد بين الكفر والفسوق نعوذ بالله من الخذلان؟ فلا يصح تصوير الأصنام والتماثيل فضلا عن وضعها في الميادين والأماكن العامة، فهذا حرام بل هو سفه في العقل إذ فيه من الإسراف في المال ما تحتاجه بطون لتسد به جوعتها وفروج تحقق به عفتها، ويكفي أن تعلم أن تمثال سيدة الغناء العربي تكلف ما يزيد على مليونين! فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومما يتصل بهذه الأحاديث –أيها الإخوة– تصوير ذوات الأرواح سواء كانت تمثالاً مجسماً أو رقماً منقوشاً مما ليس له ظل لعموم حديث ابن عباس «أن كل مصور في النار" ولحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «اشتريت نمرقة فيها تصاوير فأشار عليها الرسول ﷺ ولم يدخل البيت حتى قطعتها وسادة أو وسادتين".[٩٦٠]

---

(٩٥٦) أخرجه أحمد (٢/٣٣٦) والترمذي (٢٥٧٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٢).

(٩٥٧) أخرجه البخاري (٢٤٧٩) ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة.

(٩٥٨) أخرجه البخاري (٤٢٧) و (٤٣٤) و (١٣٤١) و(٣٨٧٨)، ومسلم (٥٢٨).

(٩٥٩) شرح أخرجه مسلم للنووي: ١٤/٩١.

(٩٦٠) أخرجه البخاري ٢١٠٥، ومسلم ٥٦٥٥، وانظر الصحيحة (٣٠٥٣).

وفي الصحيحين عن أبي زرعة ابن عمرو بن جرير قال: دخلت مع أبي هريرة دارًا بالمدينة فرأى في أعلاها مُصوِّرا يصور، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا حبة، وليخلقوا ذرة»(٩٦١)

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الذين يصنعون هذه الصور يُعذَّبون يوم القيامة يُقال لهم أحيوا ما خلقتم»(٩٦٢)

والأحاديث في الوعيد للمصورين وللذين يقتنون الصور كثيرة. فيا أيها الإخوة! سردت على مسامع حضراتكم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في مسألة التصوير لكن يبقى التساؤل قائمًا: ما هو فقه هذه الأحاديث؟ ما معناها؟ وما هو المستفاد منها؟ فهل يستفاد منها أن الصور المجسمة كالتماثيل وغير المجسمة كالتصوير الشمسي وتصوير الصبغة على القماش ونحوه حرام، أو أن المحرم هو الصور المجسمة فقط؟

أقول: الخلاصة: التصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون، أي: ما له جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صور عبثاً، يعني: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبي ليهدئه به، فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم: يدخل في الحديث، لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنساناً لبس لبساً يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم، نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك، لو أن أحداً تشبه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه، قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية: أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النمرقة حيث أقبل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأي نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: "إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم "، فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في" صحيح البخاري ": "إلا رقماً في ثوب "، فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

---

(٩٦١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٥٦٦٥).

(٩٦٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٧)، ومسلم (٢١٠٧).

الحال الثالثة: أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط، فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

القول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك، فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً، إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة، فحركته تعتبر تصويراً، فيكون داخلاً في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير، لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة، فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا يعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمي في ظلمة، وهذا القول أقرب، لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعاً ولا مخططاً، ولكن يبقي النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مباحاً، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلي هذا، فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه بالذكري، سواء كانت هذه الذكري للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه، فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور، لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية (بطاقة الهوية) والرخصة والجواز وما أشبهه، فهذا يكون مباحاً، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني، فصوره، فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل في الحديث، أي: حديث الوعيد على التصوير، أما إذ قال: صورني لغرض آخر غير مباح، صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابعة: أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمي، فهذا لا بأس به بالاتفاق، لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة، مثل أن يصور الإنسان سيارته، فهذا يجوز، لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولي.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام، فغير النامي، كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار، فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو، فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره. (٩٦٣)

وهناك أمر ينبغي أيضًا التنبه له ألا وهو اقتناء الصور: فقد روى مسلم عن أبي الهياج، قال: قال لي علي: "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: أن لا تدع صورة، إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً، إلا سويته" قال

---

(٩٦٣) القول المفيد (٣٢٨).

العلامة ابن عثيمين -رحمه الله-: يؤخذ من قوله: "أن لا تدع صورة إلا طمستها" أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل، فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور، لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك، فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه هذه الصورة، لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب الربوبية وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهذا حرام أيضاً، لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكري حناناً أو تلطفاً، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضاً حرام للحوق الوعيد به في قوله - صلى الله عليه وسلم -: "إن الملائكة لا تدخل بيتاً في صورة ".

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقاً، ولكنها تأتي تبعاً لغيرها، كالتي تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك، فالظاهر أن هذا لا بأس به، لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة، فهو أولي.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مهانة ملقاة في الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة، فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة لأن في ذلك امتهاناً للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟

الجواب: نقول لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه، لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصاً أو سراويل أم عمامة أم غيرها.

وقد ظهر أخيراً ما يسمي بالحفائظ، وهي خرقة تلف على الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلى الجسم أو الملابس، فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتهن؟

هي إلى الثاني أقرب، لكن لما كان امتهاناً خفياً وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولي.

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء، كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: { وما جعل عليكم في الدين من حرج } [الحج: ٧٨]. [٩٦٤]

---

(٩٦٤) القول المفيد (٢/ ٢٥٨، ٢٥٩).

ونكمل الحديث بعد جلسة الاستراحة، هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

إن مما يتعلق بهذا الموضوع ما قد كثر الحديث عنه في هذه الآونة من بعض المنتسبين إلى العلم ظهور الدعاة والعلماء في التلفاز والقنوات الفضائية وتحرج البعض وتحدث البعض الآخر في حرمة ظهور العلماء في هذه القنوات من أجل ما ورد من الأحاديث الصحيحة في التشديد في التصوير ولعن المصورين وقد أجاب عن هذا الحرج وأزال تلك الشبهة علامة الجزيرة والحجاز العلامة ابن باز –رحمه الله تعالى– إذ سئل: يتحرج بعض الدعاة من الظهور في وسائل الإعلام رغم ما لها من تأثير في مجال الدعوة والتوحيد فماذا تقولون في ذلك؟ فأجاب –رحمه الله تعالى– بقوله: لا شك أن استغلال وسائل الإعلام في الدعوة إلى الحق ونشر أحكام الشريعة وبيان الشرك ووسائله والتحذير من ذلك ومن سائر ما نهى الله عنه من أعظم المهمات بل من أوجب الواجبات، وهي من نعم الله العظيمة في حق من استغلها في الخير وفي حق من استفاد منها ما ينفعه في دينه ويبصِّره بحق الله عليه، ولا شك أن البروز في التلفاز مما قد يتحرج منه بعض أهل العلم من أجل ما ورد من الأحاديث الصحيحة في التشديد في التصوير ولعن المصورين.

ولكن بعض أهل العلم رأى أنه لا حرج في ذلك إذا كان البروز فيه للدعوة إلى الحق ونشر أحكام الإسلام والرد على دعاة الباطل عملاً بالقاعدة الشرعية وهي: ارتكاب أدنى المفسدتين لتفويت كبراهما إذا لم يتيسر السلامة منهما جميعًا، وتحصيل أعلى المصلحتين ولو بتفويت الدنيا منهما إذا لم يتيسر تحصيلهما جميعًا، وهكذا يقال في المفاسد الكثيرة والمصالح الكثيرة: يجب على ولاة الأمور وعلى العلماء إذا لم تتيسر السلامة من المفاسد كلها أن يجتهدوا في السلامة من أخطرها وأكبرها إثمًا. وهكذا المصالح يجب عليهم أن يحققوا ما أمكن منها الكبرى فالكبرى إذا لم يتيسر تحصيلها كلها، ولذلك أمثلة كثيرة وأدلة متنوعة من الكتاب والسنة منها قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام، الآية:١٠٨]، ومنها الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لهدمتُ الكعبة وأقمتها على قواعد إبراهيم»[٩٦٥].

وبهذا يعلم أن الكلام في الظهور في التلفاز للدعوة إلى الله سبحانه ونشر الحق يختلف بحسب ما أعطى الله الناس من العلم والإدراك والبصيرة والنظر في العواقب، فمن شرح الله صدره واتسع علمه في ذلك، فله أجره وثوابه عند الله سبحانه،

(٩٦٥) أخرجه البخاري ١٥٨٦، ومسلم ٣٣٠٧.

ومن اشتبه عليه الأمر ولم ينشرح صدره لذلك فنرجو أن يكون معذورًا لقول النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٩٦٦]، وقوله ﷺ: «البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب...»[٩٦٧]الحديث.

ولا شك أن ظهور أهل الحق في التلفاز من أعظم الأسباب في نشر دين الله والرد على أهل الباطل لأنه يشاهده غالب الناس من الرجال والنساء والمسلمين والكفار، ويطمئن أهل الحق إذا رأوا صورة مَن يعرفونه بالحق وينتفعون بما يصدر منه، وفي ذلك أيضًا محاربة لأهل الباطل وتضييق المجال عليهم، وقد قال الله –عز وجل-: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال –عز وجل-: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال النبي ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[٩٦٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئًا» [٩٦٩]، وقال ﷺ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لما بعثه إلى اليهود في خيبر: «ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمر النَّعم»[٩٧٠]

وهذه الآيات والأحاديث الصحيحة كلها تعم الدعوة إلى الله سبحانه من طريق وسائل الإعلام المعاصرة ومن جميع الطرق الأخرى كالخطابة والتأليف والرسائل والمكالمات الهاتفية وغير ذلك من أنواع التبليغ لمن أصلح الله نيته ورزقه العلم النافع والعمل به، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى» [٩٧١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٩٧٢] وأسأل الله –عز وجل– أن يوفّق علماء المسلمين وولاة أمرهم لكل ما فيه صلاح العباد والبلاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.[٩٧٣]

---

(٩٦٦) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) والنسائي (٣٢٧/٨)، وصححه الألباني في الإرواء:(٨٩/٨).

(٩٦٧) أخرجه أحمد (١٨١٦٤)، (١٨١٦٩)، و"الدارِمِي"٢٥٣٣ قال الهيثمي: وفيه أيوب ابن عبد الله بن مكرز قال ابن عدي لا يتابع على حديثه ووثقه ابن حبان، مجمع الزوائد (١ / ١٠٥)، وحسنه النووي في رياض الصالحين ص ٨٥، والأذكار ٤٠٨.

(٩٦٨) أخرجه مسلم ٥٠٠٧.

(٩٦٩) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٩٧٠) أخرجه البخاري ٢٩٤٢، ومسلم ٦٣٧٦.

(٩٧١) أخرجه البخاري ١، ومسلم ٥٠٣٦.

(٩٧٢) أخرجه مسلم ٦٧٠٨.

(٩٧٣) راجع فتاوي العقيدة (٢/ ٨١٤، ٨١٧ – ٨١٩) ط. دار الوطن، نقلًا عن عون العلي الحميد (٢/ ٤٣٢).

هذا وما كان من خطأ أو نسيان فمن نفسي والشيطان والتوفيق في كل أمر من الله وحده، وأسأل الله أن يقينا الشرور كلها... الدعاء.

رسالة إلى الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعبًا

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل على حبيبك ومصطفاك وخيرتك من خلقك ومجتباك الذي:

عرضت عليه الدنيا فأعرض زاهدًا يبغي من الأخرى المكان الأرفعا

ما جر أثواب الحرير ولا مشى بالتاج من فوق الجبين مرصعا

وهو الذي لو شاء نالت كفه كل الذي فوق البسيطة أجمعا

وهو الذي ألبس الدنيا السعادة حلة فضفاضة لبس القميص مرقعا

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

من هزل بشيء فيه ذكر الله –عز وجل– أو القرآن أو الرسول فقد كفر، لأن الاستهزاء بالله تعالى وبرسوله وبالقرآن لا يجتمع مع الإيمان في قلب مسلم موحد فإذا سكن القلب أحدهما خرج الآخر، وذلك لأن المستهزئ بذلك مستخف بعظمة الله ومستهتر بربوبيته ومستهين بجناب الرسالة وذلك كله مناف للتوحيد، والاستهزاء إنما يكون استهزاء حين يكون بما تعارف عليه الناس أنه كذلك من السب والتنقص والعيب والطعن والتحقير والاستخفاف والازدراء إلى آخر هذه االتعبيرات، فما عده العرف استهزاء كان هذا حكمه سواء كان بالفعل أو بالقول أو بالإيماء أو بالإشارة.

فهذا كله كفر فى دين الله –عز وجل– ورضى بالجاهلية بعد الإسلام وهذا الحكم –أيها الإخوة– هو حكم الله تعالى فيمن فعل ذلك اقرأ إن شئت قوله تعالى: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤)وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)[التوبة: ٦٤ – ٦٧]

ذكر ابن كثير –رحمه الله– عن محمد بن كعب القُرَظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام: ما أرى قُرّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرُفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء ذلك القائل إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال المنافق يريد أن يستقبل بالاعتذار: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: { أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون.... الآيات السابقة، وإن

رجليه لتنسفان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متعلق بنسعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.(٩٧٤)

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قُرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تَنكُبُه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: { أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم}.

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشّن بن حُمَيّر يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مُقَرّنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مُخَشّن بن حُمَيّر: والله لوددتُ أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا نَنْفَلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما بلغني -لعمار بن ياسر: "أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا". فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، [فأنزل الله، -عز وجل-: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ }] فقال مُخَشّن بن حُمّير: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مُخَشّن بن حُمّير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، قال: فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر.

وقال قتادة: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } قال: فبينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها. هيهات هيهات. فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: "عَليَّ بهؤلاء النفر". فدعاهم، فقال: "قلتم كذا وكذا". فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب. (٩٧٥)

---

(٩٧٤) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٦٩١١)، ومواضع، و"النسعة"(بكسر فسكون): سير مضفور يجعل زمامًا للبعير، وقد تنسج عريضة تجعل على صدر البعير. ويقال للبطان والحقب: "النسعان". انظر: تفسير الطبري - (١٤ / ٣٣٥)، بتحقيق الأستاذين أحمد ومحمود شاكر رحمهما الله تعالى رحمة واسعة.

(٩٧٥) انظر: تفسير الطبري - (١٤ / ٣٣٥)، تفسير ابن كثير - (٤ / ١٧٢).

فلما استهزأوا كفروا وانسلخوا من الإيمان أو قل انسلخ منهم الإيمان، قال الحافظ ابن كثير: وقوله: { لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ثم قال: وقوله: { بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.(٩٧٦)

أرأيتم –أيها الإخوة– من استهزأ بالله أو بدينه أو بالرسول كفر قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الآية: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض معًا ونلعب وبين سبحانه أن الاستهزاء بآيات الله كفر".

ويحكي صاحب المغرب في أخبار المغرب أنه في أيام قاضي المغرب أبو العباس. عبد الله بن طالب، تفقه بسحنون، وكان من كبار أصحابه. ولقي المصريين محمد بن عبد الحكم، ويونس بن عبد الأعلى، وهو الشهير ابن طالب، قتل ابراهيم الفزاري، قال: وكان ابراهيم، شاعراً. متفنناً في كثير من العلوم، مع استهزاء وطيش. وكان يحضر مجلس ابن طالب لمناظرة الفقه. فقيل إنه كان يزري به، ويتضحك بأمره، ونمت عنه أمور منكرة. فانتهى ذلك الى ابن طالب. فطلبه ابن طالب وحبسه. وشهد عليه أكثر من مائتين بالاستهزاء بالله. وبكتاب الله. وبأنبيائه. وبنبيّنا صلى الله عليه وسلم. قيل منهم ثلاثون عدلاً. فجلس له ابن طالب، وأحضر له العلماء، يحيى بن عمرو وغيره. وأمر بقتله فطعن بسكين في حنجرته. وصلب منكساً. ثم أنزل بعد ذلك، وأحرق بالنار. فحكى بعضهم: أنه لما رفعت خشبته، وزالت عنها الأيدي، استدارت، وتحولت عن القبة.

فكانت آية للجميع. فكبّر الناس. وجاء كلب فولغ في دمه. فقال يحيى بن عمر: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأسند حديثاً عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال: لا يلغ الكلب في دم المسلم.

أيها الإخوة!

مجرد الاستهزاء بآيات الله وأحاديث وسنة رسول الله كفر، انتبه أيها الحبيب اللبيب من قصد السخرية أو لم يقصدها جاداً كان أو مازحاً، بعض الناس يقول: أنا أمزح، أضحك هذا كفر سماه الله كذلك مع أنهم قالوا إنما كنا نخوض ونلعب فقال الله تعالى: "قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ".

قال الإمام أبو بكر ابن العربي –رحمه الله تعالى–: "لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مَا قَالُوهُ مِنْ ذَلِكَ جِدًّا أَوْ هَزْلًا، وَهُوَ كَيْفَمَا كَانَ كُفْرٌ ؛ فَإِنَّ الْهَزْلَ بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، لَا خُلْفَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، فَإِنَّ التَّحْقِيقَ أَخُو الْحَقِّ وَالْعِلْمِ، وَالْهَزْلَ أَخُو الْبَاطِلِ وَالْجَهْلِ".(٩٧٧)

---

(٩٧٦) تفسير ابن كثير – (٤ / ١٧٢).

(٩٧٧) أحكام القرآن لابن العربي – (٤ / ٣٥٣)

انتبهوا أحبتي! فبعض الناس يسخر من اللحية أو من رفع الثوب إلى ما فوق الكعبين وهذه سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابته عنه أو يسخر بآيات من القرآن أو أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أو يعمل شيئاً من الدين مازحاً وساخراً بهذا العمل إلى غير ذلك مما هو من الشريعة وهذا الشخص يعلم أنها من الشريعة لها أدلة عن الله وعن رسول الله ﷺ فهذا كفر بعد الإيمان نعوذ بالله من الخذلان.

ومن الاستهزاء بالدين –أيها الإخوة– : "سب الدين أو الخالق أو النبي بصيغ اللعن أو الشتم أو التنقص.

ومن الاستهزاء بالدين: إلقاء النكات التي يُذْكَرُ فيها الله أو آياته أو رسوله أو أحاديثه ولو كانت ضعيفة لكن من يذكرها يعتقد أنها صحيحة أو الغيبيات من جنة ونار وقبر وملائكة، ولا نحتاج أن نمثل لهذه النكات فكلنا يعرفها بل وبعضنا يرددها.

ومن الاستهزاء بالدين: السخرية والاستهزاء من المتمسكين بشرع الله بسبب تمسكهم، فمثلا"التهكم بالملتحي بسبب لحيته ومن المحجبة لحجابها ومن المقصر لثوبه لذلك".

ومن الاستهزاء بالدين: وصف آيات الله أو شرعه بالنقص أو أن هناك غيره أكمل منه، مثل: "وصف حد من حدود الله بالقسوة، أو التخلف أو الرجعية أو أن شرع الله لا ينفع اليوم".

ومن الاستهزاء بالدين: ذكر آية من القرآن أو حديث النبي صلى الله عليه وسلم أو أي شئ من الدين فى معرض السخرية أو لإضحاك الآخرين.

ومن الاستهزاء بالدين: الأغاني والأفلام والمسرحيات والقصص والكاريكتير التي يُذْكَرُ فيها الاستهزاء بآيات القرآن أو أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أو المتمسكين بالدين مثل" قدر أحمق الخطا وغيرها مما جرى مجراها – ومن ذلك أيضا الروايات التي فيها سب لله وللقرآن وللنبى تصريحا أو تعريضا وإيماء"(٩٧٨)

قالوا العروبة، قلت دين محمد إنّا به لا بالعروبة نهتدي

هي قالب الإسلام إمّا أفرغت منه فقد صارت مطيّة ملحد

يا من يريد الجاهلية منهجًا يدعو إليه ويا لسوء المورد

أيقال إنّك نابه متقدّم كذبوا عليك... لقد نصحتك فاقعد

بل أنت في رجعية مذمومة وتقهقر نحو المتاه الأبعد

(٩٧٨) تحذير المسلمين من السب والاستهزاء بالدين (ص / ٣٩) أبو عبد الرحمن المصريُّ.

ومن الاستهزاء بالدين: الاستهزاء بالعلماء والدعاة والخطباء سواء كان قاصداً علمهم أو شخصهم فهو محرم بل لو قصد علمهم لكان كافراً والله نهى عن السخرية من الشخص العادي وجعلها محرمة وعدها من كبائر الذنوب فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)[الحجرات: ١١].

وقال المصطفى ﷺ: "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"(٩٧٩) فإذا كانت هذه هي حرمة السخرية من المسلم عامة فما بالنا بالسخرية بحملة الشرع والمبلغين لدين الله من العلماء والخطباء والدعاة ومن التزم بالشرع في مخبره ومظهره؟ فمن سخر بالعالم وبالصفات التي اكتسبها من شريعة رب العالمين –عز وجل– دخل فى حكم المستهزئ بدين الله ولله در من قال:إياك ولحوم العلماء واعراضهم فإن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله فى هتك أستار منتقصيهم معلومة فمن أعمل لسانه فى العلماء بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب فالله الله فى لحوم العلماء وأعراضهم

ومن الاستهزاء بالدين –أيها الإخوة– : ما نراه ونسمعه من استخفاف بالشرع وعدم تعظيمه الذي وصل ببعض الناس إلى أن يجترئوا على أن يتلفظوا بهذه الكلمة الصعبة الثقيلة ثقل الجبال ألا وهي سب الدين بسباب فظيعة، سباب للدين واستهزاء بالشرع المبين واستهزاء وسخرية من حملة الدين كل هذا نراه ونسمعه ونعيشه وكأن هؤلاء المستهزئين ليسوا مسلمين حتى يفعلوا هذا كله وفي فتوى من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء أجاب العلماء بأن مثل سب الدين والاستهزاء بشيء من القرآن والسنة والاستهزاء بالمتمسك بهما نظرا لما تمسك به كإعفاء اللحية وتحجب المسلمة؛ هذا كفر إذا صدر من مكلف، وينبغي أن يبين له أن هذا كفر فإن أصر بعد العلم فهو كافر، قال الله تعالى سورة التوبة الآية ٦٥ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ سورة التوبة الآية ٦٦ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ.

فإذا تبين لنا ذلك "فالواجب على المسلمين– جميعًا –أن يحذروا من مزالق الكلام لأن كثيرين يتكلمون بكلام لا يلقون له بالا، ربما استهزءوا، أو ربما تكلموا بكلام فيه شيء من الهزل، وفيه شيء من الضحك، وكان في أثناء هذا الكلام ذكر الله، أو فيه قراءة القرآن، أو فيه ذكر بعض العلم، وهذا مما لا يجوز وقد يدخل أحدهم في قول النبي ﷺ: «إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفًا»(٩٨٠)نسأل الله السلامة والعافية."(٩٨١)

"فالله الله –أيها الإخوة– في اللسان فإنه أعظم الجوارح خطرًا وقد يتساهل به أكثر الناس فإن هذا مردوده خطر وقد عظمت الفتنة، والمعصوم من عصمه الله، والناجي من سلمه الله.

---

(٩٧٩) أخرجه مسلم (٦٧٠٦).

(٩٨٠) أخرجه الترمذي (٢٣١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٠)، وصححه الألباني في صحيحيهما.

(٩٨١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (٢ / ١٨٧).

فعلى كل طالبٍ للنجاة الحذر من النفاق الأكبر، فإن الله أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه. فليخش كل امرئ على نفسه من النفاق فمن خشى سلم ومن خاف نجا إن شاء الله وهذه عادة أهل العلم بالله قال ابن أبي مليكه: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه. نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

فليحفظ كل كيِّس لسانه عن الوقيعة بالمسلمين عموما ولو كانوا من العوام، لأن هذا لا يجوز ؛ لأن المسلم له حُرمة فكيف بحرمة أهل العلم والإسلام؟! فالطعن في هؤلاء – وهم حراس الشرع والعقيدة – يُحْدِث الخَلْخَلَة في المجتمع الإسلامي، ويقلل من قيمة العلماء، ويُحْدِث التشكيك فيهم ومن ثم يزهد الناس فيهم".[٩٨٢]

فما هي يا ترى الأسباب التي تؤدي بالمسلم إلى هذه الهوة العميقة من ضياع الإيمان واضمحلاله حتى يسب الله ورسوله ويستهزئ بالمؤمنين والعلماء وحملة الدين:

إن العبد لا يُقْدِمُ على هذا الفعل إلا وقد سبق منه ما يقتضى عقوبته من الله، فكما أن العبد يأتي بالأسباب التى يوفقه الله –عز وجل– إلى الهداية بها، فإنه يأتي بالأسباب التي تُوجِبُ إضلال الله له، قال الله –عز وجل–: "نسوا الله فنسيهم"، وقال: "فلما أزاغوا أزاغ الله قلوبهم"، وقال"فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه"

ومما انتشر من الأسباب المؤدية الى هذه الظاهرة الخطيره ظاهرة سب الدين والاستهزاء بأحكامه، من الدوافع الموجِبَة للوقوع فى مثل هذه الأقوال المخْرِجَة من الدين:

١ – إعراض المسلم عن دين الله فلا يتعلمه ولا يَسْأَلُ عنه من أمر ونهى وحلال وحرام.

٢ – الاعتقاد بأن دين الله لم يَعُدْ صالحا لمواكبة تطورات العصر ورميه بالجمود والتخلف.

٣ – التحاكم إلى القوانين الوضعية في شئون الحياة وترك التحاكم إلى شرع الله.

٤ – عدم اعتقاد كفر اليهود والنصاري وكل من كَفَّرَهُ الله ورسوله أو شك في كفرهم كمن يقول"لا فرق بين الاسلام وغيره من الديانات"، أو صَحَّحَ المذاهب الكافرة كالعلمانية والاشتراكية بأن يقول: "إن فصل الدين عن الدولة هو السبيل لتقدم الأمة".

٥ – موالاة الكافرين موالاة كاملة ومودتهم وإعانتهم فى حربهم على المسلمين.

---

(٩٨٢) عون العلي الحميد (١/ ٢٨٧).

٦ – إنكار معلوم من الدين بالضرورة أو استحلال ما حرم الله ورسوله كالربا والزنا بعد العلم بحرمتها وإقامة الحجة.

٧ – ترك الصلوات الخمس كلية.

٨ – الوقوع في الكبائر والإصرار عليها وعدم التوبة منها خاصة"الزنا والربا والخمر والمخدرات".

والآن –أيها الإخوة– وأنا أتحدث إلى حضراتكم تحضرني الخشية والهيبة أني أتحدث إليكم أنتم بهذا الكلام وأنتم المتوضئون المصلون الراكعون الساجدون، لكن لابد من بيان حكم الله –عز وجل–، وإذا كنتم –أيها الإخوة– بهذه الأوصاف الطيبة أبعد ما يكون عن الاستهزاء بالدين والسخرية منه وسبه وشتمه فلا شك أنكم تعرفون هؤلاء وتلقونهم فتأمرونهم بالمعروف وتنهونهم عن المنكر وتجتنبون مجلسهم وهذه واجباتكم فقد قال الله تعالى { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا }.

قال العلامة السعدي –رحمه الله تعالى–: أي: وقد بيَّن الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي { أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا } أي: يستهان بها. وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم { حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

{ إِنَّكُمْ إِذًا } أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة { مِثْلُهُمْ } لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلسا يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها.

{ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } كما اجتمعوا على الكفر والموالاة ولا ينفع الكافرين (١)مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى: { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ } إلى آخر الآيات. [٩٨٣].

---

(٩٨٣) تفسير السعدي (ص ١٩٢، وما بعدها).

-أيها الإخوة- إن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها هو أولى مراحل الهزيمة وليس كما يزعم بعض من لا يعلم شيئاً عن الله ورسوله أن مجالسة هؤلاء المستهزئين هي من باب التسامح أو من باب سعة الصدر، لا بل هي علامة غفلة وهي أولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى.. يسمي ذلك تسامحاً، أو يسميه دهاء، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيماناً بحرية الرأي!!! وهي هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله؛ وهو يموه على نفسه في أول الطريق، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان!

إن الحمية لله، ولدين الله، ولآيات الله. هي آية الإيمان. وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد؛ وينزاح بعدها كل حاجز، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار. وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمداً. ثم تهمد. ثم تخمد. ثم تموت!

فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس، فإما أن يدفع، وإما أن يقاطع المجلس وأهله. فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة. وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق! [٩٨٤]

إن موقف المسلم -أيها الإخوة- من هؤلاء المجالسين يجب أن يكون موقف المقاطعة والقطيعة في آن واحد فهو لا يجالسهم ولا يستمع إليهم ويقاطعهم فلا يصادقهم بل يعاديهم كما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم... الآية. يقول الإمام ابن جرير -رحمه الله تعالى- في هذه الآية يقول سبحانه: لا تتخذوهم، أيها المؤمنون، أنصارًا أو إخوانًا أو حُلفاء، فإنهم لا يألونكم خَبَالا وإن أظهروا لكم مودّة وصداقة[٩٨٥]

ويقول صاحب التحرير والتنوير -رحمه الله-: هذا تحذير من موالاة أهل الكتاب ليظهر تميّز المسلمين. وهذه الآية تحذير من موالاة اليهود والمشركين الّذين بالمدينة، ولا مدخل للنصارى فيها، إذ لم يكن في المدينة نصارى فيهزأوا بالدّين. وقد عدل عن لفظ اليهود إلى الموصول والصلة وهي { الّذين اتّخذوا دينَكم هزؤاً } الخ لما في الصلة من الإيمان إلى تعليل موجب النّهي.

والدّين هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة، فهو عنوان عقل المتديّن ورائدُ آماله وباعث أعماله، فالذي يتخذ دين امرىء هزُؤاً فقد اتّخذ ذلك المتديِّن هزؤاً ورمَقه بعين الاحتقار، إذ عَدّ أعظَمَ شيء عنده سخرية، فما دون ذلك أوْلى. والّذي يَرمُق بهذا الاعتبار ليس جديراً بالموالاة، لأنّ شرط الموالاة التماثل في التّفكير، ولأنّ الاستهزاء والاستخفاف احتقار، والمودّة تستدعي تعظيم الودود. [٩٨٦]

---

(٩٨٤) الظلال (٢/ ٧٨٠، وما بعدها).

(٩٨٥) تفسير الطبري - (١٠ / ٤٢٩).

(٩٨٦) التحرير والتنوير - (٤ / ٢٢٩).

أيها الإخوة إن للاستهزاء والسخرية من دين الله وترك المتطاولين عليه هكذا يجترئون عليه آثاره الوخيمة على الأمة في العقائد والعبادات والأخلاق.

وأخبروني بالله عليكم ألم يزل الله دولة كسرى ملك الفرس بسبب استهزائه برسول الله ﷺ قال شيخ الإسلام في بيان ذلك: وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر أكرم كتاب النبي صلى الله عليه و سلم وأكرم رسوله فثبت ملكه فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم وكسرى مزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للأكاسرة ملك وهذا والله أعلم تحقيق لقوله تعالى: {إن شانئك هو الأبتر} [الكوثر: ٣] فكل من شنأه وأبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره و يمحق عينه وأثره وقد قيل: إنها نزلت في العاص بن وائل أو في عقبة بن أبي معيط أو في كعب بن الأشرف وقد رأينا صنيع الله بهم ومن الكلام السائر [لحوم العلماء مسمومة] فكيف بلحوم الأنبياء عليهم السلام؟ [٩٨٧]

وينقل شيخ الإسلام في نفس المصدر كتابه الصارم المسلول على شاتم الرسول عن أهل العلم والخبرة ممن كانوا في الحروب والثغور في قتال أعداء الله يقول: "حدثنا أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا قالوا: كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس إذ تعرض أهله لسب رسول الله صلى الله عليه و سلم والوقيعة في عرضه فعجلنا فتحه وتيسر ولم يكد يتأخر إلا يومًا أو يومين أو نحو ذلك ثم يفتح المكان عنوة ويكون فيهم ملحمة عظيمة قالوا: حتى إن كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه ﷺ مع امتلاء القلوب غيظًا بما قالوه فيه، وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل الغرب حالهم (هكذا) مع النصارى"[٩٨٨] فهل بعد هذا تنتقل هذه العادة الكافرة إلى كثير من المسلمين يسبون دين الله ودين النبي وهم الذين يبكون في الوقت نفسه لأن النبي يسبه الكافرون من النرويجيين والدانماركيين وغيرهم إنها لمفارقة عجيبة والحق أقول: إن الكافرين ما أساءوا إلى النبي إلا لما اجترأنا نحن عليه، هان علينا فرأوا ذلك منا فراحوا يستخفون به ويستهزئون.

وللحديث صلة هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

---

(٩٨٧) الصارم المسلول – (ص / ١٧١) بتصرف.

(٩٨٨) نفسه (ص / ١٢٣) بتصرف.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

إياكم والسخرية بالدين وشعائره والعاملين به والداعين إليه ومن كان كذلك فلا تجالسوه، ونذكر من فرّط وداهن وسارع في اتخاذ هؤلاء الساخرين المستهزئين بدين الله أولياء وأنصاراً وأصدقاء يوادونهم من دون المؤمنين، إلى هؤلاء همسة رقيقة شفيقة أسوقها إلى قلوبهم قبل الآذان من محب رفيق ووالد رحيم هو العلامة السعدي -رحمه الله- بأن هذا التفريط في مجالسة المستهزئين دليل على أن الإسلام عند من جالس هؤلاء رخيص وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحمق؟! وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم. [٩٨٩]

وصدق الله تعالى إذ يقول: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين".

والآن -أيها الإخوة-! وقد فهمت العقول ووعت القلوب ما أصلنا وعادت الخواطر خواطر السامعين لكلامي الآن إلى سالف ما كان منها من الذنوب وربما أن بعض هذه الذنوب يكون مما حكينا من الاستهزاء بالدين وأهله، وكذا بعض من يسمع هذا الكلام من حضراتكم إذا بلغتموه بذلك، ربما يكون وقع في بعضها، والكل سيتساءل حتمًا هل من توبة هل من توبة قبل الموت من سب الله رب العالمين والاستهزاء بدينه وشرعه؟

والجواب: اعلم – هداني الله وإياك – أن الله يقبل التوبة عن عبده وإن كان مشركا أو مرتدا عن الإسلام بل كما أخبر النبي أن الله يفرح بتوبة العبد، فمن رحمته تعالى أن فتح باب التوبة لكل العصاة ويقبلهم إذا عادوا إليه وأنابوا جاء في بعض الإسرائيليات صحيحة المعنى أن شابًّا من بني إسرائيل أطاع الله تعالى عشرين سنة ثم انتكس فعصى مثلها ويوما من الأيام رأى صورته في المرآة فرأى الشيب غزا شعره وأمارات العجز قد بدت في وجهه فصاح بلسان وجده: إلهي وخالقي أطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين مثلها أفإن تبت اليوم تقبلني؟ فسمع هاتفًا يقول: أطعتنا فقربناك، وعصيتنا فأمهلناك، ولو عدت إلينا ثانية قبلناك وما رددناك.

فالله تعالى يقبل على من أقبل عليه ويتوب على من تاب إليه وذلك بشروط التوبة المعروفة ونوجزها فيما يلي:

- أولًا: الإخلاص لله بالتوبة بحيث يكون الحامل عليها تقوى الله، والخوف من عقابه، ورجاء ثوابه لا رياء ولا خوفا من مخلوق ولا لينال أمرًا من أمور الدنيا.

---

(٩٨٩) تفسير السعدي (ص ٢٢٢).

- ثانيًا: الندم بحيث يجد في نفسه حسرة وحزنًا على ما مضى.

- ثالثًا: الإقلاع عن الذنب وعدم الإصرار عليه فإن كان الذنب بترك واجب فعله وإن كان بإتيان محرم أقلع عنه، وفي مسألتنا هنا هي الإقلاع عن سب الله ورسوله ودينه والاستهزاء بشئ من ذلك، وإعلان البراءة التامة منه في الأماكن التي ردد وسمع وأعلن فيها بالاستهزاء والكلام السيء في حق دين رب الأرض والسماء.

- رابعًا: العزم على عدم العودة إلى سب الله ورسوله ودينه في المستقبل.

- خامسًا: أن تكون التوبة قبل الموت. [٩٩٠]

فمن تاب إلى الله - وحقق هذه الشروط - تاب الله عليه واقرأ معي الآيات: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)وقال عِكْرِمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم، إني أسمع آية أنا أعنَى بها، تقشعر منها الجلود، وتجب منها القلوب، اللهم، فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسّلت، أنا كفنت، أنا دفنت، قال قتادة: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره. [٩٩١]

ف-رحمه الله تعالى- كان قبل هذه الحادثة من المنافقين الفجار فآل أمره بعدها إلى أن صار من المتقين الأبرار وهو الصحابي مخشن بن حمير الذي تسمى بعد هذا بعبد الرحمن ومات شهيدًا وغدًا يلقى الله حميدًا.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل تقاته وخشيته وأن يقوي إيماننا به إنه خير مسئول اللهم عظم دينك وكتابك ورسولك وسنة رسولك في قلوب عبادك اللهم اجعل وفاتنا شهادة في سبيلك واجعل موتتنا في بلد رسولك وتوفنا على الإيمان وأنت راضٍ عنا بمنك وكرمك يا أكرم من سئل...... الدعاء.

(٩٩٠) تحذير المسلمين من السب والاستهزاء بالدين - (ص/ ٤٦) أبو عبدالرحمن المصريُّ.

(٩٩١) تفسير الطبري - (١٤ / ٣٣٤)، تفسير ابن كثير - (٤ / ١٧٢).

إن الله هو السلام

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فيا أيها الإخوة فقد تحدثنا في لقاء سابق عن تعظيم أسماء الله الحسنى وتبجيل صفاته العلى وأن نقدرها حق قدرها متعلمين لمعانيها متفقهين في مسائلها متعبدين الله –تبارك وتعالى– بها بدعوته سبحانه بها والتوسل إليه بها وتقديمها بين يدي سؤالاتنا منه وطلباتنا إليه ولنضرب المثل –أيها الإخوة– في هذا اللقاء باسم من أسمائه تعالى ما أحوجنا إلى التعرف إلى معناه والتدبر لآثاره ألا وهو اسم الله"السلام"فما معنى السلام؟ وما معنى السلام من الله لعباده؟ وما علاقة ذلك بقولنا سلام الله عليكم أو السلام عليكم؟ وهل يسلم على كل أحد، فهل يجوز أن نقول في حق الله السلام على الله؟ كل هذه الأسئلة سوف نجيب عنها في هذه الدقائق الآتية نسأل الله أن يبارك لنا فيها وأن يستخرج منا خلالها ما يرضيه.

أيها الإخوة.. ما معنى السلام؟

السلام في اللغة مصدر استعمل اسماً للموصوف، فعله سلم يسلم سلاماً وسلامة، والسلامة الأمن والأمان والحصانة والاطمئنان، والبراءة من كل آفة ظاهرة وباطنة، ومادة السلام تدل على الخلاص والنجاة من كل مكروه وعيب. [٩٩٢]

هذا هو تعريف السلام كما عند أهل اللغة.

وأما اسم الله السلام فمعناه: أنه هو الذي سلم مما لا يليق به من الأنداد والنقائص والآفات والعيوب، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأقواله، وقضائه، وقدره، وشرعه، بل شرعه كله حكمة، ورحمة، ومصلحة وعدل، فله سبحانه الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته.

فهو الذي سَلِمَ في ذاته بنوره وجلاله فمن جماله وسبحات وجهه احتجب عن خلقه رحمة بهم وابتلاء لهم روى مسلم من حديث أبي موسى –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"(٩٩٣)، وهو الذي سلم في صفاته بكمالها وعلو شأنها، وسلم أيضاً في أفعاله بإطلاق قدرته وإنفاذ مشيئته، وكمال عدله وبالغ حكمته، وهو سبحانه الذي يدعو عباده إلى السلامة وإفشاء السلام فأثنى على عباده في

(٩٩٢) انظر معاجم اللغة مادة (سلم).

(٩٩٣) أخرجه مسلم (١٧٩).

قوله: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً"[الفرقان: ٦٣]، وهو الذي يدعو إلى سبل السلام باتباع منهج الإسلام كما قال: "يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام"[المائدة: ١٦]، وهو سبحانه الذي يدعو عباده إلى دار السلام ويبلغ من استجاب منهم إليها فقال: "والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم". [يونس: ٢٥]، فكل سلامة منشأها منه وتمامها عليه ونسبتها إليه.

ومعنى اسم الله السلام أيضاً أنه هو المسلم على عباده في الجنة فهو جل شأنه السلام ومنه السلام، روى مسلم من حديث ثوبان رضي اله عنه مرفوعاً: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام"[٩٩٤]، وهو الذي سلم أهل الجنة من كل ما ينغص عيشهم أو يكدر صفوهم، وجعل السلام أيضاً من قوله لهم، قال تعالى: "لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون"[الأنعام: ١٢٧]، وقال تعالى: "إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون (٥٥)هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون (٥٦)لهم فيها فاكهة ولهم فيها ما يدعون (٥٧)سلام قولاً من رب رحيم (٥٨)"[يس].

واسم الله السلام معناه أنه هو الذي سلم الخلق من ظلمه، فهو الذي تنزه عن الظلم، وهو الذي سلم من عذابه من لا يستحقه ؛ أي سلم خلقه ممن لا يعصيه من ظلمه.

قال تعالى: "من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد".

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن الله –تبارك وتعالى– أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي إنكم [الذين] تخطئون بالليل والنهار، وأنا الذي أغفر الذنوب ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلى من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم لم يزد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم ما سأل لم ينقص ذلك من ملكي [شيئا] إلا كما ينقص البحر أن يغمس المخيط فيه غمسة واحدة، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله –عز وجل–، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه". [٩٩٥]

---

(٩٩٤) أخرجه مسلم (٥٩٢)

(٩٩٥) أخرجه مسلم ٦٧٣٧.

واسم الله السلام معناه: أنه هو سبحانه السالم من مماثلة أحد من خلقه، ومن النقص، ومن كل ما ينافي كماله"ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".

فهذا ضابط ما ينزه عنه، ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثيل، أو شبيه أو كفؤ، أو سمي، أو ند، أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها.

ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له، فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة. كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن السوء، ظن غير ما يليق بجلاله، وإذا قال العبد مثنياً على ربه: "سبحان الله"أو"تقدس الله"أو"تعالى الله"ونحوها كان مثنياً عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

وباسم السلام سمى ربنا نفسه في قوله تعالى: "هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام"[الحشر: ٢٣].

أيها الإخوة.. إن الله هو السلام وتلك معاني اسمه هذا فكيف نتتعبد الله –عز وجل– بهذا الاسم المبارك؟ إذ كل أثر في هذا الكون للسلام هو من الله –تبارك وتعالى– وأن كل سلامة في الدين أو الدنيا فإنها لكون الله –عز وجل– هو السلام وهو الذي يفيض السلامة على عباده وهو الذي وقاهم كل أنواع الأذية فكيف نتعبد الله تعالى بهذا الاسم الجليل أيها الكرام والجواب في نقاط:

أولاً: بالدعاء بالاسم دعاء مسألة.

روى مسلم من حديث ثوبان –رضي الله عنه– أنه قال: "كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام".

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: "فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم"[٩٩٦]، وعند مسلم من حديث حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: "ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً".[٩٩٧]

(٩٩٦) أخرجه البخاري (٢/٢٣٣ – ٢٣٤) والسياق له، ومسلم (١/١١٢ – ١١٤).

(٩٩٧) أخرجه مسلم ٥٠٣.

وأخرج الترمذي بسند صحيح من حديث طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: "اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله". [٩٩٨]

ثانياً: الدعاء بالاسم دعاء عبادة:

فإن أثر الإيمان بتوحيد الله في اسمه السلام أن يكف المسلم نفسه عن إخوانه فيسلموا من أذيته ويحرص على جيرانه وقرابته، روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٩٩٩]وروى البخاري من حديث أبي شريح -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوايقه".[١٠٠٠]

ثالثاً: بالثناء على الله تعالى لأنه -عز وجل- هو السلام بكثرة ذكر آثار هذا الاسم العظيم في الكون:

رابعاً: بالتسمي بالاسم وباحترامه، ومن عرف ما يخرج علينا بين الحين والحين من دعايات وإعلانات الإعلام أدرك قيمة هذا التنبيه،

خامسًا: بأن يفشي المسلم السلام بين العباد، ويلتزم بتحية الإسلام، فيا أيها الإخوة! أفشوا السلام بينكم روى الطبراني بسند صحيح من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: "السلام اسم من أسماء الله فافشوه بينكم"، وفي رواية فيها بشرى جميلة لكل مسلم ومسلمة يحافظ على شعيرة السلام المباركة في رواية أن النبي ﷺ قال: إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه في الأرض فأفشوا السلام بينكم، فإن الرجل المسلم إذا مر بقوم فسلم عليهم فردوا عليه ؛ كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام، فإن لم يردوا عليه ؛ رد عليه من هو خير منهم [وأطيب[١٠٠١]]. [١٠٠٢]

وعند البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال:

---

(٩٩٨) أخرجه الترمذي ٣٤٥١، وهو في الصحيحة (١٨١٦)، الكلم الطيب (١٦١ / ١١٤).

(٩٩٩) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ١٧١.

(١٠٠٠) أخرجه البخاري ٦٠١٦.

(١٠٠١) الروض النضير ١٠٧٥ و ٤٥٧ / ٢، والصحيحة ١٦٠٧.

(١٠٠٢) الصحيحة ١٨٤.

السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن".(١٠٠٣)

أيها الإخوة! أفشوا السلام بينكم فإن ديننا الإسلامي قد حثنا على إفشاء السلام بيننا، وأخبرنا أنه سبب في زيادة المحبة فيما بيننا، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم"، وفي رواية أخرى: "والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا..."(١٠٠٤)

قال الإمام النووي –رحمه الله–: "قوله: "أفشوا السلام بينكم"، وفيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم، من عرفت ومن لم تعرف. (١٠٠٥)

أيها الإخوة! أفشوا السلام بينكم فالسلام سبب التآلف ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين، وقد ذكر البخاري –رحمه الله– في صحيحه عن عمار بن ياسر –رضي الله عنه– أنه قال: "ثلاث من جمعن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار"(١٠٠٦)

وروى غير البخاري هذا الكلام مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وبذل السلام للعالم والسلام على من عرفت ومن لم تعرف وإفشاء السلام كلها بمعنى واحد، وفيها لطيفة أخرى وهي أنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلام الله لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه به، فعلى المسلم إذا مر بأخيه المسلم أو قدم إلى مجلس هو فيه عليه أن يسلم عليه.

ومن المؤسف أن يحرم المسلم نفسه من الخير بعدم بذله للسلام على إخوانه المسلمين، سواء كانوا في المسجد أو خارج المسجد، فتجده يمر بك ولا يسلم عليك، أو يدخل المسجد ولا يسلم على من فيه، فيحرم نفسه من أجر عظيم في إلقاء السلام.

نسأل الله أن يوفقنا للخير وأن يلهمنا رشدنا، وأن يجعلنا إخوة متحابين متآلفين، وأن يجنبنا المحن والفتن ما ظهر منها وما بطن.

(١٠٠٣) أخرجه البخاري ٦٢٢٧ ومسلم ٧٣٤٢.

(١٠٠٤) أخرجه مسلم ٢٠٣.

(١٠٠٥) شرح النووي على مسلم – (١ / ١٤٣).

(١٠٠٦) أخرجه البخاري موقوفا على عمار باب إِفْشَاءُ السَّلاَمِ مِنَ الإِسْلاَمِ.

وأستأذنكم -أيها الإخوة- أن نشير إلى جمل من الحديث عن السلام نتناول فيها شيئاً من آداب هذه الشعيرة الغالية.

فما معنى "السلام عليكم" أيها الكرام؟ السلام هو تحية المؤمنين عباد الله بين بعضهم البعض في الدنيا والآخرة، فهل نحن ندرك معناها؟ مع الأسف تجد كثيرًا من المسلمين يقولونها وهم لا يعون معناها، أليس من العيب أن ينطق المرء بكلام وهو لا يتبين معناه؟! ولا نبالغ إذا قلنا: إن ذلك من العار، بل ليس من أخلاق المسلمين أن يتكلموا بكلام لا يعرفون معناه أو بكلام لأنه لا يفهمه قد ينقضه بقول أو فعل. والآن خذ الجواب: "فقول القائل: السلام عليكم يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه تبرك باسم الله السلام، ودعاء لأخيك بالسلامة في الدين وفي الدنيا.

والثاني: السلام عليكم أي: كل سلامة عليكم مني ولن تجد مني إلا السلامة، فلن أُخفرك في غرضك ولن أُخفرك في مالك ولن أخفرك في نفسك ونحو ذلك". [١٠٠٧]

فيا أيها الإخوة! أفشوا السلام بينكم فإن من أراد القرب من الله تعالى فعليه بإفشاء السلام، فعن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام". [١٠٠٨]والحديث أخرجه أبو داود بإسناد جيد، وأخرجه الترمذي عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قيل يا رسول الله، الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام، قال أولاهما بالله تعالى.[١٠٠٩]

وهناك -أيها الإخوة-! سنن مهجورة في باب السلام رحم الله من حرص عليها وأحياها

ومن هذه السنن نذكر ما يلي أولًا: استحباب إعادة السلام على من تكرر لقاؤه من قرب بأن دخل ثم خرج ثم دخل في الحال، أو كاثنين حالت بينهما شجرة ونحوها.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- في حديث المسيء صلاته أنه جاء فصلى ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: "ارجع فصل فإنك لم تصل"فرجع فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ وسلم حتى فعل ذلك ثلاث مرات"[١٠١٠]

(١٠٠٧) عون العلي الحميد ()، بتصرف.

(١٠٠٨) أخرجه أبو داود ٥١٩٧، وصححه الألباني الكلم الطيب (١٩٨)، المشكاة (٤٦٤٦)، صحيح الكلم الطيب، الطبعة الجديدة الصفحة (٧٢).

(١٠٠٩) أخرجه الترمذي ٢٦٩٤، وصححه الألباني المشكاة (٤٦٤٦)، تخريج الكلم الطيب (١٩٨).

(١٠١٠) أخرجه البخاري ٧٥٧، ومسلم ٩١١.

ثانيًا: السلام عند القيام من المجلس كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في"الأدب المفرد": "إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فيسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة".(١٠١١)

قال العلامة الألباني -رحمه الله-: و السلام عند القيام من المجلس أدب متروك في بعض البلاد، و أحق من يقوم بإحيائه هم أهل العلم و طلابه، فينبغي لهم إذا دخلوا على الطلاب في غرفة الدرس مثلا أن يسلموا، و كذلك إذا خرجوا، فليست الأولى بأحق من الأخرى[١٠١٢]

ثالثًا: من هذه السنن المهجورة في السلام الرد على من قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته بأفضل منها بأن يقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته، تحقيقًا لقوله تعالى: { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا}، وقد دلت السنة على ذلك فقد أخرج ابن السني من حديث أنس قال"كان رجل يمر فيقول السلام عليك يا رسول الله فيقول له وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه".

وأخرج البيهقي في"الشعب"من حديث زيد بن أرقم"كنا إذا سلم علينا النبي صلى الله عليه وسلم قلنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته"

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وهذه الأحاديث الضعيفة إذا انضمت قوي ما اجتمعت عليه من مشروعية الزيادة على وبركاته. (١٠١٣)

قلت: لكن قد صح بعض هذه الأحاديث وهو حديث: [كنا إذا سلم النبي صلى الله عليه و سلم علينا قلنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته]. صححه العلامة الألباني في الصحيحة.[١٠١٤] فثبتت المشروعية والحمد لله رب العالمين.

فهذه - أيها الإخوة- ثلاث سنن مهجورات جعلنا الله ممن يحييها فيحيي الله بذلك قلوبنا.

(١٠١١) أخرجه البخاري في"الأدب المفرد"(١٠٠٧ و ١٠٠٨) و أبو داود (٥٢٠٨) و الترمذي (٢ / ١١٨) وهو في الصحيحة ١ / ٣٠٦.

(١٠١٢)"السلسلة الصحيحة"١ / ٣٠٦.

(١٠١٣) فتح الباري لابن حجر - (١٧ / ٤٤٤).

(١٠١٤) الصحيحة ١٤٤٩.

رابعًا: سنة السلام على المصلي فإذا دخلت المسجد وليس فيه أحد إلا رجلًا قائمًا يصلي فيستحب السلام عليه وهو يرد إشارة بيده، فقد كان المسلمون يلقون السلام على النبي ﷺ وهو في الصلاة وكان يرد عليهم بالإشارة ؛ فعن ابن عمر عن صهيب أنه قال: مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت، فرد إليَّ إشارة. (١٠١٥)

وفي الجملة – أيها الإخوة – ينبغي على المسلم أن يسلك سبيل السلام التي تؤدي إلى دار السلام قال الله –عز وجل–: "يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم"[المائدة: ١٦]، وقال: "والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"[يونس: ٢٥]

وللحديث بقية بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

إن لاسم الله السلام أعظم الآثار في الأنفس والآفاق قال ابن القيم –رحمه الله تعالى– في اسم (السلام): [الله] أحق بهذا الاسم من كل مسمى به، لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجه فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة، فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه، ونزهه به رسوله. فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلى إفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها، فحياته سلام من الموت ومن السِّنة والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عرض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غني عن كل ما سواه،

(١٠١٥) أخرجه الخمسة إلا ابن ماجه، وصححه الترمذي، وصححه الألباني، انظر صحيح سنن الترمذي (٣٠١)، وفي رواية لمسلم عن جابر: (فسلمت عليه، فأشار إلي).وانظر: صحيح أبي داود (٨٥٨).

وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه، وإلاهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلماً، أو تشفياً أو غلظة، أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء في مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء كما يستحقه على إحسانه، وثوابه، ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضاً لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من عدله، وحكمته، وعزته، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه الجاهلون به من خلاف حكمته.

وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم، ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة.

وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته بل شرعه كله حكمة، ورحمة، ومصلحة، وعدل، وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطي.

ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز.

واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاجاً إليه وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة بشيء به –سبحانه وتعالى–، بل كان سبحانه ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما.

ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصوراً في شيء، تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله.

وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل، وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة، وخير، وإحسان، وبر كما قال: "وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل.

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها.

وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه –تبارك وتعالى–. وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني والله المستعان. (١٠١٦)

أيها الإخوة ومن معاني اسم الله السلام: أنه هو المسلم لعباده من الآفات والبليات، ولذلك لا يقال السلام على الله لأن هذا دعاء والله الغني عن العباد وليس بحاجة سبحانه إلى دعاء الناس فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

وإنما المشروع هو تعظيمه وتقديسه سبحانه والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال روى البخاري ومسلم عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فليقل التحيات لله والصلوات الطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله ثم ليتخير من الكلام ما شاء. (١٠١٧)

ففي هذا الحديث –أيها الإخوة– : تفسير السلام، وأنه تحية ودعاء وأنه لا يصلح لله، لأنه يوهم نقص الله –عز وجل–، لأن فيه عيبًا والله –عز وجل– هو الغني عن العباد، وهم كلهم محتاجون إليه، فله تعالىالكمال المطلق، ولأنه خالف الحقيقة فالله –جل وعلا– يُدعى ولا يُدعى له، لأنه هو المسلِّم على عباده الذي يعطي السلام لجميع العباد وهو الغني عن العالمين، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ فهو السلام ومنه السلام، لا إله غيره ولا رب سواه.(١٠١٨)

ولذلك قالت اللبيبة الأربية الفطنة الكاملة خديجة رضي الله عنها لما نقل إليها النبي ﷺ ربها إليها كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ.

وزاد النسائي كما في سننه الكبرى، أنها قالت: إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. (١٠١٩) وهذا من فقهها رحمها الله ورضي عنها، أنها لم تقل: السلام على الله.

(١٠١٦) بدائع الفوائد – (٢ / ٣٦٤).

(١٠١٧) أخرجه البخاري ٨٣٥، مسلم ٩٢٤.

(١٠١٨) انظر: شرح كتاب التوحيد (٢٤٠) للعلامة ابن باز.

(١٠١٩) السنن الكبرى (٨٣٥٩)، (١٠٢٠٨).

وصدق المصطفى: كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ ".(١٠٢٠)

نسأل الله أن يفقهنا في الدين وأن يعلمنا أسماءه وأن يلقي علينا وعلى بلادنا السلام ونسأله سبحانه أن يوفقنا للخير، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يجعلنا إخوة متحابين متآلفين، وأن يجنبنا المحن والفتن ما ظهر منها وما بطن..................الدعاء.

(١٠٢٠) أخرجه البخاري (٣٤١١)، (٣٤٣٣) ومسلم (٢٤٣١).

جنة الدنيا: الإيمان بالقدر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فيا أيها الإخوة! لا يتم إيمان عبد حتى يجمع في إيمانه ذاك ستة أركان هي تلك التي أوضحها النبي ﷺ في حديثه الجامع العظيم الذي جمع خير الدنيا والآخرة وكان بمثابة الفهرس للدين كله وذلك هو حديث جبريل وأحب -أيها الإخوة- أن أسوق الحديث بتمامه ، فإن جزء الحديث الأول ربما لم يسمعه كثير منا قبل هذا، وأيضًا فإن حديثنا اليوم يتعلق بهذا الجزء، والحديث أخرجه مسلم من حديث يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِى الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِىُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِىُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِى الْقَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِى أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِى سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَىَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّى بَرِىءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّى وَالَّذِى يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ قَالَ حَدَّثَنِى أَبِى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِى عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ فَأَخْبِرْنِى عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ فَأَخْبِرْنِى عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِى الْبُنْيَانِ». قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِى «يَا عُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ». قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».(١٠٢١)

هذا الحديث أيها الإخوة هو الدين كله فينبغي على كل مسلم أن يحفظه ويفهم معناه، ويهمنا منه الآن الشاهد بأن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان بالله -تبارك وتعالى-، فلا يتم إيمان عبد حتى يجتمع إلى إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله

(١٠٢١) أخرجه مسلم ١٠٢.

واليوم الآخر الإيمان بالقدر فما معنى الإيمان بالقدر؟ وما أهميته؟ وما مراتبه؟ وما فوائده؟ وكيف يوقن العبد بالقدر؟ وما هي منافيات الإيمان بالقدر؟

أيها الإخوة.. معنى الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن الله تعالى"علم مقادير الأشياء وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه فلا محدث في العالم العلوي والسفلي إلا هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته".[١٠٢٢] هذا هو معنى الإيمان بالقدر –أيها الإخوة– فلابد وأن يوقن العبد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وما لم يكن قد شاء الله أن لا يكون ولله در الشافعي إذ يقول:

فما شِئتَ كان وإن لم أشأوما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ

خلقتَ العباد على ما علمتَ ففي العلم يجري الفتى والمسِنْ

على ذا مننتَ وهذا خذلتَ وهذا أعنتَ وهذا لَمْ تُعِنْ

فمنهم شقي ومنهم سعيدومنهم قبيح ومنهم حَسنْ

فعلى كل موحد أن يؤمن بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميعَ أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، ((فأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة))، فما أصاب الإنسانَ لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف، كما قال –سبحانه وتعالى–: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّ ذالِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذالِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج:٧٠] وقال: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد:٢٢].

وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملةً وتفصيلاً، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ونحو ذلك. فعند ربنا سبحانه العلم بذلك كله من قبل أن يخلق الخلق ويوجده.

(١٠٢٢) تيسير العزيز الحميد (ص ٥٩٥).

وعلى الموحد أن يؤمن بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلاّ بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلاّ ما يريد، وأنه –سبحانه وتعالى– على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

ومن طريف ما قرأت ما ذكره العلامة الحميدي في كتابه جذوة المقتبس عن الأستاذ المعروف بابن البشتني من آل الوزير أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفى، عن الوزير أبيه –رحمه الله–: أنه كان بين يدي المنصور أبي عامر، محمد بن أبي عامر في بعض مجالسه للعامة، فرفعت إليه رقعة استعطاف لأم رجل مسجون كان ابن أبي عامر حنقاً عليه لجرم استعظمه منه، فلما قرأها اشتد غضبه، وقال: ذكرتني والله به! وأخذ القلم يوقع، وأراد أن يكتب: يصلب، فكتب: يطلق، ورمي الكتاب إلى الوزير، قال: فأخذ أبوك القلم، وتناول رقعة وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرط، فقال له ابن أبي عامر ما هذا الذي تكتب؟ قال: بإطلاق فلان، قال: فحرد وقال: من أمر بهذا؟ فناوله التوقيع، فلما رآه قال: وهمت، والله ليصلبن، ثم خط على ما كتب، وأراد أن يكتب: يصلب، فكتب: يطلق، قال: فأخذ والدك الرقعة، فلما رأى التوقيع تمادى على ما بدأ به من الأمر بإطلاقه، ونظر إليه المنصور متمادياً على الكتاب، فقال: ما تكتب؟ قال: بإطلاق الرجل، فغضب غضباً أشد من الأول، وقال: من أمر بهذا؟ فناوله الرقعة، فرأى خطه، فخط على ما كتب، وأراد أن يكتب: يصلب، فكتب: يطلق، فأخذ والدك الكتاب، فنظر ما وقع به، ثم تمادى فيما كان بدأ به، فقال له: ماذا تكتب؟ فقال: بإطلاق الرجل، وهذا الخط ثالثاً بذلك، فلما رآه عجب، وقال: نعم يطلق على رغمى، فمن أراد الله إطلاقه، لا أقدر أنا على منعه، [١٠٢٣]

أيها الإخوة! نظرت امرأة يومًا إلى زوجها الذي غاب مدة عنها فإذا هو مبيض العارضين شاب شعره فتعجبت وقالت متسائلة: ما الذي حدث لك بعدي شيب شعرك وحوله من أسود إلى أبيض؟ فأجاب على البديهة قائلًا:

نظرت مبيض فودَيّ فبكت ثم قالت: ما الذي بعدي عراه

قُلتُ: هَذي صِبغةُ الله، وَمَن يصبغ الأسود مبيضا سواه[١٠٢٤]

فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلاّ والله سبحانه خالقه، فلا خالق غيره ولا رب سواه. ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته، والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ

(١٠٢٣)جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – (ص / ٤٦).

(١٠٢٤)(الفود) جانب الرأس مما يلي الأذن والشعر النابت فوقه وهما فودان ويقال حل الشيب بفوديه ولفلان فودان إذا كان له ضفيرتان والجمع أفواد، عراه الداء والأمر عروا ألم به وأصابه.

والفاجر، والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة؛ والله خالقهم، وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:٢٨-٢٩].

فهذه – أحبتي – أربع مراتبٌ:

الأولى: العلم.

الثانية: الكتابة.

الثالثة: المشيئة.

الرابعة: الخلق والتكوين.

فأما مرتبة العلم فهي كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِى لاَ اله إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الحشر:٢٢].

فهو سبحانه عالم بالسرّ والعلانية في الدنيا والآخرة، وعالم بكل الأشياء المعدوم منها والموجود".

وأما مرتبة الكتابة فهي كما قال تعالى: {لَّوْلاَ كِتَابٌ مّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٦٨].

قال العلامة ابن سعدي: "{لَّوْلاَ كِتَابٌ مّنَ اللَّهِ سَبَقَ} به القضاء والقدر، أنه أحلّ لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم . أيتها الأمة . العذاب، {لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}".

فكل شيء عنده سبحانه مسطور في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض وكل شيء.

روى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة))، قال: ((وكان عرشه على الماء)). (١٠٢٥)

قال النووي: "قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير فإن ذلك أزلي لا أول له، وقوله ((وعرشه على الماء))أي: قبل خلقه السموات والأرض".

(١٠٢٥) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

أما مرتبة المشيئة فهي كما قال الله تعالى: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:٢٨، ٢٩].

قال الإمام القرطبي: "فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرًا إلا بتوفيق الله، ولا شرًا إلا بخذلانه، وقال الحسن: والله، ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها، وقال وهب بن منبه: قرأت في سبعة وثمانين كتابا مما أنزل الله على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر.قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْء قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ} [الأنعام:١١١]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ} [يونس:١٠٠]

قال الحافظ ابن كثير: "أي: ليست المشيئة موكولةً إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين، قال سفيان الثوري عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى: لما نزلت هذه الآية: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: {وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}".

وعن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا دعوتم الله فاعزموا في الدعاء، ولا يقولن أحدكم: إن شئت فأعطني، فإن الله لا مستكره له)).[١٠٢٦]

قال الحافظ ابن حجر: "قوله: ((لا مستكره له))أي: لأن التعليق يوهم إمكان إعطائه على غير المشيئة، وليس بعد المشيئة إلا الإكراه، والله لا مكره له".

هذا وقد بوّب الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد"باب: في المشيئة والإرادة"، قال ابن بطال: "معنى هذا الباب: إثبات المشيئة والإرادة لله تعالى".

وأما مرتبة الخلق فهي كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات:٩٥-٩٦].

وعن حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا عبد الله بن قيس، ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنة؟))فقلت: بلى يا رسول الله، قال: ((قل: لا حول ولا وقوة إلا بالله)).[١٠٢٧]

(١٠٢٦) أخرجه البخاري (٧٤٦٤)، ومسلم (٦٩٨٧).

(١٠٢٧) أخرجه البخاري (٦٦١٠) ومسلم (٢٧٠٤).

قال النووي في بيان سبب كون هذه الكلمة كنزا من كنوز الجنة: "قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له، وأنه لا صانع غيره، ولا رادّ لأمره، وإن العبد لا يملك شيئاً من الأمر". [١٠٢٨]

تلك أربعة كاملة -أيها الإخوة- العلم والكتابة والمشيئة والخلق فمن آمن بهذه المراتب فقد آمن بالقدر، ومن كذب بشيء منها فقد كذب بالقدر. وصدق المصطفى ﷺ إذ يقول كما في حديث ابن عباس الذي قال فيه: "كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمًا فَقَالَ «يَا غُلاَمُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».[١٠٢٩]

وهذا الإيمان -أيها الإخوة- -كما قدمنا- واجب فلا يتم توحيد العبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره فإنكار القدر كفر بالله تعالى وينافي أصل توحيد الله -عز وجل- كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر فهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

فقد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الإيمان بالقدر أحد أركانه وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ الله لم يكن فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة.

قال الله تعالى: "إنا كل شيء خلقناه بقدر". وقال تعالى: "وخلق كل شيء فقدره تقديراً".

وقال ﷺ: كما في البخاري قال قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابن مسعود: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَهْوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[١٠٣٠]

ثم إن الأمة بأسرها من مئات بل آلاف الملايين من أمة محمد ﷺ من علماء وحكماء وصالحين وغيرهم مؤمنين بقضاء الله تعالى وقدره وحكمته ومشيئته وبأن كل سبق به علمه وجرى به قدره وقلمه يكون كما قدر وأنه لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأن القلم جرى بمقادير كل شيء إلى قيام الساعة كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره وصححه العلامة

(١٠٢٨) الإيمان بالقضاء والقدر.

(١٠٢٩) أخرجه أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٣٢٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٣٠٢)، ظلال الجنة (٣١٦ - ٣١٨).

(١٠٣٠) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم ٦٨٩٣.

الألباني من حديث عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة. يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني». [١٠٣١]

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم. فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة». [١٠٣٢]

بل إن النار –أيها الإخوة– واجبة لمن لم يؤمن بالقدر ففي رواية لابن وهب في هذا الحديث: أن النبي ﷺ قال: "فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار بل في المسند والسنن عن ابن الديلمي والحديث صححه الألباني عن ابن الديلمي قال: "أتيت أبي بن كعب فقلت: في نفسي شئ من القدر فحدثني بشئ لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ"[١٠٣٣]

فمن لم يؤمن بالقدر عمله حابط ذاهب لا يثاب عليه ولا يؤجر بل ومع ذلك يدخل النار، لأنه كذب الله ورسوله والنبي ﷺ منه براء وأستطرد فأقول: تأمل أخي هذه النكتة اللطيفة في حال هذا التابعي الجليل: كيف جالت الشبهة في صدره فأسرع من فوره إلى العلماء يسألهم ليزيلها، فزالت بعلم عن الله ورسوله، وهذا من بركة العلم وأهله والجد في طلب الحق فوا أسفاه على الكسالى.

الشاهد –أيها الإخوة– أن الإيمان بالقدر من واجبات أصل التوحيد الذي لا يتم الإيمان إلا به والقدر بعد هذا كله له ثمرات يانعة وقطوف مثمرة وحصاد حلو شهي من حقق القدر كان في جنة في الدنيا قبل الآخرة، ومن ثمرات الإيمان بالقدر نحيط بهذه النقاط على وجه السرعة نسأل الله أن يذيقنا حلاوة الإيمان به.

(١٠٣١) أخرجه أبو داود ٤٧٠٠، وصححه الألباني في الطحاوية (٢٣٢) // (٢٧١) //، المشكاة (٩٤)، وظلال الجنة (١٠٢ – ١٠٧). وجاء من حديث ابن عباس: أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٧٨).

(١٠٣٢) أخرجه أحمد ٥ / ٣١٧، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(١٠٣٣) أخرجه أحمد ٥ / ١٨٢ و ١٨٥ و ١٨٩، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧) وصححه الألباني في الظلال (١٤٥)، المشكاة (١١٥)، شرح الطحاوية (٦٢٩).

فمن ثمرات الإيمان بالقدر –أيها الإخوة– : أن يعرف الإنسان قدر نفسه فلا يتكبَّر ولا يتبطر ولا يتعالى أبدًا ؛ لأنه عاجز عن معرفة المقدور، ومستقبل ما هو حادث، ومن ثمّ يقر الإنسان بعجزه وحاجته إلى ربه تعالى دائمًا. وهذا من أسرار خفاء المقدور.(١٠٣٤)

ومن ثمرات الإيمان بالقدر: أنه يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ؛ لأنه سبحانه هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم أنه حين يحسد غيره إنما يعترض على المقدور. وهكذا فالمؤمن يسعى لعمل الخير، ويحب للناس ما يحب لنفسه، فإن وصل إلى ما يصبو إليه حمد الله وشكره على نعمه، وإن لم يصل إلى شيء من ذلك صبر ولم يجزع، ولم يحقد على غيره ممن نال من الفضل ما لم ينله ؛ لأن الله هو الذي يقسم الأرزاق فيعطي ويمنع، وكل ذلك ابتلاء وامتحان منه — سبحانه وتعالى— لخلقه. (١٠٣٥)

ومن هذه الأمراض التى يقضى عليها الإيمان بالقدر –أيها الإخوة– الأمراض التي تفتك الآن بالأعصاب– وأمراض الأعصاب– كما نعلم– أخطر بكثير من الأمراض العضوية– فمن آمن بالقدر لم يتنغص عيشه أبداً ومن أحسن ما قاله إبراهيم الحربي: من لم يؤمن بالقدر لم يتهن بعيشة وهذا صحيح فما تعاظمت المصائب في القلوب وضاقت بها الأنفس وحرجت بها الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر.

ومن ثمرات الإيمان بالقدر: الثبات والشجاعة والجرأة، ومن ثم لما ثبتت هذه العقيدة ورسخت في قلوب أصحاب النبي ﷺ والسلف الصالحين ثبتوا في ساحات القتال وميادين البطولة، لأنهم حين اعتقدوها ما عادوا يخافون الموت، لأنهم يوقنون أن الآجال محدودة لا تتقدم ولا تتأخر لحظة واحدة حتى حق لخالد بن الوليد يومًا أن يقول في بعض من هؤلاء المؤمنين بالقدر لأعدائه: "لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"فالإيمان بالقدر يملأ قلب صاحبه شجاعةً وإقدامًا، ويُفْرِغُه من كل خور وجبن ؛ لأن المؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت قبل يومه، ولن يصيبه إلا ما كُتب له، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروه فلن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له.

يقول الشاعر يصف أصحاب النبي:

بدو من الصحراء أذوى عودهم   فقر وأوهنهم حياة الجلمد

(١٠٣٤) انظر: لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغايتها: د. محمد أمين المصري ص ١٨٦ — الطبعة الثالثة ١٩٧٤م — دار الفكر — وانظر: مجموعة بحوث فقهية ص ٢٤١.

(١٠٣٥) انظر: لمحات في وسائل التربية الإسلامية: محمد أمين المصري ص ١٧٨، وانظر: الإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر: للشيخ أحمد عزالدين البيانوني ص ١٤٤ — ١٤٥ مكتبة الهدى، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ.

يطأون كسرى بالنعال وقيصرا ويقوضون دعائم المتمرد

طاحوا بملك الروم في جذوته وبملك كسرى في ثناه المطرد

راعوا الملوك فطأطأوا هاماتهم وداهوا الشعوب فلم تقف أو تصمد

يا دهر إنهم جند محمد وهم ضرام فؤاده المتفرد

وهم يد الإسلام تصفع من جنى وتدك عرش الظالم المستعبد

ساروا على نهج الرسول ونوره فهم سجود الليل فرسان الغد

لو أننا سرنا على آثارهم ما روع الأوطان عصف المعتدي(١٠٣٦)

ومن ثمرات الإيمان بالقدر: رضا العبد وقناعته بما آتاه الله، ومما يُنسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب – -رضي الله عنه- – قوله:

رأيت القناعة كنز الغنى فصرت بأذيالها مُمْتَسك

فلا ذا يراني على بابه ولا ذا يراني به منهمك

وصرت غنيًّا بلا درهمٍ أمُرُّ على الناس شبه الملك(١٠٣٧)

وقال الثعالبي: «ومن أحسن ما سمعت في القناعة قول ابن طباطبا:

كن بما أوتيته مقتنعاً تَسْتَدِم عسر القنوع المكتفي

إن في نيل المنى وشْكَ الردى وهلاك المرء في ذا السرف

(١٠٣٦) من قصيدة للشاعر محمد طلبة من الشعراء المعاصرين المجيدين وانظر شيئا من شعره في كتابي: خفقات قلب – السيرة الذاتية لفضيلة الشيخ محمد عبد السميع صقر وصاحب السيرة من خيرة من أنجبتهم محافظة الغربية بمصر أذوى حياته في خدمة المسلمين ابتغاء رضوان الله فكانت حياته مثالا تطبيقيا للمسلم الحق في خدمة مجتمعه وبلده، حفلت بكافة أعمال الخير وشتى صنوف المعروف مما تعجز الكلمات عن تتبع آثاره وتقدير فضل أفيائه وظلاله، ولد في ٢٢/٦/ ١٩٢٧م، وتوفي فجر يوم الثلاثاء ١٧ من ذي الحجة ١٤٢٦ هـ الموافق ١٧/ ١/ ٢٠٠٦ م بقرية نشيل مركز قطور محافظة الغربية.

(١٠٣٧) ديوان الإمام الشافعي، ص ٢٧.

ومن ثمرات الإيمان بالقدر أنه يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة، فهو دائم الاستعانة بالله، يعتمد على الله ويتوكل عليه مع فعل الأسباب، وهو أيضًا دائم الافتقار إلى ربه – تعالى – يستمد منه العون على الثبات، ويطلب منه المزيد، وهو أيضًا كريم يحب الإحسان إلى الآخرين، فتجده يعطف عليهم.

والإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن أيضًا الانكسار والاعتراف لله – تعالى – حين يقع منه الذنب، ومن ثم يطلب من الله العفو والمغفرة، ولا يحتج بالقدر على ذنوبه، وإن كانت مقدرة عليه؛ لأنه يعلم أن الاحتجاج باطل ومنهي عنه ومخالف لمقتضى الشرع.[١٠٣٨]

فلسان حال المؤمن بالقدر:

الهدى في دربي وفي هدفي　　　وأظل أمضي غير مضطرب

ما كنت من نفسي على خور　　　وما كنت من ربي على ريب

ما في المنايا ما أحاذره　　　الله ملء القصد والأرب

ومن ثمرات الإيمان بالقدر: الإخلاص فالإيمان بالقدر يحمل صاحبه على الإخلاص، فيكون الباعث له في جميع أعماله امتثال أمر الله ؛ ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم أن الأمر أمر الله، وأن الملك ملكه، وأن ما شاءه الله كان، وما لم يشأه لم يكن، لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، فيقوده ذلك إلى إخلاص العمل لله، وتصفيته من كل شائبة تشوبه؛ لأن الحامل على عدم الإخلاص أو قِلَّته مراءاةُ الناس، أو طلب التزيُّن في قلوبهم، أو طلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم أو محبتهم، أو نحو ذلك من الشوائب والعلل التي يجمعها إرادة ما سوى الله في العمل.[١٠٣٩]

فإذا أيقن العبد أن هذه الأمور لا تُنال إلا بتقدير الله – –عز وجل– – وأن الناس ليس لهم من الأمر شيء في أنفسهم ولا في غيرهم – لم يعد يبالي بالناس، ولم يَسْعَ إلى إرضائهم بسخط الله، فينقاد إلى إيثار الحق على الخلق، وإلى الإخلاص والتفريد، بعيدًا عن كل رياء وتنديد.

ومن هنا ينال فضيلة الإخلاص وأكرم بها من فضيلة ؛ فالإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقيَ للفلاح، وهو الذي يحمل الإنسان على مواصلة عمل الخير، وهو الذي يجعل في عزم الرجل متانة، ويربط على قلبه، فيمضي حتى يبلغ الغاية.

(١٠٣٨) انظر: مجموعة بحوث فقهية: بحث: الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سلوك الإنسان للدكتور عبد الكريم زيدان ص ٢٤٠ – ٢٤٤.

(١٠٣٩) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٩٣.

ومن ثمرات الإيمان بالقدر سكون القلب وطمأنينة النفس، وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقدر، وهي داخلة في كثير مما مضى ذكره من الثمرات، وهي مطلب مُلِحٌّ، وهدف منشود، وغاية مُبْتَغاةٌ ؛ فكل من في الأرض يبتغيها، ويبحث عنها، ويسعى لها سعيها، ولكن كما قيل:

كل من في الوجود يطلب صيدًا   غير أن الشباك مختلفاتِ

فلا يدرك هذه الأمور، ولا يجد حلاوتها، ولا يعلم ثمراتها – إلا من آمن بالله وقضائه وقدره ؛ فالمؤمن بالقدر ساكن القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، لايفكر كثيرًا في احتمال الشر، ثم إن وقع لم يَطِرْ له قلبه شعاعًا، بل يتحمل ذلك بثبات وصبر؛ إن مرض لم يضاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف حدته؛ فمن الحكمة ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر. بل يسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت قابلها بشجاعة واعتدال.

وإنك لتجد عند خواصِّ المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين من سكون القلب وطمأنينة النفس مالا يخطر ببال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال ؛ فلهم في ذلك الشأن القِدْحُ المعلى، والنصيب الأوفى.

فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز – رحمه الله ورضي الله عنه– يقول: "أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر".[١٠٤٠]

وهذا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد ابن تيمية – رحمه الله تعالى – يقول: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة".[١٠٤١]، ويقول مقولته المشهورة عندما زُجَّ به في غياهب السجن: "ما يصنع أعدائي بي ؛ أنا جنتي وبستاني في صدري ؛ أين رُحْت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة"[١٠٤٢]

وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة وأستغفر الله لي ولكم.

(١٠٤٠) جامع العلوم والحكم لابن رجب: ٢٨٧/١.

(١٠٤١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم: ص ٦٩.

(١٠٤٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ٤٠٢/٢.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فالزم أيها الموحد حصن الإيمان بالقضاء والقدر ؛ فالله – جل وعلا – لطيف بعباده يريد بهم اليسر، وإنه حكيم خبير يدِّخر لأهل التوحيد في الآخرة أجرهم وافيا بغير حساب. ومن امتلأ قلبه بهذه الحقيقة ينقلب حزن المصيبة وكمدها إلى سرور وسعادة.

ورحم الله القائل:

كنز القناعة لا يخشى عليه ولا يحتاج فيه إلى الحراس والدول[١٠٤٣].

لكن كثيراً من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله قد أضاعوا هذه العقيدة الثمينة الغالية ومواقفهم ليل نهار تناقض هذه العقيدة الواجبة والفريضة الحتمية اللازمة.

فمن المسلمين من يبيع دينه لأجل رزقه ومادته ووظيفته ودوامه ظناً منه أن هذا كله بيد عبد أو مخلوق ولا يدري المسكين أنه والمادة والمخلوق جميعاً بيد الله تعالى.

ومن المسلمين من يسخط على الله لأجل أن الله قدر عليه مصيبة من المصائب في الأنفس أو الأموال أو الثمرات فلا ترى إلا كلمات السخط والكراهية.

ومن المسلمين من يقع به الشيء من الأشياء مما يحمده أو لا يحمده فإذا هو فيما يحمد يود لو كان زيادة وما لا يحمد يتسخطه وفي كلّ: "يقول: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا مع أن المصطفى ﷺ قد نهانا عن استعمال هذه الكلمة.

لكنك ترى المريض إذا عولج عند طبيب ثم مات يقول أهله لو ذهبنا به إلى طبيب آخر أو سافرنا لعلاجه بالخارج ما مات، مع أن الواجب عليهم أن يقولوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ولا يعترضوا بهذه الكلمة.

(١٠٤٣) عنصر ثمرات الإيمان بالقدر مأخوذ عن "الإيمان بالقضاء والقدر" محمد بن إبراهيم الحمد نقلًا من عون العلي الحميد (شرح باب ما جاء في منكري القدر)، ثم إني تصرفت فيها ملخصًا ومنقصًا ومقدمًا ومؤخرًا ومزيدًا ومفردًا.

وترى التاجر يصاب في تجارته فيقول: لو كنت فعلت كذا لما كانت هذه الخسارة في حين أن الواجب عليه الصبر على المصيبة وأن يرضى بفعل الله ولا يتسخط.

ذلك لأن استعمال كلمة"لو"ونحوها يضعف القلب ويجعله متعلقاً بالأسباب موقناً بها لا بالمسبب ولو علق قلبه بالله لرضي وأرضاه الله. (١٠٤٤)

ورحم الله من قال: كن عن همومك معرضا وكل الأمور إلى القضا

وانعم بطول سلامة تسليك عما قد مضى

فلربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا

الله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضا

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أنني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».(١٠٤٥)

أيها الإخوة! إن التحسر على الماضي وكلما حدث أمر قال العبد لو كان كذا وكذا يضعف قلبه وعزمه ويجعله متعلقًا بالأسباب موقنًا بها لا بمسبب الأسباب جل جلاله وهذه همة المنافقين وهذا من خصالهم التي حكاها القرآن الكريم عنهم كما قال –عز وجل–: يقولون لو كان لنا من الأمر شيئ.

وقال تعالى: "الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) [آل عمران : ١٦٨]

ويكفي هذا دلالة على حرمة هذه الكلمة أو على الأقل استحباب الابتعاد عنها حتى لا يشابه المسلم المنافقين في بعض صفاتهم لكنها حرام ولذا أمر ﷺ بالحرص على ما ينفع المسلم مستعينًا بالله تعالى ثم نهاه عما يفتح عمل الشيطان ويؤثر في سلامة التوحيد وإخلاصه لله –عز وجل–.

وقد يقول قائل فطن لقن: إن الشرع قد استعمل هذه الكلمة" لو" في مواضع ووردت عن بعض الصحابة فكيف تقول بحرمتها يقصد هذا الأخ الكريم النابه والمستمع المدقق أن النبي ﷺ وقعت هذه الكلمة منه في بعض المواطن منها قوله ﷺ:

(١٠٤٤) عون العلي الحميد (٢/ ٣٨٠)، بتصرف.

(١٠٤٥) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

"لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى ولأحللت معكم"[١٠٤٦]وهذا في حجة الوداع كما في حديث جابر الذي أخرجه مسلم.

وكما قالت عائشة رضي الله عنها بعد وفاة رسول الله ﷺ: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله إلا نساؤه. [١٠٤٧]

ومنه أيضاً الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري أن النبي ﷺ قال: ""إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِى مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ».[١٠٤٨]

وفي رحلة الهجرة قال الصديق للحبيب ﷺ وهما في الغار: "لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه".[١٠٤٩]

وهذا صحيح كله –أيها الإخوة– لكنه لا يلغى حكم الحرمة عما نبهنا عليه من السخط على القدر فقد قال العلماء: إن استعمال كلمة لو في الكلام إذا كان على غير سبيل التحسر والندم والعتاب على النفس دون التفات إلى القدر يعنى إذا كان في إخبار وليس في معارضة القدر فهذا جائز وكذلك في تمني الخير كما في حديث أبي كبشة ولذلك قال النبي ﷺ: فهو بنيته فهما في الوزر سواء أي جوزي على قدر هذه النية.

فاستعمال "لو" تفصيلاً يكون بحسب الحامل عليها فتجوز إذا كانت للإخبار عن أمر وتستحب إن كانت لتمني الخير وتحرم إذا كانت اعتراضًا على أمر شرعى أو على القدر جزعًا وتسخطا على أمر الله فليصبر المرء على ما أصابه فإن ذلك من عزم الأمور وموجبات مغفرة العزيز الغفور وليتب الى الله مما عساه يكون وقع فيه من الذنوب فإنه سبحانه تواب ستير نسأل الله تعالى أن يجعل ما قلناه زادًا إلى حسن المسير اليه وعتادًا ليمن القدوم عليه إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١٠٤٦) أخرجه البخاري (١٦٥١) ومسلم (١٢١٨).

(١٠٤٧) أخرجه أبو داود (٢ / ٦٠) وابن الجارود في"المنتقى"(٢٥٧)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص ٤٩.

(١٠٤٨) أخرجه الترمذي ٢٣٢٥، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني ، انظر حديث: ٣٠٢٤ في صحيح الجامع.

(١٠٤٩) أخرجه البخاري (٢٨١٠) ومسلم (١٩٠٤).

فاللهم قدر لنا الخير ورضنا بقضائك حتى لا نحب تأخير ما عجلت ولا تعجيل ما أخرت، اللهم ألق في قلوبنا يقينًا لا يزول ورسخ فى نفوسنا إيمانًا لا يحول، اللهم إنا نسألك إيمانا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد ومرافقة نبيك محمد فى أعلى جنان الخلد... الدعاء.

واحفظوا أيمانكم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وصلِّ يا رب على خير الورى *** ما صدحت قُمْرية على الذرى

والآل والأزواج والأصحاب *** والتابعين من أولي الألباب

أما بعد فيا أيها الإخوة، أمر الله –تبارك وتعالى– عباده أن يحفظوا أيمانهم فقال جل جلاله: "واحفظوا أيمانكم" وحفظ الأيمان يشمل خمسة معان:

الأول: أن لا يحلف الإنسان بالله –عز وجل– بكثرة فهذا نقص في توحيد العبد وإيمانه، لأن كثرة الحلف تفضي إلى التساهل في الحلف بالله وعدم المبالاة وأيضاً تفضي إلى الكذب ومن كثرت أيمانه ظنت به الظنون فلذلك ينبغي على العاقل ما لم يكن مغلوباً على أمره أن لا يحلف ولذلك قال ربنا سبحانه: "واحفظوا أيمانكم" قال ابن عباس: "واحفظوا أيمانكم" أي: لا تحلفوا.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: "ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس"، قالت: لا تحلفوا بالله وإن بررتم.(١٠٥٠)

فالحذر الحذر من كثرة الحلف بالله وإن صدقًا، هذا هو المعنى الأول.

والمعنى الثاني: "واحفظوا أيمانكم" أي إذا حلفتم فلا تحنثوا ولا توقعوا أيمانكم وكثرة الحنث في اليمين لازمة لكثرة الحلف فمن كثر حلفه أكثر حنثه ولا شك، والحنث في اليمين يدل على الاستخفاف وعدم التعظيم لله –جل وعلا– وهذا ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه قال بعض المفسرين كما نقل ذلك ابن جرير في تفسيره: "واحفظوا أيمانكم"أي: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا.

فالحذر الحذر من الحنث في اليمين فإن حلفت فلا تحنث، اللهم إلا إذا كان الأمر الذي حلف عليه المرء يمنعه من خير يفعله أو ما شابه ذلك من واجب عليه أو مستحب فهذا يكفر عن يمينه ويعود فيأتي الخير الذي حلف ألا يفعله كما في الحديث الذي أخرجه الشيخان من حديث عبد الرحمن بن سمرة أن النبي ﷺ قال له: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ

(١٠٥٠) تفسير الطبري – (٤ / ٤٢٣).

الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ». [(١٠٥١)]

وهذا هو معنى الآية التي في سورة البقرة وهي قوله تعالى: "ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس" فليس معناها كما يتوهم كثير من الناس لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم": لا تكثروا الحلف بالله، وإنما معناها: لا تجعلوا أيمانكم وحلفكم بالله مانعة لكم من البر وصلة الرحم وفعل الخير إذا حلفتم على تركها كما قال تعالى: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)[النور: ٢٢]

يقول الحافظ ابن كثير: وهذه الآية نزلت في الصدِّيق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث. فلما أنزل الله براءةَ أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على مَن كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على مَن أقيم عليه -شَرَع -تبارك وتعالى-، وله الفضل والمنة، يعطفُ الصدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر، رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَة تاب الله عليه منها، وضُرب الحد عليها. وكان الصديق، رضي الله عنه، معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: { أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب -يا ربنا -أن تغفر لنا. ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق [-رضي الله عنه- وعن بنته].[(١٠٥٢)]

فالمعنى الثاني المقصود من حفظ اليمين في قوله تعالى: "واحفظوا أيمانكم": إذا حلفتم فلا تحنثوا في أيمانكم.

والمعنى الثالث لقوله تعالى: "واحفظوا أيمانكم" أي إذا حلفتم وحنثتم فكفروا عن حنثكم ولا تتركوا أيمانكم بغير كفارة قال ابن جرير الطبري: "واحفظوا أيمانكم" أي: لا تتركوها بغير تكفير".[(١٠٥٣)]

إذاً -أيها الإخوة- فمن تمام تعظيم الخالق سبحانه أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف وعن الحنث فيه وعن ترك الكفارة إذا حنث في اليمين.

(١٠٥١) أخرجه البخاري ٦٦٢٢، ومسلم ٤٣٦٠.

(١٠٥٢) تفسير ابن كثير - (٦ / ٣١).

(١٠٥٣) نفسه (٣ / ١٧٧).

وكفارة اليمين أوضحها الله -تبارك وتعالى- في كتابه بقوله -عز وجل-: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) [المائدة: ٨٩]

فالكفارة على التخيير بين ثلاث: الإطعام أو الكسوة أو تحرير رقبة فمن لم يجد يصير إلى الصيام وبعض الناس يصير مباشرة إلى الصيام وإن كان واجدًا للإطعام فهذا ما كفر عن يمينه ولا زال يحتاج إلى أن يعود فيكفر عنها، فلا ينتقل إلى الصيام إلا بعد العجز عن الإطعام أو الكسوة.

وقد تتناول الآية نوعا رابعا من حفظ اليمين وهو حفظ اليمين من الكذب فيها فإن

ومن عظيم وجليل ما قرأت في عقوبة الحلف الكاذب التي يعاقب بها صاحبها في الدنيا ما رواه النسائي بسند صحيح عن ابن عباس قال أول قسامة كانت في الجاهلية كان رجل من بني هاشم استأجر رجلا من قريش من فخذ أحدهم قال فانطلق معه في إبله فمر به رجل من بني هاشم قد انقطعت عروة جوالقه فقال أغثني بعقال أشد به عروة جوالقي لا تنفر الإبل فأعطاه عقالا يشد به عروة جوالقه فلما نزلوا وعقلت الإبل إلا بعيرا واحدا فقال الذي استأجره ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل قال ليس له عقال قال فأين عقاله قال مر بي رجل من بني هاشم قد انقطعت عروة جوالقه فاستغاثني فقال أغثني بعقال أشد به عروة جوالقي لا تنفر الإبل فأعطيته عقالا فحذفه بعصا كان فيها أجله فمر به رجل من أهل اليمن فقال أتشهد الموسم قال ما أشهد وربما شهدت قال هل أنت مبلغ عني رسالة مرة من الدهر قال نعم قال إذا شهدت الموسم فناد يا آل قريش فإذا أجابوك فناد يا آل هاشم فإذا أجابوك فسل عن أبي طالب فأخبره أن فلانا قتلني في عقال ومات المستأجر فلما قدم الذي استأجره أتاه أبو طالب فقال ما فعل صاحبنا قال مرض فأحسنت القيام عليه ثم مات فنزلت فدفنته فقال كان ذا أهل ذاك منك فمكث حينا ثم إن الرجل اليماني الذي كان أوصى إليه أن يبلغ عنه وافى الموسم قال يا آل قريش قالوا هذه قريش قال يا آل بني هاشم قالوا هذه بنو هاشم قال أين أبو طالب قال هذا أبو طالب قال أمرني فلان أن أبلغك رسالة أن فلانا قتله في عقال فأتاه أبو طالب فقال اختر منا إحدى ثلاث إن شئت أن تؤدي مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا خطأ وإن شئت يحلف خمسون من قومك أنك لم تقتله فإن أبيت قتلناك به فأتى قومه فذكر ذلك لهم فقالوا نحلف فأتته امرأة من بني هاشم كانت تحت رجل منهم قد ولدت له فقالت يا أبا طالب أحب أن تجيز ابني هذا برجل من الخمسين ولا تصبر يمينه ففعل فأتاه رجل منهم فقال يا أبا طالب أردت خمسين رجلا أن يحلفوا مكان مائة من الإبل يصيب كل رجل بعيران فهذان بعيران فاقبلهما عني ولا تصبر يميني حيث تصبر الأيمان

فقبلهما وجاء ثمانية وأربعون رجلا حلفوا قال ابن عباس فوالذي نفسي بيده ما حال الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف . (١٠٥٤)

وقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

ومن أعظم أنواع حفظ اليمين التي تتناولها هذه الآية – وهو المعنى الخامس لحفظ اليمين- ألا يحلف العبد بغير الله لأن من حلف بغير الله فقد أشرك وسأزيد هذا النوع بياناً وإيضاحاً بعد قليل.

لكن ربما يقول قائل -أيها الإخوة- وهل الحلف بلا سبب فيه شيء إن المرء ليحلف تأكيداً على كلامه وأنا أقول: إن التأكيد يكون في موضعه محموداً وذلك إن أتى في الكلام المراد تأكيده في حال يستدعي ذلك التأكيد، أما أن يؤتى بالحلف دومًا هكذا لسبب وبدون سبب فهذا ما يجعل الاستخفاف باسم الله تعالى يقع وعدم المبالاة والواجب تعظيم رب الأرباب وعدم الإكثار من الحلف لأن كثرته تدل على عدم تعظيم المحلوف به وهو الله -جل وعلا- فينبغي للعبد أن لا يحلف إلا في سبب وموضع يحتاج فيه إلى الحلف فتنبه أيها الحبيب اللبيب وكن على حذر وإن كنا قد ابتلينا نحن بهذا فلنرب على غيره أبناءنا قال إبراهيم النخعي: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار، وهذا يوضح عناية السلف بأمر الأبناء، وصيانتهم لهم على عدم ابتذال العظيم من الأمور وعدم الاستهزاء به فإن الصبي متى اعتاد شيئاً وهو صغير تساهل فيه في كبره فلنرب أبناءنا على فضائل الأخلاق ولنحملهم عليها ولنضرب لهم المثل من أنفسنا فالأمر على ما قال القائل لله دره وما أجمل قوله:

مشى الطاووس يوما باختيالٍ فقلَّد شكل مِشْيته بنوهُ

فقال علام تختالون؟! قالوا: سَبَقتَ به ونحن مقلدوهُ

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوَّده أبوه

فعودوا أبناءكم على جميل الأخلاق ورفيع الأدب مع الخلاق سبحانه وجل وعلا ومن ذلك عدم الاجتراء على الحلف في كل أمر صغير أو كبير.

أيها الإخوة! وقد وردت في الشرع عقوبة دنيوية وعقوبة أخروية على الحلف بدون سبب شرعي فأما العقوبة الدنيوية العقوبة الدنيوية ذكرها رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة: «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة»[١٠٥٥] وهذا المحق قد

(١٠٥٤) أخرجه النسائي (٤٧٠٦) وصححه الألباني فيه.

(١٠٥٥) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦) من حديث أبي هريرة.

يكون حسيًا، فقد يأتي عليها العقاب من الله عزوجل، وقد يكون معنويًا أي أنه -جل وعلا- ينزع البركة من كسبه فلا يكون فيه نماء ولا بركة له.

وأما العقوبات الأخروية فعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان وعائل مستكبر ورجل جعل (الله)بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»[(١٠٥٦)]

فهذه ثلاث عقوبات وما أشدها لو تفكر فيها العبد لكان ذلك كفيلًا بردعه وزجره عن مقارفة هذا الخطأ الكبير.

أحبتي! إن كثرة الحلف من الشخص تدل على رقة دينه وضعف الإيمان والتوحيد في قلبه، ففي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم – قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنيه مرتين أو ثلاثاً؟ – ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون. ويخونون ولا يؤتمنون، وينذورن ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن». [(١٠٥٧)]

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».[(١٠٥٨)]

فذم النبي ﷺ الذين يشهدون ولا يستشهدون، فاتقوا الله -أيها الإخوة- ولا تكثروا الحلف بالله بغير سبب أو داع.

(١٠٥٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١١١) و"الصغير» (٨٢١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١٧٨٨.

(١٠٥٧) أخرجه مسلم (٢٥٣٥).

(١٠٥٨) أخرجه البخاري ٢٦٥٢، ومسلم ٦٦٣٥.

وهنا -أيها الإخوة- يحسن التنبيه على أمور عظيمة يتساهل فيها كثير جداً من الناس:

الأمر الأول: أن بعض الناس في حلفه يستخدم لفظ: أسألك بوجه الله تعالى كذا وكذا أي: من أمور الدنيا، وهذا لا يجوز على الإطلاق في شيء من أمور الدنيا وحطامها فإن الله أجل وأعظم من ذلك وإنما لا يُسأل بوجه الله -أيها الإخوة- إلا أعلى المطالب وأغلى المقاصد من الأشياء الجليلة والمطالب العظيمة، ولا ريب أن كل ما دون الجنة فهو حقير إلا ما كان سبباً أو طريقاً إليها.

روى أبو داود من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يسأل بوجه الله إلا الجنة"(١٠٥٩) والحديث يشهد له النظر الصحيح كما قال العلامة الألباني في الصحيحة وقال: فإنه إذا ثبت وجوب الإعطاء لمن سأل به تعالى فسؤال السائل به قد يعرض المسئول للوقوع في المخالفة وهي عدم إعطائه إياه ما سأله وهو حرام وما أدى إلى محرم فهو محرم فتأمل، وقد كره عطاء ابن أبي رباح أن يسأل بوجه الله أو بالقرآن شيء من أمر الدنيا كما روى عنه ذلك ابن أبي شيبة بسند صححه الألباني في الصحيحة كذلك. (١٠٦٠)

وروى النسائي وغيره من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: "ألا أخبركم بخير الناس منزلة؟ قلنا: بلى، قال: رجل ممسك برأس فرسه – أو قال: فرس – في سبيل الله حتى يموت أو يقتل، قال: فأخبركم بالذي يليه؟ فقلنا: نعم يا رسول الله قال: امرؤ معتزل في شعب يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة ويعتزل الناس، قال: فأخبركم بشر الناس منزلة؟ قلنا: نعم يا رسول الله قال: الذي يسأل بالله العظيم، ولا يعطي به". (١٠٦١)

قال العلامة الألباني: "في الحديث تحريم سؤال شيء من أمور الدنيا بوجه الله تعالى وتحريم عدم إعطاء من سأل به تعالى".

وهذا هو الأمر الثاني الذي أنبه عليه -أيها الإخوة- ألا هو وجوب إعطاء من سأل بالله فمن سأل بالله لا يرد وقد سمعنا في الحديث السابق قال ﷺ: "ألا أنبئكم بشر الناس منزلة؟ قلنا يا رسول الله نعم، قال: الذي يسأل بالله العظيم ولا يعطى به".

(١٠٥٩) أخرجه أبو داود (١٦٧١) وله شاهد من حديث أبي موسى أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢١١٢) بإسناد حسن، وقال الألباني: والحديث يشهد له النظر الصحيح.

(١٠٦٠) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/٦٨)، وصححه الألباني في الصحيحة ١ / ٤٥٣.

(١٠٦١) أخرجه النسائي (١ / ٣٥٨)، وهو في الصحيحة"١ / ٤٥٦.

وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، (ومن استجار بالله فأجيروه)، ومن أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا الله له حتى تعلموا أن قد كافأتموه".(١٠٦٢)

فمن تعظيم الله –جل وعلا– وإجلاله تلبية من سأل بالله، وإعاذة من استعاذ بالله، ولا يرد ولا يهمل وهذا من كمال توحيد العبد وحسن أدائه لحقوق إخوانه التي افترضها الله –عز وجل– عليه وهذا –أيها الإخوة– مشروط بما إذا لم يكن السائل يسأل شيئاً فيه إثم أو قطعية رحم وهنا سؤال بدهي يكاد يخرج من نظرات الدهشة التي أراها على الوجوه أمامي ، فأكاد أسمع حركات الشفاه تخرج هامسة تقول: إن كل من يسأل اليوم يسأل بالله ، بل ربما سأل بوجه الله فمن نعطي ومن نمنع؟ وكيف لا نردهم ويجب علينا أن نعطيهم إننا نتصور أن لو أعطينا كل سائل لما بقي لأحدنا جنيه ينفقه على أولاده ولتحول بعد يوم واحد من بداية الشهر إلى سائل يسأل الناس كمثل هؤلاء السؤال؟

والحمد لله فقد أجاب علماؤنا عن هذا السؤال –أيها الإخوة– بخير وأبين وأشفى جواب: قال العلامة الألباني: ووجوب الإعطاء إنما هو إذا كان المسؤول قادرًا على الإعطاء ولا يلحقه ضرر به أو بأهله، وإلا فلا يجب عليه، والله أعلم.(١٠٦٣)

نعم –أيها الإخوة– خاصة وأن هؤلاء السؤال إلا من رحم الله تعالى يسأل بحق وبغير حق.

وليعلم أن الأصل في السؤال الحرمة إلا إذا كان ذلك بحق كالفقير المحتاج الذي يطلب حقه.

ومما يجدر التنبيه عليه كذلك: أنه يستحب –أيها الإخوة– الكرام أن يتنزه الإنسان عن سؤال أحد من الخلق شيئًا وذلك حفظًا للقلوب حتى لا تلتفت وتتعلق بغير الله، ولذلك كان مما يبايع عليه النبي ﷺ بعض أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً روى مسلم من حديث أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلاَنِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي الْحَبِيبُ الأَمِينُ أَمَّا هُوَ فَحَبِيبٌ إِلَيَّ وَأَمَّا هُوَ عِنْدِي فَأَمِينٌ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً فَقَالَ «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ فَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ». فَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ».

قَالَ فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ قَالَ «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَتُطِيعُوا – وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً – وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ.(١٠٦٤)

(١٠٦٢) أخرجه البخاري في"الأدب المفرد"(٢١٦) و أبو داود (١ / ٣٨٩، ٢ /٦٢٢)، وهو في "الصحيحة"١ / ٤٥٤.

(١٠٦٣) "السلسلة الصحيحة"١ / ٤٥٦.

ويجدر التنبيه كذلك على شيء غاية في الأهمية ألا وهو أن من سأل الناس وهو غير مستحق فقد قال فيه رسول الله ﷺ فيما روى الطبراني في الأوسط بسند صحيح من حديث جابر قال رسول الله ﷺ: "من سأل وهو غني عن المسألة يحشر يوم القيامة وهي خموش في وجهه"(١٠٦٥) بل يعاقب هذا البائس -أيها الإخوة- في الدنيا قبل الآخرة: ففي البيهقي وسنده حسن أن النبي ﷺ قال: "من فتح على نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت به أو عيال لا يطيقهم فتح الله عليه باب فاقة من حيث لا يحتسب". (١٠٦٦)

فهؤلاء وأمثالهم لا حرج ألبتة على من ردهم ولم يعطهم إن كان يعرف حقيقة حالهم ومن كان منهم مجهول الحال ورأيت أخي منه ما يدلك على ضعفه وما رأيت شيئا يريبك من حاله وسألك بالله أو بوجه الله فأعطه، فإن ذلك من إجلال ربك الذي سألك به، "فمن امتلأ قلبه بمهابة العظيم وإجلاله فحق العظيم عليك ألا ترد من سألك به وقاراً وعظمة له وجلالاً ولله در القائل:

لو لم يكن نور الذي خلق الورى   لكان نهار الدهر كالليل أظلم

فسبحانه سبحانه جل قدره   فعنه لسان العقل والفهم أبكم

تقاصرتْ الأفهام عن كنه ذاته   ولكن رب الخلق بالخلق أعلم"(١٠٦٧)

فالسؤال إذا كان بالله -جل وعلا- يجاب، والسائل إذا سأل بالله ينبغي قدر الاستطاعة أن لا يرد.

وليتعفف المحتاج القادر أن يمد يده يتسول فهذا لا يحل له ما دام قادرًا على الكسب والعمل، ومن كان محتاجًا فالواجب عليه كذلك أن يطلب القدر الذي يكفيه فإن كفي فليمسك ولا يحترفها مهنة وهو في خلال سؤاله أيضًا يبحث عن عمل يناسبه فإن وجد كفاية عن السؤال والله هو الحسيب الرقيب مطلع على العباد شاهد لا يغيب، فالله الله يا عباد الله.

التنبيه الثالث -أيها الإخوة- أن من حلف له بالله فلابد أن يقنع ويرضى تعظيماً لاسم الله وتعظيماً لحق الله تعالى حتى لا تقع في القلوب الاستهانة باسم الله الأعظم وعدم الاكتراث به أو بالكلام المؤكد به فهذا مما يخالف التوحيد، والدليل على هذا -أيها الإخوة- ما روى ابن ماجه بسند صحيح عن ابن عمر قال سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا يحلف

(١٠٦٤) أخرجه مسلم ٢٤٥٠.

(١٠٦٥) أخرجه الطبراني في الأوسط ٥٦٢٥، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٨٠٠.

(١٠٦٦) أخرجه البيهقي في الشعب ٣٣٧٢، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٧٩٥.

(١٠٦٧) عون العلي الحميد (٢ / ٣٦٩).

بأبيه فقال: "لا تحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصدق ومن حلف له بالله فليرض ومن لم يرض بالله فليس من الله". (١٠٦٨)

فأمر النبي ﷺ المحلوف له بالله أن يرضى فعلى العبد الرضا بالحلف بالله وقبول الحكم على أساسه وإن علم كذب الحالف وعليه أن يحتسب حقه يوم القيامة.

ومن جميل ما قرأت في هذا الباب ما ذكره البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِى». (١٠٦٩)

والنكتة هنا يجليها لنا صاحب الفهم العميق الدقيق ابن القيم رحمه الله وطيب ثراه فيقول: "إن الله تعالى كان في قلب عيسى – عليه السلام – أجل من أن يحلف به أحد كاذبًا، فدار الأمر بين تهمة الحالف وتهمة بصره فرد التهمة إلى بصره كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح".

أيها الإخوة! وأما إذا كان الحالف معروفاً بالكذب جداً وظهرت قرائن قوية تدل على تزويره الحلف وكذبه فيه وجرأته عليه فهنا لا شيئ في رد حلفه ويمينه.

روى مسلم عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُ قَالَ خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلِ بْنِ زَيْدٍ وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ زَيْدٍ حَتَّى إِذَا كَانَا بِخَيْبَرَ تَفَرَّقَا فِى بَعْضِ مَا هُنَالِكَ ثُمَّ إِذَا مُحَيِّصَةُ يَجِدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَهْلٍ قَتِيلاً فَدَفَنَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– هُوَ وَحُوَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَكَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِيَتَكَلَّمَ قَبْلَ صَاحِبَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– «كَبِّرِ». الْكُبْرَ فِى السِّنِّ فَصَمَتَ فَتَكَلَّمَ صَاحِبَاهُ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمَا فَذَكَرُوا لِرَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– مَقْتَلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ فَقَالَ لَهُمْ «أَتَحْلِفُونَ خَمْسِينَ يَمِينًا فَتَسْتَحِقُّونَ صَاحِبَكُمْ». أَوْ «قَاتِلَكُمْ». قَالُوا وَكَيْفَ نَحْلِفُ وَلَمْ نَشْهَدْ قَالَ «فَتُبْرِئُكُمْ يَهُودُ بِخَمْسِينَ يَمِينًا». قَالُوا وَكَيْفَ نَقْبَلُ أَيْمَانَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– أَعْطَى عَقْلَهُ. (١٠٧٠)

أي دفع ديته، فهذا بلا شك –أيها الإخوة– رد من الصحابة لحلف هؤلاء اليهود، لأن الكذب ديدنهم ودينهم، وأقرهم النبي –صلى الله عليه وسلم– على ذلك.

(١٠٦٨) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٦٩٨).

(١٠٦٩) أخرجه البخاري ٣٤٤٤، ومسلم ٦٢٨٦.

(١٠٧٠) أخرجه مسلم ٤٤٣٤.

أما من كان صادقاً فحلف فلم يقنع المحلوف له فإنه يدخل تحت وعيد النبي ﷺ: "ومن لم يرض فليس من الله"وهذا وعيد شديد جدّاً ومعناه أي: لا حظ له في قرب الله ومحبته ورضاه، فاقنعوا رحمكم الله بحلف الحالف طالما عرفتم منه الصدق بل وإن كان كاذباً ديدنه الكذب أو مشكوكاً فيه ولنحتسب عند الله ما قد يفوتنا من جراء ذلك.

التنبيه الرابع: قد ظهر لحضراتكم –أيها الإخوة– الكرام مدى تعظيم الشرع للحلف بالله واحتياط الإسلام فيه والأمر بالحفاظ عليه وعدم الاستهانة والاستخفاف به لكن كثيراً من المسلمين لا أقول استهانوا بالحلف بالله بل استهانوا بما هو أعظم وأفظع مما سماه الله ورسوله شركاً وسمى فاعله مشركاً ألا وهو: الحلف بغير الله، وهذا مما فشا وعم وطم في المسلمين في هذه الأيام بكثرة ولا حول ولا قوة إلا بالله على الرغم من النصوص الكثيرة جاءت تنهى عن الحلف بغير الله وتتوعد بالوعيد الشديد من أتاه.

ولهذا قال الله تعالى: "فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون"وللحديث صلة بعد جلسة الاستراحة، هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا –أيها الإخوة–! إن حقيقة التوحيد ألا يكون في القلب إلا الله فهو وحده الذي يجب إفراده بالنعم والمشيئة والتعظيم، وهو وحده الذي تخلص له الأعمال وتحنى له الجباه وتخضع، لأنه المعبود الحق وما سواه باطل، ولا يتم للعبد توحيد حتى لا يجعل في قلبه وقوله وفعله نداً للعزيز الحميد كما قال سبحانه: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) [البقرة: ٢٢]، وقد فسر ترجمان القرآن ابن عباس معنى اتخاذ الأنداد المنهي عنه في هذه الآية فقال: "الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً. هذا كله به شرك".[١٠٧١]

فجعل من ذلك الحلف بغير الله ولم لا؟ وقد قال رسول الله فيما روى الترمذي وحسنه من حديث أمير المؤمنين عمر أن رسول الله ﷺ قال: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"[١٠٧٢]ونهى النبي ﷺ عن الحلف بالآباء وما أشبه ذلك، كما

(١٠٧١) تفسير ابن أبي حاتم – (١ / ٣٧٩)، وعنه تفسير ابن كثير – (١ / ١٩٦).

(١٠٧٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٥٨٧١، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

روي ذلك مسلم في صحيحه من حديث عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله -عز وجل- ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم".

قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها ذاكراً ولا آثراً".(١٠٧٣)

فلله در الفاروق لا ذاكرًا أَيْ: عَامِدًا. ولا آثرًا أَيْ حَاكِيًا عَنْ الْغَيْر، أَيْ مَا حَلَفْت بِهَا وَلَا حَكَيْت ذَلِكَ عَنْ غَيْرِي، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا وَقَعَ فِي رِوَايَة عُقَيْل عَنْ اِبْن شِهَاب عِنْد مُسْلِم" مَا حَلَفْت بِهَا مُنْذُ سَمِعْت رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى عَنْهَا، وَلَا تَكَلَّمْت بِهَا ".

وأخرج الترمذي عن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة فقال: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك". (١٠٧٤)

وروى البخاري وغيره عنه عن النبي ﷺ قال: "إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت". (١٠٧٥)

بل روى أبو داود بسند صحيح من حديث بريدة أن رسول الله ﷺ قال: "من حلف بالأمانة فليس منا". (١٠٧٦)

بل وفي الحديث الذي أخرجه أبو يعلي وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من حلف على يمين فهو كما حلف: إن قال هو يهودي فهو يهودي، وإن قال هو نصراني فهو نصراني، وإن قال هو بريء من الإسلام فهو بريء من الإسلام، ومن دعى دعاء الجاهلية فإنه من جثاء جهنم" قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى. (١٠٧٧)

قال الحافظ ابن حجر: قَالَ الْعُلَمَاء: والسر في النهي عن الحلف بغير الله، أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده. (١٠٧٨)

(١٠٧٣) أخرجه البخاري ٦٦٤٧، ومسلم ٤٣٤٣.

(١٠٧٤) أخرجه الترمذي ١٥٣٥، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٢).

(١٠٧٥) أخرجه البخاري ٦١٠٨.

(١٠٧٦) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وصححه الألباني هناك، وانظر الصحيحة ٩٤.

(١٠٧٧) أخرجه أبو يعلى ٥٨٧١، والحاكم ٧٩٢٦، وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٩٥٦.

(١٠٧٨) فتح الباري لابن حجر - (١٩ / ١).

ولذلك -أيها الإخوة- لا يحل الحلف بالولي ولا بالنبي ولا بالأب ولا بالأم ولا بغيرها من هذه الأيمان المزورة الكاذبة التي يحلف بها الناس إلا من رحم الله اليوم فهذا كله حرام وشرك بالله رب العالمين فلندعه ولنجتنبه، ولنحلف باليمين الحق بالله -عز وجل- وحده لا شريك له سبحانه.

وفي الحديث الذي أخرجه الحاكم بسند صحيح من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كل يمين حلف به دون الله شرك". [١٠٧٩]

انتبه أيها الحبيب واحذر الشرك بالله في التعظيم والندية فلا تحلف إلا به سبحانه ولا تقسم بغيره كائناً من كان.

ولذلك كان ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً". [١٠٨٠]

لماذا؟ ذلك لأن الحلف بغير الله شرك، وأما الحلف بالله كاذباً فهو كبيرة من الكبائر، والشرك أعظم من الكبائر كلها سواء كان شركاً أكبراً أو شركاً أصغر.

فتخيل إن من حلف بغير الله صادقًا هو أعظم ذنبًا وأكبر إثمًا من الذي حلف به كاذبًا، مع أن الحلف بالله كذبًا هو اليمين الغموس التي يغمس صاحبها في نار جهنم، فإذا كان هذا عقابه وعاقبته وإذا كان الحلف بغير الله أعظم ذنبًا منها فماذا يا ترى تكون عاقبته وعقابه؟ يكفي -أيها الإخوة- في تصور ذلك أن تقرأ قوله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) [المائدة: ٧٢]

ولذلك قال شيخ الإسلام: وإنما رجح ابن مسعود -رضي الله عنه- الحلف باللّه كاذبًا على الحلف بغيره صادقًا، لأن الحلف باللّه توحيد، والحلف بغيره شرك، وإن قدر الصدق في الحلف بغير اللّه فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك. [١٠٨١]

نعوذ بالله من الشرك كله دقه وجله، اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه فاغفر لنا ما أشركنا كله......... الدعاء.

(١٠٧٩) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٥، وغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٩٥٢.

(١٠٨٠) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٨ / ٤٦٩، والطبراني في الكبير"(٨٩٠٢).

(١٠٨١) تيسير العزيز الحميد - (ص ٥٣٠).

لا تسبوا جنود الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

صلَّى الإلهُ ومنْ يَحُف بِعَرْشه والطَّيبُون على المبَارك أحمَدا

أما بعد فيا أيها الإخوة!

إن الله -تبارك وتعالى- هو مدبر الكون ومصرف أموره لا يخرج شيء من ذلك عن أمره، بل الكون كله تحت طوعه وإرادته سبحانه، -جل وعلا-، قال الله -عز وجل-: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)[يونس: ٣١، ٣٢]

فالله هو الذي يدبر الأمر كله لا مدبر غيره، وبعض الناس يشكل عليه قوله تعالى: وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١)وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢)وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)[النازعات: ١ - ٥] لأن الله في هذه الآية أسند تدبير بعض الأمور إلى غيره، فلنعلم -أحبتي- أن هذا لا يعارض أن الله وحده الذي بيده تدبير الكائنات والمخلوقات مما نرى أو لا نرى،لأن المقصود بالمدبرات هنا الملائكة الذين يقومون على وظائف وظفهم الله -عز وجل- عليها وأمرهم بعملها والقيام بها كتسيير السحاب والرياح وإنزال الأمطار وسوق أسباب الرزق وخزانة النار والجنة إلى غير ذلك من الملائكة المدبرات، فهؤلاء إنما يدبرون ما أمروا به بأمره -عز وجل- وإذنه وباطلاعه وتقديره وعلمه، فعاد الأمر إليه سبحانه أولاً وآخراً.

ولهذا كذب من يعتقد أن الله خلق الخلق وفوض فيه غيره من الأولياء أو الأبدال أو الأوتاد..... إلخ هذه المصطلحات التي يرددها من لا عقل له يزعم أن الكون يدبره هؤلاء دون الله، كمن يقول:إن للكون أقطاباً أو غيره، بل كل الأمر صغيره وكبيره عظيمه وغيره لا يحدث إلا عن إذن الله وأمره "قل إن الأمر كله لله"، ومن اعتقد ذلك وأيقن به قلبه -أيها الإخوة- لا ينفك ينسب الأشياء كلها إلى فاعلها الأول الحقيقي فلا يغضب من السماء لمطرها ولا من الأرض لزلزالها ولا من الريح لهبوبها، ويكون مرجعه إذا غضب أن يسأل ربه صرفها أو التخفيف منها، ولذلك هو لا يسب السماء ولا يسب المطر ولا يسب الريح لأن ذلك يعود إلى المحدث الخالق الموجد لها الذي سببها وهو الله.

ولذا نهى النبي ﷺ عن سب الدهر كما شرحنا ذلك في لقاء سابق ونهى عن سب الريح وهذا هو موضوع حديثنا اليوم بمشيئة الله فسوف نتحدث عن الريح الآية والمعجزة والرحمة والعذاب وما ينبغي أن يقابلها به الإنسان وذلك من خلال

الآيات والأحاديث والآثار والأقوال فتعالوا بنا نشنف الآذان ونمتع الأسماع والجنان بحديث هذا الجندي العظيم من جنود الله في الكون.

أيها الإخوة.. الريح أو الرياح جندي عظيم من جنود الله في الكون يأمرها الله وينهاها فتطيع ويصرفها الله حيث يشاء فيجعلها إن شاء رحمة ونعمة ورخاء ويجعلها إن شاء عذاباً ونقمة وخراباً، ولهذا الجندي العظيم مكانة كبيرة في القرآن الكريم وفي سنة النبي ﷺ فمن ذلك أن الله –عز وجل– عد الريح آية من آياته التي أرشد عباده إلى التفكير فيها للاستدلال على قدرته العظيمة والامتنان بنعمه الجسيمة وقرن بينها وبين أعظم نعمه في ذلك كما قال تعالى: حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)إِنَّ فِي السموات وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣)وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)[الجاثية: ١ – ٦]

وقال تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السموات وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)[البقرة: ١٦٤]

قال الحافظ بن كثير –رحمه الله تعالى–: "وتصريف الرياح أي جنوباً وشمالاً ودبوراً وصبًا، ليلية ونهارية، منها ما هو للمطر ومنها ما هو للقاح ومنها ما هو غذاء للأرواح ومنها ما هو عقيم لا ينتج، تارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه وتارة تجمعه وتارة تفرقه وتارة تصرفه حيث يشاء الله.[١٠٨٢]

ولهذا –أيها الإخوة– .. امتن الله –عز وجل– على عباده بأن جعل لهم الريح التى تجري الفلك من السفن والمراكب والباخرات في البحار بأمره، فترى السفينة الكبيرة والباخرة العظيمة في البحر كالجبل الذى في البر يحفظها الله ويرعاها ويذلل لها ويسخر جنديين من جنوده: البحر والرياح. قال –عز وجل–: "ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير".

نعم.. لو شاء سكن الرياح فلا تتحرك السفن، أو جفف الماء فلا تسري ولا تجري بل تظل راكدة لا تجيء ولا تذهب بل واقفة على ظهره، أو لو شاء أهلك السفن بذنوب أهلها الذين يركبون على ظهرها ولكن يعف عن كثير من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلكهم، ولو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وحولتها عن طريقها المستقيم أو دمرتها ولكن من لطفه أنه يرسل الريح بقدر الحاجة إليها فقط.

(١٠٨٢) تفسير ابن كثير – (١ / ٤٧٥).

ومن عظم مكانة هذا" الجندي" الريح أقسم الله بها في كتابه كما قال –عز وجل–: "والذاريات ذروا"قال علي بن أبي طالب هي الرياح وكما قال تعالى: "والمرسلات عرفا" قال ابن مسعود هي الرياح، وقال تعالى: "والناشرات نشراً" هي الرياح أيضاً في قول ابن مسعود "والعاصفات عصفاً" قال: هى الرياح[١٠٨٣] ومن ثم يكون الله سمى بها سورتين من سور القرآن الكريم وهي سورة الذاريات وسورة المرسلات بخلاف ما ذكرما فيه من مواضع القرآن الكريم وهذا كاف فى بيان مكانة هذا الجندي العظيم فهل مثل هذا يسب ويشتم؟!.

قال الشافعي –رحمه الله تعالى– في الأم: "لا ينبغي لأحد أن يسب الريح، فإنها خلق مطيع لله وجند من جنوده يجعلها الله رحمة إذا شاء ونقمة إذا شاء". [١٠٨٤]

وقد ذكر الله الرياح في القرآن العظيم كثيراً جدًّا تارة بأسماء الذاريات والمرسلات والعاصفات والرياح كما مر، وتارة بأسماء العاصف والقاصف والبشرى والإعصار والصرصر والعقيم وهذه منها ما هو أسماء و ما هو صفات.

ومن عظيم ما ذكر الله تعالى من أمر الرياح في القرآن أنها كانت إحدى معجزات نبي من أنبياء الله الكرام وهو سليمان بن داود عليهما السلام قال الله تعالى ذكره: "ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين".

يقول الحافظ ابن كثير: "كان لسليمان عليه السلام بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض فينزل وتوضع آلاته وخشبه، كما قال تعالى: "وسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب"وكما قال –عز وجل–: "ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر".[١٠٨٥]

وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان عليه السلام ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله صلى الله عليه وسلم. [١٠٨٦]

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان عليه السلام يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فترتفع حتى تصعد على فراشه ثم يأمر الريح فترتفع به

(١٠٨٣) نفسه، في تفسير هذه الآيات من مواضعها.

(١٠٨٤) الأم – (١ / ٢٩٠).

(١٠٨٥) تفسير ابن كثير – (٥ / ٣٥٨).

(١٠٨٦) نفسه.

كل شرف دون السماء وهو مطأطئ رأسه، ما يلتفت يميناً ولا شمالاً تعظيماً لله –عز وجل– وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله. (١٠٨٧)

أيها الإخوة.. مثل هذا يسب ويشتم؟إنه جندي من جنود الله مطيع ما بيده شيء قط إنما أمره بيد ربه يصرفه حسبما يرى ويوجهه حيثما يشاء فلا مشيئة له إلا بالله ولا إرادة له إلا بالله ولا قدرة له إلا بالله، فليتق الله من يسب الريح وليعلم أن ذلك حرام حرمه رسول الله ﷺ ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي بسند صحيح من حديث أبي بن كعب –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال: "لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أمرت به". (١٠٨٨)

أيها الحبيب.. هل تدبرت معي هذه اللفظة "ما أمرت به" فالريح مخلوقة مأمورة مدبرة مقهورة لا تأثير لها في شيء إلا بأمر مدبرها ومصرفها –سبحانه وتعالى–، فإذا سبها ساب أو شتمها شاتم فإلى من يكون رجوع هذا السب والشتم؟ هل تدرى؟! وأسفاه إن الشتم والسب حينئذ يرجع إلى مدبرها ومالك أمرها ومن أزمة الأمور كلها بيده رب العالمين سبحانه وهو غير جائز على الإطلاق من عاقل فضلًا عن مسلم موحد.

فالواجب أن نحمد الله على ما جاءت به الريح من خير ونعوذ به وحده مما جاءت به من شر وهو سبحانه رازق الخير ومانع الضر والشر، وفي هذا العمل طاعة لله –عز وجل–، أن يقول العبد هذا الذكر النبوي الكريم هذه طاعة لله تعالى: "اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به"، وقاعدة الشرع أنه ما استجلبت نعمة بمثل طاعة الله وشكره ولا استدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه ودعائه والاستغفار من الذنوب، والتوبة ولذلك أرشد النبي إلى الدعاء ساعة هبوب الريح وعصفها.

ويقاس على هذا –أيها الإخوة– سب كل مخلوق مسير كسب السحاب والزلازل فإنه أيضاً لا يجوز.

فلا ينبغي أن يسب أحد الريح، لأنها مأمورة بما تفعله من الله تعالى، ولأنه لا يعتقد معتقد أبداً أن ذلك عن إرادتها أو حريتها لأن اعتقاد ذلك من الشرك بالله –عز وجل– فلا فاعل ولا مدبر ولا مريد لشيء في الكون إلا بأمره وإذنه –عز وجل–.

ولذلك –أيها الإخوة– كان من هدي المصطفى ﷺ إذا هبت الريح أن يدعو بهذا الدعاء، بل كان ﷺ إذا هبت الريح فزع فزعاً شديداً وعرف ذلك في وجهه.

(١٠٨٧)نفسه.

(١٠٨٨) أخرجه الترمذي (٢٢٥٢)، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٧٥٦.

روى مسلم من حديث عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم عرف ذلك في وجهه أقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرّ به وذهب عنه ذلك قالت عائشة فسألته فقال: "إني خشيت أن يكون عذاباً سلط على أمتي"، ويقول إذا رأى المطر: "رحمة".(١٠٨٩)

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم –كذلك – من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحاً عرف في وجهه، فقالت رضي الله عنها يا رسول الله أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية قالت: فقال: "يا عائشة ما يؤمني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا". (١٠٩٠)

وهؤلاء القوم هم عاد أهلكهم الله تعالى بالريح كما قال جل شأنه: "وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم"وكما قال عز من قائل: "كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر".

يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: كانت الريح التي أرسلها الله على عاد قوم هود تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض فتنقلع رأسه فيبقى جثة بلا رأس ولهذا قال: "كأنهم أعجاز نخل منقعر".(١٠٩١)

وهذا الذي فعل بهم –أيها الإخوة– : هو عذاب مستمر موصول بعذاب الآخرة نعوذ بالله من سوء المصير.

وروى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: الريح مسخرة من الأرض الثانية، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً فقال: أي رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور فقال له الجبار – تبارك وتعالى–: لا، إذا تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم من الريح بقدر خاتم، قال: فهي التي يقول الله في كتابه: ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم"(١٠٩٢)فيا الله يا ودود يا حليم يا لطيف يا غفور يا رحيم يا عفو سبحانك ما قدرناك حق قدرك وما عظمناك حق تعظيمك.

(١٠٨٩) أخرجه مسلم ٢١٢١.

(١٠٩٠) أخرجه البخاري (٤٨٢٨، ٤٨٢٩) وأخرجه مسلم (٨٩٩).

(١٠٩١) تفسير ابن كثير – (٧ / ٤٧٩).

(١٠٩٢) تفسير ابن كثير – (٧ / ٤٢٣).

وقد صح عن نبينا ﷺ كما في البخاري وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: نصرت بالصبا – أي الريح الشرقية وأهلكت عاد بالدبور[١٠٩٣] أى الريح الجنوبية أو الغربية.

فنصر الله نبيه محمداً في الأحزاب بالريح كما قال –عز وجل–: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)[الأحزاب: ٩ – ١١].

فكيف حدث هذا؟

والجواب بعد جلسة الاستراحة أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علمًا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)[الأحزاب: ٩ – ١١].

كيف حدث هذا؟ في الصحيح أن الله قد أرسل عليهم ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين حتى ذكر ابن جرير عن عكرمة قال: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقي ننصر رسول الله ﷺ فقالت الشمال إن الحرة لا تسري بالليل قال: فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا أى الشرقية وحرمت الشمالية والجنوبية ذلك الفخر.

وعن عبد الله بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح بالمدينة فقال: ائتنا بطعام ولحاف قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال: "من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا"قال: فذهبت والريح تسفي

(١٠٩٣) أخرجه مسلم (٩٠٠).

كل شيء فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال فما يلوى أحد منهم عنقه. قال وكان معي ترس لي فكانت الريح تضربه علي وكان فيه حديد قال فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأنفذها إلى الأرض. (١٠٩٤)

ريح قوية شديدة حتى فعلت – أيها الإخوة – الأفاعيل بالمشركين يقول حذيفة الذي نقل إلى النبي ﷺ حال معسكر المشركين من الأحزاب وقتها: قال فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله -عز وجل-، تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. سبحان ربي تقتلع خيامهم وتكفأ قدورهم حتى قال أبو سفيان: والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء يا معشر قريش لقد لقينا من هذه الريح الذي ترون فارتحلوا فإني مرتحل ثم قام راجعاً وقاموا معه(١٠٩٥)ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله عزيزاً حكيماً.

هذه هي الريح التي نصرت رسول الله "نصرت بالصبا....." وأما الريح التي أهلكت عاداً فجاء في تفصيل ذلك حديث أخرجه الترمذي وسنده حسن من حديث الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالرَبْذَة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله -أو قال: رحله-فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: "هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: "مِعْزَى حَمَلَت حَتْفَها"، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: "هيه، وما وافد عاد؟"-وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه -قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما"الجرادتان"-فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم، إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي منها: "اختر"، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: "خذها رمادًا رمددًا، لا تبقي من عاد أحدا". قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى

(١٠٩٤) تفسير الطبري (٢١/٨٠).

(١٠٩٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٣١).

هلكوا–قال أبو وائل: وصدق –وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: "لا تكن كوافد عاد".[1096] والحديث أخرجه الترمذي وغيره بسند صحيح.

قال تعالى: وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آَلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢)قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

وكما أن الريح –أيها الإخوة– أداة نصر من الله لأوليائه على أعدائه ووسيلة عذاب وانتقام من المعاندين لرسله وأنبيائه، فكذلك لها وظائف أخرى ومن هذه الوظائف أنها تلقح النبات بأمر ربها كما قال سبحانه: "وأرسلنا الرياح لواقح".

ومن وظائفها أن تسير بالسحاب وتصرفه حيث يشاء الله كما قال سبحانه: "وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)[الأعراف: ٥٧]

ومن وظائفها أن تثير السحاب وأن تحمله وأن تسوقه وأن تكون بشراً بين يديه كما قال تعالى: "وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً".

ومن وظائفها كما يقول الحافظ ابن كثير: "ومنها ما يسقم الأرض".

ومن وظائفها ما قال مطرف بن عبد الله بن الشخير –رحمه الله–: لولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض".

اللهم لك الحمد على نعمة الهواء الذى لولا تقديرك عصيان بنى آدم بتلويثه لكان أنقى وأصفى وأشهى يشبع من جوع ويروى من ظمأ ويشفى من سقم.

ونشكوا إلى الله كل من لوث الهواء الذى خلقه الله نقيًا تشكو قلوب المؤمنين إلى ربها كل من لوث الهواء بسبب من الأسباب فرحماك ربنا اهد عبادك.

(١٠٩٦) أخرجه الترمذي ٣٥٨٤، وابن ماجه (٣٨١٦) والطبري (١٢/٥١٣، ٥١٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، و انظرالسلسلة: الضعيفة تحت الحديث (١٢٢٨).

ومن عجائب وظائف الريح أنها تفضح العصاة وتنفي خبثهم وترسل لتريح الأرض من شرهم روى أحمد وحسنه الأرناؤط في تخريج المسند من حديث جابر –رضي الله عنه– قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة فقال رسول الله ﷺ: "أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين".(١٠٩٧)

وروى مسلم من حديث جابر كذلك أن رسول الله ﷺ قدم من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد تدفن الراكب فقال رسول الله ﷺ: "بعثت هذه الريح لموت منافق"، فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات. (١٠٩٨)

ومن وظائف الريح أنها تقبض أرواح المؤمنين قرب الساعة كما في مسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته". (١٠٩٩)

وفيه من حديث عبد الله بن عمرو وفيه أن النبي ﷺ قال: "ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مَسُّها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة".(١١٠٠)

ومن أفضل ما قرأت –أيها الإخوة– بشأن الريح أنها تهب في الجنة، فلا تنقطع الريح عن الهبوب بفناء الدنيا، بل تهب في الجنة، ولكن سبحان ربي فرق بين ريح وريح.

روى مسلم من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ فِى الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِى وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً. فَيَقُولُونَ وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً ».(١١٠١)

نسأل الله العلي الكريم أن لا يحرمنا أبداً ريح الشمال في سوق الجنة كل جمعة وهكذا أيها الإخوة هذه باختصار شديد بعض أخبار هذا الجندي الذي يطيع الله ويأتمر بأمره وهو مسخر ومدبر ومقهور بمشيئته –عز وجل– فمثل هذا يسب؟ نعوذ بالله من الخذلان ونسأل الله أن يجعلنا ممن يعتبر بآياته ويقدر آلاءه ويشكر نعماءه فاللهم غفرانك لما عسى أن يكون قد صدر عنا مما يغضبك واللهم لك الحمد حمدًا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما

(١٠٩٧) أخرجه أحمد (١٤٨٢٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(١٠٩٨) أخرجه مسلم ٧٢١٨.

(١٠٩٩) أخرجه مسلم ٣٢٧.

(١١٠٠) أخرجه مسلم ٥٠٦٦.

(١١٠١) أخرجه مسلم ٧٣٢٤.

وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا معقب لما حكمت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.......... الدعاء.

هل قدرنا الله حق قدره؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

يا أنتَ يا أحسنَ الأسماءِ في خَلَدي ماذا أُعرِّفُ من مَتْنٍ ومن سَندِ

تَقَاصرْت كلُّها الأوصافُ عندكمُ لما سَمِعْنا ثناءَ الواحدِ الأحدِ

واللهِ لو أنَّ أقلامَ الورى بُريت مِن العروقِ لمدحِ السيدِ الصّمدِ

لم نبلغِ العُشرَ مما يستحقُّ ولا عُشرَ العشيرِ وهذا غايةُ الأمدِ

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

من تأمل النصوص الدالة على عظمة الله وكبريائه ومجده وجلاله وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه كما أوضح ذلك القرآن وأوضحته سنة النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لا يملك إلا أن يذل ذلّاً حقيقياً ويخضع خضوعاً نهائيًا للذي له هذه النعوت العظيمة، والأوصاف الكاملة الجليلة، وإن ذلك لمن أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود بحق وحده، المحمود بحق وحده الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم وغاية الحب والتأله، وأنه –عز وجل– الحق وما سواه باطل، وهذه هي حقيقة التوحيد ولبه وروحه، وسر الإخلاص وفحواه."[١١٠٢]

ومن هذه الآيات ما قال الله تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)[الزمر: ٦٧].

فالله –عز وجل– –أيها الإخوة– هو الذي خلق كل شيء، هو الخالق لكل ما في الكون من سمائه إلى أرضه ومن عرشه إلى فرشه وهو المالك لكل شيء لا يخرج أبداً شيء منها عن ملكه وهو المتصرف في كل شيء لا يخرج شيء أبداً عن إرادته وأمره.

وما أحسن ما قال صاحب الظلال هنا تحت هذه الآية قال: هذه الآية تعرض: «لحقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شيء، المالك المتصرف في كل شيء. فما أحسن هؤلاء –المشركون – ولا أجملوا حين دَعوا النبي

(١١٠٢) القول السديد (ص ١٥٢)، بتصرف.

ﷺ للإشراك بالله، وما عبدوه حق عبادته إذ أشركوا به، والله هو خالق كل شيء، وهو المتصرف في ملكوت السموات والأرض بلا شريك، فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السموات والأرض؟!

نعم ما قدروا الله حق قدره، وهم يشركون به بعض خلقه. وهم لا يعبدونه حق عبادته. وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته، وهم لا يستشعرون جلاله وقوته.

وأظهر الاسم الأعظم في أحسن مواطنه فقال: ﴿ الله ﴾ الملك الأعظم ﴿حق قدره﴾ أي ما عظموه كما يجب له فإنه لو استغرق الزمان في عبادته وخالص طاعته بحيث لم يخل شيء منه عنها لما كان ذلك حق قدره فكيف إذا خلا بعضه عنها فكيف إذا عُدل به غيره؟!

ثم كشف لهم عن جانب من عظمته سبحانه وقوته ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقدَّمها لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها. ولما كان ما يدركونه منها من السِّعة والكبر كافيا في العظمة وإن لم يدركوا أنها سبع، أكد بما يصلح لجميع طبقاتها تنبيها للبصراء على أنها سبع من غير تصريح فقال: ﴿ جَمِيعًا ﴾. ولما كان العالم العلوي أشرف، ولما كانوا يعلمون أن السموات سبع متطابقة بما يشاهدون من سير النجوم، جمع ليكون مع ﴿ جَمِيعًا ﴾ كالتصريح في جميع الأرض أيضا في قوله: ﴿ وَالسموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ فالذي يجعل الأرض بكل طبقاتها وأجزائها في قبضته، والسموات يطويها بيمينه فالسموات والأرض جميعا في يده، ويقول أنا الملك أين الملوك. فصاحب هذه القدرة العظمى كيف يُعْبَد معه آلهة أخرى هي أصنام وتماثيل وأوثان؟!!

لذا نزَّه تعالى نفسه بقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزَّه وتقدس عن الشريك والنظير والصاحبة والولد، ترفع عن أن يكون له شريك وهو رب كل شيء ومليكه".(١١٠٣)

روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود ﷺ قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر. ثم قرأ: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».(١١٠٤)

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا المالك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السموات على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع».

(١١٠٣) في ظلال القرآن (٥/٣٠٦٠)، أيسر التفاسير للجزائري ص ١١٦٤.

(١١٠٤) أخرجه البخاري ٧٤٥١، ومسلم ٧٢٢٣.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».[(١١٠٥)]

فهذا الحديث– أيها الإخوة– دليل على عظمة الله وكماله وكبريائه وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته وإذا كان سبحانه بهذه العظمة فكيف يشرك أحد معه في عبوديته غيره؟!

فهو يدل على عظمة الله تعالى حيث يضع السموات كلها على إصبع، إنه –عز وجل– يحمل هذه المخلوقات ، فمع عظم هذه المخلوقات، السموات والأرض فإنه سبحانه يأخذها بيده ويهزها ويقول: «أنا الملك أنا الجبار» أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ أين ملوك الأرض؟ وتلا النبي ﷺ الآية تصديقًا لقول الحبر

قال سماحة الشيخ ابن باز –رحمه الله–: وفي هذا إثبات الصفات لله، وأنه سبحانه له يمين وشمال، وأن كلتا يديه يمين كما في الحديث الآخر ؛ وسمّى أحدهما يمينًا والآخر شمالا من حيث الاسم، ولكن من حيث المعنى والشرف كلتاهما يمين – سبحانه وتعالى–، وليس في شيء منهما نقص"[(١١٠٦)]

وهنا يجدر بنا أن نستعيد ما كنا أصلناه فى الحديث عن صفات الله تعالى فى خطبة الحياة المثلى مع أسماء الله وصفاته الحسنى فنقول:

الواجب علينا – أيها الإخوة – الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وإمرارها كما جاءت واعتقاد أنها حق كما أخبر الله –عز وجل– وأخبر رسول الله ﷺ وعدم التكييف والتمثيل لأن الله –عز وجل– أخبرنا بأسمائه وصفاته وأفعاله ولم يبين كيفيتها فنصدق الخبر ونؤمن به ونكل الكيفية إلى الله –عز وجل– فصفات ذاته تعالى من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها وكذلك صفات أفعاله من الاستواء على العرش والنزول إلى سماء الدنيا والمجيء لفصل القضاء بين عباده وغير ذلك كلها حق على حقيقتها وعلى حقيقتها علمنا اتصافه تعالى بها بما علمنا في كتابه وسنة رسوله ﷺ وغاب عن جميع المخلوقين كيفيتها ولم يحيطوا بها علما كما قالت أم سلمة رضي الله عنها وربيعة الرأي ومالك بن أنس وغيرهم رحمهم الله تعالى الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق والتسليم وكذلك القول في جميع صفاته –عز وجل– وإنا والله لكالون حائرون في كيفية سراية الدم في أعضائنا وجريان الطعام والشراب فينا وكيف يدبر الله تعالى قوت كل عضو فيه بحسب حاجته وفي استقرار الروح التي هي بين جنبينا وكيف يتوفاها الله في منامها وتعرج إلى حيث شاء الله –عز وجل– ويردها إذا شاء وكيفية إقعاد الميت في القبر وعذابه ونعيمه وكيفية قيام الأموات من القبور حفاة عراة غرلا وكيفية الملائكة وعظم خلقهم فكيف العرش

(١١٠٥) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(١١٠٦) شرح كتاب التوحيد: ص ٢٨٩ – ٢٩٠.

الذي لا يقدر قدره إلا الله -عز وجل- كل ذلك نجهل كيفيته ونحن مؤمنون به كما أخبرنا الله -عز وجل- عنه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام وإيماناً بالغيب وإن لم نعلم الكيفية فكيف بالخالق -عز وجل- وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون آمنا به كل من عند ربنا ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

اللهم إنا أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟

هذا هو ربنا جلا جلاله الذي يعرف به فيقول ل: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)[البقرة: ٢٥٥، ٢٥٦].

ويقول -عز وجل- عنه: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السموات وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)[الحشر: ٢٢ - ٢٤]

ويقول -عز وجل- عنه: "بسم الله الرحمن الرحيم قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

آيات تتحدث عن ربها سبحانه وتظهر عظمته وكبريائه ومن سمعها وتدبرها امتلأ قلبه يقيناً في عظمة الله تعالى اسمع ماذا يقول ربنا عن نفسه: اللَّهُ نُورُ السموات وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)[النور: ٣٥، ٣٦]

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ «إِنَّ اللَّهَ -عز وجل- لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ

النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِى رِوَايَةٍ – النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».(١١٠٧)

سبحانك ربنا، ماقدرناك حق قدرك؟!

ولذلك كانت كلمة" الله" كفيلة أن تلقى الجلال والتعظيم لله في قلب من سمعها ولربما اكتفى النبي ﷺ بها وحدها دون غيرها في مقام التعريف به سبحانه طالما كان السائل فقيهاً كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– عَنْ شَىْءٍ فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِىءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ قَالَ «صَدَقَ». قَالَ فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ قَالَ «اللَّهُ». قَالَ فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ قَالَ «اللَّهُ». قَالَ فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ. قَالَ «اللَّهُ». قَالَ فَبِالَّذِى خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ قَالَ «نَعَمْ». قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِى يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا. قَالَ «صَدَقَ». قَالَ فَبِالَّذِى أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ «نَعَمْ». قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِى أَمْوَالِنَا. قَالَ «صَدَقَ». قَالَ فَبِالَّذِى أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ «نَعَمْ». قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِى سَنَتِنَا. قَالَ «صَدَقَ». قَالَ فَبِالَّذِى أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ «نَعَمْ». قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ «صَدَقَ». قَالَ ثُمَّ وَلَّى. قَالَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِىُّ –صلى الله عليه وسلم– «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».(١١٠٨)

و لهذا يرى ابن القيم والطحاوي وغيرهما أن اسم "الله" هو الاسم الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى، ولذا تكرر ذكر هذا الاسم الجميل الجليل في القرآن الكريم ما يقرب من آلف مرة وليس هناك من الأسماء الحسنى ما تكرر هذا العدد، لهذا وإن ذكرنا الحديث ففيه من ذكر هذا الاسم ما لا يحصى من العدد.

أيها الإخوة! تعالوا نعترف فعلًا، جهرة لا سرًّا وعلانية لا خفية بأننا إلى اللحظة ما قدرنا الله تعالى حق قدره، والسؤال: أين الطريق الى ذلك؟ والجواب: من هنا الطريق إلى كتاب الله –عز وجل– فلم ولن يعرف بالله خير من كتابه الذى تكلم به وأرسله يعرفنا به وأعنى به الكتاب المسطور القرآن الكريم وكذلك بالتأمل فى خلق الله فى الكون والمخلوقات التى جاء ذكرما في القرآن والحديث وهذا هو الكتاب المنظور، فأما القرآن الكريم فإنه كله توحيد وحديث عن الله –عز وجل– بأفصح بيان وأعذب كلام.

(١١٠٧) أخرجه مسلم (١٧٩).

(١١٠٨) أخرجه مسلم ١١١.

وتأمل أخي الحبيب هل ترى في القرآن كله إلا حديثًا عن الله تعالى والإيمان به فالقرآن كله يتحدث عن توحيد الله –عز وجل– يقول ابن القيم –رحمه الله– في مدارج السالكين: "فالقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير أنواع التوحيد؛ لأن القرآن كله إما خبر عن الله وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأقواله، فهذا هو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي: "توحيد الربوبية والأسماء والصفات"، وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما يُعبد من دونه، وهذا هو التوحيد الإرادي الطلبي –"توحيد الألوهية"–. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعة الله، وذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد، وما يكرمهم به في الآخرة، وهو جزاء توحيده سبحانه، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في الآخرة من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه، وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[١١٠٩]

ثانيًا: ومن أراد أن يلقى تعظيم الله في قلبه ونفسه ويحس فعلاً جلال الله فليتأمل خلق السموات والأرض والملائكة بل ليتأمل في الأحاديث والآيات التي تحدثت عن العرش والكرسي والملائكة وعظم السموات وعظم الأرض فإنه يكاد يطيش عقله لهذه المخلوقات.

ولنمر مروراً سريعاً نتعرف خلاله إلى بعض هذه المخلوقات عسى ذلك يجعلنا نقدر خالقها –جل وعلا– حق قدره ونجله حق إجلاله.

أولاً: عظمة خلق العرش والكرسي –أيها الإخوة– العرش مخلوق من مخلوقات الله –تبارك وتعالى– فوق سماواته عظيم في خلقه ولم لا وهو سرير ملكه –عز وجل–؟ فقد علم العالمون أن الله فوق العرش كما قال، محيط بالعرش، متخلص من خلقه بائن منهم، علمه في خلقه لا يخرجون من علمه. وقد أخبرنا الله –عز وجل– أن العرش كان قبل أن يخلق السموات والأرض على الماء، وأخبرنا أنه صار من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى العرش فاستوى على العرش، فقال –عز وجل–: "وكان عرشه على الماء"وقال: "ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم".

وقال –عز وجل–: "الرحمن على العرش استوى"، فالله تعالى استوى على العرش يرى كل شيء في السموات والأرضين، ويعلم ويسمع كل ذلك بعينه، وهو فوق العرش، لا الحجب التي احتجب بها من خلقه تحجبه من أن يرى ويسمع ما في الأرض السفلى، ولكنه خلق الحجب وخلق العرش، كما خلق الخلق لما شاء وكيف شاء، وما يحمله إلا عظمته، فقال: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون". [١١١٠]

(١١٠٩) انظر: مدارج السالكين (٣/٤٥٠).

(١١١٠) مقدمة كتاب العرش وما روى فيه، لابن أبي شيبة.

قال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة: "ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأن الله – عز وجل– مستو على العرش الذي هو فوق السموات، فلولا أن الله –عز وجل– على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض. [(١١١١)]

وأما عن عظم خلق العرش فقد روى ابن جرير في تفسيره عن الربيع: قال: لما نزلت: "وسع كرسيه السموات والأرض" قال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله هذا الكرسي وسع السموات والأرض، فكيف العرش؟ فأنزل الله تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) [الزمر: ٦٧]. [(١١١٢)]

ولذلك كان النبي ﷺ يدعو فيقول: "اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر"[(١١١٣)]والحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ.

فتأمل قوله: "ورب العرش العظيم"إن العرش عظيم على ربه كريم على خالقه.

ولذا ورد عن ابن عباس أنه قال: "وأما العرش فإنه لا يقدر قدره".

وقال الله تعالى"رفيع الدرجات ذو العرش"[غافر] فذكره على سبيل الفخر والاعتزاز.

وقال تعالى جاهه وعظم سلطانه: "وهو الغفور الرحيم الودود ذو العرش المجيد"[البروج] فعظمه ومجده.

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العليم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم".[(١١١٤)]

وأما عن الكرسي فيكفي قوله تعالى: "وسع كرسيه السموات والأرض"، فانظر كم عظمة الكرسى والعرش وإنما هما مخلوقان له –عز وجل– فما بالنا بعظمة الخالق سبحانه.

(١١١١) الإبانة عن أصول الديانة (١٠٨).

(١١١٢) تفسير الطبري – (٥ / ٣٩٩).

(١١١٣) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(١١١٤) أخرجه البخاري ٧٤٢٦.

ثانياً: عظم خلق السموات والأرض وما بينهما:

عن ابن مسعود، قال: "بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم"(١١١٥) فانظر كم حجم السموات وماهى إلى عظمته بشيئ جل فى علاه.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "ما السموات والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم". (١١١٦)

وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: "ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس". قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض". (١١١٧)

ثالثاً: عظم خلق الملائكة:

كيف بنا إذا انتقلنا إلى الملائكة وذواتهم وكيفيتها وأن بعضهم يمكنه أن يلتقم الدنيا في لقمة قال تعالى: "الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء"قال الحافظ ابن كثير: أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب(١١١٨)؛ ولهذا قال: "يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير". قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء.(١١١٩)

وفي حديث الصور المشهور الذي ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن رسول الله ﷺ وفيه: "إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدًا واحدًا من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنهم حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال: أنا لها أنا لها، فيذهب فيسجد لله تعالى تحت العرش

(١١١٥) أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله. وأخرجه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله. قال الحافظ الذهبي –رحمه الله تعالى– قال: وله طرق.

(١١١٦) تفسير الطبري – (٢١ / ٣٢٤).

(١١١٧) قال العلامة أحمد شاكر في تخريج الطبري: خرجه السيوطي في الدر المنثور ١: ٣٢٨، ونسبه لأبي الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، انظر: تفسير الطبري – (٥ / ٣٩٩)، وأخرجه ابن أبي شيبة في صفة العرش (٥٨) انظر: تفسير ابن كثير – (١ / ٦٨٠).

(١١١٨) أخرجه أحمد (٣٨٦٢)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(١١١٩) تفسير ابن كثير – (٦ / ٥٣٢).

ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعدما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة وينزل حملة العرش والكروبيون، قال: وينزل الجبار –عز وجل– في ظلل من الغمام ولهم زجل من تسبيحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، سبوح قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطة والعظمة، سبحانه سبحانه أبداً أبدا. (١١٢٠)

إنهم يقدرون الله حق قدره ويعرفون عظمته حق معرفتها ولذا أقبلوا على عبادته لايفترون عنها طرفة عين فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال خلق الله الملائكة لعبادته أصنافاً فإن منهم لملائكة قياماً صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة، وملائكة ركوعاً خشوعاً من يوم خلقهم إلى يوم القيامة، وملائكة سجوداً من يوم خلقهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة وتجلى لهم تعالى ونظروا إلى وجهه الكريم قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. (١١٢١)

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: "صدق أمية بن الصلت في شيء من شعره فقال:

رجل وثور تحت رجل يمينه.. للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله ﷺ صدق فقال:

والشـــمس تطلـــع كـــل آخـــر ليلـــة	حمـــراء يصـــبح لونهـــا يتـــورد
تأبى فما تطلع لنا في رسلها	إلا معذبـــــــة وإلا تجلـــــــد

قال رسول الله ﷺ صدق، وهذا إسناده جيد. (١١٢٢)

وتفسير هذا الحديث ذكره ابن عبد البر في التمهيد قال: وذكر أسد بن موسى بسنده عن عروة بن الزبير قال: حملة العرش أحدهم على صورة إنسان والثاني على صورة ثور والثالث على صورة نسر والرابع على صورة أسد)(١١٢٣) والله أعلم.

(١١٢٠) معارج القبول – (١ / ٣٠٣).
(١١٢١) معارج القبول – (١ / ٣٣٢).
(١١٢٢) أخرجه أحمد (٢٣١٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٢٧/٨): "رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس".
(١١٢٣) التمهيد – (٤ / ٩).

وهؤلاء الملائكة حملة العرش -أيها الإخوة- عظام الخليقة جدًا بحيث لا يتصور تصوركم يبلغ ذلك حتى ورد عند أبي داود بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسرة سبعمائة عام [١١٢٤]

ومن الأحاديث التي تبين عظمة وجلال الله تعالى فى قلوب ونفوس الملائكة: وعن النواس بن سمعان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أراد أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله -عز وجل-، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا، وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثلما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله -عز وجل-[١١٢٥]

سبحانك سبحانك، ما قدرناك حق قدرك وما عظمناك حق تعظيمك، ولا يكيف العقل صفاتك، لأنه لا يعلم كيف أنت إلا انت.

وهكذا -أيها الإخوة- إذا تأملنا خلق الله في السموات والأرض لرسخت في قلوبنا عظمته وإجلاله -سبحانه وتعالى- فقدرناه حق قدره.

وصدق ربي إذ يقول: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمْ مَنْ خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السموات وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) [النمل: ٥٩ - ٦٧].

(١١٢٤) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والطبراني في"الأوسط"كما في"المنتقى منه"، للذهبي (٦ / ٢)، وهو في"السلسلة الصحيحة" (١ / ٢٣٢).

(١١٢٥) أخرجه ابن خزيمة في"التوحيد"(٢٠٦)، والآجري في"الشريعة"(ص ٢٩٤) وابن أبي عاصم في (السنة) (٥١٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص٢٦٤، وغيرهم، ويشهد لمعناه أحاديث، قال العلامة المعلمي في: "التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل"- (٢ / ٢٣١): المتن غير منكر، وله شواهد- وساق بعضها ثم قال:- فالنكارة في السند فقط، والله أعلم.

يا ربّ حمداً ليس غيرُك يُحمدُ يا منْ لهُ كُلُّ الخلائِقِ تصْمدُ

يقول القرني في رائعته التي اسمها لا تحزن، ومعناها: ابتسم واسعد: "عندنا، العامَّةُ وَقْتَ الحرْثِ يرمون الحبَّ بأيديهمْ في شقوقِ الأرضِ، ويهتفون: حبٌّ يابسٌ، في بلدٍ يابسٍ، بين يديك يا فاطر السموات والأرضِ" أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ{٦٣} أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ". إنّها نزعةُ توحيدِ الباري، وتوجُّهُ إليهِ، -سبحانه وتعالى-.

قام الخطيبُ المِصْقعُ عبدُ الحميدِ كشكُ – وهو أعمى – فلمَّا علا – رحمه الله – المِنْبرَ، أخرج منْ جيبهِ سعفة نخلٍ، مكتوبٌ عليها بنفسِها: اللهُ، بالخطِّ الكوفيِّ الجميلِ، ثم هَتَفَ في الجموعِ:

انظُرْ لتلك الشَّجرةْ ذاتِ الغُصُونِ النَّضِرةْ

منِ الذي أنبتها وزانها بالخضِرةْ

ذاك هو اللهُ الذي قُدرتُه مُقْتدِرةْ

فأجْهش الناسُ بالبكاءِ.

إنهُ فاطرُ السموات والأرضِ مرسومةٌ آياتُه في الكائناتِ، تنطقُ بالوحدانيَّةِ والصَّمديةِ والربوبيَّةِ والألوهيَّةِ؟ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً؟".[١١٢٦]

والسؤال الذي أطرحه بعد هذه التطوافة حول بعض مخلوقات الله -تبارك وتعالى- في الكون وأجب عنه أنت بصدق أيها المسلم:

هل وفينا ذلك الإله العظيم حقه وقدرناه حق قدره كاملاً غير منقوص؟ فليجب كل مسلم ولتجب كل مسلمة عن هذا السؤال هل وفينا الله حقه وهل قدرنا حق قدره؟ والجواب الذى توافقونى عليه جميعًا ما وفى الله حقه وما قدره حق قدره من يعصيه في الليل والنهار.

وما وفى الله حقه وما قدره حق قدره من عرف أنه يراقبه فجعله أهون الناظرين إليه وما وفى الله حقه وما قدره حق قدره من استحيا من نظر الناس ولم يستح من نظر الله.

وما وفى الله حقه وما قدره حق قدره من خشي الناس ولم يخش الله.

(١١٢٦) لا تحزن.

وما وفى الله حقه وما قدره حق قدره من استطاع أن يدل خلقه عليه لكنه جلس يرتب أحواله الخاصة مشغولًا بها لا يكاد يرعى حقوق الله عليه في دعوة الناس.

هؤلاء وغيرهم ممن على شاكلتهم –أيها الإخوة– ما عرفوا الله تعالى وما عرفوا حقه، وما قدروه حق قدره، سبحانه –جل وعلا– من إله قوي قادر جبار قاهر عزيز حَليم عليم خبير.

ما عرف الله حق معرفته من أعطى عهد الله وذمة الله وميثاق الله ثم نقضه وكأن لم يكن شيء، ومن ذهب يتسمى بأسماء يضاهي بها ربه وينازعه في أسمائه، ومن ذهب يأتي ما نهى عنه في حين لا يفعل ما أمر به.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله جل ذكره أذن لي أن أحدث عن ديك قد فرقت رجلاه الأرض وعنقه مثني تحت العرش وهو يقول سبحانك ما أعظمك ربنا فيرد عليه ما علم ذلك من حلف بي كاذبا[١١٢٧]

لقد "تعرَّف سبحانه إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، وجعلها تدل على كماله، وأنه المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو ما عليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان. فمن عرف آثار توحيد الربوبية وتفطَّن لآثار توحيد الألوهية في القلب والنفس ذلَّ وخضع خضوعًا إختياريًّا، وتقرَّبَ إلى الله بما يُحبّ، ورسخ الإيمان في قلبه، وعظَّم الرب سبحانه لأنه حقيق بأن يُطاع، وهو حقيق بأن يُجَلّ ويُسأل وحده، وأن يبذل العبد كل ما يملكه في سبيل مرضاته.

ومن تأمل آثار توحيد الربوبية أورثه رسوخًا للإيمان في قلبه، وتعظيمًا للرب عزوجل ؛ وتأهلًا للتفكر في ملكوت السموات والأرض يقول الحسن: "عاملنا القلوب بالتفكُّر فأورثها التذكّر، فرجعنا بالتذكر على التفكر، وحرّكنا القلوب بهما فإذا القلوب لها أسماع وأبصار!!"

ومن عرف آثار توحيد الألوهية في القلب وفي النفس ذل وخضع،"وقام قلبه بين يدي الرحمن مُطْرِقًا لهَيْبتِه خاشعا لعظمته، عانٍ لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدةً لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد.."[١١٢٨]

فآه لأناس جهلوه فعصوه وآه ثم آه ثم آه لأناس عرفوه ثم عصوه، اللهم ألق في قلوبنا معرفتك، ثم ألهم قلوبنا وجوارحنا تعظيمك، وأكرمنا بطاعتك وتوحيدك ولا تذلنا بمعصيتك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

(١١٢٧)رواه الطبراني ٩١٥ بإسناد صحيح والحاكم ٧٩٢٢، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب – (٢ / ١٧٥).

(١١٢٨) مفتاح دار السعاد: (١٩٩/١) وانظر عون الغلى الحميد (٤٧٥/٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد، فيا أيها الإخوة!

لما سأل الصديق الأكبر أبو بكر رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته قال له النبي ﷺ : "قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم". (١١٢٩)

فهذا الذي اختاره النبي ﷺ لأبي بكر وهو هو أبو بكر فماذا كان يا ترى يختار لنا إن سألناه؟

وهذا يدلنا -أيها الإخوة- على أن الانسان لايستطيع ان يوفى الله حقه ولو عمل ما عمل فضلًا عن أن يمن على الله بعبادته ويدل بطاعته روى وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ: { خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ إنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ عَبَدَ اللَّهَ -عز وجل- خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةُ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبُعِ تَبِضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَيَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ الْوُضُوءَ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عَنْ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ، قَالَ: فَفَعَلَ فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ فَيُجَرُّ إلَى النَّارِ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِك أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي مَنْ خَلَقَك وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ مَنْ قَوَّاك لِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ مَنْ أَنْزَلَك فِي جَبَلٍ وَسَطِ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَك الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنْ الْمَاءِ الْمِلْحِ وَأَخْرَجَ لَك كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ

(١١٢٩) أخرجه البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٧٠٥).

وَسَأَلْته أَنْ يَقْبِضَك سَاجِدًا فَفَعَلَ؟ فَيَقُولُ أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُك الْجَنَّةَ أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْت يَا عَبْدِي فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ }. (١١٣٠)

ومن الآثار التي تشير إلى هذا المعنى أيضًا ما روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي موسى الأشعري صاحب الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم وقد رواه عنه ابنه أبو بردة قال: لما حضر أبا موسى الوفاة قال: يا بني اذكروا صاحب الرغيف، قال: كان رجل يتعبد في صومعة أراه قال: سبعين سنة، لا ينزل إلا في يوم أحد، قال: فنزل في يوم أحد، قال: فشبه أو شب الشيطان في عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام أو سبع ليال، قال: ثم كشف عن الرجل غطاؤه فخرج تائبا، فكان كلما خطا خطوة صلى وسجد، قال: فآواه الليل إلى مكان عليه اثنا عشر مسكينا، فأدركه الاعياء فرمى بنفسه بين رجلين منهم، وكان ثم راهب يبعث إليهم كل ليلة بأرغفة، فيعطى كل إنسان رغيفا، فجاء صاحب الرغيف فأعطى كل إنسان رغيفا، ومر على ذلك الذي خرج تائبا، فظن أنه مسكين فأعطاه رغيفا، فقال المتروك لصاحب الرغيف: مالك، لم تعطني رغيفي، ما كان لك عنه غنى، قال: تراني أمسكه عنك، سل هل اعطيت أحدا منكم رغيفين، قالوا: لا، قال: إني أمسك عنك والله لا أعطيك شيئا الليلة، قال: فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه، فدفعه إلى الرجل الذي ترك فأصبح التائب ميتا، قال: فوزنت السبعون سنة بالسبع الليالي فلم تزل، قال: فوزن الرغيف بالسبع الليالي، قال: فرجح الرغيف، فقال أبو موسى: يا بني اذكروا صاحب الرغيف. (١١٣١)

أيها الإخوة! إنما ينجو من ينجو يوم القيامة برحمة الله، وهل خرجت الأعمال من الأركان إلا بتوفيقه؟ وهل وفق من وفق إلا برحمته؟

قال الغزالي: اجتمع ابن واسع وابن دينار فقال ابن دينار: إما طاعة الله أو النار فقال ابن واسع: إما رحمة الله أو النار فقال ابن دينار: ما أحوجني إلى معلم مثلك.

أيها الإخوة.. إنه ما من عبادة من العبادات التي شرعها الله -تبارك وتعالى- إلا وتختم بالاستغفار.. ختمت الصلاة بالاستغفار روى مسلم من حديث ثوبان قال قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ

(١١٣٠) أخرجه الخرائطي في" فضيلة الشكر" (١٣٣ - ١٣٤) والعقيلي في" الضعفاء" (١٦٥)، وتمام في "الفوائد" (٢/٢٦٥ - ١/٢٦٦) وابن قدامة في "الفوائد" (١/٦/٢ - ٢) والحاكم ٧٧٤٥ ، قال ابن القيم شفاء العليل - (١ / ١١٤): والإسناد صحيح ومعناه صحيح لا ريب فيه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين» وتعقبه الذهبي فقال: "لم يصح هذا، والله تعالى يقول: (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)، ولكن لا ينجي أحدا عمله من عذاب الله كما صح، بل أعمالنا الصالحة هي من فضل الله علينا ومن نعمه لا بحول منا ولا بقوة، فله الحمد على الحمد له "، وضعفه الألباني في الضعيفة ١١٨٣.

(١١٣١) مصنف ابن أبي شيبة - (٨ / ١٠٧).

اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا وَقَالَ «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ». قَالَ الْوَلِيدُ فَقُلْتُ لِلأَوْزَاعِيِّ كَيْفَ الاِسْتِغْفَارُ قَالَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.(١١٣٢)

وختم قيام الليل وهو أفضل الصلاة بعد الفريضة بالاستغفار قال تعالى عن عباده الصالحين: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) [الذاريات: ١٥ – ١٨].

وقال تعالى: "الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار".

وختم الحج الذي يرجع فيه الرجل من ذنوبه كيوم ولدته أمه بموعود رسول الله ﷺ يختم بالاستغفار كما قال تعالى: ثم ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) [البقرة: ١٩٩] بل أمر النبي المصطفى ﷺ أن يختم حياته المباركة الكريمة بالاستغفار قال تعالى:

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

فما السر في ذلك أيها الإخوة؟ إن الاستغفار طلب المغفرة وهو يرتبط غالباً بمن عصى الله فيثوب إليه ويتوب إليه –عز وجل– يستغفر الله من ذنبه وقد حافظ النبي ﷺ على الاستغفار طيلة حياته المباركة كان ﷺ في اليوم الواحد يستغفر الله أكثر من سبعين أو مائة مرة ثم يأمره الله أن يختم هذه الحياة النقية بالاستغفار، ما هو السر في ذلك والسر والله أعلم أن استغفار المصطفى ﷺ كان لأنه رأى عمله بالنسبة لقدر الله ومقامه أقل مما ينبغي وإن كان هو اجتهد في تحسينه وتجويده قدر ما وسعه وأمكنه.

قال العلامة الألوسي في تفسير سورة النصر: "واستغفاره ﷺ لأنه كان دائماً في الترقي فإذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما قبلها وقيل مما هو في نظره الشريف خلاف الأولى بمنصبه المنيف وأنت تعلم أن كل أحد مقصر عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغى وادائها على الوجه اللائق بجلاله جل جلاله وعظمته سبحانه وإنما يؤديها على قدر ما يعرف والعارف يعرف أن قدر الله –عز وجل– أعلى وأجل من ذلك فهو يستحى من عمله ويرى أنه مقصر وكلما كان الشخص بالله تعالى أعرف كان له سبحانه أخوف وبرؤية تقصيره أبصر، وقد كان كهمس يصلي كل يوم ألف ركعة فإذا صلى أخذ بلحيته ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل سوء فوالله ما رضيتك لله –عز وجل– طرفة عين، وعن مالك بن دينار: لقد هممت أن أوصي إذا مت أن ينطلق بي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده، فإذا سألني قلت: يا رب إني لم أرض لك نفسي طرفة عين، فيمكن أن يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لما يعرف من عظيم جلال الله تعالى وعظمته سبحانه فيرى أن عبادته وإن كانت أجل من عبادة جميع العابدين هى دون ما يليق بذلك الجلال وتلك العظمة التي هي وراء ما يخطر بالبال

(١١٣٢) أخرجه مسلم ١٣٦٢.

فيستحي ويهرع إلى الاستغفار، وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام كان يستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة، وللإشارة إلى قصور العابد عن الإتيان بما يليق بجلال المعبود وإن بذل المجهود شرع الاستغفار بعد كثير من الطاعات فذكروا إنه يشرع لمصلي المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثاً وللمتهجد في الأسحار أن يستغفر ما شاء الله تعالى، وللحاج أن يستغفر بعد الحج فقد قال تعالى { ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم } [البقرة: ١٩٩] وروي أنه يشرع لختم الوضوء، وقالوا يشرع لختم كل مجلس وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول: إذا قام من المجلس"سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك"(١١٣٣) ففي الأمر بالاستغفار رمز من هذا الوجه على ما قيل إلى ما فهم من النعي".(١١٣٤)

أيها الإخوة! إن من قدر الله حق قدره عبده وبذل مجهوده في عبادته ثم رأى أنه ما صنع شيئاً، ومن قدر الله حق قدره جعل ظنه في الله أحسن الظنون فعرف أن الله ناصر دينه وسنة رسوله وسنة الداعين إلى شرعه والقائمين بأمره، ومن قدر الله حق قدره عرف أن تقديره له أحسن التقدير وأوفقه وأتمه ولم يسخط على ما قدر له بل يصبر ويرضى ويسم ويعلم أنه لو وكل إلى نفسه لكان اختياره ما ظنه الحسن بالنسبة إلى ما اختار له ربه أسوء اختيار.

ومن قدر الله حق قدره وعرف أسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده عرف أنه بكل جميل كفيل ومن أساء بربه الظنون بعد هذا الذى قدمنا كان فيه من الجاهلية وصفاتها ومشابهة أهلها على قدره ظنونه تلك، كما قال تعالى عنهم وعمن شابههم: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

قال ابن القيم –رحمه الله–: فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار. وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا

(١١٣٣) أخرجه أحمد ١٩٨٢٥، والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ١٧٣ وانظر صحيح الترغيب والترهيب ١٥١٩.

(١١٣٤) تفسير الألوسي – (٢٣ / ١٦٧).

من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر وفتش نفسك، هل أنت سا لم؟

"فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً"(١١٣٥)

فالموحد الذي امتلأ قلبه بحقائق أسماء الله وصفاته يشرق في سويداء قلبه حسن ظن خاص بالله وتزهر عبوديته لربه بما يناسب كل اسم وصفة عبودية خاصة. (١١٣٦)

والمؤمنون أولى الناس بحسن الظن بالله فإنه لا يتم توحيدهم وإيمانهم إلا بهذا الاطمئنان به فالدين دين الله صالح لكل زمان ومكان لا كما يظن العلمانيون أن الدين لا يصلح لهذا العصر والإسلام وأهله إلى العلا بمشيئة الله تعالى، وسيظهره الله على كل دين ودولة، لا كما يظن الانهزاميون المتخلفون أنها إلى الاندثار، والله تعالى يبتلي عباده ليختبرهم ويعدهم لما يحب ويرضى ويقدر ولا يسلم أولياءه لأعدائه ويجعل كلمته هي العليا لا كما يظن أصحاب الظن السيء في ربهم أنه تخلى عنهم وتركهم.

فعلى كل مسلم –أيها الإخوة– أن يخلص قلبه من كل ظن سوء بالله فيحسد فلانًا أو فلانًا فكل ذلك سوء ظن بالله تعالى. ولهذا قال العلماء في سبب ذم الحسد قالوا وسبب ذلك: أن الحاسد ظن أن هذا الذي أعطاه الله ما أعطاه لا يستحق هذه النعمة فحسده وتمنى زوالها، لذا أكل سوء ظنه هذه الحسنات كما يأكل النار الحطب.

نسأل الله أن يعافينا من كل ظن فيه بغير الحق، ونسأله أن يجعلنا معظمين له، ولحكمته ومن المجلين لأمره ونهيه".(١١٣٧)

اللهم إنا نسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.... الدعاء.

(١١٣٥) زاد المعاد – (٣ / ١٩٦).

(١١٣٦) عون العلي الحميد – (٢ / ٣٨٩).

(١١٣٧) التمهيد (٢ / ٢٧٣) بتصرف شديد، للشيخ صالح آل الشيخ.

الخاتمة

ثم أقول:

من الذي ما نبا سيفُ فضائلِه ولا كبا جوادُ محاسنِه.

لذا ألتمس ممن وقف على هذا الكتاب أن لا يجنح إن رأى خطأ إلى الملام والعتاب، بل يصلح الخلل، ويستر الزلل.

ما كريم من لا يقيل عثاراً... لكريم ويستر العوراء

إنما الحر من يجر على الزلا... ت ذيلاً منه ويغضي حياء

وأن يجعل ذلك في مقابلة ما قيدت له من الشوارد، وأهديت إليه من القلائد والفوائد، وأن يحضر قلبه أن أول ناس أول الناس

من ذا الذي ما ساء قط... ومن له الحسنى فقط

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها... كفى المرء فخراً أن تعد معائبه

جعلني الله وإياكم ممن سبقت له الحسنى، وأحلنا بكرمه من دار المقامة المقام الأسنى. والحمد لله سبحانه على ما رزقنا من فضله التام، والشكر له سبحانه على ما يسره من حسن الابتداء والختام.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الهداة الأعلام، وعلى صحبه الذين اتبعوا رضاه وأعرضوا عمن عنف ولام، صلاة وسلاماً يعتنقان اعتناق الألف واللام.[١١٣٨]

وكتبه

حامدًا مصليًا

الفقير إلى عفو ربه

أحمد الجوهري

الإجازة العالية في الدعوة الإسلامية

والثقافة ومقارنة الأديان

للمهاتفة:- ٠١٠٦٣٩٨٦٢٢٠ / ٠٢

(١١٣٨) اقتباس من مقدمة سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر.

المراجع

(على حسب ورودها في البحث)

١- كتاب التوحيد للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.
٢- صحيح البخارى
٣- صحيح مسلم
٤- سنن الترمذي
٥- سنن النسائي
٦- المستدرك على الصحيحين للحاكم
٧- مجمع الزوائد للهيثمي
٨- مسند أحمد
٩- تخريج فقه السيرة للألباني.
١٠- الرحيق المختوم للمباركفوري
١١- تيسير الكريم الرحمن للسعدي
١٢- المحرر الوجيز لابن عطية
١٣- تفسير الطبري
١٤- القول المفيد على كتاب التوحيد للعلامة ابن عثيمين
١٥- القول السديد في مقاصد التوحيد، للسعدي
١٦- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم
١٧- تفسير ابن كثير
١٨- نور التوحيد وظلمات الشرك للقحطاني
١٩- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية
٢٠- المفهم لِمَا أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي
٢١- لا تحزن للقرني
٢٢- سنن ابن ماجه
٢٣- ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة للألباني
٢٤- صحيح الترغيب والترهيب للألباني

٢٥- الصحيحة للألباني
٢٦- جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير
٢٧- سنن النَّسَائِي الكبرى
٢٨- عمل اليوم والليلة للنسائي
٢٩- صحيح ابن حبان
٣٠- الحلية لأبي نعيم
٣١- مسند أبي يعلى
٣٢- تحقيق كلمة الإخلاص للألباني
٣٣- المشكاة (التحقيق الثاني) للألباني
٣٤- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للعلامة صالح الفوزان
٣٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر
٣٦- عمل اليوم والليلة لابن السني
٣٧- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام للألباني
٣٨- هذا الحبيب محمد يا محب للعلامة أبي بكر الجزائري، المكتبة التوفيقية.
٣٩- شرح السنة للبغوي
٤٠- بلوغ المرام لابن حجر
٤١- تفسير ابن أبي حاتم
٤٢- محمد إقبال مفكرًا إسلاميًّا، للأستاذ محمد الكتاني
٤٣- شعراء الدعوة محي الدين عطية
٤٤- مصنف ابن أبي شيبة
٤٥- فضل الغنى الحميد للدكتور ياسر برهامي.
٤٦- جلاء الأفهام لابن القيم.
٤٧- تحقيق التوحيد لفضيلة الشيخ محمد حسان
٤٨- صحيح أبي داود للألباني
٤٩- القومية والغزو الفكري
٥٠- النجاة والفكاك
٥١- الولاء والبراء بين الغلو والجفاء د. حاتم بن عارف بن ناصر الشريف.

٥٢- المعجم الكبير الطبراني
٥٣- موطأ مالك
٥٤- المجموع للنووي
٥٥- الإبانة الكبرى ابن بطة
٥٦- هذه مفاهيمنا صالح آل الشيخ
٥٧- إرواء الغليل للألباني
٥٨- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا
٥٩- أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم للألباني
٦٠- القاعدة الجليلة لشيخ الإسلام
٦١- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر
٦٢- فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد للعلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
٦٣- اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام
٦٤- إغاثة اللهفان لابن القيم
٦٥- التوسل أنواعه وأحكامه" للعلامة الألباني،
٦٦- التوصل إلى حقيقة التوسل، لفضيلة الشيخ محمد نسيب الرفاعي
٦٧- الفرج بعد الشدة للتنوخي
٦٨- مدارج السالكين لابن القيم
٦٩- آفة العين وطرق الوقاية والعلاج سليمان حمد العودة - خطبة
٧٠- النهاية في غريب الأثر لابن الأثير
٧١- زاد المعاد لابن القيم
٧٢- تفسير القرطبي
٧٣- فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز
٧٤- عون العلي الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ إسلام شعبان دعدوشة.
٧٥- الدعاء ويليه العلاج بالرقى من الكتاب والسنة لسعيد بن وهف القحطاني.
٧٦- التمائم في ميزان العقيدة.
٧٧- آداب الزفاف للألباني
٧٨- السيرة النبوية لابن كثير

٧٩- البركة المفقودة – خطبة من موقع المنبر.

٨٠- إحياء علوم الدين للغالي

٨١- لسان العرب لابن منظور

٨٢- معجم مقاييس اللغة لابن فارس

٨٣- البداية والنهاية لابن كثير

٨٤- صحيح ابن ماجه للألباني

٨٥- صحيح الترمذي للألباني

٨٦- الدارمي

٨٧- الثمر المستطاب للألباني

٨٨- مجلة البيان

٨٩- تاريخ دمشق لابن عساكر

٩٠- الجواب الكافي لابن القيم

٩١- شروط الدعاء وموانع الإجابة ، لسعيد بن وهف القحطاني.

٩٢- الدرر السنية في الأجوبة النجدية عبد الرحمن بن محمد بن قاسم

٩٣- تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد محمد بن الأمير الصنعاني

٩٤- شرح الصدور بتحريم رفع القبور للشوكاني

٩٥- خطب الشيخ محمد حسان مكتبة فياض.

٩٦- الرد على البكري لشيخ الإسلام

٩٧- جامع العلوم والحكم لابن رجب

٩٨- فتح الله الحميد المجيد للشيخ حمد بن محسن

٩٩- تعظيم قدر الصلاة للمروزي

١٠٠- قصص الأنبياء، لابن كثير.

١٠١- الشفاعة، للعلامة مقبل بن هادي الوادعي.

١٠٢- شعب الإيمان للبيهقي

١٠٣- صحيح ابن خزيمة

١٠٤- النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير

١٠٥- الشريعة للآجري

١٠٦- "الأسماء والصفات" البيهقي
١٠٧- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي
١٠٨- اعتقاد الإمام المبجل أحمد ابن حنبل – عبد الواحد التميمي
١٠٩- العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) للسفاريني
١١٠- شرح العقيدة الواسطية للعلامة محمد خليل هراس
١١١- حلية الأولياء لأبي نعيم
١١٢- أسد الغابة في معرفة لابن الأثير
١١٣- سير أعلام النبلاء للذهبي
١١٤- إغاثة اللهفان لابن القيم
١١٥- الحجة لقوام السنة، للأصفهاني
١١٦- الصواعق المرسلة، لابن القيم
١١٧- اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام
١١٨- تلبيس إبليس، لابن الجوزي
١١٩- قرة عيون الموحدين (مجموعة التوحيد) للشيخ عبد الرحمن بن حسن
١٢٠- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم
١٢١- انحرافات القبوريين... الداء الدواء د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
١٢٢- العاقبة في ذكر الموت للإمام عبد الحق الأشبيلي، المعروف بابن الخراط
١٢٣- الأم للشافعي
١٢٤- أحكام الجنائز للألباني
١٢٥- الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي
١٢٦- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد للألباني
١٢٧- خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي
١٢٨- الصوفية والوجه الآخر للدكتور جميل غازي رحمه الله، وهو مقالات جمعها د. عبد المنعم الجداوي.
١٢٩- فتاوى كبار علماء الأزهر الشريف حول الأضرحة والقبور رسالة صادرة عن دار اليسر
١٣٠- نيل الأوطار للشوكاني
١٣١- الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة

١٣٢- درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام

١٣٣- الجواب الكافي لابن القيم

١٣٤- سيرة ابن هشام

١٣٥- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي

١٣٦- السيرة النبوية، لفضيلة الشيخ سعود الشريم.

١٣٧- اركب معنا للعريفي

١٣٨- تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب

١٣٩- نداء القرآن إلى عباد الرحمن لناصر بن يحيى بن ناصر الحنيني.

١٤٠- محرمات استهان بها الناس يجب الحذر منها لفضيلة الشيخ محمد صالح المنجد

١٤١- منهاج الفرقة الناجية والطائفة المنصورة لفضيلة الشيخ محمد بن جميل زينو.

١٤٢- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة...والعقل، الدكتور ربيع بن هادي مدخلي بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٤٣- "التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة " للعلامة عبد العزيز بن باز -رحمه الله وطيب ثراه-.

١٤٤- الصادعون بالحق – خطبة من موقع المنبر.

١٤٥- عالم السحر والشعوذة للدكتور عمر الأشقر.

١٤٦- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن

١٤٧- مسائل عبد الله بن أحمد

١٤٨- السحر حقيقته وحكمه، خطبة للشيخ سليمان حمد العودة.

١٤٩- كيف تتخلص من السحر؟ عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار.

١٥٠- روح المعاني للآلوسى

١٥١- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي

١٥٢- الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي ٥٤٤ هـ، بحاشية: العلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى ٨٧٣.

١٥٣- عون المعبود شرح سنن أبي داود محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب

١٥٤- الكبائر المنسوب للذهبي

١٥٥- شرح كتاب التوحيد للعلامة ابن باز

١٥٦- شرح النووي على مسلم

١٥٧- دلائل النبوة للبيهقي

١٥٨- الكهانة والعرافة والتنجيم، لصالح الجبري، خطبة من موقع المنبر.

١٥٩- منهاج السنة لا بن تيمية

١٦٠- التشاؤم أو التطير – خطبة من موقع المنبر.

١٦١- المجموع المفيد، لابن عثيمين

١٦٢- الأذكار للنووي

١٦٣- التوسل أنواعه وأحكامه للألباني

١٦٤- بلسم الحياة محاضرة لفضيلة الشيخ / علي عبد الخالق القرني.

١٦٥- فتح القدير للشوكاني

١٦٦- صحيح الجامع للألباني

١٦٧- طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم

١٦٨- من مظاهر ضعف التوكل – خطبة على موقع المنبر.

١٦٩- مروج الذهب للمسعودي

١٧٠- نهاية الأرب للنويري

١٧١- علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ الشيخ محمد المجذوب، دار الشواف.

١٧٢- منهاج المسلم للجزائري

١٧٣- نزهة المجالس ومنتخب النفائس للضافوري

١٧٤- تفسير النيسابوري

١٧٥- كلمات في المحبة والخوف والرجاء للشيخ الجليل: محمد بن إبراهيم الحمد.

١٧٦- مختصر الصواعق لابن القيم

١٧٧- تخريج أحاديث الإحياء للعراقي

١٧٨- في ظلال القرآن لسيد قطب

١٧٩- شرح رياض الصالحين لابن عثيمين

١٨٠- يحبهم ويحبونه – خطبة للشيخ خالد الراشد.

١٨١- طبقات ابن سعد

١٨٢- الثقات لابن حبان

١٨٣- المنثور لابن الجوزي.

١٨٤- كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب

١٨٥- جامع العلوم والحكم لابن رجب

١٨٦- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده للعلامة القرضاوي.

١٨٧- الاقتصاد للغزالي

١٨٨- الآداب الشرعية لابن مفلح

١٨٩- حقيقة التوحيد للشيخ محمد حسان

١٩٠- لزوم التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية.

١٩١- وجوب تطبيق الحدود الشرعية لفضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق.

١٩٢- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور

١٩٣- رسالة العبودية لشيخ الإسلام.

١٩٤- وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه لسماحة العلامة عبد العزيز بن باز

١٩٥- بدائع الفوائد لابن القيم

١٩٦- فتنة التكفير للألباني

١٩٧- مسيرة العالم نحو التشريع الإسلامي للدكتور حافظ يوسف.

١٩٨- المنة شرح اعتقاد أهل السنة للشيخ الدكتور ياسر برهامي

١٩٩- التمهيد لشرح كتاب التوحيد للعلامة صالح آل الشيخ

٢٠٠- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي

٢٠١- تفسير الطبري بتحقيق الأستاذين أحمد ومحمود شاكر رحمهما الله رحمة واسعة.

٢٠٢- تحذير المسلمين من السب والاستهزاء بالدين أبو عبد الرحمن المصريُّ.

٢٠٣- أحكام القرآن لابن العربي

٢٠٤- الصارم المسلول لشيخ الإسلام

٢٠٥- صحيح الكلم الطيب للألباني

٢٠٦- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس الحميدي

٢٠٧- الإيمان بالقضاء والقدر للشيخ محمد حسان.

٢٠٨- خفقات قلب – السيرة الذاتية لفضيلة الشيخ محمد عبد السميع صقر، للمؤلف.

٢٠٩- أيسر التفاسير للجزائري

٢١٠- كتاب العرش وما روى فيه، لابن أبي شيبة.

٢١١- الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن الأأشعري

٢١٢- معارج القبول للحكمي

٢١٣- التمهيد لابن عبد البر

٢١٤- "التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل"- للمعلمي

٢١٥- مفتاح دار السعادة لابن القيم

٢١٦- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر لابن معصوم الحسني.

الفهرس